

سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم عن أمر يعقوب وقصة يوسف وكانت عند اليهود بالعبرانية فأنزل الله هذه السورة وذكر فيها قصة يوسف بالعربية لتفهمها العرب ويعرفوا معانيها والتقدير انا أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه عربيا فعلى هذا القول يجوز اطلاق اسم القرآن على بعضه لانه اسم جنس يقع على الكل والبعض واختلف العلماء هل يمكن أن يقال فى القرآن شئ بغير العربية فقال أبو عبيدة من زعم أن فى القرآن لسانا غير العربية فقد قال بغير الحق وأعظم على الله القول واحتج بهذه الآية انا أنزلناه قرآنا عربيا وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العربية مثل سجيل والمشكاة واليم واستبرق ونحو ذلك وهذا هو الصحيح المختار لان هؤلاء أعلم من أبى عبيدة بلسان العرب وكلا القولين صواب ان شاء الله تعالى ووجه الجمع بينهما ان هذه الالفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وان كانت غير عربية فى الاصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت اليهم وصارت لهم لغة فظهر بهذا البيان صحة القولين وأمكن الجمع بينهما (لعلكم تعقلون) يعنى تفهمون أيها العرب لانه نازل بلغتكم قوله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) الاصل فى معنى القصص اتباع الخبر بعضه بعضا والقاص هو الذى يأتى بالخبر على وجهه وأصله فى اللغة من قص الاثر اذا تتبعه وانما سميت الحكاية قصة لان الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيأ فشيأ والمعنى نحن نبين لك يا محمد اخبار الامم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان وقيل المراد منه قصة يوسف عليه الصلاة والسلام خاصة وانما سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التى تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الاعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك من الفوائد المذكورة فى هذه السورة الشريفة قال خالد بن معدان سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة فى الجنة وقال عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها وقوله تعالى (بما أوحينا اليك) يعنى بايحائنا اليك يا محمد (هذا القرآن وان كنت) أى وقد كنت (من قبله) يعنى من قبل وحينا اليك (لمن الغافلين) يعنى عن هذه القصة وما فيها من العجائب قال سعد بن أبى وقاص أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل الله نزل أحسن الحديث فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص فقالوا يا رسول الله لو ذكرتنا فأنزل الله عز وجل ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله قوله عز وجل (اذ قال يوسف لابيه) أى اذكر يا محمد لقومك قول يوسف لابيه يعقوب بن اسحق بن ابراهيم صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين (خ) عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ويوسف

(لعلكم تعقلون) لكى تفهموا معانيه ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته (نحن نقص عليك أحسن القصص) نبين لك أحسن البيان والقاص الذى يأتى بالقصة على حقيقتها عن الزجاج وقيل القصص يكون مصدرا بمعنى الاقتصاص تقول قص الحديث يقصه قصصا فيكون فعلا بمعنى مفعول كالنفض والحسب فعلى الاول معناه نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص (بما أوحينا اليك هذا القرآن) أى بايحائنا اليك هذه السورة على ان يكون أحسن منصوبا بنصب المصدر لاضافته اليه والمقصوص محذوف لان بما أوحينا اليك هذا القرآن مغن عنه والمراد باحسن الاقتصاص انه اقتص على أبدع طريقة وأعجب اسلوب فانك لا ترى اقتصاصه فى كتب الاولين مقاربا لاقتصاصه فى القرآن وان أريد بالقصص المقصوص فمعناه نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الاحاديث وانما كان أحسن لما يتضمن من العبر والحكم والعجائب التى ليست فى غيره والظاهر انه أحسن ما يقتص فى بابه كما يقال فلان أعلم الناس أى فى فنه واشتقاق القصص من قص أثره اذا تبعه لان الذى يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيأ فشيأ (وان كنت من قبله) الضمير يرجع الى ما أوحينا (لمن الغافلين) عنه ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية يعنى وان الشأن والحديث كنت من قبل ايحائنا اليك من الجاهلين به (اذ قال) بدل اشتمال من أحسن القصص لان الوقت مشتمل على القصص أو التقدير اذكر اذ قال (يوسف) اسم عبرانى لا عربى اذ لو كان عربيا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف (لابيه)

يعقوب (يا أبت) أبت شامي وهي تاء تأنيث عوضت عن ياء الاضافة لتناسبهما لأن كل واحدة منهما زائدة في آخر الاسم ولهذا قلبت هاء في الوقف وجاز الحاق تاء التأنيث بالمذكر كما في رجل ربعة وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ومن فتح التاء فقد حذف الالف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الياء في يا غلام (اني رأيت) من الرؤيا لا من الرؤية (أحد عشر كوكبا) أسماؤها ببيان النبي عليه السلام جريان والذيال والطارق وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين (والشمس والقمر) هما أبواه أو أبوه وخالته والكواكب اخوته قيل الواو بمعنى مع أي رأيت الكواكب مع الشمس والقمر وأجريت مجرى العقلاء في (رأيتهم لي ساجدين) لانه وصفها بما هو المختص بالعقلاء وهو السجود وكررت الرؤيا لان الاولى تتعلق بالذات والثانية بالحال أو الثانية كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابا له كأن أباه قال له كيف رأيتها فقال رأيتهم لي ساجدين أي متواضعين وهو حال وكان ابن ثنتي عشرة سنة يومئذ وكان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة أو ثمانون (قال يا بني) بالفتح حيث كان حفص (لا تقصص رؤياك) هي بمعنى الرؤية الا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة وفرق بينهما بحرفي التأنيث كما في القربة والقربى (على اخوتك فيكيدوا لك) جواب النهي أي ان قصصتها عليهم كادوك عرف يعقوب عليه السلام ان الله يصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين فخاف عليه حسد الاخوة وانما لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدوني لانه ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع افادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وأبلغ في التخويف وذلك نحو فيحتالوا لك الا ترى الى تأكيده بالمصدر وهو (كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين) ظاهر العداوة فيحملهم على الحسد والكيد

اسم عبري ولذلك لا يجري فيه الصرف وقيل هو عربي سئل أبو الحسن الاقطع عن يوسف فقال الاسف أشد الحزن والاسيف العبد واجتمعا في يوسف فسمي به (يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) معناه قال أهل التفسير رأى يوسف في منامه كأن أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر وكان النجوم في التأويل اخوته وكانوا أحد عشر رجلا يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس أبوه والقمر أمه في قول قتادة وقال السدي القمر خالته لان أمه راحيل كانت قد ماتت وقال قتادة وابن جريج القمر أبوه والشمس أمه لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكر وكان يوسف عليه الصلاة والسلام ابن اثنتي عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وقيل سبع سنين وأراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره وقيل أراد به حقيقة السجود لانه كان في ذلك الزمان التحية فيما بينهم السجود فان قلت ان الكواكب جماد لا تعقل فكيف عبر عنها بكناية من يعقل في قوله رأيتهم ولم يقل رأيتها وقوله ساجدين ولم يقل ساجدات قلت لما أخبر عنها بفعل من يعقل وهو السجود كنى عنها بكناية من يعقل فهو كقوله يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم وقيل ان الفلاسفة والمنجمين يزعمون أن الكواكب احياء نواطق حساسة فيجوز أن يعبر عنها بكناية من يعقل وهذا القول ليس بشيء والاول أصح فان قلت قد قال اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ثم أعاد لفظ الرؤيا ثانيا فقال رأيتهم لي ساجدين فما فائدة هذا التكرار قلت معنى الرؤيا الاولى أنه رأى اجرام الكواكب والشمس والقمر ومعنى الرؤيا الثانية انه أخبر بسجودها له وقال بعضهم معناه انه لما قال اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فكأنه قيل له كيف رأيت قال رأيتهم لي ساجدين وانما أفرد الشمس والقمر بالذكر وان كانا من جملة الكواكب للدلالة على فضلهما وشرفهما على سائر الكواكب قال أهل التفسير ان يعقوب عليه الصلاة والسلام كان شديد الحب ليوسف عليه الصلاة والسلام فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها ان اخوته وأبويه يخضعون له فلهذا (قال) يعقوب (يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك) يعني لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها (فيكيدوا لك كيدا) أي فيحتالوا في اهلاكك فأمره بكتمان رؤياه عن اخوته لان رؤيا الانبياء وحي وحق واللام في فيكيدوا لك كيدا تأكيد للصلة كقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك (ان الشيطان للانسان عدو مبين) يعني انه بين العداوة لان عداوته قديمة فهم أن أقدموا على الكيد

كان

كأنّ ذلك مضافا الى تزيين الشيطان ووسوسته (ق) عن أبي قتادة قال كنت أرى الرؤيا فأمرض حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من الشيطان فاذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها الا من يحب واذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فانها لن تضره (خ) عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هي من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن شرها ولا يذكرها لاحد فانها لن تضره (م) عن جابر رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثا وليتحول عن جنبه الذي كان عليه عن أبي رزين العقيلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا المؤمن جزء من أربعين وفي رواية جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وهي على رجل طائر ما لم يحدث بها فاذا حدث بها سقطت قال واحسبه قال ولا يحدث بها الا لبيبا او حبيبا أخرجه الترمذي ولابي داود نحوه قال الشيخ محيي الدين النووي قال المازري مذهب أهل السنة في حقيقة الرؤيا ان الله تعالى يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة فاذا خلق هذه الاعتقادات فكأنه جعلها علما على أمور أخر يخلقها في ثاني الحال والجميع خلق الله تعالى ولكن يخلق الرؤيا والاعتقادات التي يجعلها علما على ما يسر بغير حضرة الشيطان فاذا خلق ما هو علم على ما يضر يكون بحضرة الشيطان فينسب الى الشيطان مجازا وان كان لا فعل له في الحقيقة فهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم الرؤيا من الله والحلم من الشيطان لا على أن الشيطان يفعل شيأ والرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه وقال غيره اضافة الرؤيا المحبوبة الى الله تعالى اضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وان كانتا جميعا من خلق الله وتدبيره وارادته ولا فعل للشيطان فيها ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب اذا رأى الرجل في منامه ما يحب أن يحدث به من يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شرها وليتفل ثلاثا وليتحول الى جنبه الآخر فانها لا تضره فان الله تعالى جعل هذه الاسباب سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سببا لوقاية المال وغيره من البلاء والله أعلم قوله تعالى (وكذلك يجتبيك ربك) يعني يقول يعقوب ليوسف عليه الصلاة والسلام أي وكما رفع منزلتك بهذه الرؤيا الشريفة العظيمة كذلك يجتبيك ربك يعني يصطفيك ربك واجتباء الله تعالى العبد تخصيصه اياه بفيض الهي تحصل له منه أنواع الكرامات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالانبياء او ببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين (ويعلمك من تأويل الاحاديث) يعني به تعبير الرؤيا سمي تأويلا لانه يؤول أمره الى ما رأى في منامه يعني يعلمك تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم وكان يوسف عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بتعبير الرؤيا وقال الزجاج تأويل

(وكذلك) ومثل ذلك الاجتباء الذي دلت عليه رؤياك (يجتبيك ربك) يصطفيك والاجتباء والاصطفاء افتعال من جبيت الشيء اذا حصلته لنفسك وجبيت الماء في الحوض جمعته (ويعلمك) كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك (من تأويل الاحاديث) أي تأويل الرؤيا وتأويلها عبارتها وتفسيرها وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا أو تأويل أحاديث الانبياء وكتب الله وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع احدوثة

أحاديث الانبياء والامم السالفة والكتب المنزلة وقال ابن زيد يعلمك العلم والحكمة (ويتم نعمته عليك) يعني بالنبوة قاله ابن عباس لان منصب النبوة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبياء فهذا من اتمام النعمة عليهم لان جميع الخلق دونهم في الرتب والمناصب (وعلى آل يعقوب) المراد بآل يعقوب أولاده فانهم كانوا أنبياء وهو المراد من اتمام النعمة عليهم (كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق) بان جعلهما نبيين وهو المراد من اتمام النعمة عليهما وقيل المراد من اتمام النعمة على ابراهيم صلى الله عليه وسلم بان خلصه الله من النار واتخذه خليلا والمراد من اتمام النعمة على اسحق بان خلصه الله من الذبح وهذا على قول من يقول ان اسحق هو الذبيح وليس بشيء والقول الاول هو الاصح بان اتمام النعمة عليهما بالنبوة لانه لا أعظم من منصب النبوة فهو من أعظم النعم على العبد (ان ربك عليم) يعني بمصالح خلقه (حكيم) يعني انه تعالى لا يفعل شيأ الا بحكمة وقيل انه تعالى حكيم بوضع النبوة في بيت ابراهيم صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس رضي الله عنهما كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصر واجتماعه بأبويه واخوته أربعون سنة وهذا قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصري كان بينهما ثمانون سنة فلما بلغت هذه الرؤيا اخوة يوسف حسدوه وقالوا ما رضي ان يسجد له اخوته حتى يسجد له أبواه قوله عز وجل (لقد كان في يوسف واخوته) يعني في خبره وخبر اخوته وأسماؤهم روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوي ويهوذا وزبولون ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب وولد ليعقوب من سريتين اسم احداهما زلفة والاخرى بلهة أربعة أولاد وأسماؤهم دان ونفتالي وجاد وآشر ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين فهؤلاء بنو يعقوب وهم الاسباط وعددهم اثنا عشر نفرا (آيات للسائلين) وذلك ان اليهود لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان الى أرض مصر فذكر قصة يوسف مع اخوته فوجدوها موافقة لما في التوراة فعجبوا منه فعلى هذا تكون هذه القصة دالة على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء والاحبار ولم يأخذ عن أحد منهم شيأ فدل ذلك على ان ما أتى به وحي سماوي وعلم قدسي أوحاه الله اليه وشرفه به ومعنى آيات للسائلين أي عبرة للمعتبرين فان هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم ومنها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ومنها حسد اخوته له وما آل اليه أمرهم من الحسد ومنها صبر يوسف على اخوته وبلواه مثل القائه في الجب وبيعه عبدا وسجنه بعد ذلك وما آل اليه أمره من الملك ومنها ما تشتمل عليه من حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل اليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التي اذا فكر فيها الانسان اعتبر واتعظ (اذ قالوا) يعني اخوة يوسف (ليوسف) اللام فيه لام القسم تقديره والله ليوسف (وأخوه) يعني بنيامين وهما من أم واحدة (أحب الى أبينا منا

(ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) ٦ بان وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة أي جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلى في الجنة وآل يعقوب أهله وهم نسله وغيرهم وأصل آل أهل بدليل تصغيره على أهيل الا انه لا يستعمل الا فيمن له خطر يقال آل النبي وآل الملك ولا يقال آل الحجام ولكن أهله وانما علم يعقوب ان يوسف يكون نبيا واخوته أنبياء استدلالا بضوء الكواكب فلذا قال وعلى آل يعقوب (كما أتمها على أبويك من قبل) أراد الجد وأبا الجد (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك (ان ربك عليم) يعلم من يحق له الاجتباء (حكيم) يضع الاشياء مواضعها (لقد كان في يوسف واخوته) أي في قصتهم وحديثهم (آيات) علامات ودلالات على قدرة الله وحكمته في كل شيء آية مكي (للسائلين) لمن سأل عن قصتهم وعرفها أو آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب وأسماؤهم يهوذا وروبين وشمعون ولاوي وزبولون ويشجر وأمهم ليا بنت ليان ودان ونفتالي وجاد وآشر من سريتين زلفة وبلهة فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف (اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا) اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا ان زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وانما قالوا وأخوه ونحن وهم اخوته أيضا لان أمهما كانت واحدة وانما قيل أحب في الاثنين لان أفعل من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين

(ونحن عصبة) انما قالوا هذه المقالة حسدا منهم ليوسف وأخيه لما رأوا من ميل يعقوب اليه وكثرة شفقته عليه والعصبة الجماعة وكانوا عشرة قال الفراء العصبة هي العشرة فما زاد وقيل هي ما بين الواحد إلى العشرة وقيل ما بين الثلاثة الى العشرة وقال مجاهد هي ما بين العشرة الى خمسة عشر وقيل الى الاربعين وقيل الاصل فيه أن كل جماعة يتعصب بعضهم ببعض يسمون عصبة والعصبة لا واحد لها من لفظها كالرهط والنفر (ان أبانا لفي ضلال مبين) يعني انه لفي خطأ بين في ايثاره حب يوسف علينا مع صغره لا نفع فيه ونحن عصبة ننفعه ونقوم بمصالحه من أمر دنياه واصلاح أمر مواشيه وليس المراد من ذكر هذا الضلال الضلال عن الدين اذ لو أرادوا ذلك لكفروا به ولكن أرادوا به الخطأ في أمر الدنيا وما يصلحها يقولون نحن أنفع له من يوسف فهو مخطئ في صرف محبته اليه لانا أكبر منه سنا وأشد قوة وأكثر منفعة وغاب عنهم المقصود الاعظم وهو أن يعقوب عليه الصلاة والسلام ما فضل يوسف وأخاه على سائر الاخوة الا في المحبة المحضة ومحبة القلب ليس في وسع البشر دفعها ويحتمل ان يعقوب انما خص يوسف بمزيد المحبة والشفقة لان أمه ماتت وهو صغير ولانه رأى فيه من آيات الرشد والنجابة ما لم يره في سائر اخوته فان قلت الذي فعله اخوة يوسف بيوسف هو محض الحسد والحسد من أمهات الكبائر وكذلك نسبة أبيهم الى الضلال هو محض العقوق وهو من الكبائر أيضا وكل ذلك قادح في عصمة الانبياء فما الجواب عنه قلت هذه الافعال انما صدرت من اخوة يوسف قبل ثبوت النبوة لهم والمعتبر في عصمة الانبياء هو وقت حصول النبوة لا قبلها وقيل كانوا وقت هذه الافعال مراهقين غير بالغين ولا تكليف عليهم قبل البلوغ فعلى هذا لم تكن هذه الافعال قادحة في عصمة الانبياء قوله تعالى حكاية عن اخوة يوسف (اقتلوا يوسف او اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) لما قوى الحسد وبلغ النهاية قال اخوة يوسف فيما بينهم لابد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل الا باحد طريقين اما القتل مرة واحدة أو التغريب الى أرض يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه بأن تفترسه الاسد والسباع أو يموت في تلك الارض البعيدة ثم ذكروا العلة في ذلك وهي قوله يخل لكم وجه أبيكم والمعنى انه قد شغله حب يوسف عنكم فاذا فعلتم ذلك بيوسف أقبل يعقوب [illegible] عليكم وصرف محبته اليكم (وتكونوا من بعده) يعني من بعد قتل يوسف [illegible] ده عن أبيه (قوما صالحين) يعني تائبين فتوبوا الى الله يعف عنكم فتكو[illegible] صالحين وذلك انهم لما علموا ان الذي عزموا عليه من الذنوب الكبائر قالوا نتوب [illegible] من هذا الفعل ونكون من الصالحين في المستقبل وقال مقاتل معناه يصلح لكم [illegible] فيما بينكم وبين أبيكم فان قلت كيف يليق ان تصدر هذه الافعال منهم وهم أنبياء قلت الجواب ما تقدم انهم لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت حتى تكون هذه الافعال قادحة في عصمة الانبياء وانما أقدموا على هذه الافعال قبل النبوة وقيل ان الذي أشار بقتل يوسف كان أجنبيا شاوروه في ذلك فأشار عليهم بقتله (قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف) يعني قال قائل من اخوة يوسف وهو يهوذا وقال قتادة هو روبيل وهو ابن خالته وكان أكبرهم سنا وأحسنهم رأيا فيه فنهاهم عن قتله

المذكر والمؤنث ولابد من الفرق مع لام التعريف واذا أضيف ساغ الامران والواو في (ونحن عصبة) للحال أي انه يفضلهما في المحبة علينا وهما صغيران لا كفاية فيهما ونحن عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقه فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والنفعة عليهما (ان أبانا لفي ضلال مبين) غلط في تدبير أمر الدنيا ولو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا والعصبة العشرة فصاعدا (اقتلوا يوسف) من جملة ما حكي بعد قوله اذ قالوا كأنهم أطبقوا على ذلك الامن قال لا تقتلوا يوسف وقيل الآمر بالقتل شمعون والباقون كانوا راضين فجعلوا آمرين (أو اطرحوه أرضا) منكورة مجهولة بعيدة عن العمران وهو معنى تنكيرها واخلائها عن الوصف ولهذا الابهام نصبت نصب الظروف المبهمة (يخل لكم وجه أبيكم) يقبل عليكم اقبالة واحدة لا يلتفت عنكم الى غيركم والمراد سلامة محبته لهم عمن يشاركهم فيها فكان ذكر الوجه لتصوير معنى اقباله عليهم لان الرجل اذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه وجاز ان يراد بالوجه الذات كما قال ويبقى وجه ربك (وتكونوا) مجزوم عطفا على يخل لكم (من بعده) من بعد يوسف أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب أو من بعد قتله أو طرحه فيرجع الضمير الى مصدر اقتلوا أو اطرحوا (قوما صالحين) تائبين الى الله عما جنيتم عليه أو يصلح حالكم عند أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيا (لا تقتلوا يوسف) فان القتل

وقال القتل كبيرة عظيمة والاصح ان قائل هذه المقالة هو يهوذا لانه كان أقربهم اليه سنا
(وألقوه في غيابت الجب) يعني ألقوه في أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيأ
وغيبه عن النظر والجب البئر الكبيرة غير مطوية سمي بذلك لانه جب أي قطع ولم يطو
وأفاد ذكر الغيابة مع ذكر الجب ان المشير أشار بطرحه في موضع من الجب مظلم لا يراه
أحد واختلفوا في مكان ذلك الجب فقال قتادة هو بئر بيت المقدس وقال وهب هو في
أرض الاردن وقال مقاتل هو في أرض الاردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وانما
عينوا ذلك الجب للعلة التي ذكروها وهي قولهم (يلتقطه بعض السيارة) وذلك ان
هذا الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين والالتقاط أخذ الشيء من الطريق
أو من حيث لا يحتسب ومنه اللقطة بعض السيارة يعني يأخذه بعض المسافرين
فيذهب به الى ناحية أخرى فتستريحون منه (ان كنتم فاعلين) فيه اشارة الى ترك الفعل
فكأنه قال لا تفعلوا شيأ من ذلك وان عزمتم على هذا الفعل فافعلوا هذا القدر ان كنتم
فاعلين ذلك قال البغوي كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا أنبياء الا بعده وقيل لم يكونوا
بالغين وليس بصحيح بدليل انهم قالوا وتكونوا من بعده قوما صالحين وقالوا يا أبانا استغفر
لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين والصغير لا ذنب له قال محمد بن اسحق اشتمل فعلهم هذا على جرائم
كثيرة من قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر
بالامانة وترك العهد والكذب مع أبيهم وعفا الله عن ذلك كله حتى لا ييأس أحد من
رحمة الله تعالى وقال بعض أهل العلم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا
ذلك لهلكوا جميعا وكل ذلك كان قبل أن نبأهم الله فلما أجمعوا على التفريق بين يوسف
وبين والده بضرب من الحيل (قالوا) يعني قال اخوة يوسف ليعقوب (يا أبانا ما لك
لا تأمنا على يوسف) بدؤا بالانكار عليه في ترك ارسال يوسف معهم كأنهم قالوا أتخافنا
عليه اذا أرسلته معنا (وانا له لناصحون) المراد بالنصح هنا القيام بالمصلحة وقيل
البر والعطف والمعنى وانا لعاطفون عليه قائمون بمصلحته ونحفظه وقال مقاتل في
الكلام تقديم وتأخير وذلك انهم قالوا لابيهم أرسله معنا فقال يعقوب اني ليحزنني
ان تذهبوا به فحينئذ قالوا ما لك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون ثم قالوا (أرسله
معنا غدا) يعني الى الصحراء (نرتع) الرتع هو الاتساع في الملاذ يقال رتع فلان في ماله
اذا أنفقه في شهواته والاصل في الرتع أكل البهائم في الخصب زمن الربيع ويستعار
للانسان اذا أريد به الاكل الكثير (ونلعب) اللعب معروف قال الراغب يقال لعب فلان
اذا كان فعله غير قاصد به مقصدا صحيحا سئل أبو عمرو بن العلاء كيف قالوا نلعب وهم
انبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء ويحتمل أن يكون المراد باللعب هنا الاقدام على المباحات
لاجل انشراح الصدر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لجابر رضي الله عنه هلا بكرا تلاعبها
وتلاعبك وأيضا فان لعبهم كان الاستباق وهو غرض صحيح مباح لما فيه من المحاربة
والاقدام على الاقران في الحرب بدليل قوله نستبق وانما سموه لعبا لانه في صورة اللعب
وقيل معنى نرتع ونلعب ننعم ونأكل ونلهو وننشط (وانا له لحافظون) يعني نحفظه

(وألقوه في غيابت الجب) تعليم (وألقوه في غيابت الجب) في قعر البئر وما غاب منه عن عين الناظر غيابات وكذا ما بعده مدني (يلتقطه بعض السيارة) بعض الاقوام الذين يسيرون في الطريق (ان كنتم فاعلين) به شيأ (قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون) أي لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم وفيه دليل على انه أحس منهم بما أوجب ان لا يأمنهم عليه (أرسله معنا غدا نرتع) نتسع في أكل الفواكه وغيرها والرتعة السعة (ونلعب) نتفرج بما يباح كالصيد والرمي والركض بالياء فيهما مدني وبالنون فيهما مكي وشامي وكوفي وأبو عمرو وبكسر العين حجازي من ارتعى يرتعي افتعال من الرعي (وانا له لحافظون) من ان يناله مكروه

في حفظه غاية الاجتهاد حتى نرده اليك سالما (قال) يعني قال لهم يعقوب عليه الصلاة والسلام (انى ليحزننى ان تذهبوا به) اي ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ومعنى الآية انه لما طلبوا منه ان يرسل معهم يوسف عليه الصلاة والسلام اعتذر يعقوب عليه الصلاة والسلام بعذرين أحدهما ان ذهابهم به ومفارقته اياه يحزنه لانه كان لا يقدر ان يصبر عنه ساعة والثاني قوله (واخاف ان يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) يعني اذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم وذلك ان يعقوب عليه الصلاة والسلام كان رأى في المنام أن ذئبا شد على يوسف عليه الصلاة والسلام فكان يعقوب يخاف عليه من ذلك وقيل كانت الذئاب في أرضهم كثيرة (قالوا) يعني قال اخوة يوسف مجيبين ليعقوب (لئن اكله الذئب ونحن عصبة) أي جماعة عشرة رجال (انا اذا لخاسرون) يعني عجزة ضعفاء وقيل انهم خافوا ان يدعو عليهم يعقوب بالخسار والبوار وقيل معناه انا اذا لم نقدر على حفظ أخينا فكيف نقدر على حفظ مواشينا فنحن اذا خاسرون قوله عز وجل (فلما ذهبوا به) فيه اضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به (وأجمعوا ان يجعلوه في غيابت الجب) يعني وعزموا على أن يلقوه في غيابة الجب

(ذكر قصة ذهابهم بيوسف عليه الصلاة والسلام)

قال وهب وغيره من أهل السير والاخبار ان اخوة يوسف قالوا له أما تشتاق أن تخرج معنا الى مواشينا فنصيد ونستبق قال بلى قالوا له أتسأل أباك ان يرسلك معنا قال يوسف افعلوا فدخلوا بجماعتهم على يعقوب فقالوا يا أبانا ان يوسف قد أحب أن يخرج معنا الى مواشينا فقال يعقوب ما تقول يا بني قال نعم يا ابت انى أرى من اخوتي اللين واللطف فأحب ان تأذن لي وكان يعقوب يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له وارسله معهم فلما خرجوا به من عند يعقوب جعلوا يحملونه على رقابهم ويعقوب ينظر اليهم فلما بعدوا عنه وصاروا الى الصحراء القوه على الارض وأظهروا له ما في أنفسهم من العداوة واغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعل كلما جاء الى واحد منهم واستغاث به ضربه فلما فطن لما عزموا عليه من قتله جعل ينادي يا أبتاه يا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من اخوته لأحزنك ذلك وأبكاك يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك وجعل يبكي بكاء شديدا فأخذه روبيل وجلد به الارض ثم جثم على صدره واراد قتله فقال له يوسف مهلا يا أخي لا تقتلني فقال له يا ابن راحيل أنت صاحب الاحلام قل لرؤياك تخلصك من ايدينا ولوى عنقه فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله في وحل بيني وبين من يريد قتلي فأدركته رحمة الاخوة ورقة فقال يهوذا يا اخوتي ما على هذا عاهدتموني الا ادلكم على ما هو أهون لكم وارفق به فقالوا وما هو قال تلقونه في هذا الجب اما أن يموت أو يلتقطه بعض السيارة فانطلقوا به الى بئر هناك على غير الطريق واسع الاسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه في البئر فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا القميص فقال يا اخوتاه ردوا على قميصي لاستتر به في الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال اني لم أر شيئا فالقوه فيها ثم قال لهم يا اخوتاه أتدعوني فيها فريدا وحيدا وقيل جعلوه في دلو

اعتذر اليهم بان ذهابهم به مما يحزنه لانه كان لا يصبر عنه ساعة وانه يخاف عليه من عدوة الذئب اذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم (قالوا لئن أكله الذئب) اللام موطئة للقسم والقسم محذوف تقديره والله لئن اكله الذئب والواو في (ونحن عصبة) أي فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع للحال (انا اذا لخاسرون) جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط اي ان لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا اذا وخسرناها وأجابوا عن عذره الثاني دون الاول لان ذلك كان يغيظهم (فلما ذهبوا به وأجمعوا ان يجعلوه في غيابت الجب) أي عزموا على القائه في البئر وهي بئر على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام وجواب لما محذوف تقديره فعلوا به ما فعلوا من الاذى فقد روى انهم لما برزوا به الى البرية أظهروا له العداوة وضربوه وكادوا يقتلونه فمنعهم يهوذا فلما أرادوا القاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم فيحتالوا به على أبيهم ودلوه في البئر وكان فيها ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكي وكان يهوذا يأتيه بالطعام ويروى أن ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب

ثم ارسلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه ارادة أن يموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة كانت فى البئر فقام عليها وقيل نزل عليه ملك فحل يديه وأخرج له صخرة من البئر فاجلسه عليها وقيل انهم لما القوه فى الجب جعل يبكى فنادوه فظن انها رحمة ادركتهم فاجابهم فارادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وقيل ان يعقوب لما بعثه مع أخوته أخرج له قميص ابراهيم الذى كساه الله اياه من الجنة حين ألقى فى النار فجعله يعقوب فى قصبة فضة وجعلها فى عنق يوسف فالبسه الملك اياه حين ألقى فى الجب فاضاء له الجب وقال الحسن لما ألقى يوسف فى الجب عذب ماؤه فكان يكفيه عن الطعام والشراب ودخل عليه جبريل فانس به فلما أمسى نهض جبريل ليذهب فقال له انك اذا خرجت استوحشت فقال له اذا رهبت شيأ فقل ياصريخ المستصرخين وياغوث المستغيثين ويامفرج كرب المكروبين قد ترى مكانى وتعلم حالى ولا يخفى عليك شئ من أمرى فلما قالها يوسف حفته الملائكة واستأنس فى الجب وقال محمد بن مسلم الطائفى لما ألقى يوسف فى الجب قال ياشاهدا غير غائب وياقريبا غير بعيد وياغالبا غير مغلوب اجعل لى فرجا مما أنا فيه فما بات فيه واختلفوا فى قدر عمر يوسف يوم ألقى فى الجب فقال الضحاك ست سنين وقال الحسن اثنتا عشرة سنة وقال ابن السائب سبع عشرة سنة وقيل ثمان عشرة سنة وقيل مكث فى الجب ثلاثة أيام وكان اخوته يرعون حوله وكان يهوذا يأتيه بالطعام فذلك قوله تعالى (وأوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا) يعنى لتخبرن اخوتك قال اكثر المفسرين ان الله اوحى اليه وحيا حقيقة فبعث اليه جبريل يؤنسه ويبشره بالخروج ويخبره انه سينبئهم بما فعلوا ويجازيهم عليه هذا قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا هل كان بالغا فى ذلك الوقت او كان صبيا صغيرا فقال بعضهم انه كان بالغا وكان عمره خمس عشرة سنة وقال آخرون بل كان صغيرا الا ان الله عز وجل أكمل عقله ورشده وجعله صالحا لقبول الوحى والنبوة كما قال فى حق عيسى عليه الصلاة والسلام * فان قلت كيف جعله نبيا فى ذلك الوقت ولم يكن أحد يبلغه رسالة ربه لان فائدة النبوة والرسالة تبليغها الى من أرسل اليه قلت لا يمتنع ان الله يشرفه بالوحى ويكرمه بالنبوة والرسالة فى ذلك الوقت وفائدة ذلك تطييب قلبه وازالة الهم والغم والوحشة عنه ثم بعد ذلك يأمره بتبليغ الرسالة فى وقتها وقيل ان المراد من قوله وأوحينا اليه وحى الهام كما فى قوله تعالى واوحى ربك الى النحل واوحينا الى أم موسى والقول الاول أولى وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) يعنى باتحاف اليك وأنت فى البئر بانك ستخبرهم بصنيعهم هذا والفائدة فى اخفاء ذلك الوحى عنهم انهم اذا عرفوه فربما ازداد حسدهم له وقيل ان الله تعالى اوحى الى يوسف لتخبرن اخوتك بصنيعهم هذا بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون بانك أنت يوسف والمقصود من ذلك تقوية قلب يوسف عليه الصلاة والسلام وانه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت أمره وقهره قوله تعالى (وجاؤا أباهم عشاء يبكون) قال المفسرون لما طرحوا يوسف فى الجب رجعوا الى ابيهم وقت العشاء ليكونوا فى الظلمة اجترأ على الاعتذار بالكذب فلما قربوا من منزل

فى غيره ثم علقها فى عنق يوسف فاخرجه جبريل والبسه اياه (وأوحينا اليه) قيل أوحى اليه فى الصغر كما أوحى الى يحيى وعيسى عليهما السلام وقيل كان اذ ذاك مدركا (لتنبئنهم بامرهم هذا) أى لتحدثن اخوتك بما فعلوا بك (وهم لا يشعرون) انك يوسف لعلو شأنك وكبريائك وسلطانك وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه اخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وانكم ألقيتموه فى غيابة الجب وقلتم لابيه اكله الذئب وبعتموه بثمن بخس أو يتعلق وهم لا يشعرون باوحينا أى آنسناه بالوحى وأزلنا عن قلبه الوحشة وهم لا يشعرون ذلك (وجاؤا أباهم عشاء) للاستتار والتجسر على الاعتذار (يبكون) حال عن الاعمش لا تصدق باكية بعد اخوة يوسف فلما سمع صوتهم فزع وقال مالكم يابنى هل أصابكم فى غنمكم شئ قالوا لا قال فما بالكم وأين

(قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق) أى نتسابق فى العدو أو فى الرمى والافتعال والتفاعل يشتركان كالارتماء والترامى وغير ذلك (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا) بمصدق لنا 11 (ولو كنا صادقين) ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيئ الظن بنا غير واثق بقولنا (وجاؤا على قميصه بدم كذب) ذى كذب ووصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه والزور بذاته روى انهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها وزل عنهم ان يمزقوه وروى ان يعقوب عليه السلام لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال اين القميص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان فى قميص يوسف ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف حين قد من دبره وحمل على قميصه النصب على الظرف كأنه قيل وجاؤا فوق قميصه بدم (قال) يعقوب عليه السلام (بل سولت) زينت أو سهلت (لكم أنفسكم أمرا) عظيما ارتكبتموه (فصبر جميل) خبر أو مبتدا لكونه موصوفا أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل وهو ما لا شكوى فيه الى الخلق (والله المستعان) اى استعينه (على) احتمال (ما تصفون) من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه (وجاءت سيارة) رفقة تسير من قبل مدين الى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من القاء يوسف فى الجب فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وكان الجب فى قفرة بعيدة من العمران وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف (فأرسلوا واردهم) هو الذى يرد الماء ليستقى للقوم اسمه مالك بن ذعر الخزاعى (فأدلى دلوه)

يعقوب جعلوا يبكون ويصرخون فسمع أصواتهم ففزع من ذلك وخرج اليهم فلما رآهم قال بالله سألتكم يا بنى هل أصابكم شئ فى غنمكم قالوا لا قال فما أصابكم وأين يوسف (قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق) قال ابن عباس يعنى ننتضل وقال الزجاج يسابق بعضنا بعضا فى الرمى والاصل فى السبق الرمى بالسهم وهو التناضل أيضا وسمى المتراميان بذلك يقال تسابقا واستبقا اذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أبعد سهما وقال السدى يعنى نشتد ونعدو والمعنى نستبق على الاقدام ليتبين أينا أسرع عدوا وأخف حركة وقال مقاتل نتصيد والمعنى نستبق الى الصيد (وتركنا يوسف عند متاعنا) يعنى عند ثيابنا (فأكله الذئب) يعنى فى حال استباقنا وغفلتنا عنه (وما أنت بمؤمن لنا) يعنى وما أنت بمصدق لنا (ولو كنا صادقين) يعنى فى قولنا والمعنى انا وان كنا صادقين لكنك لا تصدق لنا قولا لشدة محبتك ليوسف فانك تتهمنا فى قولنا هذا وقيل معناه انا وان كنا صادقين فانك لم تصدقنا لانه لم تظهر عندك امارة تدل على صدقنا (وجاؤا على قميصه) يعنى قميص يوسف (بدم كذب) أى مكذوب فيه قال ابن عباس انهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف ثم جاؤا أباهم وفى القصة انهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه فقال يعقوب لهم كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه فاتهمهم بذلك وقيل انهم أتوه بذئب وقالوا هذا أكله فقال يعقوب أيها الذئب أنت أكلت ولدى وثمرة فؤادى فأنطقه الله عز وجل وقال والله ما أكلته ولا رأيت ولدك قط ولا يحل لنا ان نأكل لحوم الانبياء فقال يعقوب فكيف وقعت بأرض كنعان فقال جئت لصلة الرحم وهى قرابة لى فأخذونى وأتوا بى اليك فأطلقه يعقوب ولما ذكر اخوة يوسف ليعقوب هذا الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم (قال) يعقوب (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) يعنى بل زينت لكم أنفسكم أمرا وأصل التسويل تقدير معنى فى النفس مع الطمع فى اتمامه وقال صاحب الكشاف سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء أى سهلت لكم أنفسكم أمرا عظيما ارتكبتموه من يوسف وهونتموه فى أنفسكم وأعينكم فعلى هذا يكون معنى قوله بل ردا لقولهم فأكله الذئب كأنه قال ليس الامر كما تقولون أكله الذئب بل سولت لكم أنفسكم أمرا آخر غير ما تصفون (فصبر جميل) اى فشأنى صبر جميل وقيل معناه فصبرى صبر جميل والصبر الجميل الذى لا شكوى فيه ولا جزع وقيل من الصبر ان لا تحدث بمصيبتك ولا تزكين نفسك (والله المستعان على ما تصفون) يعنى من القول الكذب وقيل معناه والله المستعان على حمل ما تصفون قوله عز وجل (وجاءت سيارة) وهم القوم المسافرون سموا سيارة لمسيرهم فى الارض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا من الجب الذى كان فيه يوسف وكان فى قفرة بعيدة من العمارة ترده الرعاة والمارة وكان ماؤه ملحا فلما ألقى يوسف فيه عذب فلما نزلوا أرسلوا رجلا من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر الخزاعى ليطلب لهم الماء فذلك قوله عز وجل (فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه) قال والوارد

هو الذي يتقدم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء يقال ادليت الدلو اذا أرسلتها في البئر
ودلوتها اذا أخرجتها قال فتعلق يوسف عليه الصلاة والسلام بالحبال وكان يوسف عليه
السلام أحسن ما يكون من الغلمان وذكر البغوى بسند متصل ان النبي صلى الله عليه
وسلم قال اعطى يوسف شطر الحسن ويقال انه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت قد
أعطيت سدس الحسن قال محمد بن اسحق ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن وحكى الثعلبي
عن كعب الاحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق
أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا
تبسم رأيت النور من ضواحكه واذا تكلم رأيت شعاع النور من ثناياه ولا يستطيع أحد
وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه الصلاة والسلام يوم خلقه
الله وصورته قبل أن يصيب الخطيئة قالوا فلما خرج يوسف ورآه مالك بن ذعر كأحسن
ما يكون من الغلمان (قال) يعني الوارد وهو مالك بن ذعر (يا بشراى) يعني يقول الوارد
لاصحابه ابشروا (هذا غلام) وقرئ يا بشرى بغير اضافة ومعناه ان الوارد نادى رجلا من
أصحابه اسمه بشرى كما تقول يا زيد ويقال ان جدران البئر بكت على يوسف حين خرج
منها (وأسروه بضاعة) قال مجاهد أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين كانوا معهم
وقالوا انه بضاعة استبضعناه لبعض أهل المال الى مصر وانما قالوا ذلك خيفة أن يطلبوا
منهم الشركة فيه وقيل ان اخوة يوسف أسروا شأن يوسف يعني انهم أخفوا أمر يوسف
وكونه أخاهم بل قالوا هو عبد لنا أبق وصدقهم يوسف على ذلك لانهم توعدوه بالقتل
سرا من مالك بن ذعر وأصحابه والقول الاول أصح لان مالك بن ذعر هو الذي أسره بضاعة
وأصحابه (والله عليم بما يعملون) يعني من ارادة اهلاك يوسف فجعل ذلك سببا لنجاته
وتحقيقا لرؤياه ان يصير ملك مصر بعد ان كان عبدا قال أصحاب الاخبار ان يهوذا كان
يأتي يوسف بالطعام فأتاه فلم يجده في الجب فأخبر اخوته بذلك فطلبوه فاذا هم بمالك بن
ذعر وأصحابه نزولا قريبا من البئر فأتوهم فاذا يوسف عندهم فقالوا لهم هذا عبد لنا أبق منا
ويقال انهم هددوا يوسف حتى يكتم حاله ولا يعرفها وقال لهم مثل قولهم ثم انهم باعوه منهم
فذلك قوله تعالى (وشروه) أي باعوه وقد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشيء
بمعنى بعته وانما وجب حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير في وشروه وفي وكانوا فيه من
الزاهدين يرجع الى شيء واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل ان الضمير في
وشروه يعود على مالك بن ذعر وأصحابه فعلى هذا القول يكون لفظ الشراء على بابه (بثمن
بخس) قال الحسن والضحاك ومقاتل والسدى بخس أي حرام لان ثمن الحر حرام وتسمى
الحرام بخسا لانه مبخوس البركة يعني منقوصها وقال ابن مسعود وابن عباس بخس أي
زيوف ناقصة العيار وقال قتادة بخس أي ظلم والظلم نقصان الحق يقال ظلمه اذا نقصه حقه
وقال عكرمة والشعبي بخس أي قليل وعلى الاقوال كلها فالبخس في اللغة هو نقص الشيء
على سبيل الظلم والبخس والباخس الشيء الطفيف (دراهم معدودة) فيه اشارة الى قلة
تلك الدراهم لانهم في ذلك الزمان ما كانوا يزنون أقل من أربعين درهما انما كانوا يأخذون

أرسل الدلو تعلق بها فتشبث يوسف
بالدلو فنزعوه (قال يا بشرى)
كوفي نادى البشرى كأنه يقول
تعالى فهذا أوانك غيرهم بشراى
على اضافتها الى نفسه أو هو اسم
غلامه فناداه مضافا الى نفسه
(هذا غلام) قيل ذهب به فلما دنا
من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به
(وأسروه) الضمير للوارد وأصحابه
أخفوه من الرفقة أو لاخوة
يوسف فانهم قالوا للرفقة هذا
غلام لنا قد أبق فاشتروه منا
وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه
(بضاعة) حال أي أخفوه متاعا
للتجارة والبضاعة ما بضع من
المال للتجارة أي قطع (والله عليم
بما يعملون) بما يعمل اخوة
يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء
الصنيع (وشروه) وباعوه (بثمن
بخس) مبخوس ناقص عن القيمة
نقصانا ظاهرا أو زيف (دراهم
معدودة) قليلة تعد
بدل من ثمن لانهم كانوا يعدون
عدا ولا يوزن الا الاربعين
مادون الاربعين ويزنون الاربعين
وما فوقها وكانت عشرين درهما

مادونها عددا فاذا بلغت أربعين درهما وهي أوقية وزنوها واختلفوا في عدة تلك الدراهم فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين فعلى هذا القول لم يأخذ اخوه من أمه وأبيه شيأ منها وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما فعلى هذا أخذ أخوه منها درهمين لانهم كانوا أحد عشر أخا وقال عكرمة كانت أربعين درهما (وكانوا فيه من الزاهدين) يعني وكان اخوة يوسف في يوسف من الزاهدين وأصل الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا اذا لم يكن له فيه رغبة والضمير في قوله وكانوا فيه من الزاهدين ان قلنا انه يرجع الى اخوة يوسف كان وجه زهدهم فيه انهم حسدوه وأرادوا ابعاده عنهم ولم يكن قصدهم تحصيل الثمن وان قلنا ان قوله وشروه وكانوا فيه من الزاهدين يرجع الى معنى واحد وهو ان الذين شروه كانوا فيه من الزاهدين كان وجه زهدهم فيه اظهار قلة الرغبة فيه ليشتروه بثمن بخس قليل ويحتمل أن يقال ان اخوته لما قالوا انه عبد لنا وقد ابق أظهر المشتري قلة الرغبة فيه لهذا السبب قال أصحاب الاخبار ثم ان مالك بن ذعر وأصحابه لما اشتروا يوسف انطلقوا به الى مصر وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لا يأبق منكم فذهبوا به حتى قدموا مصر فعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس وكان قطفير صاحب أمر الملك وكان على خزائن مصر وكان يسمى العزيز وكان الملك بمصر ونواحيها اسمه الريان بن الوليد بن نزوان وكان من العماليق وقيل ان هذا الملك لم يمت حتى آمن بيوسف واتبعه على دينه ثم مات ويوسف عليه الصلاة والسلام حي قال ابن عباس لما دخلوا مصر لقي قطفير مالك بن ذعر فاشترى يوسف منه بعشرين دينارا وزوج نعل وثوبين أبيضين وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر ودخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه أربعمائة رطل وكان عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة أو سبع عشرة سنة فابتاعه قطفير بهذا الثمن فذلك قوله تعالى (وقال الذي اشتراه من مصر) يعني قطفير من أهل مصر (لامرأته) وكان اسمها راعيل وقيل زليخا (اكرمي مثواه) يعني اكرمي منزله ومقامه عندك والمثوى موضع الاقامة وقيل اكرميه في المطعم والملبس والمقام (عسى أن ينفعنا) يعني ان أردنا بيعه بعناه بربح أو يكفينا بعض أمورنا ومصالحنا اذا قوي وبلغ (أو نتخذه ولدا) يعني نتبناه وكان حصورا ليس له ولد قال ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة العزيز في يوسف حيث قال لامرأته اكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وابنة شعيب في موسى حيث قالت لابيها استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين وأبو بكر في عمر حيث استخلفه بعده (وكذلك مكنا ليوسف في الارض) يعني كما مننا على يوسف بان انقذناه من القتل وأخرجناه من الجب كذلك مكناه في الارض يعني أرض مصر فجعلناه على خزائنها (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) أي مكناه في الارض لكي نعلمه من تأويل الاحاديث يعني عبارة الرؤيا وتفسيرها (والله غالب على

(وكانوا فيه من الزاهدين) ممن يرغب عما في يده فيبيعه بالثمن الطفيف أو معنى وشروه واشتروه يعني الرفقة من اخوته وكانوا فيه من الزاهدين أي غير راغبين لانهم اعتقدوا انه آبق ويروى ان اخوته ١٣ اتبعوهم وقالوا استوثقوا منه لا يأبق وفيه ليس من صلة الزاهدين أي غير راغبين لان الصلة لا تتقدم على الموصول وانما هو بيان كأنه قيل في أي شيء زهدوا فقال زهدوا فيه (وقال الذي اشتراه من مصر) هو قطفير وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد وقد آمن بيوسف ومات في حياته واشتراه العزيز بزنته ورقا وحريرا ومسكا وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) راعيل او زليخا واللام متعلقة بقال لا باشتراه (أكرمي مثواه) اجعلي منزلته ومقامه عندنا كريما أي حسنا مرضيا بدليل قوله انه ربي أحسن مثواي وعن الضحاك بطيب معاشه ولين لباسه ووطيء فراشه (عسى أن ينفعنا) لعله اذا تدرب وراض الامور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله (أو نتخذه ولدا) أو نتبناه ونقيمه مقام الولد وكان قطفير عقيما وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك (وكذلك) اشارة الى ما تقدم من انجائه وعطف قلب العزيز عليه والكاف منصوب تقديره ومثل ذلك الانجاء والعطف (مكنا ليوسف) أي كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز كذلك مكناه (في الارض) أي أرض مصر وجعلناه ملكا يتصرف فيها بامره ونهيه (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) كان ذلك الانجاء والتمكين (والله غالب على

أمره) لا يمنع عما شاء أو على أمر يوسف بتبليغه ما أراد له دون ما أراد اخوته (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك (ولما بلغ أشده) منتهى استعداد قوته وهو ثمان عشرة سنة او احدى وعشرون (آتيناه حكما وعلما) حكمة وهو العلم مع العمل واجتناب ما يجهل فيه أو حكما بين الناس ١٤ وفقها (وكذلك نجزي المحسنين) تنبيه على انه كان محسنا في عمله متقيا في عنفوان أمره (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) أي طلبت يوسف أن يواقعها والمراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب كأن المعنى خادعته عن نفسه اي فعلت فعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه وهي عبارة عن التمحل لمواقعته اياها (وغلقت الابواب) وكانت سبعة (وقالت هيت لك) هو اسم لتعال واقبل وهو مبني على الفتح هيت مكي بناء على الضم هئت مدني وشامي واللام للبيان كأنه قيل لك أقول هذا كما تقول هلم لك (قال معاذ الله) أعوذ بالله معاذا (انه) أي ان الشان والحديث (ربي) سيدي ومالكي يريد قطفير (أحسن مثواي) حين قال لك أكرمي مثواه فما جزاؤه أن أخونه في أهله (انه لا يفلح الظالمون) الخائنون أو الزناة أو اراد بقوله انه ربي الله تعالى لانه مسبب الاسباب (ولقد همت به) هم عزم (وهم بها) هم الطباع مع الامتناع قاله الحسن وقال الشيخ أبو منصور رحمه الله وهم بها هم خطرة ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بانه من عباده المخلصين وقيل وهم بها وشارف أن يهم بها الآية يقال هم بالامر اذا قصده وعزم عليه وجواب (لولا ان رأى برهان ربه) محذوف أي لكان ما كان وقيل وهم بها جوابه ولا يصح لان جواب لولا لا يتقدم عليها لانه في حكم الشرط وله صدر الكلام والبرهان الحجة ويجوز ان يكون وهم بها داخلا في حكم القسم في قوله ولقد همت به ويجوز أن يكون خارجا ومن حق القارئ اذا قدر خروجه من حكم القسم وجعله كلاما برأسه

أمره) قيل الكناية في أمره راجعة الى الله تعالى ومعناه والله غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا دافع لامره ولا راد لقضائه ولا يغلبه شيء وقيل هي راجعة الى يوسف ومعناه ان الله مستول على أمر يوسف بالتدبير والاحاطة لا يكله الى أحد سواه حتى يبلغ منتهى ما علمه فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعني ما هو صانع بيوسف وما يريد منه (ولما بلغ أشده) يعني منتهى شبابه وشدته وقوته قال مجاهد ثلاثة وثلاثون سنة وقال الضحاك عشرون سنة وقال السدي ثلاثون سنة وقال الكلبي الاشد ما بين ثمان عشرة سنة الى ثلاثين سنة وسئل مالك عن الاشد فقال هو الحلم (آتيناه حكما وعلما) يعني آتينا يوسف بعد بلوغ الاشد نبوة وفقها في الدين وقيل حكما يعني اصابة في القول وعلما بتأويل الرؤيا وقيل الفرق بين الحكيم والعالم ان العالم هو الذي يعلم الاشياء بحقائقها والحكيم هو الذي يعمل بما يوجبه العلم وقيل الحكمة حبس النفس عن هواها وصونها عما لا ينبغي والعلم هو العلم النظري (وكذلك) يعني وكما انعمنا على يوسف بهذه النعم كلها كذلك (نجزي المحسنين) قال ابن عباس يعني المؤمنين وعنه أيضا المهتدين وقال الضحاك يعني الصابرين على النوائب كما صبر يوسف (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) يعني ان امرأة العزيز طلبت من يوسف الفعل القبيح ودعته الى نفسها ليواقعها (وغلقت الابواب) أي أطبقتها وكانت سبعة لان مثل هذا الفعل لا يكون الا في ستر وخفية أو انها أغلقتها لشدة خوفها (وقالت هيت لك) أي هلم واقبل قال أبو عبيدة كان الكسائي يقول هي لغة لاهل حوران رفعت الى الحجاز معناها تعال وقال عكرمة أيضا بالحورانية هلم وقال مجاهد وغيره هي لغة عربية وهي كلمة حث واقبال على الشيء وقيل هي بالعبرانية وأصلها هيتالج أي تعال فعربت فقيل هيت لك فمن قال انها بغير لغة العرب يقول ان العرب وافقت أصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنور ولغة العرب الترك في الغساق ولغة العرب الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فان العرب اذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وقرئ هئت لك بكسر الهاء مع الهمزة ومعناها تهيأت لك (قال) يعني يوسف (معاذ الله) أي اعوذ بالله واعتصم به والجأ اليه فيما دعوتني اليه (انه ربي) يعني ان العزيز قطفير سيدي (أحسن مثواي) أي اكرم منزلتي فلا اخونه وقيل ان الهاء في انه ربي راجعة الى الله تعالى والمعنى يقول ان الله ربي أحسن مثواي يعني انه آواني ومن بلاء الجب نجاني (انه لا يفلح الظالمون) يعني ان فعلت هذا الفعل فانا ظالم ولا يفلح الظالمون وقيل معناه انه لا يسعد الزناة قوله عز وجل (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) الآية هذه

الآية الكريمة مما يجب الاعتناء بها والبحث عنها والكلام عليها في مقامين * الاول في ذكر أقوال المفسرين في هذه الآية قال المفسرون الهم هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه وقيل الهم مصدر هممت بالشئ إذا أردته وحدثتك نفسك به وقاربته من غير دخول فيه فمعنى قوله ولقد همت به أي أرادته وقصدته فكان همها به عزمها على المعصية والزنا وقال الزمخشري هم بالامر اذا قصده وعزم عليه قال الشاعر وهو عمرو بن ضابئ البرجمي *

هممت ولم افعل وكدت وليتني * تركت على عثمان تبكي حلائله

وقوله واقد همت به معناه ولقد همت بمخالطته وهم بها أي وهم بمخالطتها لولا ان رأى برهان ربه جوابه محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها قال البغوي وأما همه بها فروى عن ابن عباس انه قال حل الهميان وجلس منها مجلس الخائن وقال مجاهد حل سراويله وجعل يعالج ثيابه وهذا قول أكثر المفسرين منهم سعيد بن جبير والحسن وقال الضحاك جرى الشيطان بينهما فضرب بيده الى جيد يوسف وبيده الاخرى الى جيد المرأة حتى جمع بينهما قال أبو عبيدة القاسم بن سلام وقد أنكر قوم هذا القول قال البغوي والقول ما قاله قدماء هذه الامة وهم كانوا أعلم بالله ان يقولوا في الانبياء من غير علم قال السدي وابن اسحق لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه الى نفسها فقالت يا يوسف ما أحسن شعرك قال هو أول ما ينتثر عن جسدي قالت ما احسن عينيك قال هي أول ما يسيل على خدي في قبري قالت ما أحسن وجهك قال هو للتراب يأكله وقيل انها قالت له ان فراش الحرير مبسوط قم فاقض حاجتي قال اذا يذهب نصيبي من الجنة فلم تزل تطمعه وتدعوه الى اللذة وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل وهي امرأة حسناء جميلة حتى لان لها لما يرى من كلفها به فهم بها ثم ان الله تدارك عبده يوسف بالبرهان الذي ذكره وسيأتي الكلام على تفسير البرهان الذي رآه يوسف عليه الصلاة والسلام فهذا ما قاله المفسرون في هذه الآية * اما المقام الثاني في تنزيه يوسف عليه الصلاة والسلام عن هذه الرذيلة وبيان عصمته من هذه الخطيئة التي ينسب اليها قال بعض المحققين الهم همان فهم ثابت وهو ما كان معه عزم وقصد وعقيدة رضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة في القلب وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف فالعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل به ويدل على صحة هذا ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى اذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فان عملها فاكتبوها عليه سيئة واحدة واذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها له عشرة انفرد مسلم وللبخاري بمعناه (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه عز وجل قال ان الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فان هم بها وعملها كتبها الله له عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله له

أن يقف على به ويقتدى بقوله وهم بها وفيه أيضا اشعار بالفرق بين الهمين وفسرهم يوسف بانه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الاربع وهي مستلقية على قفاها وفسر البرهان بانه سمع صوتا اياك واياها مرتين فسمع ثالثا أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على انملته وهو باطل ويدل على بطلانه قوله هي راودتني عن نفسي ولو كان ذلك منه أيضا لما برأ نفسه من ذلك وقوله كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفا عنه وقوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ولو كان كذلك لخانه بالغيب وقوله ما علمنا عليه من سوء الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ولانه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره كما كان لآدم ونوح وذي النون وداود عليهم السلام وقد سماه الله مخلصا فعلم بالقطع انه ثبت في ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولي العزم ناظرا في دلائل التحريم حتى استحق من الله الثناء

عنده حسنة وان هو همّ بها فعملها كتبها الله عليه سيئة واحدة زاد في رواية أو محاها
ولن يهلك على الله الا هالك قال القاضي عياض في كتابه الشفاء نعم على مذهب كثير من
الفقهاء والمحدثين ان همّ النفس لا يؤاخذ به وليس سيئة وذكر الحديث المتقدم فلا
معصية في همّ يوسف اذاً وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فان الهمّ اذا
وطنت عليه النفس كان سيئة وأما ما لم توطن عليه النفس من همومها وخواطرها فهو
المعفو عنه هذا هو الحق فيكون ان شاء الله همّ يوسف من هذا ويكون قوله وما أبرئ
نفسي الآية أي ما أبرئها من هذا الهم أو يكون ذلك على طريق التواضع والاعتراف
بمخالفة النفس لما زكي قبل وبرئ فكيف وقد حكى أبو حاتم عن أبي عبيدة ان يوسف عليه
الصلاة والسلام لم يهم وان الكلام فيه تقديم وتأخير اي ولقد همت به ولولا ان رأى برهان
ربه لهم بها وقال تعالى حاكيا عن المرأة ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وقال تعالى كذلك
لنصرف عنه السوء والفحشاء وقال تعالى وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله
الآية وقيل في قوله وهمّ بها أي بزجرها ووعظها وقيل همّ بها أي همها امتناعه وقيل همّ
بها أي نظر اليها وقيل همّ بضربها ودفعها وقيل هذا كله كان قبل نبوته وقد ذكر بعضهم
ما زال النساء يملن الى يوسف ميل شهوة ولزليخا حتى نبأه الله فألقى عليه هيبة النبوة فشغلت
هيبته كل من رآه عن حسنه هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله وأما الامام فخر الدين
فذكر في هذا المقام كلاما طويلا مبسوطا وأنا أذكر بعضه ملخصا فاقول قال الامام فخر
الدين الرازي ان يوسف عليه الصلاة والسلام كان بريئا من العمل الباطل والهم المحرم
وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب فان الدلائل قد دلت
على عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا يلتفت الى ما نقله بعض المفسرين عن الائمة
المتقدمين فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموها
واتبعوها باظهار الندامة والتوبة والاستغفار كما ذكر عن آدم عليه السلام في قوله ربنا
ظلمنا أنفسنا الآية وقال في حق داود عليه الصلاة والسلام فاستغفر ربه وخر راكعا واناب
وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فلم يحك عنه شيأ من ذلك في هذه الواقعة لانه لو صدر
منه شئ لاتبعه بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله ذلك عنه في كتابه كما ذكر
عن غيره من الانبياء وحيث لم يحك عنه شيأ علمنا براءته مما قيل فيه ولم يصدر عنه شئ كما نقله
أصحاب الاخبار ويدل على ذلك أيضا ان كل من كان له تعلق بهذه الواقعة فقد شهد ببراءة
يوسف عليه السلام مما نسب اليه واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف والمرأة
وزوجها والنسوة اللاتي قطعن ايديهن والمولود الذي شهد على القميص شهدوا ببراءته
والله تعالى شهد ببراءته من الذنب أيضا أما بيان ان يوسف ادعى براءته مما نسب اليه
فقوله هي راودتني عن نفسي وقوله رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه وأما بيان ان
المرأة اعترفت على نفسها واعترفت ببراءة يوسف ونزاهته فقولها أنا راودته عن نفسه
فاستعصم وقولها الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين واما بيان
ان زوج المرأة اعترف ايضا ببراءة يوسف فقوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف

أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين وأما شهادة المولود ببراءته فقوله وشهد شاهد من أهلها الآية وأما شهادة الله له بذلك فقوله تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ومن كان كذلك فليس للشيطان عليه سلطان بدليل قوله لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين وبطل بهذا قول من قال ان الشيطان جرى بينهما حتى أخذ بجيده وجيد المرأة حتى جمع بينهما فانه قول منكر لا يجوز لأحد أن يقول ذلك وأما ما روى عن ابن عباس انه جلس منها مجلس الخائن فحاشى ابن عباس أن يقول مثل هذا عن يوسف عليه الصلاة والسلام ولعل بعض أصحاب القصص وأصحاب الاخبار وضعوه على ابن عباس وكذلك ما روى عن مجاهد وغيره أيضا فانه لا يكاد يصح بسند صحيح وبطل ذلك كله وثبت ما بيناه من براءة يوسف عليه الصلاة والسلام من هذه الرذيلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وما صدر من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام *فان قلت فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله عز وجل لولا أن رأى برهان ربه فائدة *قلت فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين أحدهما انه تعالى أعلم يوسف انه لو همّ بدفعها لقتلته فأعلمه بالبرهان ان الامتناع من ضربها أولى صونا للنفس عن الهلاك الوجه الثاني انه عليه الصلاة والسلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه لتعلقت به فكاد في ذلك ان يتمزق ثوبه من قدام وكان في علم الله أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن واذا تمزق من خلف كانت هي الخائنة فأعلمه الله بالبرهان هذا المعنى فلم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربا فأثبت بذلك الشاهد حجة له لا عليه وأما تفسير البرهان على ما ذكره المفسرون في قوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه فقال قتادة وأكثر المفسرين ان يوسف رأى صورة يعقوب عليه السلام وهو يقول له يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب من الانبياء وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضا على اصبعه وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله وقال السدي نودي يا يوسف أتواقعها انما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جو السماء لا يطاق عليه وان مثلك ان واقعتها كمثله اذا وقع على الارض لا يستطيع ان يدفع عن نفسه شيأ ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق ومثلك ان واقعتها كمثله اذا مات ودخل النمل في قرنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه وقيل انه رأى معصما بلا عضد عليه مكتوب وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون فولى هاربا ثم رجع فعاد المعصم وعليه مكتوب ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فولى هاربا ثم عاد فرأى ذلك الكف وعليه مكتوب واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله الآية ثم عاد فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدي يوسف قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عاضا على اصبعه يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله من الانبياء وقيل انه مسه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله قال محمد بن كعب القرظي رفع يوسف رأسه الى سقف البيت فرأى كتابا في حائط فيه ولا تقربوا الزنا انه كان

ومحل الكاف في (كذلك) نصب أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه أو رفع أي الامر مثل ذلك (لنصرف عنه السوء) خيانة السيد (والفحشاء) الزنا (انه من عبادنا المخلصين) بفتح اللام حيث كان مدني وكوفي أي الذين أخلصهم الله لطاعته وبكسرها غيرهم أي الذين أخلصوا دينهم لله ومعنى من عبادنا بعض عبادنا أي هو مخلص من جملة المخلصين (واستبقا الباب) وتسابقا الى الباب هي للطلب وهو للهرب على حذف الجار وايصال الفعل كقوله واختار موسى قومه أو على تضمين استبقا معنى ابتدرا فقر منها يوسف فاسرع يريد الباب ليخرج واسرعت وراءه لتمنعه الخروج ووحد الباب وان كان جمعه في قوله وغلقت الابواب لانه أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار ولما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من خلفه فانقد أي انشق حين هرب منها الى الباب وتبعته تمنعه (وألفيا سيدها لدى الباب) وصادفا بعلها قطفير مقبلا يريد أن يدخل فلما رأته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة ولتخويف يوسف طمعا في أن يواطئها خيفة منها ومن مكرها حيث (قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن أو عذاب أليم) ما نافية أي ليس جزاؤه الا السجن أو عذاب أليم وهو الضرب بالسياط ولم تصرح بذكر يوسف وأنه أرادها سوأ لانها قصدت العموم أي كل من أراد بأهلك سوأ فحقه أن يسجن أو يعذب لان ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف ولما عرضته للسجن والعذاب ووجب عليه الدفع عن نفسه (قال هي راودتني عن نفسي) ولولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها

فاحشة وساء سبيلا وفي رواية عن ابن عباس انه رأى مثال ذلك الملك وعن علي بن الحسين قال كان في البيت صنم فقامت المرأة اليه وسترته بثوب فقال لها يوسف عليه السلام لم فعلت هذا فقالت استحييت منه أن يراني على معصية فقال لها يوسف أتستحيين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه شيأ فانا احق ان استحيي من ربي وهرب فذلك قوله لولا ان رأى برهان ربه أما المحققون فقد فسروا البرهان بوجوه الاول قال جعفر بن محمد الصادق البرهان هو النبوة التي جعلها الله تعالى في قلبه حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل الثاني البرهان حجة الله عز وجل على العبد في تحريم الزنا والعلم بما على الزاني من العقاب الثالث أن الله عز وجل طهر نفوس الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الاخلاق الذميمة والافعال الرذيلة وجبلهم على الاخلاق الشريفة الطاهرة المقدسة فتلك الاخلاق الطاهرة الشريفة تحجزهم عن فعل ما لا يليق فعله (كذلك) يعني كما أريناه البرهان كذلك (لنصرف عنه السوء) يعني الاثم (والفحشاء) يعني الزنا وقيل السوء مقدمات الفحشاء وقيل السوء الثناء القبيح فصرف الله عنه ذلك كله وجعله من عباده المخلصين وهو قوله (انه) يعني يوسف (من عبادنا المخلصين) قرئ بفتح اللام ومعناه انه من عبادنا الذين اصطفيناهم بالنبوة واخترناهم على غيرهم وقرئ بكسر اللام ومعناه انه من عبادنا الذين أخلصوا الطاعة لله عز وجل قوله تعالى (واستبقا الباب) وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما رأى البرهان قام هاربا مبادرا الى الباب وتبعته المرأة لتمسك عليه الباب حتى لا يخرج والمسابقة طلب السبق فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلقت بقميصه من خلفه وجذبته اليها حتى لا يخرج فذلك قوله عز وجل (وقدت قميصه من دبر) يعني شقته من خلف فغلبها يوسف فخرج وخرجت خلفه (وألفيا سيدها لدى الباب) يعني فلما خرجا وجدا زوج المرأة قطفير وهو العزيز عند الباب جالسا مع ابن عم المرأة فلما رأته المرأة هابته وخافت التهمة فسبقت يوسف بالقول (قالت) يعني لزوجها (ما جزاء من أراد بأهلك سوأ) يعني الفاحشة ثم خافت عليه أن يقتل وذلك لشدة حبها له فقالت (الا أن يسجن) أي يحبس في السجن ويمنع التصرف (أو عذاب أليم) يعني الضرب بالسياط وانما بدأت بذكر السجن دون العذاب لان المحب لا يشتهي ايلام المحبوب وانما أرادت أن يسجن عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل وهذه لطيفة فافهمها فلما سمع يوسف مقالتها أراد أن يبرهن عن نفسه (قال) يعني يوسف (هي راودتني عن نفسي) يعني طلبت مني الفحشاء فابيت وفررت وذلك ان يوسف عليه الصلاة والسلام ما كان يريد ان يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه فقال هي راودتني عن نفسي

نفسی (وشهد شاهد من أهلها) یعنی وحکم حاکم من أهل المرأة واختلفوا فی ذلك الشاهد فقال سعید بن جبیر والضحاك كان صبیا فی المهد أنطقه الله عز وجل وهو روایة عن ابن عباس رضی الله عنهما عن النبی صلی الله علیه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة ابنة فرعون وشاهد یوسف وصاحب جریج وعیسی بن مریم ذكره البغوی بغیر سند والذی جاء فی الصحیحین ثلاثة عیسی بن مریم وصاحب جریج وابن المرأة وقصتهم مخرجة فی الصحیح قیل كان هذا الصبی شاهد یوسف ابن خال المرأة وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد لم یكن صبیا ولكنه كان رجلا حكیما ذا رأی وقال السدی هو ابن عم المرأة فحكم فقال (ان كان قمیصه قد من قبل) أی من قدام (فصدقت وهو من الكاذبین وان كان قمیصه قد من دبر) أی من خلف (فكذبت وهو من الصادقین) وانما كان هذا الشاهد من أهل المرأة لیكون أقوی فی نفی التهمة عن یوسف علیه الصلاة والسلام مع ما وجد من كثرة العلامات الدالة علی صدق یوسف علیه الصلاة والسلام ونفی التهمة عنه من وجوه * منها انه كان فی الظاهر مملوك هذه المرأة والمملوك لا یبسط یده الی سیدته * ومنها انهم شاهدوا یوسف یعدو هاربا منها والطالب لا یهرب * ومنها انهم رأوا المرأة قد تزینت بأكمل الوجوه فكان الحاق التهمة بها أولی ومنها انهم عرفوا یوسف فی المدة الطویلة فلم یروا علیه حالة تناسب اقدامه علی مثل هذه الحالة فكان مجموع هذه العلامات دلالة علی صدقه مع شهادة الشاهد له بصدقه أیضا (فلما رأی قمیصه قد من دبر) یعنی فلما رأی قطفیر زوج المرأة قمیص یوسف علیه الصلاة والسلام قد من خلفه عرف خیانة امرأته وبراءة یوسف علیه الصلاة والسلام (قال) یعنی قال لها زوجها قطفیر (انه) یعنی هذا الصنیع (من كیدكن) یعنی من حیلكن ومكركن (ان كیدكن عظیم) فان قلت كیف وصف كید النساء بالعظم مع قوله تعالی وخلق الانسان ضعیفا وهلا كان مكر الرجال أعظم من مكر النساء * قلت أما كون الانسان خلق ضعیفا فهو بالنسبة الی خلق ما هو أعظم منه كخلق الملائكة والسموات والارض والجبال ونحو ذلك وأما عظم كید النساء ومكرهن فی هذا الباب فهو أعظم من كید جمیع البشر لأن لهن من المكر والحیل والكید فی اتمام مرادهن ما لا یقدر علیه الرجال فی هذا الباب وقیل ان قوله انه من كیدكن ان كیدكن عظیم من قول الشاهد وذلك انه لما ثبت عنده خیانة المرأة وبراءة یوسف علیه الصلاة والسلام قال هذه المقالة (یوسف) یعنی یا یوسف (أعرض عن هذا) یعنی اترك هذا الحدیث فلا تذكره لاحد حتی لا یفشو ویشیع وینتشر بین الناس وقیل معناه یا یوسف لا تكترث بهذا الامر ولا تهتم به فقد بان عذرك وبراءتك ثم التفت الی المرأة فقال لها (واستغفری لذنبك) یعنی توبی الی الله مما رمیت یوسف به من الخطیئة وهو بریء منها وقیل ان هذا من قول الشاهد یقول للمرأة سلی زوجك أن یصفح عنك ولا یعاقبك بسبب ذنبك

(وشهد شاهد من أهلها) هو ابن عم لها وانما ألقی الله الشهادة علی لسان من هو من اهلها لتكون أوجب للحجة علیها وأوثق لبراءة یوسف وقیل كان ابن خال لها وكان صبیا فی المهد وسمی قوله شهادة ٢٩ لانه أدی مؤدی الشهادة فی أن ثبت به قول یوسف وبطل قولها (ان كان قمیصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبین وان كان قمیصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقین) والتقدیر وشهد شاهد فقال ان كان قمیصه وانما دل قد قمیصه من قبل علی انها صادقة لانه یسرع خلفها لیلحقها فیعثر فی مقادم قمیصه فیشقه ولانه یقبل علیها وهی تدفعه عن نفسها فیتخرق القمیص من قبل وأما تنكیر قبل ودبر فمعناه من جهة یقال لها قبل ومن جهة یقال لها دبر وانما جمع بین ان التی للاستقبال وبین كان لان المعنی ان یعلم انه كان قمیصه قد (فلما رأی) قطفیر (قمیصه قد من دبر) وعلم براءة یوسف وصدقه وكذبها (قال انه) ان قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوأ أو ان هذا الامر وهو الاحتیال لنیل الرجال (من كیدكن) الخطاب لها ولامتها (ان كیدكن عظیم) لانهن ألطف كیدا وأعظم حیلة وبذلك یغلبن الرجال والقصریات منهن معهن ما لیس مع غیرهن من البوائق وعن بعض العلماء انی أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشیطان لان الله تعالی قال ان كید الشیطان كان ضعیفا وقال لهن ان كیدكن عظیم (یوسف) حذف منه حرف النداء لانه منادی قریب مفاطن للحدیث وفیه تقریب له وتلطیف لمحله (أعرض عن هذا) الامر واكتمه ولا تحدث به ثم قال لراعیل (واستغفری لذنبك

انك كنت من الخاطئين) من جملة القوم المتعمدين للذنب يقال خطئ اذا أذنب متعمدا وانما قال بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما قليل الغيرة حيث اقتصر على هذا القول (وقال نسوة) جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقي وامرأة الخباز ٣٠ وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة أسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثها غير حقيقي ولذا لم يقل قالت وفيه لغتان كسر النون وضمها (في المدينة) في مصر (امرأت العزيز) يريد قطفير والعزيز الملك بلسان العرب (تراود فتاها) غلامها يقال فتاي وفتاتي أي غلامي وجاريتي (عن نفسه) لتنال شهوتها منه (قد شغفها حبا) تمييز أي قد شغفها حبه يعني خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل الى الفؤاد والشغاف حجاب القلب أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب (انا لنراها في ضلال مبين) في خطأ وبعد عن طريق الصواب (فلما سمعت) راعيل (بمكرهن) باغتيابهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها وسمي الاغتياب مكرا لانه في خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره وقيل كانت استكتمتهن سرها فافشينه عليها (أرسلت اليهن) دعتهن قيل دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات (واعتدت) وهيأت افتعلت من العتاد (لهن متكأ) ما يتكئن عليه من نمارق قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهن متكئات والسكاكين في ايديهن أن يدهشن عند رؤيته ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن اللحم فيقطعنها لان المتكئ اذا بهت لشيء وقعت يده على يده (وآتت كل واحدة منهن سكينا) وكانوا لا يأكلون في ذلك الزمان الا بالسكاكين كفعل الاعاجم

(انك كنت من الخاطئين) يعني من المذنبين حين خنت زوجك ورميت يوسف بالتهمة وهو بريء وانما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات تغليبا لجنس الرجال على النساء وقيل انه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد الخبر عن كل من يفعل هذا الفعل تقديره انك كنت من القوم الخاطئين فهو كقوله وكانت من القانتين قوله عز وجل (وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه) يعني وقال جماعة من النساء وكن خمسا وقيل كن أربعا وذلك لما شاع خبر يوسف والمرأة في مدينة مصر وقيل هي مدينة عين الشمس وتحدثت النساء فيما بينهن بذلك وهن امرأة حاجب الملك وامرأة صاحب دوابه وامرأة خبازه وامرأة ساقيه وامرأة صاحب سجنه وقيل نسوة من اشراف مصر امرأة العزيز يعني زليخا تراود فتاها عن نفسه يعني تراود عبدها الكنعاني عن نفسه لانها تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها والفتى الشاب الحديث السن (قد شغفها حبا) يعني قد علقها حبا والشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب والمعنى ان حبه دخل الجلدة حتى اصاب القلب وقيل ان حبه قد أحاط بقلبها كاحاطة الشغاف بالقلب قال الكلبي حجب حبه قلبها حتى لا تعقل شيئا سواه (انا لنراها في ضلال مبين) يعني في خطأ بين ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر وأحبت فتاها (فلما سمعت بمكرهن) يعني فلما سمعت زليخا بقولهن وما تحدثن به وانما سمي قولهن ذلك مكرا لانهن طلبن بذلك رؤية يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله فقصدن أن يرينه وقيل ان امرأة العزيز افشت اليهن سرها واستكتمتهن فافشين ذلك عليها فلذلك سماه مكرا (أرسلت اليهن) يعني انها لما سمعت بأنهن يلمنها على محبتها ليوسف أرادت ان تقيم عذرها عندهن قال وهب اتخذت مائدة يعني صنعت لهن وليمة وضيافة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتي عيرنها (واعتدت لهن متكأ) يعني ووضعت لهن نمارق ووسائد يتكئن عليها وقال ابن عباس وابن جبير والحسن وقتادة ومجاهد متكأ يعني طعاما وانما سمي الطعام متكأ لان كل من دعوته ليطعم عندك فقد اعددت له وسائد يجلس ويتكئ عليها فسمي الطعام متكأ على الاستعارة ويقال اتكأنا عند فلان أي طعمنا عنده والمتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث ولذلك جاء النهي عنه في الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا وقيل المتكأ الاترج وقيل هو كل شيء يقطع بالسكين أو يحزبها يقال ان المرأة زينت البيت بالوان الفواكه والاطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتي عيرنها بحب يوسف (وآتت كل واحدة منهن سكينا) يعني وأعطت كل واحدة من النساء سكينا لتأكل بها وكان من عادتهن ان يأكلن

(وقالت اخرج عليهن) بكسر التاء بصرى وعاصم وحمزة وبضمها غيرهم (فلما رأينه اكبرنه) أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائق والجمال الفائق وكان فضل يوسف على الناس فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء وكان اذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران وكان يشبه آدم يوم خلقه ربه وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل اكبرن بمعنى حضن والهاء للسكت اذ لا يقال النساء قد حضنه لانه لا يتعدى الى مفعول يقال اكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت فى الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر وكان ابا الطيب اخذ من هذا التفسير قوله

* خف الله واستر ذا الجمال ببرقع * فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

(وقطعن ايديهن) وجرحنها كما تقول كنت اقطع اللحم فقطعت يدى تريد جرحتها اى اردن ان يقطعن الطعام الذى فى ايديهن فدهشن لما رأينه فخدشن ايديهن (وقلن حاش لله) حاشا كلمة تفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء تقول اساء القوم حاشا زيد وهى حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة فمعنى حاشا الله براءة الله وتنزيه الله وقراءة ابى عمرو حاشا لله نحو قولك سقيا لك كأنه قال براءة ثم قال لله لبيان من يبرئ وينزه وغيره حاش لله بحذف الالف الاخيرة والمعنى تنزيه الله من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله (ماهذا بشرا ان هذا الا ملك كريم) نفين عنه البشرية لغرابة جماله واثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم لما ركز فى الطباع ان لا احسن من الملك كما ركز فيها ان لا اقبح من الشيطان (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) تقول هو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى انفسكن ثم لمتننى فيه تعنى انكن لم تصورنه

للحم والفواكه بالسكين (وقالت اخرج عليهن) يعنى وقالت زليخا ليوسف اخرج على النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واختبأته فى مكان آخر (فلما رأينه) يعنى النسوة (أكبرنه) يعنى أعظمنه ودهشن عند رؤيته وكان يوسف قد اعطى شطر الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف على الناس فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ليلة أسرى بى الى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر ذكره البغوى بغير سند وقال اسحق بن أبى فروة كان يوسف اذا سار فى أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران ويقال انه ورث حسن آدم يوم خلقه الله عز وجل قبل ان يخرج من الجنة وقال أبو العالية هالهن أمره وبهتن اليه وفى رواية عن ابن عباس قال أكبرنه أى حضن ونحوه عن مجاهد والضحاك قال حضن من الفرح وأنكر أكثر أهل اللغة هذا القول قال الزجاج هذه اللفظة ليست معروفة فى اللغة والهاء فى أكبرنه تمنع من هذا لانه لا يجوز أن يقال النساء قد حضنه لان حضن لا يتعدى الى مفعول قال الازهرى ان صحت هذه اللفظة فى اللغة فلها مخرج وذلك ان المرأة اذا حاضت أول ما تحيض فقد خرجت من حد الصغار الى حد الكبار فيقال لها أكبرت أى حاضت على هذا المعنى فان صحت الرواية عن ابن عباس سلمناه وجعلنا الهاء فى قوله اكبرنه هاء الوقف لا هاء الكناية وقيل ان المرأة اذا خافت أو فزعت فربما أسقطت ولدها وتحيض فان كان ثم حيض فربما كان من فزعهن وما هالهن من أمر يوسف حين رأينه قال الامام فخر الدين الرازى وعندى أنه يحتمل وجها آخر وهو انهن انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاخبات وشاهدن فيه مهابة وهيبة ملكية وهى عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان ذلك الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم اكبرنه واعظمنه ووقع الرعب والمهابة فى قلوبهن قال وحمل الآية على هذا الوجه أولى (وقطعن أيديهن) يعنى وجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين التى معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الاترج ولم يجدن الالم لدهشتهن وشغل قلوبهن بيوسف قال مجاهد فما احسسن الا بالدم وقال قتادة أبن أيديهن حتى ألقينها والاصح انه كان قطعا من غير ابانة وقال وهب مات جماعة منهن (وقلن) يعنى النسوة (حاش لله ما هذا بشرا) أى معاذ الله ان يكون هذا بشرا (ان هذا الا ملك كريم) يعنى على الله والمقصود من هذا اثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف لانه قد ركز فى النفوس ان لا شئ أحسن من الملك فلذلك وصفنه بكونه ملكا وقيل لما كان الملك مطهرا من بواعث الشهوة وجميع الآفات والحوادث التى تحصل للبشر وصفن يوسف بذلك قوله تعالى (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) يعنى قالت امرأة العزيز للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته فذلكن الذى

حق صورته والافتتان فى الافتتان به (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها وهذا بيان جلى على أن يوسف عليه السلام برئ مما فسر به أولئك الفريق الهم والبرهان ثم قلن له أطع مولاتك فقالت راعيل (ولئن لم يفعل ما آمره) الضمير راجع الى ما وهى موصولة والمعنى ما آمره به فحذف الجار كما فى قوله أمرتك الخير أو ما مصدرية والضمير يرجع الى يوسف أى ولئن لم يفعل أمرى اياه أى موجب أمرى ومقتضاه (ليسجنن) ليحبسن والالف فى (وليكونا) بدل من نون التأكيد الخفيفة (من الصاغرين) مع السراق والسفالة والاباق كما سرق قلبى وابق منى وسفك دمى بالفراق فلا يهنأ ليوسف الطعام والشراب والنوم هنالك كما منعنى هنا كل ذلك ومن لم يرض بمثلى فى الحرير على السرير أميرا حصل فى الحصير على الحصير حسيرا فلما سمع يوسف تهديدها (قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) أسند الدعوة اليهن لانهن قلن له ما عليك لو أجبت مولاتك أو افتتنت كل واحدة به فدعته الى نفسها سرا فالتجأ الى ربه قال رب السجن أحب الى من ركوب المعصية (والا تصرف عنى كيدهن) فزع منه الى الله فى طلب العصمة (أصب اليهن) أمل اليهن والصبوة الميل الى الهوى ومنه الصبا لان النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها (وأكن من الجاهلين) من الذين لا يعملون بما يعلمون لان من لا جدوى لعلمه فهو ومن لم يعلم سواء او من السفهاء فلما كان فى قوله والا تصرف عنى كيدهن معنى طلب الصرف والدعاء قال (فاستجاب له ربه) اى اجاب الله دعاءه (فصرف عنه كيدهن انه هو السميع) لدعوات الملتجئين اليه (العليم) بحاله وحالهن (ثم بدا لهم) فاعله مضمر لدلالة ما يفسره عليه وهو ليسجننه والمعنى بدا لهم بداء اى ظهر لهم رأى والضمير فى لهم للعزيز واهله

الى

المتنى فى محبته وانما قالت ذلك لاقامة عذرها عندهن حين قلن ان امرأة العزيز قد شغفها فتاها الكنعانى حبا وانما قالت فذلكن الخ بعدما قام من المجلس وذهب وقال صاحب الكشاف قالت فذلكن ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعا لمنزلته فى الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به ويجوز أن يكون اشارة الى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعانى تقول هو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن ثم لمتننى فيه ثم ان امرأة العزيز صرحت بما فعلت فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) يعنى فامتنع من ذلك الفعل الذى طلبته منه وانما صرحت بذلك لانها علمت انه لا ملامة عليها منهن وانهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ثم ان امرأة العزيز قالت (ولئن لم يفعل ما آمره) يعنى وان لم يطاوعنى فيما دعوته اليه (ليسجنن) أى لنعاقبن بالسجن والحبس (وليكونا من الصاغرين) يعنى من الاذلاء المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف السجن على المعصية حين توعدته المرأة بذلك (قال رب) أى يا رب (السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) قيل ان الدعاء كان منها خاصة وانما أضافه اليهن جميعا خروجا من التصريح الى التعريض وقيل انهن جميعا دعونه الى أنفسهن وقيل انهن لما قلن له أطع مولاتك صحت اضافة الدعاء اليهن جميعا ولانه كان بحضرتهن قال بعضهم لو لم يقل السجن أحب الى لم يبتل بالسجن والاولى بالعبد ان يسأل الله العافية (والا تصرف عنى كيدهن) يعنى ما أردن منى (أصب اليهن) أى أمل اليهن يقال صبا فلان الى كذا اذا مال اليه واشتاقه (وأكن من الجاهلين) يعنى من المذنبين وقيل معناه أكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل وفيه دليل على أن من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة (فاستجاب له ربه) يعنى فأجاب الله تعالى دعاء يوسف (فصرف عنه كيدهن انه هو السميع) يعنى لدعاء يوسف وغيره (العليم) يعنى بحاله وفى الآية دليل على أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما أظلته البلية بكيد النساء ومطالبتهن اياه بما لا يليق بحاله لجأ الى الله وفزع الى الدعاء رغبة الى الله ليكشف عنه ما نزل به من ذلك الامر مع الاعتراف بانه ان لم يعصمه من المعصية وقع فيها فدل ذلك على أنه لا يقدر أحد عن الانصراف عن المعصية الا بعصمة الله ولطفه به قوله عز وجل (ثم بدا لهم) يعنى للعزيز وأصحابه فى الرأى وذلك انهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الاعراض وكتم الحال وذلك ان المرأة قالت لزوجها ان ذلك العبد العبرانى قد فضحنى عند الناس يخبرهم بانى قد راودته عن نفسه فاما ان تأذن لى فاخرج واعتذر

(من بعد ماراوا الآيات) وهى الشواهد على براءته كقد القميص وقطع الايدى وشهادة الصبى وغير ذلك (ليسجننه) لابداء عذر الحال . وارخاء الستر على القيل والقال وما كان ذلك الا باستنزال المرأة ٢٤ لزوجها وكان مطواعا لها وجملا ذلولا زمامه فى يدها وقد طمعت ان يذلله السجن ويسخره لها او خافت عليه العيون وظنت فيه الظنون فالجأها الخجل من الناس والوجل من اليأس الى ان رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب لتشتفى بخبره اذا منعت من نظره (حتى حين) الى زمان كانها اقترحت ان يسجن زمانا حتى تبصر ما يكون منه (ودخل معه السجن فتيان) عبدان للملك خبازه وشرابيه بتهمة السم فادخلا السجن ساعة ادخل يوسف لان مع يدل على معنى الصحبة تقول خرجت مع الامير تريد مصاحباله فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له (قال احدهما) اى شرابيه (انى ارانى) اى فى المنام وهى حكاية حال ماضية (اعصر خمرا) اى عنبا تسمية للعنب بما يؤل اليه او الخمر بلغة عمان اسم للعنب (وقال الآخر) اى خبازه (انى ارانى احمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله) بتأويل ما رأيناه (انا نراك من المحسنين) من الذين يحسنون عبارة الرؤيا او من المحسنين الى اهل السجن فانك تداوى المريض وتعزى الحزين وتوسع على الفقير فاحسن الينا بتأويل ما رأيناه وقيل انهما تحالما لنمتحناه فقال الشرابى انى رايت كانى فى بستان فاذا باصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخباز انى رأيت كان فوق رأسى ثلاث سلال فيها انواع الاطعمة فاذا سباع الطير تنهش منها

الى الناس واما ان تحبسه فرأى حبسه (من بعد مارأوا الآيات) يعنى الدالة على صدق يوسف وبراءته من قد القميص وكلام الطفل وقطع النساء أيديهن وذهاب عقولهن عند رؤيته (ليسجننه) أى ليحبسن يوسف فى السجن (حتى حين) يعنى الى مدة يرون رأيهم فيها وقال عطاء الى أن تنقطع مقالة الناس وقال عكرمة الى سبع سنين وقال الكلبى خمس سنين فحبسه قال السدى جعل الله ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه بالمرأة (ودخل معه السجن فتيان) وهما غلامان كانا للوليد بن نزوان العمليق ملك مصر الاكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه وكان قد غضب عليهما الملك فحبسهما وكان السبب فى ذلك ان جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على أن يسما الملك فى طعامه وشرابه فاجابا الى ذلك ثم ان الساقى ندم فرجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الطعام مسموم وقال الخباز لا تشرب فان الشراب مسموم فقال للساقى اشرب فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فابى فاطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فامر الملك بحبسهما فحبسا مع يوسف وكان يوسف لما دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول انى أعبر الاحلام فقال أحد الغلامين لصاحبه هلم فلنجرب هذا الغلام العبرانى فتراءيا له رؤيا فسألاه من غير أن يكونا قد رأيا شيأ قال ابن مسعود ما رأيا شيأ انما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا أنهما غلامان للملك وقد حبسهما وقد رأيا رؤيا قد غمتهما فقال يوسف قصا على ما رأيتما فقصا عليه ما رأياه فذلك قوله تعالى (قال أحدهما) وهو صاحب شراب الملك (انى أرانى أعصر خمرا) يعنى عنبا سمى العنب خمرا باسم ما يؤل اليه يقال فلان يطبخ الآجر أى يطبخ اللبن حتى يصير آجرا وقيل الخمر العنب بلغة عمان وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كانى فى بستان واذا فيه أصل حبلة وعليها ثلاثة عناقيد عنب فجنيتها وكان كاس الملك فى يدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه (وقال الآخر) وهو صاحب طعام الملك (انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كان فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز والوان الاطعمة وسباع الطير تنهش منها (نبئنا بتأويله) أى اخبرنا بتفسير ما رأينا وما يؤل اليه أمر هذه الرؤيا (انا نراك من المحسنين) يعنى من العالمين بعبارة الرؤيا والاحسان هنا بمعنى العلم وسئل الضحاك ما كان احسانه فقال كان اذا مرض انسان فى الحبس عاده وقام عليه واذا ضاق على أحد وسع عليه واذا احتاج احد جمع له شيأ وكان مع هذا يجتهد فى العبادة يصوم النهار ويقوم الليل كله للصلاة وقيل انه لما دخل السجن وجد فيه قوما اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسليهم ويقول اصبروا وابشروا فقالوا بارك الله فيك يافتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك فمن

أين أنت قال انا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له صاحب السجن يا فتى والله لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأرفق بك وأحسن جوارك واختر أي بيوت السجن شئت وقيل ان الفتيين لما رأيا يوسف قالا انا قد أحببناك منذ رأيناك فقال لهما يوسف انشدكما بالله أن لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط الا دخل علي من حبه بلاء لقد أحبتني عمتي فدخل علي من ذلك بلاء وأحبني ابي فالقيت في الجب واحبتني امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه رؤياهما كره يوسف أن يعبرها لهما حين سألاه لما علم ما في ذلك من المكروه لأحدهما وأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره من اظهار المعجزة والنبوة والدعاء الى التوحيد وقيل انه عليه السلام أراد ان يبين لهما ان درجته في العلم اعلى واعظم مما اعتقدا فيه وذلك انهما طلبا منه علم التعبير ولا شك ان هذا العلم مبني على الظن والتخمين فاراد أن يعلمهما أنه يمكنه الاخبار عن المغيبات على سبيل القطع واليقين وذلك مما يعجز الخلق عنه واذا قدر على الاخبار عن الغيوب كان أقدر على تعبير الرؤيا بطريق الاولى وقيل انما عدل عن تعبير رؤياهما الى اظهار المعجزة لانه علم ان احدهما سيصلب فأراد ان يدخله في الاسلام ويخلصه من الكفر ودخول النار فأظهر له المعجزة لهذا السبب (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله) قيل اراد به في النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما الا اخبرتكما خبره في اليقظة وقيل أراد به في اليقظة يقول لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه يعني تطعمانه وتأكلانه الا نبأتكما بتأويله يعني أخبرتكما بقدره ولونه والوقت الذي يصل اليكما فيه (قبل ان يأتيكما) يعني قبل ان يصل اليكما وأي طعام اكلتم وكم أكلتم ومتى اكلتم وهذا مثل معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام حيث قال وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم فقالا ليوسف عليه الصلاة والسلام هذا من علم العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم فقال ما انا بكاهن ولا عراف وانما ذلك اشارة الى المعجزة والعلم الذي اخبرهما به (ذلكما مما علمني ربي) يعني ان هذا الذي اخبرتكما به وحي من الله أوحاه الي وعلم علمنيه (اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) فان قلت ظاهر قوله اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله انه عليه الصلاة والسلام كان داخلا في هذه الملة ثم تركها وليس الامر كذلك لان الانبياء عليهم الصلاة والسلام من حين ولدوا وظهروا الى الوجود هم على التوحيد فما معنى هذا الترك في قوله تركت * قلت الجواب من وجهين الاول ان الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء والالتفات اليه بالمرة وليس من شرطه ان يكون قد كان داخلا فيه ثم تركه ورجع عنه الوجه الثاني وهو الاقرب ان يوسف عليه الصلاة والسلام لما كان عند العزيز وهو كافر وجميع من عنده كذلك وقد كان بينهم وكان يوسف على التوحيد والايمان الصحيح صح قوله اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله (وهم بالآخرة هم كافرون) فترك ملتهم واعرض عنهم ولم يوافقهم على ما كانوا عليه وتكرير لفظة هم في قوله وهم بالآخرة هم كافرون للتوكيد لشدة انكارهم للمعاد وقوله (واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب) لما ادعى يوسف عليه السلام النبوة

وأظهر

(قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله) أي بيان ماهيته وكيفيته لان ذلك يشبه تفسير المشكل (قبل ان يأتيكما) ولما استعبراه ووصفاه بالاحسان افترص ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الاخبار بالغيب وأنه ينبئهما بما يحمل اليهما من الطعام في السجن قبل ان يأتيهما ويصفه لهما ويقول اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيكون كذلك وجعل ذلك تخلصا الى ان يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الايمان ويزينه لهما ويقبح اليهما الشرك وفيه ان العالم اذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغرضه ان يقتبس منه لم يكن من باب التزكية (ذلكما) اشارة لهما الى التأويل أي ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات (مما علمني ربي) وأوحى به الي ولم اقله عن تكهن وتنجيم (اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) يجوز ان يكون كلاما مبتدأ وأن يكون تعليلا لما قبله أي علمني ذلك وأوحى به الي لاني رفضت ملة أولئك وهم أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم (واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب) وهي الملة الحنيفية وتكرير هم للتوكيد وذكر الآباء ليريهما انه من بيت النبوة بعد ان عرفهما انه نبي يوحى اليه بما ذكر من اخباره بالغيوب ليقوى رغبتهما في اتباع قوله والمراد به ترك الابتداء لأنه كان فيه ثم تركه

واظهر المعجزة أظهر انه من أهل بيت النبوة وان آباءه كلهم كانوا أنبياء وقيل لما كان ابراهيم واسحق ويعقوب مشهورين بالنبوة والرسالة ولهم الدرجة العليا فى الدنيا عند الخلق والمنزلة الرفيعة فى الآخرة أظهر يوسف عليه الصلاة والسلام أنه من أولادهم وانه من أهل بيت النبوة ليسمعوا قوله ويطيعوا أمره فيما يدعوهم اليه من التوحيد (ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ) معناه ان الله سبحانه وتعالى لما اختارنا بالنبوة واصطفانا لرسالته وعصمنا من الشرك فما كان ينبغى لنا ان نشرك به مع جميع هذه الاختصاصات التى اختصنا بها قال الواحدى لفظة من فى قوله من شئ زائدة مؤكدة كقولك ماجاءنى من أحد وقال صاحب الكشاف ما كان لنا ما صح لنا معشر الانبياء ان نشرك بالله من شئ أى شئ كان من ملك أو جنى أو انسى فضلا ان نشرك به صنما لا يسمع ولا يبصر (ذلك من فضل الله) يعنى ذلك التوحيد وعدم الاشراك والعلم الذى رزقنا من فضل الله (علينا وعلى الناس) يعنى بما نصب لهم من الادلة الدالة على وحدانيته وبين لهم طريق الهداية اليه فكل ذلك من فضل الله على عباده (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) يعنى ان أكثرهم لا يشكرون الله على هذه النعم التى أنعم بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهما الى الاسلام فقال (يا صاحبى السجن) يريد يا صاحبى فى السجن فاضافهما الى السجن كما تقول يا سارق الليلة لان الليلة مسروق فيها غير مسروقة ويجوز أن يريد يا ساكنى السجن كقوله أصحاب النار وأصحاب الجنة (أأرباب متفرقون) يعنى أآلهة شتى من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وغير ذلك وصغير وكبير ومتوسط متباينون فى الصفة وهى مع ذلك لا تضر ولا تنفع (خير ام الله الواحد القهار) يعنى ان هذه الاصنام أعظم صفة فى المدح واستحقاق اسم الالهية والعبادة ام الله الواحد القهار قال الخطابى الواحد هو الفرد الذى لم يزل وحده وقيل هو المنقطع عن القرين والمعدوم الشريك والنظير وليس هو كسائر الآحاد من الاجسام المؤلفة لان ذلك قد يكثر بانضمام بعضها الى بعض والواحد ليس كذلك فهو الله الواحد الذى لا مثل له ولا يشبهه شئ من خلقه القهار قال الخطابى القهار هو الذى قهر الجبابرة من خلقه بالعقوبة وقهر الخلق كلهم بالموت وقال غيره القهار هو الذى قهر كل شئ وذلله فاستسلم وانقاد وذل له والمعنى ان هذه الاصنام التى تعبدونها ذليلة مقهورة اذا أراد الانسان كسرها واهانتها اقدر عليه والله هو الواحد فى ملكه القهار لعباده الذى لا يغلبه شئ وهو الغالب لكل شئ سبحانه وتعالى ثم بين عجز الاصنام وانها لاشئ البتة فقال (ما تعبدون من دونه) يعنى من دون الله وانما قال تعبدون بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية فى المخاطبة لانه أراد جميع من فى السجن من المشركين (الا أسماء سميتموها) يعنى سميتموها آلهة وأربابا وهى حجارة جمادات خالية عن المعنى لا حقيقة لها (أنتم وآباؤكم) يعنى من قبلكم سموها آلهة (ما أنزل الله بها من سلطان) يعنى ان تسمية الاصنام آلهة لا حجة لكم بها ولا برهان ولا أمر الله بها وذلك انهم كانوا يقولون ان الله أمرنا بهذه التسمية فرد الله عليهم بقوله ما أنزل الله بها من سلطان (ان الحكم الا لله) يعنى ان الحكم والقضاء والامر والنهى

(ما كان لنا) ما صح لنا معشر الانبياء (ان نشرك بالله من شئ) أى شئ كان صنما أو غيره ثم قال (ذلك) التوحيد (من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) فضل الله فيشركون به ولا ينتبهون (يا صاحبى السجن) يا ساكنى السجن كقوله أصحاب النار وأصحاب الجنة (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) يريد التفرق فى العدد والتكاثر أى ان تكون أرباب شتى يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا خير لكما أم يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك فى الربوبية وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الاصنام (ما تعبدون) خطاب لهما ولمن كان على دينهما من أهل مصر (من دونه) من دون الله (الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أى سميتم ما لا يستحق الالهية آلهة ثم طفقتم تعبدونها فكأنكم لا تعبدون الا أسماء لا مسميات لها ومعنى سميتموها سميتم بها يقال سميته زيدا وسميته بزيد (ما أنزل الله بها) بتسميتها (من سلطان) حجة (ان الحكم) فى أمر العبادة والدين (الا لله) ثم بين ما حكم به فقال

لله تعالى لا شريك له فى ذلك (أمر ألا تعبدوا الا اياه) لانه هو المستحق للعبادة لا هذه الاصنام التى سميتموها آلهة (ذلك الدين القيم) يعنى عبادة الله هى الدين المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك ولما فرغ يوسف عليه الصلاة والسلام من الدعاء الى الله وعبادته رجع الى تعبير رؤياهما فقال (يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا) يعنى ان صاحب شراب الملك يرجع الى منزلته ويسقى الملك خمرا كما كان يسقيه أولا والعناقيد الثلاثة هى ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يدعو به الملك ويرده الى منزلته التى كان عليها (وأما الآخر فيصلب) يعنى صاحب طعام الملك والسلال الثلاث ثلاثة أيام ثم يدعو به الملك فيصلبه (فتأكل الطير من رأسه) قال ابن مسعود رضى الله عنه فلما سمعا قول يوسف عليه الصلاة والسلام قالا ما رأينا شيئا انما كنا نلعب قال يوسف (قضى الامر الذى فيه تستفتيان) يعنى فرغ من الامر الذى سألتما عنه ووجب حكم الله عليكما بالذى أخبرتكما به رأيتما شيئا ام لم تريا (وقال) يعنى يوسف (للذى ظن) يعنى علم وتحقق فالظن بمعنى العلم (أنه ناج منهما) يعنى ساقى الملك (اذكرنى عند ربك) يعنى سيدك وهو الملك الاكبر فقل له ان فى السجن غلاما محبوسا مظلوما طال حبسه (فأنساه الشيطان ذكر ربه) فى هاء الكناية فى فأنساه الى من تعود قولان أحدهما انها ترجع الى الساقى وهو قول عامة المفسرين والمعنى فأنسى الشيطان الساقى ان يذكر يوسف عند الملك قالوا لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل الساقى حتى انساه ذكر يوسف أولى من صرفها الى يوسف والقول الثانى وهو قول أكثر المفسرين ان هاء الكناية ترجع الى يوسف والمعنى ان الشيطان انسى يوسف ذكر ربه عز وجل حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق مثله فى دفع الضرر وتلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق فى دفع الضرر جائزة الا انه لما كان مقام يوسف أعلى المقامات ورتبته أشرف المراتب وهى منصب النبوة والرسالة لا جرم صار يوسف مؤاخذا بهذا القدر فان حسنات الابرار سيئات المقربين * فان قلت كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى انساه ذكر ربه * قلت بشغل الخاطر والقاء الوسوسة فانه قد صح فى الحديث ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فاما النسيان الذى هو عبارة عن ترك الذكر وازالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه وقوله سبحانه وتعالى (فلبث فى السجن بضع سنين) اختلفوا فى قدر البضع فقال مجاهد هو ما بين الثلاث الى السبع وقال قتادة هو ما بين الثلاث الى التسع وقال ابن عباس هو ما دون العشرة وأكثر المفسرين على ان البضع فى هذه الآية سبع سنين وكان يوسف قد لبث قبلها فى السجن خمس سنين فجملة ذلك اثنتا عشرة سنة وقال وهب أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لاطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يا رب أنسى قلبى ذكرك كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله يوسف

(أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم) الثابت الذى دلت عليه البراهين (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وهذا يدل على ان العقوبة تلزم العبد وان جهل اذا أمكن له العلم بطريقة ثم عبر الرؤيا فقال (يا صاحبى السجن أما أحدكما) يريد الشرابى (فيسقى ربه) سيده (خمرا) أى يعود الى عمله (وأما الآخر) أى الخباز (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) روى انه قال للاول ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فانها ثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود الى ما كنت عليه وقال للثانى ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل ولما سمع الخباز صلبه قال ما رأيت شيئا فقال يوسف (قضى الامر الذى فيه تستفتيان) أى قطع وتم ما تستفتيان فيه من أمركما وشأنكما أى ما يجر اليه من العاقبة وهى هلاك أحدهما ونجاة الآخر (وقال للذى ظن انه ناج منهما) الظان هو يوسف عليه السلام ان كان تأويله بطريق الاجتهاد وان كان بطريق الوحى فالظان هو الشرابى أو يكون الظن بمعنى اليقين (اذكرنى عند ربك) صفنى عند الملك بصفتى وقص عليه قصتى لعله يرحمنى ويخلصنى من هذه الورطة (فأنساه الشيطان) فأنسى الشرابى (ذكر ربه) ان يذكره لربه أو عند ربه أو فأنسى يوسف ذكر الله حين وكل أمره الى غيره وفى الحديث رحم الله اخى يوسف لولم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا (فلبث فى السجن بضع سنين) أى سبعا عند الجمهور والبضع ما بين الثلاث الى التسع

لولا

(وقال الملك انى ارى سبع بقرات سمان يا كلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) لما دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها وقيل كان ابتداء بلاء يوسف في الرؤيا ثم كان سبب نجاته أيضا الرؤيا سمان جمع سمين وسمينة والعجاف المهازيل والعجف الهزال الذي ليس بعده سمانة والسبب في وقوع عجاف جمعا لعجفاء وافعل وفعلاء لا يجمعان على فعال حمله على نقيضه وهو سمان ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض وفي الآية دلالة على أن السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر لان الكلام مبنى على انصبابه الى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر فوجب ان يتناول معنى الاخر السبع ويكون قوله وأخر يابسات بمعنى وسبعا أخر (يا أيها الملأ) كأنه أراد الاعيان من العلماء والحكماء (افتونى في رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون) اللام في للرؤيا للبيان كقوله وكانوا فيه من الزاهدين اولان المفعول به اذا تقدم على الفعل لم يكن في قوته على العمل فيه مثله اذا تاخر عنه فعضد بها تقول عبرت الرؤيا وللرؤيا عبرت او يكون للرؤيا خبر كان كقولك كان فلان لهذا الامر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبرا آخر او حال وحقيقة عبرت الرؤيا ذكرت عاقبتها وآخر امرها كما تقول عبرت النهر اذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره ونحوه اولت الرؤيا اذا ذكرت مآلها وهو مرجعها وعبرت الرؤيا بالتخفيف هو الذي اعتمده الاثبات ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر (قالوا اضغاث احلام) اى هي اضغاث احلام اى تخاليطها واباطيلها وما يكون منها من حديث نفس او وسوسة شيطان واصل الاضغاث ما جمع من اخلاط النبات وحزم من انواع الحشيش الواحد ضغث فاستعيرت لذلك والاضافة بمعنى من اى اضغاث من احلام وانما جمع وهو حلم واحد تزايدا في وصف الحلم بالبطلان وجاز ان يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها

لولا كلمته التي قالها ما لبث في السجن ما لبث يعني قوله اذكرني عند ربك ثم يكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا أمر فزعنا الى الناس ذكره الثعلبي مرسلا وبغير سند وقيل ان جبريل دخل على يوسف في السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يوسف يا أخا المنذرين مالى أراك بين الخاطئين فقال له جبريل يا طاهر ابن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك أما استحيت مني أن استغثت بالآدميين فوعزتى وجلالى لألبثنك في السجن بضع سنين قال يوسف وهو في ذلك عنى راض قال نعم قال اذا لا أبالى وقال كعب قال جبريل ليوسف يقول الله عز وجل لك من خلقك قال الله قال فمن رزقك قال الله قال فمن حببك الى أبيك قال الله قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استغثت بآدمى مثلك قالوا فلما انقضت سبع سنين قال الكلبي وهذه السبع سوى الخمس سنين التي كانت قبل ذلك ودنا فرج يوسف وأراد الله عز وجل اخراجه من السجن رأى ملك مصر الاكبر رؤيا عجيبة هالته وذلك انه رأى في منامه سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم خرج عقيبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال فابتلع العجاف السمان ودخلن في بطونهن ولم ير منهن شئ ولم يتبين على العجاف منها شئ ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبع سنبلات أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتهن شئ فجمع السحرة والكهنة والمعبرين وقص عليهم رؤياه التي رآها فذلك قوله تعالى (وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يا كلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات يا ايها الملأ افتونى في رؤياى) يعنى يا ايها الاشراف اخبرونى بتأويل رؤياى (ان كنتم للرؤيا تعبرون) يعنى ان كنتم تحسنون علم العبارة وتفسيرها وعلم التعبير مختص بتفسير الرؤيا وسمى هذا العلم تعبيرا لان المفسر للرؤيا عابر من ظاهرها الى باطنها ليستخرج معناها وهذا اخص من التأويل لان التأويل يقال فيه وفي غيره (قالوا) يعنى قال جماعة الملأ وهم السحرة والكهنة والمعبرون مجيبين للملك (اضغاث أحلام) يعنى اخلاط مشتبهة واحدها ضغث وأصله الحزمة المختلطة من أنواع الحشيش والاحلام جمع حلم وهو الرؤيا

(ومانحن بتأويل الاحلام بعالمين) ارادوا بالاحلام المنامات الباطلة فقالوا ليس لها عندنا تاويل انما التأويل للمنامات الصحيحة او اعترفوا بقصور علمهم وانهم ليسوا فى تاويل الاحلام بخابرين (وقال الذى نجا) من القتل (منهما) من صاحبى السجن (واذكر) بالدال هو الفصيح وأصله ٢٨ اذتكر فأبدلت الذال دالا و التاء دالا وادغمت الاولى فى الثانية لتقارب المخرجين وعن الحسن واذكر ووجهه أنه قلب التاء ذالا وادغم أى تذكر يوسف وماشاهد منه (بعد أمة) بعد مدة طويلة وذلك انه حين استفتى الملك فى رؤياه واعضل على الملك تاويلها تذكر الناجى يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلبه اليه ان يذكره عند الملك (أنا أنبئكم بتاويله) أنا أخبركم به عمن عنده علمه (فارسلون) وبالياء يعقوب أى فابعثونى اليه لاسأله فارسلوه الى يوسف فأتاه فقال (يوسف أيها الصديق) أيها البليغ فى الصدق وانما قال له ذلك لانه ذاق وتعرف صدقه فى تاويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أول (أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس) الى الملك واتباعه (لعلهم يعلمون) فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك ويخلصوك من محنتك (قال تزرعون سبع سنين) هو خبر فى معنى الامر كقوله تؤمنون بالله واليوم الآخر وتجاهدون دليله قوله فذروه فى سنبله وانما يخرج الامر فى صورة الخبر للمبالغة فى وجود المامور به فيجعل كأنه موجود فهو يخبر عنه (دأبا) بسكون الهمزة وحفص بحركها وهما مصدر اداب فى العمل وهو حال من المامورين أى داتبين (فما حصدتم فذروه فى سنبله) كى لاياكله السوس (الا قليلا مما تاكلون) فى تلك السنين (ثم ياتى من بعد ذلك سبع شداد يا كلن) هو من اسناد المجاز جعل أكلهن مسندا اليهن (ما قدمتم لهن) أى فى السنين المخصبة التوسع

التى يراها الانسان فى منامه (وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) لما جعل الله هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن وذلك ان الملك لما رآها قلق واضطرب وذلك لانه قد شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوى الكامل حتى قهره وغلبه فأراد أن يعرف تاويل ذلك فجمع سحرته وكهنته ومعبريه وأخبرهم بما رأى فى منامه وسألهم عن تاويلها فاعجز الله بقدرته جماعة الكهنة والمعبرين عن تاويل هذه الرؤيا ومنعهم عن الجواب ليكون ذلك سببا لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن فذلك قوله تعالى (وقال الذى نجا منهما) يعنى وقال الساقى الذى نجا من السجن والقتل بعد هلاك صاحبه الخباز (وادكر بعد أمة) يعنى أنه تذكر قول يوسف اذكرنى عند ربك بعد أمة يعنى بعد حين وهو سبع سنين وسمى الحين من الزمان أمة لانه جماعة الايام والامة الجماعة (أنا أنبئكم) يعنى اخبركم (بتأويله) وقوله أنا أنبئكم بلفظ الجمع اما انه اراد به الملك مع جماعة السحرة والكهنة والمعبرين أو أراد به الملك وحده وخاطبه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وذلك ان الفتى الساقى جثا بين يدى الملك وقال ان فى السجن رجلا عالما يعبر الرؤيا (فارسلون) فيه اختصار تقديره فارسلنى أيها الملك فارسله فأتى السجن قال ابن عباس ولم يكن فى المدينه (يوسف) أى يا يوسف (أيها الصديق) انما سماه صديقا لانه لم يجرب عليه كذبا قط والصديق الكثير الصدق والذى لم يكذب قط وقيل سماه صديقا لانه صدق فى تعبير رؤياه التى رآها فى السجن (أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) فان الملك رأى هذه الرؤيا (لعلى أرجع الى الناس) يعنى أرجع بتأويل هذه الرؤيا الى الملك وجماعته (لعلهم يعلمون) يعنى بتاويل هذه الرؤيا وقيل لعلهم يعلمون منزلتك فى العلم (قال) يعنى قال يوسف معبرا للملك الرؤيا أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبة وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله تعالى (تزرعون) وهذا خبر بمعنى الامر أى ازرعوا (سبع سنين دأبا) يعنى عادتكم فى الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد (فما حصدتم فذروه فى سنبله) انما أمرهم بترك ما حصدوه من الحنطة فى سنبله لئلا يفسد و يقع فيه السوس وذلك ابقى له على طول الزمان (الا قليلا مما تأكلون) يعنى ادرسوا قليلا من الحنطة للاكل بقدر الحاجة وأمرهم بحفظ الاكثر لوقت الحاجة أيضا وهو وقت السنين المجدبة وهو قوله (ثم يأتى من بعد ذلك) يعنى من بعد السنين المخصبة (سبع شداد) يعنى سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس (يأكلن) يعنى يفنين (ما قدمتم لهن) يعنى يؤكل فيهن كل ما اعددتم وادخرتم لهن من الطعام وانما اضاف الاكل الى السنين على طريق

التوسع فى الكلام (الا قليلا مما تحصنون) يعنى تحرزون وتدخرون للبذر والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشئ فى الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع (ثم يأتى من بعد ذلك) يعنى من بعد هذه السنين المجدبة (عام فيه يغاث الناس) اى يمطرون من الغيث الذى هو المطر وقيل هو من قولهم استغثت بفلان فأغاثنى من الغوث (وفيه يعصرون) يعنى يعصرون العنب خمرا والزيتون زيتا والسمسم دهنا أراد به كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب فى الزرع والثمار وقيل يعصرون معناه ينجون من الكرب والشدة والجدب قوله عز وجل (وقال الملك ائتونى به) وذلك ان الساقى لما رجع الى الملك واخبره بفتيا يوسف وما عبر به رؤياه استحسنه الملك وعرف ان الذى قاله كائن لا محالة فقال ائتونى به حتى ابصر هذا الرجل الذى قد عبر رؤياى بهذه العبارة فرجع الساقى الى يوسف وقال له أجب الملك فذلك قوله تعالى (فلما جاءه الرسول) فابى ان يخرج معه حتى تظهر براءته للملك ولا يراه بعين النقص (قال) يعنى قال يوسف للرسول (ارجع الى ربك) يعنى الى سيدك وهو الملك (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن ايديهن) ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدبا واحتراما لها (ق) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لبثت فى السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعى اخرجه الترمذى وزاد فيه ثم قرأ فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن ايديهن هذا الحديث فيه بيان فضل يوسف عليه الصلاة والسلام وبيان قوة صبره وثباته والمراد بالداعى رسول الملك الذى جاءه من عنده فلم يخرج معه مبادرا الى الراحة ومفارقة ما هو فيه من الضيق والسجن الطويل بل فلبث فى السجن وراسل الملك فى كشف أمره الذى سجن بسببه لتظهر براءته عند الملك وغيره فاثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على يوسف عليه الصلاة والسلام وبين فضيلته وحسن صبره على المحنة والبلاء وقوله (ان ربى بكيدهن عليم) يعنى ان الله تعالى عالم بصنيعهن وما احتلن فى هذه الواقعة من الحيل العظيمة فرجع الرسول من عند يوسف الى الملك بهذه الرسالة فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن و (قال) لهن (ما خطبكن) أى ما شأنكن وامركن (اذ راودتن يوسف عن نفسه) انما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل ان امرأة العزيز راودته عن نفسه وحدها وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب (قلن) يعنى النسوة مجيبات للملك (حاش لله) يعنى معاذ الله (ما علمنا عليه من سوء) يعنى من

(الا قليلا مما تحصنون) تحرزون وتخبؤن (ثم يأتى من بعد ذلك عام) أى من بعد أربع عشرة سنة عام (فيه يغاث الناس) من الغوث أى يجاب مستغيثهم أو من الغيث أى يمطرون يقال غيثت البلاد اذا امطرت (وفيه يعصرون) العنب والزيتون والسمسم فيتخذون الاشربة والادهان يعصرون حمزة فاول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ثم بشرهم بعد الفراغ من تاويل الرؤيا بان العام ٢٩ الثامن يجئ مباركا كثير الخير غزير النعم وذلك من جهة الوحى (وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول) ليخرجه من السجن (قال ارجع الى ربك) أى الملك (فاسأله ما بال النسوة) أى حال النسوة (اللاتى قطعن أيديهن) انما تثبت يوسف وتأنى فى اجابة الملك وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما رمى به وسجن فيه لئلا يتسلق به الحاسدون الى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلما الى حط منزلته لديه ولئلا يقولوا ما خلد فى السجن سبع سنين الا لامر عظيم وجرم كبير وفيه دليل على ان الاجتهاد فى نفى التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف فى مواقفها وقال عليه السلام لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط ان يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبث لاسرعت الاجابة وبادرت الباب ولما ابتغيت العذر ان كان لحليما ذا أناة ومن كرمه وحسن أدبه انه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن (ان ربى بكيدهن عليم) اى ان كيدهن عظيم لا يعلمه الا الله وهو مجازيهن عليه فرجع الرسول الى الملك من عند يوسف برسالته فدعا الملك النسوة المقطعات أيديهن ودعا امرأة العزيز ثم (قال) لهن (ما خطبكن) ما شأنكن (اذ راودتن يوسف عن نفسه) هل وجدتن منه ميلا اليكن (قلن حاش لله) تعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله (ما علمنا عليه من سوء) من ذنب

خيانة فى شئ من الاشياء (قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق) يعنى ظهر وتبين وقيل ان النسوة اقبلن على امرأة العزيز فعزرنها وقيل خافت أن يشهدن عليها فاقرت فقالت (أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين) يعنى فى قوله هى راودتنى عن نفسى واختلفوا فى قوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) على قولين احدهما انه من قول المرأة ووجه هذا القول ان هذا كلام متصل بما قبله وهو قول المرأة الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ثم قالت ذلك ليعلم أنى لم اخنه بالغيب والمعنى ذلك ليعلم يوسف أنى لم اخنه فى حال غيبته وهو فى السجن ولم اكذب عليه بل قلت أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين وان كنت قد قلت فيه ماقلت فى حضرته ثم بالغت فى تأكيد هذا القول فقالت (وأن الله لايهدى كيد الخائنين) يعنى انى لما اقدمت على هذا الكيد والمكر لاجرم انى افتضحت لان الله لايرشد ولا يوفق كيد الخائنين والقول الثانى انه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وهذا قول الاكثرين من المفسرين والعلماء ووجه هذا القول أنه لايبعد وصل كلام انسان بكلام انسان آخر اذا دلت القرينة عليه فعلى هذا يكون معنى الآية أنه لما بلغ يوسف قول المرأة أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين قال يوسف ذلك أى الذى فعلت من ردى رسول الملك اليه ليعلم يعنى العزيز أنى لم أخنه فى زوجته بالغيب يعنى فى حال غيبته فيكون هذا من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه من غير تمييز بين الكلامين لمعرفة السامعين لذلك مع غموض فيه لانه ذكر كلام انسان ثم اتبعه بكلام انسان آخر من غير فصل بين الكلامين ونظير هذا قوله تعالى يريد أن يخرجكم من أرضكم هذا من قول الملا فماذا تأمرون من قول فرعون ومثله قوله تعالى وجعلوا أعزة اهلها اذلة هذا من قول بلقيس وكذلك يفعلون من قوله عز وجل تصديقا لها وعلى هذا القول اختلفوا أين كان يوسف حين قال هذه المقالة على قولين احدهما انه كان فى السجن وذلك انه لما رجع اليه رسول الملك وهو فى السجن وأخبره بجواب امرأة العزيز للملك قال حينئذ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وهذه رواية أبى صالح عن ابن عباس وبه قال ابن جريج والقول الثانى انه قال هذه المقالة عند حضوره عند الملك وهذه رواية عطاء عن ابن عباس * فان قلت فعلى هذا القول كيف خاطبهم بلفظة ذلك وهى اشارة للغائب مع حضوره عندهم * قلت قال ابن الانبارى قال اللغويون هذا وذلك يصلحان فى هذا الموضع لقرب الخبر من أصحابه فصار كالشاهد الذى يشار اليه بهذا وقيل ذلك اشارة الى مافعله يقول ذلك الذى فعلته من ردى الرسول ليعلم أنى لم أخنه بالغيب أى لم أخن العزيز فى حال غيبته ثم ختم هذا الكلام بقوله وأن الله لايهدى كيد الخائنين يعنى انى لو كنت خائنا لما خلصنى الله من هذه الورطة التى وقعت فيها لان الله لايهدى أى لايرشد ولايوفق كيد الخائنين واختلفوا فى قوله (وما أبرئ نفسى) من قول من على قولين ايضا * أحدهما انه من قول المرأة وهذا التفسير على قول من قال ان قوله ذلك ليعلم أنى لم اخنه بالغيب من قول المرأة فعلى هذا يكون المعنى وما أبرئ نفسى من

(قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) ظهر واستقر (أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين) فى قوله هى راودتنى عن نفسى ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة واعترافهن على أنفسهن بانه لم يتعلق بشئ مما قذف به ثم رجع الرسول الى يوسف وأخبره بكلام النسوة واقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها فقال يوسف (ذلك) أى امتناعى من الخروج والتثبت لظهور البراءة (ليعلم) العزيز (أنى لم أخنه بالغيب) بظهر الغيب فى حرمته وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول على معنى وأنا غائب عنه أو وهو غائب عنى أو ليعلم الملك أنى لم أخن العزيز (وأن الله) اى وليعلم أن الله (لايهدى كيد الخائنين) لايسدده وكأنه تعريض بامرأته فى خيانتها أمانة زوجها ثم أراد ان يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكيا وليبين ان مافيه من الامانة بتوفيق الله وعصمته فقال (وما ابرئ نفسى) من الزلل وما اشهد لها بالبراءة الكلية ولا ازكيها فى عموم الاحوال او فى هذه الحادثة لما ذكرنا من الهم الذى هو الخطرة البشرية لا عن طريق القصد والعزم

من اوذى يوسف عن نفسه وكذب عليه * والقول الثانى وهو الاصح وعليه اكثر المفسرين انه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وذلك انه لما قال ذلك ليعلم أنى لم اخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين هممت بها فقال يوسف عند ذلك وما أبرئ نفسى وهذه رواية عن ابن عباس ايضا وهو قول الاكثرين وقال الحسن ان يوسف لما قال ذلك ليعلم أنى لم اخنه بالغيب خاف ان يكون قد زكى نفسه فقال وما أبرئ نفسى لان الله تعالى قال فلا تزكوا أنفسكم ففى قوله وما ابرئ نفسى هضم للنفس وانكسار وتواضع لله عز وجل فان رؤية النفس فى مقام العصمة والتزكية ذنب عظيم فأراد ازالة ذلك عن نفسه فان حسنات الابرار سيئات المقربين (ان النفس لأمارة بالسوء) والسوء لفظ جامع لكل مايهم الانسان من الامور الدنيوية والاخروية والسيئة الفعلة القبيحة واختلفوا فى النفس الامارة بالسوء ماهى فالذى عليه اكثر المحققين من المتكلمين وغيرهم ان النفس الانسانية واحدة ولها صفات منها الامارة بالسوء ومنها اللوامة ومنها المطمئنة فهذه الثلاث المراتب هى صفات لنفس واحدة فاذا دعت النفس الى شهواتها ومالت اليها فهى النفس الامارة بالسوء فاذا فعلتها أتت النفس اللوامة فلامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات ويحصل عند ذلك الندامة على ذلك الفعل القبيح وهذا من صفات النفس المطمئنة وقيل ان النفس أمارة بالسوء بطبعها فاذا تزكت وصفت من أخلاقها الذميمة صارت مطمئنة وقوله (الا ما رحم ربى) قال ابن عباس معناه الا من عصم ربى فتكون ما بمعنى من فهو كقوله ما طاب لكم من النساء يعنى من طاب لكم وقيل هذا استثناء منقطع معناه لكن من رحم ربى فعصمه من متابعة النفس الامارة بالسوء (ان ربى غفور) يعنى غفور لذنوب عباده (رحيم) بهم قوله تعالى (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى) وذلك انه لما تبين للملك عذر يوسف وعرف أمانته وعلمه طلب حضوره اليه فقال ائتونى به يعنى بيوسف أستخلصه لنفسى أى اجعله خالصا لنفسى والاستخلاص طلب خلوص الشئ من جميع شوائب الاشتراك وانما طلب الملك أن يستخلص يوسف لنفسه لان عادة الملوك أن يتفردوا بالاشياء النفيسة العزيزة ولا يشاركهم فيها أحد من الناس وانما قال الملك ذلك لما عظم اعتقاده فى يوسف لما علم من غزارة علم يوسف وحسن صبره واحسانه الى أهل السجن وحسن أدبه وثباته على المحن كلها فلهذا حسن اعتقاد الملك فيه واذا أراد الله تعالى أمرا هيأ أسبابه فالهم الملك ذلك فقال ائتونى به أستخلصه لنفسى (فلما كلمه) فيه اختصار تقديره فلما جاء الرسول الى يوسف فقال له أجب الملك الآن بلا معاودة فأجابه روى أن يوسف لما قام ليخرج من السجن دعا لاهله فقال اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عليهم الاخبار فهم أعلم الناس بالاخبار فى كل بلد فلما خرج من السجن كتب على بابه هذا بيت البلواء وقبر الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا حسنة ثم قصد باب الملك قال وهب فلما وقف بباب الملك قال حسبى ربى من دنياى وحسبى ربى من خلقه عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك ثم دخل

(ان النفس لأمارة بالسوء) اراد الجنس اى ان هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه لما فيه من الشهوات (الا ما رحم ربى) الا البعض الذى رحمه ربى بالعصمة ويجوز أن يكون ما رحم فى معنى الزمان اى الا وقت رحمة ربى يعنى أنها أمارة بالسوء فى كل وقت الا وقت العصمة أوهو استثناء منقطع اى ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الاساءة وقيل هو من كلام امرأة العزيز اى ذلك الذى قلت ليعلم يوسف أنى لم اخنه ولم اكذب عليه فى حال الغيبة وجئت بالصدق فيما سئلت عنه وما أبرئ نفسى مع ذلك من الخيانة فانى قد خنته حين قذفته وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن وأودعته السجن تريد الاعتذار مما كان منها ان كل نفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى الا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف (ان ربى غفور رحيم) استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت وانما جعل من كلام يوسف ولا دليل عليه ظاهر لان المعنى يقود اليه وقيل هذا من تقديم القرآن وتأخيره أى قوله ذلك ليعلم متصل بقوله فاسئله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى) أجعله خالصا لنفسى (فلما كلمه) وشاهد منه ما لم يحتسب

الدار فلما أبصر الملك قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره فلما
نظر اليه الملك سلم يوسف عليه بالعربية فقال له الملك ماهذا اللسان قال لسان عمى اسمعيل
ثم دعا له بالعبرانية فقال له وما هذا اللسان أيضا قال يوسف هذا لسان آبائى قال وهب وكان
الملك يتكلم بسبعين لغة فلم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجابه يوسف
وزاد عليه بالعربية والعبرانية فلما رأى الملك منه ذلك أعجبه ما رأى مع حداثة سن يوسف
عليه السلام وكان له من العمر يومئذ ثلاثون سنة فأجلسه الى جنبه فذلك قوله
تعالى فلما كلمه يعنى فلما كلم الملك يوسف لان مجالس الملوك لا يحسن لأحد أن يبدأ
بالكلام فيها وانما يبدأ الملك فيها بالكلام وقيل معناه فلما كلم يوسف الملك قال الساقى
أيها الملك هذا الذى علم تأويل رؤياك مع عجز السحرة والكهنة عنها فأقبل عليه الملك
و (قال انك اليوم لدينا مكين أمين) يقال اتخذ فلان عند فلان مكانة أى منزلة وهى الحالة
التى يتمكن بها صاحبها مما يريد وقيل المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفت أمانتك
ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت اليه وقوله مكين أمين كلمة جامعة لكل ما يحتاج
اليه من الفضائل والمناقب فى أمر الدين والدنيا روى أن الملك قال ليوسف عليه الصلاة
والسلام أحب أن أسمع تأويل رؤياى منك شفاها فقال نعم أيها الملك رأيت سبع
بقرات سمان شهب غر حسان غير عجاف كشف لك عنهن النيل فطلعن من شاطئه تشخب
أخلافهن لبنا فبينما أنت تنظر اليهن وقد أعجبك حسنهن اذ نضب النيل فغار ماؤه
وبدا يبسه فخرج من حمأته سبع بقرات عجاف شعث غبر ملصقات البطون ليس لهن
ضروع ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم
السباع فاختلطن بالسمان فافترسن السمان كافتراس السبع فأكلن لحومهن ومزقن
جلودهن وحطمن عظامهن ومششن مخهن فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن
وهن مهازيل ثم لم يظهر منهن سمن ولا زيادة بعد أكلهن اذ سبع سنبلات خضر طريات
ناعمات ممتلئات حبا وماء والى جانبهن سبع أخر سود يابسات فى منبت واحد عروقهن فى
الثرى والماء فبينما أنت تقول فى نفسك أى شئ هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات
والمنبت واحد وأصولهن فى الثرى والماء اذ هبت ريح فذرت أوراق اليابسات السود
على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار فاحرقتهن فصرن سودا فهذا ما رأيت أيها الملك
ثم انتبهت مذعورا فقال الملك والله ما أخطأت منها شيأ فما شأن هذه الرؤيا وان كان
عجبا فما هو بأعجب مما سمعت منك وما ترى فى تأويل رؤياى أيها الصديق قال يوسف
عليه الصلاة والسلام أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة
وتجعل ما يحصل من ذلك الطعام فى الخزائن بقصبه وسنبله فانه أبقى له فيكون ذلك
القصب والسنبل علفا للدواب وتأمر الناس فليرفعوا الخمس من زروعهم أيضا فيكفيك
ذلك الطعام الذى جمعته لاهل مصر ومن حولها وتأتيك الخلق من سائر النواحى للميرة
ويجتمع عندك من الكنوز والاموال مالا يجتمع لأحد قبلك فقال الملك ومن لى بهذا
ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى العمل فيه فعند ذلك (قال) يعنى يوسف (اجعلنى

(قال) الملك ليوسف (انك اليوم
لدينا مكين أمين) ذو مكانة
ومنزلة أمين مؤتمن على كل شئ
روى أن الرسول جاءه ومعه
سبعون حاجبا وسبعون مركبا
وبعث اليه بلباس الملوك فقال
أجب الملك فخرج من السجن
ودعا لاهله اللهم عطف عليهم
قلوب الاخيار ولا تعم عليهم
الاخبار فهم أعلم الناس بالاخبار
فى الواقعات وكتب على باب
السجن هذه منازل البلواء
وقبور الاحياء وشماتة الاعداء
وتجربة الاصدقاء ثم اغتسل
وتنظف من درن السجن ولبس
ثيابا جددا فلما دخل على الملك
قال اللهم انى أسألك بخيرك من
خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك
من شره ثم سلم عليه ودعا له
بالعبرانية فقال ماهذا اللسان قال
لسان آبائى وكان الملك يتكلم
بسبعين لسانا فكلمه بها فأجابه
بجميعها فتعجب منه وقال أيها
الصديق انى أحب أن أسمع
رؤياى منك قال رأيت بقرات
فوصف لونهن وأحوالهن ومكان
خروجهن ووصف السنابل وما
كان منها على الهيئة التى رآها
الملك وقال له من حقك أن تجمع
الطعام فى الاهراء فيأتيك الخلق
من النواحى ويمتارون منك
ويجتمع لك من الكنوز مالم يجتمع
لاحد قبلك قال الملك ومن لى
بهذا ومن يجمعه (قال) يوسف
(اجعلنى

على خزائن الارض) يعني على خزائن الطعام والاموال وأراد بالارض أرض مصر أي
اجعلني على خزائن أرضك التي تحت يدك وقال الربيع بن أنس اجعلني على خزائن خراج
مصر ودخلها (اني حفيظ عليم) أي حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها وقيل معناه
اني حاسب كاتب وقيل حفيظ لما استودعتني عليم بما وليتني وقيل حفيظ للحساب
عليم أعلم لغة من يأتيني وقال الكلبي حفيظ بتقديره في السنين المخصبة للسنين الجدبة
عليم بوقت الجوع حين يقع فقال الملك عندك ومن أحق بذلك منك وولاه ذلك وروى
البغوي باسناد الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الارض لاستعمله من ساعته
ولكنه أخر ذلك سنة * فان قلت كيف طلب يوسف عليه الصلاة والسلام الامارة
والولاية مع ما ورد من النهي عنها مع كراهية طلبها الماصح من حديث عبد الرحمن بن سمرة
قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أوتيتها
عن مسئلة وكلت اليها وان أوتيتها عن غير مسئلة أعنت عليها أخرجاه في الصحيحين قلت
انما يكره طلب الامارة اذا لم يتعين عليه طلبها فاذا تعين عليه طلبها وجب ذلك عليه ولا
كراهية فيه فاما يوسف عليه الصلاة والسلام فكان عليه طلب الامارة لانه مرسل من
الله تعالى والرسول أعلم بمصالح الامة من غيره واذا كان مكلفا برعاية المصالح ولا يمكنه
ذلك الا بطلب الامارة وجب عليه طلبها وقيل انه لما علم انه سيحصل قحط وشدة اما بطريق
الوحي من الله أو بغيره وربما أفضى ذلك الى هلاك معظم الخلق وكان في طلب الامارة
ايصال الخير والراحة الى المستحقين وجب عليه طلب الامارة لهذا السبب * فان قلت
كيف مدح يوسف نفسه بقوله اني حفيظ عليم والله تعالى يقول فلا تزكوا أنفسكم
* قلت انما يكره تزكية النفس اذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوصل به الى
غير ما يحل فهذا القدر المذموم في تزكية النفس أما اذا قصد بتزكية النفس ومدحها
ايصال الخير والنفع الى الغير فلا يكره ذلك ولا يحرم بل يجب عليه ذلك مثاله أن يكون
بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به فانه يجب عليه أن يقول أنا عالم ولما كان الملك
قد علم من يوسف انه عالم بمصالح الدين ولم يعلم انه عالم بمصالح الدنيا نبهه يوسف بقوله اني
حفيظ عليم على انه عالم بما يحتاج اليه في مصالح الدنيا أيضا مع كمال علمه بمصالح الدين قوله
عز وجل (وكذلك مكنا ليوسف في الارض) وكذلك اشارة الى ما تقدم يعني وكما
أنعمنا على يوسف بان أنجيناه من الجب وخلصناه من السجن وزيناه في عين الملك حتى
قربه وأدنى منزلته كذلك مكناه في الارض يعني أرض مصر ومعنى التمكين هو أن
لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره واليه الاشارة بقوله (يتبوأ منها حيث يشاء) لانه
تفسير للتمكين قال ابن عباس وغيره لما انقضت السنة من يوم سأل يوسف الامارة دعاه
الملك فتوجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت
طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع ووضع له عليه ثلاثون فراشا وستون ماربا
وضرب له عليه كلة من استبرق وأمره أن يخرج فخرج متوجا لونه كالثلج ووجهه

على خزائن الارض) ولني على
خزائن أرضك يعني مصر (اني
حفيظ) أمين احفظ ما تستحفظنيه
(عليم) عالم بوجوه التصرف
وصف نفسه بالامانة والكفاية
وهما طلبة الملوك ممن يولونه وانما
قال ذلك ليتوصل الى امضاء
أحكام الله واقامة الحق وبسط
العدل والتمكن مما لاجله بعث
الانبياء الى العباد ولعلمه ان أحدا
غيره لا يقوم مقامه في ذلك فطلبه
ابتغاء وجه الله لا لحب الملك
والدنيا وفي الحديث رحم الله
أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على
خزائن الارض لاستعمله من
ساعته ولكنه أخر ذلك سنة
قالوا وفيه دليل على انه يجوز
أن يتولى الانسان عمالة من يد
سلطان جائر وقد كان السلف
يتولون القضاء من جهة الظلمة
واذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل
الى الحكم بامر الله ودفع الظلم الا
بتمكين الملك الكافر أو الفاسق
فله أن يستظهر به وقيل كان
الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض
عليه في كل ما رأى وكان في حكم
التابع له (وكذلك) ومثل ذلك
التمكين الظاهر (مكنا ليوسف
في الارض) أرض مصر وكانت
أربعين فرسخا في أربعين والتمكين
الاقدار واعطاء المكنة (يتبوأ
منها حيث يشاء) أي كل مكان
أراد أن يتخذه منزلا لم يمنع منه
لاستيلائه على جميعها ودخولها
تحت سلطانه نهاية تمكين

كالقمر يرى الناظر وجهه فيه من صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير
ودانت ليوسف الملوك وفوض الملك الاكبر اليه ملكه وعزل قطفير عما كان عليه
وجعل يوسف مكانه قال ابن اسحق قال ابن زيد وكان الملك مصر خزائن كثيرة فسلمها الى
يوسف وسلم له سلطانه كله وجعل أمره وقضاءه نافذا فى مملكته قالوا ثم هلك قطفير عزيز
مصر فى تلك الليالى فزوج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه فلما دخل يوسف عليها
قال لها أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت له أيها الصديق لا تلمنى فانى كنت امرأة
حسناء ناعمة كما ترى فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى
حسنك وهيئتك فغلبتنى نفسى وعصمك الله قالوا فوجدها يوسف عذراء فأصابها
فولدت له ولدين ذكرين افرائيم وميشا وهما ابنا يوسف منها واستوسق ليوسف ملك
مصر وأقام فيه العدل واحبه الرجال والنساء فلما اطمأن يوسف فى ملكه دبر فى جمع
الطعام أحسن التدبير فبنى الحصون والبيوت الكثيرة وجمع فيها الطعام للسنين
الجدبة وأنفق المال بالمعروف حتى خلت السنين المخصبة ودخلت السنين الجدبة بهول
وشدة لم ير الناس مثله وقيل انه دبر فى طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار
فلما دخلت سنين القحط كان أول من أصابه الجوع الملك فجاع نصف النهار فنادى
يا يوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول أوان القحط فهلك فى السنة الاولى من
أول سنين القحط كل ما أعدوه فى السنين المخصبة فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من
يوسف فباعهم فى السنة الاولى بالنقود حتى لم يبق بمصر درهم ولا دينار الا أخذه منهم
وباعهم فى السنة الثانية بالحلى والجواهر حتى لم يبق بمصر فى أيدى الناس منها شئ
وباعهم فى السنة الثالثة بالدواب والمواشى والانعام حتى لم تبق دابة ولا ماشية الا
احتوى عليها كلها وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيد والجوارى حتى لم يبق بايدى الناس
عبد ولا أمة وباعهم فى السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى أتى عليها كلها وباعهم
فى السنة السادسة باولادهم حتى استرقهم وباعهم فى السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق
بمصر حر ولا حرة الا ملكه فصار واجميعهم عبيدا ليوسف عليه الصلاة والسلام فقال
أهل مصر ما رأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم من يوسف فقال يوسف للملك كيف
رأيت صنع الله بي فيما خولنى فما ترى فى هؤلاء قال الملك الرأى رأيك ونحن لك تبع قال
فانى أشهد الله وأشهدك أنى قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم
وقيل ان يوسف كان لا يشبع من الطعام فى تلك الايام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن
الارض فقال أخاف ان شبعت أنسى الجائع وأمر يوسف طباخى الملك أن يجعلوا غداءه
نصف النهار وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع فمن ثم جعل الملوك
غداءهم نصف النهار قال مجاهد ولم يزل يوسف يدعو الملك الى الاسلام ويتلطف به حتى
أسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله سبحانه وتعالى وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ
منها حيث يشاء (نصيب برحمتنا من نشاء) يعنى نختص بنعمتنا وهى النبوة من نشاء يعنى
من عبادنا (ولا نضيع أجر المحسنين) قال ابن عباس يعنى الصابرين (ولأجر الآخرة)

(نصيب برحمتنا) بعطائنا فى
الدنيا من الملك والغنى وغيرهما
من النعم (من نشاء) من اقتضت
الحكمة أن نشاء له ذلك (ولا
نضيع أجر المحسنين) فى الدنيا
(ولأجر الآخرة

خير للذين آمنوا) يريد يوسف وغيره من المؤمنين الى يوم القيامة (وكانوا يتقون) الشرك والفواحش قال سفيان بن عيينة المؤمن يثاب على حسناته فى الدنيا والآخرة والفاجر يعجل له الخير فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق وتلا الآية روى ان الملك توج يوسف وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا ٣٥ بالدر والياقوت فقال أما السرير فاشد به ملكك وأما الخاتم فادبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض الملك اليه أمره وعزل قطفير ثم مات بعده فزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما طلبت فوجدها عذراء فولدت له ولدين افرائيم وميشا وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدراهم والدنانير فى السنة الاولى حتى لم يبق معهم شئ منها ثم بالحلى والجواهر فى الثانية ثم بالدواب فى الثالثة ثم بالعبيد والاماء فى الرابعة ثم بالدور والعقار فى الخامسة ثم باولادهم فى السادسة ثم برقابهم فى السابعة حتى استرقهم جميعا ثم أعتق أهل مصر عن آخرهم ورد عليهم أملاكهم وكان لا يبيع لاحد من الممتارين أكثر من حمل بعير واصاب أرض كنعان نحو ما أصاب مصر فارسل يعقوب بنيه ليمتاروا وذلك قوله (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم) بلا تعريف (وهم له منكرون) لتبدل الزى ولانه كان من وراء الحجاب ولطول المدة وهو أربعون سنة روى انه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم أخبرونى من أنتم وما شأنكم قالوا نحن قوم من أهل الشام رعاة اصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم عيونا تنظرون عورة بلادى فقالوا معاذ الله نحن بنو نبى حزين لفقد ابن كان أحبنا اليه وقد أمسك أخاله من أمه يستأنس به فقال ائتونى به ان صدقتم

يعنى ولثواب الآخرة (خير) يعنى أفضل من أجر الدنيا (للذين آمنوا وكانوا يتقون) يعنى يتقون ما نهى الله عنه وفيه دليل على أن الذى أعد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام فى الآخرة من الاجر والثواب الجزيل أفضل مما أعطاه الله فى الدنيا من الملك قوله تعالى (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) قال العلماء لما اشتد القحط وعظم البلاء وعم ذلك جميع البلاد حتى وصل الى بلاد الشام قصد الناس مصر من كل مكان للميرة وكان يوسف لا يعطى أحدا أكثر من حمل بعير وان كان عظيما تقسيطا ومساواة بين الناس ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه الى مصر للميرة وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لامه وأبيه وأرسل عشرة فذلك قوله تعالى وجاء اخوة يوسف وكانوا عشرة وكان مسكنهم بالعربات من أرض فلسطين والعربات ثغور الشام وكانوا أهل بادية وابل وشياه فدعاهم يعقوب عليه الصلاة والسلام وقال بلغنى أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا له واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون اليه من الطعام فخرجوا حتى قدموا مصر فدخلوا على يوسف فعرفهم قال ابن عباس ومجاهد باول نظرة نظر اليهم عرفهم وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه وهم له منكرون يعنى لم يعرفوه قال ابن عباس رضى الله عنهما كان بين أن قذفوه فى الجب وبين دخولهم عليه مدة أربعين سنة فلذلك أنكروه وقال عطاء انما لم يعرفوه لانه كان على سرير الملك وكان على رأسه تاج الملك وقيل لانه كان قد لبس زى ملوك مصر عليه ثياب حرير وفى عنقه طوق من ذهب وكل واحد من هذه الاسباب مانع من حصول المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه وقيل ان العرفان انما يقع فى القلب بخلق الله تعالى له فيه وان الله سبحانه وتعالى لم يخلق ذلك العرفان فى تلك الساعة فى قلوبهم تحقيقا لما أخبر أنه سينبئهم بامرهم هذا وهم لا يشعرون فكان ذلك معجزة ليوسف عليه الصلاة والسلام فلما نظر اليهم يوسف وكلموه بالعبرانية كلمهم بلسانهم فقال لهم أخبرونى من أنتم وما أمركم فانى قد أنكرت حالكم قالوا نحن قوم من أرض الشام رعاة قد أصابنا من الجهد ما أصاب الناس فجئنا نمتار قال يوسف لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادى قالوا لا والله ما نحن بجواسيس انما نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق يقال له يعقوب نبى من أنبياء الله تعالى قال وكم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا معنا الى البرية فهلك فيها وكان أحبنا الى أبينا قال فكم أنتم الآن قالوا عشرة قال وأين الآخر قالوا هو عند أبينا لانه أخو الذى هلك لامه فابونا يتسلى به فقال فمن يعلم ان الذى تقولون حق قالوا أيها الملك انا ببلاد غربة لا يعرفنا فيها أحد قال فائتونى باخيكم الذى من أبيكم ان كنتم صادقين فانا راض بذلك منكم قالوا ان أبانا يحزن لفراقه وسنراوده عنه قال

قدعوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتونى به فاقترعوا فيما بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان احسنهم رأيا فى يوسف فخلفوه عنده فذلك قوله تعالى (ولما جهزهم بجهازهم) يقال جهزت القوم تجهيزا اذا تكلفت لهم جهاز سفرهم وهو ما يحتاجون اليه فى وجوههم والجهاز بفتح الجيم هى اللغة الفصيحة الجيدة وعليها الاكثرون من اهل اللغة وكسر الجيم لغة ليست بجيدة قال ابن عباس حمل لكل واحد منهم بعيرا من الطعام واكرمهم فى النزول وأحسن ضيافتهم وأعطاهم ما يحتاجون اليه فى سفرهم (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) يعنى الذى خلفتموه عنده وهو بنيامين (ألا ترون أنى أوفى الكيل) يعنى انى اتمه ولا أبخس منه شيأ وأزيدكم حمل بعير آخر لاجل أخيكم أكرمكم بذلك (وأنا خير المنزلين) يعنى خير المضيفين لانه كان قد أحسن ضيافتهم مدة اقامتهم عنده قال الامام فخر الدين الرازى هذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى انهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين وايضا يبعد من يوسف عليه الصلاة والسلام مع كونه صديقا أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون مع أنه يعرف براءتهم من هذه التهمة لان البهتان لا يليق بالصديق ثم قال يوسف (فان لم تأتونى به) يعنى بأخيكم الذى من أبيكم (فلا كيل لكم عندى) يعنى است أكيل لكم طعاما (ولا تقربون) يعنى ولا ترجعوا ولا تقربوا بلادى وهذا هو نهاية التخويف والترهيب لانهم كانوا محتاجين الى تحصيل الطعام ولا يمكنهم تحصيله الامن عنده فاذا منعهم من العود كان قد ضيق عليهم فعند ذلك (قالوا) يعنى اخوة يوسف (سنراود عنه أباه) يعنى سنجتهد ونحتال حتى ننزعه من عنده (وانا لفاعلون) يعنى ما امرتنا به قوله عز وجل (وقال لفتيانه) يعنى وقال يوسف لفتيانه وهم غلمانه واتباعه (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) أراد بالبضاعة ثمن الطعام الذى اعطوه ليوسف وكانت دراهم وحكى الضحاك عن ابن عباس انها كانت النعال والادم والرحال جمع رحل وهى الاوعية التى يحمل فيها الطعام وغيره (لعلهم يعرفونها) يعنى يعرفون بضاعتهم (اذا انقلبوا الى أهلهم) يعنى اذا رجعوا الى أهلهم (لعلهم يرجعون) الينا واختلفوا فى السبب الذى من أجله رد يوسف عليه الصلاة والسلام عليهم بضاعتهم فقيل انهم اذا فتحوا امتاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت اليهم علموا ان ذلك من كرم يوسف وسخائه فيبعثهم ذلك على الرجوع اليه سريعا وقيل انه خاف أن لا يكون عند أبيه شئ آخر من المال لان الزمان كان زمان قحط وشدة وقيل انه رأى ان أخذ ثمن الطعام من أبيه واخوته لؤم لشدة حاجتهم اليه وقيل أراد ان يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه لوم ولا عيب وقيل اراد ان يريهم بره وكرمه واحسانه اليهم فى رد بضاعتهم ليكون ذلك ادعى الى العود اليه وقيل انما فعل ذلك لانه علم ان ديانتهم وأمانتهم تحملهم على رد البضاعة اليه اذا وجدوها فى رحالهم لانهم أنبياء وأولاد أنبياء وقيل أراد برد البضاعة اليهم ان يكون ذلك عونا لابيه ولاخوته على شدة الزمان (فلما

(ولما جهزهم بجهازهم) أعطى كل واحد منهم حمل بعير وقرئ بكسر الجيم شاذا (قال ائتونى بأخ لكم من ابيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل) أتمه (وأنا خير المنزلين) كان قد أحسن انزالهم وضيافتهم ورغبهم بهذا الكلام على الرجوع اليه (فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى) فلا أبيعكم طعاما (ولا تقربون) أى فان لم تأتونى به تحرموا ولا تقربوا فهو داخل فى حكم الجزاء مجزوم معطوف على محل قوله فلا كيل لكم أو هو بمعنى النهى (قالوا سنراود عنه أباه) سنخادعه عنه ونحتال حتى ننزعه من يده (وانا لفاعلون) ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى قال فدعوا بعضكم رهنا فتركوا عنده شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف (وقال لفتيانه) كوفى غير أبى بكر لفتيته غيرهم وهما جمع فتى كاخوة واخوان فى أخ وفعلة للقلة وفعلان للكثرة أى لغلمانه الكيالين (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) أوعيتهم وكانت نعالا أو ادما أو ورقا وهو أليق بالدس فى الرحال (لعلهم يعرفونها) يعرفون حق ردها وحق التكرم باعطاء البدلين (اذا انقلبوا الى أهلهم) وفرغوا ظروفهم (لعلهم يرجعون) لعل معرفتهم بذلك تدعوهم الى الرجوع الينا اورعنا لا يجدون بضاعة بها يرجعون أو ما فيهم من الديانة يبعدهم لرد الامانة اولم ... رجعوا ير من الكرم أن يأخذ من أبيه واخوته ثمنا (فلما

رجعوا الى أبيهم قالوا يا أبانا) انا قدمنا على خير رجل انزلنا واكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من أولاد يعقوب ما اكرمنا كرامته فقال لهم يعقوب اذا رجعتم الى ملك مصر فاقرؤا عليه منى السلام وقولوا له ان أبانا يصلى عليك ويدعو لك بما اوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر عنده وأخبروه بالقصة ثم قالوا يا أبانا (منع منا الكيل) وفيه قولان أحدهما انهم لما أخبروا يوسف بأخيهم من أبيهم طلبوا منه الطعام لابيهم وأخيهم المتخلف عند أبيهم فمنعهم من ذلك حتى يحضر فقولهم منع منا الكيل اشارة اليه وأراد بالكيل الطعام لانه يكال والقول الثانى انه سيمنع منا الكيل فى المستقبل وهو اشارة الى قول يوسف فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون وقال الحسن يمنع منا الكيل ان لم نحمل معنا أخانا وهو قوله تعالى اخبارا عنهم (فارسل معنا أخانا) يعنى بنيامين (نكتل) قرئ بالياء يعنى يكتل لنفسه وقرئ بالنون يعنى نكتل نحن جميعا واياه معنا (وانا له لحافظون) يعنى نرده اليك فلما قالوا ليعقوب هذه المقالة (قال) يعنى يعقوب (هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل) يعنى كيف آمنكم على ولدى بنيامين وقد فعلتم باخيه يوسف ما فعلتم وانكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه فى يوسف وضمنتم لى حفظه وقلتم وانا له لحافظون فما فعلتم فلما لم يحصل الامان والحفظ هنالك فكيف يحصل ههنا ثم قال (فالله خير حفظا) يعنى ان حفظ الله خير من حفظكم له فقيه التفويض الى الله تعالى والاعتماد عليه فى جميع الامور (وهو أرحم الراحمين) وظاهر هذا الكلام يدل على انه ارسله معهم وانما أرسله معهم وقد شاهد مافعلوا بيوسف لانه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف أو ان يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح لما كبروا فارسله معهم أو ان شدة القحط وضيق الوقت احوجه الى ذلك قوله تعالى (ولما فتحوا متاعهم) يعنى الذى حملوه من مصر فيحتمل أن يكون المراد به الطعام أو أوعية الطعام (وجدوا بضاعتهم ردت اليهم) يعنى انهم وجدوا فى متاعهم ثمن الطعام الذى كانوا قد اعطوه ليوسف قد رد عليهم ودس فى متاعهم (قالوا يا أبانا ما نبغى) يعنى ماذا نبغى وأى شئ نطلب وذلك أنهم كانوا قد ذكروا ليعقوب احسان ملك مصر اليهم وحثوا يعقوب على ارسال بنيامين معهم فلما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت اليهم قالوا أى شئ نطلب من الكلام بعد هذا العيان من الاحسان والاكرام أوفى لنا الكيل ورد علينا الثمن وأرادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم (هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا) يقال مار أهله يميرهم ميرا اذا حمل اليهم الطعام وجلبه من بلد آخر اليهم والمعنى انا نشترى لاهلنا الطعام ونحمله اليهم (ونحفظ أخانا) يعنى بنيامين مما تخاف عليه حتى نرده اليك (ونزداد كيل بعير) يعنى ونزداد لاجل أخينا على احمالنا حمل بعير من الطعام (ذلك كيل يسير) يعنى ان ذلك الحمل الذى

رجعوا الى ابيهم) بالطعام واخبروه بما فعل (قالوا يا أبانا منع منا الكيل) يريدون قول يوسف فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى لانهم اذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل (فارسل معنا أخانا نكتل) نرفع المانع من الكيل ونكتل من الطعام ما نحتاج اليه يكتل حمزة وعلى أى يكتل اخونا فينضم اكتياله الى اكتيالنا (وانا له لحافظون) عن ان يناله مكروه (قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على اخيه من قبل) يعنى انكم قلتم فى يوسف ارسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون كما تقولونه فى اخيه ثم خنتم بضمانكم فما يأمننى من مثل ذلك ثم قال (فالله خير حافظا) كوفى غير أبي بكر فتوكل على الله فيه ودفعه اليهم وهو حال أو تمييز ومن قرأ حفظا فهو تمييز لا غير (وهو أرحم الراحمين) فارجو أن ينعم على بحفظه ولا يجمع على مصيبتين قال كعب لما قال فالله خير حفظا قال الله تعالى وعزتى وجلالى لاردن عليك كليهما (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا أبانا ما نبغى) ما للنفى أى ما نبغى فى القول ولا نتجاوز الحق أو ما نبغى شيأ وراء ما فعل بنا من الاحسان أو ما نريد منك بضاعة أخرى أو للاستفهام أى أى شئ نطلب وراء هذا (هذه بضاعتنا ردت الينا) جملة مستأنفة موضحة لقوله ما نبغى والجمل بعدها معطوفة عليها أى ان بضاعتنا ردت الينا فنستظهر بها (ونمير أهلنا) فى رجوعنا الى الملك أى نجلب لهم ميرة وهى طعام يحمل من غير بلدك (ونحفظ أخانا) فى ذهابنا ومجيئنا فما يصيبه شئ مما تخافه (ونزداد كيل بعير) نزداد وسق بعير باستصحاب أخينا (ذلك كيل يسير) سهل عليه متيسر لا يتعاظمه

(قال لن أرسله معكم حتى تؤتون) وبالياء مكي (موثقا) عهدا (من الله) والمعنى حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله أي أراد ان يحلفوا له بالله وانما جعل الحلف بالله موثقا منه لان الحلف به مما يؤكد به العهود وقد أذن الله في

نزداد به من الطعام هين على الملك لانه قد أحسن الينا وأكرمنا بأكثر من ذلك وقيل معناه ان الذي حملناه معنا كيل يسير قليل لا يكفينا وأهلنا (قال) يعني قال لهم يعقوب (لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله) يعني لن أرسل معكم بنيامين حتى تؤتوني عهد الله وميثاقه والموثق العهد المؤكد باليمين وقيل هو المؤكد باشهاد الله عليه (لتأتنني به) دخلت اللام هنا لاجل اليمين وتقديره حتى تحلفوا بالله لتأتنني به (الا أن يحاط بكم) قال مجاهد الا أن تهلكوا جميعا فيكون عذرا لكم عندي لان العرب تقول احيط بفلان اذا هلك أو قارب هلاكه وقال قتادة الا أن تغلبوا جميعا فلا تقدروا على الرجوع (فلما آتوه موثقهم) يعني فلما اعطوه عهدهم وحلفوا له (قال الله على ما نقول وكيل) يعني قال يعقوب الله شاهد على ما نقول كأن الشاهد وكيل بمعنى انه موكول اليه هذا العهد وقيل وكيل بمعنى حافظ قال كعب الاحبار لما قال يعقوب فالله خير حفظا قال الله تعالى وعزتي وجلالي لاردن عليك كليهما بعد ما توكلت علي وفوضت أمرك الي وذلك انه لما اشتد بهم الامر وضاق عليهم الوقت وجهدوا أشد الجهد لم يجد يعقوب بدا من ارسال بنيامين معهم فأرسله معهم متوكلا على الله ومفوضا أمره اليه. قوله عز وجل اخبارا عن يعقوب (وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) وذلك انهم لما خرجوا من عند يعقوب قاصدين مصر قال لهم يا بني لا تدخلوا يعني مدينة مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب وقال السدي اراد الطرق لا الابواب يعني من طرق متفرقة وانما أمرهم بذلك لانه خاف عليهم العين لانهم كانوا قد اعطوا جمالا وقوة وامتداد قامة وكانوا أولاد رجل واحد فأمرهم ان يتفرقوا في دخولهم المدينة لئلا يصابوا بالعين فان العين حق وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العين حق زاد البخاري ونهى عن الوشم (م) عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العين حق ولو كان شئ سابق القدر لسبقته العين واذا استغسلتم فاغتسلوا عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين أخرجه أبو داود قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى قال المازري أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقالوا العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد قولهم ان كل معنى يكون مخالفا في نفسه ولا يؤدي الى قلب حقيقة ولا افساد دليل فانه من مجوزات العقول واذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وانكاره وقيل لا بد من فرق بين تكذيبهم بهذا وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة قال وقد زعم بعض الطبائعيين المثبتين للعين ان العائن تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد قالوا ولا يمتنع هذا كما لا يمتنع انبعاث قوة

ذلك فهو اذن منه (لتأتنني به) جواب اليمين لان المعنى حتى تحلفوا لتأتنني به (الا أن يحاط بكم) الا أن تغلبوا فلم تطيقوا الاتيان به فهو مفعول له والكلام المثبت وهو قوله لتأتنني به في تأويل النفي أي لا تمتنعوا من الاتيان به الا للاحاطة بكم يعني لا تمتنعوا منه لعلة من العلل الا لعلة واحدة وهي ان يحاط بكم فهو استثناء من اعم العام في المفعول له والاستثناء من أعم العام لا يكون الا في النفي فلا بد من تأويله بالنفي (فلما آتوه موثقهم) قيل حلفوا بالله رب محمد عليه السلام (قال) بعضهم يسكت عليه لان المعنى قال يعقوب (الله على ما نقول) من طلب الموثق واعطائه (وكيل) رقيب مطلع غير أن السكتة تفصل بين القول والمقول وذا لا يجوز فالاولى أن يفرق بينهما بالصوت فيقصد بقوة النغمة اسم الله (وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة) الجمهور على انه خاف عليهم العين لجمالهم وجلالة أمرهم ولم يأمرهم بالتفرق في الكرة الاولى لانهم كانوا مجهولين في الكرة الاولى فالعين حق عندنا وجوده بان يحدث الله تعالى عند النظر الى الشئ والاعجاب به نقصانا فيه وخللا وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين رضي الله عنهما فيقول أعيذكما بكلمات الله التامة من كل هامة ومن كل عين لامة وانكر الجبائي العين وهو مردود بما ذكرنا وقيل اني أحب ان لا يفطن بهم أعداؤهم فيحتالوا لاهلاكهم

سمية

سمية من الافعى والعقرب تتصل بالملدوغ فيهلك وان كان غير محسوس لنا فكذا العين قال المازرى وهذا غير مسلم لانا بينا فى كتب علم الكلام انه لا فاعل الا الله تعالى وبينا فساد القول بالطبائع وبينا ان المحدث لا يفعل فى غيره شيأ فاذا تقرر هذا بطل ما قالوه ثم نقول هذا المنبعث من العين اما جوهر واما عرض فباطل أن يكون عرضا لانه لا يقبل الانتقال وباطل أن يكون جوهرا لان الجواهر متجانسة فليس بعضها بأن يكون مفسدا لبعض باولى من عكسه فبطل ما قالوه وأقرب طريقة قالها من ينتحل الاسلام منهم أن قالوا لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من عين العائن لتتصل بالمعين فتتخلل مسام جسمه فيخلق الله عز وجل الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السموم عادة أجراها الله عز وجل وليست ضرورة ولا طبيعة ألجأ الفعل اليها قال ومذهب أهل السنة ان المعين انما يفسد ويهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالى أجرى الله تعالى العادة بان يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص شخصا آخر وهل ثم جواهر أم لا فهذا من مجوزات العقول لا يقطع فيه بواحد من الامرين وانما يقطع بنفى الفعل عنها واضافته الى الله تعالى فمن قطع من أطباء الاسلام بانبعاث الجواهر فقد أخطأ فى قطعه وانما هو من الجائزات هذا ما يتعلق بعلم الاصول وأما ما يتعلق بعلم الفقه فان الشرع قد ورد بالوضوء لهذا الامر فى حديث سهل بن حنيف لما أصيب بالعين عند اغتساله رواه مالك فى الموطا واما صفة وضوء العائن فمذكور فى كتب شروح الحديث ومعروف عند العلماء فيطلب من هنالك فليس هذا موضعه والله أعلم وقال وهب بن منبه فى قوله لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة انه خاف أن يغتالوا لما ظهر لهم فى أرض مصر من التهمة حكاه ابن الجوزى عنه وقيل ان يعقوب عليه الصلاة والسلام كان قد علم ان ملك مصر هو ولده يوسف عليه الصلاة والسلام الا أن الله تعالى لم يأذن له فى اظهاره ذلك فلما بعث أبناءه اليه قال لهم لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه أن يصل بنيامين الى أخيه يوسف فى وقت الخلوة قبل اخوته والقول الاول أصح انه خاف عليهم من العين ثم رجع الى علمه وفوض أمره الى الله تعالى بقوله (وما أغنى عنكم من الله من شئ) يعنى ان كان الله قد قضى عليكم بقضاء فهو يصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين فان المقدور كائن ولا ينفع حذر من قدر (ان الحكم الا لله) يعنى وما الحكم الا لله وحده لا شريك له فيه وهذا تفويض من يعقوب فى أموره كلها الى الله تعالى (عليه توكلت) يعنى عليه اعتمدت فى أمورى كلها لا على غيره (وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) يعنى من الابواب المتفرقة وكان لمدينة مصر وقيل مدينة الفرماء أربعة أبواب فدخلوا من أبوابها كلها (ما كان يغنى عنهم من الله من شئ) وهذا تصديق من الله سبحانه وتعالى ليعقوب فيما قال وما أغنى عنكم من الله من شئ (الا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) هذا استثناء منقطع ليس من الاول فى شئ ومعناه لكن حاجة فى نفس يعقوب قضاها وهو انه أشفق عليهم اشفاق الآباء على الابناء وذلك انه خاف عليهم من العين أو خاف عليهم حسد أهل مصر أو خاف

(وما أغنى عنكم من الله من شئ) أى ان كان الله أراد بكم سوأ لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق وهو مصيبكم لا محالة (ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) التوكل تفويض الامر الى الله تعالى والاعتماد عليه (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) أى متفرقين (ما كان يغنى عنهم) دخولهم من أبواب متفرقة (من الله من شئ) أى شيأ قط حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرقهم من اضافة السرقة اليهم وافتضاحهم بذلك وأخذ أخيهم بوجدان الصواع فى رحله وتضاعف المصيبة على أبيهم (الا حاجة) استثناء منقطع أى ولكن حاجة (فى نفس يعقوب قضاها) وهى شفقته عليهم

ان لا يردوا عليه فاشفق من هذا كله أو بعضه (وانه) يعني يعقوب (لذو علم) يعني صاحب علم (لما علمناه) يعني لتعليمنا اياه ذلك العلم وقيل معناه وانه لذو علم الشيء الذي علمناه والمعنى انا لما علمناه هذه الاشياء حصل له العلم بتلك الاشياء وقيل وانه لذو حفظ لما علمناه وقيل انه كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل وقيل انه لعامل بما علمناه قال سفيان من لا يعمل بما يعلم لا يكون عالما (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعني لا يعلمون ما كان يعلم يعقوب لانهم لم يسلكوا طريق اصابة العلم وقال ابن عباس لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه قوله تعالى (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه) قال المفسرون لما دخل اخوة يوسف على يوسف قالوا أيها الملك هذا أخونا الذي أمرتنا ان نأتيك به فقد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي ثم أنزلهم وأكرمهم ثم انه أضافهم وأجلس كل اثنين على مائدة فبقي بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيا لاجلسني معه فقال لهم يوسف لقد بقي هذا وحده فقالوا كان له أخ فهلك قال لهم فانا أجلسه معي فاخذه فاجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك وقال كل اثنين منكم ينامان على فراش واحد فبقي بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام عندي على فراشي فنام بنيامين مع يوسف على فراشه فجعل يوسف يضمه اليه ويشم ريحه حتى أصبح فلما أصبح قال لهم اني أرى هذا الرجل وحيدا ليس معه ثان وسأضمه الي فيكون معي في منزلي ثم انه أنزلهم وأجرى عليهم الطعام فقال روبيل ما رأينا مثل هذا فذلك قوله آوى اليه أخاه يعني ضمه وأنزله معه في منزله فلما خلا به قال له يوسف ما اسمك قال بنيامين قال وما بنيامين قال ابن المثكل وذلك انه لما ولدته أمه هلكت قال وما اسم أمك قال راحيل قال فهل لك من ولد قال عشر بنين قال فهل لك من أخ لامك قال كان لي أخ فهلك قال يوسف أتحب ان أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال بنيامين ومن يجد أخا مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه الصلاة والسلام وقام اليه وعانقه و (قال) له (اني أنا أخوك) يعني يوسف (فلا تبتئس) يعني لا تحزن وقال أهل اللغة تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس (بما كانوا يعملون) يعني فلا تحزن بشيء فعلوه بنا فيما مضى فان الله قد أحسن الينا ونجانا من الهلاك وجمع بيننا وقيل ان يوسف صفح عن اخوته وصفا لهم فاراد ان يجعل قلب أخيه بنيامين مثل قلبه صافيا عليهم ثم قال يوسف لاخيه بنيامين لا تعلم اخوتك بشيء مما أعلمتك به ثم انه أوفى لاخوته الكيل وزاد لكل واحد حمل بعير ولبنيامين حمل بعير باسمه ثم أمر بسقاية الملك فجعلت في رحل أخيه بنيامين قال السدي وهو لا يشعر وقال كعب لما قال له يوسف اني انا أخوك قال بنيامين أنا لا أفارقك فقال يوسف قد علمت اغتمام والدي علي فاذا حبستك عندي ازداد غمه ولا يمكنني هذا الا بعد ان أشهرك بامر فظيع وانسبك الى ما لا يحمد قال لا أبالي فافعل ما بدا لك فاني لا أفارقك قال فاني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليكم بالسرقة ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك قال فافعل ما شئت فذلك قوله عز وجل (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية

(وانه لذو علم) يعني قوله وما أغني عنكم وعليه بان القدر لا يغني عنه الحذر (لما علمناه) لتعليمنا اياه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه) ضم اليه بنيامين وروي انهم قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم فانزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيا لاجلسني معه فقال يوسف بقي أخوكم وحيدا فاجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله وقال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال ومن يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وعانقه ثم (قال) له (اني أنا أخوك) يوسف (فلا تبتئس) فلا تحزن (بما كانوا يعملون) بنا فيما مضى فان الله قد أحسن الينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما أعلمتك وروي أنه قال له فانا لا أفارقك قال لقد علمت اغتمام والدي بي فان حبستك ازداد غمه ولا سبيل الى ذلك الا ان أنسبك الى ما لا يحمد قال لا أبالي فافعل ما بدا لك قال فاني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بانك سرقته ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك معهم فقال افعل (فلما جهزهم بجهازهم) هيأ أسبابهم وأوفى الكيل لهم (جعل السقاية

في رحل أخيه) وهي المشربة التي كان الملك يشرب فيها قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن اسحق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجوهر جعلها يوسف مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها والسقاية والصواع اسم لاناء واحد وجعلت في وعاء طعام أخيه بنيامين ثم ارتحلوا راجعين الى بلادهم فامهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم أرسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم (ثم أذن مؤذن) يعني نادي مناد وأعلم معلم والاذان في اللغة الاعلام (أيتها العير) وهي القافلة التي فيها الاحمال وقال مجاهد العير الحمير والبغال وقال أبو الهيثم كل ما سير عليه من الابل والحمير والبغال فهي عير وقول من قال انها الابل خاصة باطل وقيل العير الابل التي تحمل عليها الاحمال سميت بذلك لانها تعير أي تذهب وتجيء وقيل هي قافلة الحمير ثم كثر ذلك في الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير وقوله أيتها العير أراد أصحاب العير (انكم لسارقون) فقفوا والسرقة أخذ ما ليس له أخذه في خفاء فان قلت هل كان هذا النداء بامر يوسف أم لا فان كان بامره فكيف يليق بيوسف مع علو منصبه وشريف رتبته من النبوة والرسالة ان يتهم أقواما وينسبهم الى السرقة كذبا مع علمه ببراءتهم من ذلك وان كان ذلك النداء بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة التي نسبوا اليها قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة أحدها ان يوسف لما أظهر لاخيه انه أخوه قال لست أفارقك قال لا سبيل الى ذلك الا بتدبير حيلة أنسبك فيها الى ما لا يليق قال رضيت بذلك فعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام بل قد رضي به فلا يكون ذنبا الثاني ان يكون المعنى انكم لسارقون ليوسف من أبيه الا انهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفي المعاريض مندوحة عن الكذب الثالث يحتمل أن يكون المنادي ربما قال ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير لا يكون كذبا الرابع ليس في القرآن ما يدل على انهم قالوا ذلك بأمر يوسف وهو الاقرب الى ظاهر الحال لانهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم وغلب على ظنهم انهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون) قال أصحاب الاخبار لما وصل الرسل الى اخوة يوسف قالوا لهم ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ونوف اليكم الكيل ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك قالوا افتقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى قالوا وأقبلوا عليهم أي عطفوا على المؤذن وأصحابه ماذا أي ما الذي تفقدون والفقدان ضد الوجود (قالوا) يعني المؤذن وأصحابه (نفقد صواع الملك) الصاع الاناء الذي يكال به وجمعه أصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان (ولمن جاء به) يعني بالصواع (حمل بعير) يعني من الطعام (وأنا به زعيم) أي كفيل قال الكلبي الزعيم هو الكفيل بلسان أهل اليمن وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم وقد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بها في قوله الحميل غارم والحميل الكفيل فان قلت كيف تصح هذه الكفالة

في رحل أخيه) السقاية هي مشربة يسقى بها وهي الصواع قيل كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به لعزة الطعام وكان يشبه الطاس من فضة أو ذهب (ثم أذن مؤذن) ثم نادى مناد آذنه أي اعلمه واذن أكثر الاعلام ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه روى انهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا ثم أمر بهم فادركوا وحبسوا ثم قيل لهم (أيتها العير) هي الابل التي عليها الاحمال لانها تعير أي تذهب وتجيء والمراد أصحاب العير (انكم لسارقون) كناية عن سرقتهم اياه من أبيه (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك) هو الصاع (ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم) يقوله المؤذن يريد وأنا بحمل البعير كفيل أؤديه الى من جاء به وأراد وسق بعير من طعام

مع ان السارق لا يستحق شيأ قلت لم يكونوا سراقا فى الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون جعالة أو لعل مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم فى ذلك الزمان فيحمل عليه (قالوا) يعنى اخوة يوسف (تالله) التاء بدل من الواو ولا تدخل الا على اسم الله فى اليمين خاصة تقديره والله (لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض وما كنا سارقين) قال المفسرون ان اخوة يوسف حلفوا على أمرين أحدهما انهم ما جاؤا لاجل الفساد فى الارض والثانى انهم ما جاؤا سارقين وانما قالوا هذه المقالة لانه كان قد ظهر من أحوالهم ما يدل على صدقهم وهو انهم كانوا مواظبين على أنواع الخير والطاعة والبر حتى بلغ من أمرهم انهم شدوا أفواه دوابهم لئلا تؤذى زرع الناس ومن كانت هذه صفته فالفساد فى حقه ممتنع واما الثانى وهو انهم ما كانوا سارقين فلانهم قد كانوا ردوا البضاعة التى وجدوها فى رحالهم ولم يستحلوا أخذها ومن كانت هذه صفته فليس بسارق فلاجل ذلك قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض وما كنا سارقين فلما تبينت براءتهم من هذه التهمة (قالوا) يعنى أصحاب يوسف وهو المنادى وأصحابه (فما جزاؤه ان كنتم كاذبين) يعنى فما جزاء السارق ان كنتم كاذبين فى قولكم ما جئنا لنفسد فى الارض وما كنا سارقين (قالوا) يعنى أخوة يوسف (جزاؤه من وجد فى رحله) يعنى جزاء السارق الذى وجد فى رحله ان يسلم برقبته الى المسروق منه فيسترقه سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب فى حكم السارق وكان فى حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفى قيمة المسروق وكان هذا فى شرعهم فى ذلك الزمان يجرى مجرى القطع فى شرعنا فأراد يوسف ان يأخذ بحكم ابيه فى السارق فلذلك رد الحكم اليهم والمعنى ان جزاء السارق ان يستعبد سنة جزاء له على جرمه وسرقته (فهو جزاؤه) يعنى هذا الجزاء جزاؤه (كذلك نجزى الظالمين) يعنى مثل هذا الجزاء وهو ان يسترق السارق سنة نجزى الظالمين ثم قيل هذا الكلام من بقية كلام اخوة يوسف وقيل هو من كلام أصحاب يوسف فعلى هذا ان اخوة يوسف لما قالوا جزاء السارق ان يسترق سنة قال أصحاب يوسف كذلك نجزى الظالمين يعنى السارقين قوله عز وجل (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) قال أهل التفسير ان اخوة يوسف لما أقروا ان جزاء السارق ان يسترق سنة قال أصحاب يوسف لا بد من تفتيش رحالكم فردوهم الى يوسف فامر بتفتيشها بين يديه فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه لازالة التهمة فجعل يفتش أوعيتهم واحدا واحدا قال قتادة ذكر لنا انه كان لا يفتح متاعا ولا ينظر وعاء الا استغفر الله تأثما مما قذفهم به حتى لم يبق الا رحل بنيامين قال ما أظن هذا أخذ شيأ قال اخوته والله لا نتركك حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى (ثم استخرجها من وعاء أخيه) انما أنث الكناية لانه ردها الى السقاية وقيل ان الصواع يذكر ويؤنث فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس اخوة يوسف رؤسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ما صنعت بنا فضحتنا وسودت وجوهنا يا بنى راحيل ما زال لنا منكم بلاء متى أخذت هذا الصواع فقال بنيامين بل بنو راحيل ما زال لهم منكم

تعجبا لمن حضره (قالوا تالله) قسم فيه معنى التعجب مما أضيف اليهم (لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض) استشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم حيث دخلوا وأفواه رواحلهم مشدودة لئلا تتناول زرعا أو طعاما لاحد من أهل السوق ولانهم ردوا بضاعتهم التى وجدوها فى رحالهم (وما كنا سارقين) وما كنا نوصف قط بالسرقة (قالوا فما جزاؤه) الضمير للصواع أى فما جزاء سرقته (ان كنتم كاذبين) فى جحودكم وادعائكم البراءة منه (قالوا جزاؤه من وجد فى رحله) أى جزاء سرقته أخذ من وجد فى رحله وكان حكم السارق فى آل يعقوب ان يسترق سنة فلذلك استفتوا فى جزائه وقولهم (فهو جزاؤه) تقرير للحكم أى فاخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هى خبره (كذلك نجزى الظالمين) أى السراق بالاسترقاق (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفى التهمة حتى بلغ وعاءه فقال ما أظن هذا أخذ شيأ فقالوا والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا (ثم استخرجها) أى الصواع (من وعاء أخيه) ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنثه لان التأنيث يرجع الى السقاية أو لان الصواع يذكر ويؤنث

بلا أخذتم باخي فاهلكتموه في البرية ان الذي وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم قالوا فاخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادي وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين فاخذوه برقبته وردوه الى يوسف (كذلك كدنا ليوسف) يعني ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف وهو اشارة الى الحكم الذي ذكره اخوة يوسف باسترقاق السارق أي مثل ذلك الحكم الذي ذكره اخوة يوسف حكمنا به ليوسف ولفظ الكيد مستعار للحيلة والخديعة وهذا في حق الله عز وجل محال فيجب تأويل هذه اللفظة بما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى فنقول الكيد هنا جزاء الكيد يعني كما فعلوا بيوسف في الابتداء فعلنا بهم فالكيد من الخلق الحيلة ومن الله التدبير بالحق والمعنى كما ألهمنا اخوة يوسف بأن حكموا ان جزاء السارق ان يسترق كذلك ألهمنا يوسف حتى دس الصواع في رحل أخيه ليضمه اليه على ما حكم به اخوته وقال ابن الاعرابي الكيد التدبير بالباطل وبحق فعلى هذا يكون المعنى كذلك دبرنا ليوسف وقيل صنعنا ليوسف وقال ابن الانباري كدنا وقع خبرا من الله عز وجل على خلاف معناه في أوصاف المخلوقين فانه اذا أخبر به عن مخلوق كان تحته احتيال وهو في موضع فعل الله معرى من المعاني المذمومة ويخلص بانه وقع بمن يكيده تدبير ما يريده به من حيث لا يشعر ولا يقدر على دفعه فهو من الله مشيئته بالذي يكون من اجل أن المخلوق اذا كاد المخلوق ستر عنه ما ينويه ويضمره له من الذي يقع به من الكيد فهو من الله تعالى استتار هو ما ختم الله به عاقبته والذي وقع باخوة يوسف من كيد الله وما انتهى اليه شأن يوسف من ارتفاع المنزلة وتمام النعمة وحيث يجري الامر على غير ما قدروا من اهلاكه وخلوص أبيهم له بعده وكل ذلك جرى بتدبير الله تعالى وخفي لطفه سماه كيدا لانه أشبه كيد المخلوقين فعلى هذا يكون كيد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام عائدا الى جميع ما أعطاه الله وأنعم به عليه على خلاف تدبير اخوته من غير أن يشعروا بذلك وقوله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) يعني في حكم الملك وقضائه لانه كان في حكم الملك ان السارق يضرب ويغرم ضعفي قيمة المسروق يعني في حكم الملك وقضائه فلم يتمكن يوسف من حبس أخيه عنده في حكم الملك فالله تعالى ألهم يوسف ما دبره حتى وجد السبيل الى ذلك (الا أن يشاء الله) يعني ان ذلك الامر كان بمشيئة الله وتدبيره لان ذلك كله كان الهاما من الله ليوسف واخوته حتى جرى الامر على وفق المراد (نرفع درجات من نشاء) يعني بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على اخوته وفي هذه الآية دلالة على أن العلم الشريف أشرف المقامات وأعلى الدرجات لان الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته على اخوته بالعلم وبما ألهمه على وجه الهداية والصواب في الامور كلها (وفوق كل ذي علم عليم) قال ابن عباس فوق كل عالم عالم الى أن ينتهي العلم الى الله تعالى فالله تعالى فوق كل عالم لانه هو الغني بعلمه عن التعليم وفي الآية دليل على ان اخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم قال ابن الانباري يجب ان يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه تعالى ولا يطمع نفسه في الغلبة لانه لا يخلو عالم من عالم فوقه قوله

الكاف في (كذلك) في محل النصب أي مثل ذلك الكيد العظيم (كدنا ليوسف) يعني علمناه اياه (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) تفسير للكيد وبيان له لان الحكم في دين الملك اى في سيرته للسارق ان يغرم مثلي ما أخذ لا ان يستعبد (الا أن يشاء الله) اى ما كان ليأخذه الا بمشيئة الله وارادته فيه (نرفع درجات) بالتنوين كوفي (من نشاء) أي في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه (وفوق كل ذي علم عليم) فوقه أرفع درجة منه في علمه او فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم وهو الله عز وجل

تعالى (قالوا) يعنى اخوة يوسف (ان يسرق) يعنى بنيامين الصواع (فقد سرق أخ له من قبل) يعنى يوسف ظاهر الآية يقتضى ان اخوة يوسف قالوا للملك ان هذا الامر ليس بغريب منه فان أخاه الذى هلك كان سارقا أيضا وكان غرضهم من هذا الكلام انا لسنا على طريقته ولا على سيرته بل هذا وأخوه كانا على هذه الطريقة وهذه السيرة لانهما من أم أخرى غير أمنا واختلفوا فى السرقة التى نسبوها الى يوسف عليه الصلاة والسلام فقال سعيد بن جبير وقتادة كان لجده أبى أمه صنم وكان يعبده فأخذه يوسف سرا وكسره وألقاه فى الطريق لئلا يعبده وقال مجاهد ان يوسف جاءه سائل يوما فأخذ بيضة من البيت فناولها له وقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير الذى كان فى بيت يعقوب فأعطاها سائلا وقال وهب كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء وذكر محمد بن اسحق ان يوسف كان عند عمته ابنة اسحق بعد موت أمه راحيل فحضنته عمته وأحبته حبا شديدا فلما ترعرع وكبر وقعت محبة يعقوب عليه فأتاها فقال لاخته يا أختاه سلمى الى يوسف فوالله ما أقدر على ان يغيب عنى ساعة واحدة فقالت لا أعطيكه فقال اما والله ما أنا بتاركه عندك فقالت دعه عندى أياما أنظر اليه لعل ذلك يسلينى عنه ففعل ذلك فعمدت الى منطقة كانت لاسحق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكانت أكبر أولاد اسحق فكانت عندها فشدت المنطقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت لقد فقدت منطقة اسحق ففتشوا أهل البيت فوجدوها مع يوسف فقالت انه لسلم لى يعنى يوسف فقال يعقوب ان كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت فلذلك قال اخوة يوسف ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل يعنون هذه السرقة قال ابن الانبارى وليس فى هذه الافعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها تشبه السرقة فعيروه بها عند الغضب (فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم) فى هاء الكناية ثلاثة أقوال أحدها ان الضمير يرجع الى الكلمة التى بعدها وهى قوله تعالى (قال) يعنى يوسف (أنتم شر مكانا) روى هذا المعنى العوفى عن ابن عباس والثانى ان الضمير يرجع الى الكلمة التى قالوها فى حقه وهى قولهم فقد سرق أخ له من قبل وهذا معنى قول أبى صالح عن ابن عباس فعلى هذا القول يكون المعنى فأسر يوسف جواب الكلمة التى قالوها فى حقه ولم يجبهم عليها والثالث ان الضمير يرجع الى الحجة فيكون المعنى على هذا القول فأسر يوسف الاحتجاج عليهم فى ادعائهم عليه السرقة ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا يعنى منزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة لانه لم يكن من يوسف سرقة فى الحقيقة وخيانتكم حقيقة (والله أعلم بما تصفون) يعنى بحقيقة ما تقولون. قوله عز وجل (قالوا) يعنى اخوة يوسف (يا أيها العزيز) يخاطبون بذلك الملك (ان له أبا شيخا كبيرا) قال أصحاب الاخبار والسير ان يوسف عليه الصلاة والسلام لما استخرج الصواع من رحل أخيه بنيامين نقره وأدناه الى اذنه ثم قال ان صواعى هذا يخبرنى انكم اثنا عشر رجلا لأب واحد وانكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه قال بنيامين أيها الملك سل صواعك هذا من جعله فى رحلى فنقره ثم قال ان صواعى غضبان وهو يقول كيف تسألنى عن صاحبى

(قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل) أرادوا يوسف قيل دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه وقيل كان فى المنزل دجاجة فأعطاها السائل وقيل كانت منطقة لابراهيم عليه السلام يتوارثها أكابر ولده فورثها اسحق ثم وقعت الى ابنته وكانت أكبر أولاده فحضنت يوسف وهى عمته بعد وفاة امه وكانت لا تصبر عنه فلما شب أراد يعقوب ان ينزعه منها فعمدت الى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت فقدت منطقة اسحق فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لى سلم أفعل به ما شئت فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت وروى انهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس اخوته رؤسهم حياء وأقبلوا عليه وقالوا له فضحتنا وسودت وجوهنا يا بنى راحيل ما يزال لنا منكم بلاء متى أخذت هذا الصاع فقال بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم بلاء ذهبتم بأخى فأهلكتموه ووضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم (فأسرها) أى مقالتهم انه سرق كأنه لم يسمعها (يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا) تمييز أى انتم شر منزلة فى السرق لانكم سرقتم أخاكم يوسف من أبيه (والله أعلم بما تصفون) تقولون أو تكذبون (قالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا) فى السن أو فى القدر

وقد روى بت مع من كنت قالوا فغضب روبيل لذلك وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا
وكان روبيل اذا غضب لم يقم لغضبه شئ وكان اذا صاح ألقت كل حامل حملها اذا سمعت
صوته وكان مع هذا اذا مسه أحد من ولد يعقوب يسكن غضبه وكان أقوى الاخوة
وأشدهم وقيل كانت هذه صفة شمعون بن يعقوب وقيل انه قال لاخوته كم عدد الاسواق
بمصر قالوا عشرة قال اكفوني أنتم الاسواق وأنا اكفيكم الملك او اكفوني أنتم الملك
وأنا اكفيكم الاسواق فدخلوا على يوسف فقال روبيل أيها الملك لتردن علينا أخانا أو
لاصيحن صيحة لا يبقى بمصر امرأة حامل الا وضعت ولدها وقامت كل شعرة في جسد
روبيل حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم الى جنب هذا فمسه أو خذ بيده
فاتى له فلما مسه سكن غضبه فقال لاخوته من مسني منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال
روبيل ان هذا بذر من بذر يعقوب وقيل انه غضب ثانيا فقام اليه يوسف فوكزه برجله
وأخذ بتلابيبه فوقع على الارض وقال أنتم يا معشر العبرانيين تزعمون ان لا أحد أشد
منكم فلما رأوا ما نزل بهم ورأوا أن لا سبيل الى تخليصه خضعوا وذلوا وقالوا يا أيها العزيز
ان له أبا شيخا كبيرا يعني في السن ويحتمل ان يكون كبيرا في القدر لانه نبي من أولاد
الانبياء (فخذ أحدنا مكانه) يعني بدلا منه لانه يحبه ويتسلى به عن أخيه الهالك (انا نراك
من المحسنين) يعني في افعالك كلها وقيل من المحسنين الينا في توفية الكيل وحسن
الضيافة ورد البضاعة الينا وقيل ان رددت بنيامين الينا وأخذت أحدنا مكانه كنت
من المحسنين (قال معاذ الله) يعني قال يوسف أعوذ بالله معاذا (أن نأخذ الا من وجدنا
متاعنا عنده) لم يقل من سرق تحرزا عن الكذب لانه يعلم ان أخاه ليس بسارق (انا اذا
لظالمون) يعني ان أخذنا بريئا بذنب غيره فان قلت كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل
هذه الاعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضا عنده مع علمه بشدة وجد أبيه عليه
ففيه ما فيه من العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة وكيف يجوز ليوسف مع علو
منصبه من النبوة والرسالة ان يزور على اخوته ويروج عليهم مثل هذا مع ما فيه من
الايذاء لهم فكيف يليق به هذا كله قلت قد ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة كثيرة
وأحسنها وأصحها انه انما فعل ذلك بامر الله تعالى له لا عن أمره وانما أمره الله بذلك
ليزيد بلاء يعقوب فيضاعف له الاجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه الماضين ولله تعالى
أسرار لا يعلمها أحد من خلقه فهو المتصرف في خلقه بما يشاء وهو الذي أخفى خبر
يوسف عن يعقوب في طول هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد أن يدبره فيهم والله أعلم
بأحوال عباده قوله عز وجل (فلما استيأسوا منه) يعني أيسوا من يوسف ان يجيبهم لما
سألوه وقيل أيسوا من أخيهم ان يرد عليهم وقال أبو عبيدة استيأسوا أي استيقنوا ان
الاخ لا يرد اليهم (خلصوا نجيا) يعني خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون ليس فيهم
غيرهم (قال كبيرهم) يعني في العقل والعلم لا في السن قال ابن عباس الكبير هو يهوذا
وكان أعقلهم وقال مجاهد هو شمعون وكانت له الرآسة على اخوته وقال قتادة والسدي
والضحاك هو روبيل وكان أكبرهم سنا وأحسنهم رأيا في يوسف لانه نهاهم عن قتله

(فخذ احدنا مكانه) بدله على وجه
الاسترهان او الاستعباد فان أباه
يتسلى به عن أخيه المفقود (انا
نراك من المحسنين) الينا فاتمم
احسانك او من عادتك الاحسان
فاجر على عادتك ولا تغيرها (قال
معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا
متاعنا عنده) اى نعوذ بالله
معاذا من ان نأخذ فاضيف المصدر
الى المفعول به وحذف من (انا
اذا لظالمون) اذا جواب لهم
وجزاء لان المعنى ان أخذنا بدله
ظلمنا وهذا لانه وجب على قضية
فتوا كم أخذ من وجد الصاع
في رحله واستعباده فلو أخذنا
غيره كان ذلك ظلما في مذهبكم فلم
تطلبون ما عرفتم أنه ظلم (فلما
استيأسوا) يئسوا وزيادة السين
والتاء للمبالغة كما مر في استعصم
(منه) من يوسف واجابته اياهم
(خلصوا) انفردوا عن الناس
خالصين لا يخالطهم سواهم
(نجيا) ذوي نجوى أو فوجا نجيا
أي مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا
أو تمحضوا تناجيا لاستجماعهم
لذلك وافاضتهم فيه بجد واهتمام
كانهم في أنفسهم صورة التناجي
وحقيقته فالنجي يكون بمعنى
المناجي كالسمير بمعنى المسامر
وبمعنى المصدر الذي هو التناجي
وكان تناجيهم في تدبير أمرهم
على اى صفة يذهبون وماذا
يقولون لابيهم في شأن أخيهم
(قال كبيرهم) في السن وهو
روبيل او في العقل والرأي وهو
يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون

(ألم تعلموا أن اباكم) يعني يعقوب (قد أخذ عليكم موثقا) يعني عهدا (من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف) يعني قصرتم في أمر يوسف حتى ضيعتموه (فلن أبرح الارض) يعني الارض التي أنا فيها وهي أرض مصر والمعنى فلن أخرج من أرض مصر ولا أفارقها على هذه الصورة (حتى يأذن لي أبي) يعني في الخروج من أرض مصر فيدعوني اليه (أو يحكم الله لي) برد أخي علي أو بخروجي معكم وترك أخي او يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم حتى استرد أخي (وهو خير الحاكمين) لانه يحكم بالحق والعدل والانصاف والمراد من هذا الكلام الالتجاء الى الله تعالى في اقامة عذره عند والده يعقوب عليه الصلاة والسلام (ارجعوا الى أبيكم) يعني يقول الاخ الكبير الذي عزم على الاقامة بمصر لاخوته الباقين ارجعوا الى أبيكم يعقوب (فقولوا) له (يا أبانا ان ابنك سرق) انما قالوا هذه المقالة ونسبوه الى السرقة لانهم شاهدوا الصواع وقد أخرج من متاع بنيامين فغلب على ظنهم انه سرق فلذلك نسبوه الى السرقة في ظاهر الامر لا في حقيقة الحال ويدل على انهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم (وما شهدنا الا بما علمنا) يعني ولم نقل ذلك الا بعد أن رأينا اخراج الصواع وقد أخرج من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء الا بما علمناه وهذه ليست بشهادة انما هو خبر عن صنيع ابنك انه سرق بزعمهم فيكون المعنى ان ابنك سرق في زعم الملك وأصحابه لا انا نشهد عليه بالسرقة وقرأ ابن عباس والضحاك سرق بضم السين وكسر الراء وتشديدها أي نسب الى السرقة واتهم بها وهذه القراءة لا تحتاج الى تأويل ومعناها ان القوم نسبوه الى السرقة الا ان هذه القراءة ليست مشهورة فلا تقوم بها حجة والقراءة الصحيحة المشهورة هي الاولى وقوله وما شهدنا الا بما علمنا يعني وما قلنا هذا الا بما علمنا فانا رأينا اخراج الصواع من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء الا بما علمناه وليست هذه شهادة وانما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم وقيل قال لهم يعقوب هب انه سرق فما يدري هذا الرجل ان السارق يؤخذ بسرقته الا بقولكم قالوا ما شهدنا عنده ان السارق يسترق الا بما علمنا من الحكم وكان الحكم كذلك عند الانبياء قبله وعند يعقوب وبنيه وأورد على هذا القول كيف جاز ليعقوب اخفاء هذا الحكم حتى ينكر على بنيه ذلك وأجيب عنه بانه يحتمل ان يكون ذلك الحكم كان مخصوصا بما اذا كان المسروق منه مسلما فلهذا أنكر عليهم اعلام الملك بهذا الحكم لظنه انه كافر (وما كنا للغيب حافظين) قال مجاهد وقتادة يعني ما كنا نعلم أن ابنك يسرق ويصير أمرنا الى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا الى حفظه منه سبيل وقال ابن عباس ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين وقيل معناه ان حقيقة الحال غير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لا نعلم بذلك (واسئل القرية التي كنا فيها) يعني واسأل أهل القرية الا انه حذف المضاف للايجاز ومثل هذا النوع من المجاز مشهور في كلام العرب والمراد بالقرية مصر وقال ابن عباس هي قرية من قرى مصر كان قد جرى فيها حديث السرقة والتفتيش (والعير

(ألم تعلموا أن اباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف) ما صلة أي ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم او مصدرية ومحل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف (فلن أبرح الارض) فلن أفارق أرض مصر (حتى يأذن لي أبي) في الانصراف اليه (أو يحكم الله لي) بالخروج منها او بالموت او بقتالهم (وهو خير الحاكمين) لانه لا يحكم الا بالعدل (ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق) وقرئ سرق أي نسب الى السرقة (وما شهدنا) عليه بالسرقة (الا بما علمنا) من سرقته وتيقنا إذ الصواع استخرج من وعائه (وما كنا للغيب حافظين) وما علمنا انه سيسرق حين أعطيناك الموثق (واسئل القرية التي كنا فيها) يعني مصر أي ارسل الى أهلها فاسألهم عن كنه القصة (والعير

التى أقبلنا فيها) يعنى واسأل القافلة التى كنا فيها وكان معهم قوم من كنعان من جيران يعقوب (وانا لصادقون) يعنى فيما قلناه وانما أمرهم أخوهم الذى أقام بمصر بهذه المقالة مبالغة فى ازالة التهمة عن أنفسهم عند أبيهم لانهم كانوا متهمين عنده بسبب واقعة يوسف (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا) فيه اختصار تقديره فرجعوا الى أبيهم فأخبروه بما جرى لهم فى سفرهم ذلك وبما قال لهم كبيرهم وأمرهم أن يقولوه لابيهم فعند ذلك قال لهم يعقوب بل سولت يعنى بل زينت لكم أنفسكم أمرا وهو حمل أخيكم معكم الى مصر لطلب نفع عاجل فآل أمركم الى ما آل وقيل معناه بل خيلت لكم أنفسكم انه سرق وما سرق (فصبر جميل) تقدم تفسيره فى أول السورة وقوله (عسى الله ان يأتينى بهم جميعا) يعنى يوسف وبنيامين والاخ الثالث الذى أقام بمصر وانما قال يعقوب هذه المقالة لانه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم ان الله سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله عز وجل لانه اذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع الى الفرج وقيل ان يعقوب علم بما يجرى عليه وعلى بنيه من أول الامر وهو رؤيا يوسف وقوله يابنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا فلما تناهى الامر قال عسى الله ان يأتينى بهم جميعا (انه هو العليم) يعنى بحزنى ووجدى عليهم (الحكيم) فيما يدبره ويقضيه قوله تعالى (وتولى عنهم) يعنى واعرض يعقوب عن بنيه حين بلغوه خبر بنيامين فحينئذ تناهى حزنه واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فعند ذلك أعرض عنهم (وقال يا أسفا على يوسف) الاسف أشد الحزن وانما جدد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة لان الحزن القديم اذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الاول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبرا جديدا جدد حزنه على أخيه مالك

يقول أتبكى كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له ان الاسى يبعث الاسى * فدعنى فهذا كله قبر مالك

فأجاب بان الحزن يجدد الحزن وقيل ان يوسف وبنيامين لما كانا من أم واحدة كان يعقوب يتسلى عن يوسف ببنيامين فلما حصل فراق بنيامين زاد حزنه عليه وزاد وجده وجدد حزنه على يوسف لان يوسف كان أصل المصيبة وقد اعترض بعض الجهال على يعقوب عليه السلام فى قوله يا أسفا على يوسف فقال هذه شكاية واظهار جزع فلا يليق بعلو منصبه ذلك وليس الامر كما قال هذا الجاهل المعترض لان يعقوب عليه الصلاة والسلام شكا الى الله لا منه فقوله يا أسفا على يوسف معناه يارب ارحم أسفى على يوسف وقد ذكر ابن الانبارى عن بعض اللغويين أنه قال نداء يعقوب بالاسف فى اللفظ من المجاز يعنى به غير المظهر فى اللفظ وتلخيصه يا الهى ارحم أسفى او أنت راء أسفى أو هذا أسفى فنادى الاسف فى اللفظ والمنادى سواه فى المعنى ولا مأثم اذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم لانه لم يشك الا الى ربه عز وجل فلما كان قوله يا أسفا على يوسف شكوى الى ربه كان غير ملوم فى شكواه وقيل ان يعقوب لما عظمت مصيبته واشتد بلاؤه وقويت محنته قال يا أسفا على يوسف أى أشكو الى الله شدة أسفى على يوسف ولم يشكه الى أحد من الخلق بدليل قوله انما

التى أقبلنا فيها) وأصحاب العير وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام (وانا لصادقون) فى قولنا فرجعوا الى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا) اردتموه والا فمن أدرى ذلك الرجل ان السارق يسترق لولا فتواكم وتعليمكم (فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) بيوسف وأخيه وكبيرهم (انه هو العليم) بحالى فى الحزن والاسف (الحكيم) الذى لم يبتلنى بذلك الا لحكمة (وتولى عنهم) واعرض عنهم كراهة لما جاؤا به (وقال يا أسفا على يوسف) أضاف الاسف وهو أشد الحزن والحسرة الى نفسه والالف بدل من ياء الاضافة والتجانس بين الاسف ويوسف غير متكلف ونحوه اثاقلتم الى الارض أرضيتم وهم ينهون عنه وينأون عنه ويحسبون أنهم يحسنون صنعا من سبا بنبا وانما تأسف على يوسف دون أخيه وكبيرهم لتمادى أسفه على يوسف دون الآخرين وفيه دليل على ان الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضا عنده

أشكو بثي وحزني الى الله (وابيضت عيناه من الحزن) أي عمي من شدة الحزن على يوسف قال مقاتل لم يبصر شيأ ست سنين وقيل انه ضعف بصره من كثرة البكاء وذلك ان الدمع يكثر عند غلبة البكاء فتصير العين كانها بيضاء من ذلك الماء الخارج من العين (فهو كظيم) أي مكظوم وهو الممتلئ من الحزن الممسك عليه لا يبثه قال قتادة وهو الذي يردد حزنه في جوفه ولم يقل الا خيرا وقال الحسن كان بين خروج يوسف من حجر أبيه الى يوم التقيا ثمانون سنة لم تجف عينا يعقوب وما على وجه الارض يومئذ أكرم على الله منه وقال ثابت البناني ووهب بن منبه والسدي ان جبريل عليه الصلاة والسلام دخل على يوسف وهو في السجن فقال هل تعرفني أيها الصديق قال يوسف أرى صورة طاهرة قال اني رسول رب العالمين وأنا الروح الامين فقال يوسف فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين وأمين رب العالمين قال ألم تعلم يا يوسف ان الله يطهر الارض بطهر النبيين وان الارض التي يدخلونها هي أطهر الارضين وان الله قد طهر بك الارض والسجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين قال يوسف كيف لي باسم الصديقين وتعدني من الصالحين المخلصين الطاهرين وقد ادخلت مدخل المذنبين قال انه لم يفتتن قلبك ولم تطع سيدتك في معصية ربك فلذلك سماك الله من الصديقين وعدك من المخلصين وألحقك بآبائك الصالحين قال يوسف فهل لك علم من يعقوب أيها الروح الامين قال نعم قد ذهب بصره وابتلاه الله بالحزن عليك فهو كظيم ووهب له الصبر الجميل قال فما قدر حزنه قال حزن سبعين ثكلى قال فما له من الاجر يا جبريل قال أجر مائة شهيد قال أفتراني لاقيه قال نعم فطابت نفس يوسف وقال ما أبالي بما لقيت ان رأيته قوله عز وجل (قالوا) يعني اخوة يوسف عليه الصلاة والسلام لابيهم (تالله تفتؤ تذكر يوسف) يعني لا تزال تذكر يوسف ولا تفتر عن حبه يقال ما فتئ يفعل كذا أي ما زال ولا محذوفة في جواب القسم لان موضعها معلوم فحذفت للتخفيف كقول امرئ القيس

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعدا وقوله (حتى تكون حرضا) قال ابن عباس يعني دنفا وقال مجاهد الحرض ما دون الموت يعني قريبا من الموت وقال ابن اسحق يعني فاسدا لا عقل له والحرض الذي فسد جسمه وعقله وقيل ذائبا من الهم وأصل الحرض الفساد في الجسم والعقل من الحزن او الهم ومعنى الآية حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل يعني لا تنتفع بنفسك من شدة الحزن والهم والاسف (أو تكون من الهالكين) يعني من الاموات فان قلت كيف حلفوا على شئ لم يعلموا حقيقته قطعا قلت انهم بنوا الامر على الاغلب الظاهر اي نقوله ظنا بان الامر يصير الى ذلك (قال) يعني يعقوب عند ما رأى قولهم له وغلظتهم عليه (انما أشكو بثي وحزني الى الله) أصل البث اثارة الشئ

ظاهرا (وابيضت عيناه) اذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته الى بياض كدر وقيل قد عمي بصره وقيل كان قد يدرك ادراكا ضعيفا (من الحزن) لان الحزن سبب البكاء الذي حدث منه البياض فكأنه حدث من الحزن قيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف الى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الارض أكرم على الله من يعقوب ويجوز للنبي عليه السلام أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لان الانسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الحزن فلذلك حمد صبره وقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا عليك يا ابراهيم لمحزونون وانما المذموم الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب (فهو كظيم) مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوءهم فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله اذ نادى وهو مكظوم من كظم السقاء اذا شده على ملئه (قالوا تالله تفتؤ) أي لا تفتأ فحذف حرف النفي لانه لا يلتبس اذ لو كان اثباتا لم يكن بد من اللام والنون ومعنى لا تفتأ لا تزال (تذكر يوسف حتى تكون حرضا) مشفيا على الهلاك مرضا (او تكون من الهالكين قال انما أشكو بثي وحزني الى الله) البث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس أي ينشره أي لا أشكو الى أحد منكم ومن غيركم انما أشكو الى ربي داعيا له وملتجئا اليه فخلوني وشكايتي وروي انه أوحى الى يعقوب انما وجدت وتقريبه عليكم لانكم ذبحتم شاة فوقف ببابكم مسكين فلم تطعموه وان أحب خلقي الي الانبياء ثم المساكين فاصنع طعاما وادع

وتفريقه وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والشر قال ابن قتيبة البث أشد الحزن
وذلك لان الانسان اذا ستر الحزن وكتمه كان هما فاذا ذكره لغيره كان بثا فالبث أشد
الحزن والحزن الهم فعلى هذا يكون المعنى انما أشكو حزنى العظيم وحزنى القليل الى الله
لا اليكم قال ابن الجوزى روى الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه من حديث أنس بن مالك
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال كان ليعقوب أخ مؤاخ فقال له ذات يوم
يا يعقوب ما الذى أذهب بصرك وما الذى قوس ظهرك قال اما الذى أذهب بصرى
فالبكاء على يوسف وأما الذى قوس ظهرى فالحزن على بنيامين فأتاه جبريل فقال
يا يعقوب ان الله يقرئك السلام ويقول لك أما تستحى ان تشكو الى غيرى فقال انما
أشكو بثى وحزنى الى الله فقال جبريل الله أعلم بما تشكو وقيل انه دخل على يعقوب
جار له فقال له يا يعقوب مالى اراك قد تهشمت بالضعف وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ
أبوك فقال هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من هم يوسف فأوحى الله اليه يا يعقوب
أتشكونى الى خلقى فقال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى قال قد غفرتها لك فكان بعد
ذلك اذا سئل يقول انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقيل ان الله أوحى اليه وعزتى وجلالى
لا أكشف ما بك حتى تدعونى فعند ذلك قال انما أشكو بثى وحزنى الى الله ثم قال اى رب
اما ترحم الشيخ الكبير أذهبت بصرى وقوست ظهرى فاردد على ريحانتى أشمهما شمة
قبل ان أموت ثم اصنع ما شئت فأتاه جبريل فقال يا يعقوب ان الله يقرئك السلام
ويقول لك أبشر فوعزتى لو كانا ميتين لنشرتهما لك أتدرى لم وجدت عليك لانكم ذبحتم
شاة فقام على بابكم فلان المسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيأ وان أحب عبادى الى
الانبياء ثم المساكين اصنع طعاما وادع اليه المساكين فصنع طعاما ثم قال من كان
صائما فليفطر الليلة عند آل يعقوب وكان بعد ذلك اذا تغدى أمر مناديا ينادى من أراد
ان يتغدى فليأت آل يعقوب واذا افطر امر أن ينادى من اراد ان يفطر فليأت آل
يعقوب فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين وقال وهب بن منبه أوحى الله تعالى الى
يعقوب أتدرى لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة قال لا يا رب قال لانك شويت
عناقا وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه وقيل ان سبب ابتلاء يعقوب انه ذبح عجلا بين
يدى أمه وهى تخور فلم يرحمها فان قلت هل فى هذه الروايات ما يقدح فى عصمة الانبياء
قلت لا وانما عوقب يعقوب بهذا لان حسنات الابرار سيآت المقربين وانما يطلب من
الانبياء من الاعمال على قدر منصبهم وشريف رتبتهم ويعقوب عليه الصلاة والسلام من
أهل بيت النبوة والرسالة ومع ذلك فقد ابتلى الله كل واحد من أنبيائه بمحنة فصبر
وفوض أمره الى الله فابراهيم عليه الصلاة والسلام ألقى فى النار فصبر ولم يشك الى
أحد واسمعيل ابتلى بالذبح فصبر وفوض أمره الى الله واسحق ابتلى بالعمى فصبر ولم
يشك الى أحد ويعقوب ابتلى بفقد ولده يوسف وبعده بنيامين ثم عمى بعد ذلك أو ضعف
بصره من كثرة البكاء على فقدهما وهو مع ذلك صابر لم يشك الى أحد شيأ مما نزل به
وانما كانت شكايته الى الله عز وجل بدليل قوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله

فاستوجب بذلك المدح العظيم والثناء الجميل في الدنيا والدرجات العلا في الآخرة ثم مع
من سلف من أبويه ابراهيم واسحق عليهما الصلاة والسلام وأما دمع العين وحزن
القلب فلا يستوجب به ذما ولا عقوبة لان ذلك ليس الى اختيار الانسان فلا يدخل
تحت التكليف بدليل ان النبي صلى الله عليه وسلم بكى على ولده ابراهيم عند موته وقال
ان العين تدمع وان القلب يحزن ولا نقول الا ما يرضي ربنا فهذا القدر لا يقدر
الانسان على دفعه عن نفسه فصار مباحا لا حرج فيه على أحد من الناس وقوله (وأعلم
من الله ما لا تعلمون) يعني أنه تعالى من رحمته واحسانه يأتي بالفرج من حيث
لا احتسب وفيه اشارة الى انه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه اليه وروى ان ملك
الموت زار يعقوب فقال له يعقوب أيها الملك الطيب ريحه الحسن صورته الكريم على
ربه هل قبضت روح ابني يوسف في الارواح فقال لا فطابت نفس يعقوب وطمع في
رؤيته فلذلك قال وأعلم من الله ما لا تعلمون وقيل معناه وأعلم ان رؤيا يوسف حق وصدق
واني وأنتم سنسجد له وقال السدي لما أخبره بنوه بسيرة ملك مصر وكمال حاله في جميع
أقواله وأفعاله أحست نفس يعقوب وطمع ان يكون هو يوسف فعند ذلك قال يعني
يعقوب (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) التحسس طلب الخبر بالحاسة وهو
قريب من التجسس بالجيم وقيل ان التحسس بالحاء يكون في الخير وبالجيم يكون في الشر
ومنه الجاسوس وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس قال ابن عباس التمسوا
قال ابن الانباري يقال تحسست عن فلان ولا يقال من فلان وقال هنا من يوسف
وأخيه لانه أقيم من مقام عن قال ويجوز ان يقال من للتبعيض ويكون المعنى
تحسسوا خبرا من أخبار يوسف وأخيه روى عن عبد الله بن يزيد عن أبي فروة أن
يعقوب كتب كتابا الى يوسف عليهما الصلاة والسلام حين حبس عنده بنيامين من
يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله الى ملك مصر اما بعد فانا
أهل بيت وكل بنا البلاء اما جدي ابراهيم فشدت يداه ورجلاه وألقي في النار فجعلها الله
عليه بردا وسلاما وأما أبي فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله وأما
أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي الي فذهب به اخوته الى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا
بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي ثم كان لي ابن آخر وكان أخاه من أمه وكنت
أتسلى به وانك حبسته وزعمت انه سرق وانا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته
الي والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلما قرأ يوسف كتاب أبيه اشتد
بكاؤه وعيل صبره وأظهر نفسه لاخوته على ما سنذكره ان شاء الله تعالى فذلك قوله تعالى
يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه (ولا تيأسوا) أي ولا تقنطوا (من روح الله)
يعني من رحمة الله وقيل من فضل الله وقيل من فرج الله (انه لا ييأس من روح الله الا
القوم الكافرون) يعني ان المؤمن على خير يرجوه من الله فيصبر عند البلاء فينال به
خيرا ويحمد عند الرخاء فينال به خيرا والكافر بضد ذلك قوله تعالى (فلما دخلوا عليه)
فيه حذف واختصار تقديره فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر فلما دخلوا عليه يعني

عليه المساكين وقيل اشترى
جارية مع ولدها فباع ولدها
فبكت حتى عميت (وأعلم من الله
ما لا تعلمون) وأعلم من رحمته
انه يأتيني بالفرج من حيث
لا احتسب وروى أنه رأى ملك
الموت في منامه فسأله هل قبضت
روح يوسف فقال لا والله هو حي
فاطلبه وعلمه هذا الدعاء يا ذا
المعروف الدائم الذي لا ينقطع
معروفه أبدا ولا يحصيه غيرك
فرج عني (يا بني اذهبوا فتحسسوا
من يوسف وأخيه) فتعرفوا
منهما وتطلبوا خبرهما وهو
تفعل من الاحساس وهو
المعرفة (ولا تيأسوا من روح
الله) ولا تقنطوا من رحمة الله
وفرجه (انه) ان الامر والشان
(لا ييأس من روح الله الا
القوم الكافرون) لان من آمن
يعلم انه متقلب في رحمة الله
ونعمته وأما الكافر فلا يعرف
رحمة الله ولا تقلبه في نعمته
فييأس من رحمته فخرجوا من
عند أبيهم راجعين الى مصر (فلما
دخلوا عليه) على يوسف

على يوسف (قالوا يا أيها العزيز) يعنون يا أيها الملك والعزيز القادر الممتنع وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ (مسنا وأهلنا الضر) أى الشدة والفقر والجوع وأرادوا بأهلهم من خلفهم ومن وراءهم من العيال (وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ببضاعة رديئة كاسدة لا تنفق فى ثمن الطعام الا بتجوز من البائع وأصل الازجاء فى اللغة الدفع قليلا قليلا والتزجية دفع الشئ لينساق كتزجية الريح السحاب ومنه قول الشاعر

* وحاجة غير مزجاة من الحاج * يعنى هى قليلة يسيرة يمكن دفعها وقوتها لقلة الاعتناء بها وانما وصف وا تلك البضاعة بأنها مزجاة اما لنقصانها أو لرداءتها أو لمجموعهما فلذلك اختلفت عبارات المفسرين فى معنى هذه البضاعة المزجاة فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفا وقيل كانت خلق الغرائر والحبال وقيل كانت من متاع الاعراب من الصوف والاقط وقال الكلبى ومقاتل كانت حبة الخضراء وقيل كانت سويق المقل وقيل كانت الأدم والنعال وقال الزجاج سميت هذه البضاعة القليلة الرديئة مزجاة من قولهم فلان يزجى العيش أى يدفع الزمان بالقليل من العيش والمعنى جئنا ببضاعة مزجاة لندافع بها الزمان وليست مما يتسع بها وقيل انما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لانها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن يدفعها (فأوف لنا الكيل) يعنى اعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافى والمعنى انا نريد أن تقيم لنا الزائد مقام الناقص والجيد مقام الردىء (وتصدق علينا) يعنى وتفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والردىء ولا تنقصنا هذا قول أكثر المفسرين قال ابن الانبارى وكان الذى يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة وليس به واختلف العلماء هل كانت الصدقة حلالا للانبياء قبل نبينا أم لا فقال سفيان بن عيينة ان الصدقة كانت حلالا للانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم واستدل بهذه الآية وأنكر جمهور العلماء ذلك وقالوا ان حال الانبياء كلهم واحد فى تحريم الصدقة عليهم لانهم ممنوعون من الخضوع للمخلوقين والاخذ منهم والصدقة أوساخ الناس فلا تحل لهم لانهم مستغنون بالله عمن سواه وأجيب عن قوله وتصدق علينا أنهم طلبوا منه أن يجريهم على عادتهم من المسامحة وايفاء الكيل ونحو ذلك مما كان يفعل بهم من الكرامة وحسن الضيافة لا نفس الصدقة وكره الحسن ومجاهد أن يقول الرجل فى دعائه اللهم تصدق علينا لان الصدقة لا تكون الا ممن يبتغى الثواب وروى أن الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق على فقال ان الله لا يتصدق انما يتصدق من يبتغى الثواب قل اللهم اعطنى وتفضل على وقال ابن جريج والضحاك وتصدق علينا يعنى برد أخينا علينا (ان الله يجزى المتصدقين) يعنى بالثواب الجزيل وقال الضحاك لم يقولوا ان الله يجزيك لانهم لم يعلموا أنه مؤمن (قال) يعنى قال يوسف لاخوته (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) وقد اختلفوا فى السبب الذى من أجله حمل يوسف وهيجه على هذا القول فقال ابن اسحق ذكر لى انهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته رقة على اخوته فباح بالذى كان يكتم وقيل انه أخرج لهم نسخة الكتاب الذى كتبوه ببيعه من مالك وفى آخره وكتبه يهوذا فلما قرؤا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا أيها الملك انه

(قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) الهزال من الشدة والجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من أزجيته اذا دفعته وطردته قيل كانت دراهم زيوفا لا تؤخذ الا بوضيعة وقيل كانت صوفا وسمنا (فأوف لنا الكيل) الذى هو حقنا (وتصدق علينا) وتفضل علينا بالمسامحة والاغماض عن رداءة البضاعة أو زدنا على حقنا أو هب لنا أخانا (ان الله يجزى المتصدقين) ولما قالوا مسنا وأهلنا الضر وتضرعوا اليه وطلبوا منه أن يتصدق عليهم ارفضت عيناه ولم يتمالك أن عرفهم نفسه حيث (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف) اى هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف (وأخيه)

كان لنا عبد قبضناه منه فقال ذلك يوسف وقال انكم تستحقون العقوبة وأمر بقتلهم فلما ذهبوا بهم ليقتلوهم قال يهوذا كان يعقوب يبكي ويحزن لفقد واحد منا فكيف اذا أتاه الخبر بقتل بنيه كلهم ثم قالوا ان كنت فاعلا ذلك فابعث بامتعتنا الى أبينا فانه بمكان كذا وكذا فذلك حين أدركته الرقة عليهم والرحمة فبكى وقال هذا القول وقيل ان يوسف لما قرأ كتاب أبيه اليه لم يتمالك أن بكى وقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وهذا استفهام يفيد تعظيم أمر هذه الواقعة ومعناه ما أعظم ما ارتكبتم من أمر يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه من قطيعة الرحم وتفريقه من أبيه وهذا كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت ولم يرد بهذا نفس الاستفهام ولكنه أراد تفظيع الامر وتعظيمه ويجوز أن يكون المعنى هل علمتم عقبى ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم الله اياهما من المكروه واعلم ان هذه الآية تصديق لقوله تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا وهم لا يشعرون فان قلت الذي فعلوه بيوسف معلوم ظاهر فما الذي فعلوه باخيه من المكروه حتى يقول لهم هذه المقالة فانهم لم يسعوا في حبسه ولا أرادوا ذلك قلت انهم لما فرقوا بينه وبين أخيه يوسف نغصوا عليه عيشه وكانوا يؤذونه كلما ذكر يوسف وقيل انهم قالوا له لما اتهم باخذ الصواع ما رأينا منكم يا بني راحيل خيرا (اذ أنتم جاهلون) هذا يجري مجرى العذر لهم يعني انكم انما أقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر حال كونكم جاهلين وهو وقت الصبا وحالة الجهل وقيل جاهلون بما يؤول اليه أمر يوسف قوله عز وجل (قالوا أئنك لانت يوسف) قرئ على سبيل الاستفهام ووجه هذه القراءة قال ابن عباس لما قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه تبسم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ تشبه ثنايا يوسف فشبهوه بيوسف فقالوا استفهاما أئنك لانت يوسف وقرئ على الخبر ووجهه ما قال ابن عباس أيضا في رواية أخرى عنه ان اخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان له في قرنه علامة تشبه الشامة وكان ليعقوب مثلها ولاسحق مثلها ولسارة مثلها فعرفوه بها وقالوا أنت يوسف وقيل قالوه على سبيل التوهم ولم يعرفوه حتى (قال أنا يوسف) قال بعض العلماء انما أظهر الاسم في قوله أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيما لما نزل به من ظلم اخوته له وما عوضه الله من النصر والظفر والملك فكأنه قال أنا يوسف المظلوم الذي ظلمتموني وقصدتم قتلي بان ألقيتموني في الجب ثم بعتموني بابخس الاثمان ثم صرت الى ما ترون فكان تحت ظهور الاسم هذه المعاني كلها ولهذا قال (وهذا أخي) وهم يعرفونه لانه قصد به أيضا وهذا أخي المظلوم كما ظلمتموني ثم صرت أنا وهو الى ما ترون وهو قوله (قد من الله علينا) بان جمع بيننا وقيل من علينا بكل عز وخير في الدنيا والآخرة وقيل من علينا بالسلامة في ديننا ودنيانا (انه من يتق ويصبر) يعني يتق الزنا ويصبر على العزوبة قاله ابن عباس وقال مجاهد يتق المعصية ويصبر على السجن وقيل يتق الله باداء فرائضه ويصبر عما حرم الله (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) يعني أجر من كان هذا حاله (قالوا) يعني قال اخوة يوسف معتذرين اليه مما صدر منهم في حقه (تالله لقد آثرك الله علينا) اى اختارك وفضلك علينا يقال آثرك الله ايثارا اى

(اذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه او اذ أنتم في حد السفه والطيش وفعلهم باخيه تعريضهم اياه للغم بافراده عن أخيه لابيه وأمه وايذاؤهم له بانواع الاذى (قالوا أئنك) بهمزتين كوفي وشامي (لانت يوسف) اللام لام الابتداء وأنت مبتدأ ويوسف خبره والجملة خبر ان (قال أنا يوسف وهذا أخي) وانما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه لانه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه (قد من الله علينا) بالالفة بعد الفرقة وذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة ولم يبدأ بالملامة (انه من يتق) الفحشاء (ويصبر) عن المعاصي وعلى الطاعة (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أي أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين وقيل من يتق مولاه ويصبر على بلواه لا يضيع أجره في دنياه وعقباه (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) اختارك وفضلك علينا بالعلم والحلم والتقوى والصبر والحسن

(وان كنا لخاطئين) وان شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للاثم لم نتق ولم نصبر لاجرم ان الله أعزك بالملك وأذلنا بالتمكين بين يديك (قال لا تثريب عليكم) لا تعيير عليكم (اليوم) متعلق بالتثريب او بيغفر والمعنى لا اثربكم اليوم وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب فما ظنكم بغيره من الايام ثم ابتدأ فقال (يغفر الله لكم) ٥٣ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم يقال غفر الله لك ويغفر لك على لفظ الماضى والمضارع او اليوم يغفر الله لكم بشارة بعاجل غفران الله وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتى باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش ما ترونى فاعلا بكم قالوا نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال أقول ما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم وروى ان أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس اذا أتيت رسول الله فاتل عليه قال لا تثريب عليكم اليوم ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك ولمن علمك ويروى ان اخوته لما عرفوه أرسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحيى منك لما فرط منا فيك فقال يوسف ان أهل مصر وان ملكت فيهم فانهم ينظرون الى بالعين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت الآن بكم حيث علم الناس أنى من حفدة ابراهيم (وهو أرحم الراحمين) أى اذا رحمتكم وأنا الفقير القتور فما ظنكم بالغنى الغفور ثم سألهم عن حال أبيه فقالوا انه عمى من كثرة البكاء قال (اذهبوا بقميصى هذا) قيل هو القميص المتوارث الذى كان فى تعويذ يوسف وكان من الجنة أمره جبريل ان يرسله اليه فان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا سقيم الا عوفى (فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) يصر بصيرا تقول جاء البناء محكما أى صار أو يأت الى وهو بصير قال يهوذا أنا احمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجناء وقيل حمله وهو

اختارك ويستعمل الاثر للفضل والايثار للتفضيل والمعنى لقد فضلك الله علينا بالعلم والعقل وقال الضحاك عن ابن عباس بالملك وقال أبو صالح عنه بالصبر وقيل بالحلم والصفح علينا وقيل بالحسن وسائر الفضائل التى أعطاها الله عز وجل له دون اخوته وقيل فضله عليهم بالنبوة وأورد على هذا القول بان اخوته كانوا أنبياء أيضا فليس له عليهم فضل فى ذلك وأجيب عنه بأن يوسف فضل عليهم بالرسالة مع النبوة فكان أفضل منهم بهذا الاعتبار لان من جمعت له النبوة والرسالة كان أفضل ممن خص بالنبوة فقط (وان كنا لخاطئين) يعنى وما كنا فى صنعنا بك الا خاطئين ولهذا اختير لفظ الخاطئ على المخطئ والفرق بينهما ان يقال خطئ خطأ اذا تعمد واخطأ اذا كان غير متعمد وقيل يجوز ان يكون آثر لفظ خاطئين على مخطئين لموافقة رؤس الآى لان خاطئين أشبه بما قبلها (قال) يعنى يوسف (لا تثريب عليكم) يعنى لا تعيير ولا توبيخ عليكم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يوبخها ولا يثرب أى لا يعيرها بالزنا بعد اقامة الحد عليها وفى محل قوله (اليوم) قولان أحدهما انه يرجع الى ما قبله فيكون التقدير لا تثريب عليكم اليوم والمعنى ان هذا اليوم هو يوم التثريب والتقريع والتوبيخ وانا لا أقرعكم اليوم ولا أوبخكم ولا أثرب عليكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم اليوم ويبتدأ بقوله (يغفر الله لكم) والقول الثانى ان اليوم متعلق بقوله يغفر الله لكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم ويبتدأ باليوم يغفر الله لكم كأنه لما نفى عنهم التوبيخ والتقريع بقوله لا تثريب عليكم بشرهم بقوله اليوم يغفر الله لكم (وهو أرحم الراحمين) ولما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن حال أبيه فقال ما حال أبى بعدى قالوا ذهب بصره من كثرة البكاء عليك فاعطاهم قميصه وقال (اذهبوا بقميصى هذا) قال الضحاك كان هذا القميص من نسج الجنة وقال مجاهد امره جبريل ان يرسل اليه قميصه وكان ذلك القميص قميص ابراهيم وذلك انه لما جرد من ثيابه وألقى فى النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه فكان ذلك القميص عند ابراهيم فلما مات ورثه اسحق فلما مات ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى قصبة من فضة وسد رأسها وجعلها فى عنق يوسف كالتعاويذ لما كان يخاف عليه من العين وكانت لا تفارقه فلما ألقى يوسف فى البئر عريانا أتاه جبريل وأخرج له ذلك القميص وألبسه اياه فلما كان هذا الوقت جاءه جبريل فامره أن يرسل هذا القميص الى أبيه لان فيه ريح الجنة فلا يقع على مبتلى ولا سقيم الا عوفى فى الوقت فدفع ذلك القميص يوسف الى اخوته وقال اذهبوا بقميصى هذا (فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) قال المحققون ان علم يوسف ان القاء ذلك القميص على وجه يعقوب يوجب

رد البصر كان بوحى الله اليه ذلك ويمكن أن يقال ان يوسف لما علم ان أباه قد عمى من كثرة البكاء عليه وضيق الصدر بعث اليه قميصه ليجد ريحه فيزول بكاؤه وينشرح صدره ويفرح قلبه فعند ذلك يزول الضعف ويقوى البصر فهذا القدر يمكن معرفته من جهة العقل وقوله (وأتونى بأهلكم أجمعين) قال الكلبى كانوا نحوا من سبعين انسانا وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين ما بين رجل وامرأة (ولما فصلت العير) يعنى خرجت من مصر وقيل من عريش مصر متوجهين الى أرض كنعان (قال أبوهم) يعنى قال يعقوب لولد ولده (انى لأجد ريح يوسف) قيل ان ريح الصبا استأذنت ربها فى أن تاتى يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير وقال مجاهد أصابت يعقوب بريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام وقال ابن عباس من مسيرة ثمان ليال وقال الحسن كان بينهما ثمانون فرسخا وقيل هبت ريح فاحتملت ريح القميص الى يعقوب فوجد يعقوب ريح الجنة فعلم أنه ليس فى الارض من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص فعلم بذلك انه من ريح يوسف فلذلك قال انى لأجد ريح يوسف (لولا أن تفندون) أصل التفنيد من الفند وهو ضعف الرأى وقال ابن الانبارى أفند الرجل اذا خرف وفند اذا جهل ونسب ذلك اليه وقال الاصمعى اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو الفنيد والفند فيكون المعنى لولا أن تفندونى أى تنسبونى الى الخرف وقيل تسفهونى وقيل تلومونى وقيل تجهلونى وهو قول ابن عباس وقال الضحاك تهرمونى فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله (قالوا) يعنى أولاد أولاد يعقوب وأهله الذين عنده لان أولاده لصلبه كانوا غائبين عنه (تالله انك لفى ضلالك القديم) يعنى من ذكر يوسف ولا تنساه لانه كان عندهم ان يوسف كان قد مات وهلك ويرون ان يعقوب قد لهج بذكره فلذلك قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم يعنى من ذكره والضلال الذهاب عن طريق الصواب (فلما أن جاء البشير) وهو المبشر بخبر يوسف قال ابن مسعود جاء البشير بين يدى العير قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنهما هو يهوذا قال السدى قال يهوذا أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم الى يعقوب وأخبرته ان يوسف أكله الذئب فانا أذهب اليوم بالقميص وأخبره انه حى فافرحه كما أحزنته قال ابن عباس حمله يهوذا وخرج به حافيا حاسرا يعدو ومعه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى أتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخا (ألقاه على وجهه) يعنى فالقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب (فارتد بصيرا) يعنى فرجع بصيرا بعدما كان قد عمى وعادت اليه قوته بعد الضعف وسروره بعد الحزن (قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون) يعنى من حياة يوسف وان الله يجمع بيننا وروى ان يعقوب قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال يعقوب ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة قوله تعالى (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا) يعنى قال أولاد يعقوب حين وصلوا اليه وأخذوا يعتذرون اليه مما صنعوا به وبيوسف استغفر لنا اى اطلب لنا غفر ذنوبنا من الله (انا كنا خاطئين) يعنى فى صنيعنا (قال سوف أستغفر لكم ربى) قال أكثر المفسرين ان يعقوب أخر الدعاء والاستغفار لهم الى وقت السحر لانه أشرف الاوقات وهو الوقت الذى يقول الله فيه هل من داع فاستجيب

فافصلت سائرة من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة ٥٤ ثمانين فرسخا (وأتونى بأهلكم أجمعين) لينعموا بآثار ملكى كما اغتموا بأخبار هلكى (ولما فصلت العير) خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل منه وجاوز حيطانه (قال أبوهم) لولد ولده ومن حوله من قومه (انى لأجد ريح يوسف) أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمانية أيام (لولا أن تفندون) التفنيد النسبة الى الفند وهو الخرف وانكار العقل من هرم يقال شيخ مفند والمعنى لولا تفنيدكم اياى لصدقتمونى (قالوا) اى اسباطه (تالله انك لفى ضلالك القديم) لفى ذهابك عن الصواب قديما فى افراط محبتك ليوسف أو فى خطئك القديم من حب يوسف وكان عندهم انه قد مات (فلما أن جاء البشير) أى يهوذا (ألقاه على وجهه) طرح البشير القميص على وجه يعقوب او ألقاه يعقوب (فارتد) فرجع (بصيرا) يقال رده فارتد وارتده اذا ارجعه (قال ألم أقل لكم) يعنى قوله انى لأجد ريح يوسف اوقوله ولا تيأسوا من روح الله وقوله (انى أعلم من الله ما لا تعلمون) كلام مبتدأ لم يقع عليه القول او وقع عليه والمراد قوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون وروى انه سأل البشير كيف يوسف قال هو ملك مصر فقال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين) اى سل الله مغفرة ما ارتكبنا فى حقك وحق ابنك انا تبنا واعترفنا بخطايانا (قال سوف أستغفر لكم ربى

فاستجيب له فلما انتهى يعقوب الى وقت السحر قام الى الصلاة متوجها الى الله تعالى فلما فرغ رفع يديه الى الله تعالى وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لاولادي ما أتوا الى أخيهم يوسف فاوحى الله اليه انى قد غفرت لك ولهم أجمعين قال عكرمة عن ابن عباس انه أخر الاستغفار لهم الى ليلة الجمعة لانها أشرف الاوقات قال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة نيفا وعشرين سنة وقال طاوس أخر الاستغفار الى وقت السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وقال الشعبي سوف أستغفر لكم ربي قال حتى أسأل يوسف فان كان قد عفا عنكم استغفرت لكم ربي (انه هو الغفور) يعني لذنوب عباده (الرحيم) بجميع خلقه قال عطاء الخراسانى طلب الحوائج الى الشباب أسهل منه الى الشيوخ ألا ترى الى قول يوسف لاخوته لا تثريب عليكم الآية وقول يعقوب سوف أستغفر لكم ربي قال أصحاب الاخبار ان يوسف عليه الصلاة والسلام بعث مع اخوته الى أبيه مائتي راحلة وجهازا كثيرا ليأتوه بيعقوب وجميع أهله الى مصر فلما أتوه تجهز يعقوب للخروج الى مصر فجمع أهله وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الاكبر يعني ملك مصر وعرفه بمجيء أبيه وأهله فخرج يوسف ومعه الملك فى أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب عليه الصلاة والسلام وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يد ابنه يهوذا فلما نظر الى الخيل والناس قال يا يهوذا هذا فرعون مصر قال لا بل هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد من صاحبه أراد يوسف أن يبدأ يعقوب بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يا مذهب الاحزان وقيل انهما نزلا وتعانقا وفعلا كما يفعل الوالد بولده والولد بوالده وبكيا وقيل ان يوسف قال لابيه يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا قال بلى ولكن خشيت ان يسلب دينك فيحال بيني وبينك فذلك قوله تعالى (فلما دخلوا على يوسف آوى اليه) يعني ضم اليه (أبويه) قال أكثر المفسرين هو أبوه يعقوب وخالته ليا وكانت أمه قد ماتت فى نفاس بنيامين وقال الحسن هما أبوه وأمه وكانت حية بعد وقيل ان الله أحياها ونشرها من قبرها حتى تسجد ليوسف تحقيقا لرؤياه والاول أصح (وقال ادخلوا مصر) قيل المراد بالدخول الاول فى قوله فلما دخلوا على يوسف أرض مصر وذلك حين استقبلهم ثم قال ادخلوا مصر يعني البلد وقيل انه أراد بالدخول الاول دخولهم مصر وأراد بالدخول الثانى الاستيطان بها أى ادخلوا مصر مستوطنين فيها (ان شاء الله آمنين) قيل ان هذا الاستثناء عائد الى الامن لا الى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين ان شاء الله وقيل انه عائد الى الدخول فعلى هذا يكون قد قال ذلك لهم قبل أن يدخلوا مصر وقيل ان هذا الاستثناء يرجع الى الاستغفار فعلى هذا يكون فى الكلام تقديم وتأخير تقديره سوف استغفر لكم ربي ان شاء الله وقيل ان الناس كانوا يخافون من ملوك مصر فلا يدخلها احد الا بجوارهم فقال لهم يوسف ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأهليكم ان شاء الله

انه هو الغفور الرحيم) أخر الاستغفار الى وقت السحر أو الى ليلة الجمعة أو ليتعرف حالهم فى صدق التوبة او الى ان يسأل يوسف هل عفا عنهم ثم ان يوسف وجه الى أبيه جهازا ومائتي راحلة ليتجهز اليه بمن معه فلما بلغ قريبا من مصر خرج يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا (فلما دخلوا على يوسف آوى اليه) ضم اليه (أبويه) واعتنقهما قيل كانت أمه باقية وقيل ماتت وتزوج أبوه خالته والخالة أم كما ان العم أب ومنه قوله واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق ومعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر انه حين استقبلهم أنزلهم فى مضرب خيمة أو قصر كان له ثمة فدخلوا عليه وضم اليه أبويه (وقال) لهم بعد ذلك (ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين) من ملوكها وكانوا لا يدخلونها الا بجوارا ومن القحط وروى انه لما لقيه قال يعقوب عليه السلام السلام عليك يا مذهب الاحزان وقال له يوسف يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم ان القيامة تجمعنا فقال بلى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم

فعلى هذا يكون قوله ان شاء الله للتبرك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع علمه انه لاحق بهم (ورفع أبويه على العرش) يعني على السرير الذي كان يجلس عليه يوسف والرفع النقل الى العلو (وخروا له سجدا) يعني يعقوب وخالته ليا واخوته وكانت تحية الناس يومئذ السجود وهو الانحناء والتواضع ولم يرد به حقيقة السجود من وضع الجبهة على الارض على سبيل العبادة فان قلت كيف استجاز يوسف عليه السلام أن يسجد له أبوه وهو أكبر منه واعلى منصبا في النبوة والشيخوخة قلت يحتمل ان الله تعالى أمره بذلك لتحقيق رؤياه ثم في معنى هذا السجود قولان أحدهما انه كان انحناء على سبيل التحية كما تقدم فلا اشكال فيه والقول الثاني انه كان حقيقة السجود وهو وضع الجبهة على الارض وهو مشكل لان السجود على هذه الصورة لا ينبغي أن يكون الا لله تعالى وأجيب عن هذا الاشكال بان السجود كان في الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر له وانما كان يوسف كالقبلة كما سجد الملائكة لآدم ويدل على صحة هذا التأويل قوله ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وظاهر هذا يدل على انهم لما صعدوا على السرير خروا وسجدوا لله تعالى ولو كان ليوسف لكان قبل الصعود لان ذلك أبلغ في التواضع فان قلت يدفع صحة هذا التأويل قوله رأيتهم لي ساجدين وقوله خروا له سجدا فان الضمير يرجع الى اقرب المذكورات وهو يوسف عليه الصلاة والسلام قلت يحتمل أن يكون المعنى وخروا لله سجدا لاجل يوسف واجتماعهم به وقيل يحتمل ان الله أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية وهي ان اخوة يوسف ربما احملتهم الانفة والتكبر عن السجود ليوسف فلما رأوا أن أباهم قد سجد له سجدوا له أيضا فتكون هذه السجدة على سبيل التحية والتواضع لا على سبيل العبادة وكان ذلك جائزا في ذلك الزمان فلما جاء الاسلام نسخت هذه الفعلة والله أعلم بمراده واسرار كتابه (وقال) يعني وقال يوسف عندما رأى ذلك (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) يعني هذا تصديق الرؤيا التي رأيت في حال الصغر (قد جعلها ربي حقا) يعني في اليقظة واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها فقال سلمان الفارسي وعبد الله بن شداد أربعون سنة وقال أبو صالح عن ابن عباس اثنتان وعشرون سنة وقال سعيد بن جبير وعكرمة والسدي ست وثلاثون سنة وقال قتادة خمس وثلاثون سنة وقال عبد الله بن سودون سبعون سنة وقال الفضيل بن عياض ثمانون سنة حكى هذه الاقوال كلها ابن الجوزي وزاد غيره عن الحسن ان يوسف كان عمره حين ألقي في الجب سبع عشرة سنة وأقام في العبودية والسجن والملك مدة ثمانين سنة وأقام مع أبيه واخوته وأقاربه مدة ثلاث وعشرين سنة وتوفاه الله وهو ابن مائة وعشرين سنة وقوله (وقد أحسن بي) يعني انعم علي يقال احسن بي والي بمعنى واحد (اذ أخرجني من السجن) انما ذكر انعام الله عليه في اخراجه من السجن وان كان الجب أصعب منه استعمالا للادب والكرم لئلا يخجل اخوته بعد ان قال لهم لا تثريب عليكم اليوم ولان نعمة الله عليه في اخراجه من السجن كانت أعظم من اخراجه من الجب وسبب ذلك ان خروجه من الجب كان سببا لحصوله في العبودية والرق وخروجه

اثنان وسبعون ما بين رجال ونساء وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) قيل لما دخلوا مصر وجلس في مجلسه مستويا على سريره واجتمعوا اليه اكرم أبويه فرفعهما على السرير وخروا له يعني الاخوة الاحد عشر والابوين سجدا وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد وقال الزجاج سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظم وقيل ما كانت الا انحناء دون تعفير الجباه وخرورهم سجدا يأباه وقيل وخروا لاجل يوسف سجدا لله شكرا وفيه نبوة أيضا واختلف في استنبائهم (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها) أي الرؤيا (ربي حقا) أي صادقة وكان بين الرؤيا وبين التأويل أربعون سنة أو ثمانون أو ست وثلاثون أو ثنتان وعشرون (وقد أحسن بي) يقال أحسن اليه وبه وكذلك اساء اليه وبه (اذ أخرجني من السجن) ولم يذكر الجب لقوله لا تثريب عليكم اليوم

من السجن كان سببا لوصوله الى الملك وقيل ان دخوله الجب كان لحسد اخوته ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من أعظم نعمه عليه (وجاء بكم من البدو) يعني من البادية وأصل البدو هو البسيط من الارض يبدو الشخص فيه من بعد يعني يظهر والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية (من بعد ان نزغ الشيطان بيني و بين اخوتي) يعني افسد ما بيننا بسبب الحسد وأصل النزغ دخول في أمر لافساده واستدل بهذه الآية من يرى بطلان الجبر من المبتدعة قالوا لان يوسف أضاف الاحسان الى الله وأضاف النزغ الى الشيطان ولو كان من فعل الله لوجب ان ينسب اليه كما في الاحسان والنعم والجواب عن هذا الاستدلال ان اسناد الفعل الى الشيطان واضافته اليه على سبيل المجاز وان كان ظاهر اللفظ يقتضي اضافة الفعل الى الشيطان لا على الحقيقة لان الفاعل المطلق المختار هو الله تعالى في الحقيقة قل لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فثبت بذلك ان الكل من عند الله وبقضائه وقدره ليس للشيطان فيه مدخل الا بالقاء الوسوسة والتحريش لافساد ذات البين وذلك باقدار الله اياه على ذلك (ان ربي لطيف لما يشاء) يعني انه تعالى ذو لطف عالم بدقائق الامور وخفياتها قال صاحب المفردات وقد يعبر باللطف عما تدركه الحاسة ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه وأن يكون لمعرفته بدقائق الامور وان يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم وقوله ان ربي لطيف لما يشاء أي حسن الاستخراج تنبيها على ما أوصل الى يوسف حيث ألقاه اخوته في الجب وقيل ان اجتماع يوسف بابيه واخوته بعد طول الفرقة وحسد اخوته له وازالة ذلك مع طيب الانفس وشدة المحبة كان من لطف الله بهم حيث جعل ذلك كله لان الله تعالى اذا أراد أمرا هيأ أسبابه (انه هو العليم) يعني بمصالح عباده (الحكيم) في جميع أفعاله قال أصحاب الاخبار والتواريخ ان يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام عند يوسف بمصر أربعا وعشرين سنة في اهنأ عيش وانعم بال وأحسن حال فلما حضرته الوفاة أوصى الى ابنه يوسف ان يحمل جسده حتى يدفنه عند قبر ابيه اسحق في الارض المقدسة بالشام فلما مات يعقوب عليه الصلاة والسلام بمصر فعل يوسف ما أمره به أبوه فحمل جسده في تابوت من ساج حتى قدم به الشام فوافق ذلك موت العيص أخي يعقوب وكانا قد ولدا في بطن واحد فدفنا في قبر واحد وكان عمرهما مائة وسبعا وأربعين سنة فلما دفن يوسف أباه وعمه رجع الى مصر قالوا فلما جمع الله شمل يوسف عليه الصلاة والسلام بابيه واخوته علم ان نعيم الدنيا زائل سريع الفناء لا يدوم فسأل الله حسن العاقبة والخاتمة الصالحة فقال (رب) أي يا رب (قد آتيتني من الملك) يعني من ملك مصر ومن هنا للتبعيض لانه لم يؤت ملك مصر كله بل كان فوقه ملك آخر والملك عبارة عن الاتساع في المقدور لمن له السياسة والتدبير (وعلمتني من تأويل الاحاديث) يعني تعبير الرؤيا (فاطر السموات والارض) يعني خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق وأصل الفطر الشق يقال فطر ناب البعير اذا شق وظهر وفطر الله الخلق أوجده وأبدعه (أنت وليي) يعني معيني ومتولي أمري

(وجاء بكم من البدو) من البادية لانهم كانوا أصحاب مواشي يتنقلون في المياه والمناجع (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي) أي افسد بيننا وأغرى (ان ربي لطيف لما يشاء) أي لطيف التدبير (انه هو العليم الحكيم) بتأخير الآمال الى الآجال أو حكم بالائتلاف بعد الاختلاف (رب قد آتيتني من الملك) ملك مصر (وعلمتني من تأويل الاحاديث) تفسير كتب الله أو تعبير الرؤيا ومن فيهما للتبعيض اذ لم يؤت الا بعض ملك الدنيا وبعض التأويل (فاطر السموات والارض) انتصابه على النداء (أنت وليي

(فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما) أى اقبضنى اليك مسلما واختلفوا هل هو طلب الوفاة فى الحال أم لا على قولين احدهما انه سأل الله الوفاة فى الحال قال قتادة لم يسأل نبى من الانبياء الموت الا يوسف قال أصحاب هذا القول وانه لم يأت عليه اسبوع حتى توفى والقول الثانى انه سأل الوفاة على الاسلام ولم يتمن الموت فى الحال قال الحسن انه عاش بعد هذه سنين كثيرة فعلى هذا القول يكون معنى الآية توفنى اذا توفيتنى على الاسلام فهو طلب لان يجعل الله وفاته على الاسلام وليس فى اللفظ ما يدل على انه طلب الوفاة فى الحال قال بعض العلماء وكلا القولين محتمل لان اللفظ صالح للامرين ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل أن يتمنى الموت لعلمه ان الدنيا ولذاتها فانية زائلة سريعة الذهاب وان نعيم الآخرة باق دائم لا نفاد له ولا زوال ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وسلم لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فان تمنى الموت عند وجود الضرر ونزول البلاء مكروه والصبر عليه اولى وقوله (وألحقنى بالصالحين) أراد به بدرجة آبائه وهم ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام قال علماء التاريخ عاش يوسف مائة وعشرين سنة وفى التوراة مائة وعشر سنين وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد افرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب وقيل عاش بعد أبيه ستين سنة وقيل أكثر ولما مات يوسف عليه الصلاة والسلام دفنوه فى النيل فى صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر وذلك انه لما مات يوسف تشاح الناس فيه فطلب كل اهل محلة ان يدفن فى محلتهم رجاء بركته حتى هموا ان يقتتلوا ثم رأوا ان يدفنوه فى النيل بحيث يجرى الماء عليه ويتفرق عنه وتصل بركته الى جميعهم وقال عكرمة انه دفن فى الجانب الايمن من النيل فاخصب ذلك الجانب واجدب الجانب الآخر فنقل الى الجانب الايسر فاخصب واجدب الجانب الايمن فدفنوه فى وسط النيل وقدروه بسلسلة فاخصب الجانبان فبقى الى ان اخرجه موسى عليه الصلاة والسلام وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام فى الارض المقدسة **قوله** عز وجل (ذلك) يعنى الذى ذكرت لك يا محمد من قصة يوسف وما جرى له مع اخوته ثم انه صار الى الملك بعد الرق (من انباء الغيب) يعنى اخبار الغيب (نوحيه اليك) يعنى الذى أخبرناك به من أخبار يوسف وحى أوحيناه اليك يا محمد وفى هذه الآية دليل قاطع على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان رجلا اميا لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر الى بلد آخر غير بلده الذى نشأ فيه صلى الله عليه وسلم وانه نشأ بين أمة أمية مثله ثم انه صلى الله عليه وسلم أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن ترتيب وأبين معان وافصح عبارة فعلم بذلك ان الذى أتى به هو وحى الهى ونور قدسى سماوى فهو معجزة له قائمة

فى الدنيا والآخرة) انت الذى تتولانى بالنعمة فى الدارين وتوصل الملك الفانى بالملك الباقى (توفنى مسلما) طلب الوفاة على حال الاسلام كقول يعقوب لولده ولا تموتن الا وأنتم مسلمون وعن الضحاك مخلصا وعن التسترى مسلما اليك أمرى وفى عصمة الانبياء اتماد عاية يوسف ليقتدى به قومه ومن بعده ممن ليس بمأمون العاقبة لان ظواهر الانبياء لنظر الامم اليهم (وألحقنى بالصالحين) من آبائى أو على العموم روى ان يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به فى خزائنه فادخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الثياب وخزائن السلاح حتى ادخله خزانة القراطيس قال يا بنى ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمانية مراحل فقال أمرنى جبريل قال أو ما تسأله قال أنت ابسط اليه منى فاسأله فقال جبريل الله أمرنى بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب فهلا خفتنى وروى ان يعقوب أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات وأوصى ان يدفنه بالشام الى جنب ابيه اسحق فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد الى مصر وعاش بعد ابيه ثلاثة وعشرين سنة فلما تم أمره طلبت نفسه الملك الدائم فتمنى الموت وقيل ما تمناه نبى قبله ولا بعده فتوفاه الله طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر وتشاحوا فى دفنه كل يحب أن يدفن فى محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا ان يعملوا له صندوقا من مرمر وجعلوه فيه ودفنوه فى النيل بمكان يمر عليه الماء ثم يصل الى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعا حتى نقل موسى عليه السلام بعد أربعمائة سنة تابوته الى بيت المقدس وولد له افرائيم وميشا وولد لافرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر ولم تزل بنو اسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه (ذلك) اشارة الى ما سبق من نبأ يوسف والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ (من انباء الغيب نوحيه اليك) خبران

(وما كنت لديهم) لدى بنى يعقوب (اذ أجمعوا أمرهم) عزموا على ماهموا به من القاء يوسف فى البئر (وهم يمكرون) بيوسف ويبغون له الغوائل والمعنى ان هذا النبأ غيب لم يحصل لك الا من جهة الوحى لانك لم تحضر بنى يعقوب حين اتفقوا على القاء أخيهم فى البئر (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أراد العموم أو اهل مكة اى وماهم بمؤمنين ولو اجتهدت كل الاجتهاد على ايمانهم (وماتسئلهم عليه) على التبليغ أو على القرآن (من أجر) ٥٩ جعل (ان هو الا ذكر) ماهو الا عظة (للعالمين) وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله (وكأين من آية) من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده (فى السموات والارض يمرون عليها) على الآيات أو على الارض ويشاهدونها (وهم عنها) عن الآيات (معرضون) لايعتبرون بها والمراد مايرون من آثار الامم الهالكة وغير ذلك من العبر (ومايؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) اى ومايؤمن أكثرهم فى اقراره بالله وبانه خلقه وخلق السموات والارض الا وهو مشرك بعبادة الوثن الجمهور على انها نزلت فى المشركين لانهم مقرون بان الله خالقهم ورازقهم واذا حزبهم امر شديد دعوا الله ومع ذلك يشركون به غيره ومن جملة الشرك مايقوله القدرية من اثبات قدرة التخليق للعبد والتوحيد المحض مايقوله أهل السنة وهو انه لاخالق الا الله (أفأمنوا ان تأتيهم غاشية) عقوبة تغشاهم وتشملهم (من عذاب الله او تأتيهم الساعة) القيامة (بغتة) حال اى بغتة (وهم لايشعرون) باتيانها (قل هذه سبيلى) هذه السبيل التى هى الدعوة الى الايمان والتوحيد سبيلى والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان ثم فسر سبيله بقوله (ادعوا الى الله على بصيرة) أى ادعو الى دينه مع حجة واضحة غير عمياء (انا) تاكيد للمستتر فى ادعو (ومن اتبعنى) عطف عليه اى ادعو الى سبيل الله انا ويدعو اليه من اتبعنى أو انا مبتدأ وعلى بصيرة خبر مقدم ومن اتبعنى عطف على انا يخبر ابتداء بانه ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى

الى آخر الدهر وقوله تعالى (وما كنت لديهم) يعنى وما كنت يامحمد عند اولاد يعقوب (اذ اجمعوا أمرهم) يعنى حين عزموا على القاء يوسف عليه الصلاة والسلام فى الجب (وهم يمكرون) يعنى بيوسف (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى وما أكثر الناس يامحمد ولو حرصت على ايمانهم بمؤمنين وذلك ان اليهود وقريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فلما أخبرهم بها على وفق ماعندهم فى التوراة لم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فقيل له انهم لايؤمنون ولو حرصت على ايمانهم ففيه تسلية له (وماتسئلهم عليه من أجر) يعنى على تبليغ الرسالة والدعاء الى الله من اجر يعنى اجرا وجعلا على ذلك (ان هو) اى ماهو يعنى القرآن (الا ذكر) يعنى عظة وتذكيرا (للعالمين وكأين من آية) يعنى وكم من آية دالة على التوحيد (فى السموات والارض يمرون عليها) يعنى لايتفكرون فيها ولايعتبرون بها (وهم عنها معرضون) أى لايلتفتون اليها والمعنى ليس اعراضهم عن هذه الآيات الظاهرة الدالة على وحدانية الله تعالى باعجب من اعراضهم عنك يامحمد (ومايؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) يعنى ان من ايمانهم انهم اذا سئلوا من خلق السموات والارض قالوا الله واذا قيل لهم من ينزل المطر قالوا الله وهم مع ذلك يعبدون الاصنام وفى رواية عن ابن عباس انهم يقرون ان الله خالقهم فذلك ايمانهم وهم يعبدون غيره فذلك شركهم وفى رواية اخرى عنه أيضا انها نزلت فى تلبية مشركى العرب وذلك انهم كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لبيك لاشريك لك الا شريك هو لك تملكه وماملك وقال عطاء هذا فى الدعاء وذلك ان الكفار نسوا ربهم فى الرخاء فاذا أصابهم البلاء اخلصوا فى الدعاء (افأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله) يعنى عقوبة مجللة تعمهم وقال مجاهد عذاب يغشاهم وقال قتادة وقيعة وقال الضحاك يعنى الصواعق والقوارع (أو تأتيهم الساعة بغتة) يعنى فجأة (وهم لايشعرون) يعنى بقيامها قال ابن عباس تهيج الصيحة بالناس وهم فى اسواقهم (قل) أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين (هذه سبيلى) يعنى طريقى التى (أدعوا اليها وهى توحيد الله عز وجل ودين الاسلام وسمى الدين سبيلا لانه الطريق المؤدى الى الله عز وجل والى الثواب والجنة (الى الله) يعنى الى توحيد الله والايمان به (على بصيرة) يعنى على يقين ومعرفة والبصيرة هى المعرفة التى يميز بها بين الحق والباطل (أنا ومن اتبعنى) يعنى من آمن بى وصدق بماجئت به أيضا يدعو الى الله وهذا قول الكلبى وابن زيد قال حق على من اتبعه وآمن به ان يدعو الى مادعا اليه ويذكر بالقرآن وقيل تم الكلام

قوله أدعوا الى الله تم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعني يعني أنا على بصيرة ومن اتبعني
أيضا على بصيرة قال ابن عباس ان محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا على أحسن
طريقة وأفضل هداية وهم معدن العلم وكنز الايمان وجند الرحمن وقال ابن مسعود
ومن كان مستنا فليستن بمن قدمات أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا خير
هذه الامة وابرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه محمد
صلى الله عليه وسلم ونقل دينه فتشبهوا باخلاقهم وطريقهم فهؤلاء كانوا على الصراط
المستقيم وقوله (وسبحان الله) أي وقل سبحان الله يعني تنزيه الله عما لا يليق بجلاله من
جميع العيوب والنقائص والشركاء والاضداد والانداد (وما أنا من المشركين) يعني
وقل يا محمد وما أنا من المشركين الذين أشركوا بالله غيره قوله عز وجل (وما أرسلنا
من قبلك الا رجالا) يعني وما أرسلنا قبلك يا محمد الا رجالا مثلك ولم يكونوا ملائكة
(نوحي اليهم) هذا جواب لاهل مكة حيث قالوا هلا بعث الله ملكا والمعنى كيف تعجبوا
من ارسالنا اياك يا محمد وسائر الرسل الذين كانوا من قبلك بشر مثلك حالهم كحالك
(من أهل القرى) يعني انهم من أهل الامصار والمدن لا من أهل البوادي لان أهل
الامصار أفضل واعلم وأكمل عقلا من اهل البوادي قال الحسن لم يبعث نبي من بدو
ولا من الجن ولا من النساء وقيل انما لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم (أفلم
يسيروا في الارض) يعني هؤلاء المشركين المكذبين (فينظروا كيف كان عاقبة الذين
من قبلهم) يعني كانت عاقبتهم الهلاك لما كذبوا ارسلنا فليعتبر هؤلاء بهم وما حل بهم
من عذابنا (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) يعني فعلنا هذا باوليائنا وأهل طاعتنا اذ
أنجيناهم عند نزول العذاب بالامم المكذبة وما في الدار الآخرة خير لهم يعني الجنة لانها
خير من الدنيا وانما اضاف الدار الى الآخرة وان كانت هي الآخرة لان العرب تضيف
الشئ الى نفسه كقولهم حق اليقين والحق هو اليقين نفسه (أفلا يعقلون) يعني
يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنون قوله عز وجل (حتى اذا استيأس الرسل) قال
صاحب الكشاف حتى متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام كانه قيل وما ارسلنا من قبلك
الا رجالا نوحي اليهم فتراخى نصرهم حتى اذا استيأس الرسل عن النصر وقال الواحدي
حتى هنا حرف من حروف الابتداء يستأنف بعدها والمعنى حتى اذا استيأس الرسل من
ايمان قومهم (وظنوا انهم قد كذبوا) قرأ اهل الكوفة وهم عاصم وحمزة والكسائي
كذبوا بالتخفيف ووجه هذه القراءة على ما قاله الواحدي ان معناه ظن الامم ان الرسل
قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله اياهم واهلاك اعدائهم وهذا معنى قول ابن
عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقال اهل المعاني كذبوا من قولهم كذبتك
الحديث أي لم أصدقك ومنه قوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله قال أبو علي
والضمير في قوله وظنوا على هذه القراءة للمرسل اليهم والتقدير وظن المرسل اليهم ان
الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله اياهم واهلاك أعدائهم وهذا معنى
قول ابن عباس انهم لم يؤمنوا بهم حتى نزل بهم العذاب وانما ظنوا ذلك لما شاهدوا

(وسبحان الله) وأنزهه عن
الشركاء (وما أنا من المشركين)
مع الله غيره (وما أرسلنا من
قبلك الا رجالا) لا ملائكة لانهم
كانوا يقولون لو شاء ربنا لانزل
ملائكة اوليست فيهم امرأة
(نوحي) بالنون حفص (اليهم
من أهل القرى) لانهم اعلم واحلم
وأهل البوادي فيهم الجهل
والجفاء (أفلم يسيروا في الارض
فينظروا كيف كان عاقبة الذين
من قبلهم ولدار الآخرة) أي
ولدار الساعة الآخرة (خير للذين
اتقوا) الشرك وآمنوا به (أفلا
تعقلون) وبالياء مكي وابو عمرو
وحمزة وعلي (حتى اذا استيأس
الرسل) يئسوا من ايمان القوم
(وظنوا أنهم قد كذبوا) وايقن
الرسل ان قومهم كذبوهم
وبالتخفيف كوفي أي وظن المرسل
اليهم ان الرسل قد كذبوا أي
أخلفوا أو وظن المرسل اليهم
انهم كذبوا من جهة الرسل أي
كذبتهم الرسل في انهم ينصرون
عليهم ولم يصدقوهم فيه

من امهال الله اياهم ولا يمتنع حمل الضمير في وظنوا على المرسل اليهم وان لم يتقدم لهم ذكر
لان ذكر الرسل يدل على ذكر المرسل اليهم وان شئت قلت ان ذكرهم جرى في قوله
أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم أي مكذبي الرسل
والظن هنا على معنى التوهم والحسبان وهذا معنى ماروى عن ابن عباس انه قال حتى
اذا استيأس الرسل من قومهم الاجابة وظن قومهم ان الرسل قد كذبوا فيما وعدوا من
نصرهم واهلاك من كذبهم وقيل معناه وتيقن الرسل انهم قد كذبوا في وعد قومهم
اياهم الايمان أي وعدوا ان يؤمنوا ثم لم يؤمنوا وقال صاحب الكشاف وظنوا أنهم
قد كذبوا أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بانهم لا ينصرون او رجاؤهم كقولهم رجاء
صادق ورجاء كاذب والمعنى ان مدة التكذيب والعداوة وانتظار النصر من الله تعالى
وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا ان لا نصر لهم
في الدنيا فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب وعن ابن عباس وظنوا حين ضعفوا وغلبوا
انهم قد أخلفوا ما وعدهم الله به من النصر قال وكانوا بشرا وتلا قوله وزلزلوا حتى يقول
الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله قال صاحب الكشاف فان صح هذا عن ابن
عباس فقد اراد بالظن ما يخطر بالبال و يهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث
النفس على ما عليه الطبيعة البشرية واما الظن الذي هو ترجيح أحد الجانبين على
الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله الذين هم اعرف الناس بربهم وانه
متعال عن خلف الميعاد وحكى الواحدي عن ابن الانباري انه قال هذا غير معول عليه
من جهتين احداهما ان التفسير ليس عن ابن عباس لكنه من متأول تأوله عليه
والاخرى ان قوله جاءهم نصرنا دال على ان اهل الكفر ظنوا ما لا يجوز مثله واستضعفوا
رسل الله ونصر الله للرسل ولو كان الظن للرسل كان ذلك منهم خطأ عظيما ولا يستحقون
ظفرا ولا نصرا وتبرئة الانبياء وتطهيرهم واجب علينا اذا وجدنا الى ذلك سبيلا وقرأ
الباقون وهم نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر وظنوا انهم قد كذبوا بالتشديد
ووجهه ظاهر وهو ان معناه حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم وظنوا يعني
وايقنوا يعني الرسل ان الامم قد كذبوهم تكذيبا لا يرجى بعده ايمانهم فالظن بمعنى
اليقين وهذا معنى قول قتادة وقال بعضهم معناه حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من
قومهم ان يصدقوهم وظنوا ان من قد آمن بهم من قومهم قد فارقوهم وارتدوا عن دينهم
لشدة المحنة والبلاء واستبطؤا النصر أتاهم النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى
الحسبان والتكذيب مظنون من جهة من آمن بهم يعني وظنوا ابالرسل ظن حسبان ان
اتباعهم قد كذبوهم في وعد الظفر والنصر لابطائه وتأخره عنهم ولطول البلاء بهم لا أنهم
كذبوهم في كونهم رسلا وقيل ان هذا التكذيب لم يحصل من أتباعهم المؤمنين
لانه لو حصل لكان نوع كفر ولكن الرسل ظنت بهم ذلك لبطء النصر وعلى هذا القول
الظن بمعنى اليقين والتكذيب المتيقن هو من جهة الكفار وعلى القولين جميعا فالكناية
في وظنوا للرسل (خ) عن عروة بن الزبير انه سأل عائشة عن قوله تعالى حتى اذا استيأس

(جاءهم نصرنا) للانبياء والمؤمنين بهم فجأة من غير احتساب (فنجى) بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء شامى وعاصم على لفظ الماضى المبنى للمفعول والقائم مقام ٦٢ الفاعل من والباقون فننجى (من نشاء) أى النبى ومن آمن به (ولا يرد بأسنا) عذابنا (عن القوم المجرمين) الكافرين (لقد كان فى قصصهم) أى فى قصص الانبياء وامهم أو فى قصة يوسف واخوته (عبرة لأولى الالباب) حيث نقل من غاية الحب الى غيابة الجب ومن الحصير الى السرير فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة ونهاية المكر وخامة وندامة (ما كان حديثا يفترى) ما كان القرآن حديثا مفترى كما زعم الكفار (ولكن تصديق الذى بين يديه) ولكن تصديق الكتب التى تقدمته (وتفصيل كل شئ) يحتاج اليه فى الدين لانه القانون الذى تستند اليه السنة والاجماع والقياس (وهدى) من الضلال (ورحمة) من العذاب (لقوم يؤمنون) بالله وانبيائه وما نصب بعد لكن معطوف على خبر كان * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا أرقاءكم سورة يوسف فايما عبد تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت واعطاه القوة أن لا يحسد مسلما قال الشيخ أبو منصور رحمه الله فى ذكر قصة يوسف عليه السلام واخوته تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أذى قريش كأنه يقول ان اخوة يوسف مع موافقتهم اياه فى الدين ومع الاخوة عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد والمكر وصبر على ذلك فانت مع مخالفتهم اياك فى الدين أحرى ان تصبر على اذاهم وقال وهب ان الله تعالى لم ينزل كتابا الا وفيه سورة يوسف عليه السلام تامة كما هى فى القرآن العظيم والله أعلم

الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا أو كذبوا قالت بل كذبهم قومهم فقلت والله لقد استيقنوا ان قومهم كذبوهم وما هو بالظن فقالت يا عروة أجل لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها قد كذبوا فقالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت فما هذه الآية قالت هم اتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنوا ان اتباعهم كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك وفى رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة قال قال ابن عباس حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا خفيفة قال ذهب بها هنالك وتلا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب قال فلقيت عروة بن الزبير وذكرت ذلك له فقال قالت عائشة معاذ الله والله ما وعد الله رسوله من شئ قط الا علم انه كائن قبل ان يموت ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا ان يكون معهم من قومهم من يكذبوهم فكانت تقروها وظنوا انهم قد كذبوا مثقلة وقوله تعالى (جاءهم نصرنا) يعنى جاء نصر الله النبيين (فنجى من نشاء) من عبادنا يعنى عند نزول العذاب بالكافرين فنجى المؤمنين المطيعين (ولا يرد بأسنا) يعنى عذابنا (عن القوم المجرمين) يعنى المشركين قوله تعالى (لقد كان فى قصصهم) يعنى فى خبر يوسف واخوته (عبرة) أى موعظة (لاولى الالباب) يعنى يتعظ بها أولو الالباب والعقول الصحيحة ومعنى الاعتبار والعبرة الحالة التى يتوصل بها الانسان من معرفة المشاهد الى ما ليس بمشاهد والمراد منه التأمل والتفكر ووجه الاعتبار بهذه القصة ان الذى قدر على اخراج يوسف من الجب بعد القائه فيه واخراجه من السجن وتمليكه مصر بعد العبودية وجمع شمله بابيه واخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع لقادر على اعزاز محمد صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته واظهار دينه وان الاخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الاخبار عن الغيوب فكانت معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل ان الله تعالى قال فى أول هذه السورة نحن نقص عليك أحسن القصص وقال فى آخرها لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب فدل على ان هذه القصة من أحسن القصص وان فيها عبرة لمن اعتبرها (ما كان حديثا يفترى) يعنى ما كان هذا القرآن حديثا يفترى ويختلق لان الذى جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه ان يفتريه أو يختلقه لانه لم يقرأ الكتب ولم يخالط العلماء ثم انه جاء بهذا القرآن المعجز فدل ذلك على صدقه وانه ليس بمفتر (ولكن تصديق الذى بين يديه) يعنى ولكن كان تصديق الذى بين يديه من الكتب الالهية المنزلة من السماء من التوراة والانجيل وفيه اشارة الى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة من ذكر قصة يوسف (وتفصيل كل شئ) يعنى ان فى هذا القرآن المنزل عليك يا محمد تفصيل كل شئ تحتاج اليه من الحلال والحرام والحدود والاحكام والقصص والمواعظ والامثال وغير ذلك مما يحتاج اليه العباد فى أمر دينهم

ودثباهم (وهدى) يعنى الى كل خير (ورحمة) يعنى أنزلناه رحمة (لقوم يؤمنون) لانهم هم الذين ينتفعون به والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة الرعد)

قال ابن الجوزى اختلفوا فى نزولها على قولين أحدهما انها مكية رواه أبو طلحة عن ابن عباس وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة وروى أبو صالح عن ابن عباس انها مكية الا آيتين احداهما قوله ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة والاخرى قوله ويقول الذين كفروا لست مرسلا والقول الثانى انها مدنية رواه عطاء الخراسانى عن ابن عباس وبه قال جابر بن زيد وروى عن ابن عباس انها مدنية الا آيتين نزلتا بمكة وهما قوله ولو أن قرآنا سيرت به الجبال الى آخر الآيتين وقال بعضهم المدنى منها قوله هو الذى يريكم البرق الى قوله دعوة الحق وهى ثلاث وقيل خمس وأربعون آية وثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (المر) قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه انا الله اعلم وارى وروى عطاء عنه أنه قال ان معناه انا الله الملك الرحمن (تلك آيات الكتاب) الاشارة بتلك الى آيات السورة المسماة بالمر والمراد بالكتاب السورة أى آيات السورة الكاملة العجيبة فى بابها ثم قال تعالى (والذى أنزل اليك من ربك الحق) يعنى من القرآن كله هو الحق الذى لا مزيد عليه وقيل المراد بالاشارة فى قوله تلك الاخبار والقصص أى الاخبار والقصص التى قصصتها عليك يا محمد هى آيات التوراة والانجيل والكتب الالهية القديمة المنزلة والذى أنزل اليك يعنى وهذا القرآن الذى أنزل اليك يا محمد من ربك الحق أى هو الحق فاعتصم به وقال ابن عباس وقتادة أراد بآيات الكتاب القرآن والمعنى هذه آيات الكتاب الذى هو القرآن ثم قال والذى أنزل اليك من ربك الحق يعنى وهذا القرآن الذى أنزل اليك من ربك هو الحق الذى لا شك فيه ولا تناقض (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) يعنى مشركى مكة نزلت هذه الآية فى الرد عليهم حين قالوا ان محمدا يقوله من تلقاء نفسه ثم ذكر من دلائل ربوبيته وعجائب قدرته ما يدل على وحدانيته فقال تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد) جمع عمود وهى الاساطين والدعائم التى تكون تحت السقف وفى قوله (ترونها) قولان أحدهما ان الرؤية ترجع الى السماء يعنى وأنتم ترون السموات مرفوعة بغير عمد من تحتها يعنى ليس من دونها دعامة تدعمها ولا من فوقها علاقة تمسكها والمراد نفى العمد بالكلية قال اياس بن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة وهذا قول الحسن وقتادة وجمهور المفسرين واحدى الروايتين عن ابن عباس والقول الثانى ان الرؤية ترجع الى العمد والمعنى ان لها عمدا ولكن لا ترونها أنتم ومن قال بهذا القول يقول ان عمدها على جبل قاف وهو جبل من زبرجد محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة والرواية الاخرى عن ابن عباس

(سورة الرعد مكية وهى ثلاث وأربعون آية كوفى وخمس وأربعون آية شامى)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(المر) أنا الله اعلم وأرى عن ابن عباس رضى الله عنهما (تلك) اشارة الى آيات السورة (آيات الكتاب) أريد بالكتاب السورة أى تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة فى بابها (والذى أنزل اليك من ربك) أى القرآن كله (الحق) خبر والذى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) فيقولون تقوله محمد ثم ذكر ما يوجب الايمان فقال (الله الذى رفع السموات) أى خلقها مرفوعة لا أن تكون موضوعة فرفعها والله مبتدأ والخبر الذى رفع السموات (بغير عمد) حال وهو جمع عماد أو عمود (ترونها) الضمير يعود الى السموات أى ترونها كذلك فلا حاجة الى البيان أو الى عمد فيكون فى موضع جر على أنه صفة لعمد أى بغير عمد مرئية (ثم استوى على العرش) استولى بالاقتدار ونفوذ السلطان

والقول الاول أصح وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) تقدم تفسيره والكلام عليه في سورة الاعراف بما فيه كفاية (وسخر الشمس والقمر) يعني ذللهما لمنافع خلقه فهما مقهوران يجريان على ما يريد (كل يجري لاجل مسمى) يعني الى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها وقال ابن عباس أراد بالاجل المسمى درجاتهما ومنازلهما يعني انهما يجريان في منازلهما ودرجاتهما الى غاية ينتهيان اليها ولا يجاوزانها وتحقيقه ان الله تعالى جعل لكل واحد من الشمس والقمر سيرا خاصا الى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء في الحركة (يدبر الامر) يعني انه تعالى يدبر أمر العالم العلوي والسفلي ويصرفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الاحوال لا يشغله شأن عن شأن وقيل يدبر الامر بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة لان جميع العالم محتاجون الى تدبيره ورحمته داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته (يفصل الآيات) يعني انه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته وقيل ان الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان الاول الموجودات المشاهدة وهي خلق السموات والارض وما فيهما من العجائب وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم وهذا قد تقدم ذكره والقسم الثاني الموجودات الحادثة في العالم وهي الموت بعد الحياة والفقر بعد الغنى والضعف بعد القوة الى غير ذلك من أحوال هذا العالم وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع وكمال قدرته (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) يعني انه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته لكي توقنوا وتصدقوا بلقائه والمصير اليه بعد الموت لأن من قدر على ايجاد الانسان بعد عدمه قادر على ايجاده واحيائه بعد موته واليقين صفة من صفات العلم وهو فوق المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك يقال منه استيقن وأيقن بمعنى علم قوله تعالى (وهو الذي مد الارض) لما ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته وهي رفع السموات بغير عمد وذكر أحوال الشمس والقمر اردفها بذكر الدلائل الارضية فقال وهو الذي مد الارض أي بسطها على وجه الماء وقيل كانت الارض مجتمعة فدحاها من تحت البيت الحرام وهذا القول انما يصح اذا قيل ان الارض منبسطة كالاكف وعند أصحاب الهيئة الارض كرة ويمكن ان يقال ان الكرة اذا كانت كبيرة عظيمة فكل قطعة منها تشاهد ممدودة كالسطح الكبير العظيم فحصل الجمع ومع ذلك فالله تعالى قد أخبر انه مد الارض وانه دحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلا وأبين دليلا من أصحاب الهيئة (وجعل فيها) يعني في الارض (رواسي) يعني جبالا ثابتة يقال رسا الشئ يرسو اذا ثبت وارساه غيره أثبته قال ابن عباس كان أبو قبيس أول جبل وضع على الارض (وانهارا) يعني وجعل في الارض أنهارا جارية لمنافع الخلق (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) يعني صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلوا وحامضا (يغشي الليل النهار) يعني يلبس النهار ظلمة الليل ويلبس الليل ضوء النهار (ان في ذلك) يعني الذي تقدم ذكره من عجائب صنعته وغرائب قدرته الدالة على وحدانيته (لآيات)

(وسخر الشمس والقمر) لمنافع عباده ومصالح بلاده (كل يجري لاجل مسمى) وهو انقضاء الدنيا (يدبر الامر) أمر ملكوته وربوبيته (يفصل الآيات) يبين آياته في كتبه المنزلة (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) لعلكم توقنون بأن هذا المدبر والمفصل لابد لكم من الرجوع اليه (وهو الذي مد الارض) بسطها (وجعل فيها رواسي) جبالا ثوابت (وانهارا) جارية (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) أي الاسود والابيض والحلو والحامض والصغير والكبير وما اشبه ذلك (يغشي الليل النهار) يلبسه مكانه فيصير أسود مظلما بعد ما كان ابيض منيرا يغشي حمزة وعلي وابو بكر (ان في ذلك لآيات

أي دلالات (لقوم يتفكرون) يعني فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب
والفكر هو تصرف القلب في طلب الاشياء وقال صاحب المفردات الفكر قوة مطرقة
للعلم الى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل وذلك للانسان دون
الحيوان ولا يقال الا فيما يمكن ان يحصل له صورة في القلب ولهذا روى تفكروا في
آلاء الله ولا تفكروا في الله اذ كان الله منزها أن يوصف بصورة وقال بعض الادباء الفكر
مقلوب عن الفرك لانه يستعمل في طلب المعاني وهو فرك الامور وبحثها طلبا للوصول
الى حقيقتها قوله عز وجل (وفي الارض قطع متجاورات) يعني متقاربات بعضها من
بعض وهي مختلفة في الطبائع فهذه طيبة تنبت وهذه سبخة لا تنبت وهذه قليلة الريع
وهذه كثيرة الريع (وجنات) يعني بساتين والجنة كل بستان ذي شجر من نخيل
وأعناب وغير ذلك سمي جنة لانه يستر باشجاره الارض واليه الاشارة بقوله (من أعناب
وزرع ونخيل صنوان) جمع صنو وهي النخلات يجمعهن أصل واحد ومنه قوله صلى
الله عليه وسلم في عمه العباس عم الرجل صنو أبيه يعني انهما من أصل واحد (وغير
صنوان) هي النخلة المنفردة بأصلها فالصنوان المجتمع وغير الصنوان المتفرق (يسقى
بماء واحد) يعني أشجار الجنات وزروعها والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل
في حده جوهر سيال به قوام الارواح (ونفضل بعضها على بعض في الاكل) يعني في
الطعم ما بين الحلو والحامض والعفص وغير ذلك من الطعام عن أبي هريرة رضي الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ونفضل بعضها على بعض في الاكل قال الدقل
والفارسي والحلو والحامض أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قال مجاهد
هذا كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله
لقلوب بني آدم كانت الارض طينة واحدة في يد الرحمن فسطحها فصارت قطعا متجاورات
وأنزل على وجهها ماء السماء فتخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها وتخرج هذه نباتها
وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد فلو كان الماء قليلا قيل انما
هذا من قبل الماء كذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق
قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال الحسن والله ما جالس
القرآن أحد الا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال الله تعالى وننزل من القرآن ما هو
شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وقوله تعالى (ان في ذلك) يعني الذي
ذكر (لآيات لقوم يعقلون) يعني فيتدبرون ويتفكرون في الآيات الدالة على
وحدانيته قوله تعالى (وان تعجب فعجب قولهم) العجب تغير النفس برؤية المستبعد
في العادة وقيل العجب حالة تعرض للانسان عند الجهل بسبب ولهذا قال بعض الحكماء
العجب ما لا يعرف سببه ولهذا قيل العجب في حق الله محال لانه تعالى علام الغيوب
لا تخفى عليه خافية والخطاب في الآية للنبي صلى الله عليه وسلم ومعناه وانك يا محمد ان
تعجب من تكذيبهم اياك بعد أن كنت عندهم تعرف بالصادق الامين فعجب أمرهم
وقيل معناه وان تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع

لقوم يتفكرون) فيعلمون ان
لها صانعا عليما حكيما قادرا
(وفي الارض قطع متجاورات)
بقاع مختلفة مع كونها متجاورة
متلاصقة طيبة الى سبخة وكريمة
الى زهيدة وصلبة الى رخوة
وذلك دليل على قادر مدبر مريد
موقع لافعاله على وجه دون وجه
(وجنات) معطوفة على قطع
(من أعناب وزرع ونخيل
صنوان وغير صنوان) بالرفع مكي
وبصري وحفص عطف على قطع
غيرهم بالجر بالعطف على اعناب
والصنوان جمع صنو وهي النخلة
لها رأسان وأصلها واحد وعن
حفص بضم الصاد وهما لغتان
(تسقى بماء واحد) وبالياء عاصم
وشامي (ونفضل بعضها على
بعض) وبالياء حمزة وعلي (في
الاكل) في الثمر وبسكون
الكاف نافع ومكي (ان في ذلك
لآيات لقوم يعقلون) عن
الحسن مثل اختلاف القلوب
في آثارها وانوارها وأسرارها
باختلاف القطع في انهارها
وأزهارها وثمارها (وان تعجب)
يا محمد من قولهم في انكار البعث
(فعجب قولهم) خبر ومبتدأ أي
فقولهم حقيق بأن يتعجب منه
لان من قدر على انشاء ما عدد
عليك كانت الاعادة أهون شئ
عليه وايسره فكان انكارهم
اعجوبة من الاعاجيب

(أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد) في محل الرفع بدل من قولهم قرأ عاصم وحمزة كل واحد منهما بهمزتين (أولئك الذين كفروا بربهم) أولئك الكافرون المتمادون في كفرهم ٦٦ (وأولئك الأغلال في أعناقهم) وصف لهم بالإصرار أو من جملة الوعيد

(وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) دل تكرار أولئك على تعظيم الأمر (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) بالنقمة قبل العافية وذلك أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره (وقد خلت من قبلهم المثلات) أي عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزئوا والمثلة العقوبة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة وجزاء سيئة سيئة مثلها (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أي مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب ومحله الحال أي ظالمين لأنفسهم قال السدي يعني المؤمنين وهي أرجى آية في كتاب الله حيث ذكر المغفرة مع الظلم وهو بدون التوبة فإن التوبة تزيلها وترفعها (وإن ربك لشديد العقاب) على الكافرين أو هما جميعا في المؤمنين لكنه معلق بالمشيئة فيهما أي يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عنادا فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى من انقلاب العصا حية وإحياء الموتى فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (إنما أنت منذر) إنما أنت رجل أرسلت منذرا مخوفا لهم من سوء العاقبة وناصحا كغيرك من الرسل وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر وصحة ذلك حاصلة بأي آية كانت والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوى بها (ولكل قوم هاد) من الأنبياء يهديهم إلى الدين ويدعوهم إلى الله بآية تخص بها الأعمار يدون ويحكمون

اقرارهم بان الله تعالى خالق السموات والارض وهو يضر وينفع وقد رأوا من قدرة الله
وما ضرب لهم به الامثال ما رأوا فعجب قولهم وقيل وان تك ان تعجب من انكارهم النشأة
الآخرة والبعث بعد الموت مع اقرارهم بان ابتداء الخلق من الله فعجب قولهم وذلك
ان المشركين كانوا ينكرون البعث بعد الموت مع اقرارهم بان ابتداء الخلق من الله
وقد تقرر في النفوس ان الاعادة أهون من الابتداء فهذا موضع التعجب وهو قولهم
(أئذا كنا ترابا) يعني بعد الموت (أئنا لفي خلق جديد) يعني نعاد خلقا جديدا بعد الموت
كما كنا قبله ثم ان الله تعالى قال في حقهم (أولئك الذين كفروا بربهم) وفيه دليل على
ان كل من أنكر البعث بعد الموت فهو كافر بالله تعالى لان من أنكر البعث بعد
الموت فقد أنكر القدرة وان الله على كل شئ قدير ومن أنكر ذلك فهو كافر (وأولئك
الاغلال في أعناقهم) يعني يوم القيامة والاغلال جمع غل وهو طوق من حديد يجعل
في العنق وقيل أراد بالاغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الاسير ذليلا بالغل
(وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعني انهم مقيمون فيها لا يخرجون منها
ولا يموتون (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) الاستعجال طلب تعجيل الامر قبل مجيء
وقته والمراد بالسيئة هنا هي العقوبة وبالحسنة العافية وذلك ان مشركي مكة كانوا
يطلبون العقوبة بدلا من العافية استهزاء منهم وهو قولهم اللهم ان كان هذا هو الحق
من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (وقد خلت من قبلهم
المثلات) يعني وقد مضت في الامم المكذبة العقوبات بسبب تكذيبهم رسلهم والمثلة
بفتح الميم وضم الثاء المثلثة نقمة تنزل بالانسان فيجعل مثلا ليرتدع غيره به وذلك كالنكال
وجمعه مثلات بفتح الميم وضمها مع ضم الثاء فيهما لغتان (وان ربك لذو مغفرة للناس على
ظلمهم) قال ابن عباس معناه انه لذو تجاوز عن المشركين اذا آمنوا (وان ربك لشديد
العقاب) يعني للمصرين على الشرك الذي ماتوا عليه وقال مجاهد انه لذو تجاوز عن
شركهم في تأخير العذاب عنهم وانه لشديد العقاب اذا عاقب قوله تعالى (ويقول الذين
كفروا) يعني من أهل مكة (لولا) أي هلا (أنزل عليه) يعني على محمد صلى الله عليه
وسلم (آية من ربه) يعني مثل عصا موسى وناقة صالح وذلك لانهم لم يقتنعوا بما رأوا
من الآيات التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم (انما أنت منذر) أي ليس عليك يا محمد
غير الانذار والتخويف وليس لك من الآيات شئ (ولكل قوم هاد) قال ابن عباس
الهادي هو الله وهذا قول سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك والنخعي والمعنى
انما عليك الانذار يا محمد والهادي هو الله يهدي من يشاء وقال عكرمة في رواية أخرى
عنه وأبو الضحى الهادي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى انما أنت منذر وأنت
هاد وقال الحسن وقتادة وابن زيد يعني ولكل قوم نبي يهديهم وقال أبو العالية الهادي

هو العمل الصالح وقال أبو صالح الهادى هو القائد الى الخير لا الى الشر قوله عز وجل (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات أخبرهم الله عز وجل عن عظيم قدرته وكمال علمه وانه عالم بما تحمل كل انثى يعنى من ذكر او أنثى سوى الخلق أو ناقص الخلق واحدا أو اثنين أو أكثر (وما تغيض) يعنى وما تنقص (الارحام وما تزداد) قال أهل التفسير غيض الارحام الحيض على الحمل فاذا حاضت الحامل كان ذلك نقصانا فى الولد لان دم الحيض هو غذاء الولد فى الرحم فاذا خرج الدم نقص الغذاء فينقص الولد واذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم وقيل اذا حاضت المرأة فى وقت حملها ينقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرة فان رأت خمسة أيام دما وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان فى الغذاء زيادة فى مدة الحمل وقيل النقصان السقط والزيادة تمام الخلق وقال الحسن غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر فأقل مدة الحمل ستة أشهر وقد يولد لهذه المدة ويعيش واختلفوا فى أكثره فقال قوم اكثر مدة الحمل سنتان وهو قول عائشة وبه قال أبو حنيفة وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وقال جماعة اكثرها اربع سنين واليه ذهب الشافعى وقال حماد بن أبى سلمة انما سمى هرم بن حيان هرما لانه بقى فى بطن امه أربع سنين وعند مالك ان أكثر مدة الحمل خمس سنين (وكل شئ عنده بمقدار) يعنى بتقدير وحد لا يجاوزه ولا ينقص منه وقيل انه تعالى يعلم كمية كل شئ وكيفيته على أكمل الوجوه وقيل معناه وانه تعالى خصص كل حادثة من الحوادث بوقت معين وحالة معينة وذلك بمشيئته الازلية وارادته وتقديره الذى لا يقدر عليه غيره (عالم الغيب والشهادة) يعنى أنه تعالى يعلم ما غاب عن خلقه وما يشاهدونه وقيل الغيب هو المعدوم والشاهد هو الموجود وقيل الغيب ما غاب عن الحس والشاهد ما حضر فى الحس (الكبير) أى العظيم الذى يصغر كل كبير بالاضافة الى عظمته وكبريائه فهو يعود الى معنى كبر قدرته وانه تعالى المستحق لصفات الكمال (المتعال) يعنى المنزه عن صفات النقص المتعالى عن الخلق وفيه دليل على انه تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة وتنزيهه عن جميع النقائص قوله تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) أى مستو منكم من أخفى القول وكتمه ومن اظهره واعلنه والمعنى انه قد استوى فى علم الله تعالى المسر بالقول والجاهر به (ومن هو مستخف بالليل) أى مستتر بظلمته (وسارب بالنهار) أى ذاهب بالنهار فى سربه ظاهرا والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق وقال القتيبى السارب المتصرف فى حوائجه قال ابن عباس فى هذه الآية هو صاحب ريبة مستخف بالليل واذا خرج بالنهار أرى الناس انه برئ من الاثم وقيل مستخف بالليل ظاهر من قولهم خفيت الشئ اذا أظهرته واخفيته اذا كتمته وسارب بالنهار أى متوار داخل فى السرب مستخفيا ومعنى الآية سواء ما أضمرته القلوب أو نطقت به الالسن وسواء من أقدم على القبائح مستترا فى ظلمات الليل أو أتى بها ظاهرا فى النهار فان علمه تعالى محيط بالكل

(الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد) ما فى هذه المواضع الثلاثة موصولة أى يعلم ما تحمله من الولد على أى حال هو من ذكورة وأنوثة وتمام وخداج وحسن وقبح وطول وقصر وغير ذلك وما تغيضه الارحام أى ويعلم ما تنقصه يقال غاض الماء وغضته أنا وما تزداده والمراد عدد الولد فانها تشتمل على واحد واثنين وثلاثة وأربعة أو جسد الولد فانه يكون تاما ومخدجا أو مدة الولادة فانها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها الى سنتين عندنا والى أربع عند الشافعى والى خمس عند مالك أو مصدرية أى يعلم حمل كل انثى ويعلم غيض الارحام وازديادها (وكل شئ عنده بمقدار) بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه لقوله انا كل شئ خلقناه بقدر (عالم الغيب) ما غاب عن الخلق (والشهادة) ما شاهدوه (الكبير) العظيم الشأن الذى كل شئ دونه (المتعال) المستعلى على كل شئ بقدرته أو الذى كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها وبالياء فى الحالين مكى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) أى فى علمه (ومن هو مستخف بالليل) متوار (وسارب بالنهار) ذاهب فى سربه أى فى طريقه ووجهه يقال سرب فى الارض سروبا وسارب عطف على من هو مستخف لا على مستخف أو على مستخف غير أن من فى معنى الاثنين والضمير فى

(لمعقبات) يعني لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار فاذا صعدت ملائكة الليل عقبتها ملائكة النهار والتعقيب العود بعد البدء وانما ذكر معقبات بلفظ التأنيث وان كان الملائكة ذكورا لان واحدها معقب وجمعها معقبة ثم جمع المعقبة معقبات كما قيل أبناوات سعد ورجالات بكر (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون وقيل ان مع كل واحد من بني آدم ملكين ملك عن يمينه وهو صاحب الحسنات وملك عن شماله وهو كاتب السيئات وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فاذا عمل العبد حسنة كتبها له بعشر أمثالها واذا عمل سيئة قال صاحب الشمال لصاحب اليمين اكتبها عليه فيقول أنظره لعله يتوب أو يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات فان هو تاب منها والا قال اكتبها عليه سيئة واحدة وملك موكل بناصية العبد فاذا تواضع العبد لله عز وجل رفعه بها وان تجبر على الله عز وجل وضعه بها وملك موكل بعينيه يحفظهما من الاذى وملك موكل بفيه لا يدعه يدخل في فيه شئ من الهوام يؤذيه فهؤلاء خمسة املاك موكلون بالعبد في ليله وخمسة غيرهم في نهاره فانظر الى عظمة الله تعالى وقدرته وكمال شفقته عليك أيها العبد المسكين وهو قوله تعالى (من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) يعني يحفظون العبد من بين يديه ومن وراء ظهره ومعنى من أمر الله بأمر الله واذنه ما لم يجئ القدر فاذا جاء خلوا عنه وقيل معناه انهم يحفظونه بما أمر الله به من الحفظ له قال مجاهد ما من عبد الا وملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والانس والهوام فما من شئ يأتيه يؤذيه الا قال له الملك وراءك الا شئ يأذن الله فيه فيصيبه وقال كعب الاحبار لولا ان الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج معنى يحفظونه أي يحفظون عليه الحسنات والسيئات وهذا على قول من يقول ان الآية في الملكين القاعدين عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات وقال عكرمة الآية في الامراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم والضمير في قوله له راجع الى النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس في معنى هذه الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من شر الجن وطوارق الليل والنهار وقال عبد الرحمن بن زيد نزلت هذه الآية في عامر ابن الطفيل وأربد بن ربيعة وهما من بني عامر بن زيد وكانت قصتهما على ما رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهما من بني عامر ابن زيد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه فدخل المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان من أجمل الناس وكان أعور فقال رجل يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك فقال دعه فان يرد الله به خيرا يهده فاقبل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا محمد ما لي ان أسلمت قال لك

(ك) مرذود على من كأنه قيل لمن أسر ومن جهر ومن استخفى ومن سرب (معقبات) جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه والاصل معتقبات فادغمت التاء في القاف أو هو مفعلات من عقبه اذا جاء على عقبه لان بعضهم يعقب بعضا أو لانهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه (من بين يديه ومن خلفه) أي قدامه ووراءه (يحفظونه من أمر الله) هما صفتان جميعا وليس من أمر الله بصلة للحفظ كانه قيل له معقبات من أمر الله أو يحفظونه من أجل أمر الله أي من أجل ان الله تعالى أمرهم بحفظه أو يحفظونه من بأس الله ونقمته اذا اذنب بدعائهم له

مالمسلمين وعليك ماعلى المسلمين قال تجعل الامر لى بعدك قال ليس ذلك لى انما ذلك الى
الله تعالى يجعله حيث يشاء قال فتجعلنى على الوبر وأنت على المدر قال لا قال فما تجعل
لى قال اجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها قال أوليس ذلك لى اليوم قم معى أ كلمك فقام
معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عامر قد اوصى الى أربد بن ربيعة اذا رأيتنى
أ كلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف فجعل عامر يخاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويراجعه ودار أربد من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فاخترط شبرا من
سيفه ثم حبسه الله تعالى عليه فلم يقدر على سله وجعل عامر يومئ اليه فالتفت رسول
الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما صنع بسيفه فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فارسل
الله على أربد صاعقة فى يوم صحو قائظ فاحرقته فولى عامر هاربا وقال يا محمد دعوت ربك
فقتل أربد والله لاملأنها عليك خيلا جردا وشبابا مردا فقال النبى صلى الله عليه وسلم
يمنعنى الله من ذلك وابنا قيلة يريد الاوس والخزرج فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما
أصبح ضم اليه سلاحه فخرج له خراج فى أصل اذنه اخذه منه مثل النار فاشتد عليه
فقال غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ثم ركب فرسه وجعل يركض فى الصحراء
ويقول ادن يا ملك الموت وجعل يقول الشعر ويقول لئن أبصرت محمدا وصاحبه
يعنى ملك الموت لانفذتهما برمحى فارسل الله اليه ملكا فلطمه فارداه فى التراب ثم عاد
فركب جواده حتى مات على ظهره وأجاب الله عز وجل دعاء رسول الله صلى الله عليه
وسلم فى عامر بن الطفيل فمات بالطعن وأربد بن ربيعة مات بالصاعقة وأنزل الله عز وجل
فى شأن هذه القصة سواء منكم من أسر القول ومن جهر به الى قوله له معقبات من بين
يديه ومن خلفه يعنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم معقبات يحفظونه من بين يديه ومن
خلفه من أمر الله أى بأمر الله وقيل إن تلك المعقبات من أمر الله وفيه تقديم وتأخير
تقديره له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه وقوله (ان الله لا يغير
ما بقوم) خطاب لهذين عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة يعنى لا يغير ما بقوم من العافية
والنعمة التى أنعم بها عليهم (حتى يغيروا ما بأنفسهم) يعنى من الحالة الجميلة فيعصون
ربهم ويجحدون نعمه عليهم فعند ذلك تحل نقمته بهم وهو قوله تعالى (واذا أراد الله
بقوم سوءا) يعنى هلاكا وعذابا (فلا مرد له) يعنى لا يقدر أحد أن يرد ما أنزل الله بهم من
قضائه وقدره (وما لهم من دونه من وال) يعنى وليس لهم من دون الله من وال يلى
أمرهم ونصرهم ويمنع العذاب عنهم قوله عز وجل (هو الذى يريكم البرق خوفا
وطمعا) لما خوف الله عز وجل عباده بقوله واذا أراد الله بقوم سوءا ذكر فى هذه الآية
من عظيم قدرته ما يشبه النعم من وجه ويشبه العذاب من وجه فقال تعالى هو الذى
يعنى هو الله الذى يريكم البرق والبرق معروف وهو لمعان يظهر من خلال السحاب
وفى كونه خوفا وطمعا وجوه الاول ان عند لمعان البرق يخاف من الصواعق ويطمع
فى نزول المطر الثانى انه يخاف من البرق من يتضرر بالمطر كالمسافر ومن فى جرينه يعنى
بيدره التمر والزبيب والقمح ونحو ذلك ويطمع فيه من له فى نزول المطر نفع كالزراع

(ان الله لا يغير ما بقوم) من العافية والنعمة (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الحال الجميلة بكثرة المعاصى (واذا أراد الله بقوم سوأ) عذابا (فلا مرد له) فلا يدفعه شئ (وما لهم من دونه من وال) من دون الله ممن يلى أمرهم ويدفع عنهم (هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا) انتصبا على الحال من البرق كانه فى نفسه خوف وطمع أو على ذا خوف وذا طمع أو من المخاطبين أى خائفين وطامعين والمعنى يخاف من وقوع الصواعق عند لمع البرق ويطمع فى الغيث قال أبو الطيب

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى
يرجى الحيا منه وتخشى الصواعق

أو يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر ومن له بيت يكف ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كاهل مصر ويطمع فيه من له نفع فيه

ونحوه الثالث ان المطر يخاف منه اذا كان في غير مكانه وزمانه ويطمع فيه اذا كان في مكانه وزمانه فان من البلاد ما اذا امطرت قحطت واذا لم تمطر اخصبت (وينشئ السحاب الثقال) يعني بالمطر يقال أنشأ الله السحابة فنشأت أي ابداها فبدت والسحاب جمع سحابة والسحاب غربال الماء قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقيل السحاب الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء ولهذا قيل سحاب جهام وهو الخالي من الماء وأصل السحب الجر وسمي السحاب سحابا اما لجر الريح له أو لجره الماء أو لانجراره في سيره (ويسبح الرعد بحمده) أكثر المفسرين على ان الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه وأورد على هذا القول ما عطف عليه وهو قوله (والملائكة من خيفته) واذا كان المعطوف مغاير المعطوف عليه وجب أن يكون غيره وأجيب عنه انه لا يبعد ان يكون الرعد اسم الملك من الملائكة وانما أفرده بالذكر تشريفا له على غيره من الملائكة فهو كقوله وملائكته وجبريل وميكال قال ابن عباس أقبلت يهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها حيث يشاء الله قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع قال زجره السحاب حتى تنتهي حيث أمرت قالوا صدقت أخرجه الترمذي مع زيادة فيه المخاريق جمع مخراق وهو في الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وأراد به هنا آلة تزجر بها الملائكة السحاب وقد جاء تفسيره في حديث آخر وهو صوت من نور تزجر الملائكة به السحاب قال ابن عباس من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فان اصابه صاعقة فعلي ديته وكان عبد الله بن الزبير اذا سمع الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وكان يقول ان الوعيد لاهل الارض شديد وفي بعض الاخبار ان الله تعالى يقول لو ان عبادي اطاعوني لسقيتهم المطر بالليل واطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس انه قال الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه الى حيث يؤمر وان بحور الماء في نقرة ابهامه وانه يسبح الله فاذا سبح لا يبقى ملك في السماء الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وقيل ان الرعد اسم لصوت الملك الموكل بالسحاب ومع ذلك فان صوت الرعد يسبح الله عز وجل لان التسبيح والتقديس عبارة عن تنزيه الله عز وجل عن جميع النقائص ووجود هذا الصوت المسموع من الرعد وحدوثه دليل على وجود موجود خالق قادر متعال عن جميع النقائص وان لم يكن ذلك في الحقيقة تسبيحا ومنه قوله وان من شئ الا يسبح بحمده وقيل المراد من تسبيح الرعد ان من سمعه سبح الله فلهذا المعنى أضيف التسبيح اليه وقوله والملائكة من خيفته يعني ويسبح الملائكة من خيفة الله عز وجل وهيبته وخشيته وقيل المراد بهذه الملائكة اعوان السحاب جعل الله عز وجل مع الملك الموكل بالسحاب اعوانا من الملائكة وهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة وحمله على العموم أولى

(ويرسل)

(وينشئ السحاب) هو اسم جنس والواحدة سحابة (الثقال) بالماء وهو جمع ثقيلة تقول سحابة ثقيلة وسحاب ثقال (ويسبح الرعد بحمده) قيل يسبح سامعو الرعد من العباد الراجين للمطر أي يصيحون بسبحان الله والحمد لله وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الرعد ملك موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب والصوت الذي يسمع زجره السحاب حتى ينتهي الى حيث أمر (والملائكة من خيفته) ويسبح الملائكة من هيبته واجلاله

(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) الصاعقة نار تسقط من السماء لماذكر علمه النافذ فى كل شئ واستواء الظاهر والخفى عنده وما دل على قدرته الباهرة ووحدانيته قال (وهم يجادلون فى الله) ٧١ يعنى الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجادلون فى الله حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث واعادة الخلائق بقولهم من يحيى العظام وهى رميم ويردون الوحدانية باتخاذ الشركاء ويجعلونه بعض الاجسام بقولهم الملائكة بنات الله والواو للحال أى فيصيب بها من يشاء فى حال جدالهم وذلك أن أربد أخا لبيد بن ربيعة العامرى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى الله عامرا بغدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية وارسل على أربد صاعقة فقتله اخبرنى عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد (وهو شديد المحال) أى المماحلة وهى شدة المماكرة والمكايدة ومنه تمحل لكذا اذا تكلف لاستعمال الحيلة واجتهد فيه ومحل بفلان اذا كاده وسعى به الى السلطان والمعنى انه شديد المكر والكيد لاعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون (له دعوة الحق) أضيفت الى الحق الذى هو ضد الباطل للدلالة على ان الدعوة ملابسة للحق وانها بمعزل من الباطل والمعنى ان الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ويعطى الداعى سؤله فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقا بانه يوجه اليه الدعاء لما فى دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا ينفع ولا يجدى دعاؤه واتصال شديد المحال وله دعوة الحق بما قبله على قصة أربد ظاهر لان اصابته بالصاعقة محال من الله ومكر به من حيث لم يشعر وقد دعا

(ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهى العذاب النازل من البرق فيحترق من تصيبه وقيل هى الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار أو عذاب أو موت وهى فى ذاتها شئ واحد وهذه الاشياء الثلاثة تنشأ منها (فيصيب بها) يعنى بالصواعق (من يشاء) يعنى فيهلك بها كما أصاب أربد بن ربيعة قال محمد الباقر الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر (وهم يجادلون فى الله) يعنى يخاصمون فى الله وقيل المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل اذا احكمت فتله نزلت فى شأن أربد بن ربيعة حين قال النبى صلى الله عليه وسلم مم ربك أمن در أم من ياقوت أم من ذهب فنزلت صاعقة من السماء فاحرقته وسئل الحسن عن قوله ويرسل الصواعق الآية فقال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه النبى صلى الله عليه وسلم نفرا من أصحابه يدعونه الى الله والى رسوله فقال لهم أخبرونى عن رب محمد هذا الذى تدعونى اليه هل هو من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس فاستعظم القوم كلامه فانصرفوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلا اكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال ارجعوا اليه فرجعوا اليه فلم يزدهم على مقالته الاولى شيأ بل قال أأجيب محمدا الى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما زادنا على مقالته الاولى شيأ بل قال اخبث فقال ارجعوا اليه فرجعوا اليه فبينما هم عنده يدعونه وينازعونه وهو لا يزيدهم على مقالته شيأ اذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحرقت الكافر وهم جلوس عنده فرجعوا ليخبروا النبى صلى الله عليه وسلم فلما رجعوا استقبلهم نفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا لهم احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم ذلك قالوا قد أوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله واختلفوا فى هذه الواو فقيل واو الحال فيكون المعنى فيصيب بها من يشاء فى حال جداله فى الله وذلك ان أربد لما جادل فى الله أهلكه الله بالصاعقة وقيل انها واو الاستئناف فيكون المعنى انه تعالى لما تمم ذكر الدلائل قال بعد ذلك وهم يجادلون فى الله (وهو شديد المحال) أى شديد الاخذ بالعقوبة من قولهم محل به محلا اذا أراد به سوأ وقيل هو من قولهم محل به اذا سعى به الى السلطان وعرضه للهلاك وتمحل اذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه فيكون المعنى انه سبحانه وتعالى شديد المحال باعدائه حتى يهلكهم بطريق لا يعرفونه ولا يتوقعونه وقيل المحال من الحول وهو الحيلة والميم زائدة ثم اختلفت عبارات المفسرين فى معنى قوله شديد المحال فقال الحسن معناه شديد النقمة وقال مجاهد وقتادة شديد القوة وقال ابن عباس شديد الحول وقيل شديد العقوبة وقيل معناه شديد الجدال وذلك انه لما أخبر عنهم انهم يجادلون فى الله أخبر انه اشد جدالا منهم قوله تعالى (له دعوة الحق) يعنى لله دعوة الصدق قال على

دعوة الحق التوحيد وقال ابن عباس شهادة أن لا اله الا الله قال صاحب الكشاف دعوة الحق فيها وجهان أحدهما أن تضاف الدعوة الى الحق الذى هو نقيض الباطل كما تضاف الكلمة اليه فى قولك كلمة الحق للدلالة على ان الدعوة ملابسة للحق مختصة به وانها بمعزل من الباطل والمعنى ان الله تعالى يدعى فيستجيب الدعوة ويعطى الداعى سؤله ان كان مصلحة له فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقا بان يوجه اليه الدعاء لما فى دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا نفع فيه ولا جدوى فيرد دعاءه الثانى ان تضاف الى الحق الذى هو الله على معنى دعوة المدعو الحق الذى يسمع فيجيب وعن الحسن الله هو الحق وكل دعاء اليه دعوة الحق فان قلت ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبلهما قلت اما على قصة أربد فظاهر لان اصابته بالصاعقة كانت بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه دعا عليه وعلى صاحبه عامر بن الطفيل فاجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق واما على قوله وهم يجادلون فى الله فوعيد للكفار على مجادلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجابة دعائه أن دعا عليهم وقيل فى معنى الآية الدعاء بالاخلاص والدعاء الخالص لا يكون الا لله تعالى (والذين يدعون من دونه) يعنى والذين يدعونهم آلهة من دون الله وهى الاصنام التى يعبدونها (لا يستجيبون لهم بشئ) يعنى لا يجيبونهم بشئ يريدونه من نفع أو دفع ضرر ان دعوهم (الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) يعنى الا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه يطلب منه ان يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب دعاءه أو يبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع اجابتهم ولا يقدر على نفعهم وقيل شبههم فى قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطهما ناشرا أصابعه فلم تلق كفاه منه شيأ ولم يبلغ طلبته من شربه وقيل ان القابض على الماء ناشرا اصابعه لا يكون فى يده منه شئ ولا يبلغ الى فيه منه شئ كذلك الذى يدعو الاصنام لانها لا تضر ولا تنفع ولا يفيده منها شئ وقيل شبه بالرجل العطشان الذى يرى الماء من بعيد بعينه فهو يشير بكفيه الى الماء ويدعوه بلسانه فلا يأتيه أبدا هذا معنى قول مجاهد وعن عطاء كالعطشان الجالس على شفير البئر وهو يمد يديه الى البئر فلا هو يبلغ الى قعر البئر ليخرج الماء ولا الماء يرتفع اليه فلا ينفعه بسطه الكف الى الماء ودعاؤه له ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الاصنام لا ينفعهم ذلك وقال ابن عباس كالعطشان اذا بسط كفيه فى الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما من الماء ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسط كفيه وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ودعائهم الاصنام حين لا ينفعهم البتة ثم ختم هذا بقوله (وما دعاء الكافرين) يعنى اصنامهم (الا فى ضلال) يعنى يضل عنهم اذا احتاجوا اليه قال ابن عباس فى هذه الآية أصواتهم محجوبة عن الله تعالى قوله عز وجل (ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها) فى معنى هذا السجود قولان أحدهما ان المراد منه السجود على الحقيقة وهو وضع الجبهة على الارض ثم على هذا القول فى معنى الآية وجهان أحدهما ان اللفظ وان كان عاما الا ان المراد منه الخصوص فقوله

رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلى صاحبه بقوله اللهم اخسفهما بما شئت فاجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق وعلى الاول وعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم واجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ان دعا عليهم (والذين يدعون) والآلهة الذين يدعوهم الكفار (من دونه) من دون الله (لا يستجيبون لهم بشئ) من طلباتهم (الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه) الاستثناء من المصدر أى من الاستجابة التى دل عليها لا يستجيبون لان الفعل بحروفه يدل على المصدر وبصيغته على الزمان وبالضرورة على المكان والحال فجاز استثناء كل منها من الفعل فصار التقدير لا يستجيبون استجابة الا استجابة كاستجابة باسط كفيه الى الماء أى كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه يطلب منه ان يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته اليه ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع اجابتهم ولا يقدر على نفعهم واللام فى ليبلغ متعلق بباسط كفيه (وما هو ببالغه) وما الماء ببالغ فاه (وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) فى ضياع لا منفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الاصنام لم تستطع اجابتهم (ولله يسجد من فى السموات والارض) سجود تعبد وانقياد (طوعا) حال يعنى الملائكة والمؤمنين (وكرها) يعنى المنافقين والكافرين فى حال الشدة والضيق

ولله يسجد من فى السموات يعنى الملائكة ومن فى الارض من الانس يعنى المؤمنين
طوعا وكرها يعنى من المؤمنين من يسجد لله طوعا وهم المؤمنون المخلصون لله العبادة
وكرها يعنى المنافقين الداخلين فى المؤمنين وليسوا منهم فان سجودهم لله على كره منهم
لانهم لا يرجون على سجودهم ثوابا ولا يخافون على تركه عقابا بل سجودهم وعبادتهم
خوف من المؤمنين الوجه الثانى هو حمل اللفظ على العموم وعلى هذا فى اللفظ
اشكال وهو ان جميع الملائكة والمؤمنين من الجن والانس يسجدون لله طوعا ومنهم
من يسجد له كرها كما تقدم واما الكفار من الجن والانس فلا يسجدون لله البتة فهذا
وجه الاشكال والجواب عنه ان المعنى انه يجب على كل من فى السموات ومن فى الارض
أن يسجد لله فعبر بالوجوب عن الوقوع والحصول وجواب آخر وهو أن يكون المراد
من هذا السجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية وكل من فى السموات من ملك ومن
فى الارض من انس وجن فانهم يقرون لله بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى
ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله والقول الثانى فى معنى هذا
السجود هو الانقياد والخضوع وترك الامتناع فكل من فى السموات والارض ساجد
لله بهذا المعنى وهذا الاعتبار لان قدرته ومشيئته نافذة فى الكل فهم خاضعون
منقادون له وقوله تعالى (وظلالهم بالغدو والآصال) الغدوة والغداة اول النهار
وقيل الى نصف النهار والغدو بالضم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس والآصال جمع
أصل وهو العشية والآصال العشايا جمع عشية وهى ما بين صلاة العصر الى غروب
الشمس قال المفسرون ان ظل كل شخص يسجد لله سواء ظل المؤمن والكافر وقال
مجاهد ظل المؤمن يسجد لله طوعا وهو طائع وظل الكافر يسجد لله كرها وهو كاره
وقال الزجاج جاء فى التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الانبارى
لا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولا وأفهاما تسجد بها وتخشع كما جعل للجبال
أفهاما حتى سجدت لله مع داود وقيل المراد بسجود الظلال ميلانها من جانب الى جانب
آخر وطولها وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ونزولها وانما خص الغدو والآصال
بالذكر لان الظلال تعظم وتكثر فى هذين الوقتين وقيل لانهما طرفا النهار فيدخل
وسطه فيما بينهما

•(فصل)• وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند
قراءته واستماعه لهذه السجدة والله أعلم قوله تعالى (قل من رب السموات والارض)
أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله من رب السموات والارض يعنى
من مالك السموات والارض ومن مدبرهما وخالقهما فسيقولون الله لانهم مقرون بأن
الله خالق السموات وما فيها والارض وما فيها فاذا أجابوك بذلك فقل أنت يا محمد الله رب
السموات والارض وقيل لما قال هذه المقالة للمشركين عطفوا عليه وقالوا أجب أنت
فأمره الله أن يجيبهم بقوله (قل الله) أى قل يا محمد الله وقيل انما جاء السؤال والجواب
من جهة واحدة لان المشركين لا ينكرون ان الله خالق كل شئ فلما لم ينكروا ذلك وأجاب

(وظلالهم) معطوف على من
جمع ظل (بالغدو) جمع غداة
كقنى وقناة (والآصال) جمع
أصل جمع أصيل قيل ظل كل
شئ يسجد لله بالغدو والآصال
وظل الكافر يسجد كرها وهو
كاره وظل المؤمن يسجد طوعا
وهو طائع (قل من رب السموات
والارض قل الله) حكاية
لاعترافهم لانه اذا قال لهم من
رب السموات والارض لم يكن
لهم بد من أن يقولوا الله دليله
قراءة ابن مسعود وأبى قالوا الله
أو هو تلقين اى فان لم يجيبوا
فلقنهم فانه لا جواب الا هذا

(قل أفاتخذتم من دونه أولياء) ابعد أن علمتموه رب السموات والارض اتخذتم من دونه آلهة (لايملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا) لايستطيعون لانفسهم ان ينفعوها او يدفعوا ضررا عنها فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب فما أبين ضلالتكم ٧٤ (قل هل يستوى الاعمى والبصير) اى الكافر والمؤمن أو من لايبصر شيأ ومن لايخفى عليه شئ (أم هل تستوى الظلمات والنور) ملل الكفر والايمان يستوى كوفى غير حفص (أم جعلوا لله شركاء) بل أجعلوا ومعنى الهمزة الانكار (خلقوا كخلقه) خلقوا مثل خلقه وهو صفة لشركاء اى انهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله (فتشابه الخلق عليهم) فاشتبه عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لايقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلا أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق (قل الله خالق كل شئ) اى خالق الاجسام والاعراض لاخالق غير الله ولا يستقيم أن يكون له شريك فى الخلق فلا يكون له شريك فى العبادة ومن قال ان الله لم يخلق أفعال الخلق وهم خلقوها فتشابه الخلق على قولهم (وهو الواحد) المتوحد بالربوبية (القهار) لايغالب وما عداه مربوب ومقهور (أنزل) اى الواحد القهار وهو الله سبحانه (من السماء) من السحاب (ماء) مطرا (فسالت أودية) جمع واد وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة وانما نكر لان المطر لايأتى الا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الارض دون بعض (بقدرها) بمقدارها الذى علم الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار

النبى صلى الله عليه وسلم بقوله الله فكأنهم قالوا ذلك أيضا ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الاصنام بقوله (قل) أى قل يا محمد للمشركين (أفاتخذتم من دونه) يعنى من دون الله (أولياء) يعنى الاصنام والولى الناصر والمعنى توليتم غير رب السموات والارض واتخذتموهم أنصارا يعنى الاصنام (لايملكون) يعنى وهم لايملكون (لانفسهم نفعا ولا ضرا) فكيف لغيرهم ثم ضرب الله مثلا للمشركين الذين يعبدون الاصنام وللمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى (قل هل يستوى الاعمى والبصير) قال ابن عباس يعنى المشرك والمؤمن (أم هل تستوى الظلمات والنور) يعنى الشرك والايمان والمعنى كما لايستوى الاعمى والبصير كذلك لايستوى الكافر والمؤمن وكما لاتستوى الظلمات والنور كذلك لايستوى الكفر والايمان وانما شبه الكافر بالاعمى لان الاعمى لايهتدى سبيلا كذلك الكافر لايهتدى سبيلا (أم جعلوا لله شركاء) هذا استفهام انكار يعنى جعلوا لله شركاء (خلقوا كخلقه) يعنى خلقوا سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وانسا (فتشابه الخلق عليهم) من هذا الوجه والمعنى هل رأوا غير الله خالق شيأ فاشتبه عليهم خلق الله بخلق غيره وقيل انه تعالى وبخهم بقوله أم جعلوا لله شركاء خلقوا خلقا مثل خلقه فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم وهذا الاستفهام انكارى أى ليس الامر كذلك حتى يشتبه عليهم الامر بل اذا تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الاشياء والشركاء مخلوقون له أيضا لايخلقون شيأ حتى يشتبه خلق الله بخلق الشركاء واذا كان الامر كذلك فقد لزمتهم الحجة وهو قوله تعالى (قل الله خالق كل شئ) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الله خالق كل شئ مما يصح ان يكون مخلوقا وقوله الله خالق كل شئ من العموم الذى يراد به الخصوص لان الله تعالى خالق كل شئ وهو غير مخلوق (وهو الواحد) يعنى والله تعالى هو الواحد المنفرد بخلق الاشياء كلها (القهار) لعباده حتى يدخلهم تحت قضائه وقدره وارادته وقوله عز وجل (أنزل من السماء ماء) لما شبه الله عز وجل الكافر بالاعمى والمؤمن بالبصير وشبه الكفر بالظلمات والايمان بالنور ضرب لذلك مثلا فقال تعالى أنزل من السماء ماء يعنى المطر (فسالت أودية بقدرها) أودية جمع واد وهو الفرج بين الجبلين يسيل فيه الماء وقوله فسالت أودية فيه اتساع وحذف تقديره فسال فى الوادى فهو كما يقال جرى النهر والمراد جرى الماء فى النهر فحذف فى الدلالة الكلام عليه بقدرها قال مجاهد بملئها وقال ابن جريج الصغير بقدره والكبير بقدره وقيل بمقدار مائها وانما نكر أودية لان المطر اذا نزل لايعم جميع الارض ولايسيل فى كل الاودية بل ينزل فى أرض دون أرض ويسيل فى واد دون واد فلهذا السبب جاء هذا بالتنكير وقال ابن عباس أنزل من

السماء

السماء ماء يعني قرآنا وهذا مثل ضربه الله تعالى فسالت أودية بقدرها يريد بالاودية القلوب شبه نزول القرآن الجامع للهدى والنور والبيان بنزول المطر لان المطر اذا نزل عم نفعه وكذلك نزول القرآن وشبه القلوب بالاودية لان الاودية يستكن فيها الماء وكذلك القلوب يستكن فيها الايمان والعرفان ببركة نزول القرآن فيها وهذا خاص بالمؤمنين لانهم الذين انتفعوا بنزول القرآن (ق) عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فتعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله وغيره في معنى هذا الحديث وشرحه أما الكلأ فبالهمز يقع على الرطب واليابس من الحشيش وأما قوله وكان منها أجادب فبالجيم والدال المهملة والباء الموحدة كذا في الصحيحين وهي الارض التي لا تنبت الكلأ جمع جدب على غير قياس وقياسه أجدب والجدب ضد الخصب وقال الخطابي هي التي تمسك الماء ولم يسرع فيه النضوب وفي رواية الهروي اخاذات بالخاء المعجمة والذال المعجمة جمع اخاذة وهي الغدير الذي يمسك الماء وقوله ورعوا كذا هو في صحيح مسلم من الرعي ووقع في صحيح البخاري وزرعوا بزيادة زاي من الزرع والقيعان بكسر القاف جمع قاع وهو المستوي من الارض وقوله فذلك مثل من فقه في دين الله يروى بضم القاف وهو المشهور وروي بكسرها ومعناه فهم الاحكام وأما معنى الحديث ومقصوده فهو ان النبي صلى الله عليه وسلم ضرب مثلا لما جاء به من الهدى والعلم بالارض التي أصابها المطر قال العلماء والارض ثلاثة أنواع وكذلك الناس لانهم منها خلقوا فالنوع الاول من أنواع الارض الطيبة التي تنتفع بالمطر فتنبت به العشب فينتفع الناس به والدواب بالشرب والرعي وغير ذلك وكذلك النوع الاول من الناس من يبلغه الهدى وغير ذلك من العلم فيحيا به قلبه ويحفظه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع به وينفع غيره قال مسروق صحبت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالاخاذات لان قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم النوع الثاني من أنواع الارض أرض لا تقبل الانتفاع في نفسها لكن فيها فائدة لغيرها وهي امساك الماء لغيرها لينتفع به الناس والدواب وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليس لهم افهام ثاقبة فيبقى ما عندهم من العلم حتى يجيء المحتاج اليه المتعطش لما عندهم من العلم فيأخذه منهم فينتفع به هو وغيره النوع الثالث من أنواع الارض أرض سبخة لا تنبت مرعى ولا تمسك ماء كذلك النوع الثالث من الناس ليس لهم قلوب حافظة ولا افهام ثاقبة فاذا بلغهم شيء من العلم لا ينتفعون به في أنفسهم ولا ينفعون غيرهم والله أعلم وقوله تعالى (فاحتمل السيل زبدا) الزبد ما يعلو على وجه الماء

(فاحتمل السيل) اى رفع (زبدا) هو ما علا على وجه الماء من الرغوة والمعنى علاه زبد

(رابيا) منتفخا مرتفعا على وجه السيل (ومما توقدون عليه) وبالياء كوفي غير أبي بكر ومن لابتداء الغاية اى ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء اولتبعيض اى وبعضه زبد (في النار) حال من الضمير في عليه اى ومما توقدون عليه ثابتا في النار (ابتغاء حلية) مبتغين حلية فهو مصدر في موضع الحال من الضمير في توقدون (او متاع) من الحديد والنحاس والرصاص يتخذ منها الاواني وما يتمتع به في الحضر والسفر وهو معطوف على حلية اى زينة من الذهب والفضة (زبد) خبث وهو مبتدأ (مثله) نعت له ومما توقدون ٧٦ خبره اى ولهذه الفلزات اذا أغليت زبد مثل زبد الماء (كذلك يضرب الله الحق والباطل) اى مثل الحق والباطل (فاما الزبد فيذهب جفاء) حال اى متلاشيا وهو ما تقذفه القدر عند الغليان والبحر عند الطغيان والجفء الرمي وجفوت الرجل صرعته (وأما ما ينفع الناس) من الماء والحلي والاواني (فيمكث في الارض) فيثبت الماء في العيون والآبار والحبوب والثمار وكذلك الجواهر تبقى في الارض مدة طويلة (كذلك يضرب الله الامثال) ليظهر الحق من الباطل وقيل هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بانواع المنافع وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفات وذلك ما كث في الارض باق بقاء ظاهرا يثبت الماء في منافعه وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله بزبد السيل الذي يرمي به وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه اذا أذيب قال الجمهور وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن شئ والقلوب والحق والباطل فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للابدان والاودية القلوب ومعنى بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه والزبد هواجس النفس ووساوس الشيطان والماء الصافي المنتفع به مثل الحق فكما يذهب الزبد باطلا ويبقى صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان ويبقى الحق كما هو وأما حلية الذهب والفضة فمثل للاحوال السنية والاخلاق الزكية وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للاعمال الممدة بالاخلاص المعدة للخلاص فان

عند الزيادة كالحب وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها والمعنى فاحتمل السيل الذي حدث من ذلك الماء زبدا (رابيا) يعني عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا عليه وههنا تم المثل ثم ابتدأ بمثل آخر فقال تعالى (ومما توقدون عليه في النار) الايقاد جعل الحطب في النار لتتقد تلك النار تحت الشئ ليذوب (ابتغاء حلية) يعني لطلب زينة والضمير في قوله عليه يعود على الذهب والفضة وان لم يكونا مذكورين لان الحلية لا تطلب الا منهما (أو متاع) يعني أو لطلب متاع آخر مما ينتفع به كالحديد والنحاس والرصاص ونحوه مما يذاب وتتخذ منه الاواني وغيرها مما ينتفع به والمتاع كل ما يتمتع به ويقال لكل ما ينتفع به في البيت كالطبق والقدر ونحو ذلك من الاواني متاع (زبد مثله) يعني ان ذلك الذي توقد عليه في النار اذا أذيب فله أيضا زبد مثل زبد الماء فالصافي من الماء ومن هذه الجواهر هو الذي ينتفع به وهو مثل الحق والزبد من الماء ومن هذه الجواهر هو الذي لا ينتفع به وهو مثل الباطل وهو قوله تعالى (كذلك يضرب الله الحق والباطل) فالحق هو الجوهر الصافي الثابت والباطل هو الزبد الطافي الذي لا ينتفع به وهو قوله (فأما الزبد فيذهب جفاء) يعني ضائعا باطلا والجفاء ما رمى به الوادي من الزبد الى جوانبه وقيل الجفاء المتفرق يقال جفأت الريح الغيم اذا فرقته والمعنى ان الباطل وان علا في وقت فانه يضمحل ويذهب (وأما ما ينفع الناس) يعني الماء الصافي والجوهر الجيد من هذه الاجسام التي تذاب (فيمكث في الارض) يعني يثبت ويبقى ولا يذهب (كذلك يضرب الله الامثال) قال أهل التفسير والمعاني هذا مثل ضربه الله للحق والباطل فالباطل وان علا على الحق في بعض الاوقات والاحوال فان الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافي الذي ينتفع به وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب الغلو الذي هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل فالباطل وان علا في وقت فانه يذهب هو وأهله والحق يظهر هو وأهله وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء الصافي الذي ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كالزبد الذي لا ينتفع به البتة وقيل هذا مثل ضربه الله للنور الذي يحصل في قلوب العباد على ما قسم لها في الازل لان الوادي اذا سال كنس كل

الاعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب كما ان تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب وبعضها آلة الدفع في الحرب وأما الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل واللام في (للذين استجابوا) اى أجابوا متعلقة بيضرب اى كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين الذين استجابوا (لربهم الحسنى) وهي صفة ٧٧ لمصدر استجابوا أى استجابوا الاستجابة الحسنى (والذين لم يستجيبوا له) اى وللكافرين الذين لم يستجيبوا أى هما مثلا الفريقين وقوله (لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) كلام مبتدأ في ذكر ما أعد لغير المستجيبين اى لو ملكوا أموال الدنيا وملكوا معها مثلها لبذلوه ليدفعوا عن انفسهم عذاب الله والوجه أن الكلام قد تم على الامثال وما بعده كلام مستانف والحسنى مبتدأ خبره للذين استجابوا والمعنى لهم المثوبة الحسنى وهي الجنة والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره لو مع ما في حيزه (اولئك لهم سوء الحساب) المناقشة فيه وفي الحديث من نوقش الحساب عذب (ومأواهم جهنم) ومرجعهم بعد المحاسبة النار (وبئس المهاد) المكان الممهد والمذموم محذوف اى جهنم دخلت همزة الانكار على الفاء في (أفمن يعلم) لانكار أن تقع شبهة تا بعد ما ضرب من المثل في أن حال من علم (أن ما أنزل اليك من ربك الحق) فاستجاب بمعزل من حال الجاهل الذى لم يستبصر فيستجيب وهو المراد بقوله (كمن هو أعمى) كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والابريز (انما يتذكر أولوا الالباب) أى الذين عملوا على قضايا عقولهم فنظروا واستبصروا (الذين يوفون بعهد الله) مبتدأ والخبر أولئك لهم عقبى الدار كقوله والذين ينقضون عهد الله أولئك لهم اللعنة وقيل هو صفة لاولى الالباب والاول أوجه وعهد الله ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى (ولا ينقضون

شئ فيه من النجاسات والمستقذرات كذلك اذا سال وادي قلب العبد بالنور الذى قسم له على قدر ايمانه ومعرفته كنس كل ظلمة وغفلة فيه فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض يعنى يذهب البواطل وهي الاخلاق المذمومة وتبقى الحقائق وهي الاخلاق الحميدة كذلك يضرب الله الامثال وقوله تعالى (للذين استجابوا لربهم الحسنى) قيل اللام في للذين متعلقة بيضرب والمعنى كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين الذين استجابوا لربهم يعنى أجابوه الى ما دعاهم اليه من توحيده والايمان به وبرسوله وللكافرين الذين لم يستجيبوا فعلى هذا يكون قوله كذلك يضرب الله الامثال للفريقين من المؤمنين والكافرين وقيل تم الكلام عند قوله كذلك يضرب الله الامثال ثم استانف بقوله للذين استجابوا لربهم الحسنى قال ابن عباس وجمهور المفسرين يعنى الجنة وقيل الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن وهي المنفعة الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع (والذين لم يستجيبوا له) يعنى الكفار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه (لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) يعنى لبذلوا ذلك كله فداء لانفسهم من عذاب النار يوم القيامة (أولئك) يعنى الذين لم يستجيبوا لربهم (لهم سوء الحساب) قال ابراهيم النخعي سوء الحساب أن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شئ (ومأواهم) يعنى في الآخرة (جهنم وبئس المهاد) يعنى وبئس ما مهد لهم في الآخرة وقيل المهاد الفراش يعنى وبئس الفراش يفرش لهم في جهنم قوله تعالى (أفمن يعلم ان ما أنزل اليك من ربك الحق) يعنى فيؤمن به ويعمل بما فيه (كمن هو أعمى) يعنى أعمى البصيرة لا أعمى البصر وهو الكافر فلا يؤمن بالقرآن ولا يعمل بما فيه قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت في حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل بن هشام وقيل نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل فالاول هو حمزة او عمار والثانى هو أبو جهل وحمل الآية على العموم أولى وان كان السبب مخصوصا والمعنى لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما شبه الكافر والجاهل بالاعمى لان الاعمى لا يهتدي لرشد وربما وقع في مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لا يهتديان للرشد وهما واقعان في المهلكة (انما يتذكر أولوا الالباب) يعنى انما يتعظ ذوو العقول السليمة الصحيحة وهم الذين ينتفعون بالمواعظ والاذكار قوله عز وجل (الذين يوفون بعهد الله) يعنى الذى عاهدهم عليه وهو القيام بما أمرهم به وفرضه عليهم وأصل العهد حفظ الشئ ومراعاته حالا بعد حال وقيل أراد بالعهد ما أخذه على أولاد آدم حين أخرجهم من صلبه وأخذ عليهم العهد والميثاق (ولا ينقضون

الميثاق) بل يوفون به فهو توكيد لقوله الذين يوفون بعهد الله (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) قال ابن عباس يريد الايمان بجميع الكتب والرسل يعنى يصل بينهم بالايمان ولا يفرق بين أحد منهم والاكثرون على ان المراد به صلة الرحم عن عبد الرحمن ابن عوف قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته أخرجه أبو داود والترمذى (ق) عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله (خ) عن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من سره أن يبسط له فى رزقه وان ينسأ له فى أثره فليصل رحمه صلة الرحم مبرة الاهل والاقارب والاحسان اليهم وضده القطع قوله وأن ينسأ له فى أثره الاثر هنا الاجل وسمى الاجل أثرا لانه تابع للحياة وسابقها ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تأخير الاجل وهو على وجهين احدهما ان يبارك الله له فى عمره فكأنما قد زاد فيه والثانى ان يزيده فى عمره زيادة حقيقية والله يفعل ما يشاء (ق) عن جبير بن مطعم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة قاطع زاد فى رواية قال سفيان يعنى قاطع رحم (خ) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافئ الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعلموا من انسابكم ما تصلون به أرحامكم فان صلة الرحم محبة فى الاهل ومثراة فى المال ومنسأة فى الاثر أخرجه الترمذى وقوله تعالى (ويخشون ربهم) يعنى انهم مع وفائهم بعهد الله وميثاقه والقيام بما أمر الله به من صلة الرحم يخشون ربهم والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه (ويخافون سوء الحساب) تقدم معناه (والذين صبروا) يعنى على طاعة الله وقال ابن عباس على أمر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصى وقيل حمله على العموم أولى فيدخل فيه الصبر على جميع النوائب والمأمورات من سائر العبادات والطاعات وجميع أعمال البر وترك جميع المنهيات فيدخل فيه ترك جميع المعاصى من الحسد والحقد والغيبة وغير ذلك من المنهيات ويدخل فيه الصبر عن المباحات مثل جميع الشهوات والصبر على ما نزل به من الامراض والمصائب وأصل الصبر حبس النفس عما يقتضيه العقل أو الشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه فالصبر لفظ عام يدخل تحته جميع ما ذكر وانما قيد الصبر بقوله (ابتغاء وجه ربهم) لان الصبر ينقسم الى نوعين الاول الصبر المذموم وهو ان الانسان قد يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على ما تحمل من النوازل وقد يصبر لئلا يعاب على الجزع وقد يصبر لئلا تتشمت به الاعداء وكل هذه الامور وان كان ظاهرها الصبر فليس ذلك داخلا تحت قوله ابتغاء وجه ربهم لانها لغير الله تعالى النوع الثانى الصبر المحمود وهو ان يكون الانسان صابرا لله تعالى راضيا بما نزل به من الله طالبا فى ذلك الصبر ثواب الله محتسبا

الميثاق) ما أوثقوه على أنفسهم وقبلوه من الايمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد تعميم بعد تخصيص (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من الارحام والقرابات ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الايمان انما المؤمنون اخوة بالاحسان اليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم وافشاء السلام عليهم وعيادة مرضاهم ومنه مراعاة حق الاصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر (ويخشون ربهم) أى وعيده كله (ويخافون سوء الحساب) خصوصا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا (والذين صبروا) مطلق فيما يصبر عليه من المصائب فى النفوس والاموال ومشاق التكاليف (ابتغاء وجه ربهم) لا لمقال ما أصبره وأحمله للنوازل وأوقره عند الزلازل ولا لئلا

أجره على الله فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله ابتغاء وجه ربهم يعني صبروا على ما نزل
بهم تعظيما لله وطلب رضوانه (وأقاموا الصلوة) يعني الصلاة المفروضة وقيل حمله
على العموم أولى فيدخل صلاة الفرض والنفل والمراد بإقامتها إتمام أركانها أو هيآتها
(وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) قال الحسن المراد به الزكاة المفروضة فإن لم يتهم
بترك أداء الزكاة فالأولى أن يؤديها سرا وإن كان متهما بترك أداء الزكاة فالأولى أن
يؤديها علانية وقيل ان المراد بالسر ما يخرج من الزكاة بنفسه والمراد بالعلانية ما يؤديه
الى الامام وقيل المراد بالسر صدقة التطوع والمراد بالعلانية الزكاة الواجبة وحمله على
العموم أولى (ويدرؤن بالحسنة السيئة) قال ابن عباس يدفعون بالعمل الصالح العمل
السيء وهو معنى قوله ان الحسنات يذهبن السيآت ويدل على صحة هذا التأويل ما جاء
في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال واذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها
السر بالسر والعلانية بالعلانية وروى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل الذي يعمل السيآت ثم يعمل الحسنات كمثل
رجل عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل أخرى فانفكت
أخرى حتى تخرج الى الارض وقال ابن كيسان يدفعون الذنب بالتوبة وقيل لا يكافؤن
الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير وقال القتيبي معناه اذا سفه عليهم حلموا والسفه
السيئة والحلم الحسنة وقال قتادة ردوا عليهم ردا معروفا وقال الحسن اذا حرموا أعطوا
واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا قال عبد الله بن المبارك هذه ثمان خلال مشيرة الى
أبواب الجنة الثمانية قلت انما هي تسع خلال فيحتمل انه عد خلتين بواحدة ولما ذكر
الله عز وجل هذه الخلال من أعمال البر ذكر بعدها ما أعد للعاملين بها من الثواب فقال
تعالى (أولئك) يعني من أتى بهذه الاعمال (لهم عقبى الدار) يعني الجنة والمعنى ان
عاقبتهم دار الثواب (جنات عدن) بدل من عقبى الدار يعني بساتين اقامة يقال عدن
بالمكان اذا أقام به (يدخلونها) يعني الدار التي تقدم وصفها (ومن صلح من آبائهم
وأزواجهم وذرياتهم) يعني ومن صدق من آبائهم بما صدقوا به وان لم يعمل بأعمالهم
قاله ابن عباس وقال الزجاج ان الانسان لا ينتفع بغير أعماله الصالحة فعلى قول ابن
عباس معنى صلح صدق وآمن ووحد وعلى قول الزجاج معناه أصلح في عمله قال الواحدي
والصحيح ما قاله ابن عباس لان الله تعالى جعل ثواب المطيع سروره بما يراه في أهله حيث
بشره بدخوله الجنة مع هؤلاء فدل على انهم يدخلونها كرامة للمطيع العامل الآتي
بالاعمال الصالحة ولو كان دخولهم الجنة بأعمالهم الصالحة لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا
فائدة في الوعد به اذ كل من كان صالحا في عمله فهو يدخل الجنة قال الامام فخر الدين الرازي
قوله تعالى وأزواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من
مات عنها أو ماتت عنه وروى انه لما كبرت سودة أراد النبي صلى الله عليه وسلم طلاقها
فسألته ان لا يفعل ووهبت يومها لعائشة فأمسكها رجاء ان تحشر في جملة أزواجه فهو
كالدليل على ما ذكرناه وقوله تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) يعني من أبواب

يعاب في الجزع (وأقاموا
الصلوة) داوموا على اقامتها
(وانفقوا مما رزقناهم) اى من
الحلال وان كان الحرام رزقا
عندنا (سرا وعلانية) يتناول
النوافل لانها في السر أفضل
والفرائض لان الجهر بها
أفضل نفيا للتهمة (ويدرؤن
بالحسنة السيئة) ويدفعون
بالحسن من الكلام ما يرد عليهم
من سيء غيرهم او اذا حرموا
أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا
قطعوا وصلوا واذا أذنبوا تابوا
واذا هربوا أنابوا واذا رأوا
منكرا أمروا بتغييره فهذه
ثمانية اعمال تشير الى ثمانية
أبواب الجنة (أولئك لهم عقبى
الدار) عاقبة الدنيا وهي الجنة
لانها التي أرادها الله ان تكون
عاقبة الدنيا ومرجع أهلها
(جنات عدن) بدل من عقبى الد
(يدخلونها ومن صلح) أي آمن
(من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم)
وقرئ صلح والفتح أفصح ومن
في محل الرفع بالعطف على الضمير
في يدخلونها وساغ ذلك وان لم
يؤكد لان ضمير المفعول صار
فاصلا وأجاز الزجاج ان يكون
مفعولا معه ووصفهم بالصلاح
ليعلم ان الانساب لا تنفع بنفسها
والمراد أبوا كل واحد منهم
فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم
(والملائكة يدخلون عليهم من كل
باب) في قدر كل يوم وليلة ثلاث
مرات بالهدايا وبشارات الرضا

الجنة وقيل من أبواب القصور وقال ابن عباس يريد به التحية من الله والتحف والهدايا (سلام عليكم) يعني يقولون سلام عليكم فأضمر القول ههنا لدلالة الكلام عليه (بما صبرتم) يعني يقولون لهم سلمكم الله من الآفات التي كنتم تخافونها في الدنيا وأدخلكم بما صبرتم في دار الدنيا على الطاعات وترك المحرمات الجنة وقيل ان السلام قول والصبر فعل ولا يكون القول ثوابا للفعل فعلى هذا يكون قوله سلام عليكم دعاء من الملائكة لهم يعني سلمكم الله بما صبرتم قال مقاتل ان الملائكة يدخلون عليهم في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم الهدايا والتحف من الله تعالى يقولون سلام عليكم بما صبرتم وروى البغوي بسنده عن أبي امامة موقوفا عليه قال ان المؤمن ليكون متكئا على أريكته اذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك من ملائكة الله يستأذن فيقوم أدنى الخدم الى الباب فاذا بالملك يستأذن فيقول للذي يليه ملك يستأذن ويقول الآخر كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا له فيقول أقربهم الى المؤمن ائذنوا له ويقول الذي يليه ائذنوا له وكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف (فنعم عقبى الدار) يعني فنعم العقبى عقبى الدار وقيل معناه فنعم عقبى الدار ما أنتم فيه (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) لما ذكر الله أحوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات والخيرات ذكر بعده أحوال الاشقياء وما لهم من العقوبات فقال تعالى والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ونقض العهد ضد الوفاء به وهذا من صفة الكفار لانهم هم الذين نقضوا عهد الله يعني خالفوا أمره ومعنى من بعد ميثاقه من بعد ما أوثقوه على أنفسهم بالاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) يعني ما بينهم وبين المؤمنين من الرحم والقرابة (ويفسدون في الارض) يعني بالكفر والمعاصي (أولئك) يعني من هذه صفته (لهم اللعنة) يعني الطرد عن رحمة الله يوم القيامة (ولهم سوء الدار) يعني النار لان منقلب الناس في العرف الى دورهم ومنازلهم فالمؤمنون لهم عقبى الدار وهي الجنة والكفار لهم سوء الدار وهي النار قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعني يوسع على من يشاء من عباده فيغنيه من فضله ويضيق على من يشاء من عباده فيفقره ويقتر عليه وهذا أمر اقتضته حكمة الله (وفرحوا بالحيوة الدنيا) يعني مشركي مكة لما بسط الله عليهم الرزق أشروا وبطروا والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المشتهى وفيه دليل على ان الفرح بالدنيا والركون اليها حرام (وما الحيوة الدنيا في الآخرة) يعني بالنسبة الى الآخرة (الا متاع) اى قليل ذاهب قال الكلبي المتاع مثل السكرجة والقصعة والقدر ينتفع بها في الدنيا ثم تذهب كذلك الحياة الدنيا لانها ذاهبة لا بقاء لها (ويقول الذين كفروا) يعني من أهل مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) يعني هلا أنزل على محمد آية ومعجزة مثل معجزة موسى وعيسى (قل) اى قل لهم يا محمد (ان الله يضل من يشاء) فلا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات ان لم يهده الله عز وجل وهو قوله (ويهدى اليه من أناب) يعني ويرشد الى دينه والايمان به من أناب بقلبه ورجع اليه بكليته

اي هذا الثواب بسبب صبركم على الشهوات او على أمر الله او بسلام اي نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم والاول أوجه (فنعم عقبى الدار) الجنات (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض) بالكفر والظلم (أولئك لهم اللعنة) الابعاد من الرحمة (ولهم سوء الدار) يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا لانه في مقابلة عقبى الدار وأن يراد بالدار جهنم وبسوءها عذابها (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي ويضيق لمن يشاء والمعنى الله وحده هو يبسط الرزق ويقدر دون غيره (وفرحوا بالحيوة الدنيا) بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل الله وانعامه عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يؤجروا بنعيم الآخرة (وما الحيوة الدنيا في الآخرة الا متاع) وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس الا شيأ نزرا يتمتع به كعجالة الراكب وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أي الآية المقترحة (قل ان الله يضل من يشاء) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات (ويهدى اليه من أناب) ويرشد الى دينه من رجع اليه بقلبه

(الذين آمنوا) بدل من قوله من أناب (وتطمئن قلوبهم) يعني وتسكن قلوبهم (بذكر الله)
قال مقاتل بالقرآن لانه طمأنينة لقلوب المؤمنين والطمأنينة والسكون انما تكون بقوة
اليقين والاضطراب انما يكون بالشك (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) يعني بذكره تسكن
قلوب المؤمنين ويستقر اليقين فيها وقال ابن عباس هذا في الحلف وذلك ان المسلم اذا
حلف بالله على شئ سكنت قلوب المؤمنين اليه فان قلت أليس قد قال الله تبارك
وتعالى في أول سورة الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل
استشعار الخوف وحصول الاضطراب وهو ضد الطمأنينة فكيف وصفهم بالوجل
والطمأنينة وهل يمكن الجمع بينهما في حال واحد قلت انما يكون الوجل عند ذكر الوعيد
والعقاب والطمأنينة انما تكون عند الوعد والثواب فالقلوب توجل اذا ذكرت عدل
الله وشدة حسابه وعقابه وتطمئن إذا ذكرت فضل الله ورحمته وكرمه واحسانه
(الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم) اختلف العلماء في تفسير طوبى فقال
ابن عباس فرح لهم وقرة أعين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وفي
رواية أخرى عنه ان هذه الكلمة عربية يقول الرجل للرجل طوبى لك أي أصبت
خيرا وقال ابراهيم النخعي خير لهم وكرامة وقال الزجاج طوبى من الطيب وقيل
تأويلها الحال المستطابة لهم وهو كل ما استطابه هؤلاء في الجنة من بقاء بلا فناء
وعز بلا ذل وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم قال الازهري تقول طوبى لك وطوباك لحن
لا تقوله العرب وهو قول أكثر النحويين وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية
وروى عن أبي امامة وأبي هريرة وأبي الدرداء ان طوبى اسم شجرة في الجنة تظلل
الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي صلى الله
عليه وسلم وفي كل دار وغرفة في الجنة منها غصن لم يخلق الله لونا ولا زهرة الا وفيها منه
الا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة الا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور
والسلسبيل وقال مقاتل كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله بأنواع التسبيح
وروى عن أبي سعيد الخدري ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طوبى
فقال هي شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وعن
معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه قال طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه
تنبت الحلي والحلل وان أغصانها لترى من وراء سور الجنة هكذا ذكر البغوي هذين
الحديثين بغير سند وروى بسنده موقوفا عن أبي هريرة قال ان في الجنة شجرة يسير
الراكب في ظلها مائة سنة اقرؤا ان شئتم وظل ممدود فبلغ ذلك كعب الاحبار
فقال صدق والذي أنزل التوراة على موسى والقرآن على محمد لو ان رجلا ركب فرسا
أو حقة أو جذعة ثم دار بأرض تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرما ان الله غرسها
بيده ونفخ فيها من روحه وان أفنانها لمن وراء سور الجنة وما في الجنة نهر الا وهو
يخرج من أصل تلك الشجرة قال البغوي وبهذا الاسناد عن عبد الله بن المبارك عن
الاشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال ان في الجنة شجرة يقال لها

(الذين آمنوا) هم الذين أو محله النصب بدل من من (وتطمئن قلوبهم) تسكن (بذكر الله) على الدوام أو بالقرآن أو بوعده (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) بسبب ذكره تطمئن قلوب المؤمنين (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدأ (طوبى لهم) خبره وهو مصدر من طاب كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك أصبت خيرا وطيبا ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيبا لك وطيب لك وسلاما لك وسلام لك واللام في لهم للبيان مثلها في سقيا لك والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كموقن

طوبى يقول الله لها تفتقي لعبدي عما يشاء فتفتق له عن فرس مسرجة بلجامها وهيئتها
كما يشاء وتفتق له عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وعن الثياب (ق) عن
سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها
مائة عام لا يقطعها (ق) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله
عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام
ما يقطعها (ق) وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان
في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة زاد البخاري في روايته واقرؤا ان شئتم
وظل ممدود وقوله تعالى (وحسن مآب) يعني ولهم حسن منقلب ومرجع ينقلبون
ويرجعون اليه في الآخرة وهي الجنة قوله عز وجل (كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من
قبلها أمم) يعني كما أرسلناك يا محمد الى هذه الامة كذلك أرسلنا أنبياء قبلك الى أمم قد خلت
ومضت (لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك) يعني لتقرأ على أمتك الذي أوحينا اليك من
القرآن وشرائع الدين (وهم يكفرون بالرحمن) قال قتادة ومقاتل وابن جريج هذه الآية
مدنية نزلت في صلح الحديبية وذلك ان سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على ان
يكتبوا كتاب الصلح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب اكتب بسم الله
الرحمن الرحيم فقالوا لا نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب
اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن يعني أنهم ينكرونه
ويجحدونه والمعروف ان الآية مكية وسبب نزولها ان أبا جهل سمع النبي صلى الله عليه
وسلم وهو في الحجر يدعو ويقول في دعائه يا الله يا رحمن فرجع أبو جهل الى المشركين وقال
ان محمدا يدعو الهين يدعو الله ويدعو الها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمن
اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا
فله الاسماء الحسنى وروى الضحاك عن ابن عباس انها نزلت في كفار قريش حين قال
لهم النبي صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فقال الله تعالى (قل) أي
قل يا محمد ان الرحمن الذي أنكرتم معرفته (هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت) يعني عليه
اعتمدت في أموري كلها (واليه متاب) يعني واليه توبتي ورجوعي قوله تعالى (ولو ان
قرآنا سيرت به الجبال) الآية نزلت في نفر من مشركي قريش منهم أبو جهل بن هشام
وعبد الله بن أبي أمية جلسوا خلف الكعبة وارسلوا خلف النبي صلى الله عليه وسلم
فأتاهم وقيل انه مر بهم وهم جلوس فدعاهم الى الله عز وجل فقال له عبد الله بن أبي أمية
ان سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فادفعها عنا حتى تتفسح فانها أرض ضيقة
لمزارعنا واجعل لنا فيها أنهارا وعيونا لنغرس الاشجار ونزرع ونتخذ البساتين فلست
كما زعمت باهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال تسير معه أو سخر لنا الريح
لنركبها الى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع في يومنا كما سخرت لسليمان كما زعمت
فلست باهون على ربك من سليمان أو أحي لنا جدك قصيا أو من شئت من موتانا لنسأله
عن أمرك أحق أو باطل فان عيسى كان يحيي الموتى ولست باهون على الله من عيسى

مرجع والقراءة في (وحسن مآب)
بالرفع والنصب تدلك على معناهما
(كذلك أرسلناك) مثل ذلك
الارسال ارسلناك ارسالا له شأن
وفضل على سائر الارسالات
ثم فسر كيف أرسله فقال (في أمة
قد خلت من قبلها أمم) أي
أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم
كثيرة فهي آخر الامم وأنت
خاتم الانبياء (لتتلو عليهم الذي
أوحينا اليك) لتقرأ عليهم
الكتاب العظيم الذي أوحينا اليك
(وهم يكفرون) وحال هؤلاء
انهم يكفرون (بالرحمن) بالبليغ
الرحمة الذي وسعت رحمته كل
شئ (قل هو ربي) ورب كل شئ
(لا اله الا هو) أي هو ربي الواحد
المتعالي عن الشركاء (عليه
توكلت) في نصرتي عليكم (واليه
متاب) مرجعي فيثيبني على
مصابرتكم متابي وعقابي ومآبي
في الحالين يعقوب (ولو أن قرآنا
سيرت به الجبال) عن مقارها

فانزل

فأنزل الله هذه الآية ولو أن قرآنا سيرت به الجبال فأذهبت عن وجه الارض (أو قطعت به الارض) يعني شققت فجعلت أنهارا وعيونا (أو كلم به الموتى) فأحياها واختلفوا في جواب لو فقال قوم جواب لو محذوف وانما حذف اكتفاء بمعرفة السامع مراده وتقديره ولو أن قرآنا فعل به كذا وكذا لكان هذا القرآن فهو كقول الشاعر

فأقسم لو شيء أتانا رسوله * سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أراد لو شيء أتانا رسوله سواك لرددناه وهذا معنى قول قتادة فانه قال معناه لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقال آخرون جواب لو تقدم تقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا به لما سبق في علمنا فيهم كما قال ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا ثم قال تعالى (بل لله الامر جميعا) يعني في هذه الاشياء وفي غيرها ان شاء فعل وان شاء لم يفعل (أفلم ييأس الذين آمنوا) قال أكثر المفسرين معناه أفلم يعلم قال الكلبي هذه لغة النخع وقيل هي لغة هوازن واختلف أهل اللغة في هذه اللفظة فقال الليث وأبو عبيد ألم ييأس ألم يعلم واستدلوا لهذه اللغة بقول الشاعر

أقول لهم بالشعب اذ يأسرونني * ألم تيأسوا اني ابن فارس زهدم

يعني ألم تعلموا واستدلوا عليه أيضا بقول شاعر آخر

ألم ييأس الاقوام اني أنا ابنه * وان كنت عن أرض العشيرة نائيا

يعني ألم يعلم الاقوام قال قطرب يئس بمعنى علم لغة للعرب قالوا ووجه هذه اللغة انه انما وقع اليأس في مكان العلم لان علمك بالشيء ويقينك به ييئسك من غيره وقيل لم يرد ان اليأس في موضع كلام العرب للعلم وانما قصد ان يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضي ان يحصل للعلم بانتفائه فاذا معنى يأسهم يقتضي حصول العلم وقال الكسائي ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت قال وهذا الحرف في القرآن من اليأس المعروف لا من العلم وذلك ان المشركين لما طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات اشرأب المسلمون لذلك وأرادوا ان يظهر لهم آية ليجتمعوا على الايمان فقال الله تعالى أفلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء ويعلموا علما يقينا (ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) يعني من غير ظهور آية وقال الزجاج القول عندي ان معناه أفلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء لان الله لو شاء لهدى الناس جميعا وحاصله ان في معنى الآية قولين أحدهما ان يئس بمعنى علم والقول الثاني انه من اليأس المعروف وتقدير القولين ما تقدم وتمسك أهل السنة بقوله ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على ان الله لم يشأ هداية جميع الخلائق (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) يعني من الكفر والاعمال الخبيثة (قارعة) أي نازلة وداهية تقرعهم بأنواع البلايا أحيانا فمرة بالجدب ومرة بالسلب ومرة بالقتل والاسر وقال ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التي كان

(أو قطعت به الارض) حتى تتصدع وتتزايل قطعا (أو كلم به الموتى) فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الانذار والتخويف فجواب لو محذوف أو معناه ولو أن قرآنا وقع به تسيير الجبال وتقطيع الارض وتكليم الموتى وتنبيههم لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة الآية (بل لله الامر جميعا) بل لله القدرة على كل شيء وهو قادر على الآيات التي اقترحوها (أفلم ييأس الذين آمنوا) أفلم يعلم وهي لغة قوم من النخع وقيل انما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه لان اليائس عن الشيء عالم بانه لا يكون كما استعمل النسيان في معنى الترك لتضمن ذلك دليله قراءة علي رضي الله عنه أفلم يتبين وقيل انما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوي السينات وهذه والله فرية ما فيها مرية (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) من كفرهم وسوء أعمالهم (قارعة) داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم

(أو تحل قريبا من دارهم) أو تحل القارعة قريبا منهم فيفزعون و يتطاير عليهم شررها و يتعدى اليهم شرورها (حتى يأتى وعد الله) أى موتهم أو القيامة أو ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله من العداوة والتكذيب قارعة لان جيش رسول الله يغير حول مكة و يختطف منهم ٨٤ أو تحل انت يا محمد قريبا من دارهم بجيشك يوم الحديبية حتى يأتى وعد الله أى فتح مكة (ان الله لا يخلف الميعاد) أى لا خلف فى موعده (ولقد استهزئ برسل من قبلك فامليت للذين كفروا) الاملاء الامهال وان يترك ملاوة من الزمان فى خفض وأمن (ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) وهذا وعيد لهم و جواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله استهزاء به وتسلية له (أفمن هو قائم) احتجاج عليهم فى اشراكهم بالله يعنى أفالله الذى هو رقيب (على كل نفس) صالحة أو طالحة (بما كسبت) يعلم خيره وشره ويعد لكل جزاء كمن ليس كذلك ثم استأنف فقال (وجعلوا لله شركاء) أى الاصنام (قل سموهم) أى سموهم لمن هم ونبؤه باسمائهم ثم قال (أم تنبؤنه بما لا يعلم فى الارض) على أم المنقطعة أى بل أتنبؤنه بشركاء لا يعلمهم فى الارض وهو العالم بما فى السموات والارض فاذا لم يعلمهم علم انهم ليسوا بشئ والمراد نفى أن يكون له شركاء (أم بظاهر من القول) بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة كقوله ذلك قولهم بأفواههم ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها (بل زين للذين كفروا مكرهم) كيدهم للاسلام بشركهم (وصدوا عن السبيل) عن سبيل الله بضم الصاد كوفى و بفتحها غيرهم ومعناه وصدوا المسلمين عن سبيل الله (ومن يضلل الله فما له من هاد) من أحد يقدر على هدايته الدال

رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم (أو تحل) يعنى السرايا أو البلية (قريبا من دارهم) وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم (حتى يأتى وعد الله) يعنى النصر والفتح وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لان الله يجمعهم فيه فيجازيهم باعمالهم (ان الله لا يخلف الميعاد) والغرض منه تشجيع قلب النبى صلى الله عليه وسلم وازالة الحزن عنه لعلمه بأن الله لا يخلف الميعاد قوله عز وجل (ولقد استهزئ برسل من قبلك) وذلك ان كفار مكة انما سألوا هذه الاشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى انهم انما طلبوا منك هذه الآيات على سبيل الاستهزاء وكذلك قد استهزئ برسل من قبلك (فامليت للذين كفروا) يعنى فامهلتهم وأطلت لهم المدة (ثم أخذتهم) يعنى بالعذاب بعد الامهال فعذبتهم فى الدنيا بالقحط والقتل والاسر وفى الآخرة بالنار (فكيف كان عقاب) يعنى فكيف كان عقابى لهم (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) يعنى أفمن هو حافظها ورازقها وعالم بها وبما عملت من خير أو شر و يجازيها بما كسبت فيثيبها ان أحسنت و يعاقبها ان أساءت وجوابه محذوف وتقديره كمن ليس بقائم بل هو عاجز عن نفسه ومن كان عاجزا عن نفسه فهو عن غيره أعجز وهى الاصنام التى لا تضر ولا تنفع (وجعلوا لله شركاء) يعنى وهو المستحق للعبادة لا هذه الاصنام التى جعلوها لله شركاء (قل سموهم) يعنى له وقيل صفوهم بما يستحقون ثم انظروا هل هى أهل لان تعبد (أم تنبؤنه) يعنى أم تخبرون الله (بما لا يعلم فى الارض) يعنى انه لا يعلم ان لنفسه شريكا من خلقه وكيف يكون المخلوق شريكا للخالق وهو العالم بما فى السموات والارض ولو كان لعلمه والمراد من ذلك نفى العلم بان يكون له شريك (أم بظاهر من القول) يعنى انهم يتعلقون بظاهر من القول مسموع وهو فى الحقيقة باطل لا أصل له وقيل معناه بل بظن من القول لا يعلمون حقيقته (بل زين للذين كفروا مكرهم) قال ابن عباس زين لهم الشيطان الكفر وانما فسر المكر بالكفر لان مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كفر منهم والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى لانه هو الفاعل المختار على الاطلاق لا يقدر أحد ان يتصرف فى الوجود الا باذنه فتزيين الشيطان القاء الوسوسة فقط ولا يقدر على اضلال أحد وهدايته الا الله تعالى ويدل على هذا سياق الآية وهو قوله ومن يضلل الله فما له من هاد وقوله (وصدوا عن السبيل) قرئ بضم الصاد ومعناه صرفوا عن سبيل الدين والرشد والهداية ومنعوا من ذلك والصاد المانع لهم هو الله تعالى وقرئ وصدوا بفتح الصاد ومعناه انهم صدوا عن سبيل الله غيرهم أى عن الايمان (ومن يضلل الله فما له من هاد) الوقف عليه بسكون

الدال وحذف الياء في قراءة أكثر القراء (لهم عذاب في الحيوة الدنيا) يعني بالقتل والاسر ونحو ذلك مما فيه غيظهم (ولعذاب الآخرة أشق) يعني أشد وأغلظ لان المشقة غلظ الامر على النفس وشدته مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذي هو الصدع (وما لهم من الله) يعني من عذاب الله (من واق) يعني من مانع يمنعهم من عذابه قوله تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون) أي صفة الجنة التي وعد المتقون (تجري من تحتها الانهار أكلها دائم) لا ينقطع أبدا (وظلها) يعني انه دائم أبدا لا ينقطع وليس في الجنة شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول وفي الآية رد على جهم وأصحابه فانهم يقولون ان نعيم الجنة يفنى و ينقطع وفي الآية دليل على ان حركات أهل الجنة لا تنتهي الى سكون دائم كما يقوله أبو الهذيل واستدل القاضي عبد الجبار المعتزلي بهذه الآية على ان الجنة لم تخلق بعد قال ووجه الدليل انها لو كانت مخلوقة لوجب ان تفنى و ينقطع أكلها لقوله تعالى كل شيء هالك الا وجهه فوجب أن لا تكون الجنة مخلوقة لقوله أكلها دائم يعني لا ينقطع قال ولا ينكر أن تكون في السموات جنات كثيرة تتمتع بها الملائكة ومن يعد حيا من الانبياء والشهداء وغيرهم على ما روى الا ان الذي نذهب اليه ان جنة الخلد لم تخلق بعد والجواب عن هذا أن حاصل دليلهم مركب من آيتين احداهما قوله تعالى كل شيء هالك الا وجهه والأخرى قوله أكلها دائم وظلها فاذا أدخلنا التخصيص على هذين العمومين سقط دليلهم فنخص هذين الدليلين بالدلائل الدالة على ان الجنة مخلوقة منها قوله تعالى وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين وقوله تعالى (تلك عقبى الذين اتقوا) يعني ان عاقبة أهل التقوى هي الجنة (وعقبى الكافرين النار) يعني في الآخرة قوله عز وجل (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك) في المراد بالكتاب هنا قولان أحدهما انه القرآن والذين أوتوه المسلمون وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انهم يفرحون بما يتجدد من الاحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت بتجدد نزول القرآن (ومن الاحزاب) يعني الجماعات الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار واليهود والنصارى (من ينكر بعضه) وهذا قول الحسن وقتادة فان قلت ان الاحزاب من المشركين وغيرهم من أهل الكتاب ينكرون القرآن كله فكيف قال ومن الاحزاب من ينكر بعضه قلت ان الاحزاب لا ينكرون القرآن بجملته لانه قد ورد فيه آيات دالات على توحيد الله واثبات قدرته وعلمه وحكمته وهم لا ينكرون ذلك أبدا والقول الثاني ان المراد بالكتاب التوراة والانجيل والمراد بأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون من نجران وثلاثون من الحبشة وعشرة ممن سواهم فرحوا بالقرآن لكونهم آمنوا به وصدقوه ومن الاحزاب يعني بقية أهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين من ينكر بعضه وقيل كان ذكر الرحمن قليلا في القرآن في الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن معه من أهل الكتاب من اليهود

(لهم عذاب في الحيوة الدنيا) بالقتل والاسر وأنواع المحن (ولعذاب الآخرة أشق) أشد لدوامه (وما لهم من الله من واق) من حافظ من عذابه (مثل الجنة التي وعد المتقون) صفتها التي هي في غرابة المثل وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف أي فيما يتلى عليكم مثل الجنة أو الخبر (تجري من تحتها الانهار) كما تقول صفة زيد أسمر (أكلها دائم) ثمرها دائم الوجود لا ينقطع (وظلها) دائم لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس (تلك عقبى الذين اتقوا) أي الجنة الموصوفة عقبى تقواهم يعني منتهى امرهم (وعقبى الكافرين النار والذين آتيناهم الكتاب) يريد من أسلم من اليهود كابن سلام ونحوه ومن النصارى بأرض الحبشة (يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب) أي ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الاشرف وأصحابه والسيد والعاقب وأشياعهما (من ينكر بعضه) لانهم كانوا لا ينكرون الاقاصيص و بعض الاحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم وكانوا ينكرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وغير ذلك مما حرفوه وبدلوه من الشرائع

والنصارى ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة فلما كرر الله تعالى ذكر لفظة الرحمن في القرآن فرحوا بذلك فأنزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب يعني مشركي مكة من ينكر بعضه وذلك لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي وانما قال ومن الاحزاب من ينكر بعضه لانهم كانوا لا ينكرون الله وينكرون الرحمن (قل) أي قل يا محمد (انما أمرت أن أعبد الله) يعني وحده (ولا أشرك به) شيأ (اليه أدعوا) أي الى الله والى الايمان به ادعو الناس (واليه مآب) يعني مرجعي يوم القيامة (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أي كما أنزلنا الكتب على الانبياء بلغاتهم ولسانهم أنزلنا اليك يا محمد هذا الكتاب وهو القرآن عربيا بلسانك ولسان قومك وانما سمي القرآن حكما لان فيه جميع التكاليف والاحكام والحلال والحرام والنقض والابرام فلما كان القرآن سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة وقيل ان الله لما حكم على جميع الخلق بقبول القرآن والعمل بمقتضاه سماه حكما لذلك المعنى (ولئن اتبعت أهواءهم) قال جمهور المفسرين ان المشركين دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملة آبائهم فتوعده الله على اتباع أهوائهم في ذلك وقال ابن السائب المراد به متابعة آبائهم في الصلاة لبيت المقدس (بعدما جاءك من العلم) يعني بأنك على الحق وان قبلتك الكعبة هي الحق وقيل ظاهر الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره وقيل هو حث للنبي صلى الله عليه وسلم على تبليغ الرسالة والقيام بما أمر به ويتضمن ذلك تحذير غيره من المكلفين لان من هو أرفع منزلة وأعظم قدرا وأعلى مرتبة اذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الاولى (مالك من الله من ولي ولا واق) يعني من ناصر ولا حافظ قوله تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) روي ان اليهود وقيل المشركين قالوا ان هذا الرجل يعنون النبي صلى الله عليه وسلم ليس له همة الا في النساء نعابوا عليه ذلك وقالوا لو كان كما يزعم انه رسول الله لكان مشتغلا بالزهد وترك الدنيا فأجاب الله عز وجل عن هذه الشبهة وعما عابوه به بقوله عز وجل ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يا محمد (وجعلنا لهم أزواجا وذرية) فانه قد كان لسليمان عليه الصلاة والسلام ثلثمائة امرأة حرة وسبعمائة امرأة سرية فلم يقدح ذلك في نبوته وكان لابيه داود عليه الصلاة والسلام مائة امرأة فلم يقدح ذلك أيضا في نبوته فكيف يعيبون عليك ذلك ويجعلونه قادحا في نبوتك والمعنى ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يأكلون ويشربون وينكحون وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون (وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله) هذا جواب لعبد الله بن أبي أمية وغيره من المشركين الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات واقترحوا عليه ان يريهم المعجزات وتقرير هذا الجواب أن المعجزة الواحدة كافية في اثبات النبوة وقد أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزات كثيرة يعجز عن مثلها البشر فما لهم ان يقترحوا عليه شيأ واتيان الرسول بالمعجزات ليس اليه

ولا أشرك به فانكاركم له انكار لعبادة الله وتوحيده فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وان لا يشرك به (اليه أدعوا) خصوصا لا أدعو الى غيره (واليه مآب) مرجعي وأنتم تقولون مثل ذلك فلا معنى لانكاركم (وكذلك أنزلناه) ومثل ذلك الانزال أنزلناه مأمورا فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة اليه والى دينه والانذار بدار الجزاء (حكما عربيا) حكمة عربية مترجمة بلسان العرب وانتصابه على الحال كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أمور يشاركهم فيها فقيل (ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم) أي بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة (مالك من الله من ولي ولا واق) أي لا ينصرك ناصر ولا يقيك منه واق وهذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين وأن لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة والا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة الثبات بمكان وكانوا يعيبونه بالزواج والاولاد ويقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ فنزل (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) نساء وأولادا (وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله) أي ليس في وسعه اتيان الآيات على ما يقترحه قومه وانما ذلك الى الله

بل هو مفوض الى مشيئة الله عز وجل فان شاء أظهرها وان شاء لم يظهرها (لكل أجل كتاب) وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم فلما استبطؤا ذلك وقد كانوا يستعجلون نزوله أخبر الله عز وجل ان لكل قضاء قضاه كتابا قد كتبه فيه ووقتا يقع فيه لا يتقدم ولا يتأخر والمعنى ان لكل أجل أجله الله كتابا قد أثبته فيه وقيل في الآية تقديم وتأخير تقديره لكل كتاب أجل ومدة والمعنى ان الكتب المنزلة لكل كتاب منها وقت ينزل فيه (يمحو الله ما يشاء ويثبت) وذلك انهم لما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ان محمدا يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمرهم بخلافه غدا وما سبب ذلك الا انه يقوله من تلقاء نفسه أجاب الله عن هذا الاعتراض بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت قال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدله وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن حذيفة بن أسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يارب أذكر أم انثى فيقضى ربك ما يشاء فيكتب الملك ثم يقول يارب أجله فيقول ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك يارب رزقه فيقول ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك الصحيفة فلا يزيد على امر ولا ينقص أخرجه مسلم (ق) عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع في بطن امه نطفة أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فو الذي لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها فان قلت هذا الحديث والذي قبله صريح بان الآجال والارزاق مقدرة وكذا السعادة والشقاوة لا تتغير عما قدره الله وعلمه في الازل فيستحيل زيادتها ونقصانها وكذلك يستحيل ان ينقلب السعيد شقيا أو الشقي سعيدا وقد صح في فضل صلة الرحم ان صلة الرحم تزيد في العمر فكيف الجمع بين هذه الاحاديث وبين قوله تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت قلت قد تكرر بالدلائل القطعية ان الله عالم بالآجال والارزاق وغيرها وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه فاذا علم الله أن زيدا يموت في وقت معين استحال ان يموت قبله أو بعده وهو قوله تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فدل ذلك على ان الآجال لا تزيد ولا تنقص وأجاب العلماء عما ورد في الحديث في فضل صلة الرحم من أنها تزيد في العمر بأجوبة الصحيح منها أن هذه الزيادة تكون بالبركة في عمره بالتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة وصيانتها عن الضياع وغير ذلك والجواب الثاني منها انها بالنسبة الى

(لكل أجل كتاب) لكل وقت حكم يكتب على العباد أي يفرض عليهم على ما تقتضيه حكمته (يمحو الله ما يشاء) ينسخ ما يشاء نسخه (ويثبت) بدله ما يشاء أو يتركه غير منسوخ أو يمحو من ديوان الحفظة ما يشاء ويثبت غيره أو يمحو كفر التائبين ويثبت ايمانهم أو يميت من حان أجله وعكسه ويثبت مدني وشامي وحمزة وعلي

ما يظهر للملائكة في اللوح المحفوظ ان عمر زيد مثلا ستون سنة الا ان يصل رحمه فان
وصلها زيد له أربعون سنة وقد علم الله في الازل ما سيقع من ذلك وهو معنى قوله تعالى
يمحوا الله ما يشاء ويثبت أي بالنسبة لما يظهر للمخلوقين من تصور الزيادة وأما انقلاب
الشقي سعيدا والسعيد شقيا فيتصور في الظاهر أيضا لان الكافر قد يسلم فينقلب من
الشقاوة الى السعادة وكذا العاصي ونحوه وقد يتوب فينقلب من الشقاوة الى السعادة
وقد يرتد المسلم والعياذ بالله تعالى فيموت على ردته فينقلب من السعادة الى الشقاوة
والاصل في هذا الاعتبار بالخاتمة عند الموت وما يختم الله به له وهو المراد من علم الله الازلي
الذي لا يتغير ولا يتبدل والله أعلم وأصل المحو اذهاب أثر الكتابة وضده الاثبات فمن العلماء
من حمل الآية على ظاهرها فجعلها عامة في كل شيء يقتضيه ظاهر اللفظ فيزيد الله ما يشاء
في الرزق والاجل وكذا القول في السعادة والشقاوة والايمان بالله والكفر ونقل نحو هذا
عن عمر وابن مسعود فانهما قالا يمحو السعادة والشقاوة ويمحو الرزق والاجل ويثبت
ما يشاء وروي عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول اللهم ان كنت كتبتني
في أهل السعادة فأثبتني فيها وان كنت كتبتني من أهل الشقاوة فامحني منها وأثبتني
في أهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب وروي مثله عن ابن
مسعود وقد ورد في بعض الآثار ان الرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه
فيمد الى ثلاثين سنة هكذا ذكره البغوي بغير سند وروي بسنده عن أبي الدرداء قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل الله تبارك وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل
فينظر في الساعة الاولى منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت
ومن العلماء من حمل معنى الآية على الخصوص في بعض الاشياء دون بعض فقال المراد
بالمحو والاثبات نسخ الحكم المتقدم واثبات حكم آخر عوضا عن الحكم المتقدم وقيل
ان الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة
مما ليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قول القائل أكلت شربت دخلت خرجت ونحو ذلك
من الكلام وهو صادق فيه ويثبت ما فيه ثواب وعقاب وهذا قول الضحاك وقال
الكلبي يكتب القول كله حتى اذا كان يوم الخميس طرح منه شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب
وقال ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله فهو
الذي يمحو والذي يثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يموت وهو في طاعته فهو الذي
يثبت وقال الحسن يمحو الله ما يشاء يعني من جاء أجله فيذهبه ويثبت من لم يجئ أجله
وقال سعيد بن جبير يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت ما يشاء منها فلا
يغفرها وقال عكرمة يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات
وقال السدي يمحو الله ما يشاء يعني القمر ويثبت الشمس وقال الربيع هذا في الارواح
يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه وأمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده الى
صاحبه وقيل ان الله يثبت في أول كل سنة حكمها فاذا مضت السنة محاه وأثبت حكما
آخر للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة وقيل هو في المحن والمصائب

فهى مثبتة فى الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة وقيل ان الله يمحو ما يشاء و يثبت ما يشاء
لا اعتراض لاحد عليه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد فان قلت مذهب أهل السنة ان
المقادير سابقة وقد جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة فكيف يستقيم مع هذا المحو
والاثبات قلت المحو والاثبات مما جف به القلم وسبق به القدر فلا يمحو شيأ ولا يثبت شيأ
الا ما سبق به علمه فى الازل وعليه يترتب القضاء والقدر ﴿مسئلة﴾ استدلت الرافضة
على مذهبهم فى البداء بهذه الآية قالوا ان البداء جائز على الله وهو ان يعتقد شيأ ثم
يظهر له خلاف ما اعتقده وتمسكوا بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت والجواب عن هذه
المسئلة أن هذا مذهب باطل ظاهر الفساد لان علم الله قديم أزلى وهو من لوازم ذاته
المخصوصة وما كان كذلك كان دخول التغيير والتبديل فيه محالا كذا ذكره الامام
فخر الدين الرازى فى تفسير هذه الآية وقوله تعالى (وعنده أم الكتاب) يعنى أصل
الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذى لا يغير ولا يبدل وسمى اللوح المحفوظ أم الكتاب لان
جميع الاشياء مثبتة فيه ومنه تنسخ الكتب المنزلة وقيل ان العلوم كلها تنسب اليه
وتتولد منه قال ابن عباس هما كتابان كتاب يمحو الله منه ما يشاء و يثبت ما يشاء وأم
الكتاب الذى لا يغير شئ منها وروى عطية عن ابن عباس قال ان لله لوحا محفوظا مسيرة
خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة لله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو
الله ما يشاء و يثبت وعنده أم الكتاب وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله
ما هو خالق وما خلقه وما هم عاملون (واما نرينك) يعنى يا محمد (بعض الذى نعدهم) يعنى
من العذاب (أو نتوفينك) يعنى قبل ان نريك ذلك (فانما عليك البلاغ) يعنى ليس
عليك الا تبليغ الرسالة اليهم والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ (وعلينا الحساب) يعنى
وعلينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم باعمالهم قوله عز وجل (أولم يروا أنا نأتى
الارض ننقصها من أطرافها) يعنى أولم ير كفار مكة الذين سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم
الآيات أنا نأتى الارض يعنى ارض الشرك ننقصها من أطرافها قال أكثر المفسرين
المراد منه فتح دار الشرك فان ما زاد فى دار الاسلام فقد نقص فى دار الشرك والمعنى
أولم يروا أنا نأتى الارض فننقصها لمحمد صلى الله عليه وسلم أرضا بعد أرض حوالى
أراضيهم أفلا يعتبرون فيتعظون وهذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة من المفسرين
وذلك ان المسلمين اذا استولوا على بلاد الكفار قهرا وتخريبا كان ذلك نقصانا فى ديارهم
وزيادة فى دار المسلمين وقوتهم وكان ذلك من أقوى الدلائل على ان الله تعالى ينصر عبده
ويعز جنده ويظهر دينه وينجز له ما وعده وقيل هو خراب الارض والمعنى أولم يروا
أنا نأتى الارض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون ان نفعل بهم مثل ذلك وقال مجاهد
هو خراب الارض وقبض أهلها وعن عكرمة والشعبى نحوه وهذا القول قريب من
الاول وقال عطاء وجماعة من المفسرين نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء (ق)
عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله
لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس وفى رواية من العباد ولكن يقبض العلم بقبض

(وعنده أم الكتاب) أى أصل
كل كتاب وهو اللوح المحفوظ
لان كل كائن مكتوب فيه (واما
نرينك بعض الذى نعدهم أو
نتوفينك) وكيفما دارت الحال
أريناك مصارعهم وما وعدناهم
من انزال العذاب عليهم أو
توفيناك قبل ذلك (فانما عليك
البلاغ) فما يجب عليك الا تبليغ
الرسالة فحسب (وعلينا الحساب)
وعلينا حسابهم وجزاؤهم على
أعمالهم لا عليك فلا يهمنك
اعراضهم ولا تستعجل بعذابهم
(أولم يروا أنا نأتى الارض) أرض
الكفرة (ننقصها من أطرافها)
بما نفتح على المسلمين من بلادهم
فننقص دار الحرب ونزيد فى دار
الاسلام وذلك من آيات النصرة
والغلبة والمعنى عليك البلاغ
الذى حملته ولا تهتم بما وراء ذلك
فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك
من النصرة والظفر

العلماء حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا قال الحسن قال عبد الله بن مسعود موت العالم ثلمة فى الاسلام لا يسدها شئ باختلاف الليل والنهار وقال عبد الله أيضا عليكم بالعلم قبل ان يقبض وقبضه ذهاب أهله وقال سليمان لا يزال الناس بخير ما بقى الاول حتى يتعلم الآخر فاذا هلك الاول ولم يتعلم الآخر هلك الناس وقيل لسعيد بن جبير ما علامة هلاك الناس قال هلاك العلماء فعلى هذا القول فالمراد بالاطراف العلماء والاشراف من الناس حكى الجوهرى عن ثعلب قال الاطراف الاشراف واستدل الواحدى لهذه اللغة بقول الفرزدق

واسأل بنا وبكم اذا وردت منى * أطراف كل قبيلة من يتبع

قال يريد أشراف كل قبيلة قال الواحدى والتفسير على القول الاول أولى لان هذا وان صح فلا يليق بهذا الموضع قال الامام فخر الدين الرازى ويمكن أن يقال أيضا ان هذا الوجه لا يليق بهذا الموضع وتقديره ان يقال أولم يروا أن كل ما يحدث فى الدنيا من الاختلاف خراب بعد عمارة وموت بعد حياة وذل بعد عز ونقص بعد كمال واذا كانت هذه التغييرات مشاهدة محسوسة فما الذى يؤمنهم ان يقلب الله الامر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعدما كانوا عزيزين ومقهورين بعد ان كانوا قاهرين وعلى هذا الوجه أيضا يحسن اتصال الكلام بما قبله وقوله تعالى (والله يحكم لا معقب لحكمه) يعنى لا راد لحكمه ولا ناقض لقضائه والمعقب هو الذى يعقب غيره بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب والمعنى والله يحكم نافذا حكمه خاليا من المدافع والمعارض والمنازع لا يتعقب حكمه أحد غيره بتغيير ولا نقض (وهو سريع الحساب) قال ابن عباس يريد سريع الانتقام ممن حاسبه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بايصال الثواب اليهم وقد تقدم بسط الكلام فى معنى سريع الحساب قبل هذا (وقد مكر الذين من قبلهم) يعنى من قبل مشركى مكة من الامم الماضية الذين مكروا بأنبيائهم والمكر ايصال المكروه الى الانسان من حيث لا يشعر مثل ما مكر نمرود بابراهيم وفرعون بموسى واليهود بعيسى (فلله المكر جميعا) يعنى عند الله جزاء مكرهم وقال الواحدى يعنى جميع مكر الماكرين له ومنه أى هو من خلقه وارادته فالمكر جميعا مخلوق له بيده الخير والشر واليه النفع والضر والمعنى ان المكر لا يضر الا باذنه وارادته وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وأمان له من مكرهم كأنه قيل قد فعل من كان قبلهم من الكفار مثل فعلهم وصنعوا مثل صنيعهم فلم يضروا الا من أراد الله ضره واذا كان الامر كذلك وجب أن لا يكون الخوف الا من الله لا من أحد من المخلوقين (يعلم ما تكسب كل نفس) يعنى ان جميع اكتساب العباد وتأثيراتها معلومة لله وهو خالقها وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فكل ما علم وقوعه فهو واجب الوقوع وكل ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله ولا يحصل ضرر الا باذنه وارادته وفيه وعيد للكفار الماكرين (وسيعلم الكافر) على التوحيد وقرئ وسيعلم الكفار

على

(والله يحكم لا معقب لحكمه) لا راد لحكمه والمعقب الذى يكر على الشئ فيبطله وحقيقته الذى يعقبه اى يقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب والمعنى انه حكم للاسلام بالغلبة والاقبال وعلى الكفر بالادبار والانتكاس ومحل لا معقب لحكمه النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاءنى زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة له تريد حاسرا (وهو سريع الحساب) فعما قليل يحاسبهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا (وقد مكر الذين من قبلهم) اى كفار الامم الخالية بانبيائهم والمكر ارادة المكروه فى خفية ثم جعل مكرهم كلا مكر بالاضافة الى مكره فقال (فلله المكر جميعا) ثم فسر ذلك بقوله (يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) يعنى العاقبة المحمودة لان من علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها فهو المكر كله لانه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم فى غفلة عما يراد بهم الكافر على ارادة الجنس حجازى وأبو عمرو (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) المراد بهم كعب بن الاشرف ورؤساء اليهود قالوا لست مرسلا ولهذا قال عطاء هى مكية الا هذه الآية

على الجمع قال ابن عباس يعني أبا جهل وقيل أراد المستهزئين وهم خمسة نفر من كفار مكة (لمن عقبى الدار) والمعنى انهم وان كانوا جهلا بالعواقب فسيعلمون ان العاقبة الحميدة للمؤمنين ولهم العاقبة المذمومة في الآخرة حين يدخلون النار ويدخل المؤمنون الجنة قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) لما أنكر الكفار كون محمد رسولا من عند الله أمره الله بقوله (قل) اى قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين أنكروا نبوتك (كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) المراد بشهادة الله على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ما أظهر على يديه من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات الدالة على صدقه وكونه نبيا مرسلا من عند الله (ومن عنده علم الكتاب) يعني ومن عنده علم الكتاب أيضا يشهد على نبوتك يا محمد وصحتها واختلفوا في الذي عنده علم الكتاب من هو فروى العوفي عن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى والمعنى ان كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالإنجيل علم ان محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيهما فشهد بذلك من شهد به وانكره من انكره منهم وقيل انهم مؤمنو أهل الكتاب يشهدون أيضا على نبوته قال قتادة هو عبد الله بن سلام وأنكر الشعبي هذا وقال هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة المنورة وقال يونس لسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب أهو عبد الله بن سلام فقال كيف يكون عبد الله ابن سلام وهذه السورة مكية وقال الحسن ومجاهد ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى وعلى هذا القول يكون المعنى كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح المحفوظ الا هو شهيدا بيني وبينكم قال الزجاج الاشبه ان الله لا يشهد على صحة حكمه لغيره وهذا قول مشكل لان عطف الصفة على الموصوف وان كان جائزا الا أنه خلاف الأصل فلا يقال شهد بهذا زيد والفقيه بل يقال شهد بهذا زيد الفقيه لكن يشهد لصحة هذا القول قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب بكسر الميم والدال وهي قراءة ابن عباس وغيره على البناء للمفعول والمعنى ومن عند الله علم الكتاب ودليل هذه القراءة قوله وعلمناه من لدنا علما وقيل معناه ان من علم أن القرآن الذي جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب وعن الامم الماضية فمن علم بهذه الصفة كان شهيدا بيني وبينكم والله أعلم بمراده واسرار كتابه

(تفسير سورة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام)

وهي مكية سوى آيتين وهما قوله سبحانه وتعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا الى آخر الآيتين وهي احدى وقيل اثنتان وخمسون آية وثمانمائة واحدى وستون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الر كتاب أنزلناه اليك) يعني هذا كتاب أنزلناه اليك يا محمد والكتاب هو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم (لتخرج الناس من الظلمات الى النور) يعني بدعائك اياهم (من الظلمات الى النور) من الضلالة الى الهدى

(قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) بما أظهر من الادلة على رسالتي والباء دخلت على الفاعل وشهيدا تمييز (ومن عنده علم الكتاب) قيل هو الله عز وجل والكتاب اللوح المحفوظ دليله قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب اى ومن لدنه علم الكتاب لان علم من علمه من فضله ولطفه وقيل ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لانهم يشهدون بنعته في كتبهم وقال ابن سلام في نزلت هذه الآية وقيل هو جبريل عليه السلام ومن في موضع الجر بالعطف على لفظ الله أو في موضع الرفع بالعطف على محل الجار والمجرور اذ التقدير كفى الله وعلم الكتاب يرتفع بالمقدر في الظرف فيكون فاعلا لان الظرف صلة لمن ومن هنا بمعنى الذي والتقدير من ثبت عنده علم الكتاب وهذا لان الظرف اذا وقع صلة يعمل عمل الفعل نحو مررت بالذي في الدار أخوه فاخوه فاعل كما تقول بالذي استقر في الدار أخوه وفي القراءة بكسر ميم من يرتفع العلم بالابتداء

(سورة ابراهيم عليه السلام مكية اثنتان وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر كتاب) هو خبر مبتدا محذوف أي هذا كتاب يعني السورة والجملة التي هي (أنزلناه اليك) في موضع الرفع صفة للنكرة (لتخرج الناس)

(باذن ربهم) بتيسيره وتسهيله مستعار من الاذن الذى هو تسهيل الحجاب وذلك ما يمنحهم من التوفيق (الى صراط) بدل من النور بتكرير العامل (العزيز) الغالب بالانتقام (الحميد) المحمود على الانعام (الله) بالرفع مدنى وشامى على هو الله وبالجر غيرهما على انه عطف بيان للعزيز الحميد ٩٢ (الذى له ما فى السموات وما فى الارض) خلقا وملكا ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر الى نور الايمان توعد الكافرين بالويل وهو نقيض الوأل وهو النجاة وهو اسم معنى كالهلاك فقال (وويل للكافرين من عذاب شديد) وهو مبتدأ وخبر وصفة (الذين يستحبون) يختارون ويؤثرون (الحيوة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله) عن دينه (ويبغونها عوجا) يطلبون لسبيل الله زيغا واعوجاجا والاصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل الذين مبتدأ خبره (أولئك فى ضلال بعيد) عن الحق ووصف الضلال بالبعد من الاسناد المجازى والبعد فى الحقيقة للضال لانه هو الذى يتباعد عن طريق الحق فوصف به فعله كما تقول جد جده أو مجرور صفة للكافرين أو منصوب على الذم أو مرفوع على أعنى الذين أو هم الذين (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه) الا متكلما بلغتهم (ليبين لهم) ما هو مبعوث به وله فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولون له لم نفهم ما خوطبنا به فان قلت ان رسولنا صلى الله عليه وسلم بعث الى الناس جميعا بقوله قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين وهم على السنة مختلفة فان لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة قلت لا يخلو اما ان ينزل بجميع الالسنة أو بواحد منها فلا حاجة الى نزوله بجميع الالسنة لان الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل فتعين ان ينزل بلسان واحد من وكان لسان قومه أولى بالتعيين لانهم أقرب اليه ولانه أبعد من التحريف والتبديل

بهذا القرآن والمراد من الظلمات ظلمات الكفر والضلالة والجهل والمراد بالنور الايمان قال الامام فخر الدين الرازى رحمه الله وفيه دليل على ان طريق الكفر والبدع كثيرة وطريق الحق ليس الا واحدا لانه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات الى النور فعبر عن الجهل والكفر والضلال بالظلمات وهى صيغة جمع وعبر عن الايمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على ان طرق الكفر والجهل كثيرة وأما طريق العلم والايمان فليس الا واحدا (باذن ربهم) يعنى بأمر ربهم وقيل بعلم ربهم (الى صراط العزيز الحميد) يعنى الى دين الاسلام وهو دينه الذى أمر به عباده والعزيز هو الغالب الذى لا يغلب والحميد المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد (الله) قرئ بالرفع على الاستئناف وخبره ما بعده وقرئ بالجر نعتا للعزيز الحميد وقال أبو عمرو وقراءة الخفض على التقديم والتأخير تقديره الى صراط الله العزيز الحميد (الذى له ما فى السموات وما فى الارض) يعنى ملكا وما فيهما عبيده (وويل للكافرين) يعنى الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذى له ما فى السموات وما فى الارض وعبدوا من لا يملك شيأ البتة بل هو مملوك لله لانه من جملة خلق الله تعالى ومن جملة ما فى السموات وما فى الارض (من عذاب شديد) يعنى معد لهم فى الآخرة ثم وصفهم فقال تعالى (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) يعنى يختارون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة (ويصدون عن سبيل الله) أى ويمنعون الناس عن قبول دين الله (ويبغونها عوجا) يعنى ويطلبون لها زيغا وميلا فحذف الجار وأوصل الفعل وقيل معناه يطلبون سبيل الله حائدين عن القصد وقيل الهاء فى ويبغونها راجعة الى الدنيا ومعناه يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق والميل الى الحرام (أولئك) يعنى من هذه صفته (فى ضلال بعيد) يعنى عن الحق وقيل يجوز أن يراد فى ضلال بعيد ذى بعد أو فيه بعد لان الضال يبعد عن الطريق قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه) يعنى بلغة قومه ليفهموا عنه ما يدعوهم اليه وهو قوله تعالى (ليبين لهم) يعنى ما يأتون وما يذرون فان قلت لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العرب وحدهم وانما بعث الى الناس جميعا بدليل قوله تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل هو مبعوث الى الثقلين الجن والانس وهم على السنة مختلفة ولغات شتى وقوله بلسان قومه وليس قومه سوى العرب يقتضى بظاهره انه مبعوث الى العرب خاصة فكيف يمكن الجمع قلت بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب وبلسانهم والناس تبع للعرب فكان مبعوثا الى جميع الخلق لانهم تبع للعرب ثم انه يبعث الرسل الى الاطراف فيترجمون لهم بألسنتهم ويدعونهم الى الله تعالى بلغاتهم وقيل يحتمل انه أراد بقومه أهل بلده وفيهم العرب وغير العرب فيدخل معهم

من غير جنسهم في عموم الدعوى وقيل ان الرسول اذا أرسل بلسان قومه وكانت دعوته خاصة وكان كتابه بلسان قومه كان أقرب لفهمهم عنه وقيام الحجة عليهم في ذلك فاذا فهموه ونقل عنهم انتشر عنهم علمه وقامت التراجم ببيانه وتفهيمه لمن يحتاج الى ذلك ممن هو من غير أهله واذا كان الكتاب واحدا بلغة واحدة مع اختلاف الامم وتباين اللغات كان ذلك ابلغ في اجتهاد المجتهدين في تعليم معانيه وتفهيم فوائده وغوامضه وأسراره وعلومه وجميع حدوده وأحكامه وقوله (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) يعنى ان الرسول ليس عليه الا التبليغ والتبيين والله هو الهادى المضل يفعل ما يشاء (وهو العزيز) يعنى الذى يغلب ولا يغلب (الحكيم) في جميع أفعاله قوله عز وجل (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) المراد بالآيات المعجزات التى جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام مثل العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك من المعجزات العظيمة الباهرة (أن أخرج قومك من الظلمات الى النور) أى أن أخرج قومك بالدعوة من ظلمات الكفر الى نور الايمان (وذكرهم بأيام الله) قال ابن عباس وأبى بن كعب ومجاهد وقتادة يعنى بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله في الامم السالفة يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم وانما أراد بما كان في أيام الله من النعمة والنقمة فأخبر بذكر الايام عن ذلك لان ذلك كان معلوما عندهم وعلى هذا يكون المعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد فالترغيب والوعد أن يذكرهم بما أنعم الله عليهم به من النعمة وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فيما مضى من الايام والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأس الله وشدة انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله وقيل بأيام الله في حق موسى أن يذكر قومه بأيام المحنة والشدة والبلاء حين كانوا تحت أيدى القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد أن كانوا مملوكين (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) الصبار الكثير الصبر والشكور الكثير الشكر وانما خص الشكور والصبور بالاعتبار بالآيات وان كان فيها عبرة للكافة لانهم هم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات فكأنها ليست لغيرهم فهو كقوله وهدى للمتقين ولان الانتفاع بالآيات لا يمكن حصوله الا لمن يكون صابرا شاكرا أما من لم يكن كذلك فلا ينتفع بها البتة (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) لما أمر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام ان يذكر قومه بأيام الله امتثل ذلك الامر وذكرهم بأيام الله فقال اذكروا نعمة الله عليكم (اذ أنجاكم من آل فرعون) أى اذكروا انعام الله عليكم في ذلك الوقت الذى أنجاكم فيه من آل فرعون (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم) فان قلت قال في سورة البقرة يذبحون بغير واو وقال هنا ويذبحون بزيادة واو فما الفرق قلت انما حذفت الواو في سورة البقرة لان قوله يذبحون تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو كما تقول جاءنى القوم زيد وعمرو اذا أردت تفسير القوم وأما دخول الواو هنا في هذه السورة فلان آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح أيضا فقوله ويذبحون نوع آخر من العذاب لانه تفسير للعذاب (ويستحيون نساءكم)

(فيضل الله من يشاء) من آثر سبب الضلالة (ويهدى من يشاء) من آثر سبب الاهتداء (وهو العزيز) فلا يغالب على مشيئته (الحكيم) فلا يخذل الا أهل الخذلان (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) التسع (أن أخرج قومك) بان أخرج أو اى أخرج لان الارسال فيه معنى القول كأنه قيل أرسلناه وقلنا له أخرج قومك (من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله) وأنذرهم بوقائعه التى وقعت على الامم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها أو بأيام الانعام حيث ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وفلق لهم البحر (ان في ذلك لآيات لكل صبار) على البلايا (شكور) على العطايا كأنه قال لكل مؤمن اذ الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب) اذ ظرف للنعمة بمعنى الانعام أى انعامه عليكم ذلك الوقت أو بدل اشتمال من نعمة الله اى اذكروا وقت انجائكم (ويذبحون أبناءكم) ذكر في البقرة يذبحون وفي الاعراف يقتلون بلا واو وهنا مع الواو والحاصل ان التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرا للعذاب وبيانا له وحيث اثبت الواو جعل التذبيح من حيث انه زاد على جنس العذاب كأنه جنس آخر (ويستحيون نساءكم

وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) الاشارة الى العذاب و البلاء المحنة أو الى الانجاء و البلاء النعمة ونبلوكم بالشر و الخير فتنة
(واذ تأذن ربكم) أي آذن ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد ولابد في تفعل من زيادة معنى ليس في افعل كأنه قيل
واذ آذن ربكم ايذانا بليغا تنتفي عنده الشكوك والشبه وهو من جملة ما قال موسى لقومه وانتصابه للعطف على نعمة الله عليكم كأنه قيل واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم والمعنى واذ تأذن ربكم فقال (لئن شكرتم) يابني اسرائيل ماخولتكم من نعمة الانجاء وغيرها (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود وقيل اذا سمعت النعمة نغمة الشكر تأهبت للمزيد وقال ابن عباس رضي الله عنهما لئن شكرتم بالجد في الطاعة لأزيدنكم بالجد في المثوبة (ولئن كفرتم) ما أنعمت به عليكم (ان عذابي لشديد) لمن كفر نعمتي اما في الدنيا فسلب النعمة واما في العقبى فتوالي النقم (وقال موسى ان تكفروا أنتم) يابني اسرائيل (ومن في الارض جميعا) والناس كلهم (فان الله لغني) عن شكركم (حميد) وان لم يحمده الحامدون وأنتم ضررتم أنفسكم حيث حرمتموها الخير الذي لابد لكم منه (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود) من كلام موسى لقومه أو ابتداء خطاب لاهل عصر محمد عليه السلام (والذين من بعدهم لايعلمهم الا الله) جملة من مبتدا وخبر وقعت اعتراضا أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح ولايعلمهم الا الله اعتراض والمعنى انهم من الكثرة بحيث لايعلم عددهم الا الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لايعرفون وروي أنه عليه السلام قال عند نزول هذه الآية كذب النسابون

يعني يتركونهن أحياء (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) فان قلت كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم قلت تمكينهم وامهالهم حتى فعلوا مافعلوا بلاء من الله ووجه آخر وهو ان ذلكم اشارة الى الانجاء وهو بلاء عظيم لان البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ومنه قوله ونبلوكم بالشر والخير فتنة وهذا الوجه أولى لانه موافق لاول الآية وهو قوله اذكروا نعمة الله عليكم فان قلت هب ان تذبيح الابناء فيه بلاء فكيف يكون استحياء النساء فيه بلاء قلت كانوا يستخدمونهن و يتركونهن تحت أيديهم كالاماء فكان ذلك بلاء (واذ تأذن ربكم) هذا من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ومعنى تأذن آذن اي اعلم ولابد في تفعل من زيادة معنى ليس في افعل كأنه قيل وآذن ربكم ايذانا بليغا تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه والمعنى واذ تأذن ربكم فقال (لئن شكرتم) يعني يابني اسرائيل ماخولتكم من نعمة الانجاء وغيرها من النعم بالايمان الخالص والعمل الصالح (لأزيدنكم) يعني نعمة الى نعمة ولاضاعفن لكم ما آتيتكم قيل شكر الموجود صيد المفقود وقيل لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب وأصل الشكر تصور النعمة واظهارها وحقيقته الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة * وههنا دقيقة وهي ان العبد اذا اشتغل بمطالعة أقسام نعم الله عزوجل عليه وأنواع فضله وكرمه واحسانه اليه اشتغل بشكر تلك النعمة وذلك يوجب المزيد وبذلك تتأكد محبة العبد لله عزوجل وهو مقام شريف ومقام أعلى منه وهو أن يشغله حب المنعم عن الالتفات الى النعم وهذا مقام الصديقين نسأل الله القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه واحسانه وانعامه وقوله (ولئن كفرتم) المراد بالكفر ههنا كفران النعمة وهو جحودها لانه مذكور في مقابلة الشكر (ان عذابي لشديد) يعني لمن كفر نعمتي ولايشكرها (وقال موسى ان تكفروا) يعني يابني اسرائيل (أنتم ومن في الارض جميعا) يعني والناس كلهم جميعا فانما ضرر ذلك يعود على أنفسكم بحرمانها الخير كله (فان الله لغني) يعني عن جميع خلقه (حميد) أي محمود في جميع أفعاله لانه متفضل وعادل (ألم يأتكم نبأ) يعني خبر (الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود) قال بعض المفسرين يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه والمقصود منه انه عليه الصلاة والسلام كان يخوفهم بمثل ما نزل بمن تقدم من الامم و يحتمل أن يكون خطابا من الله تعالى على لسان موسى عليه الصلاة والسلام لقومه والمقصود منه انه عليه الصلاة والسلام يذكرهم بذلك أمر القرون الماضية والامم الخالية والمقصود منه حصول العبرة بأحوال من تقدم وهلاكهم (والذين من بعدهم) يعني من بعد هؤلاء الامم الثلاثة (لايعلمهم الا الله) يعني لايعلم كنه مقاديرهم وعددهم الا الله لان علمه محيط

بكل شئ ألا يعلم من خلق وقيل المراد بقوله والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله أقوام وأمم
ما بلغنا خبرهم أصلا ومنه قوله وقرونا بين ذلك كثيرا وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه
الآية يقول كذب النسابون يعني انهم يدعون علم النسب الى آدم وقد نفى الله علم ذلك
عن العباد وعن عبد الله بن عباس انه قال بين ابراهيم وعدنان ثلاثون قرنا لا يعلمهم الا
الله وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الانسان نفسه أبا أبا الى آدم لانه لا يعلم أولئك
الآباء الا الله وقوله تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات) يعني بالدلالات الواضحات
والمعجزات الباهرات (فردوا أيديهم في أفواههم) وفي معنى الايدي والافواه قولان
أحدهما ان المراد بهما هاتان الجارحتان المعلومتان ثم في معنى ذلك وجوه قال ابن
مسعود عضوا أيديهم غيظا وقال ابن عباس لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم
الى أفواههم وقال مجاهد وقتادة كذبوا الرسل وردوا ما جاؤا به يقال رددت قول فلان
في فيه اي كذبته وقال الكلبي يعني ان الامم ردوا أيديهم الى أفواه أنفسهم يعني انهم
وضعوا الايدي على الافواه اشارة منهم الى الرسل ان اسكتوا وقال مقاتل ردوا أيديهم
على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك وقيل ان الامم لما سمعوا كلام الرسل عجبوا منه
وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل الذي غلبه
الضحك القول الثاني ان المراد بالايدي والافواه غير الجارحتين فقيل المراد بالايدي
النعم ومعناه ردوا ما لو قبلوه لكان نعمة عليهم يقال لفلان عندي يد أي نعمة والمراد
بالافواه تكذيبهم الرسل والمعنى كذبوهم بأفواههم وردوا قولهم وقيل انهم كفوا عن
قبول ما أمروا بقبوله من الحق ولم يؤمنوا به يقال فلان رد يده الى فيه اذا أمسك عن
الجواب فلم يجب وهذا القول فيه بعد لانهم قد أجابوا بالتكذيب وهو ان الامم ردوا
على رسلهم (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) يعني انا كفرنا بما زعمتم ان الله أرسلكم به
لانهم لم يقروا بانهم أرسلوا اليهم لانهم لو أقروا بأن الرسل أرسلوا اليهم لكانوا مؤمنين
(وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب) يعني يوجب الريبة أو يوقع في الريبة والتهمة
والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن الى الامر الذي يشك فيه فان قلت انهم قالوا أولا انا
كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانيا وانا لفي شك والشك دون الكفر أو داخل فيه
قلت انهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل فكأنهم حصل لهم شبهة توجب لهم الشك فقالوا
ان لم ندع الجزم في كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في ذلك (قالت رسلهم)
يعني مجيبين لاممهم (أفي الله شك) يعني هل تشكون في الله وهو استفهام انكار ونفي لما
اعتقدوه (فاطر السموات والارض) يعني وهل تشكون في كونه خالق السموات
والارض وخالق جميع ما فيهما (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) يعني ليغفر لكم ذنوبكم
اذا آمنتم وصدقتم وحرف من صلة وقيل انها أصل ليست بصلة وعلى هذا انه يغفر لهم
ما بينهم وبينه من الكفر والمعاصي دون مظالم العباد (ويؤخركم الى أجل مسمى) يعني
الى حين انقضاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب (قالوا) يعني الامم مجيبين للرسل
(ان أنتم) يعني ما أنتم (الا بشر مثلنا) يعني في الصورة الظاهرة لستم ملائكة (تريدون

(جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات
(فردوا أيديهم في أفواههم)
الضميران يعودان الى الكفرة اي
أخذوا أناملهم باسنانهم تعجبا
أو عضوا عليها تغيظا أو الثاني
يعود الى الانبياء أي رد القوم
أيديهم في أفواه الرسل كيلا
يتكلموا بما أرسلوا به (وقالوا
انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك
مما تدعوننا اليه) من الايمان بالله
والتوحيد (مريب) موقع في
الريبة (قالت رسلهم أفي الله شك)
أدخلت همزة الانكار على الظرف
لان الكلام ليس في الشك انما
هو في المشكوك فيه وانه لا يحتمل
الشك لظهور الادلة وهو جواب
قولهم وانا لفي شك (فاطر
السموات والارض يدعوكم) الى
الايمان (ليغفر لكم من ذنوبكم)
اذا آمنتم ولم تجئ مع من الا في
خطاب الكافرين كقوله واتقوه
وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم
يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا
به يغفر لكم من ذنوبكم وقال في
خطاب المؤمنين هل أدلكم على
تجارة الى أن قال يغفر لكم
ذنوبكم وغير ذلك مما يعرف
بالاستقراء وكان ذلك للتفرقة
بين الخطابين ولئلا يسوي بين
الفريقين في الميعاد (ويؤخركم
الى أجل مسمى) الى وقت قد سماه
وبين مقداره (قالوا) اي القوم
(ان أنتم) ما أنتم (الا بشر مثلنا)
لا فضل بيننا وبينكم ولا فضل
لكم علينا فلم تختصون بالنبوة
دوننا (تريدون

أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) يعني الاصنام (فأتونا بسلطان مبين) بحجة بينة وقد جاءتهم رسلهم بالبينات وانما أرادوا
بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتا ولجاجا (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم) تسليم لقولهم انهم بشر مثلهم
(ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) بالايمان والنبوة كما من علينا (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله) جواب
لقولهم فأتونا بسلطان مبين والمعنى أن الاتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس الينا ولا في استطاعتنا وانما هو أمر
يتعلق بمشيئة الله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا كأنهم قالوا ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وايذائكم ألا ترى الى قوله (ومالنا ألا نتوكل على الله) معناه وأي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه (وقد هدانا سبلنا) وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو التوفيق لهداية كل منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين قال أبو تراب التوكل طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والشكر عند العطاء والصبر عند البلاء (ولنصبرن على ما آذيتمونا) جواب قسم مضمر أي حلفوا على الصبر على اذاهم وأن لا يمسكوا عن دعائهم (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) أي فليثبت المتوكلون على توكلهم حتى لا يكون تكرارا (وقال الذين كفروا لرسلهم) سبيلنا الرسلهم أبو عمرو (لنخرجنكم من أرضنا) من ديارنا (أو لتعودن في ملتنا) أي
ليكونن أحد الامرين اخراجكم أو عودكم وحلفوا على ذلك والعود بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب الى،
أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن معه فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين)
القول مضمر او اجرى الايحاء مجرى القول لانه ضرب منه (ولنسكننكم الارض من بعدهم) أي أرض الظالمين وديارهم
في الحديث من آذى جاره ورثه الله داره (ذلك) الاهلاك والاسكان أي ذلك الامر حق (لمن خاف مقامي) موقفي وهو موقف
الحساب أو المقام مقحم أو خاف قيامي عليه بالعلم كقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت والمعنى ان ذلك حق للمتقين

أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) يعني ما تريدون بقولكم هذا الا صدنا عن آلهتنا التي
كان آباؤنا يعبدونها (فأتونا بسلطان مبين) يعني بحجة بينة واضحة على صحة دعواكم (قالت
لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم) يعني ان الكفار لما قالوا لرسلهم ان أنتم الا بشر
مثلنا قالت لهم رسلهم مجيبين لهم هب ان الامر كما قلتم ووصفتم فنحن بشر مثلكم
لا ننكر ذلك (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) يعني بالنبوة والرسالة فيصطفي من
يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن
الله) يعني وليس لنا مع ما خصنا الله به من النبوة وشرفنا به من الرسالة أن نأتيكم بآية
وبرهان ومعجزة تدل على صدقنا الا باذن الله لنا في ذلك (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)
يعني في دفع شرور أعدائهم عنهم (ومالنا أن لا نتوكل على الله) يعني ان الانبياء قالوا أيضا
قد عرفنا انه لا يصيبنا شيء الا بقضاء الله وقدره فنحن نثق به ونتوكل عليه في دفع شروركم
عنا (وقد هدانا سبلنا) يعني وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد (ولنصبرن) اللام
لام القسم تقديره والله لنصبرن (على ما آذيتمونا) يعني به من قول أو فعل (وعلى الله
فليتوكل المتوكلون) فان قلت كيف كرر الامر بالتوكل وهل من فرق بين التوكلين قلت
نعم التوكل الاول فيه اشارة الى استحداث التوكل والتوكل الثاني فيه اشارة الى السعي
في التثبيت على ما استحدثوا من توكلهم وابقائه وادامته فحصل الفرق بين التوكلين
قوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) يعني
ليكونن أحد الامرين اما اخراجكم أيها الرسل من بلادنا وأرضنا واما عودكم في ملتنا
فان قلت هذا يوهم بظاهره انهم كانوا على ملتهم في أول الامر حتى يعودوا فيها قلت معاذ
الله ولكن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب وفيه وجه آخر وهو ان
الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم فلما أرسلوا اليهم
أظهروا مخالفتهم ودعوهم الى الله فقالوا لهم لتعودن في ملتنا ظنا منهم انهم كانوا على
ملتهم ثم خالفوهم واجماع الامة على ان الرسل من أول الامر انما نشؤوا على التوحيد
لا يعرفون غيره (فأوحى اليهم ربهم) يعني ان الله تعالى أوحى الى رسله وأنبيائه بعد هذه
المخاطبات والمحاورات (لنهلكن الظالمين) يعني ان عاقبة أمرهم الى الهلاك فلا
تخافوهم (ولنسكننكم الارض من بعدهم) يعني من بعد هلاكهم (ذلك) يعني ذلك
الاسكان (لمن خاف مقامي) يعني خاف مقامه بين يدي يوم القيامة فأضاف قيام العبد

الى نفسه لان العرب قد تضيف أفعالها الى أنفسها كقولهم ندمت على ضربي اياك وندمت على ضربك مثله (وخاف وعيد) أي وخاف عذابي قوله عز وجل (واستفتحوا) يعني واستنصروا قال ابن عباس يعني الامم وذلك أنهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا وقال مجاهد وقتادة واستفتح الرسل على أممهم وذلك أنهم لما أيسوا من ايمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب (وخاب) يعني وخسر وقيل هلك (كل جبار عنيد) والجبار في صفة الانسان يقال لمن تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهو صفة ذم في حق الانسان وقيل الجبار الذي لا يرى فوقه أحدا وقيل الجبار المتعظم في نفسه المتكبر على أقرانه والعنيد المعاند للحق ومجانبه قاله مجاهد وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذي يأبى أن يقول لا اله الا الله وقيل العنيد هو المعجب بما عنده وقيل العنيد الذي يعاند ويخالف (من ورائه جهنم) يعني هي أمامه وهو صائر اليها قال أبو عبيدة هو من الاضداد يعني انه يقال وراء بمعنى خلف وبمعنى أمام وقال الاخفش هو كما يقال هذا الامر من ورائك يعني انه سيأتيك (ويسقى) يعني في جهنم (من ماء صديد) وهو ما سال من الجلد واللحم من القيح جعل ذلك شراب أهل النار وقال محمد بن كعب القرظي هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر وهو قوله (يتجرعه) اي يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة بعد جرعة لمرارته وحرارته وكراهته ونتنه (ولا يكاد يسيغه) اي لا يقدر على ابتلاعه يقال ساغ الشراب في الحلق اذا سهل انحداره فيه قال بعض المفسرين ان يكاد صلة والمعنى يتجرعه ولا يسيغه وقال صاحب الكشاف دخلت يكاد للمبالغة يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الاساغة وقال بعضهم ولا يكاد يسيغه اي يسيغه بعد ابطاء لان العرب تقول ما كدت أقوم اي قمت بعد ابطاء فعلى هذا كاد على أصلها وليست بصلة وقال ابن عباس معناه لا يجيزه وقيل معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلي في جوفه عن أبي امامة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه قال يقرب الى فيه فيكرهه فاذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فاذا شرب قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره قال وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم وقال وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قوله وقعت فروة رأسه اي جلدة رأسه وانما شبهها بالفروة للشعر الذي عليها وقوله تعالى (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) يعني ان الكافر يجد ألم الموت وشدته من كل مكان من أعضائه وقال ابراهيم التيمي حتى من تحت كل شعرة من جسده وقيل يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وما هو بميت فيستريح وقال ابن جريج تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة (ومن ورائه) يعني أمامه (عذاب غليظ) أي شديد قيل هو الخلود في النار

قوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف)

(وخاب كل جبار) وخسر كل متكبر بطر (عنيد) مجانب للحق معناه فنصروا وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم وقيل الضمير للكفار ومعناه واستفتح الكفار على الرسل ظنا منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه (من ورائه) من بين يديه (جهنم) وهذا وصف حاله وهو في الدنيا لانه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه وهو على شفيرها أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف (ويسقى) معطوف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى (من ماء صديد) ما يسيل من جلود أهل النار وصديد عطف بيان لماء لانه مبهم فبين بقوله صديد (يتجرعه) يشربه جرعة جرعة (ولا يكاد يسيغه) ولا يقارب ان يسيغه فكيف تكون الاساغة كقوله لم يكد يراها أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها (ويأتيه الموت من كل مكان) أي أسباب الموت من كل جهة أو من كل مكان من جسده وهذا تفظيع لما يصيبه من الآلام أي لو كان ثمة موت لكان كل واحد منها مهلكا (وما هو بميت) لانه لو مات لاستراح (ومن ورائه) ومن بين يديه (عذاب غليظ) أي في كل وقت يستقبله يتلقى عذابا أشد مما قبله وأغلظ وعن الفضيل هو قطع الانفاس وحبسها في الاجساد (مثل الذين) مبتدأ محذوف الخبر أي فيما يتلى عليكم مثل الذين (كفروا بربهم) والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله (أعمالهم كرماد) جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد (اشتدت به الريح) الرياح مدني (في يوم عاصف)

وعتق الرقاب وفداء الاسرى وعقر الابل للاضياف وغير ذلك شبهها في حبوطها لبنائها على غير أساس وهو الايمان بالله تعالى برماد طيرته الريح العاصف (لا يقدرون) يوم القيامة (مما كسبوا) من أعمالهم (على شئ) أى لا يرون له أثرا من ثواب كالا يقدر من الرماد المطير في الريح على شئ (ذلك هو الضلال البعيد) اشارة الى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب (ألم تر) ألم تعلم الخطاب لكل احد (أن الله خلق السموات والارض) خالق مضافا حمزة وعلى (بالحق) بالحكمة والامر العظيم ولم يخلقها عبثا (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) أى هو قادر على ان يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقا آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم اعلاما بانه قادر على اعدام الموجود وايجاد المعدوم (وما ذلك على الله بعزيز) بمتعذر (وبرزوا لله جميعا) ويبرزون يوم القيامة وانما جيء به بلفظ الماضي لان ما أخبر به عز وجل لصدقه كأنه قد كان ووجد ونحوه ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب النار وغير ذلك ومعنى بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شئ حتى يبرز له انهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا ان الله لا تخفى عليه خافية أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه وان

هذا كلام مستأنف منقطع عما قبله وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره فيما نقص أو فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا والمثل مستعار للقصة التي فيها غرابة وقوله أعمالهم كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقال أعمالهم كرماد وقال المفسرون والفراء مثل أعمال الذين كفروا بربهم فحذف المضاف اعتمادا على ما ذكره بعد المضاف اليه وقيل يحتمل أن يكون المعنى صفة الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد كقولك في صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول والرماد معروف وهو ما سقط من الحطب والفحم بعد احراقه بالنار اشتدت به الريح يعني فنسفته وطيرته ولم تبق منه شيأ في يوم عاصف وصف اليوم بالعصوف والعصوف من صفة الريح لان الريح تكون فيه كقولك يوم بارد وحار وليلة ماطرة لان البرد والحر والمطر توجد فيهما وقيل معناه في يوم عاصف الريح فحذف الريح لانه قد تقدم ذكرها وهذا مثل ضربه الله تعالى لاعمال الكفار التي لم ينتفعوا بها ووجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الاعمال هو ان الريح العاصف تطير الرماد وتذهب به وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى منها شئ وكذلك أعمال الكفار تبطل وتذهب بسبب كفرهم وشركهم حتى لا يبقى منها شئ ثم اختلفوا في هذه الاعمال ما هي فقيل هي ما عملوه من أعمال الخير في حال الكفر كالصدقة وصلة الارحام وفك الاسير وقرى الضيف وبر الوالدين ونحو ذلك من أعمال البر والصلاح فهذه الاعمال وان كانت أعمال بر لكنها لا تنفع صاحبها يوم القيامة بسبب كفره لان كفره أحبطها وأبطلها كلها وقيل المراد بالاعمال عبادتهم الاصنام التي ظنوا انها تنفعهم فبطلت وحبطت ولم تنفعهم البتة ووجه خسرانهم انهم اتعبوا ابدانهم في الدهر الطويل لكي ينتفعوا بها فصارت وبالا عليهم وقيل أراد بالاعمال الاعمال التي عملوها في الدنيا واشركوا فيها غير الله فانها لا تنفعهم لانها صارت كالرماد الذي ذرته الرياح وصار هباء لا ينتفع به وهو قوله تعالى (لا يقدرون مما كسبوا) يعني في الدنيا (على شئ) يعني من تلك الاعمال والمعنى انهم لا يجدون ثواب أعمالهم في الآخرة (ذلك هو الضلال البعيد) يعني ذلك الخسران الكبير لان اعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها والبعيد هنا الذي لا يرجى عوده (ألم تر ان الله خلق السموات والارض بالحق) يعني لم يخلقهما باطلا ولا عبثا وانما خلقهما لامر عظيم وغرض صحيح (ان يشأ يذهبكم) يعني أيها الناس (ويأت بخلق جديد) يعني سواكم أطوع لله منكم والمعنى ان الذي قدر على خلق السموات والارض قادر على افناء قوم واماتتهم وايجاد خلق آخر سواهم لان القادر لا يصعب عليه شئ قيل هذا خطاب لكفار مكة يريد يميتكم يا معشر الكفار ويخلق قوما غيركم خيرا منكم وأطوع (وما ذلك على الله بعزيز) يعني بممتنع لان الاشياء كلها سهلة على الله وان جلت وعظمت قوله عز وجل (وبرزوا لله جميعا) يعني وخرجوا من قبورهم الى الله ليحاسبهم ويجازيهم على قدر أعمالهم والبراز الفضاء وبرز حصل في البراز وذلك ان يظهر بذاته كلها والمعنى وخرجوا من قبورهم وظهروا الى الفضاء وأورد بلفظ الماضي

(فقال الضعفاء) فى الرأى وهم السفلة والاتباع وكتب الضعفاء بواو قبل الهمزة على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة فيميلها الى الواو (للذين استكبروا) وهم السادة والرؤساء الذين استغووهم وصدوهم عن الاستماع الى الانبياء واتباعهم (انا كنا لكم تبعا) تابعين جمع تابع على تبع كخادم وخدم وغائب وغيب أو ذوى تبع والتبع الاتباع يقال تبعه تبعا (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ) فهل تقدرون على دفع شئ مما نحن فيه ومن الاولى للتبيين ٩٩ والثانية للتبعيض كانه قيل فهل أنتم مغنون عنا بعض الشئ الذى هو عذاب الله أوهما للتبعيض أى فهل أنتم مغنون عنا بعض شئ هو بعض عذاب الله ولما كان قول الضعفاء توبيخا لهم وعتابا على استغوائهم لانهم علموا انهم لا يقدرون على الاغناء عنهم (قالوا) لهم مجيبين معتذرين (لو هدانا الله لهديناكم) أى لو هدانا الله الى الايمان فى الدنيا لهديناكم اليه أى لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أى لاغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) مستويان علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية روى انهم يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر ثم يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا واتصاله بما قبله من حيث ان عتابهم لهم كان جزعا مما هم فيه فقالوا لهم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا يريدون أنفسهم واياهم لاجتماعهم فى عقاب الضلالة التى كانوا مجتمعين فيها يقولون ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة فى الجزع كما لا فائدة فى الصبر (ما لنا من محيص) منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعا (وقال الشيطان لما قضى الامر) حكم بالجنة والنار لاهليهما وفرغ من الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وروى ان الشيطان يقوم عند ذلك خطيبا على منبر من نار فيقول لاهل النار (ان الله وعدكم وعد الحق) وهو البعث والجزاء على الاعمال فوفى لكم بما وعدكم (ووعدتكم) بان لا بعث ولا حساب ولا جزاء (فاخلفتكم) كذبتكم (وما كان لى عليكم من سلطان) من تسلط واقتدار

وان كان معناه الاستقبال لان كل ما أخبر الله عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة فصار كأنه قد حصل ودخل فى الوجود (فقال الضعفاء) يعنى الاتباع (للذين استكبروا) وهم القادة والرؤساء (انا كنا لكم تبعا) يعنى فى الدين والاعتقاد (فهل أنتم) يعنى فى هذا اليوم (مغنون عنا) يعنى دافعون عنا (من عذاب الله من شئ) من هنا للتبعيض والمعنى هل تقدرون على ان تدفعوا عنا بعض عذاب الله الذى حل بنا (قالوا) يعنى الرؤساء والقادة والمتبوعون للتابعين (لو هدانا الله لهديناكم) يعنى لو أرشدنا الله لارشدناكم ودعوناكم الى الهدى ولكن لما أضلنا دعوناكم الى الضلالة (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) يعنى مستويان علينا الجزع والصبر والجزع أبلغ من الحزن لانه يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه (ما لنا من محيص) يعنى من مهرب ولا منجاة مما نحن فيه من العذاب قال مقاتل يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص وقال محمد بن كعب القرظى بلغنى ان أهل النار يستغيثون بالخزنة كما قال الله وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم وقالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة وقالوا ادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما واليوم كألف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم ماكثون فلما يئسوا مما عنده قال بعضهم لبعض تعالوا فلنصبر كما صبر اهل الطاعة لعل ذلك ينفعنا فصبروا وطال صبرهم فلم ينفعهم وجزعوا فلم ينفعهم فعند ذلك قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص قوله تعالى (وقال الشيطان) يعنى ابليس (لما قضى الامر) يعنى لما فرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يأخذ أهل النار فى لوم ابليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيها خطيبا قال مقاتل يوضع له منبر فى النار فيجتمع عليه أهل النار يلومونه فيقول لهم ما أخبر الله عنه بقوله (ان الله وعدكم وعد الحق) فيه اضمار تقديره فصدق فى وعده (ووعدتكم فأخلفتكم) يعنى الوعد وقيل يقول لهم انى قلت لكم لا بعث ولا جنة ولا نار (وما كان لى عليكم من سلطان) يعنى من ولاية وقهر وقيل لم آتكم بحجة فيما وعدتكم به

(الا أن دعوتكم) لكني دعوتكم الى الضلالة بوسوستي وتزييني والاستثناء منقطع لان الدعاء ليس من جنس السلطان
(فاستجبتم لي) فاسرعتم اجابتي (فلا تلوموني) لان من تجرد للعداوة لا يلام اذا دعا الى أمر قبيح مع ان الرحمن قد قال لكم
لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة (ولوموا أنفسكم) حيث اتبعتموني بلا حجة ولا برهان وقول المعتزلة هذا دليل
على ان الانسان هو الذي يختار الشقاوة • ١٠٠ • أو السعادة ويحصلها لنفسه وليس من الله الا التمكين ولا من الشيطان
الا التزيين باطل لقوله لو هدانا
الله أي الى الايمان لهديناكم كما
مر (ما أنا بمصرخكم وما أنتم
بمصرخي) لا ينجي بعضنا بعضا من
عذاب الله ولا يغيثه والاصراخ
الاغاثة بمصرخي حمزة اتباعا للهاء
غيره بفتح الياء لئلا تجتمع
الكسرة والياآن بعد كسرتين
وهو جمع مصرخ فالياء الاولى
ياء الجمع والثانية ضمير المتكلم (اني
كفرت بما أشركتمون) وبالياء
بصري وما مصدرية (من قبل)
متعلق باشركتموني أي كفرت
اليوم باشراككم اياي مع الله
من قبل هذا اليوم أي في الدنيا
كقوله ويوم القيامة يكفرون
بشرككم ومعنى كفره باشراكهم
اياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله
انا برآء منكم ومما تعبدون من
دون الله كفرنا بكم أو من قبل
متعلق بكفرت وما موصولة أي
كفرت من قبل حين أبيت
السجود لآدم بالذي اشركتمونيه
وهو الله عز وجل تقول اشركني
فلان أي جعلني له شريكا ومعنى
اشراكهم الشيطان بالله طاعتهم
له فيما كان يزينه لهم من عبادة الاوثان وهذا آخر قول الشيطان وقوله (ان الظالمين لهم عذاب أليم)
قول الله عز وجل وقيل هو من تمام كلام ابليس وانما حكى الله عز وجل ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفا للسامعين
(وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها) عطف على برزوا (باذن ربهم) متعلق بادخل
أي أدخلتهم الملائكة الجنة باذن الله وأمره (تحيتهم فيها سلام) هو تسليم بعضهم على بعض في الجنة أو تسليم الملائكة عليهم
(ألم تر كيف ضرب الله مثلا) أي وصفه وبينه

(الا أن دعوتكم) هذا استثناء منقطع معناه لكن دعوتكم (فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) يعني ما كان مني الا الدعاء والقاء الوسوسة وقد سمعتم دلائل الله وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا الي ولا تسمعوا قولي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى باجابتي ومتابعتي من غير حجة ولا دليل (ما أنا بمصرخكم) يعني بمغيثكم ولا منقذكم (وما أنتم بمصرخي) يعني بمغيثي ولا منقذي مما أنا فيه (اني كفرت بما أشركتمون من قبل) يعني كفرت بجعلكم اياي شريكا لله في عبادته وتبرأت من ذلك والمعنى ان ابليس جحد ما يعتقده الكفار فيه من كونه شريكا لله وتبرأ من ذلك (ان الظالمين لهم عذاب أليم) روى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة وذكر الحديث الى قوله فيأتوني فيأذن الله لي ان أقوم فيثور من مجلسي أطيب ريح شمها أحد حتى آتي ربي فيشفعني ويجعل لي نورا من شعر رأسي الى ظهر قدمي ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير ابليس هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فانك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه انتن ريح شمها أحد ثم تعظم جهنم ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الآية وقوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار) لما شرح الله عز وجل حال الكفار الاشقياء بما تقدم من الآيات الكثيرة شرح أحوال المؤمنين السعداء وما أعد لهم في الآخرة من الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك ان الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم والمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار وكونها دائمة أشير اليه بقوله (خالدين فيها) والتعظيم حصل من وجهين أحدهما قوله (باذن ربهم) لان تلك المنافع انما كانت تفضلا من الله بانعامه الثاني قوله (تحيتهم فيها سلام) فيحتمل ان بعضهم يحيي بعضا بهذه الكلمة أو الملائكة تحييهم بها أو الرب سبحانه وتعالى يحييهم بها ويحتمل أن يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع الآفات لان السلام مشتق من السلامة قوله عز وجل (ألم تر كيف ضرب الله مثلا) لما شرح الله عز وجل أحوال الاشقياء وأحوال السعداء ضرب مثلا فيه حكم هذين القسمين فقال تعالى الم تر أي بعين قلبك فتعلم علم يقين باعلامي اياك فعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره فيه ويحتمل أن يكون

الخطاب

الخطاب فيه لكل فرد من الناس فيكون المعنى ألم تر أيها الانسان كيف ضرب الله مثلا يعني بين شبها والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليتبين أحدهما من الآخر ويتصور وقيل هو قول سائر لتشبيه شيء بشيء آخر (كلمة طيبة) هي قول لا اله الا الله في قول ابن عباس وجمهور المفسرين (كشجرة طيبة) يعني كشجرة طيبة الثمر قال ابن عباس هي النخلة وبه قال ابن مسعود وأنس ومجاهد وعكرمة والضحاك (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اخبروني عن شجرة تشبه الرجل أو قال كالرجل المسلم لا يتحات ورقها تؤتي أكلها كل حين قال ابن عمر فوقع في نفسي انها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت ان أتكلم فلما لم يقولوا شيأ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هي النخلة قال فلما قمنا قلت لعمر يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي انها النخلة فقال ما منعك ان تتكلم فقلت لم أركم تتكلمون فكرهت ان اتكلم أو أقول شيأ فقال عمر لان تكون قلتها أحب الي من كذا وكذا وفي رواية ان من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وانها مثل المسلم فحدثوني ما هي فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله بن عمر ووقع في نفسي انها النخلة فاستحييت ان اتكلم ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله قال هي النخلة وفي رواية عن ابن عباس انها شجرة في الجنة وفي رواية أخرى عنه انها المؤمن وقوله (أصلها ثابت) يعني في الارض (وفرعها) يعني اعلاها (في السماء) يعني ذاهبة في السماء (تؤتي أكلها) يعني ثمرها (كل حين باذن ربها) يعني بامر ربها والحين في اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقداره ههنا فقال مجاهد وعكرمة الحين ههنا سنة كاملة لان النخلة تثمر في كل سنة مرة واحدة وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن ستة أشهر يعني من وقت طلعها الى حين صرامها وروي ذلك عن ابن عباس أيضا وقال علي بن أبي طالب ثمانية أشهر يعني ان مدة حملها باطنا وظاهرا ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر من حين ظهور حملها الى ادراكها وقال سعيد بن المسيب شهران يعني من وقت ان يؤكل منها الى صرامها وقال الربيع بن أنس كل حين يعني غدوة وعشية لان ثمر النخل يؤكل أبدا ليلا ونهارا وصيفا وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس الى حين الطري الرطب فأكلها دائم في كل وقت قال العلماء ووجه الحكمة في تمثيل هذه الكلمة التي هي كلمة الاخلاص وأصل الايمان بالنخلة حاصل من أوجه أحدها ان كلمة الاخلاص شديدة الثبوت في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الارض الوجه الثاني ان هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن الى السماء كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وكذلك فرع النخلة الذي هو عال في السماء الوجه الثالث ان ثمر النخلة يأتي في كل حين ووقت وكذلك ما يكسبه المؤمن من الأعمال الصالحة في كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة فالمؤمن كلما قال لا اله الا الله صعدت الى السماء وجاءته بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها الوجه الرابع ان النخلة شبيهة بالانسان في غالب الامر لانها خلقت من فضلة طينة آدم وانها اذا قطع رأسها تموت كالآدمي بخلاف سائر الشجر فانه اذا قطع نبت وانها لا تحمل حتى تلقح بطلع الذكر الوجه

(كلمة طيبة) نصب بمضمر أي جعل كلمة طيبة (كشجرة طيبة) وهو تفسير لقوله ١٠١ ضرب الله مثلا نحو شرف الأمير زيدا كساه حلة وحمله على فرس أو انتصب مثلا وكلمة بضرب أي ضرب كلمة طيبة مثلا يعني جعلها مثلا ثم قال كشجرة طيبة على أنها خبر مبتدا محذوف أي هي كشجرة طيبة (أصلها ثابت) أي في الارض ضارب بعروقه فيها (وفرعها) واعلاها ورأسها (في السماء) والكلمة الطيبة كلمة التوحيد أصلها تصديق بالجنان وفرعها اقرار باللسان وأكلها عمل الاركان وكما ان الشجرة شجرة وان لم تكن حاملا فالمؤمن مؤمن وان لم يكن عاملا ولكن الاشجار لا تراد الا للثمار فما أقوات النار الا من الاشجار اذا اعتادت الاخفار في عهد الاثمار والشجرة كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين ونحو ذلك والجمهور على انها النخلة فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فاخبروني ما هي فوقع الناس في شجر البوادي وكنت صبيا فوقع في قلبي انها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أقولها وأنا أصغر القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انها النخلة فقال عمر يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب الي من حمر النعم (تؤتي أكلها كل حين) تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لاثمارها (باذن ربها) بتيسير خالقها وتكوينه

الخامس في وجه الحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة على الإطلاق لأن الشجرة لا تسمى شجرة
إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل ثابت وفرع قائم وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء
تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان وقوله سبحانه وتعالى (ويضرب الله الأمثال
للناس لعلهم يتذكرون) يعني أن في ضرب الأمثال زيادة في الأفهام وتصوير للمعاني
وتذكيرا ومواعظ لمن تذكر واتعظ قوله تعالى (ومثل كلمة خبيثة) وهو الشرك (كشجرة
خبيثة) يعني الحنظل قاله أنس بن مالك ومجاهد وفي رواية عن ابن عباس أنها الكشوث
وعنه أيضا أنها الثوم وعنه أيضا أنه الكافر لأنه لا يقبل عمله فليس له أصل ثابت ولا يصعد
إلى السماء (اجتثت) يعني استؤصلت وقطعت (من فوق الأرض ما لها من قرار) يعني ما
لهذه الشجرة من ثبات في الأرض لأنه ليس لها أصل ثابت في الأرض ولا فرع صاعد
إلى السماء كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح ولا لاعتقاده أصل
ثابت فهذا وجه تمثيل الكافر بهذه الشجرة الخبيثة عن أنس قال أتي رسول الله صلى الله
عليه وسلم بقناع عليه رطب فقال مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في
السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها قال هي النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة
اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار قال هي الحنظلة أخرجه الترمذي مرفوعا
وموقوفا وقال الموقوف أصح قوله سبحانه وتعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت)
لما وصف الله الكلمة الطيبة في الآية المتقدمة أخبر في هذه الآية أنه يثبت الذين آمنوا
بالقول الثابت والقول الثابت هي الكلمة الطيبة وهي شهادة أن لا إله إلا الله في قول
جمهور المفسرين ولما وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة بكلمة الشرك قال في
هذه الآية ويضل الله الظالمين يعني بالكلمة الخبيثة وهي كلمة الشرك في قول جميع
المفسرين وقوله (في الحياة الدنيا) يعني في القبر عند السؤال (وفي الآخرة) يعني يوم
القيامة عند البعث والحساب وهذا القول واضح ويدل عليه ما روي عن البراء بن عازب
قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله
إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة
الدنيا وفي الآخرة قال نزلت في عذاب القبر زاد في رواية يقال له من ربك فيقول ربي الله
ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه البخاري ومسلم (ق) عن أنس أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم
إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد فأما
المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به
مقعدا من الجنة قال النبي صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة ذكر لنا أنه يفسح له
في قبره ثم رجع إلى حديث أنس وأما المنافق وفي رواية وأما الكافر فيقول لا أدري كنت
أقول ما يقول الناس فيه فيقال لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة
بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين لفظ البخاري ولمسلم بمعناه زاد في رواية
أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا إلى يوم يبعثون وأخرجه أبو داود عن

(ويضرب الله الأمثال للناس
لعلهم يتذكرون) لأن في ضرب
الأمثال زيادة إفهام وتذكير
وتصوير للمعاني (ومثل كلمة
خبيثة) هي كلمة الكفر (كشجرة
خبيثة) هي كل شجرة لا يطيب
ثمرها وفي الحديث أنها شجرة
الحنظل (اجتثت من فوق
الأرض) استؤصلت جثتها
وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة
كلها وهو في مقابلة أصلها ثابت
(ما لها من قرار) أي استقرار
يقال قر الشيء قرارا كقولك ثبت
ثباتا شبه بها القول الذي لم تعضد
بحجة فهو داحض غير ثابت
(يثبت الله الذين آمنوا) أي
يديمهم عليه (بالقول الثابت)
هو قول لا إله إلا الله محمد رسول
الله (في الحياة الدنيا) حتى
إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا كما ثبت
الذين فتنهم أصحاب الأخدود
وغيرهم (وفي الآخرة) الجمهور
على أن المراد به في القبر بتلقين
الجواب وتمكين الصواب فعن
البراء أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال
ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه
ملكان فيجلسانه في قبره فيقولان
له من ربك وما دينك ومن نبيك
فيقول ربي الله وديني الإسلام
ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم
فينادي مناد من السماء أن صدق
عبدي فذلك قوله يثبت الله الذين
آمنوا بالقول الثابت ثم يقولان
الملكان عشت سعيدا ومت حميدا
نم نومة العروس

أنس قال وهذا لفظه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا وضع فى قبره أتاه
ملك فيقول ما كنت تعبد فان هداه الله قال كنت أعبد الله فيقول له ما كنت تقول فى
هذا الرجل فيقول هو عبد الله ورسوله فلا يسئل عن شئ بعدها فينطلق به الى بيت كان له
فى النار فيقال له هذا كان مقعدك ولكن عصمك الله فأبدلك به بيتا فى الجنة فيراه فيقول
دعونى حتى أذهب فأبشر أهلى فيقال له اسكن وان الكافر والمنافق اذا وضع فى قبره أتاه
ملك فينتهره فيقول ما كنت تعبد فيقول لا أدرى فيقال له لا دريت ولا تليت فيقال له
ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول كنت أقول ما يقول الناس فيه فيضربه بمطراق من
حديد بين اذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين وأخرجه النسائى أيضا عن أبى
هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قبر الميت أو قال اذا قبر أحدكم أتاه ملكان
أسودان أزرقان يقال لاحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان ما كنت تقول فى هذا
الرجل فيقول كنت أقول هو عبد الله ورسوله اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده
ورسوله فيقولان قد كنا نعلم انك تقول هذا ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين ثم ينور له فيه ثم
يقال له نم فيقول ارجع الى أهلى فأخبرهم فيقولان نم كنومة العروس الذى لا يوقظه
الا أحب أهله اليه حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك وان كان منافقا فيقول سمعت
الناس يقولون قولا فقلت مثلهم لا أدرى فيقولان قد كنا نعلم انك كنت تقول ذلك فيقال
للارض التئمى عليه فتلتئم عليه فتختلف اضلاعه فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من
مضجعه ذلك أخرجه الترمذى عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم فى جنازة رجل من الانصار فانتهينا الى القبر ولما يلحد بعد فجلس رسول الله صلى الله
عليه وسلم وجلسنا حوله كأنما على رؤسنا الطير وبيده عود ينكت به فى الارض فرفع
رأسه صلى الله عليه وسلم فقال تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا زاد فى رواية
وقال ان الميت ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حين يقال له يا هذا من ربك وما دينك
ومن نبيك وفى رواية يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول الله ربى فيقولان
له وما دينك فيقول دينى الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هو
رسول الله فيقولان وما يدريك فيقول قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت زاد فى رواية
فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة ثم اتفقا قال
فينادى مناد من السماء ان صدق عبدى فافرشوه من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة
فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره وان كان الكافر فذكر موته قال فتعاد
روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدرى
فيقولان ما دينك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول
هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء ان قد كذب عبدى فافرشوه من النار وألبسوه
من النار وافتحوا له بابا الى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف
فيه اضلاعه زاد فى رواية ثم يقيض له أعمى أبكم أصم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها
جبلا لصار ترابا فيضربه بها ضربة يسمعها من بين المشرق والمغرب الا الثقلين فيصير ترابا

ثم تعاد فيه الروح أخرجه أبو داود عن عثمان بن عفان قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال استغفروا لاخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسئل أخرجه أبو داود وعن عبد الرحمن بن شماسة المهري قال حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت فبكى بكاء طويلا وحول وجهه الى الجدار وجعل ابنه يقول ما يبكيك يا أبتاه اما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا فأقبل بوجهه وقال ان أفضل ما نعد شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وذكر الحديث بطوله وفيه فاذا انا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار فاذا دفنتموني فشنوا على التراب شنا ثم اقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى استأنس بكم وانظر ماذا اراجع به رسل ربي أخرجه مسلم بزيادة طويلة فيه قيل المراد من التثبيت بالقول الثابت هو ان الله تعالى انما يثبتهم في القبر بسبب كثرة مواظبتهم على شهادة الحق في الحياة الدنيا وحبهم اهلها فمن كانت مواظبته على شهادة الاخلاص أكثر كان رسوخها في قلبه أعظم فينبغي للعبد المسلم ان يكثر من قول لا اله الا الله محمد رسول الله في جميع حالاته من قيامه وقعوده ونومه ويقظته وجميع حركاته وسكناته فلعل الله عز وجل ان يرزقه ببركة مواظبته على شهادة الاخلاص التثبيت في القبر ويسهل عليه جواب الملكين بما فيه خلاصه من عذاب الآخرة نسأل الله التثبيت في القبر وحسن الجواب وتسهيله بفضله ومنه وكرمه واحسانه انه على كل شئ قدير وقوله تعالى (ويضل الله الظالمين) يعني ان الله تعالى لا يهدي المشركين الى الجواب بالصواب في القبر (ويفعل الله ما يشاء) يعني من التوفيق والخذلان والهداية والاضلال والتثبيت وتركه لا اعتراض عليه في جميع أفعاله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون قوله عز وجل (ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا) (خ) عن ابن عباس في قوله ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا قال هم كفار مكة وفي رواية قال هم والله كفار قريش قال عمرو هم قريش ونعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم (وأحلوا قومهم دار البوار) قال النار يوم بدر وعن علي رضي الله عنه قال هم كفار قريش نحروا يوم بدر وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الافجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فقد كفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فقد متعوا الى حين فقوله بدلوا نعمة الله كفرا معناه ان الله تعالى لما أنعم على قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم فأرسله اليهم وأنزل عليه كتابه ليخرجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان اختاروا الكفر على الايمان وغيروا نعمة الله عليهم وقيل يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله عليهم كفرا لانهم لما وجب عليهم الشكر بسبب هذه النعمة أتوا بالكفر فكأنهم غيروا الشكر وبدلوه بالكفر وأحلوا قومهم يعني من تبعهم على دينهم وكفرهم دار البوار يعني دار الهلاك ثم فسرها بقوله تعالى (جهنم يصلونها وبئس القرار) يعني المستقر (وجعلوا لله أندادا) يعني أمثالا وأشباها من الاصنام وليس لله تعالى ند ولا شبيه ولا مثيل تعالى الله عن الند والشبيه والمثيل علوا كبيرا (ليضلوا عن سبيله) يعني ليضلوا الناس عن طريق الهدى ودين الحق (قل تمتعوا) أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار تمتعوا في الدنيا أياما قلائل (فان مصيركم الى النار) يعني في الآخرة قوله تعالى

(ويضل الله الظالمين) فلا يثبتهم على القول الثابت في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شئ وهم في الآخرة أضل وأزل (ويفعل الله ما يشاء) فلا اعتراض عليه في تثبيت المؤمنين واضلال الظالمين (ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله) أي شكر نعمة الله (كفرا) لان شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا فكأنهم غيروا الشكر الى الكفر وبدلوه تبديلا وهم أهل مكة أكرمهم بمحمد عليه السلام فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر (وأحلوا قومهم) الذين تابعوهم على الكفر (دار البوار) دار الهلاك (جهنم) عطف بيان (يصلونها) يدخلونها (وبئس القرار) وبئس المقر جهنم (وجعلوا لله أندادا) أمثالا في العبادة أو في التسمية (ليضلوا عن سبيله) وبفتح الياء مكي وأبو عمرو (قل تمتعوا) في الدنيا والمراد به الخذلان والتخلية وقال ذو النون التمتع ان يقضي العبد ما استطاع من شهوته (فان مصيركم الى النار)

(قل)

(قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلوة) يعنى أقيموا أو ليقيموا الصلاة الواجبة واقامتها اتمام أركانها (وينفقوا مما رزقناهم) قيل أراد بهذا الانفاق اخراج الزكاة الواجبة وقيل أراد به جميع الانفاق فى جميع وجوه الخير والبر وحمله على العموم أولى ليدخل فيه اخراج الزكاة والانفاق فى جميع وجوه البر (سرا وعلانية) يعنى ينفقون أموالهم فى حال السر وحال العلانية وقيل أراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية اخراج الزكاة الواجبة (من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه) قال أبو عبيدة البيع هنا الفداء يعنى لا فداء فى ذلك اليوم (ولا خلال) يعنى ولا خلة وهى المودة والصداقة التى تكون مخالة بين اثنين وقال مقاتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة انما هى الاعمال اما ان يثاب بها أو يعاقب عليها فان قلت كيف نفى الخلة فى هذه الآية وفى الآية التى فى سورة البقرة واثبتها فى قوله الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين قلت الآية الدالة على نفى الخلة محمولة على نفى الخلة الحاصلة بسبب ميل الطبيعة ورعونة النفس والآية الدالة على حصول الخلة وثبوتها محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله ألا تراه أثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم وقيل ان ليوم القيامة أحوالا مختلفة ففى بعضها يشتغل كل خليل عن خليله وفى بعضها يتعاطف الاخلاء بعضهم على بعض اذا كانت تلك المخالة لله فى محبته قوله عز وجل (الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) اعلم انه تقدم تفسير هذه الآية فى مواضع كثيرة ونذكر ههنا بعض فوائد هذه الآية الدالة على وجود الصانع المختار القادر الذى لا يعجزه شئ أراده فقوله تعالى الله الذى خلق السموات والارض انما بدأ بذكر خلق السموات والارض لانهما أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار وأنزل من السماء ماء يعنى من السحاب سمى السحاب سماء لارتفاعه مشتق من السمو وهو الارتفاع وقيل ان المطر ينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض فأخرج به أى بذلك الماء من الثمرات رزقا لكم والثمر اسم يقع على ما يحصل من الشجر وقد يقع على الزرع أيضا بدليل قوله كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده وقوله من الثمرات بيان للرزق أى أخرج به رزقا هو الثمرات (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره) لما ذكر الله سبحانه وتعالى انعامه بانزال المطر واخراج الثمر لاجل الرزق والانتفاع به ذكر نعمته على عباده بتسخير السفن الجارية على الماء لاجل الانتفاع بها فى جلب ذلك الرزق الذى هو الثمرات وغيرها من بلد الى بلد آخر فهى من تمام نعمة الله على عباده (وسخر لكم الانهار) يعنى ذللها لكم تجرونها حيث شئتم ولما كان ماء البحر لا ينتفع به فى سقى الزرع والثمرات ولا فى الشراب أيضا ذكر نعمته على عباده فى تسخير الانهار وتفجير العيون لاجل هذه الحاجة فهو من أعظم نعم الله على عباده (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) الدأب العادة المستمرة دائما على حالة واحدة ودأب فى السير داوم عليه والمعنى ان الله سخر الشمس والقمر يجريان دائما فيما يعود الى مصالح العباد لا يفتران الى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها قال ابن عباس دؤبهما فى طاعة الله عز وجل وقال بعضهم معناه يدأبان فى طاعة الله أى فى مسيرهما وتأثيرهما فى ازالة الظلمة

(قل لعبادى الذين آمنوا) خصهم بالاضافة اليه تشريفا وبسكون الياء شامى وحمزة وعلى والاعشى (يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم) المقول محذوف لان قل تقتضى مقولا وهو أقيموا وتقديره قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا وقيل انه أمر وهو المقول والتقدير ليقيموا ولينفقوا فحذف اللام لدلالة قل عليه ولو قيل يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز (سرا وعلانية) انتصبا على الحال أى ذوى سر وعلانية يعنى مسرين ومعلنين أو على الظرف أى وقتى سر وعلانية أو على المصدر أى انفاق سر وانفاق علانية والمعنى اخفاء التطوع واعلان الواجب (من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) أى لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة والخلال المخالة وانما ينتفع فيه بالانفاق لوجه الله بفتحهما مكى وبصرى والباقون بالرفع والتنوين (الله) مبتدأ (الذى خلق السموات والارض) خبره (وأنزل من السماء ماء) من السحاب مطرا (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) من الثمرات بيان للرزق أى أخرج به رزقا هو ثمرات أو من الثمرات مفعول أخرج ورزقا حال من المفعول (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) دائمين وهو حال من الشمس والقمر أى يدأبان فى سيرهما وانارتهما ودرئهما الظلمات واصلاحهما ما يصلحان من الارض والابدان والنبات

واصلاح النبات والحيوان لان الشمس سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله عز وجل وانعامه على عباده وتسخيره لهم (وسخر لكم الليل والنهار) يعني يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان والزيادة وذلك من انعام الله على عباده وتسخيره لهم (وآتاكم من كل ما سألتموه) لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العظام التي أنعم الله بها على عباده وسخرها لهم بين بعد ذلك انه تعالى لم يقتصر على تلك النعم بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر والمعنى وآتاكم من كل ما سألتموه شيأ فحذف شيأ اكتفاء بدلالة الكلام على التبعيض وقيل هو على التكثير يعني وآتاكم من كل شئ سألتموه وما لم تسألوه لان نعمه علينا أكثر من ان تحصى (وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها) يعني ان نعم الله كثيرة على عباده فلا يقدر أحد على حصرها ولا عدها لكثرتها (ان الانسان) قال ابن عباس يريد أبا جهل وقال الزجاج هو اسم جنس ولكن يقصد به الكافر (لظلوم كفار) يعني ظلوم لنفسه كفار بنعمة ربه وقيل الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر في غير موضعه كفار جحود لنعم الله عليه وقيل يظلم النعمة باغفال شكرها كفار شديد الكفران لها وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع قوله سبحانه وتعالى (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) يعني ذا أمن يؤمن فيه وأراد بالبلد مكة فان قلت أي فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا قلت الفرق بينهما انه سأل في الاول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها بها ولا يخافون وسأل في الثاني أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (واجنبني وبني أن نعبد الاصنام) يعني أبعدني وبني أن نعبد الاصنام فان قلت قد توجه على هذه الآية اشكالات وهي من وجوه الاول ان ابراهيم دعا ربه ان يجعل مكة آمنة ثم ان جماعة من الجبابرة وغيرهم قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها الوجه الثاني ان الانبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون من عبادة الاصنام واذا كان كذلك فما الفائدة في قوله اجنبني عن عبادتها الوجه الثالث ان ابراهيم عليه السلام سأل ربه أيضا ان يجنب بنيه عن عبادة الاصنام وقد وجد كثير من بنيه عبد الاصنام مثل كفار قريش وغيرهم ممن ينتسب الى ابراهيم عليه السلام قلت الجواب عن الوجوه المذكورة من وجوه فالجواب عن الوجه الاول من وجهين أحدهما ان ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على خراب مكة وأورد على هذا ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة أخرجاه في الصحيحين وأجيب عنه بان قوله اجعل هذا البلد آمنا يعني الى قرب القيامة وخراب الدنيا وقيل هو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين فلا تعارض بين النصين الوجه الثاني أن يكون المراد اجعل أهل

(وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم (وآتاكم من كل ما سألتموه) من للتبعيض أي آتاكم بعض جميع ما سألتموه أو وآتاكم من كل شئ سألتموه وما لم تسألوه فما موصولة والجملة صفة لها وحذفت الجملة الثانية لان الباقي يدل على المحذوف كقوله سرابيل تقيكم الحر من كل عن أبي عمرو وما سألتموه نفي ومحله النصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير سائليه أو ما موصولة أي وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال (وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها) لا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا اذا أرادوا أن يعدوها على الاجمال وأما التفصيل فلا يعلمه الا الله (ان الانسان لظلوم) يظلم النعمة باغفال شكرها (كفار) شديد الكفران لها أو ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع والانسان للجنس فيتناول الاخبار بالظلم والكفران من توجدان منه (واذ قال ابراهيم) واذكر اذ قال ابراهيم (رب اجعل هذا البلد) أي البلد الحرام (آمنا) ذا أمن والفرق بين هذه وبين ما في البقرة انه قد سأل فيها ان يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها وفي الثاني ان يخرجه من صفة الخوف الى الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (واجنبني) وبعدني أي ثبتني وأدمني على اجتناب عبادتها كما قال واجعلنا مسلمين لك أي ثبتنا على الاسلام (وبني) أراد بنيه من صلبه (ان نعبد الاصنام) من ان نعبد الاصنام

هذا

هكذا البلد آمنين وهذا الوجه عليه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم وعلى هذا فقد اختص اهل مكة بزيادة الأمن في بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله ويتخطف الناس من حولهم وأهل مكة آمنون من ذلك حتى ان من التجأ الى مكة أمن على نفسه وماله من ذلك وحتى ان الوحوش اذا كانت خارجة من الحرم استوحشت فاذا دخلت الحرم امنت واستأنست لعلمها انه لا يهيجها احد في الحرم وهذا القدر من الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها وأما الجواب عن الوجه الثاني فمن وجوه أيضا الوجه الاول ان دعاء ابراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة والتثبيت فهو كقوله واجعلنا مسلمين لك الوجه الثاني ان ابراهيم عليه السلام وان كان يعلم ان الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الاصنام الا انه دعا بهذا الدعاء هضما للنفس واظهارا للعجز والحاجة والفاقة الى فضل الله تعالى ورحمته وان أحدا لا يقدر على نفع نفسه بشيء لم ينفعه الله به فلهذا السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء وأما دعاؤه لبنيه وهو الوجه الثالث من الاشكالات فالجواب عنه من وجوه الاول أن ابراهيم دعا لبنيه من صلبه ولم يعبد أحد منهم صنما قط الوجه الثاني انه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء ولا شك ان ابراهيم عليه السلام قد أجيب فيهم الوجه الثالث قال الواحدي دعا لمن أذن الله أن يدعو له فكأنه قال وبني الذين أذنت لي في الدعاء لهم لان دعاء الانبياء مستجاب وقد كان من بنيه من عبد الصنم فعلى هذا الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص الوجه الرابع ان هذا مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه انه قال في آخر الآية فمن تبعني فانه مني وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فليس منه والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وقوله تعالى (رب انهن) يعني الاصنام (أضللن كثيرا من الناس) وهذا مجاز لان الاصنام جمادات وحجارة لا تعقل شيأ حتى تضل من عبدها الا انه لما حصل الاضلال بعبادتها أضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم وانما فتنوا بها واغتروا بسببها (فمن تبعني فانه مني) يعني فمن تبعني على ديني واعتقادي فانه مني يعني المتدينين بديني المتمسكين بحبلي كما قال الشاعر

اذا حاولت في أسد فجورا * فاني لست منك ولست مني

أراد ولست من المتمسكين بحبلي. وقيل معناه فانه مني حكمه حكمي جار مجراي في القرب والاختصاص (ومن عصاني) يعني في غير الدين (فانك غفور رحيم) قال السدي ومن عصاني ثم تاب فانك غفور رحيم وقال مقاتل ومن عصاني فيما دون الشرك فانك غفور رحيم وشرح أبو بكر بن الانباري هذا فقال ومن عصاني فخالفني في بعض الشرائع وعقائد التوحيد فانك غفور رحيم ان شئت ان تغفر له غفرت اذا كان مسلما وذكر وجهين آخرين أحدهما ان هذا كان قبل ان يعلمه الله انه لا يغفر الشرك كما استغفر لابويه وهو يقول ان ذلك غير محظور فلما عرف انهما غير مغفور لهما تبرأ منهما والوجه الآخر ومن عصاني باقامته على الكفر فانك غفور رحيم يعني انك قادر على أن تغفر له وترحمه بان تنقله من الكفر الى الايمان والاسلام وتهديه الى الصواب قوله عز وجل اخبارا عن ابراهيم (ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) (خ) عن ابن عباس قال

(رب انهن أضللن كثيرا من الناس) جعلن مضلات على طريق التسبيب لان الناس ضلوا بسببهن فكأنهن أضللنهم (فمن تبعني) على ملتي وكان حنيفا مسلما مثلي (فانه مني) أي هو بعضي لفرط اختصاصه بي (ومن عصاني) فيما دون الشرك (فانك غفور رحيم) أو ومن عصاني عصيان شرك فانك غفور رحيم ان تاب وآمن (ربنا اني أسكنت من ذريتي) بعض أولادي وهم اسمعيل ومن ولد منه (بواد) هو وادي مكة (غير ذي زرع) لا يكون فيه شيء من زرع قط (عند بيتك المحرم) هو بيت الله سمي به لان الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه أو لانه لم يزل ممنعا يهابه كل جبار أو لانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها أو لانه حرم على الطوفان أي منع منه كما سمي عتيقا لانه أعتق منه

أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسمعيل اتخذت منطقا لتعفي اثرها على سارة ثم جاء
بها ابراهيم وبابنها اسمعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم
في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما
جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل فقالت يا ابراهيم الى
أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وجعل
لا يلتفت اليها فقالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق
ابراهيم فدعا بهذه الدعوات فرفع يديه فقال رب اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع
حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضع اسمعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد
ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت
كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الارض يليها فقامت عليه ثم
استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت منه حتى اذا بلغت الوادي
رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الانسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة
فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس
قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت
صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت صوتا أيضا فقالت قد أسمعت ان كان
عندك غواث فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء
فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد
ما تغرف وفي رواية قدر ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم
اسمعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت
وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافي الضيعة فان ههنا بيت الله تعالى يبنيه هذا الغلام
وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الارض كالرابية تأتيه السيول
فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت
من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا ان هذا
الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالماء
فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم اسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا ان ننزل عندك قالت
نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فألفى
ذلك أم اسمعيل وهي تحب الانس فنزلوا وارسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كانوا بها
أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وآنسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك
زوجوه بامرأة منهم وماتت أم اسمعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسمعيل يطالع تركته
أخرجه البخاري باطول من هذا وقد تقدم الحديث بطوله في تفسير سورة البقرة واما
تفسير الآية فقوله ربنا اني أسكنت من ذريتي من للتبعيض أي بعض ذريتي وهو
اسمعيل عليه السلام بواد غير ذي زرع يعني ليس فيه زرع لانه واد بين جبلين جبل أبي
قبيس وجبل اجياد وهو وادي مكة عند بيتك المحرم سماه محرما لانه يحترم عنده ما لا يحترم

عند

عند غيره وقيل لان الله حرمه على الجبابرة فلم ينالوه بسوء وحرم التعرض له والتهاون به وبحرمته وجعل ما حوله محرما لمكانه وشرفه وقيل لانه حرم على الطوفان يعني امتنع منه وقيل سمي محرما لان الزائرين له يحرمون على أنفسهم اشياء كانت مباحة لهم من قبل وسمي عتيقا أيضا لانه أعتق من الجبابرة أو من الطوفان فان قلت كيف قال عند بيتك المحرم ولم يكن هناك بيت حينئذ وانما بناه ابراهيم بعد ذلك قلت يحتمل ان الله عز وجل أوحى اليه وأعلمه ان له هناك بيتا قد كان في سالف الزمان وانه سيعمره فلذلك قال عند بيتك المحرم وقيل يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذي كان ثم رفع عند الطوفان وقيل يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذي جرى في سابق علمك أنه سيحدث في هذا المكان (ربنا ليقيموا الصلاة) اللام في ليقيموا متعلقة باسكنت يعني أسكنت قوما من ذريتي وهم اسمعيل وأولاده بهذا الوادي الذي لازرع فيه ليقيموا اى لاجل أن يقيموا أو لكي يقيموا الصلاة (فاجعل أفئدة من الناس) قال البغوي جمع الوفد (تهوي اليهم) تحن وتشتاق اليهم قال السدي رحمه الله أمل قلوبهم الى هذا الموضع وقال ابن الجوزي افئدة من الناس أي قلوب جماعة من الناس فلهذا جعله جمع فؤاد قال ابن الانباري وانما عبر عن القلوب بالافئدة لقرب القلب من الفؤاد فجعل القلب والفؤاد جارحتين وقال الجوهري الفؤاد القلب والجمع افئدة فجعلهما جارحة واحدة ولفظة من في قوله من الناس للتبعيض قال مجاهد لو قال افئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند وقال سعيد بن جبير لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون تهوي اليهم قال الاصمعي يقال هوى يهوي هويا اذا سقط من علو الى سفل وقال الفراء تهوي اليهم تريدهم كما تقول رأيت فلانا يهوي نحوك معناه يريدك وقال أيضا تهوي تسرع اليهم وقال ابن الانباري معناه تنحط اليهم وتنحدر وتنزل هذا قول اهل اللغة في هذا الحرف واما أقوال المفسرين فقال ابن عباس يريد تحن اليهم لزيارة بيتك وقال قتادة تسرع اليهم وفي هذا بيان أن حنين الناس اليهم انما هو لطلب حج البيت لا لاعيانهم وفيه دعاء للمؤمنين بان يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بانهم ينتفعون بمن يأتي اليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع ابراهيم عليه السلام في هذا الدعاء من أمر الدين والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركاته (وارزقهم من الثمرات) يعني كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزروع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار وقيل يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات الى مكة بطريق النقل والتجارة فهو كقوله تعالى يجبى اليه ثمرات كل شيء وقوله تعالى (لعلهم يشكرون) يعني لعلهم يشكرون هذه النعم التي انعمت بها عليهم وقيل معناه لعلهم يوحدونك ويعظمونك وفيه دليل على أن تحصيل منافع الدنيا انما هو ليستعان بها على اداء العبادات واقامة الطاعات (ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن) يعني انك تعلم السر كما تعلم العلن علما لا تفاوت فيه والمعنى انك تعلم أحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا وأنت أرحم بنا منا فلا حاجة بنا الى الدعاء والطلب انما ندعوك اظهارا للعبودية لك وتخشعا لعظمتك وتذللا لعزتك وافتقارا الى ما عندك وقيل معناه تعلم ما نخفي

(ربنا ليقيموا الصلوة) اللام متعلقة باسكنت أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع الا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك (فاجعل أفئدة من الناس) افئدة من أفئدة الناس ومن للتبعيض لما روي عن مجاهد لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند أو للابتداء كقولك القلب مني سقيم تريد قلبي فكأنه قيل افئدة ناس وتنكير المضاف اليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة لانها في الآية نكرة ليتناول بعض الافئدة (تهوي اليهم) تسرع اليهم من البلاد الشاسعة وتطير نحوهم شوقا (وارزقهم من الثمرات) مع سكناهم واديا ما فيه شيء منها بان تجلب اليهم من البلاد الشاسعة (لعلهم يشكرون) النعمة في ان يرزقوا انواع الثمرات في واد ليس فيه شجر ولا ماء (ربنا) النداء المكرر دليل التضرع واللجأ الى الله (انك تعلم ما نخفي وما نعلن) تعلم السر كما تعلم العلن

(وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء) من كلام الله عز وجل تصديقا لابراهيم عليه السلام أو من كلام ابراهيم ومن للاستغراق كأنه قيل وما يخفى على الله شئ ما (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر) على بمعنى مع وهو فى موضع الحال اى وهب لى وأنا كبير (اسمعيل واسحق) روى ان اسمعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة وثنتى عشرة سنة وروى انه ولد له اسمعيل لاربع وستين واسحق لتسعين وانما ذكر حال الكبر لان المنة بهبة الولد فيها أعظم لانها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم ولان الولادة فى تلك السن العالية كانت آية لابراهيم (ان ربى لسميع الدعاء) مجيب الدعاء من قولك سمع الملك كلام فلان اذا تلقاه بالاجابة والقبول ومنه سمع الله لمن حمده وكان قد دعا ربه وسأله الولد فقال رب هب لى من الصالحين فشكر لله ما أكرمه به من اجابته واضافة السميع الى الدعاء من اضافة الصفة الى مفعولها واصله لسميع الدعاء وقد ذكر سيبويه فعيلا فى جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل كقولك هذا رحيم أباه (رب اجعلنى مقيم الصلوة ومن ذريتى) وبعض ذريتى عطفا على المنصوب فى اجعلنى وانما بعض لانه علم باعلام الله انه يكون فى ذريته كفار عن ابن عباس رضى الله عنهما لايزال من ولد ابراهيم ناس على الفطرة الى أن تقوم الساعة (ربنا وتقبل دعاء) بالياء فى الوصل والوقف مكى واتفقه أبو عمرو وحمزة فى الوصل الباقون بلا ياء أى استجب دعائى أو عبادتى واعتزالكم وما تدعون من دون الله (ربنا اغفر لى ولوالدى) أى آدم وحواء أو قاله قبل النهى واليأس عن ايمان ابويه

أراد

من الوجد بفرقة اسمعيل وامه حيث أسكنتهما بواد غير ذى زرع وما نعلن يعنى من البكاء وقيل ما نخفى يعنى من الحزن المتمكن فى القلب وما نعلن يعنى ما جرى بينه وبين هاجر عند الوداع حين قالت لابراهيم عليه السلام الى من تكلنا قال الى الله قالت اذا لا يضيعنا (وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء) قيل هذا من تمة قول ابراهيم يعنى وما يخفى على الله الذى هو عالم الغيب من شئ فى كل مكان وقال الاكثرون انه من قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال فهو كقوله وكذلك يفعلون (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق) قال ابن عباس ولد اسمعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة وقال سعيد بن جبير بشر ابراهيم باسحق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة ومعنى قوله على الكبر مع الكبر لان هبة الولد فى هذا السن من أعظم المنن لانه سن اليأس من الولد فلهذا شكر الله على هذه المنة فقال الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق فان قلت كيف جمع بين اسمعيل واسحق فى الدعاء فى وقت واحد وانما بشر باسحق بعد اسمعيل بزمان طويل قلت يحتمل ان ابراهيم عليه السلام انما أتى بهذا الدعاء عندما بشر باسحق وذلك انه لما عظمت المنة على قلبه بهبة ولدين عظيمين عند كبره قال عند ذلك الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ولا يرد على هذا ما ورد فى الحديث انه دعا بما تقدم عند مفارقة اسمعيل وأمه لان الذى صح فى الحديث انه دعا بقوله ربنا انى أسكنت من ذريتى الى قوله لعلهم يشكرون اذا ثبت هذا فيكون قوله الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق فى وقت آخر والله أعلم بحقيقة الحال (ان ربى لسميع الدعاء) كان ابراهيم عليه السلام قد دعا ربه وسأله الولد بقوله رب هب لى من الصالحين فلما استجاب الله دعاءه ووهبه ما سأل شكر الله على ما أكرمه به من اجابة دعائه فعند ذلك قال الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء وهو من قولك سمع الملك كلام فلان اذا اعتد به وقبله (رب اجعلنى مقيم الصلوة) يعنى ممن يقيم الصلاة باركانها ويحافظ عليها فى أوقاتها (ومن ذريتى) أى واجعل من ذريتى من يقيم الصلاة وانما أدخل لفظة من التى هى للتبعيض فى قوله ومن ذريتى لانه علم باعلام الله اياه انه قد يوجد من ذريته جمع من الكفار لا يقيمون الصلاة فلهذا قال ومن ذريتى وأراد بهم المؤمنين من ذريته (ربنا وتقبل دعاء) سأل ابراهيم عليه السلام ربه ان يتقبل دعاءه فاستجاب الله لابراهيم وقبل دعاءه بفضله ومنه وكرمه (ربنا اغفر لى) فان قلت طلب المغفرة من الله انما يكون لسابق ذنب قد سلف حتى يطلب المغفرة من ذلك الذنب وقد ثبتت عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب فما وجه طلب المغفرة له قلت المقصود منه الالتجاء الى الله سبحانه وتعالى وقطع الطمع من كل شئ الا من فضله وكرمه والاعتراف بالعبودية لله تعالى والاتكال على رحمته (ولوالدى) فان قلت كيف استغفر ابراهيم لابويه وكانا كافرين قلت

أراد أنهما آن أسلما وتابا وقيل انما قال ذلك قبل أن يتبين له أنهما من أصحاب الجحيم وقيل ان أمه أسلمت فدعا لها وقيل أراد بوالديه آدم وحواء (وللمؤمنين) يعني واغفر للمؤمنين كلهم (يوم يقوم الحساب) يعني يوم يبدو ويظهر الحساب وقيل أراد يوم يقوم الناس للحساب فاكتفى بذلك أي بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله سبحانه وتعالى لا يرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة قوله سبحانه وتعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) الغفلة معنى يمنع الانسان من الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا في حق الله محال فلا بد من تأويل الآية فالمقصود منها أنه سبحانه وتعالى ينتقم من الظالم للمظلوم ففيه وعيد وتهديد للظالم واعلام له بأن لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلا قال سفيان بن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فان قلت تعالى الله عن السهو والغفلة فكيف يحسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم غافلا وهو أعلم الناس به أنه لم يكن غافلا حتى قيل له ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون قلت اذا كان المخاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه وجهان أحدهما التثبيت على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا فهو كقوله ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر وكقوله سبحانه وتعالى يا أيها الذين آمنوا آمنوا أي اثبتوا على ما أنتم عليه من الايمان الوجه الثاني ان المراد بالنهي عن حسبانه غافلا الاعلام بانه سبحانه وتعالى عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه شئ وانه ينتقم منهم فهو على سبيل الوعيد والتهديد لهم والمعنى ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عنهم ولكن يعاملهم معاملة الرقيب الحفيظ عليهم المحاسب لهم على الصغير والكبير وان كان المخاطب غير النبي صلى الله عليه وسلم فلا اشكال فيه ولا سؤال لان أكثر الناس غير عارفين بصفات الله فمن جوز أن يحسبه غافلا فلجهله بصفاته (انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار) يقال شخص بصر الرجل اذا بقيت عيناه مفتوحتين لا يطرفهما وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة من هول ما ترى في ذلك اليوم (مهطعين) قال قتادة مسرعين وهذا قول ابي عبيدة فعلى هذا المعنى ان الغالب من حال من بقي بصره شاخصا من شدة الخوف أن يبقى واقفا باهتا فبين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ان أحوال اهل الموقف يوم القيامة بخلاف الحال المعتادة فاخبر سبحانه وتعالى انهم مع شخوص الابصار يكونون مهطعين يعني مسرعين نحو الداعي وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكت (مقنعي رؤسهم) الاقناع رفع الرأس الى فوق فاهل الموقف من صفتهم أنهم رافعو رؤسهم الى السماء وهذا بخلاف المعتاد لان من يتوقع البلاء فانه يطرق ببصره الى الارض قال الحسن وجوه الناس يوم القيامة الى السماء لا ينظر أحد الى أحد وهو قوله تعالى (لا يرتد اليهم طرفهم) أي لا ترجع اليهم أبصارهم من شدة الخوف فهي شاخصة لا ترتد اليهم قد شغلهم ما بين أيديهم (وأفئدتهم هواء) أي خالية قال قتادة خرجت قلوبهم من صدورهم فصارت في حناجرهم فلا تخرج من أفواههم ولا تعود الى أماكنها ومعنى الآية ان افئدتهم خالية

(والمؤمنين يوم يقوم الحساب) اى يثبت أو أسند الى الحساب قيام أهله اسنادا مجازيا مثل واسأل القرية (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) تسلية للمظلوم وتهديد للظالم والخطاب لغير الرسول عليه السلام وان كان للرسول فالمراد تثبيته عليه السلام على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر وكما جاء في الامر يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله وقيل المراد به الايذان بانه عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه منه شئ وانه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله والله بما تعملون عليم (انما يؤخرهم) أي عقوبتهم (ليوم تشخص فيه الابصار) أي أبصارهم لا تقر في أماكنها من هول ما ترى (مهطعين) مسرعين الى الداعي (مقنعي رؤسهم) رافعيها (لا يرتد اليهم طرفهم) لا يرجع اليهم نظرهم فينظروا الى أنفسهم (وأفئدتهم هواء) صفر من الخير لا تعي شيأ من الخوف والهواء الخلاء الذي لم تشغله الاجرام فوصف به فقيل قلب فلان هواء اذا كان جبانا لا قوة في قلبه ولا جراءة وقيل جوف لا عقول لهم

(وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) أي يوم القيامة ويوم مفعول ثان لأنذر لا ظرف اذ الانذار لا يكون في ذلك اليوم (فيقول الذين ظلموا) أي الكفار (ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) أي ردّنا الى الدنيا وأمهلنا الى أمد وحد من الزمان قريب نتدارك ما فرطنا فيه من اجابة دعوتك واتباع رسلك فيقال لهم (أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) أي حلفتم في الدنيا انكم اذا متم لا تزالون ١١٢ عن تلك الحالة ولا تنتقلون الى دار أخرى يعني كفرتم بالبعث كقوله وأقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت وما لكم جواب القسم وانما جاء بلفظ الخطاب كقوله اقسمتم ولو حكي لفظ المقسمين لقيل ما لنا من زوال أو أريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى فانهم يسألون يومئذ ان يؤخرهم ربهم الى أجل قريب يقال سكن الدار وسكن فيها ومنه (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم) بالكفر لان السكنى من السكون وهو اللبث والاصل تعديته بفي نحو قر في الدار وأقام فيها ولكنه لما نقل الى سكون خاص تصرف فيه فقيل سكن الدار كما قيل تبوأها وجاز أن يكون سكنوا من السكون أي قروا فيها واطمأنوا طيبي النفوس سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد لا يحدثونها بما لقي الاولون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا (وتبين لكم) بالاخبار وقيل أو بالمشاهدة وفاعل تبين مضمر دل عليه الكلام أي تبين لكم حالهم و(كيف) ليس بفاعل لان الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وانما انتصب كيف بقوله (فعلنا بهم) أي أهلكناهم وانتقمنا منهم (وضربنا لكم الامثال) أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم وهي في الغرابة كالامثال المضروبة لكل ظالم (وقد مكروا مكرهم) اى مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم وهو ما فعلوه من تأييد الكفر وبطلان الاسلام (وعند الله مكرهم) وهو مضاف الى الفاعل كالاول والمعنى ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه أو الى المفعول اى وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به وهو عذابهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) بكسر اللام الاولى ونصب الثانية والتقدير وان وقع مكرهم لزوال امر النبي صلى الله عليه وسلم فعبر عن أمر النبي عليه السلام بالجبال لعظم شأنه وكان تامة أو ان نافية واللام مؤكدة لها كقوله وما كان الله ليعذبهم والمعنى ومحال أن تزول الجبال بمكرهم على ان الجبال مثل لآيات الله وشرائعه لانها بمنزلة الجبال الراسية ثباتا وتمكنا دليله قراءة ابن مسعود وما كان مكرهم وبفتح اللام الاولى ورفع الثانية على أي وان كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقطع عن أماكنها فان مخففة من ان واللام مؤكدة

فارغة لا تعي شيأ ولا تعقل من شدة الخوف وقال سعيد بن جبير وافئدتهم هواء أي مترددة تهوي في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه ومعنى الآية ان القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها والابصار شاخصة والرؤس مرفوعة الى السماء من هول ذلك اليوم وشدته (وأنذر الناس) يعني وخوف الناس يا محمد بيوم القيامة وهو قوله سبحانه وتعالى (يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا) يعني ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي (ربنا أخرنا الى أجل قريب) يعني أمهلنا مدة يسيرة قال بعضهم طلبوا الرجوع الى الدنيا حتى يؤمنوا فينفعهم ذلك وهو قوله تعالى (نجب دعوتك ونتبع الرسل) فأجيبوا بقوله (أولم تكونوا أقسمتم من قبل) يعني في دار الدنيا (ما لكم من زوال) يعني ما لكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) يعني بالكفر والمعاصي ممن كان قبلكم من كفار الامم الخالية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) يعني وقد عرفتم كيف كانت عقوبتنا اياهم (وضربنا لكم الامثال) يعني الامثال التي ضربها الله عز وجل في القرآن ليتدبروها ويعتبروا بها فيجب على كل من شاهد أحوال الماضين من الامم الخالية والقرون الماضية وعلم ما جرى لهم وكيف أهلكوا أن يعتبر بهم ويعمل في خلاص نفسه من العقاب والهلاك قوله سبحانه وتعالى (وقد مكروا مكرهم) اختلفوا في الضمير الى من يعود في قوله وقد مكروا فقيل يعود الى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول صحيح لان الضمير يجب عوده الى أقرب مذكور وقيل ان المراد بقوله وقد مكروا كفار قريش الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ومكرهم ما ذكره الله تعالى بقوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا الآية والمعنى وأنذر الناس يا محمد يوم يأتيهم العذاب يعني بسبب مكرهم بك وقوله تعالى (وعند الله مكرهم) يعني جزاء مكرهم وقيل ان مكرهم مثبت عند الله ليجازيهم به يوم القيامة (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) يعني وان كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال

وقيل معناه ان مكرهم لا يزيل امر محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في الآية قولا آخر وهو انها نزلت في نمرود الجبار الذي حاج ابراهيم في ربه فقال نمرود ان كان ما يقوله ابراهيم حقا فلا أنتهي حتى أصعد الى السماء فأعلم ما فيها فعمد الى أربعة أفراخ من النسور فرباهن حتى كبرت وشبت واتخذ تابوتا من خشب وجعل له بابا من أعلى وبابا من أسفل ثم جوع النسور ونصب خشبات أربعا في أطراف التابوت وجعل على رؤس تلك الخشبات لحما أحمر وقعد هو في التابوت وأقعد معه رجلا آخر وأمر بالنسور فربطت في أطراف التابوت من أسفل فجعلت النسور كلما رأت اللحم رغبت فيه وطارت اليه فطارت النسور يوما أجمع حتى بعدت في الهواء فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاعلى وانظر الى السماء هل قربنا منها ففتح ونظر فقال له ان السماء كهيئتها فقال له افتح الباب الاسفل فانظر الى الارض كيف تراها ففعل فقال أرى الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور يوما آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاعلى ففعل فاذا السماء كهيئتها وفتح الباب الاسفل فاذا الارض سوداء مظلمة فنودي أيها الطاغي أين تريد قال عكرمة وكان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب وأخذ معه الترس ورمى بسهم فعاد اليه السهم ملطخا بدم سمكة قذفت بنفسها في بحر في الهواء وقيل ان طائرا أصابه السهم فلما رجع اليه السهم ملطخا بالدم قال كفيت اله السماء ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوب الخشبات الى أسفل وينكس اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور ففزعت وظنت انه قد حدث حدث من السماء وان الساعة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها فذلك قوله تعالى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال واستبعد بعض العلماء هذه الحكاية وقال ان الخطر فيه عظيم ولا يكاد عاقل أن يقدم على مثل هذا الامر العظيم وليس فيه خبر صحيح يعتمد عليه ولا مناسبة لهذه الحكاية بتأويل الآية البتة (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) يعني فلا تحسبن الله يا محمد مخلف ما وعد به رسله من النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين فانه ناصر رسله وأوليائه ومهلك أعدائه وفيه تقديم وتأخير تقديره ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده (ان الله عزيز) أي غالب (ذو انتقام) يعني من اعدائه قوله عز وجل (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) ذكر المفسرون في معنى هذا التبديل قولين أحدهما انه تبدل صفة الارض والسماء لا ذاتهما فاما تبديل الارض فبتغيير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها وهو أن تدك جبالها وتسوى وهادها وأوديتها وتذهب أشجارها وجميع ما عليها من عمارة وغيرها لا يبقى على وجهها شئ الا ذهب وتمد مد الاديم واما تبديل السماء فهو أن تنتثر كواكبها وتطمس شمسها وقمرها ويكوران وكونها تارة كالدهان وتارة كالمهل وبهذا القول قال جماعة من العلماء ويدل على صحة هذا القول ما روى عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة

(فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) يعني قوله انا لننصر رسلنا كتب الله لأغلبن أنا ورسلي مخلف مفعول ثان لتحسبن واضاف مخلف الى وعده وهو المفعول الثاني له والاول رسله والتقدير مخلف رسله وعده وانما قدم المفعول الثاني على الاول ليعلم انه لا يخلف الوعد أصلا كقوله ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليؤذن انه اذا لم يخلف وعده أحدا فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته (ان الله عزيز) غالب لا يماكر (ذو انتقام) لاوليائه من أعدائه وانتصاب (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) على الظرف للانتقام أو على اضمار اذكر والمعنى يوم تبدل هذه الارض التي تعرفونها أرضا اخرى غير هذه المعروفة وتبدل السموات غير السموات وانما حذف لدلالة ما قبله عليه والتبديل التغيير وقد يكون في الذوات كقولك بدلت الدراهم دنانير وفي الاوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا اذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل واختلف في تبديل الارض والسموات فقيل تبدل أوصافها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي تلك الارض وانما تغير وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا وقيل تخلق بدلها أرض وسموات أخر وعن ابن مسعود رضي الله عنه يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة وعن علي رضي الله عنه تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب

على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس بها علم لاحد أخرجاه في الصحيحين العفراء
بالعين المهملة وهي البيضاء الى حمرة ولهذا شبهها بقرصة النقي وهو الخبز الجيد البياض
الفائق المائل الى حمرة كأن النار ميلت بياض وجهها الى الحمرة وقوله ليس بها علم
لاحد يعني ليس فيها علامة لاحد بتبديل هيئتها وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى
فيها أثر يستدل به والقول الثاني هو تبديل ذوات الارض والسماء وهذا قول جماعة
من العلماء ثم اختلفوا في معنى هذا التبديل فقال ابن مسعود في معنى هذه الآية قال
تبدل الارض بارض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك بها دم ولم يعمل عليها خطيئة وقال
على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الارض من فضة والسماء من ذهب وقال أبي
ابن كعب في معنى التبديل بان تصير الارض نيرانا والسماء جنانا وقال أبو هريرة وسعيد
ابن جبير ومحمد بن كعب القرظي تبدل الارض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه
عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون الارض يوم القيامة
خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لاهل الجنة
أخرجاه في الصحيحين بزيادة فيه قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح هذا الحديث
اما النزل فبضم النون والزاي ويجوز اسكان الزاي وهو ما يعد للضيف عند نزوله
وأما الخبزة فبضم الخاء وقال أهل اللغة هي الظلمة التي توضع في الملة يتكفؤها بالهمز
بيده أي يميلها من يد الى يد حتى تجتمع وتستوي لانها ليست منبسطة كالرقاقة وقد
حققنا الكلام في اليد في حق الله سبحانه وتعالى وتأويلها مع القطع باستحالة الجارحة
عليه ليس كمثله شيء ومعنى الحديث ان الله سبحانه وتعالى يجعل الارض كالظلمة أي
الرغيف العظيم وتكون طعاما نزلا لاهل الجنة والله على كل شيء قدير فان قلت اذا
فسرت التبديل بما ذكرت فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى يومئذ تحدث
أخبارها وهو أن تحدث بكل ما عمل عليها قلت وجه الجمع بين الآيتين ان الارض تبدل
اولا صفتها مع بقاء ذاتها كما تقدم فيومئذ تحدث أخبارها ثم بعد ذلك تبدل تبديلا ثانيا
وهو أن تبدل ذاتها بغيرها كما تقدم أيضا ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن عائشة
قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض
والسموات فاين يكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال على الصراط أخرجه مسلم
وروى ثوبان ان حبرا من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين يكون الناس
يوم تبدل الارض غير الارض قال هم في الظلمة دون الجسر ذكره البغوي بغير سند ففي
هذين الحديثين دليل على ان تبديل الارض ثاني مرة يكون بعد الحساب والله أعلم
بمراده واسرار كتابه وقوله تعالى (وبرزوا) يعني وخرجوا من قبورهم (لله) يعني لحكم الله
والوقوف بين يديه للحساب (الواحد القهار) صفتان لله تعالى فالواحد الذي لا ثاني له
ولا شريك معه المنزه عن الشبه والضد والند والقهار الغالب الذي يقهر عباده على
ما يريد و يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قوله تعالى (وترى المجرمين يومئذ مقرنين) يعني
مشدودين بعضهم الى بعض يقال قرنت الشيء بالشيء اذا شددته معه في رباط واحد

(وبرزوا) وخرجوا من قبورهم (لله الواحد القهار) هو كقوله لمن الملك اليوم لله الواحد القهار لان الملك اذا كان لواحد غلاب لايغالب ولا مستغاث لاحد الى غيره كان الامر في غاية الشدة (وترى المجرمين) الكافرين (يومئذ) يوم القيامة (مقرنين) قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين أو قرنت أيديهم الى أرجلهم مغللين

(فى الاصفاد) متعلق بمقرنين أى يقرنون فى الاصفاد أو غير متعلق به والمعنى مقرنين مصفدين والاصفاد القيود أو الاغلال (سرابيلهم) قمصهم (من قطران) هو ما يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ فيهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بحدته وحره ومن شأنه ان يسرع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فيطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته واسراع النار فى جلودهم واللون الوحش ونتن الريح على ان التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين وكل ما وعده الله أو أوعده به فى الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره وكأنه ما عندنا منه الا الاسامى والمسميات ثمة نعوذ بالله من سخطه وعذابه من قطرآن زيد عن يعقوب بنحاس مذاب بلغ حره أناه (وتغشى وجوههم النار) تعلوها باشتعالها وخص الوجه لانه أعز موضع فى ظاهر البدن كالقلب فى باطنه ولذا قال تطلع على الافئدة (ليجزى الله كل نفس ما كسبت) أى يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزى كل نفس مجرمة ما كسبت أو كل نفس مجرمة أو مطيعة لانه اذا عاقب المجرمين لاجرامهم علم انه يثيب المؤمنين بطاعتهم (ان الله سريع الحساب) يحاسب جميع العباد فى أسرع من لمح البصر (هذا) أى ما وصفه فى قوله ولا تحسبن الى قوله سريع الحساب (بلاغ للناس) كفاية فى التذكير والموعظة (ولينذروا به) بهذا البلاغ وهو معطوف على محذوف أى لينصحوا ولينذروا (وليعلموا أنما هو اله واحد) لانهم اذا خافوا ما أنذروا به دعتهم المخافة الى النظر حتى يتوصلوا الى التوحيد لان الخشية أم الخير كله (وليذكر أولوا الالباب) ذووا العقول

* (سورة الحجر تسع وتسعون آية مكية) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) تلك اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب والقرآن المبين السورة وتنكير القرآن للتفخيم والمعنى تلك آيات الكتاب الكامل فى كونه كتابا وأى قرآن مبين كأنه قيل الكتاب الجامع للكمال والغرابة فى البيان

(فى الاصفاد) يعنى فى القيود والاغلال قال ابن عباس يقرن كل كافر مع شيطانه فى سلسلة وقال أبو زيد تقرن أيديهم وأرجلهم الى رقابهم بالاصفاد وهى القيود وقال ابن قتيبة يقرن بعضهم الى بعض (سرابيلهم) يعنى قمصهم واحدها سربال وقيل السربال كل ما لبس (من قطران) القطران دهن يتحلب من شجر الابهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الابل اذا جربت وهو الهناء يقال هنأت البعير أهنؤه بالهناء وهو القطران قال الزجاج وانما جعل لهم القطران سرابيل لانه يبالغ فى اشتعال النار فى الجلود ولو أراد الله المبالغة فى احراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم بما يعرفون وقرأ عكرمة ويعقوب من قطرآن على كلمتين منونتين فالقطر النحاس المذاب والآن الذى انتهى حره (وتغشى وجوههم النار) يعنى تعلوها وتجللها (ليجزى الله كل نفس ما كسبت) يعنى من خير أو شر (ان الله سريع الحساب) يعنى اذا حاسب عباده يوم القيامة (هذا بلاغ للناس) يعنى هذا القرآن فيه تبليغ وموعظة للناس (ولينذروا به) يعنى وليخوفوا بالقرآن ومواعظه وزواجره (وليعلموا أنما هو اله واحد) يعنى وليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى (وليذكر أولوا الالباب) يعنى وليتعظ بهذا القرآن وما فيه من المواعظ أولوا العقول والافهام الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة الحجر)

مكية باجماعهم وهى تسع وتسعون آية وستمائة وأربع وخمسون كلمة وألفان وسبعمائة وستون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله سبحانه وتعالى (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) تلك اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب وبالقرآن المبين الكتاب الذى وعد الله به محمدا صلى الله عليه وسلم وتنكير القرآن للتفخيم والتعظيم والمعنى تلك آيات ذلك الكتاب الكامل فى كونه كتابا وفى كونه قرآنا وأى قرآن كأنه قيل الكتاب الجامع للكمال والغرابة فى البيان وقيل اراد بالكتاب التوراة والانجيل لانه عطف القرآن على الكتاب والمعطوف غير المعطوف عليه وهذا القول ليس بالقوى لانه لم يجر للتوراة والانجيل ذكر حتى يشار اليهما وقيل المراد بالكتاب القرآن وانما جمع بهما بوصفين وان كان الموصوف واحدا

لما في ذلك من الفائدة وهي التفخيم والتعظيم والمبين الذي يبين الحلال من الحرام والحق
من الباطل (ربما) قرئ بالتخفيف والتشديد وهما لغتان ورب للتقليل وكم للتكثير وانما
زيدت ما مع رب ليليها الفعل تقول رب رجل جاءني وربما جاءني زيد وان شئت جعلت
ما بمنزلة شئ كأنك قلت رب شئ فيكون المعنى رب شئ (يود الذين كفروا) وقيل ما في ربما
بمعنى حين أي رب حين يود يعني يتمنى الذين كفروا الان التمني هو تشهي حصول ما يوده
واختلف المفسرون في الوقت الذي يتمنى الذين كفروا (لو كانوا مسلمين) على قولين
أحدهما ان ذلك يكون عند معاينة العذاب وقت الموت فحينئذ يعلم الكافر انه كان
على الضلال فيتمنى لو كان مسلما وذلك حين لا ينفعه ذلك التمني قال الضحاك هو عند حالة
المعاينة والقول الثاني ان هذا التمني يكون في الآخرة وذلك حين يعاينون أهوال يوم
القيامة وشدائده وما يصيرون اليه من العذاب فحينئذ يتمنى الذين كفروا لو كانوا
مسلمين وقال الزجاج ان الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال
المسلم ود لو كان مسلما وقيل اذا رأى الكافر أن الله تعالى يرحم المسلمين ويشفع بعضهم
في بعض حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا
مسلمين والقول المشهور ان ذلك التمني حين يخرج الله المؤمنين من النار عن أبي موسى
الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء
الله من أهل القبلة قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا
فما أغنى عنكم اسلامكم وأنتم معنا في النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفرها
الله لهم بفضل رحمته فيأمر الله بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها
فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذكره البغوي بغير سند وكذا ذكره ابن الجوزي
وقال واليه ذهب ابن عباس في رواية عنه وأنس بن مالك ومجاهد وعطاء وأبو العالية
وابراهيم يعني النخعي فان قلت رب انما وضعت للتقليل وتمني الذين كفروا لو كانوا
مسلمين يكثر يوم القيامة فكيف قال ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين قلت قال
صاحب الكشاف هو وارد على مذهب العرب في قولهم لعلك ستندم على فعلك وربما
ندم الانسان على فعله ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون تقليله ولكنهم أرادوا لو كان
الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل لان العقلاء يتحرزون
من التعرض للغم المظنون كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه كما يتحرزون من
الكثير وقال غيره ان هذا التقليل ابلغ في التهديد ومعناه يكفيك قليل الندم في كونه
زاجرا لك عن هذا الفعل فكيف بكثيره وقيل ان شغلهم بالعذاب لا يفرغهم للندامة
انما يخطر ذلك ببالهم فان قلت رب لا تدخل الا على الماضي فكيف قال ربما يود وهو
في المستقبل قلت لان المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه
كأنه قال ربما ود قوله سبحانه وتعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) يعني دع يا محمد هؤلاء
الكفار يأكلوا في دنياهم ويتمتعوا بلذاتها (ويلههم الامل) يعني ويشغلهم طول الامل
عن الايمان والاخذ بطاعة الله تعالى (فسوف يعلمون) يعني اذا وردوا القيامة وذاقوا

(ربما) بالتخفيف مدني وعاصم وبالتشديد غيرهما وما هي الكافة لانها حرف يجر ما بعده ويختص بالاسم النكرة فاذا كفت وقع بعدها الفعل الماضي والاسم وانما جاز (يود الذين كفروا) لان المترقب في اخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل ربما ود وودادتهم تكون عند النزع أو يوم القيامة اذا عاينوا حالهم وحال المسلمين أو اذا رأوا المسلمين يخرجون من النار فيتمنى الكافر لو كان مسلما كذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما (لو كانوا مسلمين) حكاية ودادتهم وانما جيء بها على لفظ الغيبة لانهم مخبر عنهم كقولك حلف بالله ليفعلن ولو قيل حلف بالله لأفعلن ولو كنا مسلمين لكان حسنا وانما قلل برب لان أهوال القيامة تشغلهم عن التمني فاذا أفاقوا من سكرات العذاب ودوا لو كانوا مسلمين وقول من قال ان رب يعني بها الكثرة سهو لانه ضد ما يعرفه أهل اللغة لانها وضعت للتقليل (ذرهم) أمر اهانة أي اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم (ويلههم الامل) ويشغلهم أملهم وامانيهم عن الايمان (فسوف يعلمون) سوء صنيعهم وفيه تنبيه على ان ايثار التلذذ والتنعم وما يؤدي اليه طول الامل ليس من اخلاق المؤمنين

(وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم) ولها كتاب جملة واقعة صفة لقرية والقياس ان لا يتوسط الواو بينهما كما في وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون وانما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف اذ الصفة ملتصقة بالموصوف بلا واو فجيء بالواو تأكيدا لذلك والوجه ان تكون هذه الجملة حالا لقرية لكونها في حكم الموصوفة كأنه قيل وما أهلكنا قرية من القرى لا وصفا وقوله كتاب معلوم أي مكتوب معلوم وهو أجلها الذي كتب في اللوح المحفوظ وبين الا ترى الى قوله (ما تسبق من أمة أجلها) في موضع كتابها (وما يستأخرون) أي عنه وحذف لانه معلوم وانث الامة أولا ثم ذكرها آخرا حملا على اللفظ والمعنى (وقالوا) أي الكفار (يا أيها الذي نزل عليه الذكر) أي القرآن (انك لمجنون) يعنون محمدا عليه السلام وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء كما قال فرعون ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه الى الجنون والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم سائغ ومنه فبشرهم بعذاب أليم انك لأنت الحليم الرشيد والمعنى انك لتقول قول المجانين حيث تدعي ان الله نزل عليك الذكر (لوما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين) لو ركبت مع لا وما لامتناع الشيء لوجود غيره أو للتحضيض وهل ركبت مع لا للتحضيض فحسب والمعنى هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك أو هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك ان كنت صادقا (ما ننزل الملائكة) كوفي غير أبي بكر تنزل الملائكة أبو بكر تنزل الملائكة أي تتنزل غيرهم (الا بالحق) الا تنزيلا ملتبسا بالحكمة (وما كانوا اذا منظرين) اذا جواب لهم وجزاء الشرط مقدر تقديره ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين اذا وما أخر عذابهم (انا نحن نزلنا الذكر) القرآن

وبال ما صنعوا وهذا فيه تهديد ووعيد لمن أخذ بحظه من الدنيا ولذاتها ولم يأخذ بحظه من طاعة الله عز وجل قال بعض أهل العلم ذرهم تهديد وفسوف يعلمون تهديد آخر فتى يهنأ العيش بين تهديدين وهذه الآية منسوخة بآية القتال وفي الآية دليل على ان ايثار التلذذ والتنعم في الدنيا يؤدي الى طول الامل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين قال علي بن أبي طالب انما أخشى عليكم اثنتين طول الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسي الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق (وما أهلكنا من قرية) يعني من أهل قرية وأراد هلاك الاستئصال (الا ولها كتاب معلوم) أي أجل مضروب ووقت معين لا يتقدم العذاب عليه ولا يتأخر عنه ولا يأتيهم الا في الوقت الذي حد لهم في اللوح المحفوظ (ما تسبق من أمة أجلها) من زائدة في قوله من أمة كقولك ما جاءني من أحد يعني أحد وقيل هي على أصلها لانها تفيد التبعيض الى هذا الحكم فيكون ذلك في افادة عموم النفي آكد ومعنى الآية ان الاجل المضروب لهم وهو وقت الموت أو نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وهو قوله سبحانه وتعالى (وما يستأخرون) وانما أدخل الهاء في أجلها لارادة الامة وأخرجها من قوله وما يستأخرون لارادة الرجال قوله عز وجل (وقالوا) يعني مشركي مكة (يا أيها الذي نزل عليه الذكر) يعني القرآن وأرادوا به محمدا صلى الله عليه وسلم (انك لمجنون) انما نسبوه الى الجنون لانه صلى الله عليه وسلم كان يظهر عند نزول الوحي عليه ما يشبه الغشي فظنوا ان ذلك جنون فلهذا السبب نسبوه الى الجنون وقيل ان الرجل اذا سمع كلاما مستغربا من غيره فربما نسبه الى الجنون ولما كانوا يستبعدون كونه رسولا من عند الله وأتى بهذا القرآن العظيم أنكروه ونسبوه الى الجنون وانما قالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر على طريق الاستهزاء وقيل معناه يا أيها الذي نزل عليه الذكر في زعمه واعتقاده واعتقاد أصحابه وأتباعه انك لمجنون في ادعائك الرسالة (لوما) قال الزجاج والفراء لوما ولولا لغتان ومعناهما الا يعني هلا (تأتينا بالملائكة) يعني يشهدون لك بانك رسول من عند الله حقا (ان كنت من الصادقين) يعني في قولك وادعائك الرسالة (ما ننزل الملائكة الا بالحق) يعني بالعذاب أو وقت الموت وهو قوله تعالى (وما كانوا اذا منظرين) يعني لو نزلت الملائكة اليهم لم يمهلوا ولم يؤخروا ساعة واحدة وذلك أن كفار مكة كانوا يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم انزال الملائكة عيانا فأجابهم الله عز وجل بهذا والمعنى لو نزلوا عيانا لزال عن الكفار الامهال وعذبوا في الحال ان لم يؤمنوا أو يصدقوا (انا نحن نزلنا الذكر) يعني القرآن أنزلناه عليك يا محمد وانما قال سبحانه وتعالى انا نحن نزلنا الذكر جوابا لقولهم يا أيها الذي نزل عليه الذكر فأخبر الله عز وجل انه هو الذي نزل الذكر على محمد صلى الله عليه وسلم

(وانا له لحافظون) الضمير فى له يرجع الى الذكر يعنى وانا للذكر الذى أنزلناه على محمد لحافظون يعنى من الزيادة فيه والنقص منه والتغيير والتبديل والتحريف فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والانس ان يزيد فيه أو ينقص منه حرفا واحدا أو كلمة واحدة وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان ولما تولى الله عز وجل حفظ هذا الكتاب بقى مصونا على الابد محروسا من الزيادة والنقصان وقال ابن السائب ومقاتل الكناية فى له راجعة الى محمد صلى الله عليه وسلم يعنى وانا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس ووجه هذا القول ان الله سبحانه وتعالى لما ذكر الانزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم فحسن صرف الكناية اليه لكونه أمرا معلوما الا ان القول الاول أصح واشهر وهو قول الاكثرين لانه أشبه بظاهر التنزيل ورد الكناية الى أقرب مذكور أولى وهو الذكر واذا قلنا ان الكناية عائدة الى القرآن وهو الاصح فاختلفوا فى كيفية حفظ الله عز وجل للقرآن فقال بعضهم حفظه بأن جعله معجزا باينا مباينا لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان منه لانهم لو أرادوا الزيادة فيه والنقصان منه لتغير نظمه وظهر ذلك لكل عالم عاقل وعلموا ضرورة أن ذلك ليس بقرآن وقال آخرون ان الله حفظه وصانه من المعارضة فلم يقدر أحد من الخلق ان يعارضه وقال آخرون بل أعجز الله الخلق عن ابطاله وافساده بوجه من الوجوه فقيض الله له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه الى آخر الدهر لان دواعى جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على ابطاله وافساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله تعالى قوله سبحانه وتعالى (ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الاولين) لما تجرأ كفار مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاطبوه بالسفاهة وهو قولهم انك لمجنون وأساؤا الادب عليه أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان عادة الكفار فى قديم الزمان مع أنبيائهم كذلك فلك يا محمد أسوة فى الصبر على أذى قومك بجميع الانبياء ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وفى الآية محذوف تقديره ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يا محمد فحذف ذكر الرسل لدلالة الارسال عليه وقوله تعالى فى شيع الاولين الشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم وقال الفراء الشيعة هم الاتباع وشيعة الرجل أتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان وقوله فى شيع الاولين من باب اضافة الصفة الى الموصوف (وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين) السلوك النفاذ فى الطريق والدخول فيه والسلك ادخال الشئ فى الشئ كادخال الخيط فى المخيط ومعنى الآية كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء فى قلوب شيع الاولين كذلك نسلكه أى ندخله فى قلوب المجرمين يعنى مشركى مكة وفيه رد على القدرية والمعتزلة وهى أبين آية فى ثبوت القدر لمن أذعن للحق ولم يعاند قال الواحدى قال أصحابنا أضاف الله سبحانه وتعالى الى نفسه ادخال الكفر فى قلوب الكفار وحسن ذلك منه فمن آمن بالقرآن فليستحسنه

قال انا نحن فأكد عليهم انه هو المنزل على القطع وانه هو الذى نزله محفوظا من الشياطين وهو حافظه فى كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل بخلاف الكتب المتقدمة فانه لم يتول حفظها وانما استحفظها الربانيين والاحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا فوقع التحريف ولم يكل القرآن الى غير حفظه وقد جعل قوله وانا له لحافظون دليلا على انه منزل من عنده آية اذ لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه أو الضمير فى له لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله والله يعصمك (ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الاولين) أى ولقد أرسلنا من قبلك رسلا فى الفرق الاولين والشيعة الفرقة اذا اتفقوا على مذهب وطريقة (وما يأتيهم) حكاية حال ماضية لان ما لا تدخل على مضارع الا وهو فى معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال (من رسول الا كانوا به يستهزؤن) يعزى نبيه عليه السلام (كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين) أى كما سلكنا الكفر أو الاستهزاء فى شيع الاولين نسلكه أى الكفر أو الاستهزاء فى قلوب المجرمين من أمتك من اختار ذلك يقال سلكت الخيط فى الابرة وأسلكته اذا أدخلته فيها وهو حجة على المعتزلة فى الاصلح وخلق الافعال

وقال الامام فخر الدين الرازى احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يخلق الباطل
والضلال فى قلوب الكفار فقالوا قوله كذلك نسلكه أى كذلك نسلك الباطل والضلال
فى قلوب المجرمين وقالت المعتزلة لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ فلا يمكن
ان يكون الضمير عائدا اليه وأجيب عنه بانه سبحانه وتعالى قال وما يأتيهم من رسول
الا كانوا به يستهزؤن فالضمير فى قوله كذلك نسلكه عائد اليه والاستهزاء بالانبياء كفر
وضلال فثبت صحة قولنا ان المراد من قوله كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين انه الكفر
والضلال وقوله تعالى (لا يؤمنون به) يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل بالقرآن
(وقد خلت سنة الاولين) فيه وعيد وتهديد لكفار مكة يخوفهم أن ينزل بهم مثل
ما نزل بالامم الماضية المكذبة للرسل والمعنى وقد مضت سنة الله باهلاك من كذب الرسل
من الامم الماضية فاحذروا يا أهل مكة ان يصيبكم مثل ما اصابهم من العذاب (ولو فتحنا
عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون) يعنى ولو فتحنا على هؤلاء الذين قالوا لوما تأتينا
بالملائكة بابا من السماء فظلوا يقال ظل فلان يفعل كذا اذا فعله بالنهار كما يقال بات
يفعل كذا اذا فعله بالليل فيه يعنى فى ذلك الباب يعرجون يعنى يصعدون والمعارج
المصاعد وفى المشار اليه بقوله فظلوا فيه يعرجون قولان أحدهما أنهم الملائكة
وهو قول ابن عباس والضحاك والمعنى لو كشف عن ابصار هؤلاء الكفار فرأوا بابا
من السماء مفتوحا والملائكة تصعد فيه لما آمنوا والقول الثانى انهم المشركون
وهو قول الحسن وقتادة والمعنى فظل المشركون يصعدون فى ذلك الباب فينظرون
فى ملكوت السموات وما فيها من الملائكة لما آمنوا لعنادهم وكفرهم ولقالوا
انا سحرنا وهو قوله تعالى (لقالوا انما سكرت أبصارنا) قال ابن عباس سدت أبصارنا
مأخوذ من سكر النهر اذا حبس ومنع من الجرى وقيل هو من سكر الشراب والمعنى
ان ابصارهم حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع للرجل السكران من
تغير العقل وفساد النظر وقيل سكرت يعنى غشيت أبصارنا وسكنت عن النظر وأصله
من السكور يقال سكرت عينه اذا تحيرت وسكنت عن النظر (بل نحن قوم مسحورون)
يعنى سحرنا محمد وعمل فينا بسحره وحاصل الآية ان الكفار لما طلبوا من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان ينزل عليهم الملائكة فيروهم عيانا ويشهدوا بصدقه أخبر
الله سبحانه وتعالى انه لو حصل لهم هذا وشاهدوه عيانا لما آمنوا ولقالوا سحرنا لما سبق
لهم فى الازل من الشقاوة قوله سبحانه وتعالى (ولقد جعلنا فى السماء بروجا) البروج
التى تنزلها الشمس فى مسيرها واحدها برج وهى بروج الفلك الاثنا عشر برجا وهى
الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب
والقوس والجدى والدلو والحوت وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين
منزلا لكل برج منزلان وثلث منزل وقد تقدم ذكر منازل القمر فى تفسير سورة يونس
وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها
الشمس فى كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر فى ثمانية وعشرين يوما

(لا يؤمنون به) بالله أو بالذكر وهو حال (وقد خلت سنة الاولين) مضت طريقتهم التى سنها الله فى اهلاكهم حين كذبوا رسله وهو وعيد لاهل مكة على تكذيبهم (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) ولو اظهرنا لهم أوضح آية وهو فتح باب من السماء (فظلوا فيه يعرجون) يصعدون (لقالوا انما سكرت أبصارنا) حيرت أو حبست من الابصار من السكر أو من السكر سكرت مكى أى حبست كما يحبس النهر من الجرى والمعنى ان هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم فى العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء ويسر لهم معراج يصعدون فيه اليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا هو شئ نتخايله لا حقيقة له ولقالوا (بل نحن قوم مسحورون) قد سحرنا محمد بذلك أو الضمير للملائكة أى لو أريناهم الملائكة يصعدون فى السماء عيانا لقالوا ذلك وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون وقال انما ليدل على انهم يبتون القول بان ذلك ليس الا تسكيرا للابصار (ولقد جعلنا فى السماء) خلقنا فيها (بروجا) نجوما أو قصورا فيها الحرس أو منازل للنجوم

قال ابن عباس فى هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر يعنى منازلهما وقال ابن عطية هى قصور فى السماء عليها الحرس وقال الحسن ومجاهد وقتادة هى النجوم العظام قال أبو إسحق تريدون نجوم هذه البروج وهى نجوم على ما صورت به وسميت وأصل هذا كله من الظهور (وزيناها) يعنى السماء بالشمس والقمر والنجوم (للناظرين) يعنى المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها وصانعها وهو الله الذى أوجد كل شئ وخلقه وصوره (وحفظناها) يعنى السماء (من كل شيطان رجيم) أى مرجوم فعيل بمعنى مفعول وقيل ملعون مطرود من رحمة الله قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها الى الكهنة فيلقونها اليهم فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات أجمع فما منهم من أحد يريد أن يسترق السمع الا رمى بشهاب فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لابليس فقال لقد حدث فى الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا هذا والله حدث (الا من استرق السمع) هذا استثناء منقطع معناه لكن من استرق السمع (فأتبعه) أى لحقه (شهاب مبين) والشهاب شعلة من نار ساطع سمى الكوكب شهابا لاجل ما فيه من البريق شبه بشهاب النار قال ابن عباس فى قوله الا من استرق السمع يريد الخطفة اليسيرة وذلك ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا تخطئ أبدا فمنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله ومنهم من تخبله فيصير غولا يضل الناس فى البوادى (خ) عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الذى قال الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال له أليس قد قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء

(فصل) اختلف العلماء هل كانت الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا على قولين أحدهما انها لم تكن ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما ظهر ذلك فى بدء أمره فكان ذلك أساسا للنبوة صلى الله عليه وسلم ويدل على صحة هذا القول ما روى عن ابن عباس قال انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب أخرجاه فى الصحيحين فظاهر هذا الحديث يدل على ان هذا الرمى بالشهب لم يكن قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم فلما بعث حدث هذا الرمى ويعضده ما روى ان يعقوب بن المغيرة بن الاخنس بن شريق قال اول من فزع للرمى

بالنجوم

(وزيناها) أى السماء (للناظرين) (وحفظناها) أى السماء (من كل شيطان رجيم) ملعون أو مرمى بالنجوم (الا من استرق السمع) أى المسموع ومن فى محل النصب على الاستثناء (فأتبعه شهاب) نجم ينقض فيعود (مبين) ظاهر للمبصرين قيل كانوا لا يحجبون عن السموات كلها فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها

بالنجوم هذا الحي من ثقيف وانهم جاؤا الى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج وكان اهدى العرب فقالوا له ألم تر ما حدث في السماء من القذف بالنجوم فقال بلى ولكن انظروا فان كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الانواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهو والله طي الدنيا وهلاك الخلق الذين فيها وان كانت نجوما غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا لامر أراده الله من الخلق قال الزجاج ويدل على انها كانت بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم أن شعراء العرب الذين ذكروا البرق والاشياء المسرعة لم يوجد في شعرهم ذكر الكواكب المنقضة فلما حدثت بعد مولده صلى الله عليه وسلم استعملت الشعراء ذكرها قال ذو الرمة

كأنه كوكب في اثر عفرية * مسوم في سواد الليل منقضب

والقول الثاني ان ذلك كان موجودا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لما بعث شدد وغلظ عليهم قال معمر قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم قلت افرأيت قوله وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فقال غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم ويدل على صحة هذا القول ما روى عن ابن عباس قال أخبرني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الانصار أنهم بيناهم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ رمى بنجم واستنار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنتم تقولون في الجاهلية اذا رمى بمثل هذا قالوا كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم أو مات رجل عظيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لا يرمى بها لموت احد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك اسمه اذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح الى أهل هذه السماء ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم بما قال فيستخبر بعض أهل السماء بعضا حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفونه الى أوليائهم ويرمون فما جاؤا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقذفون فيه ويزيدون أخرجه مسلم وقال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه ولكن لم يكن في شدة الحراسة مثل بعد مبعثه قال وعلى هذا وجدنا الشعر القديم قال بشر بن أبي خازم وهو جاهلي

فالعير يرهقها الغبار وجحشها * ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر وهو جاهلي

فانقض كالدري يتبعه * نقع يثور تخاله طنبا

والجمع بين هذين القولين ان الرمي بالنجوم كان موجودا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء وحراستها صونا لاخبار الغيوب والله أعلم قوله سبحانه وتعالى (والارض مددناها) يعني بسطناها على وجه الماء كما يقال انها دحيت من تحت الكعبة ثم بسطت هذا قول أهل التفسير وزعم ارباب الهيئة أنها كرة عظيمة بعضها في الماء وبعضها خارج عن الماء وهو الجزء المعمور منها واعتذروا عن قوله تعالى والارض مددناها بأن الكرة اذا كانت عظيمة كان كل جزء منها كالسطح

(والارض مددناها) بسطناها من تحت الكعبة والجمهور على انه تعالى مدها على وجه الماء

العظيم فثبت بهذا الامر أن الارض ممدودة مبسوطة وانها ليست بكرة ورد هذا أصحاب التفسير بان الله أخبر في كتابه بانها ممدودة وانها مبسوطة ولو كانت كرة لاخبر بذلك والله أعلم بمراده وكيف مد الارض (وألقينا فيها رواسي) يعني جبالا ثوابت وذلك ان الله سبحانه وتعالى لما خلق الارض على الماء مادت ورجفت فاثبتها بالجبال (وأنبتنا فيها) أي في الارض لان أنواع النبات المنتفع به تكون في الارض وقيل الضمير يرجع الى الجبال لانها أقرب مذكور ولقوله تعالى (من كل شئ موزون) وانما يوزن ما تولد في الجبال من المعادن وقال ابن عباس وسعيد بن جبير موزون أي معلوم وقال مجاهد وعكرمة أي مقدور فعلى هذا يكون المعنى معلوم القدر عند الله تعالى لان الله سبحانه وتعالى يعلم القدر الذي يحتاج اليه الناس في معايشهم وأرزاقهم فيكون اطلاق الوزن عليه مجازا لان الناس لا يعرفون مقادير الاشياء الا بالوزن وقال الحسن وعكرمة وابن زيد انه عني به الشئ الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد والكحل ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن لان هذه الاشياء كلها توزن وقيل معنى موزون متناسب في الحسن والهيئة والشكل تقول العرب فلان موزون الحركات اذا كانت حركاته متناسبة حسنة وكلام موزون اذا كان متناسبا حسنا بعيدا من الخطا والسخف وقيل ان جميع ما ينبت في الارض والجبال نوعان أحدهما ما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون والثاني النبات وبعضه موزون أيضا وبعضه مكيل وهو يرجع الى الوزن لان الصاع والمد مقدران بالوزن (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة وهو ما يعيش به الانسان مدة حياته في الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس ونحو ذلك (ومن لستم له برازقين) يعني الدواب والوحش والطير أنتم منتفعون بها ولستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على الله ومنه قوله تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها وتكون من في قوله تعالى ومن لستم بمعنى ما لان من لمن يعقل وما لمن لا يعقل وقيل يجوز اطلاق لفظة من على من لا يعقل كقوله تعالى فمنهم من يمشي على بطنه وقيل أراد بهم العبيد والخدم فتكون من على أصلها ويدخل معهم ما لا يعقل من الدواب والوحش (وان من شئ الا عندنا خزائنه) الخزائن جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشئ للحفظ يقال خزن الشئ اذا احرزه فقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل أراد بالخزائن المطر لانه سبب الارزاق والمعايش لبني آدم والدواب والوحش والطير ومعنى عندنا انه في حكمه وتصرفه وأمره وتدبيره قوله تعالى (وما ننزله الا بقدر معلوم) يعني بقدر الكفاية وقيل ان لكل أرض حدا ومقدارا من المطر يقال لا تنزل من السماء قطرة مطر الا ومعها ملك يسوقها الى حيث يشاء الله تعالى وقيل ان المطر ينزل من السماء كل عام بقدر واحد لا يزيد ولا ينقص ولكن الله يمطر قوما ويحرم آخرين وقيل اذا أراد الله بقوم خيرا انزل عليهم المطر والرحمة واذا أراد بقوم شرا صرف المطر عنهم الى حيث لا ينتفع به كالبراري والقفار والرمال والبحار ونحو ذلك وحكى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده انه قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر وهو تأويل قوله

(وألقينا فيها رواسي) في الارض جبالا ثوابت (وانبتنا فيها من كل شئ موزون) وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان أوله وزن وقدر في أبواب المنفعة والنعمة أو ما يوزن كالزعفران والذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها وخص ما يوزن لانتهاء الكيل الى الوزن (وجعلنا لكم فيها) في الارض (معايش) ما يعاش به من المطاعم جمع معيشة وهي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فان تصريح الياء فيها خطأ (ومن لستم له برازقين) من في محل النصب بالعطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لكم من لستم له برازقين أو جعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يظنون انهم يرزقونهم ويخطؤن فان الله هو الرزاق يرزقهم واياهم ويدخل فيه الانعام والدواب ونحو ذلك ولا يجوز أن يكون محل من جرا بالعطف على الضمير المجرور في لكم لانه لا يعطف على الضمير المجرور الا باعادة الجار (وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) ذكر الخزائن تمثيل والمعنى وما من شئ ينتفع به العباد الا ونحن قادرون على ايجاده وتكوينه والانعام به وما نعطيه الا بمقدار معلوم فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور

وان

وان من شئ الا عندنا خزائنه (وأرسلنا الرياح لواقح) قال ابن عباس يعني للشجر وهو
قول الحسن وقتادة وأصل هذا من قولهم لقحت الناقة وألقحها الفحل اذا ألقى اليها
الماء فحملته فكذلك الرياح كالفحل للسحاب وقال ابن مسعود في تفسير هذه الآية
يرسل الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء فتمجه في السحاب ثم تمريه فتدر كما تدر
اللقحة وقال عبيد بن عمير يرسل الله الريح المبشرة فتقم الارض قما ثم يرسل المثيرة فتثير
السحاب ثم يرسل المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه الى بعض فتجعله ركاما ثم يرسل اللواقح
فتلقح الشجر والاظهر في هذه الآية اللواقح السحاب لقوله بعده فأنزلنا من السماء ماء
قال أبو بكر بن عياش لا تقطر قطرة من السماء الا بعد ان تعمل الرياح الاربع فيها
فالصبا تهيج السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه وقال أبو عبيدة
لواقح هنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة حذفت الميم وردت الى الاصل وقال الزجاج يجوز أن
يقال لها لواقح وان ألقحت غيرها لان معناها النسبة كما يقال درهم وازن أي ذو وزن
واعترض الواحدي على هذا فقال هذا ليس بشئ لانه كان يجب ان يصح اللاقح بمعنى
ذات لقح حتى يوافق قول المفسرين وأجاب الرازي عنه بأن قال هذا ليس بشئ لان
اللاقح هو المنسوب الى اللقحة ومن أفاد غيره اللقحة فله نسبة الى اللقحة وقال صاحب
المفردات لواقح أي ذات لقاح وقيل ان الريح في نفسها لاقح لانها حاملة للسحاب
والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى حتى اذا أقلت سحابا ثقالا أي حملت فعلى هذا تكون
الريح لاقحة بمعنى حاملة تحمل السحاب وقال الزجاج ويجوز أن يقال للريح لقحت اذا
أتت بالخير كما قيل لها عقيم اذا لم تأت بخير وورد في بعض الاخبار ان الملقح الرياح
الجنوب وفي بعض الآثار ما هبت رياح الجنوب الا وأنبعت عينا غدقة (ق) عن عائشة
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا عصفت الريح قال اللهم اني أسألك خيرها وخير
ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وروى
البغوي بسنده الى الشافعي الى ابن عباس قال ما هبت ريح قط الا جثا النبي صلى الله
عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا اللهم اجعلها رياحا
ولا تجعلها ريحا قال ابن عباس في كتاب الله عز وجل انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا
فأرسلنا عليهم الريح العقيم وقال وأرسلنا الرياح لواقح وقال يرسل الرياح مبشرات
وقوله سبحانه وتعالى (فأنزلنا من السماء ماء) يعني المطر (فأسقيناكموه) يعني جعلنا
لكم المطر سقيا يقال أسقى فلان فلانا اذا جعل له سقيا وسقاه اذا أعطاه ما يشرب
وتقول العرب سقيت الرجل ماء ولبنا اذا كان لسقيه فاذا جعلوا له ماء لشرب أرضه
أو ماشيته يقال اسقيناه (وما أنتم له) يعني للمطر (بخازنين) يعني ان المطر في خزائننا
لا في خزائنكم وقيل وما أنتم له بمانعين (وانا لنحن نحيي ونميت) يعني بيدنا احياء الخلق
واماتتهم لا يقدر على ذلك أحد الا الله سبحانه وتعالى لان قوله تعالى وانا لنحن يفيد
الحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا (ونحن الوارثون) وذلك بأن نميت جميع الخلق فلا
يبقى أحد سوانا فيزول ملك كل مالك ويبقى جميع ملك المالكين لنا والوارث هو الباقي

(وأرسلنا الرياح لواقح) جمع
لاقحة أي وأرسلنا الرياح حوامل
بالسحاب لانها تحمل السحاب
في جوفها كأنها لاقحة بها من
لقحت الناقة حملت وضدها
العقيم الريح حمزة (فأنزلنا من
السماء ماء فأسقيناكموه)
فجعلناه لكم سقيا (وما أنتم له
بخازنين) نفى عنهم ما أثبته لنفسه
في قوله وان من شئ الا عندنا
خزائنه كأنه قال نحن الخازنون
للماء على معنى نحن القادرون
على خلقه في السماء وانزاله منها
وما أنتم عليه بقادرين دلالة
على عظمة قدرتنا وعجزهم (وانا
لنحن نحيي ونميت) أي نحيي
بالايجاد ونميت بالافناء أو نميت
عند انقضاء الآجال ونحيي
لجزاء الاعمال على التقديم
والتأخير اذ الواو للجمع المطلق
(ونحن الوارثون) الباقون بعد
هلاك الخلق كلهم وقيل للباقي
وارث استعارة من وارث الميت
لانه يبقى بعد فنائه

بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه الذين أمتعهم بما آتاهم
في الحياة الدنيا لان وجود الخلق وما آتاهم كان ابتداؤه منه تعالى فاذا أفنى جميع
الخلائق رجع الذي كانوا يملكونه في الدنيا على المجاز الى مالكه على الحقيقة وهو الله
تعالى وقيل مصير الخلق اليه قوله عز وجل (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا
المستأخرين) عن ابن عباس قال كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم
من أحسن الناس فكان بعض الناس يتقدم حتى يكون في الصف الاول لئلا يراها
ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فاذا ركع نظر من تحت ابطيه فانزل الله
عز وجل ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين أخرجه النسائي وأخرجه
الترمذي وقال فيه وقد روى عن ابن الجوزي نحوه ولم يذكر فيه عن ابن عباس وهذا
أشبه أن يكون أصح قال البغوي وذلك ان النساء كن يخرجن الى الجماعة فيقفن خلف
الرجال فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر الى آخر صف الرجال ومن النساء من
في قلبها ريبة فتتقدم الى أول صف النساء لتقرب من الرجال فنزلت هذه الآية فعند ذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف
النساء آخرها وشرها أولها أخرجه مسلم عن أبي هريرة وقال ابن عباس أراد بالمستقدمين
من خلق الله وبالمستأخرين من لم يخلق الله تعالى بعد وقال مجاهد المستقدمون القرون
الاولى والمستأخرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الحسن المستقدمون يعني
في الطاعة والخير والمستأخرون يعني فيهما وقال الاوزاعي أراد بالمستقدمين المصلين
في أول الوقت وبالمستأخرين المؤخرين لها الى آخره وقال مقاتل أراد بالمستقدمين
والمستأخرين في صف القتال وقال ابن عيينة أراد من يسلم أولا ومن يسلم آخرا وقال
ابن عباس في رواية أخرى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الاول
فازدحموا عليه وقال قوم كانت بيوتهم قاصية عن المسجد لنبيعن دورنا ونشتري دورا
قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت هذه الآية ومعناها انما تجزون على
النيات فاطمأنوا وسكنوا فيكون معنى الآية على القول الاول المستقدم للتقوى
والمستأخر للنظر وعلى القول الاخير المستقدم لطلب الفضيلة والمستأخر للعذر ومعنى
الآية ان علمه سبحانه وتعالى محيط بجميع خلقه متقدمهم ومتأخرهم طائعهم وعاصيهم
لا يخفى عليه شئ من أحوال خلقه (وان ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم) يعني على ما علم
منهم وقيل ان الله سبحانه وتعالى يميت الكل ثم يحشرهم الاولين والآخرين على ما ماتوا
عليه (م) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث كل عبد على ما مات عليه
قوله سبحانه وتعالى (ولقد خلقنا الانسان) يعني آدم عليه السلام في قول جميع
المفسرين سمي انسانا لظهوره وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه عهد اليه
فنسي (من صلصال) يعني من الطين اليابس الذي اذا نقرته سمعت له صلصلة يعني صوتا
وقال ابن عباس هو الطين الحر الطيب الذي اذا نضب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع
وقال مجاهد هو الطين المنتن واختاره الكسائي وقال هو من صل اللحم اذا أنتن (من حما)

(ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) من تقدم ولادة وموتا ومن تأخر أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد أو من تقدم في الاسلام أو في الطاعة أو في صف الجماعة أو صف الحرب ومن تأخر (وان ربك هو يحشرهم) أي هو وحده يقدر على حشرهم ويحيط بحصرهم (انه حكيم عليم) باهر الحكمة واسع العلم (ولقد خلقنا الانسان) أي آدم (من صلصال) طين يابس غير مطبوخ (من حما) صفة لصلصال أي خلقه من صلصال كائن من حما أي طين أسود متغير

يعني من الطين الاسود (مسنون) أي متغير قال مجاهد وقتادة هو المنتن المتغير وقال
أبو عبيدة هو المصبوب تقول العرب سننت الماء اذا صببته قال ابن عباس هو التراب
المبتل المنتن جعل صلصالا كالفخار والجمع بين هذه الاقاويل على ماذكره بعضهم ان الله
سبحانه وتعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الارض فبلها بالماء
حتى اسودت وأنتن ريحها وتغيرت واليه الاشارة بقوله ان مثل عيسى عند الله كمثل
آدم خلقه من تراب ثم ان ذلك التراب بل بالماء وخمر حتى اسود وأنتن ريحه وتغير واليه
الاشارة بقوله من حمأ مسنون ثم ذلك الطين الاسود المتغير صوره صورة انسان أجوف
فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فتسمع له صلصلة يعني صوتا واليه الاشارة بقوله
من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس اذا تفخر في الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان
بشرا سويا قوله تعالى (والجان خلقناه من قبل) يعني من قبل آدم عليه السلام قال ابن
عباس الجان أبو الجن كما ان آدم أبو البشر وقال قتادة هو ابليس وقيل الجان أبو الجن
وابليس أبو الشياطين وفي الجن مسلمون وكافرون يأكلون ويشربون ويحيون
ويموتون كبني آدم وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس
وقال وهب ان من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هو
بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين والاصح ان الشياطين
نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الاعين من
قولهم جن الليل اذا ستر والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن
ومنهم الكافر (من نار السموم) يعني من ريح حارة تدخل مسام الانسان من لطفها
وقوة حرارتها فتقتله ويقال للريح الحارة التي تكون بالنهار السموم وللريح الحارة التي
تكون بالليل الحرور وقال أبو صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهي
نار بين السماء والحجاب فاذا احدث أمر خرقت الحجاب فهوت الى ما أمرت به فالهدة
التي تسمعون من خرق ذلك الحجاب وهذا على قول أصحاب الهيئة ان الكرة الرابعة
تسمى كرة النار وقيل من نار السموم يعني من نار جهنم وقال ابن مسعود هذه السموم
جزء من سبعين جزأ من السموم التي خلق منها الجان وتلا هذه الآية وقال ابن عباس
كان ابليس من حي من الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم وخلقت الجن
الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور قوله عز وجل
(واذ قال ربك للملائكة) أي واذكر يا محمد اذ قال ربك للملائكة (اني خالق بشرا) سمي
الآدمي بشرا لانه جسم كثيف ظاهر البشرة ظاهر الجلد (من صلصال من حمأ مسنون)
تقدم تفسيره (فاذا سويته) يعني عدلت صورته وأتممت خلقه (ونفخت فيه من روحي)
النفخ عبارة عن اجراء الريح في تجاويف جسم آخر ومنه نفخ الروح في النشأة الاولى
وهو المراد من قوله ونفخت فيه من روحي وأضاف الله عز وجل روح آدم الى نفسه
على سبيل التشريف والتكريم لها كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وسيأتي الكلام
على الروح في تفسير سورة الاسراء عند قوله ويسئلونك عن الروح ان شاء الله تعالى

(مسنون) مصور وفي الاول كان
ترابا فعجن بالماء فصار طينا فمكث
فصار حمأ فخلص فصار سلالة
فصور ويبس فصار صلصالا فلا
تناقض (والجان) أبا الجن كآدم
للناس أو هو ابليس وهو
منصوب بفعل مضمر يفسره
(خلقناه من قبل) من قبل آدم
(من نار السموم) من نار الحر
الشديد النافذ في المسام قيل
هذه السموم جزء من سبعين جزأ
من سموم النار التي خلق الله منها
الجان (واذ قال ربك) واذكر
وقت قوله (للملائكة اني خالق
بشرا من صلصال من حمأ مسنون
فاذا سويته) أتممت خلقته
وهيأتها لنفخ الروح فيها
(ونفخت فيه من روحي) وجعلته
فيه الروح وأحييته وليس ثمت
نفخ وانما هو تمثيل والاضافة
للتخصيص

(فقعوا له ساجدين) هو أمر من وقع يقع أي اسقطوا على الارض يعني اسجدوا له ودخل الفاء لانه جواب اذا وهو دليل على
انه يجوز تقدم الامر عن وقت الفعل (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) فالملائكة جمع عام محتمل للتخصيص فقطع باب
التخصيص بقوله كلهم وذكر الكل احتمل تأويل التفرق فقطعه بقوله أجمعون (الا ابليس) ظاهر الاستثناء يدل على انه
كان من الملائكة لان المستثنى يكون من جنس المستثنى منه وعن الحسن ان الاستثناء منقطع ولم يكن هو من
الملائكة فلما تناولهما الأمر ولا يصير
بالترك ملعونا وقال في الكشاف
كان بينهم مأمورا معهم بالسجود
فغلب اسم الملائكة ثم استثنى
بعد التغليب كقولك رأيتهم الا
هندا (أبى أن يكون مع
الساجدين) امتنع أن يكون
معهم وأبى استئناف على تقدير
قول قائل يقول هلا سجد فقيل
أبى ذلك واستكبر عنه وقيل
معناه ولكن ابليس أبى (قال
يا ابليس مالك ألا تكون مع
الساجدين) حرف الجر مع أن
محذوف تقديره مالك في أن
لا تكون مع الساجدين أي أي
غرض لك في اباءك السجود (قال
لم أكن لاسجد) اللام لتأكيد
النفي أي لا يصح مني أن اسجد
(لبشر خلقته من صلصال من
حمإ مسنون قال فاخرج منها)
من السماء أو من الجنة أو من
جملة الملائكة (فانك رجيم)
مطرود من رحمة الله ومعناه
ملعون لان اللعنة هو الطرد
من الرحمة والابعاد منها (وان
عليك اللعنة الى يوم الدين)
ضرب يوم الدين حدا للعنة لانه
أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم
والمراد به انك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والارض الى يوم الدين من غير أن تعذب فاذا جاء ذلك اليوم ذلك
عذبت بما ينسى اللعن معه (قال رب فانظرني) فأخرني (الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) يوم الدين
ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم في معنى واحد ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة وقيل انما سأل
الانظار الى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت لانه لا يموت يوم البعث أحد فلم يجب الى ذلك وأنظر الى آخر أيام التكليف

(فقعوا له ساجدين) الخطاب للملائكة الذين قال الله لهم اني خالق بشرا أمرهم
بالسجود لآدم بقوله فقعوا له ساجدين وكان هذا السجود سجود تحية لا سجود عبادة
(فسجد الملائكة كلهم) يعني الذين أمروا بالسجود لآدم (أجمعون) قال سيبويه هذا
توكيد بعد توكيد وسئل المبرد عن هذه الآية فقال لو قال فسجد الملائكة لاحتمل أن
يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم لزم ازالة ذلك الاحتمال فظهر بهذا انهم سجدوا بأسرهم
ثم عند هذا بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا في أوقات متفرقة أو في دفعة واحدة
فلما قال أجمعون ظهر ان الكل سجدوا دفعة واحدة ولما حكى الزجاج هذا القول
عن المبرد قال وقول الخليل وسيبويه أجود لان أجمعين معرفة فلا تكون حالا روى
عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله سبحانه وتعالى أمر جماعة من الملائكة بالسجود
لآدم فلم يفعلوا فارسل الله عليهم نارا فأحرقتهم ثم قال لجماعة أخرى اسجدوا لآدم
فسجدوا (الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين) يعني مع الملائكة الذين أمروا
بالسجود لآدم فسجدوا (قال) يعني قال الله (يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين
قال) يعني ابليس (لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون) أراد ابليس
انه أفضل من آدم لان آدم طيني الاصل وابليس ناري الاصل والنار أفضل من الطين
فيكون ابليس في قياسه أفضل من آدم ولم يدر الخبيث ان الفضل فيما فضله الله تعالى
(قال فاخرج منها) يعني من الجنة وقيل من السماء (فانك رجيم) أي طريد (وان عليك
اللعنة الى يوم الدين) قيل ان أهل السموات يلعنون ابليس كما يلعنه أهل الارض
فهو ملعون في السماء والارض فان قلت ان حرف الى لانتهاء الغاية فهل ينقطع اللعن
عنه يوم الدين الذي هو يوم القيامة قلت لا بل يزداد عذابا الى اللعنة التي عليه كأنه قال
تعالى وان عليك اللعنة فقط الى يوم الدين ثم تزداد معها بعد ذلك عذابا دائما مستمرا
لا انقطاع له (قال رب فانظرني) يعني أخرني (الى يوم يبعثون) يعني يوم القيامة وأراد
بهذا السؤال انه لا يموت أبدا لانه اذا أمهل الى يوم القيامة ويوم القيامة لا يموت فيه
أحد لزم من ذلك انه لا يموت أبدا فلهذا السبب سأل الانظار الى يوم يبعثون فأجابه الله
سبحانه وتعالى بقوله (قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) يعني الوقت الذي
يموت فيه جميع الخلائق وهو النفخة الاولى فيقال ان مدة موت ابليس أربعون سنة
وهو ما بين النفختين ولم تكن اجابة الله تعالى اياه في الامهال اكراما له بل كان ذلك
الامهال زيادة له في بلائه وشقائه وعذابه وانما سمي يوم القيامة يوم الوقت المعلوم لان

ذلك اليوم لا يعلمه أحد الا الله تعالى فهو معلوم عنده وقيل لان جميع الخلائق يموتون فيه فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل لما سأل ابليس الانظار الى يوم يبعثون أجابه الله بقوله فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم يعني اليوم الذي عينت وسألت الانظار اليه (قال رب بما أغويتني) الباء للقسم في قوله بما وما مصدرية وجواب القسم (لأزينن) والمعنى فبإغوائك اياي لأزينن لهم في الارض وقيل هي باء السبب يعني بسبب كوني غاويا لأزينن (لهم في الارض) يعني لأزينن لهم حب الدنيا ومعاصيك (ولأغوينهم أجمعين) يعني بالقاء الوسوسة في قلوبهم وذلك ان ابليس لما علم انه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على اضلال الخلق بالكفر واغوائهم ثم استثنى فقال (الا عبادك منهم المخلصين) يعني المؤمنين الذين أخلصوا لك التوحيد والطاعة والعبادة ومن فتح اللام من المخلصين يكون المعنى الا من أخلصته واصطفيته لتوحيدك وعبادتك وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده ووسوسته لا تعمل فيهم ولا يقبلون منه وحقيقة الاخلاص فعل الشئ خالصا لله عن شائبة الغير فكل من أتى بعمل من أعمال الطاعات فلا يخلو اما أن يكون مراده بتلك الطاعة وجه الله فقط أو غير الله أو مجموع الامرين أما ما كان لله تعالى فهو الخالص المقبول وأما ما كان لغير الله فهو الباطل المردود وأما من كان مراده مجموع الامرين فان ترجح جانب الله تعالى كان من المخلصين الناجين وان ترجح الجانب الآخر كان من الهالكين لان المثل يقابله المثل فيبقى القدر الزائد والى أي الجانبين رجح أخذ به (قال) يعني قال الله تبارك وتعالى (هذا صراط على مستقيم) قال الحسن معناه هذا صراط الى مستقيم وقال مجاهد الحق يرجع الى الله وعليه طريقه لا يعرج الى شئ وقال الاخفش معناه على الدلالة على الصراط المستقيم وقال الكسائي هذا على طريق التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه طريقك على أي لا تنفلت مني وقيل معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية وقيل هذا عائد الى الاخلاص والمعنى ان الاخلاص طريق على والى يؤدي الى كرامتي ورضواني (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) أي قوة وقدرة وذلك ان ابليس لما قال لأزينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين أوهم بهذا الكلام ان له سلطانا على غير المخلصين فبين الله سبحانه وتعالى انه ليس له سلطان على أحد من عبيده سواء كان من المخلصين أو لم يكن من المخلصين قال أهل المعاني ليس لك سلطان على قلوبهم وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان ان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي وهؤلاء خاصتي أي الذين هداهم واجتباهم من عبيده (الا من اتبعك من الغاوين) يعني الا من اتبع ابليس من الغاوين فان له عليهم سلطانا بسبب كونهم منقادين له فيما يأمرهم به (وان جهنم لموعدهم أجمعين) يعني موعد ابليس وأشياعه واتباعه (لها) يعني لجهنم (سبعة أبواب) يعني سبع طبقات قال علي بن أبي طالب تدرون كيف أبواب جهنم هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى أي سبعة أبواب بعضها فوق بعض قال ابن جريج النار سبع دركات أولها جهنم ثم

(قال رب بما أغويتني) الباء للقسم وما مصدرية وجواب القسم لأزينن لهم والمعنى أقسم باغوائك اياي (لأزينن لهم) المعاصي ونحو قوله بما أغويتني لأزينن لهم فبعزتك لأغوينهم في انه اقسام الا ان أحدهما اقسام بصفة الذات والثاني بصفة الفعل وقد فرق الفقهاء بينهما فقال العراقيون الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة يمين والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين والاصح ان الايمان مبنية على العرف فما تعارف الناس الحلف به يكون يمينا وما لا فلا والآية حجة على المعتزلة في خلق الافعال وحملهم على التسبيب عدول عن الظاهر (في الارض) في الدنيا التي هي دار الغرور وأراد اني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الاكل من الشجرة وهو في السماء فانا على التزيين لاولاده في الارض أقدر (ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين) وبكسر اللام بصري ومكي وشامي استثنى المخلصين لانه علم ان كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلونه منه (قال هذا صراط على مستقيم ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) أي هذا طريق حق على أن اراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي الا من اختار اتباعك منهم لغوايته وقيل معنى على الى على يعقوب من علو الشرف والفضل (وان جهنم لموعدهم أجمعين) الضمير للغاوين (لها سبعة أبواب

لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية (لكل باب منهم جزء مقسوم) يعني لكل دركة قوم يسكنونها والجزء بعض الشئ وجزأته جعلته اجزاء والمعنى أن الله سبحانه وتعالى يجزئ اتباع ابليس سبعة أجزاء فيدخل كل قسم منهم دركة من النار والسبب فيه ان مراتب الكفر مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم في النار قال الضحاك في الدركة الاولى أهل التوحيد الذين ادخلوا النار يعذبون فيها بقدر ذنوبهم ثم يخرجون منها وفي الثانية النصارى وفي الثالثة اليهود وفي الرابعة الصابئون وفي الخامسة المجوس وفي السادسة أهل الشرك وفي السابعة المنافقون فذلك قوله سبحانه وتعالى ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي أو قال على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قوله سبحانه وتعالى (ان المتقين في جنات وعيون) المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك في قول جمهور المفسرين وقيل هم الذين اتقوا الشرك والمعاصي والجنات البساتين والعيون الانهار الجارية في الجنات وقيل يحتمل أن تكون هذه العيون غير الانهار الكبار التي في الجنة وعلى هذا فهل يختص كل واحد من أهل الجنة بعيون أو تجري هذه العيون من بعضهم الى بعض وكلا الامرين محتمل فيحتمل ان كل واحد من أهل الجنة يختص بعيون تجري في جنانه وقصوره ودوره فينتفع بها هو ومن يختص به من حوره وولدانه ويحتمل انها تجري من جنات بعضهم الى جنات بعض لانهم قد طهروا من الحسد والحقد (ادخلوها) أي يقال لهم ادخلوها والقائل هو الله تعالى أو بعض ملائكته (بسلام آمنين) يعني ادخلوا الجنة مع السلامة والامن من الموت ومن جميع الآفات (ونزعنا ما في صدورهم من غل) الغل الحقد الكامن في القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد وكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل لانها كامنة في القلب يروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد (اخوانا) يعني في المحبة والمودة والمخالطة وليس المراد منه أخوة النسب (على سرر) جمع سرير قال بعض أهل المعاني السرير مجلس رفيع عال مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لانه مجلس سرور وقال ابن عباس على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل صنعاء الى الجابية (متقابلين) يعني يقابل بعضهم بعضا لا ينظر أحد منهم في قفا صاحبه وفي بعض الاخبار ان المؤمن في الجنة اذا أراد أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما الى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان (لا يمسهم فيها) يعني في الجنة (نصب) أي تعب ولا اعياء (وما هم منها) يعني من الجنة (بمخرجين) هذا نص من الله في كتابه على خلود أهل الجنة في الجنة والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان قوله سبحانه وتعالى (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم) قال ابن عباس يعني لمن تاب منهم

لكل باب منهم) من اتباع ابليس (جزء مقسوم) نصيب معلوم مفرز قيل أبواب النار أطباقها وادراكها فأعلاها للموحدين يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون والثاني لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين (ان المتقين في جنات وعيون) وبضم العين مدني وبصري وحفص المتقي على الاطلاق من يتقي ما يجب اتقاؤه عما نهي عنه وقال في الشرح ان دخل أهل الكبائر في قوله لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم فالمراد بالمتقين الذين اتقوا الكبائر والا فالمراد به الذين اتقوا الشرك (ادخلوها) أي يقال لهم ادخلوها (بسلام) حال أي سالمين أو مسلما عليكم تسلم عليكم الملائكة (آمنين) من الخروج منها والآفات فيها وهو حال أخرى (ونزعنا ما في صدورهم من غل) وهو الحقد الكامن في القلب أي ان كان لاحدهم غل في الدنيا على آخر نزع الله ذلك في الجنة من قلوبهم وطيب نفوسهم وعن علي رضي الله عنه أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم وقيل معناه طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التوادد والتحابب (اخوانا) حال (على سرر متقابلين) كذلك قيل تدور بهم الاسرة حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين يرى بعضهم بعضا (لا يمسهم فيها نصب) في الجنة تعب (وما هم منها بمخرجين) فتمام النعمة بالخلود ولما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم

وروى

ودروى ان النبى صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون وبين أيديكم النار فنزل جبريل بهذه الآية وقال يقول لك ربك يا محمد لم تقنط عبادى ذكره البغوى بغير سند (وأن عذابى هو العذاب الأليم) قال قتادة بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم العبد قدر عذابه لبخع نفسه يعنى لقتل نفسه (خ) عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله سبحانه وتعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة وادخل فى خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار وفى الآية لطائف منها انه سبحانه وتعالى أضاف العباد الى نفسه بقوله نبئ عبادى وهذا تشريف وتعظيم لهم ألا ترى انه لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله سبحان الذى أسرى بعبده ليلا فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل فى هذا التشريف العظيم ومنها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بألفاظ ثلاثة أولها قوله أنى وثانيها أنا وثالثها ادخال الالف واللام فى الغفور والرحيم وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ولما ذكر العذاب لم يقل انى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وان عذابى هو العذاب الاليم على سبيل الاخبار ومنها انه سبحانه وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يبلغ عباده هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة قوله سبحانه وتعالى (ونبئهم عن ضيف ابراهيم) هذا معطوف على ما قبله أى واخبر يا محمد عبادى عن ضيف ابراهيم وأصل الضيف الميل يقال ضفت الى كذا اذا ملت اليه والضيف من مال اليك نزولا بك وصارت الضيافة متعارفة فى القرى وأصل الضيف مصدر ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى عامة كلامهم وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان وضيف ابراهيم هم الملائكة الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى ليبشروا ابراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط (اذ دخلوا عليه) يعنى اذ دخل الاضياف على ابراهيم عليه السلام (فقالوا سلاما) أى نسلم سلاما (قال) يعنى ابراهيم (انا منكم وجلون) أى خائفون وانما خاف ابراهيم منهم لانهم لم يأكلوا طعامه (قالوا لا توجل) يعنى لا تخف (انا نبشرك بغلام عليم) يعنى انهم بشروه بولد ذكر غلام فى صغره عليم فى كبره وقيل عليم بالاحكام والشرائع والمراد به اسحق عليه السلام فلما بشروه بالولد عجب ابراهيم من كبره وكبر امرأته (قال أبشرتمونى) يعنى بالولد (على ان مسنى الكبر) يعنى على حالة الكبر قاله على طريق التعجب (فبم تبشرون) يعنى فبأى شئ تبشرون وهو استفهام بمعنى التعجب كانه عجب من حصول الولد على الكبر (قالوا بشرناك بالحق) يعنى بالصدق الذى قضاه الله

(وأن عذابى هو العذاب الاليم) تقرير المذكور وتمكينه فى النفوس قال عليه السلام لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه فى العبادة ولما أقدم على ذنب وعطف

(ونبئهم) وأخبر أمتك على نبئ عبادى ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ويتحققوا عنده ان عذابه هو العذاب الاليم (عن ضيف ابراهيم) أى أضيافه وهو جبريل عليه السلام مع أحد عشر ملكا والضيف يجئ واحدا وجمعا لانه مصدر ضافه (اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاما أو سلمنا سلاما (قال) أى ابراهيم (انا منكم وجلون) خائفون لامتناعهم من الاكل أو لدخولهم بغير اذن وبغير وقت (قالوا لا توجل) لا تخف (انا نبشرك) استئناف فى معنى التعليل للنهى عن الوجل اى انك مبشر آمن فلا توجل وبالتخفيف وفتح النون حمزة (بغلام عليم) هو اسحق لقوله فى سورة هود فبشرناها باسحق (قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر) أى أبشرتمونى مع مس الكبر بان يولد لى أى ان الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر (فبم تبشرون) هى ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب كانه قيل فبأى اعجوبة تبشرون وبكسر النون والتشديد مكى والاصل تبشروننى فادغم نون الجمع فى نون العماد ثم حذفت الياء وبقيت الكسرة دليلا عليها تبشرون بالتخفيف نافع والاصل تبشروننى فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة وحذف نون الجمع لاجتماع النونين الباقون بفتح النون وحذف المفعول والنون نون الجمع (قالوا بشرناك بالحق) باليقين الذى لا لبس فيه

(فلا تكن من القانطين) من الآيسين من ذلك (قال) ابراهيم (ومن يقنط) وبكسر النون بصرى وعلى (من رحمة ربه الا الضالون) الا المخطؤن طريق الصواب أو الا الكافرون كقوله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون أى لم استنكر ذلك قنوطا من رحمته ولكن استبعادا له فى العادة التى أجراها (قال فما خطبكم) فما شأنكم (أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين) أى قوم لوط (الا آل لوط) يريد أهله المؤمنين والاستثناء منقطع لان القوم موصوفون بالاجرام والمستثنى ليس كذلك أو متصل فيكون استثناء من الضمير فى مجرمين كأنه قيل الى قوم قد أجرموا كلهم الا آل لوط وحدهم والمعنى يختلف باختلاف الاستثناءين لان آل لوط 130 مخرجون فى المنقطع من حكم الارسال يعنى انهم أرسلوا الى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا الى آل لوط أصلا ومعنى ارسالهم الى القوم المجرمين كارسال السهم الى المرمى فى أنه فى معنى التعذيب والاهلاك كأنه قيل انا أهلكنا قوما مجرمين ولكن آل لوط أنجيناهم وأما فى المتصل فهم داخلون فى حكم الارسال يعنى ان الملائكة أرسلوا اليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء واذا انقطع الاستثناء جرى (انا لمنجوهم أجمعين) مجرى خبر لكن فى الاتصال بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجون واذا اتصل كان كلاما مستأنفا كان ابراهيم عليه السلام قال لهم فما بال آل لوط فقالوا انا لمنجوهم (الا امرأته) مستثنى من الضمير المجرور فى لمنجوهم وليس باستثناء من الاستثناء لان الاستثناء من الاستثناء انما يكون فيما اتحد الحكم فيه بأن يقول أهلكناهم الا آل لوط الا امرأته وهنا قد اختلف الحكمان لان الا آل لوط متعلق بارسلنا أو بمجرمين والا امرأته متعلق بمنجوهم فكيف يكون استثناء من استثناء لمنجوهم بالتخفيف حمزة وعلى (قدرنا) وبالتخفيف أبو بكر (انها لمن الغابرين) الباقين فى العذاب قيل لولم تكن اللام فى خبرها لوجب فتح ان لانه مع اسمه وخبره مفعول قدرنا ولكنه كقوله ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون وانما أسند الملائكة فعل التقدير الى أنفسهم ولم يقولوا قدر الله لقربهم كما يقول خاصة الملك أمرنا بكذا والآمر هو الملك (فلما جاء آل لوط المرسلون قال انكم قوم منكرون) أى لا أعرفكم أى ليس عليكم زى السفر ولا أنتم من أهل الحضر فاخاف ان تطرقونى بشر (قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أى ما جئناك بما تنكرنا لاجله بل جئناك بما فيه سرورك وتشفيك من أعدائك وهو العذاب الذى كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه اى يشكون ويكذبونك (وأتيناك بالحق) باليقين من عذابهم

بان يخرج منك ولدا ذكرا تسكثر ذريته وهو اسحق (فلا تكن من القانطين) يعنى فلا تكن من الآيسين من الخير والقنوط هو الاياس من الخير (قال) يعنى ابراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) يعنى من ييأس من رحمة ربه الا المكذبون وفيه دليل على ان ابراهيم عليه السلام لم يكن من القانطين ولكنه استبعد حصول الولد على الكبر فظنت الملائكة ان به قنوطا فنفى ذلك عن نفسه وأخبر ان القانط من رحمة الله تعالى من الضالين لان القنوط من رحمة الله كبيرة كالامن من مكر الله ولا يحصل الا عند من يجهل كون الله تعالى قادرا على ما يريد ومن يجهل كونه سبحانه وتعالى عالما بجميع المعلومات فكل هذه الامور سبب للضلالة (قال) يعنى ابراهيم (فما خطبكم) يعنى فما شأنكم وما الامر الذى جئتم فيه (أيها المرسلون) والمعنى ما الامر الذى جئتم به سوى ما بشرتمونى به من الولد (قالوا) يعنى الملائكة (انا أرسلنا الى قوم مجرمين) يعنى لهلاك قوم مجرمين (الا آل لوط) يعنى أشياعه وأتباعه من أهل دينه (انا لمنجوهم أجمعين الا امرأته) يعنى امرأة لوط (قدرنا) يعنى قضينا وانما أسند الملائكة القدر الى أنفسهم وان كان ذلك لله عز وجل لاختصاصهم بالله وقربهم منه كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا ونحن فعلنا وان كان قد فعلوه بأمر الملك (انها لمن الغابرين) يعنى لمن الباقين فى العذاب والاستثناء من النفى اثبات ومن الاثبات نفى فاستثنا امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين (فلما جاء آل لوط المرسلون) وذلك ان الملائكة عليهم السلام لما بشروا ابراهيم بالولد وعرفوه بما أرسلوا به ساروا الى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط (قال انكم قوم منكرون) وانما قال هذه المقالة لوط لانهم دخلوا عليه وهم فى زى شبان مردان حسان الوجوه فخاف أن يهجم عليهم قومه فلهذا السبب قال هذه المقالة وقيل ان النكرة ضد المعرفة فقوله انكم قوم منكرون يعنى لا أعرفكم ولا أعرف من أى الاقوام أنتم ولا لاى غرض دخلتم على فعند ذلك (قالوا) يعنى الملائكة (بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) يعنى جئناك بالعذاب الذى كانوا يشكون فيه (وأتيناك بالحق) يعنى باليقين

(وانا لصادقون) فى الاخبار بنزوله بهم (فأسر بأهلك بقطع من الليل) فى آخر الليل أو بعد ما يمضى شئ صالح من الليل (واتبع أدبارهم) وسر خلفهم لتكون مطلعا عليهم وعلى أحوالهم (ولا يلتفت منكم أحد) لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم أو جعل النهى عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التوانى والتوقف لان من يلتفت لابد له فى ذلك من أدنى وقفة (وامضوا حيث تؤمرون) حيث أمركم الله بالمضى اليه وهو الشام أو مصر (وقضينا اليه ذلك الامر) عدى قضينا بالى لانه ضمن معنى أوحينا كانه قيل وأوحينا اليه مقضيا مبتوتا وفسر ذلك الامر بقوله (أن دابر هؤلاء مقطوع) وفى ابهامه وتفسيره تفخيم للامر ودابرهم آخرهم أى يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد (مصبحين) وقت دخولهم فى الصبح وهو حال من هؤلاء (وجاء أهل المدينة) سدوم التى ضرب بقاضيها المثل فى الجور (يستبشرون) بالملائكة طمعا منهم فى ركوب الفاحشة (قال) لوط (ان هؤلاء ضيفى فلا تفضحون) بفضيحة ضيفى لان من أساء الى ضيفى فقد أساء الى (واتقوا الله ولا تخزون) أى ولا تذلون باذلال ضيفى من الخزى وهو الهوان وبالياء فيهما يعقوب (قالوا أولم ننهك عن العالمين) عن أن تجير منهم أحدا أو تدفع عنهم فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان عليه السلام يقوم بالنهى عن المنكر والحجز بينهم وبين المتعرض له فأوعدوه وقالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين أو عن ضيافة الغرباء (قال هؤلاء بناتى) فانكحوهن وكان نكاح المؤمنات من الكفار جائزا ولا تتعرضوا لهم (ان كنتم فاعلين) ان كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم فقالت الملائكة للوط عليه السلام (لعمرك انهم لفى سكرتهم) أى فى غوايتهم التى أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطا الذى هم عليه وبين الصواب الذى تشير به عليهم من ترك

بالبقين الذى لاشك فيه (وانا لصادقون) يعنى فيما أخبرناك به من اهلاكهم (فأسر بأهلك بقطع من الليل) يعنى آخر الليل والقطع القطعة من الشئ وبعضه (واتبع أدبارهم) يعنى واتبع آثار أهلك وسر خلفهم (ولا يلتفت منكم أحد) يعنى حتى لا يرى ما نزل بقومه من العذاب فيرتاع بذلك وقيل المراد الاسراع فى السير وترك الالتفات الى ورائه والاهتمام بما خلفه كما تقول امض لشأنك ولا تعرج على شئ وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط ولئلا يتخلف أحد منهم فيناله العذاب (وامضوا حيث تؤمرون) قال ابن عباس يعنى الى الشام وقيل الى الاردن وقيل الى حيث يأمركم جبريل وذلك ان جبريل أمرهم أن يسيروا الى قرية معينة ما عمل أهلها عمل قوم لوط (وقضينا اليه ذلك الامر) يعنى وأوحينا الى لوط ذلك الامر الذى حكمنا به على قومه وفرغنا منه ثم انه سبحانه وتعالى فسر ذلك الامر الذى قضاه بقوله (ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) يعنى ان هؤلاء القوم يستأصلون عن آخرهم بالعذاب وقت الصبح وانما أبهم الامر الذى قضاه عليهم أولا وفسره ثانيا تفخيما له وتعظيما لشأنه (وجاء أهل المدينة) يعنى مدينة سدوم وهى مدينة قوم لوط (يستبشرون) يعنى يبشر بعضهم بعضا بأضياف لوط والاستبشار اظهار الفرح والسرور وذلك ان الملائكة لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم فى المدينة وقيل ان امرأته أخبرتهم بذلك وكانوا شبابا مردا فى غاية الحسن ونهاية الجمال فجاء قوم لوط الى داره طمعا منهم فى ركوب الفاحشة (قال) يعنى قال لوط لقومه (ان هؤلاء ضيفى) وحق على الرجل اكرام ضيفه (فلا تفضحون) يعنى فيهم يقال فضحه يفضحه اذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه (واتقوا الله) يعنى خافوا الله فى أمرهم (ولا تخزون) يعنى ولا تخجلون (قالوا) يعنى قوم لوط الذين جاؤا اليه (أولم ننهك عن العالمين) يعنى أولم ننهك عن أن تضيف أحدا من العالمين وقيل معناه أولم ننهك ان تدخل الغرباء الى بيتك فانا نريد أن نركب منهم الفاحشة وقيل معناه ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا فى أحد من العالمين اذا قصدناه بالفاحشة (قال) يعنى قال لوط لقومه الذين قصدوا اضيافه (هؤلاء بناتى) أزوجكم اياهن ان أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام وقيل أراد بالبنات نساء قومه لان النبى كالوالد لامته (ان كنتم فاعلين) يعنى ما آمركم به (لعمرك) الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس معناه وحياتك يا محمد وقال ما خلق الله نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما أقسم بحياة أحد الا بحياته والعمر والعمر واحد وهو اسم لمدة عمارة بدن الانسان بالحياة والروح وبقائه مدة حياته قال النحويون ارتفع لعمرك بالابتداء والخبر محذوف والمعنى لعمرك قسمى فحذف الخبر لان فى الكلام دلالة عليه (انهم لفى سكرتهم) يعنى فى حيرتهم وضلالهم

وقيل في غفلتهم (يعمهون) يعني يترددون متحيرين وقال قتادة يلعبون (فأخذتهم الصيحة مشرقين) يعني حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب الذي نزل بهم وقت الصبح وتمامه وانتهاؤه حين أشرقت الشمس (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) تقدم تفسيره في سورة هود (ان في ذلك) يعني الذي نزل بهم من العذاب (لآيات للمتوسمين) قال ابن عباس للناظرين وقال قتادة للمعتبرين وقال مقاتل للمتفكرين وقال مجاهد للمتفرسين ويعضد هذا التأويل ما روي عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ ان في ذلك لآيات للمتوسمين أخرجه الترمذي وقال حديث غريب الفراسة بالكسر اسم من قولك تفرست في فلان الخير وهي على نوعين أحدهما ما دل عليه ظاهر الحديث وهو ما يوقعه الله في قلوب أوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس بنوع من الكرامات واصابة الحدس والنظر والظن والتثبت والنوع الثاني ما يحصل بدلائل التجارب والخلق والاخلاق تعرف بذلك أحوال الناس أيضا وللناس في علم الفراسة تصانيف قديمة وحديثة قال الزجاج حقيقة المتوسمين في اللغة المتثبتين في نظرهم حتى يعرفوا سمة الشيء وصفته وعلامته فالمتوسم الناظر في سمة الدلائل تقول توسمت في فلان كذا أي عرفت وسم ذلك وسمته (وانها) يعني قرى قوم لوط (لبسبيل مقيم) يعني بطريق واضح قال مجاهد بطريق معلم ليس بخفي ولا زائل والمعنى أن آثار ما أنزل الله بهذه القرى من عذابه وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يندثر ولم يخف والذين يمرون عليها من الحجاز الى الشام يشاهدون ذلك ويرون أثره (ان في ذلك) يعني الذي ذكر من عذاب قوم لوط وما أنزل بهم (لآية للمؤمنين) يعني المصدقين بما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم (وان كان أصحاب الايكة لظالمين) يعني كان أصحاب الايكة وهي الغيضة واللام في قوله لظالمين للتأكيد وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف وكان عامة شجرهم المقل وكانوا قوما كافرين فبعث الله عز وجل اليهم شعيبا رسولا فكذبوه فأهلكهم الله فهو قوله تعالى (فانتقمنا منهم) يعني بالعذاب وذلك ان الله سبحانه وتعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى أخذ بأنفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة كالظلة فالتجؤا اليها واجتمعوا تحتها يلتمسون الروح فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم جميعا (وانهما) يعني مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الايكة (لبامام مبين) يعني بطريق واضح مستبين لمن مر بهما وقيل الضمير راجع الى الايكة ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما وانما سمي الطريق اماما لانه يؤم ويتبع ولان المسافر يأتم به حتى يصير الى الموضع الذي يريده قوله عز وجل (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) قال المفسرون الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وهو معروف بين المدينة النبوية والشام وآثاره موجودة باقية يمر عليها ركب الشام الى الحجاز وأهل الحجاز الى

البنين الى البنات (يعمهون) يتحيرون فكيف يقبلون قولك ويصغون الى نصيحتك أو الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط تعظيما له والعمر والعمر واحد وهو البقاء الا انهم خصوا القسم بالمفتوح ايثارا للاخف لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم ولذا حذفوا الخبر وتقديره لعمرك قسمي (فأخذتهم الصيحة) صيحة جبريل عليه السلام (مشرقين) داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس (فجعلنا عاليها سافلها) رفعها جبريل عليه السلام الى السماء ثم قلبها والضمير لقرى قوم لوط (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ان في ذلك لآيات للمتوسمين) للمتفرسين المتأملين كأنهم يعرفون باطن الشيء بسمة ظاهرة (وانها) وان هذه القرى يعني آثارها (لبسبيل مقيم) ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد وهم يبصرون تلك الآثار وهو تنبيه لقريش كقوله وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل (ان في ذلك لآية للمؤمنين) لانهم المنتفعون بذلك (وان كان أصحاب الايكة) وان الامر والشأن كان أصحاب الايكة اى الغيضة (لظالمين) لكافرين وهم قوم شعيب عليه السلام (فانتقمنا منهم) فأهلكناهم لما كذبوا شعيبا (وانهما) يعني قرى قوم لوط والايكة (لبامام مبين) لبطريق واضح والامام اسم ما يؤتم به فسمي به الطريق ومطمر البناء لانهما مما يؤتم به (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) هم ثمود والحجر واديهم وهو بين المدينة والشام المرسلين يعني بتكذيبهم صالحا لان كل رسول كان يدعو الى الايمان بالرسل جميعا فمن كذب واحدا منهم فكأنما كذبهم جميعا أو أراد صالحا ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون

الشام

فى ابن الزبير وأصحابه (وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) أى أعرضوا عنها ولم يؤمنوا بها (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا) أى ينقبون فى الجبال بيوتا أو يبنون من الحجارة (آمنين) لوثاقة البيوت واستحكامها من ان تنهدم ومن نقب اللصوص والاعداء أو آمنين من عذاب الله يحسبون ان الجبال تحميهم منه (فأخذتهم الصيحة) العذاب (مصبحين) فى اليوم الرابع وقت الصبح (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) من بناء البيوت الوثيقة واقتناء الاموال النفيسة (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) الا خلقا ملتبسا بالحق لا باطلا وعبثا أو بسبب العدل والانصاف يوم الجزاء على الاعمال (وان الساعة) أى القيامة لتوقعها كل ساعة (لآتية) وان الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك واياهم على حسناتك وسيآتهم فانه ما خلق السموات والارض وما بينهما الا لذلك (فاصفح الصفح الجميل) فأعرض عنهم اعراضا جميلا بحلم واغضاء قيل هو منسوخ بآية السيف وان أريد به المخالفة فلا يكون منسوخا (ان ربك هو الخلاق) الذى خلقك وخلقهم (العليم) بحالك وحالهم فلا يخفى عليه ما يجرى بينكم وهو يحكم بينكم (ولقد آتيناك سبعا) اى سبع آيات وهى الفاتحة أو سبع سور وهى الطوال واختلف فى السابعة فقيل الانفال وبراءة لانهما فى حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما وقيل سورة يونس أو اسباع القرآن (من المثانى) هى من التثنية وهى التكرير لان الفاتحة مما يتكرر فى الصلاة أو من الثناء لاشتمالها على ما هو ثناء على الله الواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية وأما السور الاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد ولما فيها من الثناء كأنها تثنى على الله واذا جعلت السبع مثانى فمن للتبيين واذا جعلت القرآن مثانى فمن للتبعيض (والقرآن العظيم) هذا ليس بعطف الشئ على نفسه لانه اذا أريد بالسبع الفاتحة أو الطوال فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن لانه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل دليله قوله بما أوحينا اليك هذا القرآن يعنى سورة يوسف واذا أريد به الاسباع فالمعنى ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثانى والقرآن العظيم أى الجامع لهذين النعتين وهو التثنية أو الثناء والعظم ثم قال لرسوله

الشام وأراد بالمرسلين صالحا وحده وانما ذكره بلفظ الجمع للتعظيم أو لانهم كذبوه وكذبوا من قبله من الرسل (وآتيناهم آياتنا) يعنى الناقة وولدها والآيات التى كانت فى الناقة خروجها من الصخرة وعظم جثتها وقرب ولادها وغزارة لبنها وانما أضاف الآيات اليهم وان كانت لصالح لانه مرسل اليهم بهذه الآيات (فكانوا عنها) يعنى عن الآيات (معرضين) يعنى تاركين لها غير ملتفتين اليها (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) يعنى خوفا من الخراب أو ان يقع عليهم الجبل أو السقف (فأخذتهم الصيحة) يعنى العذاب (مصبحين) يعنى وقت الصبح (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) يعنى من الشرك والاعمال الخبيثة (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ان يصيبكم ما أصابهم الا ان تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادى قوله سبحانه وتعالى (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) يعنى لاظهار الحق والعدل وهو أن يثاب المؤمن والمصدق ويعاقب الجاحد الكافر الكاذب (وان الساعة لآتية) يعنى وان القيامة لتأتى ليجازى المحسن باحسانه والمسئ باساءته (فاصفح الصفح الجميل) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى فأعرض عنهم يا محمد واعف عنهم عفوا حسنا واحتمل ما تلقى من أذى قومك وهذا الصفح والاعراض منسوخ بآية القتال وقيل فيه بعد لان الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يظهر الخلق الحسن وأن يعاملهم بالعفو والصفح الخالى من الجزع والخوف (ان ربك هو الخلاق العليم) يعنى انه سبحانه وتعالى خلق خلقه وعلم ما هم فاعلوه وما يصلحهم قوله عز وجل (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) قال ابن الجوزى سبب نزولها ان سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير فى يوم واحد فيها أنواع من البز والطيب والجواهر فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وانفقناها فى سبيل الله فأنزل الله هذه الآية وقال قد أعطيتكم سبع آيات هى خير من هذه السبع القوافل ويدل على صحة هذا قوله لا تمدن عينيك الآية قاله الحسين بن الفضل قلت وهذا القول ضعيف أو لا يصح لان هذه السورة مكية باجماع أهل التفسير وليس فيها من المدنى شئ ويهود قريظة والنضير كانوا بالمدينة وكيف يصح ان يقال ان سبع قوافل جاءت فى يوم واحد

فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فأنزل الله هذه الآية وأخبرهم أن هذه السبع
آيات هي خير من هذه السبع القوافل والله أعلم وفي المراد بالسبع المثاني أقوال أحدها
أنها فاتحة الكتاب وهذا قول عمر وعلي وابن مسعود وفي رواية عنه وابن عباس وفي
رواية الأكثرين عنه وأبي هريرة والحسن وسعيد بن جبير وفي رواية عنه ومجاهد وعطاء
وقتادة في آخرين ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني أخرجه
أبو داود والترمذي (ق) عن أبي سعيد بن المعلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته أخرجه البخاري
وفيه زيادة أما السبب في تسمية فاتحة الكتاب بالسبع المثاني فلأنها سبع آيات بإجماع
أهل العلم واختلفوا في سبب تسميتها بالمثاني فقال ابن عباس والحسن وقتادة لأنها تثنى
في الصلاة فتقرأ في كل ركعة وقيل لأنها مقسومة بين العبد وبين الله نصفين فنصفها
الأول ثناء على الله ونصفها الثاني دعاء ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة
بيني وبين عبدي نصفين الحديث مذكور في فضل الفاتحة وقيل سميت مثاني لأن
كلماتها مثناة مثل قوله الرحمن الرحيم إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم
صراط الذين فكل هذه ألفاظ مثناة وقال الحسين بن الفضل لأنها نزلت مرتين مرة بمكة
ومرة بالمدينة معها سبعون ألف ملك وقال مجاهد لأن الله سبحانه وتعالى استثناها
وادخرها لهذه الأمة فلم يعطها لغيرهم وقال أبو زيد البلخي لأنها تثني أهل الشر عن الشر
من قول العرب ثنيت عناني وقال ابن الزجاج سميت فاتحة الكتاب مثاني لاشتمالها على
الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه وإذا ثبت كون الفاتحة هي السبع
المثاني دل ذلك على فضلها وشرفها وأنها من أفضل سور القرآن لأن إفرادها بالذكر في
قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم مع أنها جزء من أجزاء القرآن
واحدى سوره لابد وأن يكون لاختصاصها بالشرف والفضيلة القول الثاني في تفسير
قوله سبعا من المثاني أنها السبع الطوال وهذا قول ابن عمر وابن مسعود في رواية عنه
وابن عباس وفي رواية عنه وسعيد بن جبير وفي رواية عنه السبع الطوال هي سورة
البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف واختلفوا في السابعة فقيل
الأنفال مع براءة لأنهما كالسورة الواحدة ولهذا لم يكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن
الرحيم وقيل السابعة هي سورة يونس ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ثوبان أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله سبحانه وتعالى أعطاني السبع الطوال مكان
التوراة وأعطاني المئين مكان الإنجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني وفضلني ربي
بالمفصل أخرجه البغوي بإسناد الثعلبي قال ابن عباس إنما سميت السبع الطوال مثاني
لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر والعبر ثنيت فيها وأورد على هذا القول أن هذه
السور الطوال غالبها مدنيات فكيف يمكن تفسير هذه الآية بها وهي مكية وأجيب

عن هذا الايراد بأن الله سبحانه وتعالى حكم في سابق علمه بانزال هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم واذا كان الامر كذلك صح ان تفسر هذه الآية بهذه السور القول الثالث ان السبع المثاني هي السور التي هي دون الطوال وفوق المفصل وهي المئين وحجة هذا القول الحديث المتقدم وأعطاني مكان الزبور المثاني والقول الرابع ان السبع المثاني هي القرآن كله وهذا قول طاوس وحجة هذا القول ان الله سبحانه وتعالى قال الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني وسمي القرآن كله مثاني لان الاخبار والقصص والامثال تثنت فيه فان قلت كيف يصح عطف القرآن في قوله والقرآن العظيم على قوله سبعا من المثاني وهل هو الا عطف الشئ على نفسه قلت اذا عني بالسبع المثاني فاتحة الكتاب أو السبع الطوال فما وراءهن ينطلق عليه القرآن لان القرآن اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى الى قوله بما أوحينا اليك هذا القرآن يعني سورة يوسف عليه السلام واذا عني بالسبع المثاني القرآن كله كان المعنى ولقد آتيناك سبعا من المثاني وهي القرآن العظيم وانما سمي القرآن عظيما لانه كلام الله ووحيه أنزله على خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم قوله (لا تمدن عينيك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي لا تمدن عينيك يا محمد (الى ما متعنا به أزواجا) يعني أصنافا (منهم) يعني من الكفار متمنيا لها نهى الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها والمعنى انك قد أوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شئ فلا تشغل قلبك وسرك بالالتفات الى الدنيا والرغبة فيها وروى ان سفيان بن عيينة تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن يعني لم يستغن بالقرآن فتأول هذه الآية قيل انما يكون مادا عينيه الى الشئ اذا أدام النظر اليه مستحسنا له فيحصل له من ذلك تمني ذلك الشئ المستحسن فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى شئ من متاع الدنيا ولا يلتفت اليه ولا يستحسنه (ولا تحزن عليهم) يعني ولا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا وقيل ولا تحزن على ايمانهم اذا لم يؤمنوا ففيه النهي عن الالتفات الى أموال الكفار والالتفات اليهم أيضا وروى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تغبطن فاجرا بنعمته فانك لا تدري ما هو لاق بعد موته ان له عند الله قاتلا لا يموت قيل لابن أبي مريم ما قاتلا لا يموت قال النار (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نظر أحدكم الى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر الى أسفل منه لفظ البخاري ولمسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم قال عون بن عبد الله بن عتبة كنت أصحب الاغنياء فما كان أحد أكثر هما مني كنت أرى دابة خيرا من دابتي وثوبا خيرا من ثوبي فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت وقوله سبحانه وتعالى (واخفض جناحك) يعني لين جانبك (للمؤمنين) وارفق بهم لما نهاه الله سبحانه وتعالى عن الالتفات الى الاغنياء من الكفار أمره بالتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين وغيرهم من المؤمنين (وقل) أي وقل لهم يا محمد (اني أنا

(لا تمدن عينيك) أي لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له (الى ما متعنا به أزواجا منهم) أصنافا من الكفار كاليهود والنصارى والمجوس يعني قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وان عظمت فهي اليها حقيرة وهي القرآن العظيم فعليك ان تستغني به ولا تمدن عينيك الى متاع الدنيا وفي الحديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن وحديث أبي بكر من أوتي القرآن فرأى ان أحدا أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا (ولا تحزن عليهم) أي لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم انهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الاسلام والمسلمون (واخفض جناحك للمؤمنين) وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وطب نفسا عن ايمان الاغنياء (وقل) لهم (اني أنا

النذير المبين) لما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد في الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به اليهم والنذارة تبليغ مع تخويف والمعنى انى أنا النذير بالعقاب لمن عصانى المبين النذارة (كما أنزلنا على المقتسمين) يعنى أنذركم عذابا كعذاب أنزلناه بالمقتسمين قال ابن عباس أراد بالمقتسمين اليهود والنصارى وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة سموا بذلك لانهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به وقال عكرمة انهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد منهم هذه السورة لى وقال آخر هذه السورة لى وانما فعلوا ذلك استهزاء به وقال مجاهد انهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفر ببعضها وكفر آخرون منهم بما آمن به غيرهم وقال قتادة وابن السائب أراد بالمقتسمين كفار قريش سموا بذلك لان أقوالهم تقسمت في القرآن فقال بعضهم انه سحر وزعم بعضهم انه كهانة وزعم بعضهم أنه أساطير الاولين وقال ابن السائب سموا بالمقتسمين لانهم اقتسموا عقاب مكة وطرقها وذلك ان الوليد بن المغيرة بعث رهطا من أهل مكة قيل ستة عشر وقيل أربعين فقال لهم انطلقوا فتفرقوا على عقاب مكة وطرقها حيث يمر بكم أهل الموسم فاذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم انه كاهن وليقل بعضكم انه شاعر وليقل بعضكم انه ساحر فاذا جاؤا الى صدقتكم فذهبوا وقعدوا على عقاب مكة وطرقها يقولون لمن مر بهم من حجاج العرب لاتغتروا بهذا الخارج الذى يدعى النبوة منا فانه مجنون كاهن وشاعر وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام فاذا جاؤا وسألوه عما قال أولئك المقتسمون قال صدقوا وقوله سبحانه وتعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) (خ) عن ابن عباس فى قوله تعالى الذين جعلوا القرآن عضين قال هم اليهود والنصارى جزؤه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض قيل هو جمع عضة من قولهم عضيت الشئ اذا فرقته وجعلته أجزاء وذلك لانهم جعلوا القرآن أجزاء مفرقة فقال بعضهم هو سحر وقال بعضهم هو كهانة وقال بعضهم هو أساطير الاولين وقيل هو جمع عضة وهو الكذب والبهتان وقيل المراد به العضه وهو السحر يعنى انهم جعلوا القرآن سحرا (فوربك لنسألنهم أجمعين) أقسم الله بنفسه انه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين (عما كانوا يعملون) يعنى عما كانوا يقولونه فى القرآن وقيل عما كانوا يعملون من الكفر والمعاصى وقيل يرجع الضمير فى لنسألنهم الى جميع الخلق المؤمن والكافر لان اللفظ عام فحمله على العموم أولى قال جماعة من أهل العلم عن لا اله الا الله عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال عن قول لا اله الا الله أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وقال أبو العالية يسأل العباد عن خلتين عما كانوا يعبدون وماذا أجابوا المرسلين فان قلت كيف الجمع بين قوله لنسألنهم أجمعين وبين قوله فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان قلت قال ابن عباس لا يسألهم هل عملتم لانه أعلم به

النذير المبين) أنذركم ببيان وبرهان ان عذاب الله نازل بكم (كما أنزلنا) متعلق بقوله ولقد آتيناك أى أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا (على المقتسمين) وهم أهل الكتاب ١٢٦ (الذين جعلوا القرآن عضين) أجزاء جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة اذا جعلها أعضاء حيث قالوا بعنادهم بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما فاقتسموه الى حق وباطل وعضوه وقيل كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم سورة البقرة لى ويقول الآخر سورة آل عمران لى أو أريد بالقرآن ما يقرؤنه من كتبهم وقد اقتسموه فاليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض والنصارى أقرت ببعض الانجيل وكذبت ببعض ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوبا بالنذير أى انذر المعضين الذين يجزؤن القرآن الى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعدوا فى كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لاتغتروا بالخارج منا فانه ساحر ويقول الآخر كذاب والآخر شاعر فأهلكهم الله ولا تمدن عينيك على الوجه الاول اعتراض بينهما لانه لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهى عن الالتفات الى دنياهم والتأسف على كفرهم ومن الامر بأن يقبل بكليته على المؤمنين (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) أقسم بذاته وربوبيته ليسألن يوم القيامة واحدا واحدا من هؤلاء المقتسمين عما قالوه فى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم

منهم ولكن يقول لم عملتم كذا واعتقده قطرب فقال السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ فقوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان يعني سؤال استعلام وقوله لنسألنهم أجمعين سؤال توبيخ وتقريع وجواب آخر وهو مروى عن ابن عباس أيضا أنه قال في الآيتين ان يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف فيسئلون في بعض المواقف ولا يسئلون في بعضها نظيره قوله سبحانه وتعالى هذا يوم لا ينطقون وقال تعالى في آية أخرى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قوله سبحانه وتعالى (فاصدع بما تؤمر) قال ابن عباس أظهر ويروى عنه امضه وقال الضحاك أعلم وأصل الصدع الشق والفرق أي افرق بالقرآن بين الحق والباطل أمر النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية باظهار الدعوة وتبليغ الرسالة الى من أرسل اليهم قال عبد الله بن عبيدة مازال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه (وأعرض عن المشركين) أي اكفف عنهم ولا تلتفت الى لومهم على اظهار دينك وتبليغ رسالة ربك وقيل أعرض عن الاهتمام باستهزائهم وهو قوله سبحانه وتعالى (انا كفيناك المستهزئين) أكثر المفسرين على أن هذا الاعراض منسوخ بآية القتال وقال بعضهم ما للنسخ وجه لان معنى الاعراض ترك المبالاة بهم والالتفات اليهم فلا يكون منسوخا وقوله تعالى انا كفيناك المستهزئين يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فاصدع بما أمرتك به ولا تخف أحدا غيرى فاني أنا كافيك وحافظك ممن عاداك فانا كفيناك المستهزئين وكانوا خمسة نفر من رؤساء كفار قريش كانوا يستهزؤن بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وهم الوليد بن المغيرة المخزومي وكان رأسهم والعاص بن وائل السهمي والاسود بن المطلب بن الحرث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا عليه فقال اللهم أعم بصره واثكله بولده والاسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة والحرث بن قيس بن الطلاطلة كذا ذكره البغوي وقال ابن الجوزي الحرث بن قيس بن عيطلة وقال الزهري عيطلة أمه وقيس أبوه فهو منسوب الى أبيه وأمه قال المفسرون أتى جبريل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمستهزؤن يطوفون بالبيت فقام جبريل وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنبه فمر به الوليد بن المغيرة فقال جبريل يا محمد كيف تجد هذا قال بئس عبد الله فقال قد كفيته وأومأ الى ساق الوليد فمر الوليد برجل من خزاعة نبال يريش نبالا له وعليه برد يماني وهو يجر ازاره فتعلقت شظية من النبل بازار الوليد فمنعه الكبر ان يطأطئ رأسه فينزعها وجعلت تضرب في ساقه فخدشته فمرض منها فمات ومر بهما العاص بن وائل السهمي فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال بئس عبد الله فأشار جبريل الى أخمص قدمه وقال قد كفيته فخرج العاص على راحلته يتنزه ومعه ابناه فنزل شعبا من تلك الشعاب فوطئ شبرقة فدخل منها شوكة في أخمص رجله فقال لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيئا وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير فمات مكانه ومر بهما الاسود ابن المطلب فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فأشار جبريل بيده الى

او في القرآن أو في كتب الله (فاصدع بما تؤمر) فاجهر به وأظهره يقال صدع بالحجة اذا تكلم بها جهارا من الصديع وهو الفجر أو فاصدع فافرق بين الحق والباطل من الصدع في الزجاجة وهو الابانة بما تؤمر والمعنى بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله
أمرتك الخير فافعل ما أمرت به
(واعرض عن المشركين) هو أمر استهانة بهم (انا كفيناك المستهزئين) الجمهور على انها نزلت في خمسة نفر كانوا يبالغون في ايذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فأهلكهم الله وهم الوليد بن المغيرة مر بنبال فتعلق بثوبه سهم فأصاب عرقا في عقبه فقطعه فمات والعاص ابن وائل دخل في اخمصه شوكة فانتفخت رجله فمات والاسود ابن عبد المطلب عمى والاسود بن عبد يغوث جعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات والحرث بن قيس امتخط قيحا ومات

عينيه وقال قد كفيته فعمي قال ابن عباس رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عينيه فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك وفي رواية الكلبي قال أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ومعه غلام له وفي رواية فجعل ينطح رأسه في الشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه فقال له غلامه ما أرى أحدا يصنع بك شيئا غيرك فمات وهو يقول قتلني محمد ومر بهما الاسود بن عبد يغوث فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال بئس عبد الله على انه خالي فقال جبريل قد كفيته واشار الى بطنه فاستسقى بطنه فمات وفي رواية الكلبي انه خرج من اهله فأصابه سموم فاسود وجهه حتى صار حبشيا فاتى اهله فلم يعرفوه واغلقوا دونه الباب فمات وهو يقول قتلني رب محمد ومر بهما الحرث ابن قيس فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فأومأ جبريل الى رأسه وقال قد كفيته فامتخط قيحا فقتله وقال ابن عباس انه أكل حوتا مالحا فأصابه العطش فلم يزل يشرب الماء حتى انقد بطنه فمات فذلك قوله تعالى انا كفيناك المستهزئين يعني بك وبالقرآن (الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون) يعني اذا نزل بهم العذاب ففيه وعيد وتهديد قوله سبحانه وتعالى (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون) يعني بسبب ما يقولون وهو ما كانوا يسمعونه من الاستهزاء به والقول الفاحش والجبلة البشرية تأبى ذلك فيحصل عند سماع ذلك ضيق الصدر فعند ذلك أمره بالتسبيح والعبادة وهو قوله (فسبح بحمد ربك) قال ابن عباس فصل بامر ربك (وكن من الساجدين) يعني من المتواضعين لله وقال الضحاك فسبح بحمد ربك قل سبحان الله وبحمده وكن من الساجدين يعني من المصلين روي ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة قال بعض العارفين من المحققين ان السبب في زوال الحزن عن القلب اذا أتى العبد بهذه العبادات انه يتنور باطنه ويشرق قلبه وينفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت اليها ولا يتأسف على فواتها فيزول الهم والغم والحزن عن قلبه وقال بعض العلماء اذا نزل بالعبد مكروه ففزع الى الصلاة فكأنه يقول يارب انما يجب على عبادتك سواء أعطيتني ما أحب أو كفيتني ما أكره فانا عبدك وبين يديك فافعل بي ما تشاء قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) يعني الموت الموقن به الذي لا يشك فيه أحد والمعنى واعبد ربك في جميع أوقاتك ومدة حياتك حتى يأتيك الموت وأنت في عبادة ربك وهذا مثل قوله تعالى في سورة مريم وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا روى البغوي بسنده عن جبير بن نفير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله الي ان أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى الي ان سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وعن عمر قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه باطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو قال شريت له بمائتي درهم فدعاه حب الله وحب رسوله الى ما ترون ذكره البغوي بغير سند والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم يوم القيامة (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون) فيك وفي القرآن أو في الله (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) فافزع فيما نابك الى الله والفزع الى الله هو الذكر الدائم وكثرة السجود يكفك ويكشف عنك الغم (واعبد ربك) ودم على عبادة ربك (حتى يأتيك اليقين) أي الموت يعني ما دمت حيا فاشتغل بالعبادة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة

(تفسير سورة النحل)

مكية الا قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به الى آخر السورة فانها نزلت بالمدينة فى قتل حمزة قاله ابن عباس وفى رواية أخرى عنه انها مكية غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهى قوله ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا الى قوله يعملون وقال قتادة هى مكية الا خمس آيات وهى قوله والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا وقوله ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا وقوله تعالى وان عاقبتم الى آخر السورة زاد مقاتل وقوله من كفر بالله من بعد ايمانه الآية وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة الآية وقيل كان يقال لسورة النحل سورة النعم لكثرة تعداد النعم فيها وهى مائة وثمان وعشرون آية وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة وسبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله سبحانه وتعالى (أتى أمر الله) يعنى جاء ودنا وقرب أمر الله تقول العرب أتاك الامر وهو متوقع المجىء بعد ما أتى ومعنى الآية أتى أمر الله وعدا (فلا تستعجلوه) يعنى وقوعا والمراد به مجىء القيامة قال ابن عباس لما نزل قوله سبحانه وتعالى اقتربت الساعة وانشق القمر قال الكفار بعضهم لبعض ان هذا الرجل يزعم ان القيامة قد قربت فامسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما رأوا انه لا ينزل شئ قالوا ما نرى شيأ فنزل قوله تعالى اقترب للناس حسابهم فاشفقوا فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيأ مما تخوفنا به فنزل أتى امر الله فوثب النبى صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمأنوا والاستعجال طلب مجىء الشئ قبل وقته ولما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير باصبعيه يمدهما اخرجاه فى الصحيحين من حديث سهل بن سعد (ق) عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين كفضل احداهما على الاخرى وضم السبابة الى الوسطى وفى رواية بعثت فى نفس الساعة فسبقتها كفضل هذه على الاخرى قال ابن عباس كان مبعث النبى صلى الله عليه وسلم من اشراط الساعة ولما مر جبريل باهل السموات مبعوثا الى النبى صلى الله عليه وسلم قالوا الله اكبر قامت الساعة وقال قوم المراد بالامر هنا عقوبة المكذبين وهو العذاب بالقتل بالسيف وذلك ان النضر بن الحرث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم فاستعجل العذاب فنزلت هذه الآية وقتل النضر يوم بدر صبرا (سبحانه وتعالى عما يشركون) يعنى تنزه الله وتعاظم بالاوصاف الحميدة عما يصفه به المشركون قوله سبحانه وتعالى (ينزل الملائكة بالروح) يعنى بالوحى (من امره) وانما سمى الامر روحا لانه به تحيا القلوب من موت الجهالات وقال عطاء بالنبوة وقال قتادة بالرحمة وقيل الروح هو جبريل والباء بمعنى مع يعنى ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل (على من يشاء من عباده) يعنى على من يصطفيه من عباده للنبوة والرسالة وتبليغ الوحى

(سورة النحل مكية وهى مائة وثمان وعشرون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة ونزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبا بالوعد فقيل لهم (أتى أمر الله) أى هو بمنزلة الآتى الواقع وان كان منتظرا لقرب وقوعه (فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون) تبرأ جل وعز عن أن يكون له شريك وعن اشراكهم فما موصولة أو مصدرية واتصال هذا باستعجالهم من حيث ان استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك (ينزل الملائكة) وبالتخفيف مكى وأبو عمرو (بالروح) بالوحى أو بالقرآن لان كلا منهما يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد أو يحيى القلوب الميتة بالجهل (من أمره على من يشاء من عباده

أن أنذروا) ان مفسرة لان تنزيل الملائكة بالوحى فيه معنى القول ومعنى انذروا (أنه لا اله الا أنا فاتقون) اعلموا بان الامر ذلك من نذرت بكذا اذا اعلمته والمعنى أعلموا الناس قولى لا اله الا أنا فاتقون فخافون وبالياء يعقوب ثم دل على وحدانيته وانه لا اله الا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والارض وهو قوله (خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون) وبالتاء فى الموضعين حمزة وعلى وخلق الانسان وما يكون منه وهو قوله (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين) أى فاذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين لحجته بعدما كان نطفة لا حس به ولا حركة أو فاذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل من يحيى العظام وهى رميم وهو وصف للانسان بالوقاحة والتمادى فى كفران النعمة وخلق ما لا بد له منه من خلق البهائم لاكله وركوبه وجر أثقاله وسائر حاجاته وهو قوله (والانعام خلقها لكم) هى الازواج الثمانية وأكثر ما يقع على الابل وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله والقمر قدرناه منازل أو بالعطف على الانسان أى خلق الانسان والانعام ثم قال خلقها لكم أى ما خلقها الا لكم يا جنس الانسان (فيها دفء) هو اسم ما يدفأ به من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر (ومنافع) وهى نسلها ودرها (ومنها تأكلون) قدم الظرف وهو يؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها لان الاكل منها هو الاصل الذى يعتمده الناس فى معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجارى مجرى التفكه (ولكم فيها جمال حين تريحون) تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشى (وحين تسرحون) ترسلونها بالغداة الى مسارحها من الله تعالى بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها لانه من اغراض اصحاب المواشى

الى الخلق (أن أنذروا) يعنى بان اعلموا (أنه لا اله الا أنا فاتقون) أى فخافون وقيل معناه مروا بقول لا اله الا الله منذرين يعنى مخوفين بالقرآن (خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون) تقدم تفسيره (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين) يعنى انه جدل بالباطل بين الخصومة نزلت فى أبى بن خلف الجمحى وكان ينكر البعث فجاء بعظم رميم الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال تزعم ان الله يحيى هذا العظم بعدما رم فنزلت فيه هذه الآية ونزل فيه أيضا قوله تعالى قال من يحيى العظام وهى رميم والصحيح ان الآية عامة فى كل ما يقع من الخصومة فى الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم أولى وفيها بيان القدرة وان الله خلق الانسان من نطفة قذرة فصار جبارا كثير الخصومة وفيها كشف قبيح ما فعله الكفار من جحدهم نعم الله تعالى مع ظهورها عليهم قوله عز وجل (والانعام خلقها) لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والارض ثم أتبعه بذكر خلق الانسان ذكر بعده ما ينتفع به فى سائر ضروراته ولما كان أعظم ضرورات الانسان الى الاكل واللباس اللذين يقوم بهما بدن الانسان بدأ بذكر الحيوان المنتفع به فى ذلك وهو الانعام فقال تعالى والانعام خلقها وهى الابل والبقر والغنم قال الواحدى تم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدأ فقال تعالى (لكم فيها دفء) قال ويجوز أيضا أن يكون تمام الكلام عند قوله لكم ثم ابتدأ فقال تعالى فيها دفء قال صاحب النظم أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله خلقها ثم يبتدأ بقوله لكم فيها دفء والدليل عليه أنه عطف عليه قوله ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال ولما كانت منافع هذه الانعام منها ضرورية ومنها غير ضرورية بدأ الله سبحانه وتعالى بذكر المنافع الضرورية فقال تعالى لكم فيها دفء وهو ما يستدفأ به من اللباس والاكسية ونحوها المتخذة من الاصواف والاوبار والاشعار الحاصلة من النعم (ومنافع) يعنى النسل والدر والركوب والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الانعام (ومنها تأكلون) يعنى من لحومها فان قلت قوله تعالى ومنها تأكلون يفيد الحصر لان تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها قلت الاكل من هذه الانعام هو الذى يعتمده الناس فى معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد البر والبحر فغير معتد به فى الاغلب وأكله يجرى مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الاغلب فى الاكل من هذه الانعام فان قلت منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللباس فلم أخر منفعة الاكل وقدم منفعة اللباس قلت منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة الاكل فلهذا قدم على الاكل وقوله سبحانه وتعالى (ولكم فيها) أى فى الانعام (جمال) أى زينة (حين تريحون وحين تسرحون) الاراحة رد الابل بالعشى الى مراحها حيث تأوى اليه بالليل ويقال

سرح

سرح القوم ابلهم تسريحا اذا أخرجوها بالغداة الى المرعى قال أهل اللغة وأكثر ماتكون هذه الراحة أيام الربيع اذا سقط الغيث ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة وأحسن ماتكون النعم في ذلك الوقت فمن الله سبحانه وتعالى بالتجمل بها فيه كما من بالانتفاع بها لانه من أغراض أصحاب المواشي بل هو من معظمها لان الرعاة اذا سرحوا النعم بالغداة الى المرعى وروحوها بالعشي الى الافنية والبيوت يسمع للابل رغاء وللشاء ثغاء يجاوب بعضها بعضا فعند ذلك يفرح أربابها وتتجمل بها الافنية والبيوت ويعظم وقعها عند الناس فان قلت لم قدمت الاراحة على التسريح قلت لان الجمال في الاراحة وهو رجوعها الى البيوت أكثر منها وقت التسريح لان النعم تقبل من المرعى ملأى البطون حافلة الضروع فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع من اللبن ثم تأخذ في التفرق والانتشار للرعي في البرية فثبت بهذا البيان ان التجمل في الاراحة أكثر منه في التسريح فوجب تقديمه وقوله سبحانه وتعالى (وتحمل أثقالكم) الاثقال جمع ثقل وهو متاع السفر وما يحتاج اليه من آلات السفر (الى بلد) يعني غير بلدكم قال ابن عباس يريد من مكة الى اليمن والى الشام وانما قال ابن عباس هذا القول لانه خطاب لاهل مكة وأكثر تجاراتهم وأسفارهم الى الشام واليمن وحمله على العموم أولى لانه خطاب عام فدخول الكافة فيه أولى من تخصيصه ببعض المخاطبين (لم تكونوا بالغيه) يعني بالغي ذلك البلد الذي تقصدونه (الا بشق الانفس) يعني بالمشقة والجهد والعناء والتعب والشق نصف الشيء والمعنى على هذا لم تكونوا بالغيه الا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها (ان ربكم لرؤف رحيم) يعني بخلقه حيث خلق لهم هذه المنافع قوله سبحانه وتعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) هذه الآية عطف على ماقبلها والمعنى وخلق هذه الحيوانات لاجل أن تركبوها والخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه كالابل والرهط والنساء (وزينة) يعني وجعلها زينة مع المنافع التي فيها

(فصل) احتج بهذه الآية من يرى تحريم لحوم الخيل وهو قول ابن عباس وتلا هذه الآية وقال هذه للركوب واليه ذهب الحكم ومالك وأبو حنيفة رحمهم الله واستدلوا أيضا بان منفعة الاكل أعظم من منفعة الركوب فلما لم يذكره الله تعالى علمنا تحريم أكله فلو كان أكل لحوم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر لان الله سبحانه وتعالى خص الانعام بالاكل حيث قال ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا انها مخلوقة للركوب لا للاكل وذهب جماعة من أهل العلم الى اباحة لحوم الخيل وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير واليه ذهب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه وأحمد واسحق واحتجوا على اباحة لحوم الخيل بما روي عن اسماء بنت أبي بكر الصديق انها قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا فاكلناه وفي رواية قالت ذبحنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة فاكلناه أخرجه البخاري ومسلم (ق) عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية

لان الرعيان اذا روحوها بالعشي وسرحوها بالغداة تزينت باراحتها وتسريحها الافنية وفرحت أربابها وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس وانما قدمت الاراحة على التسريح لان الجمال في الاراحة أظهر اذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع (وتحمل أثقالكم) أحمالكم (الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس) وبفتح الشين أبو جعفر وهما لغتان في معنى المشقة وقيل المفتوح مصدر شق الامر عليه شقا وحقيقته راجعة الى الشق الذي هو الصدع وأما الشق فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما ينال من الجهد والمعنى وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه لو لم تخلق الابل الا بجهد ومشقة فضلا أن تحملوا أثقالكم على ظهوركم أو معناه لم تكونوا بالغيه بها الا بشق الانفس وقيل أثقالكم أبدانكم ومنه الثقلان للجن والانس ومنه وأخرجت الارض أثقالها أي بني آدم (ان ربكم لرؤف رحيم) حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) عطف على الانعام أي وخلق هذه للركوب والزينة وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله على حرمة أكل لحم الخيل لانه علل خلقها للركوب والزينة ولم يذكر الاكل بعدما ذكره في الانعام ومنفعة الاكل أقوى والآية سيقت لبيان النعمة ولا يليق بالحكيم أن يذكر في مواضع المنة أدنى النعمتين ويترك أعلاهما وانتصاب زينة على المفعول له عطفا على محل لتركبوها وخلق

وأذن في الخيل وفي رواية قال أكلنا زمن خيبر لحوم الخيل وحمر الوحش ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلي هذه رواية البخاري ومسلم وفي رواية أبي داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد اصابتنا مخمصة فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وأجاب من أباح لحوم الخيل عن هذه الآية بان ذكر الركوب والزينة لا يدل على ان منفعتها مختصة بذلك وانما خص هاتان المنفعتان بالذكر لانهما معظم المقصود قالوا ولهذا سكت عن حمل الاثقال على الخيل مع قوله في الانعام وتحمل أثقالكم ولم يلزم من هذا التحريم حمل الاثقال على الخيل وقال البغوي ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته والدليل الصحيح المعتمد عليه في اباحة لحوم الخيل ان السنة مبينة للكتاب ولما كان نص الآية يقتضي ان الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الاكل مسكوتا عنه دار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير فاخذنا بها جمعا بين النصين والله أعلم وقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) لما ذكر الله سبحانه وتعالى الحيوانات التي ينتفع بها الانسان في جميع حالاته وضروراته على سبيل التفصيل ذكر بعدها ما لا ينتفع به الانسان في الغالب على سبيل الاجمال لان مخلوقات الله عز وجل في البر والبحر والسموات أكثر من ان تحصى أو يحيط بها عقل أحد أو فهمه فلهذا ذكرها على الاجمال وقال بعضهم ويخلق ما لا تعلمون يعني مما أعد الله لاهل الجنة في الجنة ولاهل النار في النار مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال قتادة في قوله ويخلق ما لا تعلمون يعني السوس في النبات والدود في الفواكه قوله سبحانه وتعالى (وعلى الله قصد السبيل) القصد استقامة الطريق يقال طريق قصد وقاصد اذا أداك الى مطلوبك وفي الآية حذف تقديره وعلى الله بيان قصد السبيل وهو بيان طريق الهدى من الضلالة وقيل معناه وعلى الله بيان طريق الحق بالآيات والبراهين (ومنها جائر) يعني ومن السبيل سبيل جائر عن الاستقامة بل هو معوج فالقصد من السبيل هو دين الاسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر وقال جابر بن عبد الله قصد السبيل بيان الشرائع والفرائض وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله قصد السبيل السنة ومنها جائر الاهواء والبدع (ولو شاء لهداكم أجمعين) فيه دليل على ان الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره فقوله ولو شاء لهداكم أجمعين معناه ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين وذلك يفيد انه تعالى ما شاء هدايتهم فلا جرم ما هداهم قوله عز وجل (هو الذي أنزل من السماء ماء) لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمته على عباده بخلق الحيوانات لاجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر من السماء وهو من أعظم النعم على العباد فقال وهو الذي أنزل من السماء يعني والله الذي خلق جميع الاشياء هو الذي أنزل من السماء ماء يعني المطر (لكم منه) يعني من ذلك الماء (شراب) يعني تشربونه (ومنه) يعني ومن ذلك الماء (شجر) الشجر في اللغة

ما لا تعلمون من اصناف لا تعلمه وهو قوله (ويخلق ما لا تعلمون) ومن هذا وصفه تعالى عن ان يشرك به غيره (وعلى الله قصد السبيل) المراد به الجنس ولذا قال (ومنها جائر) والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد يقال سبيل قصد وقاصد أي مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه ومعناه ان هداية الطريق الموصل الى الحق عليه كقوله ان علينا للهدى وليس ذلك للوجوب اذ لا يجب على الله شئ ولكن يفعل ذلك تفضلا وقيل معناه والى الله وقال الزجاج معناه وعلى الله تبيين الطريق الواضح المستقيم والدعاء اليه بالحجج ومنها جائر أو من السبيل مائل عن الاستقامة (ولو شاء لهداكم أجمعين) أراد هداية اللطف بالتوفيق والانعام بعد الهدى العام (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب) لكم متعلق بانزل أو خبر لشراب وهو ما يشرب (ومنه شجر) يعني الشجر الذي ترعاه المواشي

ماله ساق من نبات الارض ونقل الواحدى عن أهل اللغة انهم قالوا الشجر أصناف ماجل وعظم وهو الذى يبقى على الشتاء وما دق وهو صنفان أحدهما تبقى له أدوحة فى الشتاء وينبت فى الربيع ومنها ما لا يبقى له ساق فى الشتاء كالبقول وقال أبو اسحق كل ما ينبت على وجه الارض فهو شجر وأنشد * نطعمها اللحم اذا عز الشجر *
أراد انهم يسقون الخيل اللبن اذا اجدبت الارض وقال ابن قتيبة فى هذه الآية يعنى الكلأ ومعنى الآية انه ينبت بالماء الذى انزل من السماء ما ترعى الراعية من ورق الشجر لان الابل ترعى كل الشجر (فيه) يعنى فى الشجر (تسيمون) يعنى ترعون مواشيكم يقال أسمت السائمة اذا خليتها ترعى وسامت هى اذا رعت حيث شاءت (ينبت لكم) أى ينبت الله لكم وقرئ ننبت على التعظيم لكم (به) أى بذلك الماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) لما ذكر الله فى الحيوان تفصيلا واجمالا ذكر فى الثمار تفصيلا واجمالا فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذى يقتات به كالحنطة والشعير وما اشبههما لان به قوام بدن الانسان وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن والبركة وثلث بذكر النخيل لان ثمرتها غذاء وفاكهة وختم بذكر الاعناب لانها شبه النخلة فى المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر سائر الثمرات اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده ثم قال تعالى (ان فى ذلك) يعنى الذى ذكر من أنواع الثمار (لآية) يعنى علامة دالة على قدرتنا ووحدانيتنا (لقوم يتفكرون) يعنى فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم) تقدم تفسيره فى سورة الاعراف (مسخرات) يعنى مذللات مقهورات تحت قهره وارادته وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لانهم يعتقدون ان هذه النجوم هى الفعالة المتصرفة فى العالم السفلى فاخبر الله تعالى ان هذه النجوم مسخرات فى نفسها مذللات (بامره) يعنى بامر ربها مقهورات تحت قهره يصرفها كيف يشاء ويختار وانها ليس لها تصرف فى نفسها فضلا عن غيرها ولما ذكر الله سبحانه وتعالى انه خلق هذه النجوم وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم هذه الآية بقوله (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) يعنى ان كل من كان له عقل صحيح سليم علم ان الله سبحانه وتعالى هو الفعال المختار وان جميع الخلق تحت قدرته وقهره وتسخيره لما أراده منهم (وما ذرأ لكم فى الارض) يعنى وما خلق لكم فى الارض وسخر لاجلكم من الدواب والانعام والاشجار والثمار (مختلفا ألوانه) يعنى فى الخلقة والهيئة والكيفية واختلاف ألوان المخلوقات مع كثرتها حتى لا يشبه بعضها بعضا من كل الوجوه فيه دليل قاطع على كمال قدرة الله ولذلك ختم هذه الآية بقوله تعالى (ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) يعنى فيعتبرون بذلك قوله سبحانه وتعالى (وهو الذى سخر) لكم (البحر) لما ذكر الله سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته من خلق السموات والارض وخلق الانسان من نطفة وخلق سائر الحيوان والنبات وتسخير الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من آثار قدرته وعجائب صنعته وذكر انعامه فى ذلك على عباده ذكر بعد ذلك انعامه على عباده بتسخير البحر لهم نعمة من الله

(فيه تسيمون) من سامت الماشية اذا رعت فهى سائمة واسامها صاحبها وهو من السومة وهى العلامة لانها تؤثر بالرعى علامات فى الارض (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) ولم يقل كل الثمرات لان كلها لا تكون الا فى الجنة وانما انبت فى الارض بعض من كلها للتذكرة (ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته والآية الدلالة الواضحة (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره) بنصب الكل على وجعل النجوم مسخرات والنجوم مسخرات فقط حفص والشمس والقمر والنجوم مسخرات شامى على الابتداء والخبر (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) جمع الآية وذكر العقل لان الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة (وما ذرأ لكم فى الارض) معطوف على الليل والنهار أى ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك (مختلفا) حال (ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) يتعظون (وهو الذى سخر البحر

لتأكلوا منه لحما طريا) هو السمك ووصفه بالطراوة لان الفساد يسرع اليه فيؤكل سريعا طريا خيفة الفساد وانما
لا يحنث بأكله اذا حلف لا يأكل لحما لان مبنى الأيمان على العرف ومن قال لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء
بالسمك كان حقيقا بالانكار (وتستخرجوا منه حلية) هى اللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) المراد بلبسهم لبس نسائهم ولكنهن انما يتزين بها من أجلهم فكانها زينتهم ولباسهم (وترى الفلك مواخر) جوارى تجرى جريا وتشق الماء شقا والمخر شق الماء بحيزومها (فيه) فى البحر (ولتبتغوا من فضله) هو عطف على محذوف أى لتعتبروا ولتبتغوا ابتغاء الفضل التجارة (ولعلكم تشكرون) الله على ما انعم عليكم به (وألقى فى الارض رواسى) جبالا ثوابت (أن تميد بكم) كراهية أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تميد بكم لكن حذف المضاف أكثر قيل خلق الله الارض فجعلت تميد فقالت الملائكة ما هى بمقر أحد على ظهرها فاصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت (وأنهارا) وجعل فيها أنهارا لان ألقى فيه معنى جعل (وسبلا) طرقا (لعلكم تهتدون) الى مقاصدكم أو الى توحيد ربكم (وعلامات) هى معالم الطرق وكل ما يستدل به السابلة من جبل وغير ذلك (وبالنجم هم يهتدون) المراد بالنجم الجنس أو هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدى فان قلت وبالنجم هم يهتدون مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه النجم مقحم فيه هم كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فمن المراد بهم قلت كأنه أراد قريشا فلهم اهتداء بالنجوم فى مسايرهم ولهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم فخصصوا

عليهم بمعنى تسخير الله البحر لعباده جعله بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به اما بالركوب عليه أو بالغوص فيه أو الصيد منه فذكر هذه الثلاثة الاقسام من انواع الانتفاع به فقال تعالى وهو الذى سخر البحر (لتأكلوا منه لحما طريا) فبدأ بذكر الاكل لانه أعظم المقصود لان به قوام البدن وفى ذكر الطرى مزيد فائدة دالة على كمال قدرة الله تعالى وذلك ان السمك لو كان كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطرى لانه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الطرى الذى لحمه فى غاية العذوبة علم أنه انما حدث بقدرة الله وخلقه لا بحسب الطبع وعلم بذلك ان الله قادر على اخراج الضد من الضد المنفعة الثانية قوله تعالى (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) يعنى اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والمراد بلبسهم لبس نسائهم لان زينة النساء بالحلى وانما هو لأجل الرجال فكان ذلك زينة لهم المنفعة الثالثة قوله تعالى (وترى الفلك) يعنى السفن (مواخر فيه) يعنى جوارى فيه قال قتادة مقبلة ومدبرة وذلك انك ترى سفينتين احداهما تقبل والاخرى تدبر تجريان بريح واحدة وأصل المخر فى اللغة الشق يقال مخرت السفينة مخرا اذا شقت الماء بجؤجؤها وقال مجاهد تمخر الرياح السفن يعنى انها اذا جرت يسمع لها صوت قال ابو عبيدة يعنى صوائح والمخر صوت هبوب الريح عند شدتها وقال الحسن مواخر يعنى مواقر أى مملوءة متاعا (ولتبتغوا من فضله) يعنى الارباح بالتجارة فى البحر (ولعلكم تشكرون) يعنى انعام الله عليكم اذا رأيتم نعم الله فيما سخر لكم (وألقى فى الارض رواسى) يعنى جبالا ثقالا (أن تميد بكم) يعنى لئلا تميل وتضطرب بكم والميد هو اضطراب الشئ العظيم كالارض وقال وهب لما خلق الله سبحانه وتعالى الارض جعلت تمور وتضطرب فقالت الملائكة ان هذه غير مقرة أحدا على ظهرها فاصبحوا وقد أرسيت بالجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال (وأنهارا) يعنى وجعل فيها انهارا لان فى ألقى معنى الجعل فقوله سبحانه وتعالى وأنهارا معطوف على وألقى ولما ذكر الله الجبال ذكر بعدها الانهار لان معظم عيون الانهار وأصولها تكون من الجبال (وسبلا) يعنى وجعل فيها طرقا مختلفة تسلكونها فى اسفاركم والتردد فى حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان (لعلكم تهتدون) يعنى بتلك السبل الى ما تريدون فلا تضلون (وعلامات) يعنى وجعل فيها علامات تهتدون بها فى اسفاركم قال بعضهم تم الكلام عند قوله وعلامات ثم ابتدأ (وبالنجم هم يهتدون) وقال محمد بن كعب والكلبى اراد بالعلامات الجبال والنجوم فالجبال علامات النهار والنجوم علامات الليل وقال مجاهد أراد بالكل النجوم فمنها ما يكون علامات ومنها ما يهتدى به وقال السدى أراد بالنجم الثريا وبنات نعش والفرقدين والجدى فبهذه يهتدى بها الى الطريق والقبلة وقال قتادة انما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء لتكون زينة السماء ومعالم الطريق ورجوما

الشياطين فمن قال غير هذا فقد تكلف ما لا علم له به قوله سبحانه وتعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) لما ذكر الله عز وجل من عجائب قدرته وغرائب صنعته وبديع خلقه ما ذكر على الوجه الاحسن والترتيب الاكمل وكانت هذه الاشياء المخلوقة المذكورة فى الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وانه تعالى هو المنفرد بخلقها جميعا قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الاصنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شئ أفمن يخلق يعنى هذه الاشياء الموجودة المرئية بالعيان وهو الله تعالى الخالق لها كمن لا يخلق يعنى هذه الاصنام العاجزة التى لا تخلق شيأ البتة لانها جمادات لا تقدر على شئ فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادتها ويترك عبادة من يستحق العبادة وهو الله خالق هذه الاشياء كلها ولهذا المعنى ختم هذه الآية بقوله (أفلا تذكرون) يعنى ان هذا القدر ظاهر غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه الى دقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل واعتبر بما ذكره بقى فى الآية سؤالان الاول قوله كمن لا يخلق المراد به الاصنام وهى جمادات لا تعقل فكيف يعبر عنها بلفظة من وهى لمن يعقل والجواب عنه ان الكفار لما سموا هذه الاصنام آلهة وعبدوها أجريت مجرى من يعقل فى زعمهم الا ترى الى قوله بعد هذا والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيأ فخاطبهم على قدر زعمهم وعقولهم السؤال الثانى قوله أفمن يخلق كمن لا يخلق المقصود منه الزام الحجة على من عبد الاصنام حيث جعل غير الخالق مثل الخالق فكيف قال على سبيل الاستفهام أفمن يخلق كمن لا يخلق والجواب عنه انه ليس المراد منه الاستفهام بل المراد منه ان من خلق الاشياء العظيمة وأعطى هذه النعم الجزيلة كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة فى التسمية والعبادة وكيف يليق بالعاقل ان يترك عبادة من يستحق العبادة لانه خالق هذه الاشياء الظاهرة كلها ويشتغل بعبادة جمادات لا تخلق شيأ البتة والله أعلم وقوله تعالى (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يعنى ان نعم الله على العبد فيما خلق فيه من صحة البدن وعافية الجسم واعطاء النظر الصحيح والعقل السليم والسمع الذى يفهم به الاشياء وبطش اليدين وسعى الرجلين الى غير ذلك مما أنعم به عليه فى نفسه وفيما أنعم به عليه مما خلق له من جميع ما يحتاج اليه من امر الدين والدنيا لا تحصى حتى لو رام أحد معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عن معرفتها وحصرها فكيف بنعمه العظام التى لا يمكن الوصول الى حصرها لجميع الخلق فذلك قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها يعنى ولو اجتهدتم فى ذلك واتعبتم نفوسكم لا تقدرون عليه (ان الله لغفور) يعنى لتقصيركم فى القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم (رحيم) يعنى بكم حيث وسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصى (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) يعنى ان الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبى صلى الله عليه وسلم وما يعلنون يعنى وما يظهرون من ايذائه فاخبرهم الله عز وجل انه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لا يخفى عليه خافية وان دقت وخفيت وقيل ان الله سبحانه

(أفمن يخلق) أى الله تعالى (كمن لا يخلق) أى الاصنام وجئ بمن الذى هو لاولى العلم لزعمهم حيث سموها آلهة وعبدوها فاجروها مجرى أولى العلم أو لان المعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم فكيف بما لا علم عنده واعالم يقل أفمن لا يخلق كمن يخلق مع اقتضاء المقام بظاهره اياه لكونه الزاما للذين عبدوا الاوثان وسموها آلهة تشبيها بالله لانهم حين جعلوا غير الله مثل الله فى تسميته باسمه والعبادة له فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيها بها فانكر عليهم ذلك بقوله أفمن يخلق كمن لا يخلق وهو حجة على المعتزلة فى خلق الافعال (أفلا تذكرون) فتعرفون فساد ما أنتم عليه (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم فضلا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر واتبع ذلك ما عدد من نعمه تنبيها على ان ما وراءها لا ينحصر ولا يعد (ان الله لغفور رحيم) يتجاوز عن تقصيركم فى أداء شكر النعمة ولا يقطعها عنكم لتفريطكم (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) من أقوالكم وأفعالكم وهو وعيد

(والذين يدعون) والآلهة الذين يدعوهم الكفار (من دون الله) وبالتاء مفسر عاصم (لا يخلقون شيأ وهم يخلقون أموات) أي هم أموات (غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون) نفى عنهم خصائص الالهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون أموات جاهلون بالبعث ومعنى أموات غير أحياء أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أي غير جائز عليها الموت وأمرهم بالعكس من ذلك والضمير في يبعثون للداعين أي لا يشعرون متى تبعث عبدتهم وفيه تهكم بالمشركين وان آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء أعمالهم منهم على عبادتهم وفيه دلالة على أنه لابد من البعث (الهكم اله واحد) أي ثبت بما مر ان الالهية لا تكون لغير الله وان معبودكم واحد (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) للوحدانية (وهم مستكبرون) عنها وعن الاقرار بها (لا جرم) حقا (ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) أي سرهم وعلانيتهم فيجازيهم وهو وعيد (انه لا يحب المستكبرين) عن التوحيد يعني المشركين (واذا قيل لهم) لهؤلاء الكفار (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين) ماذا منصوب بأنزل أي أي شئ انزل ربكم أو مرفوع على الابتداء أي أي شئ انزله ربكم وأساطير خبر مبتدا محذوف قيل هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أساطير الاولين أي أحاديث الاولين وأباطيلهم واحدتها أسطورة واذا رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونهم بصدقه وانه نبي فهم الذين قالوا خيرا (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة

وتعالى لما ذكر الاصنام وذكر عجزها في الآية المتقدمة ذكر في هذه الآية ان الاله الذي يستحق العبادة يجب أن يكون عالما بكل المعلومات سرها وعلانيتها وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة ثم وصف الله هذه الاصنام بصفات فقال تعالى (والذين تدعون من دون الله) يعني الاصنام التي تدعونها آلهة من دون الله (لا يخلقون شيأ وهم يخلقون) فان قلت قوله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لا يخلق يدل على ان هذه الاصنام لا تخلق شيأ فقوله سبحانه وتعالى لا يخلقون شيأ وهم يخلقون هذا هو نفس المعنى المذكور في تلك الآية فما فائدة التكرار قلت فائدته ان المعنى المذكور في الآية المتقدمة انهم لا يخلقون شيأ فقط والمذكور في هذه الآية أنهم لا يخلقون شيأ وانهم مخلوقون كغيرهم فكان هذا زيادة في المعنى وهو فائدة التكرار (أموات) أي جمادات ميتة لا حياة فيها (غير أحياء) يعني كغيرها والمعنى لو كانت هذه الاصنام آلهة كما تزعمون لكانت أحياء غير جائز عليها الموت لان الاله الذي يستحق أن يعبد هو الحي الذي لا يموت وهذه أموات غير أحياء فلا تستحق العبادة فمن عبدها فقد وضع العبادة في غير موضعها وقوله (وما يشعرون) يعني هذه الاصنام (أيان يبعثون) يعني متى يبعثون وفيه دليل على أن الاصنام تجعل فيها الحياة وتبعث يوم القيامة حتى تتبرأ من عابديها وقيل معناه ما يدري الكفار الذين عبدوا الاصنام متى يبعثون قوله سبحانه وتعالى (الهكم اله واحد) يعني ان الذي يستحق العبادة هو اله واحد وهذه أصنام متعددة فكيف تستحق العبادة (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) يعني جاحدة لهذا المعنى (وهم مستكبرون) يعني عن اتباع الحق لان الحق اذا تبين كان تركه تكبرا (لا جرم) يعني حقا (ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين) يعني عن اتباع الحق (م) عن ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا قال ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس قوله بطر الحق هو أن يجعل ما جعله الله حقا من توحيده وعبادته باطلا وهذا على قول من جعل أصل البطر من الباطل ومن جعله من الحيرة فمعناه يتحير عند سماع الحق فلا يقبله ولا يجعله حقا وقيل البطر التكبر يعني أنه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله وقوله وغمط الناس يقال غمطت حق فلان اذا احتقرته ولم تره شيأ وكذا معنى غمصته أي انتقصت به وازدريته قوله عز وجل (واذا قيل لهم) يعني لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم كفار مكة الذين اقتسموا عقابها وطرقها اذا سألهم الحاج الذين يقدمون عليهم (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين) يعني أحاديثهم وأباطيلهم (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) اللام في ليحملوا لام العاقبة وذلك انهم لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الاولين كانت عاقبتهم بذلك أن يحملوا أوزارهم يعني ذنوب أنفسهم وانما

قال سبحانه وتعالى كاملة لان البلايا التى أصابتهم فى الدنيا وأعمال البر التى عملوها فى الدنيا لا تكفر عنهم شيأ يوم القيامة بل يعاقبون بكل أوزارهم قال الامام فخر الدين الرازى وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة وقوله سبحانه وتعالى (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) يعنى ويحصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الايمان مثل أوزار الاتباع والسبب فيه ما روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيأ ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ أخرجه مسلم ومعنى الآية والحديث ان الرئيس أو الكبير اذا سن سنة حسنة أو سنة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فان الله سبحانه وتعالى يعظم ثوابه أو عقابه حتى يكون ذلك الثواب أو العقاب مساويا للكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع الذين عملوا بسنته الحسنة أو القبيحة وليس المراد ان الله تعالى يوصل جميع الثواب او العقاب الذى يستحقه الاتباع الى الرؤساء لان ذلك ليس بعدل ويدل عليه قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى قال الواحدى ولفظة من فى قوله ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ليست للتبعيض لانها لو كانت للتبعيض لنقص عن الاتباع بعض الاوزار وذلك غير جائز لقوله عليه الصلاة والسلام لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ ولكنها للجنس أى ليحملوا من جنس أوزار الاتباع وقوله بغير علم يعنى ان الرؤساء انما يقدمون على اضلال غيرهم بغير علم بما يستحقونه من العقاب على ذلك الاضلال بل يقدمون على ذلك جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد (ألا ساء ما يزرون) يعنى الا بئس ما يحملون فقيه وعيد وتهديد لهم قوله سبحانه وتعالى (قد مكر الذين من قبلهم) يعنى من قبل كفار قريش وهو نمرود بن كنعان الجبار وكان أكبر ملوك الارض فى زمن ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكان من مكره أنه بنى صرحا ببابل ليصعد الى السماء ويقاتل أهلها فى زعمه قال ابن عباس وكان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب ومقاتل كان طوله فرسخين فهبت ريح فقصفته وألقت رأسه فى البحر وخر عليهم الباقى فأهلكهم وهم تحته ولما سقط تبلبلت ألسنة الناس من الفزع فتكلموا يومئذ بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية قلت هكذا ذكره البغوى وفى هذا نظر لان صالحا عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان أهل اليمن عربا منهم جرهم الذى نشأ اسمعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكانت قبائل من العرب قديمة قبل ابراهيم عليه السلام مثل طسم وجديس وكل هؤلاء عرب تكلموا فى قديم الزمان بالعربية ويدل على صحة هذا قوله ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى والله أعلم وقيل حمل قوله قد مكر الذين من قبلهم على العموم أولى فتكون الآية عامة فى جميع الماكرين المبطلين الذين يحاولون الحاق الضر والمكر بالغير وقوله سبحانه وتعالى (فأتى الله بنيانهم من القواعد) يعنى قصد تخريب بنيانهم من أصوله وذلك بان أتاهم بريح قصفت

ومن أوزار الذين يضلونهم) أى قالوا ذلك اضلالا للناس فحملوا أوزار ضلالهم كاملة وبعض أوزار من ضل بضلالهم وهو وزر الاضلال لان المضل والضال شريكان واللام للتعليل (بغير علم) حال من المفعول أى يضلون من لا يعلم أنهم ضلال (ألا ساء ما يزرون) محل ما رفع (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد) أى من جهة القواعد وهى الاساطين وهذا تمثيل يعنى أنهم سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله فجعل الله هلاكهم فى تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى البنيان من الاساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وماتوا وهلكوا والجمهور على أن المراد به نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع وقيل فرسخان فاهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا فاتى الله أى أمره بالاستئصال

بنيانهم من أعلاه وأتاهم بزلازل قلعت بنيانهم من قواعده وأساسه هذا اذا حملنا تفسير الآية على القول الاول وهو ظاهر اللفظ وان حملنا تفسير الآية على القول الثانى وهو حملها على العموم كان المعنى انهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على أنبيا الله وأهل الحق من عباده أهلكهم الله تعالى وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنيانا وثيقا شديدا ودعموه بالاساطين فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن مكر بآخر فأهلكه الله بمكره ومنه المثل السائر على ألسنة الناس من حفر بئرا لاخيه أوقعه الله فيه وقوله تعالى (فخر عليهم السقف من فوقهم) يعنى سقط عليهم السقف فأهلكهم وقوله من فوقهم للتأكيد لأن السقف لايخر الا من فوقهم وقيل يحتمل انهم لم يكونوا تحت السقف عند سقوطه فلما قال من فوقهم علم انهم كانوا تحته وانه لما خر عليهم اهلكوا وماتوا تحته (وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون) يعنى فى مأمنهم وذلك انهم لما اعتمدوا على قوة بنيانهم وشدته كان ذلك البنيان سبب هلاكهم (ثم يوم القيامة يخزيهم) يعنى يهينهم بالعذاب وفيه اشعار بان العذاب يحصل لهم فى الدنيا والآخرة لان الخزى هو العذاب مع الهوان (ويقول) يعنى ويقول الله لهم يوم القيامة (أين شركائى) يعنى فى زعمكم واعتقادكم (الذين كنتم تشاقون فيهم) يعنى كنتم تعادون وتخالفون المؤمنين وتخاصمونهم فى شأنهم لان المشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين فى شق غير شق صاحبه والمعنى مالهم لايحضرون معكم ليدفعوا عنكم مانزل بكم من العذاب والهوان (قال الذين أوتوا العلم) يعنى المؤمنين وقيل الملائكة (ان الخزى) يعنى الهوان (اليوم) يعنى فى هذا اليوم وهو يوم القيامة (والسوء) يعنى العذاب (على الكافرين) وانما يقول المؤمنون هذا يوم القيامة لان الكفار كانوا يستهزؤن بالمؤمنين فى الدنيا وينكرون عليهم أحوالهم فاذا كان يوم القيامة ظهر أهل الحق وأكرموا بانواع الكرامات وأهين أهل الباطل وعذبوا بانواع العذاب فعند ذلك يقول المؤمنون ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين وفائدة هذا القول اظهار الشماتة بهم فيكون أعظم فى الهوان والخزى قوله تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة) تقبض أرواحهم الملائكة وهم ملك الموت وأعوانه (ظالمى أنفسهم) يعنى بالكفر (فألقوا السلم) يعنى انهم استسلموا وانقادوا لامر الله الذى نزل بهم وقالوا (ما كنا نعمل من سوء) يعنى شركا وانما قالوا ذلك من شدة الخوف (بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون) يعنى فلا فائدة لكم فى انكاركم قال عكرمة يعنى بذلك ما حصل من الكفار يوم بدر (فادخلوا) أى فيقال لهم ادخلوا (أبواب جهنم خالدين فيها) يعنى مقيمين فيها لايخرجون منها وانما قال ذلك لهم ليكون أعظم فى الغم والحزن وفيه دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض (فلبئس مثوى المتكبرين) يعنى عن الايمان قوله عز وجل (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) وذلك ان أحياء العرب كانوا يبعثون الى مكة أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى صلى الله عليه وسلم فاذا جاء الوافد سأل الذين كانوا يقعدون على طرقات مكة من الكفار فيقولون هو ساحر

كاهن

(فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون) من حيث لايحتسبون ولايتوقعون (ثم يوم القيامة يخزيهم) يذلهم بعذاب الخزى سوى ما عذبوا به فى الدنيا (ويقول أين شركائى) على الاضافة الى نفسه حكاية لاضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون فيهم) تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم تشاقون نافع أى تشاقونى فيهم لان مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله (قال الذين أوتوا العلم) أى الانبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم الى الايمان ويعظونهم فلا يلتفتون اليهم ويشاقونهم يقولون ذلك شماتة بهم أوهم الملائكة (ان الخزى اليوم) الفضيحة (والسوء) العذاب (على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة) وبالياء حمزة وكذا ما بعده (ظالمى أنفسهم) بالكفر بالله (فألقوا السلم) أى الصلح والاستسلام أى أخبتوا وجاؤا بخلاف ما كانوا عليه فى الدنيا من الشقاق وقالوا (ما كنا نعمل من سوء) وجحدوا ما وجد منهم من الكفران والعداوة فرد عليهم أولوا العلم وقالوا (بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون) فهو يجازيكم عليه وهذا أيضا من الشماتة وكذلك (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) جهنم (وقيل للذين اتقوا) الشرك (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) وانما نصب هذا ورفع أساطير لان التقدير هنا أنزل خيرا فطابقوا الجواب على السؤال وثمة التقدير هو أساطير الاولين فعدلوا بالجواب عن السؤال

كاهن شاعر كذاب مجنون واذا لم تلقه خير لك فيقول الوافد أنا شر وافد ان رجعت الى قومي من دون أن أدخل مكة فالقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألهم عنه فيخبرونه بصدقه وامانته وانه نبي مبعوث من الله عز وجل فذلك قوله سبحانه وتعالى وقيل للذين اتقوا يعني اتقوا الشرك وقول الزور والكذب ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا يعني أنزل خيرا فان قلت لم رفع الاول وهو قوله أساطير الاولين ونصب الثاني وهو قوله قالوا خيرا قلت ليحصل الفرق بين الجوابين جواب المنكر الجاحد وجواب المقر المؤمن وذلك انهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو أساطير الاولين وليس هو من الانزال في شئ لانهم لم يعتقدوا كونه منزلا ولما سألوا المؤمنين عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا خيرا اى أنزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) يعني للذين أتوا بالاعمال الصالحة الحسنة ثوابها حسنة مضاعفة من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة وقال الضحاك هي النصر والفتح وقال مجاهد هي الرزق الحسن فعلى هذا يكون معنى الآية للذين أحسنوا ثواب احسانهم في هذه الدنيا حسنة وهي النصر والفتح والرزق الحسن وغير ذلك مما أنعم الله به على عباده في الدنيا ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى (ولدار الآخرة خير) يعني مالهم في الآخرة مما أعد الله لهم في الجنة خير مما يحصل لهم في الدنيا (ولنعم دار المتقين) يعني الجنة وقال الحسن هي الدنيا لان أهل التقوى يتزودون منها الى الآخرة والقول الاول أولى وهو قول جمهور المفسرين لان الله فسر هذه الدار بقوله (جنات عدن) يعني بساتين اقامة من قولهم عدن بالمكان أي أقام به (يدخلونها) يعني تلك الجنات لا يرحلون عنها ولا يخرجون منها (تجري من تحتها الانهار) يعني تجري الانهار في هذه الجنان من تحت دور أهلها وقصورهم ومساكنهم (لهم فيها) يعني في الجنات (ما يشاؤن) يعني ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين مع زيادات غير ذلك وهذه الحالة لا تحصل لاحد الا في الجنة لان قوله لهم فيها ما يشاؤن لا يفيد الحصر وذلك يدل على أن الانسان لا يجد كل ما يريد في الدنيا (كذلك يجزي الله المتقين) أي هكذا يكون جزاء المتقين ثم عاد الى وصف المتقين فقال تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) يعني مؤمنين طاهرين من الشرك قال مجاهد زاكية أقوالهم وأفعالهم وقيل ان قوله طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن فيدخل فيه أنهم أتوا بكل ما أمروا به من فعل الخيرات والطاعات واجتنبوا كل ما نهوا عنه من المكروهات والمحرمات مع الاخلاق الحسنة والخصال الحميدة والمباعدة من الاخلاق المذمومة والخصال المكروهة القبيحة وقيل معناه ان أوقاتهم تكون طيبة سهلة لانهم يبشرون عند قبض أرواحهم بالرضوان والجنة والكرامة فيحصل لهم عند ذلك الفرح والسرور والابتهاج فيسهل عليهم قبض أرواحهم ويطيب لهم الموت على هذه الحالة

(للذين أحسنوا في هذه الدنيا) أي آمنوا وعملوا الصالحات أو قالوا لا اله الا الله (حسنة) بالرفع أي ثواب وامن وغنيمة وهو بدل من خيرا حكاية لقول الذين اتقوا أي قالوا هذا القول وقدم عليه تسميته خيرا ثم حكاه أو هو كلام مستأنف عدة للقائلين وجعل قولهم من جملة احسانهم (ولدار الآخرة خير) أي لهم في الآخرة ما هو خير منها كقوله فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة (ولنعم دار المتقين) دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره (جنات عدن) خبر لمبتدا محذوف أو هو مخصوص بالمدح (يدخلونها) حال (تجري من تحتها الانهار لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر لانه في مقابلة ظالمي انفسهم

(يقولون) يعنى الملائكة لهم (سلام عليكم) يعنى تسلم عليهم الملائكة أو تبلغهم السلام من الله (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) يعنى فى الدنيا من الاعمال الصالحة فان قلت كيف الجمع بين قوله تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون و بين قوله صلى الله عليه وسلم لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمته أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى هريرة قلت قال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله فى شرح مسلم اعلم أن مذهب أهل السنة انه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا ايجاب ولا تحريم ولا غيرهما من أنواع التكليف ولا تثبت هذه الاشياء كلها ولا غيرها الا بالشرع ومذهب أهل السنة أيضا ان الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شئ بل العالم كله ملكه والدنيا والآخرة فى سلطانه يفعل فيهما ما يشاء فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار كان ذلك عدلا منه واذا أكرمهم ورحمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان ذلك له ومنه فضلا ولكنه سبحانه وتعالى أخبر وخبره صادق أنه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب الكافرين ويدخلهم النار عدلا منه وأما المعتزلة فيثبتون الاحكام بالعقل ويوجبون ثواب الاعمال ويوجبون الاصلح فى خبط طويل لهم تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة المنابذة لنصوص الشرع وفى ظاهر هذا الحديث دلالة لاهل الحق انه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته وأما قوله سبحانه وتعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ونحوهما من الآيات التى تدل على أن الاعمال الصالحة يدخل بها الجنة فلا تعارض بينها وبين هذا الحديث بل معنى الآيات ان دخول الجنة بسبب الاعمال والتوفيق للاخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخل الجنة بمجرد العمل وهو مراد الحديث ويصح أنه دخل بالاعمال أى بسببها وهى من الرحمة والفضل والمنة والله أعلم بمراده قوله تعالى (هل ينظرون) يعنى هؤلاء الذين أشركوا بالله وجحدوا نبوتك يا محمد (الا أن تأتيهم الملائكة) يعنى لقبض أرواحهم (أو يأتى أمر ربك) يعنى بالعذاب فى الدنيا وهو عذاب الاستئصال وقيل المراد به يوم القيامة (كذلك فعل الذين من قبلهم) يعنى من الكفر والتكذيب (وما ظلمهم الله) يعنى بتعذيبه اياهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى باكتسابهم المعاصى والكفر والاعمال القبيحة الخبيثة (فأصابهم سيئات ما عملوا) يعنى فأصابهم عقوبات ما كسبوا من الاعمال الخبيثة (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) والمعنى ونزل بهم جزاء استهزائهم (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا) يعنى ان مشركى مكة قالوا هذا على طريق الاستهزاء والحاصل أنهم تمسكوا بهذا القول فى انكار النبوة فقالوا لو شاء الله منا الايمان لحصل جئت أو لم تجئ ولو شاء الله منا الكفر لحصل جئت أو لم تجئ واذا كان كذلك فالكل من الله فلا فائدة فى بعثة الرسل الى الامم والجواب عن هذا أنهم لما قالوا ان الكل من الله فكانت بعثة الرسل عبثا كان هذا اعتراضا على الله تعالى وهو جار مجرى طلب العلة فى أحكام الله وفى أفعاله وهو باطل لان الله سبحانه

(يقولون سلام عليكم) قيل اذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولى الله الله يقرأ عليك السلام ويبشره بالجنة ويقال لهم فى الآخرة (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) بعملكم (هل ينظرون) ما ينتظر هؤلاء الكفار (الا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم وبالياء على وحمزة (أو يأتى أمر ربك) أى العذاب المستأصل أو القيامة (كذلك) مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب (فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله) بتدميرهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا ما استحقوا به التدمير (فأصابهم سيئات ما عملوا) جزاء سيئات أعمالهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) وأحاط بهم جزاء استهزائهم (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا) هذا كلام صدر منهم استهزاء ولو قالوه اعتقادا لكان صوابا

وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فلا اعتراض لاحد عليه فى أحكامه وافعاله ولا يجوز
لاحد أن يقول له لم فعلت هذا ولم لم تفعل هذا وكان فى حكم الله وسنته فى عباده ارسال
الرسل اليهم ليأمروهم بعبادة الله تعالى وينهوهم عن عبادة غيره وان الهداية والاضلال
اليه فمن هداه فهو المهتدى ومن أضله فهو الضال وهذه سنة الله فى عباده انه يأمر الكل
بالايمان به وينهاهم عن الكفر ثم انه سبحانه وتعالى يهدى من يشاء الى الايمان ويضل من
يشاء فلا اعتراض لاحد عليه ولما كانت سنة الله قديمة ببعثة الرسل الى الامم الكافرة
المكذبة كان قول هؤلاء لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا جهلا منهم لانهم
اعتقدوا ان كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهذا الاعتقاد باطل فلا جرم
استحقوا عليه الذم والوعيد وأما قوله تعالى (ولا حرمنا من دونه من شئ) يعنى الوصيلة
والسائبة والحام والمعنى فلولا أن الله رضيها لنا لغير ذلك واهدانا الى غيره (كذلك فعل
الذين من قبلهم) يعنى ان من تقدم هؤلاء من كفار مكة ومن الامم الماضية كانوا على
هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما فى الامم الخالية (فهل
على الرسل الا البلاغ المبين) يعنى ليس اليهم هداية أحد انما عليهم تبليغ ما أرسلوا به الى
من أرسلوا اليه (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) يعنى كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم
رسولا (ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) يعنى ان الرسل كانوا يأمرونهم بأن
يعبدوا الله وان يجتنبوا عبادة الطاغوت وهو اسم كل معبود من دون الله (فمنهم) يعنى
فمن الامم الذين جاءتهم الرسل (من هدى الله) يعنى هداه الله الى الايمان به وتصديق رسله
(ومنهم من حقت عليه الضلالة) يعنى ومن الامم من وجبت عليه الضلالة بالقضاء السابق
فى الازل حتى مات على الكفر والضلال وفى هذه الآية أبين دليل على أن الهادى والمضل
هو الله تعالى لانه المتصرف فى عباده فيهدى من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض لاحد
عليه بما حكم به فى سابق علمه (فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) يعنى
فسيروا فى الارض معتبرين متفكرين لتعرفوا ما آل من كذب الرسل وهو خراب منازلهم
بالعذاب والهلاك ولتعرفوا أن العذاب نازل بكم ان أصررتم على الكفر والتكذيب كما نزل
بهم قوله سبحانه وتعالى (ان تحرص على هداهم) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى ان
تحرص يا محمد على هدى هؤلاء وايمانهم وتجتهد كل الاجتهاد (فان الله لا يهدى من يضل)
قرئ بفتح الياء وكسر الدال يعنى لا يهدى الله من أضله وقيل معناه لا يهتدى من أضله الله
وقرئ بضم الياء وفتح الدال ومعناه من أضله الله فلا هادى له (وما لهم من ناصرين) أى
مانعين يمنعونهم من العذاب (واقسموا بالله جهد أيمانهم) قال ابن الجوزى سبب نزولها
أن رجلا من المسلمين كان له على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به
المسلم والذى أرجوه بعد الموت فقال المشرك انك لتزعم انك تبعث بعد الموت وأقسم بالله
ان لا يبعث الله من يموت فنزلت هذه الآية قاله أبو العالية وتقرير الشبهة التى حصلت
للمشركين فى انكار البعث بعد الموت ان الانسان ليس هو الا هذه البنية المخصوصة
فاذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه لان الشئ اذا عدم فقد فنى ولم يبق له

(ولا حرمنا من دونه من شئ) يعنى البحيرة والسائبة ونحوهما (كذلك فعل الذين من قبلهم) أى كذبوا الرسل وحرموا الحلال وقالوا مثل قولهم استهزاء (فهل على الرسل الا البلاغ المبين) الا أن يبلغوا الحق ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ان اعبدوا الله) بأن وحدوه (واجتنبوا الطاغوت) الشيطان يعنى طاعته (فمنهم من هدى الله) لاختيارهم الهدى (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى لزمته لاختياره اياها (فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) حيث أهلكهم الله وأخلى ديارهم عنهم ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على ايمانهم وأعلمه انهم من قسم من حقت عليه الضلالة فقال (ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل) بفتح الياء وكسر الدال كوفى الباقون بضم الياء وفتح الدال والوجه فيه أن من يضل مبتدأ ولا يهدى خبره (وما لهم من ناصرين) يمنعونهم من جريان حكم الله عليهم ويدفعون عنهم عذابه الذى أعد لهم (واقسموا بالله جهد أيمانهم) معطوف على وقال الذين أشركوا

ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فهذا هو أصل شبهتهم ومعتقدهم في انكار البعث بعد الموت فذلك قوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم (لا يبعث الله من يموت) فرد الله عليهم ذلك وكذبهم في قولهم فقال تعالى (بلى) يعني بلى يبعثهم بعد الموت لان لفظة بلى اثبات لما بعد النفي والجواب عن شبهتهم ان الله سبحانه وتعالى خلق الانسان وأوجده من العدم ولم يك شيأ فالذي أوجده بقدرته ثم أعدمه قادر على ايجاده بعد اعدامه لان النشأة الثانية أهون من الاولى (وعدا عليه حقا) يعني ان الذي وعد به من البعث بعد الموت وعد حق لا خلف فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعني لا يفهمون كيف يكون ذلك العود والله سبحانه وتعالى قادر على كل شئ (ليبين لهم الذي يختلفون فيه) يعني من أمر البعث ويظهر لهم الحق الذي لا خلف فيه (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) يعني في قولهم لا بعث بعد الموت (انما قولنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) يعني ان الله سبحانه وتعالى قادر اذا أراد أن يحيي الموتى ويبعثهم للحساب والجزاء فلا تعب عليه في احيائهم وبعثهم انما يقول لشئ أراده كن فيكون على ما أراد لانه القادر الذي لا يعجزه شئ أراده (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني ويكذبني وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه اياي فيقول ان لي ولدا وأما تكذيبه اياي فقوله ليس يعيدني كما بدأني وفي رواية كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك أما تكذيبه اياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من اعادته وأما شتمه اياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وقوله تعالى (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا) يعني أوذوا وعذبوا نزلت في بلال وصهيب وخباب وعابس وجبير وأبي جندل بن سهل أخذهم المشركون بمكة فجعلوا يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام الى الكفر وهم المستضعفون فاما بلال فكان أصحابه يخرجونه الى بطحاء مكة في شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد فاشتراه منهم أبو بكر الصديق واعتقه واشترى معه ستة نفر آخرين وأما صهيب فقال لهم اني رجل كبير ان كنت معكم فلن أنفعكم وان كنت عليكم فلا أضركم فاشترى نفسه بماله فلما قدم المدينة لقيه أبو بكر الصديق فقال يا صهيب ربح البيع وأما باقيهم فاعطوهم بعض ما يريدون فخلوا عنهم وقال قتادة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظلمهم أهل مكة فاخرجوهم من ديارهم حتى لحق طائفة بالحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة فهاجروا اليها وجعل لهم انصارا من المؤمنين فآووهم ونصروهم وواسوهم وهذه الآية تدل على فضل المهاجرين وفضل الهجرة وفيه دليل على أن الهجرة اذا لم تكن لله خالصة لم يكن لها موقع وكانت بمنزلة الانتقال من بلد الى آخر ومنه حديث الاعمال بالنيات وفيه فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه الحديث أخرجاه في الصحيحين من رواية عمر بن الخطاب وقوله تعالى (لنبوئنهم في الدنيا حسنة) يعني لنبوئنهم تبوئة حسنة

(لا يبعث الله من يموت بلى) هو اثبات لما بعد النفي أي بلى يبعثهم (وعدا عليه حقا) وهو مصدر مؤكد لما دل عليه بلى لان يبعث موعد من الله وبين أن الوفاء بهذا الوعد حق (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان وعده حق أو انهم يبعثون (ليبين لهم) متعلق بما دل عليه بلى أي يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو يشمل المؤمنين والكافرين (الذي يختلفون فيه) هو الحق (وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين) في قولهم لا يبعث الله من يموت (انما قولنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) أي فهو يكون وبالنصب شامي وعلي على جواب كن قولنا مبتدأ وان نقول خبره وكن فيكون من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود أي اذا أردنا وجود شئ فليس الا أن نقول له احدث فهو يحدث بلا توقف وهذه عبارة عن سرعة الايجاد يبين أن مراداً لا يمتنع عليه وان وجوده عند ارادته غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع اذا ورد على المأمور المطيع الممتثل ولا قول ثم والمعنى ان ايجاد كل مقدور على الله بهذه السهولة فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من بعض المقدورات (والذين هاجروا في الله) في حقه ولوجهه (من بعد ما ظلموا) هم رسول الله وأصحابه ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم الى الله منهم من هاجر الى الحبشة ثم الى المدينة فجمع بين الهجرتين ومنهم من هاجر الى المدينة (لنبوئنهم في الدنيا حسنة) صفة للمصدر أي تبوئة حسنة أو لنبوئنهم مباءة حسنة وهي المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم

وهو

وهو انه تعالى انزلهم المدينة وجعلها لهم دار هجرة والمعنى لنبوئنهم فى الدنيا دارا حسنة أو بلدة حسنة وهى المدينة روى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان اذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له خذ هذا بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم يقول هذه الآية وقيل معناه ليحسنن اليهم فى الدنيا بأن يفتح لهم مكة ويمكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها ثم ينصرهم على العرب قاطبة وعلى أهل المشرق والمغرب وقيل المراد بالحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية فى الدين (ولأجر الآخرة أكبر) يعنى أعظم وأفضل وأشرف مما أعطاهم فى الدنيا (لو كانوا يعلمون) قيل الضمير يرجع الى الكفار لان المؤمنين يعلمون ما لهم فى الآخرة والمعنى لو كان هؤلاء الكفار يعلمون أن أجر الآخرة أكبر مما هم فيه من نعيم الدنيا لرغبوا فيه وقيل انه راجع الى المهاجرين والمعنى لو كانوا يعلمون ما أعد الله لهم فى الآخرة لزادوا فى الجد والاجتهاد والصبر على ما أصابهم من أذى المشركين (الذين صبروا) يعنى فى الله على ما نالهم من الاذى والمكروه فهو صفة مدح يعنى صبروا على العذاب ومفارقة الوطن وعلى الجهاد وبذل الانفس والاموال فى سبيل الله (وعلى ربهم يتوكلون) يعنى فى أمورهم كلها قال بعضهم ذكر الله الصبر والتوكل فى هذه الاية وهما مبدأ السلوك الى الله تعالى ومنتهاه أما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على أعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الاذى من الخلق والصبر عن الشهوات المباحات والمحرمات والصبر على المصائب وأما التوكل فالانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه الى الحق تعالى بالكلية فالاول هو مبدأ السلوك الى الله تعالى والثانى هو آخر الطريق ومنتهاه (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم) نزلت هذه الآية جوابا لمشركى مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله أعظم وأجل من أن يكون رسوله بشرا فهلا بعث ملكا الينا فاجابهم الله عز وجل بقوله وما أرسلنا من قبلك يا محمد الا رجالا يعنى مثلك نوحى اليهم والمعنى ان عادة الله عز وجل جارية من أول مبدا الخلق أنه لم يبعث الا رسولا من البشر فهذه عادة مستمرة وسنة جارية قديمة (فاسئلوا أهل الذكر) يعنى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وانما أمرهم الله بسؤال أهل الكتاب لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان أهل الكتاب أهل علم وقد أرسل الله اليهم رسلا منهم مثل موسى وعيسى وغيرهم من الرسل وكانوا بشرا مثلهم فاذا سألوهم فلا بد وان يخبروهم بأن الرسل الذين أرسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة عن قلوبهم (ان كنتم لا تعلمون) الخطاب لاهل مكة يعنى ان كنتم يا هؤلاء لا تعلمون ذلك (بالبينات والزبر) اختلفوا فى المعنى الجالب لهذه الباء فقيل المعنى وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر الا رجالا يوحى اليهم أرسلناهم بالبينات والزبر وقيل الذكر بمعنى العلم فى قوله فاسئلوا أهل الذكر يعنى أهل العلم والمعنى فاسألوا أهل الذكر الذى هو العلم بالبينات والزبر ان كنتم لا تعلمون أنتم ذلك والبينات والزبر اسم جامع لكل ما يتكامل به أمر الرسالة لان مدار أمر الرسول على المعجزات الدالة على صدقه وهى بالبينات وعلى بيان الشرائع

(ولأجر الآخرة أكبر) الوقف لازم عليه لان جواب (لو كانوا يعلمون) محذوف والضمير للكفار أى لو علموا ذلك لرغبوا فى الدين أو للمهاجرين أى لو كانوا يعلمون لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم (الذين صبروا) أى هم الذين صبروا أو أعنى الذين صبروا وكلاهما مدح أى صبروا على مفارقة الوطن الذى هو حرم الله المحبوب فى كل قلب فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤسهم وعلى المجاهدة وبذل الارواح فى سبيل الله (وعلى ربهم يتوكلون) أى يفوضون الامر الى ربهم ويرضون بما أصابهم فى دين الله ولما قالت قريش الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا نزل (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم) على ألسنة الملائكة نوحى حفص (فاسئلوا أهل الذكر) أهل الكتاب ليعلموكم ان الله لم يبعث الى الامم السالفة الا بشرا وقيل للكتاب الذكر لانه موعظة وتنبيه للغافلين (ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر) أى بالمعجزات والكتب والباء يتعلق برجالا صفة له أى رجالا ملتبسين بالبينات أو بارسلنا مضمرا كأنه قيل بم أرسل الرسل فقيل بالبينات أو بيوحى اى يوحى اليهم بالبينات او بلا تعلمون وقوله فاسئلوا اهل الذكر اعتراض على الوجوه المتقدمة وقوله

والتكاليف وهى المراد بالزبر يعنى الكتب المنزلة على الرسل من الله عز وجل (وأنزلنا اليك الذكر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى وأنزلنا اليك يا محمد الذكر الذى هو القرآن وانما سماه ذكرا لان فيه مواعظ وتنبيه الغافلين (لتبين للناس ما نزل اليهم) يعنى ما أجمل اليك من أحكام القرآن وبيان الكتاب يطلب من السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا قال بعضهم متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لان القرآن مجمل والحديث مبين بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل وقال بعضهم القرآن منه محكم ومنه متشابه فالمحكم يجب ان يكون مبينا والمتشابه هو المجمل ويطلب بيانه من السنة فقوله تعالى لتبين للناس ما نزل اليهم محمول على ما أجمل فيه دون المحكم المبين المفسر (ولعلهم يتفكرون) يعنى فيما أنزل اليهم فيعملوا به (أفأمن الذين مكروا السيآت) فيه حذف تقديره المكرات السيآت وهم كفار قريش مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأصحابه وبالغوا فى أذيتهم والمكر عبارة عن السعى بالفساد على سبيل الاخفاء وقيل المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله فيكون مكرهم على أنفسهم والصحيح أن المراد بهذا المكر السعى فى أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل المراد بالذين مكروا السيآت نمرود ومن هو مثله والصحيح ان المراد بهم كفار مكة (أن يخسف الله بهم الارض) يعنى كما خسف بقرون من قبلهم (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) يعنى ان العذاب يأتيهم بغتة فيهلكهم فجأة كما أهلك قوم لوط وغيرهم (أو يأخذهم فى تقلبهم) يعنى فى تصرفهم فى الاسفار فانه سبحانه وتعالى قادر على اهلاكهم فى السفر كما هو قادر على اهلاكهم فى الحضر وقال ابن عباس يأخذهم فى اختلافهم وقال ابن جريج فى اقبالهم وادبارهم يعنى انه تعالى قادر على ان يأخذهم فى ليلهم ونهارهم وفى جميع أحوالهم (فما هم بمعجزين) يعنى بسابقين الله أو يفوتونه بل هو قادر عليهم (أو يأخذهم على تخوف) قال ابن عباس ومجاهد يعنى على تنقص قال ابن قتيبة التخوف التنقص ومثله التخون يقال تخوفه الدهر وتخونه اذا انتقصه وأخذ ماله وحشمه ويقال هذه لغة هذيل فعلى هذا القول يكون المراد به انه ينقص من أطرافهم ونواحيهم الشئ بعد الشئ حتى يهلك جميعهم وقيل هو على أصله من الخوف فيحتمل انه سبحانه وتعالى لا يأخذهم بالعذاب أولا بل يخوفهم ثم يعذبهم بعد ذلك وقال الضحاك والكلبى هو من الخوف يعنى يهلك طائفة فيتخوف الآخرون أن يصيبهم مثل ما أصابهم والحاصل انه سبحانه وتعالى خوفهم بخسف يحصل فى الارض أو بعذاب ينزل من السماء أو بآفات تحدث دفعة أو بآفات تحدث قليلا قليلا الى ان يأتى الهلاك على آخرهم ثم انه سبحانه وتعالى ختم الآية بقوله (فان ربكم لرؤف رحيم) يعنى انه سبحانه وتعالى لا يعجل بالعقوبة والعذاب قوله سبحانه وتعالى (أولم يروا) قرئ بالتاء على خطاب الحاضرين وبالياء على الغيبة (الى ما خلق الله من شئ) يعنى من جسم قائم له ظل وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بالى لان المراد منها الاعتبار والاعتبار لا يكون الا بنفس الرؤية التى يكون

(وأنزلنا اليك الذكر) القرآن (لتبين للناس ما نزل اليهم) فى الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا به وأوعدوا (ولعلهم يتفكرون) فى تنبيهاته فيتنبهوا (أفأمن الذين مكروا السيآت) أى المكرات السيآت وهم أهل مكة وما مكروا به رسول الله عليه السلام (أن يخسف الله بهم الارض) كما فعل بمن تقدمهم (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) أى بغتة (أو يأخذهم فى تقلبهم) متقلبين فى مسايرهم ومتاجرهم (فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف) متخوفين وهو ان يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون متوقعون وهو خلاف قوله من حيث لا يشعرون (فان ربكم لرؤف رحيم) حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم مع استحقاقكم والمعنى انه اذا لم يأخذكم مع ما فيكم فانما رأفته تقيكم ورحمته تحميكم (أولم يروا) وبالتاء حمزة وعلى وأبو بكر (الى ما خلق الله) ما موصولة بخلق الله وهو مبهم بيانه (من شئ)

معها النظر الى الشئ ليتأمل أحواله ويتفكر فيه فيعتبر به (تتفيؤ ظلاله) يعني تميل
وتدور من جانب الى جانب فهي من أول النهار على حال ثم تتقاص ثم تعود في آخر النهار
الى حالة أخرى و يقال للظل بالعشي فيء لانه من فاء يفيء اذا رجع من المغرب الى المشرق
والفيء الرجوع قال الازهري تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ
لا يكون الا بالعشي وما انصرفت عنه الشمس والظل يكون بالغداة وهو مالم تنله
الشمس وقوله ظلاله جمع ظل وانما أضاف الظلال وهو جمع الى مفرد وهو قوله من
شئ لانه يراد به الكثرة ومعناه الاضافة الى ذوي الظلال (عن اليمين والشمائل) قال
العلماء اذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه الى القبلة كان ظلك عن يمينك فاذا
ارتفعت الشمس واستوت في وسط السماء كان ظلك خلفك فاذا مالت الشمس الى
الغروب كان ظلك عن يسارك وقال الضحاك أما اليمين فأول النهار وأما الشمال فآخر
النهار وانما وحد اليمين وان كان المراد به الجمع للايجاز والاختصار في اللفظ وقيل اليمين
راجع الى لفظ الشئ وهو واحد والشمائل راجع الى المعنى لان لفظ الشئ يراد به الجمع
(سجدا لله) في معنى هذا السجود قولان أحدهما ان المراد به الاستسلام والانقياد
والخضوع يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل
والمعنى ان جميع الاشياء التي لها ظلال فهي منقادة لله تعالى مستسلمة لامره غير ممتنعة
عليه فيما سخرها له من التفيؤ وغيره وقال مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شئ لله
والقول الثاني في معنى هذا السجود ان الظلال واقعة على الارض ملتصقة بها
كالساجد على الارض فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها
هذا اللفظ وقيل ظل كل شئ ساجد لله سواء كان ذلك الشئ يسجد لله أو لا ويقال ان ظل
الكافر ساجد لله وهو غير ساجد لله (وهم داخرون) أي صاغرون أذلاء والداخر الصاغر
الذي يفعل ما تأمره به شاء أم أبى وذلك ان جميع الاشياء منقادة لامر الله تعالى فان
قلت الظلال ليست من العقلاء فكيف عبر عنها بلفظ من يعقل وجمعها بالواو والنون
قلت لما وصفها الله سبحانه وتعالى بالطاعة والانقياد لامره وذلك صفة من يعقل عبر عنها
بلفظ من يعقل وجاز جمعها بالواو والنون وهو جمع العقلاء قوله عز وجل (ولله يسجد
ما في السموات وما في الارض من دابة) قال العلماء السجود على نوعين سجود طاعة
وعبادة كسجود المسلم لله عز وجل وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال فقوله ولله
يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة يحتمل النوعين لان سجود كل شئ بحسبه
فسجود المسلمين والملائكة لله سجود عبادة وطاعة وسجود غيرهم سجود انقياد
وخضوع وأتى بلفظ ما في قوله ما في السموات وما في الارض للتغليب لان ما لا يعقل
أكثر ممن يعقل في العدد والحكم للاغلب كتغليب المذكر على المؤنث ولانه لو أتى بمن
التي هي للعقلاء لم يكن فيها دلالة على التغليب بل كانت متناولة للعقلاء خاصة فأتى
بلفظة ما ليشمل الكل ولفظة الدابة مشتقة من الدبيب وهو عبارة عن الحركة الجسمانية
فالدابة اسم يقع على كل حيوان جسماني يتحرك ويدب فيدخل فيه الانسان لانه مما

يتفيؤ ظلاله) أي يرجع من
موضع الى موضع وبالتاء بصري
(عن اليمين) أي الايمان
(والشمائل) جمع شمال (سجدا
لله) حال من الظلال عن مجاهد
اذا زالت الشمس سجد كل شئ
(وهم داخرون) صاغرون وهو
حال من الضمير في ظلاله لانه في
معنى الجمع وهو ما خلق الله من
كل شئ له ظل وجمع بالواو والنون
لان الدخور من أوصاف العقلاء
أو لان في جملة ذلك من يعقل
فغلب والمعنى أولم يروا الى ما
خلق الله من الاجرام التي لها
ظلال متفيئة عن ايمانها
وشمائلها أي ترجع الظلال من
جانب الى جانب منقادة لله تعالى
غير ممتنعة عليه فيما سخرها له
من التفيؤ والاجرام في أنفسها
داخرة أيضا صاغرة منقادة
لافعال الله فيها غير ممتنعة (ولله
يسجد ما في السموات وما في
الارض من دابة) من بيان لما
في السموات وما في الارض جميعا
على ان في السموات خلقا يدبون
فيها كما تدب الاناسي في الارض
أو بيان لما في الارض وحده
والمراد بما في السموات ملائكتهن
وبقوله

(والملائكة) ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم قيل المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم انقيادهم لارادة الله ومعنى الانقياد يجمعهما فلم يختلفا فلذا جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد وجئ بما اذ هو صالح للعقلاء وغيرهم ولو جئ بمن لتناول العقلاء خاصة (وهم لا يستكبرون يخافون ربهم) ١٥٦ هو حال من الضمير فى لا يستكبرون أى لا يستكبرون خائفين (من فوقهم) ان علقته بيخافون فمعناه يخافونه ان يرسل عليهم عذابا من فوقهم وان علقته بربهم حالا منه فمعناه يخافون ربهم غالبا لهم قاهرا كقوله وهو القاهر فوق عباده (ويفعلون ما يؤمرون) وفيه دليل على ان الملائكة مكلفون مدارون على الامر والنهى وأنهم بين الخوف والرجاء (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد) فان قلت انما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندى رجال ثلاثة لان المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فاما رجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة الى أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان قلت الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا أريدت الدلالة على ان المعنى به منهما هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد اليه والعناية به ألا ترى أنك لو قلت انما هو اله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل انك تثبت الالهية لا الوحدانية (فاياى فارهبون) نقل الكلام عن الغيبة الى التكلم وهو من طريقة الالتفات وهو أبلغ فى الترهيب من قوله فاياه فارهبوا فارهبونى واخلاص يعقوب (وله ما فى السموات والارض وله الدين) أى الطاعة (واصبا) واجبا ثابتا لان كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه وهو حال عمل فيه الظرف أو وله الجزاء دائما يعنى الثواب والعقاب

يدب على الارض ولهذا أفرد الملائكة فى قوله (والملائكة) لانهم أولوا أجنحة يطيرون بها أو أفردهم بالذكر وان كانوا من جملة من فى السموات لشرفهم وقيل أراد ولله يسجد ما فى السموات من الملائكة وما فى الارض من دابة فسجود الملائكة والمسلمين للطاعة وسجود غيرهم تذليلها وتسخيرها لما خلقت له وسجود ما لا يعقل وسجود الجمادات يدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى فيدعو الغافلين الى السجود لله عند التأمل والتدبر (وهم لا يستكبرون) يعنى الملائكة (يخافون ربهم من فوقهم) هو كقوله وهو القاهر فوق عباده وقد تقدم تفسيره (ويفعلون ما يؤمرون) عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع الا وملك واضع جبهته ساجدا والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى قال أبو ذر لوددت انى كنت شجرة تعضد أخرجه الترمذى وقال عن أبى ذر موقوفا

(فصل) وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها او سماعها قوله سبحانه وتعالى (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين) لما أخبر الله عز وجل فى الآية المتقدمة ان كل ما فى السموات والارض خاضعون لله منقادون لامره عابدون له وأنهم فى ملكه وتحت قدرته وقبضته نهى فى هذه الآية عن الشرك وعن اتخاذ الهين اثنين فقال وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين قال الزجاج ذكر الاثنين توكيدا لقوله الهين وقال صاحب النظم فيه تقديم وتأخير تقديره لا تتخذوا اثنين الهين يعنى ان الاثنين لا يكون كل واحد منهما الها ولكن اتخذوا الها واحدا وهو قوله تبارك وتعالى (انما هو اله واحد) لان الالهين لا يكونان الا متساويين فى الوجود والقدم وصفات الكمال والقدرة والارادة فصارت الاثنينية منافية للالهية وذلك قوله تعالى انما هو اله واحد يعنى لا يجوز أن يكون فى الوجود الهان اثنان انما هو اله واحد (فاياى فارهبون) يعنى تخافون والرهب مخافة مع حزن واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى الحضور وهو من طريق الالتفات لانه أبلغ فى الترهيب من قوله فاياه فارهبوا فهو من بديع الكلام وبليغه وقوله فاياى فارهبون يفيد الحصر وهو أن لا يرهب الخلق الا منه ولا يرغبون الا اليه والى كرمه وفضله واحسانه (وله ما فى السموات والارض) لما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح ان اله العالم لا شريك له فى الالهية وجب أن يكون جميع المخلوقات عبيدا له وفى ملكه وتصرفه وتحت قدرته فذلك قوله تعالى وله ما فى السموات والارض يعنى عبيدا وملكا (وله الدين واصبا) يعنى وله العبادة والطاعة

واخلاص العمل دائما ثابتا والواصب الدائم قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك بسبب في حال الحياة أو بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فان طاعته واجبة أبدا ولانه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائمة أبدا (أفغير الله تتقون) يعني انكم عرفتم ان الله واحد لا شريك له في ملكه وعرفتم ان كل ما سواه محتاج اليه فبعد هذه المعرفة كيف تخافون غيره وتتقون سواه فهو استفهام بمعنى التعجب وقيل هو استفهام على طريق الانكار قوله عز وجل (وما بكم من نعمة فمن الله) يعني من نعمة الاسلام وصحة الابدان وسعة الارزاق وكل ما أعطاكم من مال أو ولد فكل ذلك من الله تعالى انما هو المتفضل به على عباده فيجب عليكم شكره على جميع انعامه ولما بين في الآية المتقدمة انه يجب على جميع العباد أن لا يخافوا الا الله تعالى بين في هذه الآية ان جميع النعم منه فلا يشكر عليها الا اياه لانه هو المتفضل بها على عباده فيجب عليهم شكره عليها (ثم اذا مسكم الضر) اى الشدة والامراض والاسقام (فاليه تجأرون) يعني اليه تستغيثون وتصيحون وتضجون بالدعاء ليكشف عنكم ما نزل بكم من الضر والشدة وأصل الجؤار هو رفع الصوت الشديد ومنه جؤار البقر والمعنى ان النعم لما كانت كلها ابتداء منه فان حصل شدة وضر في بعض الاوقات فلا يلجأ الا اليه ولا يدعى الا اياه ليكشفها فانه هو القادر على كشفها وهو قوله تعالى (ثم اذا كشف الضر عنكم) يعني ثم اذا أزال الشدة والبلاء عنكم (اذا فريق منكم) يعني طائفة وجماعة منكم (بربهم يشركون) يعني انهم يضيفون كشف الضر الى العوائد والاسباب ولا يضيفونه الى الله عز وجل فهذا من جملة شركهم الذي كانوا عليه وانما قسمهم فريقين لان فريق المؤمنين لا يرون كشف الضر الا من الله تعالى ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم) قيل ان هذه اللام لام كي ويكون المعنى على هذا انهم انما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم في كشف الضر عنهم وقيل انها لام العاقبة والمعنى عاقبة أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء (فتمتعوا) لفظه أمر والمراد منه التهديد والوعيد يعني فعيشوا في اللذة التي أنتم فيها الى المدة التي ضربها الله لكم (فسوف تعلمون) يعني عاقبة أمركم الى ماذا تصير وهو نزول العذاب بكم قوله سبحانه وتعالى (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا) قيل الضمير في قوله لما لا يعلمون عائد الى المشركين يعني ان المشركين لا يعلمون وقيل انه عائد الى الاصنام يعني ان الاصنام لا تعلم شيأ البتة لانها جماد والجماد لا علم له ومنهم من رجح القول الاول لان نفي العلم عن الحي حقيقة وعن الجماد مجاز فكان عود الضمير الى المشركين أولى ولانه قال لما لا يعلمون فجمعهم بالواو والنون وهو جمع لمن يعقل ومنهم من رجح القول الثاني قال لانا اذا قلنا انه عائد الى المشركين احتجنا فيه الى اضمار فيكون المعنى ويجعلون يعني المشركين لما لا يعلمون انه اله ولا له حق نصيبا واذا قلنا انه عائد الى الاصنام لم نحتج الى هذا الاضمار لانها لا علم لها ولا فهم وقوله (مما رزقناهم) يعني ان المشركين جعلوا للاصنام نصيبا من حروثهم وانعامهم وأموالهم التي رزقهم الله وتقدم تفسيره في سورة الانعام (تالله)

(أفغير الله تتقون وما بكم من نعمة) وأى شئ اتصل بكم من نعمة عافية وغنى وخصب (فمن الله) فهو من الله (ثم اذا مسكم الضر) المرض والفقر والجدب (فاليه تجأرون) فما تتضرعون الا اليه والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة (ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون) الخطاب في وما بكم من نعمة ان كان عاما فالمراد بالفريق الكفرة وان كان الخطاب للمشركين فقوله منكم للبيان لا للتبعيض كأنه قال فاذا فريق كافر وهم أنتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر كقوله فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة ثم أوعدهم فقال (فتمتعوا فسوف تعلمون) هو عدول الى الخطاب على التهديد (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) أى لآلهتهم ومعنى لا يعلمون انهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها انها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك لانها جماد لا تضر ولا تنفع أو الضمير في لا يعلمون للآلهة أى لاشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر أجعلوا لها نصيبا في أنعامهم وزروعهم أم لا وكانوا يجعلون لهم ذلك تقربا اليهم (تالله

أقسم بنفسه على نفسه انه يسألهم يوم القيامة وهو قوله تعالى (لتسئلن عما كنتم تفترون) يعنى عما كنتم تكذبون فى الدنيا فى قولكم ان هذه الاصنام آلهة وان لها نصيبا من أموالكم وهذا التفات من الغيبة الى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه (ويجعلون لله البنات) هم خزاعة وكنانة قالوا الملائكة بنات الله وانما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون كالنساء أو لدخول لفظ التأنيث فى تسميتهم (سبحانه) نزه الله نفسه عن الولد والبنات (ولهم ما يشتهون) يعنى ويجعلون لانفسهم ما يشتهون يعنى البنين (واذا بشر أحدهم بالانثى) البشارة عبارة عن الخبر السار الذى يظهر على بشرة الوجه أثر الفرح به ولما كان ذلك الفرح والسرور يوجبان تغير بشرة الوجه كان كذلك الحزن والغم يظهر أثره على الوجه وهو الكمودة التى تعلو الوجه عند حصول الحزن والغم فثبت بهذا ان البشارة لفظ مشترك بين الخبر السار والخبر المحزن فصح قوله واذا بشر أحدهم بالانثى (ظل وجهه مسودا) يعنى متغيرا من الغم والحزن والغيظ والكراهة التى حصلت له عند هذه البشارة والمعنى ان هؤلاء المشركين لا يرضى أحدهم بالبنت الانثى ان تنسب اليه فكيف يرضى أن ينسبها الى الله تعالى ففيه تبكيت لهم وتوبيخ وقوله سبحانه وتعالى (وهو كظيم) يعنى انه ظل ممتلئا غما وحزنا (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) يعنى انه يختفى من ذلك القول الذى بشر به وذلك ان العرب كانوا فى الجاهلية اذا قربت ولادة زوجة أحدهم توارى من القوم الى ان يعلم ما ولدته فان كان ولدا ابتهج وسر بذلك وظهر وان كانت أنثى حزن ولم يظهر أياما حتى يفكر ما يصنع بها وهو قوله تعالى (أيمسكه على هون) يعنى على هوان وانما ذكر الضمير فى أيمسكه لانه عائد الى ما بشر به فى قوله واذا بشر أحدهم (أم يدسه فى التراب) يعنى أم يخفى ذلك الذى بشر به فى التراب والدس اخفاء الشئ فى الشئ قال أهل التفسير ان مضر وخزاعة وتميما كانوا يئدون البنات احياء والسبب فى ذلك اما خوف الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة أو الحمية فيخافون عليهن من الاسر ونحوه أو طمع غير الاكفاء فيهن فكان الرجل من العرب فى الجاهلية اذا ولدت له بنت وأراد ان يستحييها تركها حتى اذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر وجعلها ترعى الابل والغنم فى البادية واذا أراد ان يقتلها تركها حتى اذا صارت سداسية قال لامها زينيها حتى أذهب بها الى احمائها ويكون قد حفر لها حفرة فى الصحراء فاذا بلغ بها تلك الحفرة قال لها انظرى الى هذه البئر فاذا انظرت اليها دفعها من خلفها فى تلك البئر ثم يهيل التراب على رأسها وكان صعصعة عم (١) الفرزدق اذا أحس بشئ من ذلك وجه بابل الى والد البنت حتى يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر بذلك

وعمى الذى منع الوائدات * فأحيا الوئيد فلم يوأد

عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الوائدة والموؤدة فى النار أخرجه أبو داود وقوله تعالى (ألا ساء ما يحكمون) يعنى بئس ما يصنعون ويقضون حيث يجعلون لله الذى خلقهم البنات وهم يستنكفون منهن ويجعلون لانفسهم البنين نظيره

لتسئلن) وعيد (عما كنتم تفترون) أنها آلهة وانها أهل للتقرب اليها (ويجعلون لله البنات) كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله (سبحانه) تنزيه لذاته من نسبة الولد اليه أو تعجب من قولهم (ولهم ما يشتهون) يعنى البنين ويجوز فى ما الرفع على الابتداء ولهم الخبر والنصب على العطف على البنات وسبحانه اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه أى وجعلوا لانفسهم ما يشتهون من الذكور (واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا) أى صار فظل وأمسى وأصبح وبات تستعمل بمعنى الصير ورة لان أكثر الوضع يتفق بالليل فيظل نهاره مغتما مسود الوجه من الكآبة والحياء من الناس (وهو كظيم) مملوء حنقا على المرأة (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) يستخفى منهم من أجل سوء المبشر به ومن أجل تعييرهم ويحدث نفسه وينظر (أيمسكه على هون) أيمسك ما بشر به على هون وذل (أم يدسه فى التراب) أم يئده (ألا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون الولد الذى هذا محله عندهم لله ويجعلون لانفسهم من هو على عكس هذا الوصف

---

(١) قوله صعصعة عم كذا بالنسخ بايدينا والصواب جد وكذا قوله وعمى الذى الصواب وجدى الذى كما هو مقرر فى كتب الادب اهـ مصحح

(للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء) صفة السوء وهى الحاجة الى الاولاد الذكور وكراهة الاناث ووأدهن خشية الاملاق (ولله المثل الاعلى) وهو الغنى عن العالمين والنزاهة عن صفات المخلوقين (وهو العزيز) الغالب فى تنفيذ ما أراد (الحكيم) فى امهال العباد (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) بكفرهم ومعاصيهم (ماترك عليها) على الارض (من دابة) قط ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين عن أبى هريرة رضى الله عنه ان الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم وعن ابن عباس رضى الله عنهما من دابة من مشرك يدب (ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) أى أجل كل أحد أو وقت تقتضيه الحكمة أو القيامة (فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون ويجعلون لله ما يكرهون) ما يكرهونه لانفسهم من البنات ومن شركاء فى رياستهم ومن الاستخفاف برسلهم ويجعلون له أرذل أموالهم ولاصنامهم أكرمها (وتصف ألسنتهم الكذب) مع ذلك أى ويقولون الكذب (أن لهم الحسنى) عند الله وهى الجنة ان كان البعث حقا كقوله ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وأن لهم الحسنى بدل من الكذب (لاجرم أن لهم النار وانهم مفرطون) مفرطون نافع مفرطون أبو جعفر فالمفتوح بمعنى مقدمون الى النار معجلون اليها من أفرطت فلانا وفرطته فى طلب الماء اذا قدمته او منسيون متروكون من أفرطت فلانا خلفى اذا خلفته ونسيته والمكسور المخفف من الافراط فى المعاصى والمشدد من التفريط فى الطاعات أى التقصير فيها

قوله سبحانه وتعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى وقيل معناه الاساء ما يحكمون فى وأد البنات (للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء) يعنى صفة السوء من احتياجهم الى الولد الذكر وكراهتهم الاناث وقتلهن خوف الفقر (ولله المثل الاعلى) أى الصفة العليا المقدسة وهى انه له التوحيد وانه المنزه عن الولد وانه لا اله الا هو وان له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدى وغير ذلك من الصفات التى وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الاعلى شهادة أن لا اله الا الله (وهو العزيز) أى الممتنع فى كبريائه وجلاله (الحكيم) يعنى فى جميع أفعاله قوله (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) يعنى بسبب ظلمهم فيعاجلهم بالعقوبة على ظلمهم وكفرهم وعصيانهم فان قلت الناس اسم جنس يشمل الكل وقد قال تعالى فى آية أخرى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فقسمهم فى تلك الآية ثلاثة أقسام فجعل الظالمين قسما واحدا من ثلاثة قلت قوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم عام مخصوص بتلك الآية الاخرى لان فى جنس الناس الانبياء والصالحون ومن لا يطلق عليه اسم الظالم وقيل أراد بالناس الكفار فقط بدليل قوله ان الشرك لظلم عظيم وقوله (ماترك عليها) يعنى على الارض كناية عن غير مذكور لان الدابة لاتدب الا على الارض (من دابة) يعنى ان الله سبحانه وتعالى لو يؤاخذ الناس بظلمهم لاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض قال قتادة وقد فعل الله ذلك فى زمن نوح عليه السلام فاهلك من كان على وجه الارض الا من كان فى السفينة مع نوح عليه السلام وروى ان أبا هريرة سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بئس ما قلت ان الحبارى تموت هزلا بظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الجعل تعذب فى جحرها بذنب ابن آدم وقيل أراد بالدابة الكافر بدليل قوله ان شر الدواب عند الله الذين كفروا وقيل فى معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ولم توجد الابناء فلم يبق فى الارض أحد (ولكن يؤخرهم) يعنى يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه (الى أجل مسمى) يعنى الى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم (فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعنى لا يؤخرون ساعة عن الاجل الذى جعله الله لهم ولا ينقصون عنه وقيل أراد بالاجل المسمى يوم القيامة والمعنى ولكن يؤخرهم الى يوم القيامة فيعذبهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون (ويجعلون لله ما يكرهون) يعنى لانفسهم وهى البنات (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) يعنى ويقولون ان لهم البنين وذلك انهم قالوا لله البنات ولنا البنون وهذا القول كذب منهم وافتراء على الله وقيل أراد بالحسنى الجنة والمعنى انهم مع كفرهم وقولهم الكذب يزعمون انهم على الحق وان لهم الجنة وذلك انهم قالوا ان كان محمد صادقا فى البعث بعد الموت فان لنا الجنة لانا على الحق فأكذبهم الله تعالى فقال (لاجرم ان لهم النار) يعنى فى الآخرة لا الجنة (وأنهم مفرطون)

قرئ بكسر الراء مع التخفيف يعني مسرفون وقرئ بكسر الراء مع التشديد يعني مضيعون لامر الله وقراءة الجمهور بفتح الراء مع تخفيفها أي منسيون في النار قاله ابن عباس وقال سعيد بن جبير ومقاتل متروكون وقال قتادة معجلون الى النار وقال الفراء مقدمون الى النار والفرط المتقدم الى الماء قبل القوم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم أنا فرطكم على الحوض أي متقدمكم (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) يعني كما أرسلناك الى هذه الامة لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فكان شأنهم مع رسلهم التكذيب ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم (فزين لهم الشيطان أعمالهم) يعني أعمالهم الخبيثة من الكفر والتكذيب والمزين في الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وانما جعل الشيطان آلة بالقاء الوسوسة في قلوبهم وليس له قدرة ان يضل أحدا أو يهدي أحدا وانما له الوسوسة فقط فمن أراد الله شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته (فهو وليهم) أي ناصرهم (اليوم) ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور وانما سماه وليا لهم لطاعتهم اياه (ولهم عذاب أليم) يعني في الآخرة (وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه) يعني في أمر الدين والاحكام فتبين لهم الهدى من الضلال والحق من الباطل والحلال من الحرام (وهدى ورحمة) يعني وما أنزلنا عليك الكتاب الا بيانا وهدى ورحمة (لقوم يؤمنون) لانهم هم المنتفعون به قوله سبحانه وتعالى (والله أنزل من السماء ماء) يعني المطر (فأحيا به) يعني بالماء (الارض) يعني بالنبات والزروع (بعد موتها) يعني يبسها وجدوبتها (ان في ذلك لآية) يعني دلالة واضحة على كمال قدرتنا (لقوم يسمعون) يعني سماع انصاف وتدبر وتفكر لان سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان فمن سمع آيات الله أي القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه لم ينتفع بالآيات (وان لكم في الانعام لعبرة) يعني اذا تفكرتم فيها عرفتم كمال قدرتنا على ذلك (نسقيكم مما في بطونه) الضمير عائد الى الانعام وكان حقه أن يقال مما في بطونها واختلف النحويون في الجواب فقيل ان لفظ الانعام مفرد وضع لافادة الجمع فهو بحسب اللفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد وهو مذكر وبحسب المعنى جمع فيكون ضميره ضمير الجمع وهو مؤنث فلهذا المعنى قال هنا مما في بطونه وقال في سورة المؤمنين مما في بطونها وهذا قول أبي عبيدة والاخفش وقال الكسائي انه رده الى ما ذكر يعني مما في بطون ما ذكرنا وقال غيره الكناية مردودة الى البعض وفيه اضمار كأنه قال نسقيكم مما في بطونه اللبن فاضمر اللبن اذ ليس لكلها لبن (من بين فرث) وهو ما في الكرش من الثفل فاذا خرج منها لا يسمى فرثا (ودم لبنا خالصا) يعني من الدم والفرث ليس عليه لون الدم ولا رائحة الفرث قال ابن عباس اذا

(تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) أي أرسلنا رسلا الى من تقدمك من الامم (فزين لهم الشيطان أعمالهم) من الكفر والتكذيب بالرسل (فهو وليهم اليوم) أي قرينهم في الدنيا تولى اضلالهم بالغرور وأو الضمير لمشركي قريش أي زين الكفار قبلهم أعمالهم فهو ولي هؤلاء لانهم ١٦٠ منهم أو هو على حذف المضاف أي فهو ولي أمثالهم اليوم (ولهم عذاب أليم) في القيامة (وما أنزلنا عليك الكتاب) القرآن (الا لتبين لهم) للناس (الذي اختلفوا فيه) هو البعث لانه كان فيهم من يؤمن به (وهدى ورحمة) معطوفان على محل لتبين الا انهما انتصبا على انهما مفعول لهما لانهما فعلا الذي أنزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين لانه فعل المخاطب لا فعل المنزل (لقوم يؤمنون والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون) سماع انصاف وتدبر لان من لم يسمع بقلبه فكانه لا يسمع (وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه) وبفتح النون نافع وشامي وأبو بكر قال الزجاج سقيته وأسقيته بمعنى واحد ذكر سيبويه الانعام في الاسماء المفردة الواردة على افعال ولذا رجع الضمير اليه مفردا واما في بطونها في سورة المؤمنين فلان معناه الجمع وهو استئناف كانه قيل كيف العبرة فقال نسقيكم مما في بطونه (من بين فرث ودم لبنا خالصا) أي يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله قيل اذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما والكبد مسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقسمها فتجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث في الكرش ثم ينحدر وفي ذلك عبرة لمن اعتبر وسئل شقيق عن الاخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم

أكلت الدابة العلف واستقر فى كرشها وطبخته كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما فالكبد مسلطة عليه تقسمه بتقدير الله سبحانه وتعالى فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضروع ويبقى الثفل كما هو (سائغا للشاربين) يعنى هنيئا يسهل يجرى فى الحلق بسهولة قيل انه لم يغص أحد باللبن قط هذا قول المفسرين فى معنى هذه الآية وحكى الامام فخر الدين الرازى قول الحكماء فى ذلك فقال ولقائل أن يقول الدم واللبن لا يتولدان فى الكرش البتة والدليل عليه الحس فان هذه الحيوانات تذبح ذبحا متواليا وما رأى أحد فى كرشها دما ولا لبنا بل الحق أن الحيوان اذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف الى معدته ان كان انسانا والى كرشه ان كان من الانعام وغيرها فاذا طبخ وحصل الهضم الاول فيه فما كان منه صافيا انجذب الى الكبد وما كان كثيفا نزل الى الامعاء ثم ذلك الذى حصل فى الكبد ينطبخ فيها ويصير دما وهو الهضم الثانى ويكون ذلك مخلوطا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية فاما الصفراء فتذهب الى المرارة وأما السوداء فتذهب الى الطحال وأما المائية فتذهب الى الكلية ومنها الى المثانة وأما الدم فيذهب فى الاوردة وهى العروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم من تلك العروق الى الضرع والضرع لحم غددى رخو أبيض فيقلب الله عز وجل ذلك الدم عند انصبابه الى ذلك اللحم الغددى الرخو الابيض فيصير الدم لبنا فهذا صورة تكون اللبن فى الضرع فاللبن انما يتولد من بعض أجزاء الدم والدم انما يتولد من بعض الاجزاء اللطيفة من الاشياء المأكولة الحاصلة فى الكرش فاللبن تولد أولا من الفرث ثم من الدم ثانيا ثم صفاه الله سبحانه وتعالى بقدرته فجعله لبنا خالصا من بين فرث ودم وعند تولد اللبن فى الضرع يخلق الله عز وجل بلطيف حكمته فى حلمة الثدى ثقبا صغارا ومسام ضيقة فيجعلها كالمصفاة للبن فكل ما كان لطيفا من اللبن خرج بالمص أو الحلب وما كان كثيفا احتبس فى البدن وهو المراد بقوله خالصا يعنى من شوائب كدورة الدم والفرث سائغا للشاربين يعنى جاريا فى حلوقهم سهلا لذيذا هنيئا مريئا قوله عز وجل (ومن ثمرات النخيل والاعناب) يعنى ولكم أيضا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والاعناب (تتخذون منه) الضمير فى منه يرجع الى ما تقديره ولكم من ثمرات النخيل والاعناب ما تتخذون منه (سكرا ورزقا حسنا) قال ابن مسعود وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وابراهيم وابن أبى ليلى والزجاج وابن قتيبة السكر الخمر سميت بالمصدر من قولهم سكر سكرا وسكرا والرزق الحسن سائر ما يتخذ من ثمرات النخيل والاعناب مثل الدبس والتمر والزبيب والخل وغير ذلك فان قلت الخمر محرمة فكيف ذكرها الله عز وجل فى معرض الانعام والامتنان قلت قال العلماء فى الجواب عن هذا ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر انما نزل فى سورة المائدة وهى مدنية فكان نزول هذه الآية فى الوقت الذى كانت الخمر فيه غير محرمة وقيل ان الله عز وجل نبه فى هذه الآية على تحريم الخمر أيضا لانه ميز بينها وبين الرزق الحسن فى الذكر فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنا

(سائغا للشاربين) سهل المرور فى الحلق ويقال لم يغص أحد باللبن قط ومن الاولى للتبعيض لان اللبن بعض ما فى بطونها والثانية لابتداء الغاية ويتعلق (ومن ثمرات النخيل والاعناب) بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب أى من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه وقوله (تتخذون منه سكرا) بيان وكشف عن كنه الاسقاء أو تتخذون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد والضمير فى منه يرجع الى المضاف المحذوف الذى هو العصير والسكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا ثم فيه وجهان أحدهما ان الآية سابقة على تحريم الخمر فتكون منسوخة وثانيهما ان يجمع بين العتاب والمنة وقيل السكر النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر اذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد وهو حلال عند أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله الى حد السكر ويحتجان بهذه الآية وبقوله عليه السلام الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب وباخبار جمة (ورزقا حسنا) هو الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك

يدل على التحريم وروى العوفي عن ابن عباس ان السكر هو الخل بلغة الحبشة وقال
بعضهم السكر هو النبيذ وهو نقيع التمر والزبيب اذا اشتد والمطبوخ من العصير
وهو قول الضحاك والنخعي ومن يبيح شرب النبيذ ومن يحرمه يقول المراد من الآية
الاخبار لا الاحلال وأولى الاقاويل ان قوله تتخذون منه سكرا منسوخ سئل ابن
عباس عن هذه الآية فقال السكر ما حرم من ثمراتها والرزق الحسن ما حل قلت
القول بالنسخ فيه نظر لان قوله ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا
حسنا خبر والاخبار لا يدخلها النسخ ومن زعم انها منسوخة رأى أن هذه الآية نزلت
بمكة في وقت اباحة الخمر ثم ان الله تبارك وتعالى حرمها بالمدينة فحكم على هذه الآية
بأنها منسوخة وقال أبو عبيدة في معنى الآية ان السكر الطعم يقال هذا سكر لك أي
طعم لك وقال غيره السكر ما سد الجوع من قولهم سكرت النهر أي سددته والتمر والزبيب
مما يسد الجوع وهذا شرح قول أبي عبيدة ان السكر الطعم (ان في ذلك) يعني الذي
ذكر من انعامه على عباده (لآية) يعني دلالة وحجة واضحة (لقوم يعقلون) يعني
ان من كان عاقلا استدل بهذه الآية على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وعلم
بالضرورة ان لهذه الاشياء خالقا ومدبرا قادرا على ما يريد قوله سبحانه وتعالى (وأوحى
ربك الى النحل) لما ذكر الله سبحانه وتعالى دلائل قدرته وعجائب صنعته الدالة على
وحدانيته من اخراج اللبن من بين فرث ودم واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات
النخيل والاعناب ذكر في هذه الآية اخراج العسل الذي جعله شفاء للناس من دابة
ضعيفة وهي النحلة فقال سبحانه وتعالى وأوحى ربك الى النحل الخطاب فيه للنبي صلى
الله عليه وسلم والمراد به كل فرد من الناس ممن له عقل وتفكر يستدل به على كمال
قدرة الله ووحدانيته وانه الخالق لجميع الاشياء المدبر لها بلطيف حكمته وقدرته وأصل
الوحي الاشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض وقد يكون
بصوت مجرد ويقال للكلمة الالهية التي يلقيها الله الى أنبيائه وحي والى أوليائه الهام
وتسخير الطير لما خلق له ومنه قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل يعني انه سخرها لما خلقها
له وألهمها رشدها وقدر في أنفسها هذه الاعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر
وذلك ان النحل تبني بيوتا على شكل مسدس من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على
بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الاشكال
لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فألهمها الله سبحانه وتعالى ان تبنيها على هذا
الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل وفرجة خالية ضائعة وألهمها الله تعالى أيضا
أن يجعل عليها أميرا كبيرا نافذ الحكم فيها وهي تطيعه وتمتثل أمره ويكون هذا الامير
أكبرها جثة وأعظمها خلقة ويسمى يعسوب النحل يعني ملكها كذا حكاه الجوهري
وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضا أن جعلت على باب كل خلية بوابا لا يمكن غير أهلها من
الدخول اليها وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضا انها تخرج من بيوتها فتدور وترعى ثم
ترجع الى بيوتها ولا تضل عنها ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة

(ان في ذلك لآية لقوم يعقلون)
(وأوحى ربك الى النحل) والهم

الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الالهام الالهى فكان ذلك شبيها بالوحى فلذلك قال تبارك وتعالى وأوحى ربك الى النحل والنحل زنبور العسل ويسمى الدبر أيضا قال الزجاج يجوز أن يقال سمى هذا الحيوان نحلا لان الله سبحانه وتعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها بمعنى أعطاهم وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز وكذا أنثها الله تعالى فقال (أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) يعنى يبنون ويسقفون وذلك ان النحل منه وحشى وهو الذى يسكن الجبال والشجر ويأوى الى الكهوف ومنه أهلى وهو الذى يأوى الى البيوت ويربيه الناس عندهم وقد جرت العادة ان الناس يبنون للنحل الاماكن حتى تأوى اليها وقال ابن زيد أراد بالذى يعرشون الكروم (ثم كلى من كل الثمرات) يعنى من بعض الثمرات لانها لا تأكل من جميع الثمار فلفظة كل ههنا ليست للعموم (فاسلكى سبل ربك) يعنى الطرق التى الهمك الله ان تسلكيها وتدخلى فيها لاجل طلب الثمرات (ذللا) قيل انها نعت للسبل يعنى انها مذللة لك الطرق مسهلة لك مسالكها قال مجاهد لا يتوعر عليها مكان تسلكه وقيل الذلل نعت للنحل يعنى انها مذللة مسخرة لاربابها مطيعة منقادة لهم حتى انهم ينقلونها من مكانها الى مكان آخر حيث شاؤا وأرادوا لا تستعصى عليهم (يخرج من بطونها شراب) يعنى العسل (مختلف ألوانه) يعنى ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والازهار ويستحيل فى بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب وزعم الامام فخر الدين الرازى انه رأى فى بعض كتب الطب أن العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الازهار وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه وتدخر بعضه فى بيوتها لانفسها لتتغذى به فاذا اجتمع فى بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول اقرب الى العقل لان طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وايضا فانا نشاهد ان النحل تتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى يخرج من بطونها بان كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا فقوله يخرج من بطونها يعنى من أفواهها وقول أهل الظاهر أولى وأصح لانا نشاهد انه يوجد فى طعم العسل طعم تلك الازهار التى تأكلها النحل وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضا ويعضد هذا القول بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم لها أكلت مغافير قالت لا قالت فما هذه الريح التى أجدها منك قال سقتنى حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط العرفط شجر الطلح وله صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحله العرفط أكلت ورعت من العرفط الذى له الرائحة الكريهة فثبت بهذا الدليل صحة قول أهل الظاهر من المفسرين وانه يوجد فى طعم العسل ولونه وريحه طعم ما تأكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الاطباء من انه طل لانه لو كان طلا لكان على لون واحد وطبيعة واحدة وقوله ان طبيعة العسل تقرب من طبيعة الترنجبين فيه نظر لان مزاج الترنجبين معتدل الى الحرارة وهو ألطف من السكر ومزاج العسل حار يابس فى الدرجة الثانية فبينهما فرق كبير وقوله كل تجويف فى داخل

(أن اتخذى من الجبال بيوتا) هى أن المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول قال الزجاج واحد النحل نحلة كنخل ونخلة والتأنيث باعتبار هذا ومن فى من الجبال (ومن الشجر ومما يعرشون) يرفعون من سقوف البيت أو ما يبنون للنحل فى الجبال والشجر والبيوت من الاماكن التى تعسل فيها التبعيض لانها لا تبنى بيوتها فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش والضمير فى يعرشون للناس وبضم الراء شامى وأبو بكر (ثم كلى من كل الثمرات) أى ابنى البيوت ثم كلى من كل ثمرة تشتهيها فاذا أكلتها (فاسلكى سبل ربك) فادخلى الطرق التى الهمك وافهمك فى عمل العسل أو اذا أكلت الثمار فى المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكى الى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلين فيها (ذللا) جمع ذلول وهى حال من السبل لان الله تعالى ذللها وسهلها أو من الضمير فى فاسلكى أى وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة (يخرج من بطونها شراب) يريد العسل لانه مما يشرب تلقيه من فيها (مختلف ألوانه) منه أبيض وأصفر وأحمر من الشباب والكهول والشيب أو على ألوان اغذيتها

البدن يسمى بطنا فيه نظر لان لفظ البطن اذا أطلق لم يرد به الا العضو المعروف مثل بطن الانسان وغيره والله أعلم وقوله تعالى (فيه) يعني في الشراب الذي يخرج من بطون النحل (شفاء للناس) وهذا قول ابن عباس وابن مسعود اذ الضمير في قوله فيه شفاء للناس يرجع الى العسل وقد اختلفوا في هذا الشفاء هل هو على العموم لكل مرض أو على الخصوص لمرض دون مرض على قولين أحدهما ان العسل فيه شفاء من كل داء وكل مرض قال ابن مسعود العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور وفي رواية أخرى عنه عليكم بالشفاءين القرآن والعسل وروى نافع ان ابن عمر ما كانت تخرج به قرحة ولا شئ الا لطخ الموضع بالعسل ويقرأ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس (ق) عن أبي سعيد الخدري قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان اخي استطلق بطنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسقه عسلا فسقاه ثم جاء فقال اني سقيته عسلا فلم يزده الا استطلاقا فقال له ثلاث مرات ثم جاء الرابعة فقال اسقه عسلا فقال لقد سقيته فلم يزده الا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرأ وقد اعترض بعض الملحدين ومن في قلبه مرض على هذا الحديث فقال ان الاطباء مجمعون على ان العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الاسهال فنقول في الرد على هذا المعترض الملحد الجاهل بعلم الطب ان الاسهال يحصل من أنواع كثيرة منها التخم والهيضات وقد أجمع الاطباء في مثل هذا على ان علاجه بان تترك الطبيعة وفعلها فان احتاجت الى معين على الاسهال أعينت ما دامت القوة باقية فاما حبسها فضرر عندهم واستعجال مرض فيحتمل أن يكون اسهال الشخص المذكور في الحديث أصابه من امتلاء أو هيضة فدواؤه بترك اسهاله على ما هو عليه أو تقويته فامره رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرب العسل فزاده اسهالا فزاده عسلا الى ان فنيت المادة فوقف الاسهال ويكون الخلط الذي كان به يوافقه شرب العسل فثبت بما ذكرناه ان أمره صلى الله عليه وسلم لهذا الرجل بشرب العسل جار على صناعة الطب وان المعترض عليه جاهل لها ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الاطباء بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم بذلك وانما ذكرنا هذا الجواب الجاري على صناعة الطب دفعا لهذا المعترض بانه لا يحسن صناعة الطب التي اعترض بها والله أعلم وقوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك يحتمل انه صلى الله عليه وسلم علم بالوحي الالهي ان العسل الذي أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه في الحال عندهم قال صدق الله يعني فيما وعد به من ان فيه شفاء وكذب بطن أخيك يعني باستعجالك الشفاء في أول مرة والله أعلم بمراده وأسرار رسوله صلى الله عليه وسلم فان قالوا كيف يكون شفاء للناس وهو يضر باصحاب الصفراء ويهيج الحرارة ويضر بالشباب المحرورين ويعطش قلنا في الجواب عن هذا الاعتراض أيضا ان قوله فيه شفاء للناس مع انه يضر باصحاب الصفراء ويهيج الحرارة انه خرج مخرج الاغلب وانه في الاغلب فيه شفاء ولم يقل انه شفاء لكل الناس لكل داء ولكنه في الجملة دواء وان نفعه

(فيه شفاء للناس) لانه من جملة الادوية النافعة وقل معجون من المعاجين لم يذكر الاطباء فيه العسل وليس الغرض انه شفاء لكل مريض كما ان كل دواء كذلك وتنكيره لتعظيم الشفاء الذي فيه أو لان فيه بعض الشفاء لان النكرة في الاثبات تخص وشكا رجل استطلاق بطن أخيه فقال عليه السلام اسقه عسلا فجاء وقال زاده شرا فقال عليه السلام صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا فسقاه فصح وعن ابن مسعود رضي الله عنه العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور فعليكم بالشفاءين القرآن والعسل ومن بدع الروافض ان المراد بالنحل علي وقومه وعن بعضهم ان رجلا قال عند المهدي انما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم فقال له رجل جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم فضحك المهدي وحدث به المنصور فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم

أكثر من مضرته وقل معجون من المعاجين الا وتمامه به والاشربة المتخذة من العسل نافعة لاصحاب البلغم والشيوخ المبرودين ومنافعه كثيرة جدا والقول الثانى انه شفاء للاوجاع التى شفاؤها فيه وهذا قول السدى وقال مجاهد فى قوله فيه شفاء للناس يعنى القرآن لانه شفاء من أمراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس والقول الاول أصح لان الضمير يجب أن يعود الى أقرب المذكورات وأقربها قوله تعالى يخرج من بطونها شراب وهو العسل فهو أولى ان يرجع الضمير اليه لانه أقرب مذكور وقوله سبحانه وتعالى (ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) يعنى فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا قوله عز وجل (والله خلقكم) يعنى أوجدكم من العدم وأخرجكم الى الوجود ولم تكونوا شيئا (ثم يتوفاكم) يعنى عند انقضاء آجالكم اما صبيانا واما شبانا واما كهولا (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) يعنى أردأه وأضعفه وهو الهرم قال بعض العلماء عمر الانسان له أربع مراتب أولها سن النشو والنماء وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وبلوغ الاشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاث وثلاثين سنة الى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل ثم المرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة يشرع الانسان فى النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر وفيها يتبين النقص ويكون الهرم والخرف وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة (ق) عن أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وفى رواية أخرى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهذه الدعوات اللهم انى أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات وقوله تعالى (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) يعنى ان الانسان يرجع الى حالة الطفولية بنسيان ما كان علم بسبب الكبر وقال ابن عباس لكى يصير كالصبى الذى لا عقل له وقال ابن قتيبة معناه حتى لا يعلم بعد علمه بالامور شيأ لشدة هرمه وقال الزجاج المعنى وان منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفا فيصير بعد ان كان عالما جاهلا ليريكم الله من قدرته أنه كما قدر على اماتته واحيائه انه قادر على نقله من العلم الى الجهل هكذا وجدته منقولا عنه ولو قال ليريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم الى الجهل انه قادر على احيائه بعد اماتته ليكون ذلك دليلا على صحة البعث بعد الموت لكان أجود قال ابن عباس ليس هذا فى المسلمين لان المسلم لا يزداد فى طول العمر والبقاء الا كرامة عند الله وعقلا ومعرفة وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيأ وقال فى قوله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرؤا القرآن وقال ابن عباس فى قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافر ثم استثنى المؤمنين فقال تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقوله تعالى (ان الله عليم) يعنى بما صنع بأوليائه

(ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) فى عجيب أمرها فيعلمون ان الله أودعها علما بذلك وفطنها كما أعطى أولى العقول عقولهم (والله خلقكم ثم يتوفاكم) بقبض أرواحكم من أبدانكم (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) الى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة أو ثمانون أو تسعون (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) لينسى ما يعلم أو لئلا يعلم زيادة علم على علمه (ان الله عليم) بحكم التحويل الى الارذل من الاكمل أو الى الافناء من الاحياء

وأعدائه (قدير) يعني على ما يريد قوله تعالى (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) يعني ان الله سبحانه وتعالى بسط على واحد وضيق وقتر على واحد وكثر لواحد وقلل على آخر وكما فضل بعضكم على بعض في الرزق كذلك فضل بعضكم على بعض في الخلق والخلق والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح والعلم والجهل وغير ذلك فهم متفاوتون ومتباينون في ذلك كله وهذا مما اقتضته الحكمة الالهية والقدرة الربانية (فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم) يعني من العبيد حتى يستووا فيه هم وعبيدهم يقول الله سبحانه وتعالى هم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتهم سواء وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني يلزم بهذه الحجة المشركين حيث جعلوا الاصنام شركاء لله قال قتادة هذا مثل ضربه الله عز وجل يقول هل منكم أحد يرضى ان يشركه مملوكه في جميع ماله فكيف تعدلون بالله خلقه وعباده وقيل في معنى الآية ان الموالي والمماليك الله رازقهم جميعا (فهم فيه) يعني في رزقه (سواء) فلا تحسبن أن الموالي يردون رزقهم على مماليكهم من عند أنفسهم بل ذلك رزق الله اجراه على أيدي الموالي للمماليك والمقصود منه بيان ان الرازق هو الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه وان الموالي والمماليك في الرزق سواء وان المالك لا يرزق المملوك بل الرازق للمماليك والمالك هو الله سبحانه وتعالى وقوله (أفبنعمة الله يجحدون) فيه انكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره قوله عز وجل (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) يعني النساء خلق من آدم حواء زوجته وقيل جعل لكم من جنسكم أزواجا لانه خطاب عام يعم الكل فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) الحفدة جمع حافد وهو المسرع في الخدمة المسارع الى الطاعة ومنه قوله في الدعاء واليك نسعى ونحفد أي نسرع الى طاعتك فهذا أصله في اللغة ثم اختلفت أقوال المفسرين فيهم فقال ابن مسعود والنخعي الحفدة أختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود أيضا انهم أصهاره فهو بمعنى الاول فعلى هذا القول يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهم فيحصل لكم بسببهم الاختان والاصهار وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من أعانك فقد حفدك وقال عطاء هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقيل هم أهل المهنة الذين يمتهنون ويخدمون من الاولاد وقال مقاتل والكلبي البنين هم الصغار والحفدة كبار الاولاد الذين يعينون الرجل على عمله وقال ابن عباس هم ولد الولد وفي رواية أخرى عنه انهم بنو امرأة الرجل الذين ليسوا منه وكل هذه الاقوال متقاربة لان اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك وبالجملة فان الحفدة هم غير البنين لان الله سبحانه وتعالى قال بنين وحفدة فيجعل بينهم مغايرة (ورزقكم من الطيبات) يعني النعم التي أنعم بها عليكم من أنواع الثمار والحبوب والحيوان والاشربة المستطابة الحلال من ذلك كله (أفبالباطل يؤمنون) يعني بالاصنام وقيل بالشيطان يؤمنون وقيل معناه يصدقون ان لي شريكا وصاحبة

يعطي (رزقهم على ما ملكت أيمانهم) فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم (فهم فيه سواء) جملة اسمية وقعت في موضع جملة فعلية في موضع النصب لانه جواب النفي بالفاء وتقديره فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فيستووا مع عبيدهم في الرزق وهو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ولا تجعلونهم فيه شركاء ولا ترضون ذلك لانفسكم فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء (أفبنعمة الله يجحدون) وبالتاء أبو بكر فجعل ذلك من جملة جحود النعمة (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أي من جنسكم (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) جمع حافد وهو الذي يحفد أي يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد واختلف فيه فقيل هم الاختان على البنات وقيل أولاد الاولاد والمعنى وجعل لكم حفدة أي خدما يحفدون في مصالحكم ويعينونكم (ورزقكم من الطيبات) أي بعضها لان كل الطيبات في الجنة وطيبات الدنيا أنموذج منها (أفبالباطل يؤمنون) هو ما يعتقدونه من منفعة الاصنام وشفاعتها

وولداوهـذا استفهام انكار أى ليس لهم ذلك (وبنعمت الله هم يكفرون) يعنى انهم يضيفون ما أنعم الله به عليهم الى غيره وقيل معناه انهم يجحدون ما أحل الله لهم (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض) يعنى الاصنام التى لا تقدر على انزال المطر الذى فى السموات خزائنه ولا يقدرون على اخراج النبات الذى فى الارض معدنه (شيأ) يعنى لا يملك من الرزق شيأ قليلا ولا كثيرا وقيل معناه يعبدون ما لا يرزق شيأ (ولا يستطيعون) يعنى ولا يقدرون على شئ يذكر عجز الاصنام عن ايصال نفع أودفع ضر (فلا تضربوا لله الامثال) يعنى لا تشبهوا الله بخلقه فانه لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفى ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق أو الرازق بالمرزوق أو القادر بالعاجز (ان الله يعلم) يعنى ما أنتم عليه من ضرب الامثال له (وأنتم لا تعلمون) خطأ ما تضربون له من الامثال قوله تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا) لما نهاهم الله سبحانه وتعالى عن ضرب الامثال لقلة علمهم ضرب هو سبحانه وتعالى لنفسه مثلا فقال تعالى مثلكم فى اشراككم بالله الاوثان كمثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر كريم مالك قادر قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء فصريح العقل يشهد بانه لا تجوز التسوية بينهما فى التعظيم والاجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما فى الخلقة والصورة البشرية فكيف يجوز للعاقل أن يسوى بين الله عز وجل الخالق القادر على الرزق والافضال وبين الاصنام التى لا تملك ولا تقدر على شئ البتة وقيل هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر والمراد بالعبد المملوك الذى لا يقدر على شئ هو الكافر لانه لما كان محروما من عبادة الله وطاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز الذى لا يقدر على شئ وقيل ان الكافر لما رزقه الله مالا فلم يقدم فيه خيرا صار كالعبد الذى لا يملك شيأ والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقا حسنا المؤمن لانه لما اشتغل بطاعة الله وعبوديته والانفاق فى وجوه البر والخير صار كالحر المالك الذى ينفق سرا وجهرا فى طاعة الله وابتغاء مرضاته وهو قوله سبحانه وتعالى (فهو ينفق منه سرا وجهرا) فاثابه الله الجنة على ذلك فان قلت لم قال عبدا مملوكا لا يقدر على شئ وكل عبد هو مملوك وهو غير قادر على التصرف قلت انما ذكر المملوك ليتميز من الحر لان اسم العبد يقع عليهما جميعا لانهما من عباد الله وقوله لا يقدر على شئ احترز به عن المملوك المكاتب والمأذون له فى التصرف لانهما يقدران على التصرف واحتج الفقهاء بهذه الآية على ان العبد لا يملك شيأ (هل يستوون) ولم يقل هل يستويان يعنى هل يستوى الاحرار والعبيد والمعنى كما لا يستوى هذا الفقير البخيل والغنى السخى كذلك لا يستوى الكافر العاصى والمؤمن الطائع وقال عطاء فى قوله عبدا مملوكا هو أبو جهل بن هشام ومن رزقناه منا رزقا حسنا هو أبو بكر الصديق ثم قال تعالى (الحمد لله) حمد الله نفسه لانه المستحق لجميع المحامد لانه المنعم المتفضل على عباده وهو الخالق الرازق لا هذه الاصنام التى عبدها هؤلاء فانها

(وبنعمت الله) أى الاسلام (هم يكفرون) أو الباطل الشيطان والنعمة محمد صلى الله عليه وسلم أو الباطل ما يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ) أى الصنم وهو جماد لا يملك أن يرزق شيأ فالرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى ما يرزق فان أردت المصدر نصبت به شيأ أى لا يملك أن يرزق شيأ وان أردت المرزوق كان شيأ بدلا منه أى قليلا ومن السموات والارض صلة للرزق ان كان مصدرا أى لا يرزق من السموات مطرا ولا من الارض نباتا أو صفة ان كان اسما لما يرزق والضمير فى (ولا يستطيعون) لما لانه فى معنى الآلهة بعدما قال لا يملك على اللفظ والمعنى لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه ولا يتأتى ذلك منهم (فلا تضربوا لله الامثال) فلا تجعلوا لله مثلا فانه لا مثل له أى فلا تجعلوا له شركاء (ان الله يعلم) انه لا مثل له من الخلق (وأنتم لا تعلمون) ذلك أو ان الله يعلم كيف يضرب الامثال وأنتم لا تعلمون ذلك والوجه الاول ثم ضرب المثل فقال (ضرب الله مثلا عبدا) هو بدل من مثلا (مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا) مصدران فى موضع الحال أى مثلكم فى اشراككم بالله الاوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه ما شاء وقيد بالمملوك ليميز من الحر لان اسم العبد يقع عليهما جميعا اذ هما من عباد الله وبلا يقدر على شئ ليمتاز من المكاتب والمأذون فهما يقدران على التصرف ومن موصوفة أى وحرا رزقناه ليطابق عبدا أو موصولة (هل يستوون) جمع الضمير لارادة الجمع أى لا يستوى القبيلان (الحمد لله

لا تستحق الحمد لأنها جماد عاجزة لا يد لها على أحد ولا معروف فتحمد عليه إنما الحمد
الكامل لله لا لغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لأنه أهل الحمد والثناء الحسن (بل
أكثرهم) يعني الكفار (لا يعلمون) يعني أن الحمد لله لا لهذه الأصنام (وضرب الله مثلا
رجلين أحدهما أبكم) هو الذي ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم
والأبكم الذي لا يفهم ولا يفهم (لا يقدر على شيء) هو إشارة إلى العجز التام والنقصان
الكامل (وهو كل على مولاه) أي ثقيل على من يلي أمره ويعوله وقيل أصله من الغلظ
وهو نقيض الحدة يقال كل السكين إذا غلظت شفرته وكل اللسان إذا غلظ فلم يقدر على
النطق وكل فلان عن الأمر إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه فقوله وهو كل على مولاه أي
غليظ ثقيل على مولاه (أينما يوجهه) أي حيثما يرسله ويصرفه في طلب حاجة أو كفاية
مهم (لا يأت بخير) يعني لا يأت بنجح لأنه أخرس عاجز لا يحسن ولا يفهم (هل يستوي)
يعني من هذه صفته (هو) يعني صاحب هذه الصفات المذمومة (ومن يأمر بالعدل)
يعني ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات ذو رشد وديانة يأمر الناس بالعدل والخير
(وهو) في نفسه (على صراط مستقيم) يعني على سيرة صالحة ودين قويم فيجب أن يكون
الآمر بالعدل عالما قادرا مستقيما في نفسه حتى يتمكن من الأمر بالعدل وهذا مثل
ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده من إنعامه ويشملهم به من آثار رحمته
وألطافه وللأصنام التي هي أموات جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل
وهي كل على عابديها لأنها تحتاج إلى كلفة الحمل والنقل والخدمة وقيل كلا المثلين للمؤمن
والكافر والمؤمن هو الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم والكافر هو الأبكم
الثقيل الذي لا يأمر بخير فعلى هذا القول تكون الآية على العموم في كل مؤمن وكافر
وقيل هي على الخصوص فالذي يأمر بالعدل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على
صراط مستقيم والذي يأمر بالظلم وهو أبكم أبو جهل وقيل الذي يأمر بالعدل عثمان
ابن عفان وكان له مولى يأمره بالإسلام وذلك المولى يأمر عثمان بالإمساك عن الإنفاق
في سبيل الله تعالى فهو الذي لا يأتي بخير وقيل المراد بالأبكم الذي لا يأتي بخير أبي بن خلف
وبالذي يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون (ولله غيب السموات
والأرض) أخبر الله عز وجل في الآية عن كمال علمه وأنه عالم بجميع الغيوب فلا تخفى
عليه خافية ولا يخفى عليه شيء منها وقيل الغيب هنا هو علم قيام الساعة وهو قوله (وما
أمر الساعة) يعني في قيامها والساعة هي الوقت الذي يقوم الناس فيه لموقف الحساب
(إلا كلمح البصر) يعني في السرعة ولمح البصر هو انطباق جفن العين وفتحه وهو طرف
العين أيضا (أو هو أقرب) يعني أن لمح البصر يحتاج إلى زمان وحركة والله سبحانه وتعالى
إذا أراد شيئا قال له كن فيكون في أسرع من لمح البصر وهو قوله (إن الله على كل شيء
قدير) فيه دليل على كمال قدرة الله تعالى وأنه سبحانه وتعالى مهما أراد شيئا كان أسرع
ما يكون قال الزجاج ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر ولكنه
سبحانه وتعالى وصف سرعة القدرة على الإتيان بها متى شاء لا يعجزه شيء قوله عز وجل

بل أكثرهم لا يعلمون) بأن الحمد والعبادة لله ثم زاد في البيان فقال (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم
لا يقدر على شيء) الأبكم الذي
ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم
(وهو كل على مولاه) أي ثقل
وعيال على من يلي أمره ويعوله
(أينما يوجهه لا يأت بخير) حيثما
يرسله ويصرفه في مطلب حاجة
أو كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجح
(هل يستوي هو ومن يأمر
بالعدل) أي ومن هو سليم
الحواس نفاع ذو كفايات مع رشد
وديانة فهو يأمر الناس بالعدل
والخير (وهو) في نفسه (على
صراط مستقيم) على سيرة صالحة
ودين قويم وهذا مثل ثان ضربه
لنفسه ولما يفيض على عباده
من آثار رحمته ونعمته وللأصنام
التي هي أموات لا تضر ولا تنفع
(ولله غيب السموات والأرض)
أي يختص به علم ما غاب فيهما عن
العباد وخفي عليهم علمه أو أراد
بغيب السموات والأرض يوم
القيامة على أن علمه غائب عن
أهل السموات والأرض لم يطلع
عليه أحد منهم (وما أمر
الساعة) في قرب كونها وسرعة
قيامها (إلا كلمح البصر) كرجع
طرف وإنما ضرب به المثل لأنه
لا يعرف زمان أقل منه (أو هو)
أي الأمر (أقرب) وليس هذا
لشك المخاطب ولكن المعنى
كونوا في كونها على هذا
الاعتبار وقيل بل هو أقرب
(إن الله على كل شيء قدير) فهو
يقدر على أن يقيم الساعة
ويبعث الخلق لأنه بعض المقدورات ثم دل على قدرته بما بعده فقال (والله

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيأ) تم الكلام هنا لان الانسان خلق في أول الفطرة ومبدئها خاليا عن العلم والمعرفة لايهتدي سبيلا ثم ابتدأ فقال تعالى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) يعني ان الله سبحانه وتعالى انما أعطاكم هذه الحواس لتنتقلوا بها من الجهل الى العلم فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب والسنة وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها على مايصلحكم في أمر دينكم وجعل لكم الابصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته وغرائب مخلوقاته فتستدلوا بها على وحدانيته وجعل لكم الافئدة لتعقلوا بها وتفهموا معاني الاشياء التي جعلها دلائل وحدانيته وقال ابن عباس في هذه الآية يريد لتسمعوا مواعظ الله وتبصروا ما أنعم الله به عليكم من اخراجكم من بطون أمهاتكم الى ان صرتم رجالا وتعقلوا عظمة الله وقيل في معنى الآية والله خلقكم في بطون أمهاتكم وسواكم وصوركم ثم أخرجكم من الضيق الى السعة وجعل لكم الحواس آلات لازالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والترقي الى مايسعدكم به في الآخرة فان قلت ظاهر الآية يدل على ان جعل الحواس الثلاث بعد الاخراج من البطون وانما خلقت هذه الحواس للانسان من جملة خلقه وهو في بطن أمه قلت ذكر العلماء ان تقديم الاخراج وتأخير ذكر هذه الحواس لايدل على ان خلقها كان بعد الاخراج لان الواو لاتوجب الترتيب ولان العرب تقدم وتؤخر في بعض كلامها وأقول لما كان الانتفاع بهذه الحواس بعد الخروج من البطن فكأنما خلقت في ذلك الوقت الذي ينتفع بها فيه وان كانت قد خلقت قبل ذلك وقوله تعالى (لعلكم تشكرون) يعني انما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها في شكر من أنعم بها عليكم (ألم يروا الى الطير مسخرات) يعني مذللات (في جو السماء) الجو الفضاء الواسع بين السماء والارض وهو الهواء قال كعب الاحبار ان الطير ترتفع في الجو اثني عشر ميلا ولاترتفع فوق ذلك (مايمسكهن الا الله) يعني في حال قبض أجنحتها وبسطها واصطفافها في الهواء وفي هذا حث على الاستدلال بها على ان لها مسخرا سخرها ومذللا ذللها وممسكا أمسكها في حال طيرانها ووقوفها في الهواء وهو الله تعالى (ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) انما خص المؤمنين بالذكر لانهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم قوله سبحانه وتعالى (والله جعل لكم من بيوتكم) يعني التي هي من الحجر والمدر (سكنا) يعني مسكنا تسكنونه والسكن ماسكنت اليه وفيه من الف أو بيت (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) يعني الخيام والقباب والاخبية والفساطيط المتخذة من الادم والانطاع واعلم ان المساكن على قسمين أحدهما مالايمكن نقله من مكان الى مكان آخر وهي البيوت المتخذة من الحجارة والخشب ونحوهما والقسم الثاني مايمكن نقله من مكان الى مكان آخر وهي الخيام والفساطيط المتخذة من جلود الانعام واليها الاشارة بقوله تعالى (تستخفونها) يعني يخف عليكم حملها (يوم ظعنكم) يعني في يوم سيركم ورحلتكم في أسفاركم وظعن البادية هو لطلب ماء أو مرعى ونحو ذلك (ويوم اقامتكم) يعني ويخف

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم) وبكسر الالف وفتح الميم على اتباعا لكسرة النون وبكسرهما حمزة والهاء مزيدة في امهات للتوكيد كما زيدت في أراق فقيل اهراق وشذت زيادتها في الواحدة (لاتعلمون شيأ) حال أي غير عالمين شيأ من حق المنعم الذي خلقكم في البطون (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) أي وماركب فيكم هذه الاشياء الا آلات لازالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والافئدة في فؤاد كالاغربة في غراب وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة لعدم السماع في غيرها (ألم يروا) وبالتاء شامي وحمزة (الى الطير مسخرات) مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المواتية لذلك (في جو السماء) هو الهواء المتباعد من الارض في سمت العلو (مايمسكهن) في قبضهن وبسطهن ووقوفهن (الا الله) بقدرته وفيه نفي لما يصوره الوهم من خاصية القوى الطبيعية (ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) بأن الخلق لاغنى به عن الخالق (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) هو فعل بمعنى مفعول أي مايسكن اليه وينقطع اليه من بيت أو الف (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) هي قباب الادم (تستخفونها) ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل (يوم ظعنكم) بسكون العين كوفي وشامي وبفتح العين غيرهم والظعن بفتح العين وسكونها الارتحال (ويوم اقامتكم) قراركم في منازلكم والمعنى انها خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر على ان اليوم بمعنى الوقت

عليكم أيضا فى اقامتكم وحضركم والمعنى لاتثقل عليكم فى الحالتين (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) الكناية عائدة الى الانعام يعنى ومن أصواف الضأن وأوبار الابل وأشعار المعز (أثاثا) يعنى تتخذون أثاثا الاثاث متاع البيت الكبير وأصله من أث اذا كثر وتكاثف وقيل للمال أثاث اذا كثر قال ابن عباس أثاثا يعنى مالا وقال مجاهد متاعا وقال القتيبي الاثاث المال أجمع من الابل والغنم والعبيد والمتاع وقال غيره الاثاث هو متاع البيت من الفرش والاكسية ونحو ذلك (ومتاعا) يعنى وبلاغا وهو ما يتمتعون به (الى حين) يعنى الى حين يبلى ذلك الاثاث وقيل الى حين الموت فان قلت أى فرق بين الاثاث والمتاع حتى ذكرهما والعطف يوجب المغايرة فهل من فرق قلت الاثاث ما كثر من آلات البيت وحوائجه وغير ذلك فيدخل فيه جميع أصناف المال والمتاع ما ينتفع به فى البيت خاصة فظهر الفرق بين اللفظتين والله أعلم (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) يعنى جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد وهى ظلال الابنية والجدران والاشجار (وجعل لكم من الجبال أكنانا) جمع كن وهو ما يستكن فيه من شدة الحر والبرد كالاسراب والغيران ونحوها وذلك لان الانسان اما أن يكون غنيا أو فقيرا فاذا سافر احتاج فى سفره ما يقيه من شدة الحر والبرد فأما الغنى فيستصحب معه الخيام فى سفره ليستكن فيها واليه الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا وأما الفقير فيستكن فى ظلال الاشجار والحيطان والكهوف ونحوها واليه الاشارة بقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا ولان بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم الى الظلال وما يدفع شدته وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعانى فى معرض الامتنان عليهم بها لان النعمة عليهم فيها ظاهرة (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر) يعنى وجعل لكم قمصا وثيابا من القطن والكتان والصوف وغير ذلك تمنعكم من شدة الحر قال أهل المعانى والبرد فاكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه (وسرابيل تقيكم بأسكم) يعنى الدروع والجواشن وسائر ما يلبس فى الحرب من السلاح والبأس الحرب يعنى تقيكم فى بأسكم السلاح أن يصيبكم قال عطاء الخراسانى انما نزل القرآن على قدر معرفتهم فقال تعالى وجعل لكم من الجبال أكنانا وما جعل لهم من السهول أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وما جعل لهم من القطن والكتان أكثر ولكن كانوا أصحاب صوف ووبر وشعر وكما قال تعالى وينزل من السماء من جبال فيها من برد وما أنزل من الثلج أكثر ولكنهم كانوا لايعرفون الثلج وقال تقيكم الحر وما جعل لهم مما يقى من البرد أكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر وقوله سبحانه وتعالى (كذلك) يعنى كما أنعم عليكم بهذه النعم (يتم نعمته عليكم) يعنى نعم الدنيا والدين (لعلكم تسلمون) يعنى لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الوحدانية والربوبية والعبادة والطاعة وتعلمون انه لا يقدر على هذه الانعامات الا الله تعالى (فان تولوا) يعنى فان أعرضوا عن الايمان بك وتصديقك يا محمد وآثروا ما هم فيه من الكفر واللذات الدنيوية فانما وبال ذلك عليهم لا عليك (فانما عليك البلاغ المبين) يعنى ليس عليك فى ذلك عتب ولا سمة تقصير انما عليك البلاغ وقد فعلت ذلك ثم ذمهم الله تعالى

بقوله

(ومن أصوافها) أى أصواف الضان (وأوبارها) وأوبار الابل (وأشعارها) وأشعار المعز (أثاثا) متاع البيت (ومتاعا) وشيأ ينتفع به (الى حين) مدة من الزمان (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) كالاشجار والسقوف (وجعل لكم من الجبال أكنانا) جمع كن وهو ما سترك من كهف أو غار (وجعل لكم سرابيل) هى القمصان والثياب من الصوف والكتان والقطن (تقيكم الحر) وهى تقى البرد أيضا الا انه اكتفى بأحد الضدين ولان الوقاية من الحر أهم عندهم لكون البرد يسيرا محتملا (وسرابيل تقيكم بأسكم) ودروعا من الحديد ترد عنكم سلاح عدوكم فى قتالكم والبأس شدة الحرب والسربال عام يقع على ما كان من حديد أو غيره (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) أى تنظرون فى نعمته الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له (فان تولوا) أعرضوا عن الاسلام (فانما عليك البلاغ المبين) أى فلا تبعة عليك فى ذلك لان الذى عليك هو التبليغ الظاهر وقد فعلت

بقوله (يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها) قال السدى نعمة الله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه وقيل نعمة الله هى الاسلام لانه من أعظم النعم التى أنعم الله بها على عباده ثم ان كفار مكة أنكروه وجحدوه وقال مجاهد وقتادة نعمة الله ما عدد عليهم فى هذه السورة من النعم يقرون بانها من الله ثم اذا قيل لهم صدقوا وامتثلوا أمر الله فيها ينكرونها ويقولون ورثناها عن آبائنا وقال الكلبى انه لما ذكر هذه النعم قالوا هذه نعم كلها من الله تعالى لكنها بشفاعة آلهتنا وقيل هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا ولولا فلان لما كان كذا وقيل انهم يعترفون بان الله أنعم بهذه النعم ولكنهم لا يستعملونها فى طلب رضوانه ولا يشكرونه عليها (واكثرهم الكافرون) انما قال سبحانه وتعالى وأكثرهم الكافرون مع انهم كانوا كلهم كافرين لانه كان فيهم من لم يبلغ بعد حد التكليف فعبر بالاكثر عن البالغين وقيل أراد بالاكثر الكافرين الجاحدين المعاندين وقد كان فيهم من ليس بمعاند وان كان كافرا وقيل انه عبر بالاكثر عن الكل لانه قد يذكر الاكثر ويراد به الجمع قوله سبحانه وتعالى (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على الكافرين وانكارهم لها وذكر ان أكثرهم كافرون اتبعه بذكر الوعيد لهم فى الآخرة فقال تعالى ويوم نبعث من كل أمة شهيدا يعنى رسولا وذلك اليوم هو يوم القيامة والمراد بالشهداء الانبياء يشهدون على أممهم بانكار نعم الله عليهم وبالكفر (ثم لا يؤذن للذين كفروا) يعنى فى الاعتذار وقيل لا يؤذن لهم فى الكلام أصلا وقيل لا يؤذن لهم بالرجوع الى دار الدنيا فيعتذروا ويتوبوا وقيل لا يؤذن لهم فى معارضة الشهود بل يشهدون عليهم ويقرونهم على ذلك (ولا هم يستعتبون) الاستعتاب طلب العتاب والمعتبة هى الغلظة والموجدة التى يجدها الانسان فى نفسه على غيره والرجل انما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما فى نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع الى الرضا عنه واذا لم يطلب العتاب منه دل ذلك على انه ثابت على غضبه عليه ومعنى الآية انهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم فى ذلك اليوم لان الآخرة ليست دار تكليف ولا يرجعون الى الدنيا فيتوبوا ويرجعوا ويرضوا ربهم فالاستعتاب التعرض لطلب الرضا وهذا باب منسد على الكفار فى الآخرة (واذا رأى الذين ظلموا) يعنى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى (العذاب) يعنى عذاب جهنم (فلا يخفف عنهم) يعنى العذاب (ولا هم ينظرون) يعنى لا يؤخرون ولا يمهلون (واذا رأى الذين أشركوا) يعنى يوم القيامة (شركاءهم) يعنى أصنامهم التى كانوا يعبدونها فى الدنيا (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) يعنى أربابا وكنا نعبدهم ونتخذهم آلهة (فألقوا) يعنى الاصنام (اليهم) يعنى الى عابديها (القول انكم لكاذبون) يعنى ان الاصنام قالت للكفار انكم لكاذبون يعنى فى تسميتنا آلهة وما دعوناكم الى عبادتنا فان قلت الاصنام جماد لا تتكلم فكيف يصح منها الكلام قلت لا يبعد ان الله سبحانه وتعالى لما بعثها وأعادها فى الآخرة خلق فيها الحياة والنطق والعقل حتى قالت ذلك والمقصود من اعادتها وبعثها أن تكذب الكفار ويراها الكفار

يعرفون نعمت الله) التى عددناها باقرارهم فانهم يقرون انها من الله (ثم ينكرونها) بأفعالهم حيث عبدوا غير المنعم أو فى الشدة ثم فى الرخاء (وأكثرهم الكافرون) أى الجاحدون غير المعترفين أو نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفونها ثم ينكرونها اعتقادا وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم وثم يدل على أن انكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لان حق من عرف النعمة ان يعترف لا ان ينكر (ويوم) انتصابه باذكر (نبعث) نحشر (من كل أمة شهيدا) نبيا يشهد لهم وعليهم بالتصديق والتكذيب والايمان والكفر (ثم لا يؤذن للذين كفروا) فى الاعتذار والمعنى لا حجة لهم فدل بترك الاذن على أن لا حجة لهم ولا عذر (ولا هم يستعتبون) ولا هم يسترضون أى لا يقال لهم ارضوا ربكم لان الآخرة ليس بدار عمل ومعنى ثم انهم يمنون أى يبتلون بعد شهادة الانبياء عليهم السلام بما هو أطم وأغلب منها وهو انهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم فى القاء معذرة ولا ادلاء بحجة (واذا رأى الذين ظلموا) كفروا (العذاب فلا يخفف عنهم) أى العذاب بعد الدخول (ولا هم ينظرون) يمهلون قبله (واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) أوثانهم التى عبدوها (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا) أى آلهتنا التى جعلناها شركاء (الذين كنا ندعو من دونك) أى نعبد (فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون) أى أجابوهم بالتكذيب لانها كانت جمادا لا تعرف من عبدها ويحتمل انهم كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله عن الشرك

(وألقوا) يعني الذين ظلموا (الى الله يومئذ السلم) القاء السلم الاستسلام لامر الله وحكمه بعد الاباء والاستكبار في الدنيا (وضل عنهم) وبطل عنهم (ما كانوا يفترون) ١٧٢ من ان لله شركاء وانهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم

(الذين كفروا) في أنفسهم (وصدوا عن سبيل الله) وحملوا غيرهم على الكفر (زدناهم عذابا فوق العذاب) أي عذابا بكفرهم وعذابا بصدهم عن سبيل الله (بما كانوا يفسدون) بكونهم مفسدين الناس بالصد (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) يعني نبيهم لانه كان يبعث أنبياء الامم فيهم منهم (وجئنابك) يا محمد (شهيدا على هؤلاء) على أمتك (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا) بليغا (لكل شئ) من أمور الدين أما في الاحكام المنصوصة فظاهر وكذا فيما ثبت بالسنة أو بالاجماع أو بقول الصحابة أو بالقياس لان مرجع الكل الى الكتاب حيث أمرنا فيه باتباع رسوله عليه السلام وطاعته بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وحثنا على الاجماع فيه بقوله ويتبع غير سبيل المؤمنين وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته باتباع أصحابه بقوله أصحابي كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق الاجتهاد والقياس مع انه أمرنا به بقوله فاعتبروا يا أولى الابصار فكانت السنة والاجماع وقول الصحابي والقياس مستندة الى تبيان الكتاب فتبين انه كان تبيانا لكل شئ (وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) ودلالة الى الحق

وهي في غاية الذلة والحقارة فيزدادون بذلك غما وحسرة (وألقوا) يعني المشركين (الى الله يومئذ السلم) يعني انهم استسلموا له وانقادوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيأ (وضل عنهم) يعني وزال عن المشركين (ما كانوا يفترون) يعني ما كانوا يكذبون في الدنيا في قولهم ان الاصنام تشفع لهم (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) يعني ضموا مع كفرهم انهم منعوا الناس عن الدخول في الايمان بالله ورسوله (زدناهم عذابا فوق العذاب) يعني زدناهم هذه الزيادة بسبب صدهم عن سبيل الله مع ما يستحقونه من العذاب على كفرهم الاصلي واختلفوا في هذه الزيادة ماهي فقال عبد الله بن مسعود عقارب لها أنياب كأمثال النخل الطوال وقال سعيد بن جبير حيات كالبخت وعقارب أمثال البغال تلسع احداهن اللسعة فيجد صاحبها ألمها أربعين خريفا وقال ابن عباس ومقاتل يعني خمسة أنهار من صفر مذاب كالنار تسيل يعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار وقيل انهم يخرجون من حر النار الى برد الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير الى النار مستغيثين بها وقيل يضاعف لهم العذاب ضعفا بسبب كفرهم وضعفا بسبب صدهم الناس عن سبيل الله (بما كانوا يفسدون) يعني ان الزيادة انما حصلت لهم بسبب صدهم عن سبيل الله وبسبب ما كانوا يفسدون مع ما يستحقونه من العذاب على الكفر (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم) قال ابن عباس يريد الانبياء قال المفسرون كل نبي شاهد على أمته وهو أعدل شاهد عليها (من أنفسهم) يعني منهم لان كل نبي انما بعث من قومه الذين بعث اليهم ليشهدوا عليهم بما فعلوا من كفر وايمان وطاعة وعصيان (وجئنابك) يعني يا محمد (شهيدا على هؤلاء) يعني على قومك وأمتك وتم الكلام هنا ثم قال تبارك وتعالى (ونزلنا عليك الكتاب) يعني القرآن (تبيانا لكل شئ) تبيانا اسم من البيان قال مجاهد يعني لما أمر به ومانهي عنه وقال أهل المعاني تبيانا لكل شئ يعني من أمور الدين اما بالنص عليه أو بالاحالة على ما يوجب العلم به من بيان النبي صلى الله عليه وسلم لان النبي صلى الله عليه وسلم بين ما في القرآن من الاحكام والحدود والحلال والحرام وجميع المأمورات والمنهيات واجماع الامة فهو أيضا أصل ومفتاح لعلوم الدين (وهدى) يعني من الضلالة (ورحمة) يعني لمن آمن به وصدقه (وبشرى للمسلمين) يعني وفيه بشرى للمسلمين من الله عز وجل قوله سبحانه وتعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) قال ابن عباس العدل شهادة أن لا اله الا الله والاحسان أداء الفرائض وفي رواية عنه قال العدل خلع الانداد والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ان كان مؤمنا تحب أن يزداد ايمانا وان كان كافرا تحب أن يكون أخاك في الاسلام وقال في رواية أخرى عنه العدل التوحيد والاحسان الاخلاص وأصل العدل في اللغة المساواة في كل شئ من غير زيادة في شئ ولا غلو ولا نقصان فيه ولا تقصير فالعدل هو المساواة في المكافأة ان خيرا فخير وان شرا فشر والاحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بان تعفو عنه وقيل العدل

ورحمة لهم وبشارة لهم بالجنة (ان الله يأمر بالعدل) بالتسوية في الحقوق فيما بينكم وترك الظلم وايصال كل ذي حق الى حقه (والاحسان) الى من أساء اليكم أو هما الفرض والندب لان الفرض لابد من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب

الانصاف ولا انصاف أعظم من الاعتراف للمنعم بانعامه والاحسان ان تحسن الى من
أساء اليك وقيل يأمر بالعدل فى الافعال وبالاحسان فى الاقوال فلا يفعل الا ما هو عدل
ولا يقول الا ما هو حسن (وايتاء ذى القربى) يعنى ويأمر بصلة الرحم وهم القرابة
الادنون والابعدون منك فيستحب ان تصلهم من فضل ما رزقك الله فان لم يكن لك فضل
فدعاء حسن وتودد (وينهى عن الفحشاء) قال ابن عباس يعنى الزنا وقال غيره الفحشاء
ما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة
(والمنكر) قال ابن عباس يعنى الشرك والكفر وقال غيره المنكر ما لا يعرف فى شريعة
ولا سنة (والبغى) يعنى الكبر والظلم وقيل البغى هو التطاول على الغير على سبيل الظلم
والعدوان قال بعضهم ان أعجل المعاصى البغى ولو أن جبلين بغى أحدهما على الآخر لدك
الباغى وقال ابن عيينة فى هذه الآية العدل استواء السر والعلانية والاحسان أن
تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر والبغى ان تكون علانيته أحسن
من سريرته وقال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ومن
المنهيات ثلاثة أشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة فى الاقوال والافعال وذكر فى
مقابلته الفحشاء وهى ما قبح من الاقوال والافعال وذكر الاحسان وهو ان تعفو عمن
ظلمك وتحسن الى من أساء اليك وذكر فى مقابلته المنكر وهو ان تنكر احسان من أحسن
اليك وذكر ايتاء ذى القربى والمراد به صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة عليهم وذكر فى
مقابلته البغى وهو ان يتكبر عليهم أو يظلمهم حقوقهم ثم قال تعالى (يعظكم لعلكم
تذكرون) يعنى انما أمركم بما أمركم به ونهاكم عما نهاكم عنه لكى تتعظوا وتتذكروا
فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى قال ابن مسعود ان اجمع آية فى القرآن لخير وشر هذه الآية
وقال أهل المعانى لما قال الله تعالى فى الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ بين
فى هذه الآية المأمور به والمنهى عنه على سبيل الاجمال فما من شئ يحتاج اليه الناس فى
أمر دينهم مما يجب ان يؤتى أو يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الآية وروى عكرمة ان
النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ان الله يأمر بالعدل الى آخر الآية فقال له
يا ابن أخى أعد على فأعادها عليه فقال له الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان
أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما هو بقول البشر قوله عز وجل (وأوفوا بعهد الله اذا
عاهدتم) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة المأمورات والمنهيات على سبيل
الاجمال ذكر فى هذه الآية بعض ذلك الاجمال على التفصيل فبدأ بالامر بالوفاء بالعهد لانه
آكد الحقوق فقال تعالى وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم نزلت فى الذين بايعوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم على الاسلام فأمرهم بالوفاء بهذه البيعة وقيل المراد منه كل ما يلتزمه
الانسان باختياره ويدخل فيه الوعد أيضا لان الوعد من العهد وقيل العهد ههنا اليمين
قال القتيبى العهد يمين وكفارته كفارة يمين فعلى هذا يجب الوفاء به اذا كان فيه صلاح اما
اذا لم يكن فيه صلاح فلا يجب الوفاء به لقوله صلى الله عليه وسلم من حلف يمينا ثم رأى
غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه فيكون قوله وأوفوا بعهد الله من

(وايتاء ذى القربى) واعطاء ذى
القرابة وهو صلة الرحم
(وينهى عن الفحشاء) عن
الذنوب المفرطة فى القبح (والمنكر)
ما تنكره العقول (والبغى)
طلب التطاول بالظلم والكبر
(يعظكم) حال أو مستأنف
(لعلكم تذكرون) تتعظون
بمواعظ الله وهذه الآية سبب
اسلام عثمان بن مظعون فانه
قال ما كنت أسلمت الا حياء منه
عليه السلام لكثرة ما كان يعرض
على الاسلام ولم يستقر الايمان
فى قلبى حتى نزلت هذه الآية
وانا عنده فاستقر الايمان فى قلبى
فقرأتها على الوليد بن المغيرة
فقال والله ان له لحلاوة وان عليه
لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله
لمغدق وما هو بقول البشر وقال
أبو جهل ان الهه ليأمر بمكارم
الاخلاق وهى اجمع آية فى
القرآن للخير والشر ولهذا يقرأها
كل خطيب على المنبر فى آخر كل
خطبة لتكون عظة جامعة لكل
مأمور ومنهى (وأوفوا بعهد
الله اذا عاهدتم) هى البيعة
لرسول الله صلى الله عليه وسلم على
الاسلام ان الذين يبايعونك انما
يبايعون الله

(ولا تنقضوا الأيمان) أيمان البيعة (بعد توكيدها) بعد توثيقها باسم الله وأكد ووكد لغتان فصيحتان والأصل الواو والهمزة بدل منها (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) شاهدا ورقيبا لأن الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه (ان الله يعلم ما تفعلون) من البر والحنث فيجازيكم به (ولا تكونوا) ١٧٤ في نقض الأيمان (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة) كالمرأة التي انحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته (أنكاثا) جمع نكث وهو ما ينكث فتله قيل هي ريطة وكانت حمقاء تغزل هي وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن (تتخذون أيمانكم) حال كأنكاثا (دخلا) أحد مفعولي تتخذ أي ولا تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلا (بينكم) أي مفسدة وخيانة (أن تكون أمة) بسبب أن تكون أمة يعني جماعة قريش (هي أربى من أمة) هي أزيد عددا وأوفر مالا من أمة من جماعة المؤمنين هي أربى مبتدأ وخبر في موضع الرفع صفة لأمة وأمة فاعل تكون وهي تامة وهي ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين (انما يبلوكم الله به) الضمير للمصدر اي انما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكدتم من أيمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقلة المؤمنين وفقرهم (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) اذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب وفيه تحذير عن مخالفة ملة الاسلام (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) حنيفة مسلمة (ولكن يضل من يشاء) من علم منه اختيار الضلالة (ويهدى من يشاء) من علم ثم اهم منه اختيار الهداية (ولتسئلن عما كنتم تعملون) يوم القيامة فتجزون به (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) كرر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلا بينهم تأكيدا عليهم واظهارا لعظمه

العام الذي خصصته السنة وقال مجاهد وقتادة نزلت في حلف أهل الجاهلية ويشهد لهذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم كل حلف كان في الجاهلية لم يزده الاسلام الا شدة (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) يعني تشديدها فتحنثوا فيها وفيه دليل على ان المراد بالعهد غير اليمين لانه أعم منها (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) يعني شهيدا بالوفاء بالعهد (ان الله يعلم ما تفعلون) يعني من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا لنقض العهد فقال تعالى (ولا تكونوا) يعني في نقض العهد (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة) يعني من بعد ابرامه واحكامه قال الكلبي ومقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تيم وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسة وكانت قد اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل الاصبع وفلكة عظيمة على قدرها وكانت تغزل الغزل من الصوف أو الشعر أو الوبر وتأمر جواريها بالغزل فكن يغزلن من الغداة الى نصف النهار فاذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن فكان هذا دأبها والمعنى ان هذه المرأة لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض فكذلك من نقض العهد لا تركه ولا حين عاهد وفى به (أنكاثا) جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل أو الحبل بعد الفتل (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) يعني دغلا وخيانة وخديعة والدخل ما يدخل في الشئ على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل ان يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه (أن تكون) يعني لان تكون (أمة هي أربى من أمة) يعني أكثر وأعلى من أمة قال مجاهد وذلك انهم كانوا يحالفون الحلفاء فاذا وجدوا قوما أكثر من أولئك وأعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الأكثر والمعنى انكم طلبتم العز بنقض العهد لان كانت أمة أي جماعة أكثر من جماعة فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالوفاء بالعهد لمن عاهدوا وحالفوا (انما يبلوكم الله به) يعني يختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهد وهو أعلم بكم (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) يعني في الدنيا فيثيب الطائع المحق ويعاقب المسئ المخالف قوله سبحانه وتعالى (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) يعني على ملة واحدة ودين واحد وهو دين الاسلام (ولكن يضل من يشاء) يعني بخذلانه اياه عدلا منه (ويهدى من يشاء) بتوفيقه اياه فضلا منه وذلك مما اقتضته الحكمة الالهية لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وهو قوله تعالى (ولتسئلن عما كنتم تعملون) يعني في الدنيا فيجازي المحسن باحسانه ويعاقب المسئ باساءته أو يغفر له قوله عز وجل (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) يعني خديعة وفسادا بينكم فتغروا بها الناس فيسكنوا الى أيمانكم ويأمنوا اليكم ثم تنقضونها وانما كرر هذا المعنى تأكيدا عليهم واظهارا لعظم أمر نقض العهد قال المفسرون وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام

نهاهم عن نقض عهده لان الوعيد الذى بعده وهو قوله سبحانه وتعالى فتزل قدم بعد ثبوتها لا يليق بنقض عهد غيره انما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به و بشريعته وقوله (فتزل قدم بعد ثبوتها) مثل يذكر لكل من وقع فى بلاء ومحنة بعد عافية ونعمة أو سقط فى ورطة بعد سلامة تقول العرب لكل واقع فى بلاء بعد عافية زلت قدمه والمعنى فتزل أقدامكم عن محجة الاسلام بعد ثبوتها عليها (وتذوقوا السوء) يعنى العذاب (بما صددتم عن سبيل الله) يعنى بسبب صدكم غيركم عن دين الله وذلك لان من نقض العهد فقد علم غيره نقض العهد فيكون هو أقدمه على ذلك (ولكم عذاب عظيم) يعنى بنقضكم العهد (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) يعنى ولا تنقضوا عهودكم وتطلبوا بنقضها عوضا من الدنيا قليلا ولكن أوفوا بها (ان ما عند الله) يعنى فان ما عند الله من الثواب لكم على الوفاء بالعهد (هو خير لكم) يعنى من عاجل الدنيا (ان كنتم تعلمون) يعنى فضل ما بين العوضين ثم بين ذلك فقال تبارك وتعالى (ما عندكم ينفد) يعنى من متاع الدنيا ولذاتها يفنى و يذهب (وما عند الله باق) يعنى من ثواب الآخرة ونعيم الجنة (ولنجزين الذين صبروا) يعنى على الوفاء بالعهد على السراء والضراء (أجرهم) يعنى ثواب صبرهم (بأحسن ما كانوا يعملون) عن أبى موسى الاشعرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب دنياه اضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقوله سبحانه وتعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) فان قلت من عمل صالحا يفيد العموم فما فائدة الذكر والانثى قلت هو مبهم صالح على الاطلاق للنوعين الا انه اذا ذكر وأطلق كان الظاهر تناوله للذكر دون الانثى فقيل من ذكر أو أنثى على التبيين ليعم الوعد للنوعين جميعا وجواب آخر وهو ان هذه الآية واردة بالوعد بالثواب والمبالغة فى تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة اثباتا للتأكيد وازالة لوهم التخصيص وقوله وهو مؤمن جعل الايمان شرطا فى كون العمل الصالح موجبا للثواب (فلنحيينه حياة طيبة) قال سعيد بن جبير وعطاء هى الرزق الحلال وقال مقاتل هى العيش فى الطاعة وقيل هى حلاوة الطاعة وقال الحسن هى القناعة وقيل رزق يوم بيوم واعلم ان عيش المؤمن فى الدنيا وان كان فقيرا أطيب من عيش الكافر وان كان غنيا لان المؤمن لما علم ان رزقه من عند الله وذلك بتقديره وتدبيره وعرف ان الله محسن كريم متفضل لا يفعل الا الصواب فكان المؤمن راضيا عن الله وراضيا بما قدره الله له ورزقه اياه وعرف ان له مصلحة فى ذلك القدر الذى رزقه اياه فاستراحت نفسه من الكد والحرص فطاب عيشه بذلك وأما الكافر أو الجاهل بهذه الاصول الحريص على طلب الرزق فيكون أبدا فى حزن وتعب وعناء وحرص وكد ولا ينال من الرزق الا ما قدر له فظهر بهذا ان عيش المؤمن القنوع أطيب من غيره وقال السدى الحياة الطيبة انما تحصل فى القبر لان المؤمن يستريح بالموت من نكد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة فى قوله فلنحيينه حياة طيبة هى الجنة وروى عوف عن الحسن قال لا تطيب لاحد الحياة الا فى الجنة لانها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاوة فثبت بهذا ان الحياة

(فتزل قدم بعد ثبوتها) فتزل أقدامكم عن محجة الاسلام بعد ثبوتها عليها وانما وحدت القدم ونكرت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد ان تثبت عليه فكيف باقدام كثيرة (وتذوقوا السوء) فى الدنيا (بما صددتم) بصدودكم (عن سبيل الله) وخروجكم عن الدين أو بصدكم غيركم لانهم لو نقضوا ايمان البيعة وارتدوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها (ولكم عذاب عظيم) فى الآخرة (ولا تشتروا) ولا تستبدلوا (بعهد الله) و بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) عرضا من الدنيا يسيرا كأن قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ولما كانوا يعدونهم ان رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبتهم الله (ان ما عند الله) من ثواب الآخرة (هو خير لكم ان كنتم تعلمون ما عندكم) من اعراض الدنيا (ينفد وما عند الله) من خزائن رحمته (باق) لا ينفد (ولنجزين) وبالنون مكى وعاصم (الذين صبروا) على أذى المشركين ومشاق الاسلام (أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون من عمل صالحا من ذكر أو أنثى) من مبهم يتناول النوعين الا ان ظاهره للذكور فبين بقوله من ذكر أو أنثى ليعم الموعد النوعين جميعا (وهو مؤمن) شرط الايمان لان أعمال الكفار غير معتد بها وهو يدل على ان العمل ليس من الايمان (فلنحيينه حياة طيبة) أى فى الدنيا لقوله

معسرا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله تعالى وأما الفاجر فأمره بالعكس ان كان معسرا فظاهر وان كان موسرا فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه وقيل الحياة الطيبة القناعة أو حلاوة الطاعة أو المعرفة بالله وصدق المقام مع الله وصدق الوقوف على أمر الله والاعراض عما سوى الله (فاذا قرأت القرآن) فاذا أردت قراءة القرآن (فاستعذ بالله) فعبر عن ارادة الفعل بلفظ الفعل لانها سبب له والفاء للتعقيب اذ القراءة المصدرة بالاستعاذة من العمل الصالح المذكور (من الشيطان) يعني ابليس (الرجيم) المطرود أو الملعون قال ابن مسعود رضي الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقال لي قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام (انه ليس له) لابليس (سلطان) تسلط وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فالمؤمن المتوكل لا يقبل منه وساوسه (انما سلطانه على الذين يتولونه) يتخذونه وليا ويتبعون وساوسه

الطيبة لا تكون الا في الجنة ولقوله في سياق الآية (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) لان ذلك الجزاء انما يكون في الجنة قوله عز وجل (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لان النبي صلى الله عليه وسلم لما كان غير محتاج الى الاستعاذة وقد أمر بها فغيره أولى بذلك ولما كان الشيطان ساعيا في القاء الوسوسة في قلوب بني آدم وكانت الاستعاذة بالله مانعة من ذلك فلهذا السبب أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالاستعاذة عند القراءة حتى تكون مصونة من وساوس الشيطان عن جبير بن مطعم انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال عمرو لا أدري أي صلاة هي قال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه قال نفخه الكبر ونفثه الشعر وهمزه الموتة أخرجه أبو داود الموتة الجنون والفاء في قوله فاستعذ بالله للتعقيب فظاهر لفظ الآية يدل على ان الاستعاذة بعد القراءة واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول أبي هريرة واليه ذهب مالك وجماعة وداود الظاهري قالوا لان قارئ القرآن يستحق ثوابا عظيما وربما حصلت الوساوس في قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أم لا فاذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقي الثواب مخلصا فاما مذهب الاكثرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء الامصار فقد اتفقوا على ان الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الآية اذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله ومثله قوله سبحانه وتعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الخ ومثله من الكلام اذا أردت أن تأكل فقل بسم الله واذا أردت أن تسافر فتأهب وأيضا فان الوسوسة انما تحصل في أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة اليها ومذهب عطاء انه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت في الصلاة أو في غيرها واتفق سائر الفقهاء على ان الاستعاذة سنة في الصلاة وغيرها وقد تقدمت هذه المسئلة والخلاف فيها في أول سورة الفاتحة والاستعاذة الاعتصام بالله والالتجاء اليه من شر الشيطان ووسوسته والمراد من الشيطان ابليس وقيل هو اسم جنس يطلق على جميع المردة من الشياطين لان لهم قدرة على القاء الوسوسة في قلوب بني آدم باقدار الله اياهم على ذلك (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان فكان ذلك أوهم ان له قدرة على التصرف في أبدان بني آدم فأزال الله سبحانه وتعالى هذا الوهم بقوله انه ليس له سلطان يعني ليس له قدرة ولا ولاية على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون قال سفيان ليس له سلطان على ان يحملهم على ذنب لا يغفر (١) ويظهر من هذا ان الاستعاذة انما تفيد اذا حضر بقلب الانسان كونه ضعيفا وانه لا يمكنه التحفظ من وسوسة الشيطان الا بعصمة الله ولهذا قال المحققون لا حول عن معصية الله الا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله الا بتوفيق الله ثم قال تعالى (انما سلطانه على الذين يتولونه)

(١) قوله ويظهر من هذا اسم الاشارة راجع لما ذكر قبل قول سفيان كما يعلم من الفخر فانه لم يذكر في هذا المحل قول سفيان وذكر ما قبله وما بعده وعبارته صحيحة بخلاف ما هنا فانه يوهم رجوع اسم الاشارة لقول سفيان وهو غير ظاهر اهـ مصححه

يعنى يطيعونه ويدخلون فى ولايته يقال توليته اذا أطعته وتوليت عنه اذا أعرضت عنه (والذين هم به مشركون) يعنى بالله وقيل الضمير فى به راجع الى الشيطان والمعنى هم من أجله مشركون بالله قوله سبحانه وتعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل) وذلك أن المشركين من أهل مكة قالوا ان محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ما هو الا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه فأنزل الله هذه الآية والمعنى واذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر والله أعلم بما ينزل اعتراض دخل فى الكلام والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه وبما يغير ويبدل من أحكامه أى هو أعلم بجميع ذلك بما هو من مصالح عباده وهذا نوع توبيخ وتقريع للكفار على قولهم للنبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى (قالوا انما أنت مفتر) أى مختلقه من عندك والمعنى اذا كان الله تعالى أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمدا الى الافتراء والكذب لأجل التبديل والنسخ وانما فائدة ذلك ترجع الى مصالح العباد كما يقال ان الطبيب يأمر المريض بشرب دواء ثم بعد ذلك ينهاه عنه ويأمره بغيره لما يرى فيه من المصلحة (بل أكثرهم لا يعلمون) يعنى لا يعلمون فائدة الناسخ وتبديل المنسوخ (قل) أى قل لهم يا محمد (نزله) يعنى القرآن (روح القدس) يعنى جبريل صلى الله عليه وسلم أضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير والمعنى الروح المقدس المطهر (من ربك) يعنى ان جبريل نزل بالقرآن من ربك يا محمد (بالحق ليثبت الذين آمنوا) يعنى ليثبت بالقرآن قلوب المؤمنين فيزدادوا ايمانا ويقينا (وهدى وبشرى) يعنى وهو هدى وبشرى (للمسلمين) قوله عز وجل (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر) وذلك ان كفار مكة قالوا انما يتعلم هذه القصص وهذه الاخبار من انسان آخر وهو آدمى مثله وليس هو من عند الله كما يزعم فأجابهم الله بقوله ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر واختلفوا فى ذلك البشر من هو فقال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قينا بمكة اسمه بلعام وكان نصرانيا أعجمى اللسان فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده فكانوا يقولون انما يعلمه بلعام وقال عكرمة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئ غلاما لبنى المغيرة يقال له يعيش فكان يقرأ الكتب فقالت قريش انما يعلمه يعيش وقال محمد بن اسحق كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى كثيرا ما يجلس عند المروة الى غلام رومى نصرانى عبد لبعض بنى الحضرمى يقال له جبر وكان يقرأ الكتب وقال عبيد الله بن مسلمة كان لنا عبدان من أهل عين التمر يقال لأحدهما يسار ويكنى أبا فكيهة ويقال للآخر جبر وكانا يصنعان السيوف بمكة وكانا يقرآن التوراة والانجيل بمكة فربما مر بهما النبى صلى الله عليه وسلم وهما يقرآن فيقف ويستمع قال الضحاك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا آذاه الكفار يقعد اليهما فيتروح بكلامهما فقال المشركون انما يتعلم محمد منهما وقال الفراء قال المشركون

(والذين هم به مشركون) الضمير يعود الى ربهم أو الى الشيطان أى بسببه (واذا بدلنا آية مكان آية) تبديل الآية مكان الآية هو النسخ والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة رآها وهو معنى ١٧٧ قوله (والله أعلم بما ينزل) وبالتخفيف مكى وأبو عمرو (قالوا انما أنت مفتر) هو جواب اذا وقوله والله أعلم بما ينزل اعتراض كانوا يقولون ان محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا فيأتيهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق (بل أكثرهم لا يعلمون) الحكمة فى ذلك (قل نزله روح القدس) اى جبريل عليه السلام أضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد والمقدس المطهر من المآثم (من ربك) من عنده وأمره (بالحق) حال اى نزله ملتبسا بالحكمة (ليثبت الذين آمنوا) ليبلوهم بالنسخ حتى اذا قالوا فيه هو الحق من ربنا والحكمة لانه حكيم لا يفعل الا ما هو حكمة وصواب حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب (وهدى وبشرى) مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت والتقدير تثبيتا لهم وارشادا وبشارة (للمسلمين) وفيه تعريض بحصول اضداد هذه الخصال لغيرهم (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر) أرادوا به غلاما كان لحويطب قد أسلم وحسن اسلامه اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب أو هو جبر غلام رومى لعامر بن الحضرمى او عبدان جبر ويسار كانا يقرآن التوراة والانجيل فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ما يقرآن او سلمان الفارسى

يميلون قولهم عن الاستقامة اليه لسان أعجمى غير بين وهذا القرآن لسان عربى مبين ذو بيان وفصاحة ردا لقولهم وابطالا لطعنهم وهذه الجملة أعنى لسان الذى يلحدون اليه أعجمى لا محل لها لانها مستأنفة جواب لقولهم واللسان اللغة ويقال ألحد القبر ولحده وهو ملحد وملحود اذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر فى شق منه ثم استعير لكل امالة عن الاستقامة فقالوا ألحد فلان فى قوله والحد فى دينه ومنه الملحد لانه أمال مذهبه عن الاديان كلها (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) أى القرآن (لا يهديهم الله) ما داموا مختارين الكفر (ولهم عذاب أليم) فى الآخرة على كفرهم (انما يفترى الكذب) على الله (الذين لا يؤمنون بآيات الله) أى انما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن لانه لا يترقب عقابا عليه وهو رد لقولهم انما أنت مفتر (وأولئك) اشارة الى الذين لا يؤمنون أى وأولئك (هم الكاذبون) على الحقيقة الكاملون فى الكذب لان تكذيب آيات الله أعظم الكذب او وأولئك هم الكاذبون فى قولهم انما أنت مفتر جوزوا ان يكون (من كفر بالله من بعد ايمانه) شرطا مبتدأ وحذف جوابه لان جواب من شرح دال عليه كأنه قيل من كفر بالله فعليهم غضب (الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) ساكن به

انما يتعلم محمد من عائش مملوك كان لحويطب بن عبد العزى كان نصرانيا وقد أسلم وحسن اسلامه وكان أعجميا وقيل هو عداس غلام عتبة بن ربيعة والحاصل ان الكفار اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا انما يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم انه يضيفها لنفسه ويزعم انه وحى من الله عز وجل وهو كاذب فى ذلك فأجاب الله عنه وأنزل هذه الآية تكذيبا لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب فقال تعالى (لسان الذى يلحدون اليه) يعنى يميلون ويشيرون اليه (أعجمى) يعنى هو أعجمى والاعجمى هو الذى لا يفصح فى كلامه وان كان يسكن البادية ومنه سمى زياد الاعجم لانه كان فى لسانه عجمة مع انه كان من العرب والعجمى منسوب الى العجم وان كان فصيحا بالعربية والاعرابى الذى يسكن البادية والعربى الذى يسكن الامصار من بلاد العرب وهو منسوب الى العرب (وهذا لسان عربى مبين) يعنى بين الفصاحة والبلاغة ووجه الجواب هو ان الذى يشيرون اليه رجل أعجمى فى لسانه عجمة تمنعه من الاتيان بفصيح الكلام ومحمد صلى الله عليه وسلم جاءكم بهذا القرآن الفصيح الذى عجزتم أنتم عنه وأنتم أهل الفصاحة والبلاغة فكيف يقدر من هو أعجمى على مثله وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذى يشيرون اليه فثبت بهذا البرهان ان الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحى أوحاه الله اليه وليس هو من تعليم الذى يشيرون اليه ولا هو أتى به من تلقاء نفسه بل هو وحى من الله عز وجل اليه وروى ان الرجل الذى كانوا يشيرون اليه أسلم وحسن اسلامه (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) يعنى لا يصدقون انها من عند الله (لا يهديهم الله) يعنى لا يرشدهم ولا يوفقهم للايمان (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة ثم أخبر الله سبحانه وتعالى ان الكفار هم المفترون فقال تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) يعنى انما يقدم على فرية الكذب من لا يؤمن بآيات الله فهو رد لقول كفار قريش انما أنت مفتر (وأولئك هم الكاذبون) يعنى فى قولهم انما يعلمه بشر لا محمد صلى الله عليه وسلم فان قلت قد قال تبارك وتعالى انما يفترى الكذب فما معنى قوله تعالى وأولئك هم الكاذبون والثانى هو الاول قلت قوله سبحانه وتعالى انما يفترى الكذب أخبار عن حال قولهم وقوله وأولئك هم الكاذبون نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره كذبت وأنت كاذب أى كذبت فى هذا القول ومن عادتك الكذب وفى الآية دليل على ان الكذب من أفحش الذنوب الكبار لان الكاذب المفترى هو الذى لا يؤمن بآيات الله روى البغوى باسناد الثعلبى عن عبد الله بن جراد قال قلت يا رسول الله المؤمن يزنى قال قد يكون ذلك قلت المؤمن يسرق قال قد يكون ذلك قلت المؤمن يكذب قال لا قال الله تعالى انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله قوله تعالى (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) نزلت فى عمار بن ياسر وذلك ان المشركين أخذوه وأباه ياسرا وامه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم ليرجعوا عن الاسلام فأما سمية أم عمار فانهم ربطوها بين بعيرين ووجئ قبلها بحربة فقتلت

وقتل زوجها ياسر فهما أول قتيلين قتلا في الاسلام وأما عمار فانه أعطاهم بعض ما أرادوا بلسانه مكرها قال قتادة أخذ بنو المغيرة عمارا وغطوه في بئر ميمون وقالوا له اكفر بمحمد فبايعهم على ذلك وقلبه كاره وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وراءك قال شر يا رسول الله نلت منك وذكرت آلهتهم فقال كيف وجدت قلبك قال مطمئنا بالايمان فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال ان عادوا لك فعد لهم بما قلت فنزلت هذه الآية وقال مجاهد نزلت في أناس من أهل مكة آمنوا فكتب اليهم بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ان هاجروا الينا فانا لا نراكم منا حتى تهاجروا فخرجوا يريدون المدينة فادركتهم قريش في الطريق ففتنوهم عن دينهم فكفروا كارهين وهذا القول ضعيف لان الآية مكية وكان هذا في أول الاسلام قبل ان يؤمروا بالهجرة وقال مقاتل نزلت في جبر مولى عامر بن الحضرمي أكرهه سيده على الكفر فكفر مكرها وقلبه مطمئن بالايمان ثم أسلم عامر بن الحضرمي مولى جبر وحسن اسلامه وهاجر الى المدينة والاولى أن يقال ان الآية عامة في كل من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان وان كان السبب خاصا فان قلت المكره على الكفر ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر فما معنى هذا الاستثناء في الا من أكره قلت المكره لما ظهر منه بعد الايمان ما شابه ما يظهر من الكافر طوعا صح هذا الاستثناء لهذه المشابهة والمشاكلة والله أعلم

(فصل) في حكم الآية قال العلماء يجب أن يكون الاكراه الذي يجوز له ان يتلفظ معه بكلمة الكفر ان يعذب بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل والضرب الشديد والايلامات القوية مثل التحريق بالنار ونحوه قال العلماء أول من أظهر الاسلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وأبو ياسر وأمه سمية فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله من أذى المشركين بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فمنعه قومه وعشيرته وأخذ الآخرون وألبسوا أدراع الحديد وأجلسوا في حر الشمس بمكة فاما بلال فكانوا يعذبونه وهو يقول أحد أحد حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه وقتل ياسر وسمية كما تقدم وقال خباب لقد أوقدوا الى نارا ما اطفاها الا ودك ظهري وأجمعوا على ان من أكره على الكفر لا يجوز له ان يتلفظ بكلمة تصريحا بل يأتي بالمعاريض وبما يوهم انه كفر فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الايمان غير معتقد ما يقوله من كلمة الكفر ولو صبر حتى قتل كان أفضل لان ياسرا وسمية قتلا ولم يتلفظا بكلمة الكفر ولان بلالا صبر على العذاب ولم يلم على ذلك قال العلماء من الافعال ما يتصور الاكراه عليها كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والميتة ونحوها فمن أكره بالسيف أو القتل على ان يشرب الخمر او يأكل الميتة او لحم الخنزير او نحوها جاز له ذلك لقوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقيل لا يجوز له ذلك ولو صبر كان أفضل ومن الافعال ما لا يتصور الاكراه عليه كالزنا لان الاكراه يوجب الخوف

(ولكن من شرح بالكفر صدرا) أي طاب به نفسا واعتقده (فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) وان يكون بدلا من الذين
لا يؤمنون بآيات الله على أن يجعل وأولئك هم الكاذبون اعتراضا بين البدل والمبدل منه والمعنى انما يفترى الكذب من
كفر بالله من بعد ايمانه واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء ثم قال ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من
الله وان يكون بدلا من المبتدا الذي هو أولئك أي ومن كفر بالله من بعد ايمانه هم الكاذبون أو من الخبر الذي هو الكاذبون
اى وأولئك هم من كفر بالله من بعد ١٨٠ ايمانه وان ينتصب على الذم روى ان ناسا من أهل مكة فتنوا فارتدوا وكان فيهم
من أكره فاجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للايمان منهم عمار واما أبواه ياسر وسمية فقد قتلا وهما أول قتيلين في الاسلام فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله يمسح عينيه وقال مالك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت وما فعل أبو عمار أفضل لان في الصبر على القتل اعزازا للاسلام (ذلك) اشارة الى الوعيد وهو لحوق الغضب والعذاب العظيم (بانهم استحبوا) آثروا (الحيوة الدنيا على الآخرة) اى بسبب ايثارهم الدنيا على الآخرة (وان الله لا يهدى القوم الكافرين) ما داموا مختارين للكفر (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فلا يتدبرون ولا يصغون الى المواعظ ولا يبصرون طريق الرشاد (وأولئك
هم الغافلون) اى الكاملون في الغفلة لان الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها
(لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ثم ان ربك) ثم يدل على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك (للذين هاجروا) من مكة أي انه
لهم لا عليهم يعني انه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محميا منفوعا غير مضرور (من
بعد ما فتنوا) بالعذاب والاكراه على الكفر فتنوا شامي أي بعد ما عذبوا المؤمنين ثم أسلموا (ثم جاهدوا) المشركين بعد
الهجرة (وصبروا) على الجهاد (ان ربك من بعدها) من بعد هذه الافعال وهي الهجرة والجهاد والصبر (لغفور) لهم
لما كان منهم من التكلم بكلمة الكفر تقية (رحيم) لا يعذبهم على ما قالوا في حالة الاكراه

الشديد وذلك يمنع انتشار الآلة فلا يتصور فيه الاكراه واختلف العلماء في طلاق
المكره فقال الشافعي رضي الله تعالى عنه وأكثر العلماء لا يقع طلاق المكره وقال أبو
حنيفة يقع حجة الشافعي ومن وافقه قوله سبحانه وتعالى لا اكراه في الدين ولا يمكن ان
يكون المراد نفي ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفي آثاره والمعنى انه لا أثر له ولا
عبرة به وقوله تعالى وقلبه مطمئن بالايمان فيه دليل على ان محل الايمان هو القلب
(ولكن من شرح بالكفر صدرا) يعني فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضي به
(فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) يعني في الآخرة (ذلك بانهم استحبوا الحيوة
الدنيا على الآخرة) يعني يكون ذلك الاقدام على الارتداد الى الكفر لاجل انهم استحبوا
الحياة الدنيا على الآخرة (وأن الله لا يهدى القوم الكافرين) يعني لا يرشدهم الى الايمان
ولا يوفقهم للعمل به (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) تقدم
تفسيره (وأولئك هم الغافلون) يعني عما يراد بهم من العذاب في الآخرة وهو قوله سبحانه
وتعالى (لا جرم انهم في الآخرة هم الخاسرون) يعني ان الانسان انما يعمل في الدنيا ليربح
في الآخرة فاذا دخل النار بان خسرانه وظهر غبنه لانه ضيع رأس ماله وهو الايمان
ومن ضيع رأس ماله فهو خاسر قوله عز وجل (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا)
يعني عذبوا ومنعوا من الدخول في الاسلام فتنهم المشركون (ثم جاهدوا وصبروا) عن
الايمان والهجرة والجهاد (ان ربك من بعدها) يعني من بعد الفتنة التي فتنوها (لغفور
رحيم) نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة وكان أخا أبي جهل من الرضاعة وقيل كان
أخاه لامه وفي أبي جندل بن سهيل بن عمرو والوليد بن الوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام وعبد
الله بن أسد الثقفي فتنهم المشركون وعذبوهم فاعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم
ثم انهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا وقال الحسن وعكرمة نزلت هذه الآية في عبد الله بن
أبي سرح كان قد أسلم وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فاستزله الشيطان فارتد ولحق
بدار الحرب فلما كان يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله فاستجاره عثمان وكان
أخاه لامه فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسلم وحسن اسلامه وهذا القول انما
يصح اذا قلنا ان هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة فتكون من الآيات المدنيات في السور
المكيات

المكيات والله أعلم بحقيقة ذلك قوله سبحانه وتعالى (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) يعني تخاصم وتحتج عن نفسها اي بما أسلفت من خير وشر اشتغلت بالمجادلة لا تتفرغ الى غيرها فان قلت النفس هي نفس واحدة وليس لها نفس أخرى فما معنى قوله كل نفس تجادل عن نفسها قلت ان النفس قد يراد بها بدن الانسان وقد يراد بها مجموع ذاته وحقيقته فالنفس الاولى هي مجموع ذات الانسان وحقيقته والنفس الثانية هي بدنه فهي عينها وذاتها أيضا والمعنى يوم يأتي كل انسان يجادل عن ذاته ولا يهمه غيره ومعنى هذه المجادلة الاعتذار بما لا يقبل منه كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك من الاعتذارات (وتوفى كل نفس ما عملت) يعني جزاء ما عملت في الدنيا من خير او شر (وهم لا يظلمون) يعني لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيأ بل يوفون ذلك كاملا من غير زيادة ولا نقصان روى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الاحبار خوفنا فقال يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لو وافيت القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لاتت عليك ساعات وأنت لا يهمك الا نفسك وان جهنم لتزفر زفرة ما يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل الا جثا على ركبتيه حتى ابراهيم خليل الرحمن يقول يارب لا أسألك الا نفسي وان تصديق ذلك فيما أنزل الله تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وروى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد فتقول الروح يارب لم تكن لي يد أبطش بها ولا رجل أمشي بها ولا عين أبصر بها ويقول الجسد يارب أنت خلقتني كالخشبة ليست لي يد أبطش بها ولا رجل أمشي بها ولا عين أبصر بها فجاء هذا الروح كشعاع النور فبه نطق لساني وبه أبصرت عيناي وبه مشت رجلاي فضرب الله لهما مثلا أعمى ومقعد دخلا حائطا يعني بستانا فيه ثمار فالاعمى لا يبصر الثمر والمقعد لا يناله فحمل الاعمى المقعد فأصابا من الثمر فعليهما العذاب قوله عز وجل (وضرب الله مثلا قرية) المثل عبارة عن قول في شئ يشبه قولا في شئ آخر بينهما مشابهة ليبين احدهما الآخر ويصوره وقيل هو عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان وهو أعم الالفاظ الموضوعة للمشابهة قال الامام فخر الدين الرازي المثل قد يضرب بشئ موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشئ موجودا أو لم يكن وقد يضرب بشئ موجود معين فهذه القرية التي ضرب الله بها هذا المثل يحتمل ان تكون شيأ مفروضا ويحتمل أن تكون قرية معينة وعلى التقدير الثاني فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة او غيرها والاكثرون من المفسرين على أنها مكة والاقرب انها غير مكة لانها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة وقال الزمخشري في كتابه الكشاف وضرب الله مثلا قرية أي جعل القرية التي هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته فيجوز ان تراد قرية مقدرة على هذه الصفة وان تكون في قرى الاولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة أنذارا من مثل عاقبتها وقال الواحدي ضرب المثل بيان المشبه والمشبه به وههنا ذكر المشبه به ولم يذكر المشبه لوضوحه عند المخاطبين والآية عند عامة المفسرين

(يوم تأتي) منصوب برحيم أو باذكر (كل نفس تجادل عن نفسها) وانما أضيفت النفس الى النفس لانه يقال لعين الشئ وذاته نفسه وفي نقيضه غيره والنفس الجملة كما هي فالنفس الاولى هي الجملة والثانية عينها وذاتها فكانه قيل يوم يأتي كل انسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول نفسي نفسي ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم هؤلاء أضلونا وربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا الآية والله ربنا ما كنا مشركين (وتوفى كل نفس ما عملت) تعطى جزاء عملها وافيا (وهم لا يظلمون) في ذلك (وضرب الله مثلا قرية) اي جعل القرية التي هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته فيجوز ان يراد قرية مقدرة على هذه الصفة وان تكون في قرى الاولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة انذارا من مثل عاقبتها

نازلة في أهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الامن والنعمة بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم فتقدير الآية ضرب الله مثلا القريتكم أي بين الله لها شبها ثم قال قرية فيجوز ان تكون القرية بدلا من مثلا لانها هي الممثل بها ويجوز أن يكون المعنى ضرب الله مثلا مثل قرية فحذف المضاف هذا قول الزجاج والمفسرون كلهم قالوا أرادوا بالقرية مكة يعنون انه أراد مكة في تمثيلها بقرية صفتها ماذكر وقال ابن الجوزي في هذه القرية قولان أحدهما انها مكة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور وهو الصحيح والثاني انها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع قاله الحسن وأقول هذه الآية نزلت بالمدينة في قول مقاتل وبعض المفسرين وهو الصحيح لان الله سبحانه وتعالى وصف هذه القرية بصفات ستة كانت هذه الصفات موجودة في أهل مكة فضربها الله مثلا لاهل المدينة يحذرهم أن يصنعوا مثل صنيعهم فيصيبهم ما أصابهم من الجوع والخوف ويشهد لصحة ماقلت ان الخوف المذكور في هذه الآية في قوله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف هو البعوث والسرايا التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعثها في قول جميع المفسرين لان النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالقتال وهو بمكة وانما أمر بالقتال لما هاجر الى المدينة فكان يبعث البعوث والسرايا الى حول مكة يخوفهم بذلك وهو بالمدينة والله أعلم بمراده وأما تفسير قوله تعالى وضرب الله مثلا قرية يعني مكة (كانت آمنة) يعني ذات أمن لايهاج أهلها ولا يغار عليهم (مطمئنة) يعني قارة بأهلها لايحتاجون الى الانتقال عنها للانتجاع كما كان يحتاج اليه سائر العرب (يأتيها رزقها رغدا) يعني واسعا (من كل مكان) يعني يحمل اليها الرزق والميرة من البر والبحر نظيره قوله سبحانه وتعالى يجبى اليه ثمرات كل شئ وذلك بدعوة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وهو قوله وارزق أهله من الثمرات (فكفرت) يعني هذه القرية والمراد أهلها (بأنعم الله) جمع نعمة والمراد بها سائر النعم التي أنعم الله بها على أهل مكة فلما قابلوا أنعم الله التي أنعم بها عليهم بالجحود والكفر لاجرم ان الله تعالى انتقم منهم فقال تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) وذلك ان الله سبحانه وتعالى ابتلاهم بالجوع سبع سنين فقطع عنهم المطر وقطعت عنهم العرب الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب والميتة والعهن وهو الوبر يعالج بالدم ويخلط به حتى يؤكل حتى كان أحدهم ينظر الى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ثم ان رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقالوا ماهذا هبك عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس في حمل الطعام اليهم وهم بعد مشركون والخوف يعني خوف بعوث النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه التي كان يبعثها للاغارة فكانت تطيف بهم وتغير على من حولهم من العرب فكان أهل مكة يخافونهم فان قلت الاذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما والاذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة ايقاعها عليه وهو أن اللباس لايذاق بل يلبس فيقال كساهم الله لباس الجوع أو يقال فاذاقهم الله طعم الجوع قلت قال صاحب الكشاف

(كانت آمنة) من القتل والسبي (مطمئنة) لايزعجها خوف لان الطمأنينة مع الامن والانزعاج والقلق مع الخوف (يأتيها رزقها رغدا) واسعا (من كل مكان) من كل بلد (فكفرت) أهلها (بأنعم الله) جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع او جمع نعم كبؤس وأبؤس (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف

أما الاذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس
الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر
الضرر والالم بما يدرك من طعم المر والبشع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس
ما غشي الانسان والتبس به من بعض الحوادث وأما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع
والخوف فلانه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل فاذاقهم ما غشيهم من
الجوع والخوف ثم ذكر بعده من علم المعاني والبيان ما يشهد بصحة ما قال وقال الامام
فخر الدين الرازي بجوابه من وجوه الاول ان الاحوال التي حصلت لهم عند الجوع
نوعان أحدهما ان المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون
الجوع والثاني ان ذلك الجوع كان شديدا كاملا فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات
فأشبه اللباس والحاصل انه حصل لهم في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه
الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فاذاقها الله لباس الجوع والخوف الوجه
الثاني ان التقدير ان الله عرفها أثر لباس الجوع والخوف الا انه تعالى عبر عن التعريف
بلفظ الاذاقة وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار
تقول ناظر فلانا وذق ما عنده قال الشاعر

ومن يذق الدنيا فاني طعمتها * وسيق الينا عذبها وعذابها

ولباس الجوع والخوف ما ظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغير
الحال وكسوف البال كما تقول تعرفت سوء أثر الجوع والخوف على فلان كذلك يجوز
أن تقول ذقت لباس الجوع والخوف على فلان الوجه الثالث أن يحمل لفظ الذوق
واللبس على المماسة فصار التقدير فأذاقها الله مساس الجوع والخوف ثم قال تعالى
(بما كانوا يصنعون) ولم يقل بما صنعت لانه أراد أهل القرية والمعنى فعلنا بهم ما فعلنا
بسبب ما كانوا يصنعون وهذا مثل أهل مكة لانهم كانوا في الامن والطمأنينة والخصب
ثم أنعم الله عز وجل عليهم بالنعمة العظيمة وهي ارسال محمد صلى الله عليه وسلم اليهم وهو
منهم فكفروا به وكذبوه وبالغوا في ايذائه وأرادوا قتله فاخرجه الله من بينهم وأمره
بالهجرة الى المدينة وسلط على أهل مكة البلاء والشدائد والجوع والخوف كل ذلك
بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروجه من بين أظهرهم قوله سبحانه
وتعالى (ولقد جاءهم) يعني أهل مكة (رسول منهم) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم يعرفون
نسبه ويعرفونه قبل النبوة وبعدها (فكذبوه فأخذهم العذاب) يعني الجوع والخوف
وقيل القتل يوم بدر والقول الاول أولى لما تقدم في الآية (وهم ظالمون) يعني كافرون
(فكلوا مما رزقكم الله) في المخاطبين بهذا قولان أحدهما انهم المسلمون وهو قول
جمهور المفسرين والثاني انهم هم المشركون من أهل مكة قال الكلبي لما اشتد الجوع
بأهل مكة كلم رؤساؤهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا انك انما عاديت الرجال فما
بال النساء والصبيان فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أن يحملوا الطعام اليهم
حكاه الواحدي وغيره والقول الاول هو الصحيح قال ابن عباس فكلوا يا معشر المؤمنين

بما كانوا يصنعون) الاذاقة
واللباس استعارتان والاذاقة
المستعارة موقعة على اللباس
المستعار ووجه صحة ذلك
ان الاذاقة جارية عندهم
مجرى الحقيقة لشيوعها في
البلايا والشدائد وما يمس الناس
منها فيقولون ذاق فلان البؤس
والضر واذاقه العذاب شبه
ما يدرك من أثر الضرر والالم بما
يدرك من طعم المر والبشع وأما
اللباس فقد شبه به لاشتماله على
اللابس ما غشي الانسان والتبس
به من بعض الحوادث واما ايقاع
الاذاقة على لباس الجوع والخوف
فلانه لما وقع عبارة عما يغشى
منهما ويلابس فكأنه قيل
فأذاقهم ما غشيهم من الجوع
والخوف (ولقد جاءهم رسول
منهم) اي محمد صلى الله عليه وسلم
(فكذبوه فأخذهم العذاب وهم
ظالمون) اي في حال التباسهم
بالظلم قالوا انه القتل بالسيف
يوم بدر وروى أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم وجه الى أهل مكة
في سني القحط بطعام ففرق فيهم
فقال الله لهم بعد ان أذاقهم
الجوع (فكلوا مما رزقكم الله
الله) على يدي محمد صلى الله عليه
وسلم

(حلالا طيبا) بدلا عما كنتم تأكلونه حراما خبيثا من الاموال المأخوذة بالغارات والغصوب وخبائث الكسوب (واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون) تطيعون او ان صح زعمكم انكم تعبدون الله بعبادة الآلهة لانها شفعاؤكم عنده ثم عدد عليهم محرمات الله ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم فقال (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) انما للحصر أى المحرم هذا دون البحيرة وأخواتها وباقى الآية قدمر تفسيره (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) ١٨٤ هو منصوب بلا تقولوا اى ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير استناد ذلك الوصف الى الوحى أو الى القياس المستنبط منه واللام مثلها فى قولك لا تقولوا لما أحل الله هو حرام وقوله (هذا حلال وهذا حرام) بدل من الكذب ولك ان تنصب الكذب بتصف وتجعل ما مصدرية وتعلق هذا حلال وهذا حرام بلا تقولوا اى ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام وهذا الوصف ألسنتكم الكذب اى ولا تحرموا ولا تحللوا لاجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول فى أفواههم لا لاجل حجة وبينة ولكن قول ساذج ودعوى بلا برهان وقوله تصف ألسنتكم الكذب من فصيح الكلام جعل قولهم كأنه عين الكذب فاذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولك وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر واللام فى (لتفتروا على الله الكذب) من التعليل الذى لا يتضمن معنى الغرض (ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم) هو خبر مبتدا محذوف أى منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعذابها عظيم (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) فى سورة الانعام يعنى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية (وما ظلمناهم) بالتحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فحرمنا عليهم عقوبة على معاصيهم (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) فى موضع الحال أى عملوا السوء جاهلين غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ومرادهم لذة الهوى لا عصيان المولى

مما رزقكم الله يريد الغنائم (حلالا طيبا) يعنى ان الله سبحانه وتعالى أحل الغنائم لهذه الامة وطيبها لهم ولم تحل لاحد قبلهم (واشكروا نعمت الله) يعنى التى أنعم بها عليكم (ان كنتم اياه تعبدون انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) تقدم تفسير هذه الآية وأحكامها فى سورة البقرة فلم نعده هنا وقوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) يعنى ولا تقولوا لاجل وصفكم الكذب (هذا حلال وهذا حرام) يعنى انكم تحلون وتحرمون لاجل الكذب لا لغيره فليس لتحليلكم وتحريمكم معنى وسبب الا الكذب فقط فلا تفعلوا ذلك قال مجاهد يعنى البحيرة والسائبة وقال ابن عباس يعنى قولهم ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وذلك ان العرب فى الجاهلية كانوا يحلون أشياء ويحرمون أشياء من عند أنفسهم وينسبون ذلك الى الله تعالى وهو قوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) يعنى لا تقولوا ان الله أمرنا بذلك فتكذبوا على الله لان وصفهم الكذب هو افتراء على الله ثم توعد المفترين للكذب فقال سبحانه وتعالى (ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) يعنى لا ينجون من العذاب وقيل لا يفوزون بخير لان الفلاح هو الفوز بالخير والنجاح ثم بين ان ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب فقال تعالى (متاع قليل) يعنى متاعهم فى الدنيا متاع قليل فانه لا بقاء له (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة (وعلى الذين هادوا) يعنى اليهود (حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) يعنى ما سبق ذكره وبيانه فى سورة الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية (وما ظلمناهم) يعنى بتحريم ذلك عليهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى انما حرمنا عليهم ما حرمنا بسبب بغيهم وظلمهم أنفسهم ونظيره قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وقوله تعالى (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) المقصود من هذه الآية بيان فضل الله وكرمه وسعة مغفرته ورحمته لان السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصى وكل ما لا ينبغى وكل من عمل السوء فانما يفعله بالجهالة لان العاقل لا يرضى بفعل القبيح فمن صدر عنه فعل قبيح من كفر أو معصية فانما يصدر عنه بسبب جهله اما بجهله بقدر ما يترتب عليه من العقاب أو لجهله بقدر من يعصيه فثبت بهذا ان فعل السوء انما يفعل بجهالة ثم ان الله تعالى وعد من

عمل

(ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها) من بعد التوبة (لغفور) بتكفير ما كثر واقبل من الجرائم (رحيم) بتوثيق ما وثقوا به من العزائم (ان ابراهيم كان أمة) انه كان وحده أمة من الامم ١٨٥ لكماله في جميع صفات الخير كقوله

ليس على الله بمستنكر

ان يجمع العالم في واحد

وعن مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفارا أو كان أمة بمعنى مأموم يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير (قانتا لله) هو القائم بما أمره الله وقال ابن مسعود رضي الله عنه ان معاذا كان أمة قانتا لله فقيل له انما هو ابراهيم عليه السلام فقال الامة الذي يعلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله وكان معاذ كذلك وقال عمر رضي الله عنه لو كان معاذ حيا لاستخلفته فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أبو عبيدة أمين هذه الامة ومعاذ أمة لله قانت لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة الا المرسلون (حنيفا) مائلا عن الاديان الى ملة الاسلام (ولم يك من المشركين) نفى عنه الشرك تكذيبا لكفار قريش لزعمهم انهم على ملة أبيهم ابراهيم وحذف النون للتشبيه بحروف اللين (شاكرا لانعمه) روى انه كان لا يتغدى الامع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فأخر غداءه فاذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخيلوا له أن بهم جذاما فقال الآن وجبت مؤاكلتكم شكرا لله على أنه عافاني وابتلاكم (اجتباه) اختصه واصطفاه للنبوة (وهداه الى صراط مستقيم) الى ملة الاسلام (وآتيناه في الدنيا حسنة) نبوة وأموالا وأولادا أو تنويه الله بذكره فكل أهل دين يتولونه أو قول المصلي منا كما صليت على ابراهيم (وانه في الآخرة لمن الصالحين) لمن أهل الجنة

عمل سوأ بجهالة ثم تاب وأصلح العمل في المستقبل أن يتوب عليه ويرحمه وهو قوله تعالى (ثم تابوا من بعد ذلك) يعني من بعد عمل ذلك السوء (وأصلحوا) يعني أصلحوا العمل في المستقبل وقيل معنى الاصلاح الاستقامة على التوبة (ان ربك من بعدها) يعني من بعد عمل السوء بالجهالة والتوبة منه (لغفور) يعني لمن تاب وآمن (رحيم) يعني بجميع المؤمنين والتائبين قوله سبحانه وتعالى (ان ابراهيم كان أمة) حكى ابن الجوزي عن ابن الانباري انه قال هذا مثل قول العرب فلان رحمة وفلان علامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث قصد التناهي في المعنى الذي يصفونه به والعرب توقع الاسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد كقوله تبارك وتعالى فنادته الملائكة وانما ناداه جبريل وحده وانما سمي ابراهيم صلى الله عليه وسلم أمة لانه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير والاخلاق الحميدة ما اجتمع في أمة ومنه قول الشاعر

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

ثم للمفسرين في معنى هذه اللفظة أقوال أحدها قول ابن مسعود الامة معلم الخير يعني انه كان معلما للخير يأتم به أهل الدنيا الثاني قال مجاهد انه كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار فلهذا المعنى كان أمة وحده ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله أمة وحده وانما قال فيه هذه المقالة لانه كان قد فارق الجاهلية وما كانوا عليه من عبادة الاصنام الثالث قال قتادة ليس من اهل دين الا وهم يتولونه ويرضونه وقيل الامة فعلة بمعنى مفعول وهو الذي يؤتم به وكان ابراهيم عليه السلام اماما يقتدى به دليله قوله سبحانه وتعالى اني جاعلك للناس اماما وقيل انه عليه السلام هو السبب الذي لاجله جعلت أمته ومن تبعه ممتازين عمن سواهم بالتوحيد لله والدين الحق وهو من باب اطلاق المسبب على السبب وقيل انما سمي ابراهيم عليه السلام أمة لانه قام مقام أمة في عبادة الله (قانتا لله) يعني مطيعا لله وقيل هو القائم بأوامر الله (حنيفا) مسلما يعني مقيما على دين الاسلام لا يميل عنه ولا يزول وهو أول من اختتن وضحى وأقام مناسك الحج (ولم يك من المشركين) يعني أنه عليه السلام كان من الموحدين المخلصين من صغره الى كبره (شاكرا لانعمه) يعني انه كان شاكرا لله على أنعمه التي أنعم بها عليه (اجتباه) أي اختاره لنبوته واصطفاه لخلته (وهداه الى صراط مستقيم) يعني هداه الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين القويم (وآتيناه في الدنيا حسنة) يعني الرسالة والخلة وقيل هي لسان الصدق والثناء الحسن والقبول العام في جميع الامم فان الله حببه الى جميع خلقه فكل أهل الاديان يتولونه المسلمون واليهود والنصارى ومشركو العرب وغيرهم وقيل هو قول المصلي في التشهد اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل انه آتاه أولادا أبرارا على الكبر (وانه في الآخرة لمن الصالحين) يعني في أعلى مقامات الصالحين في الجنة وقيل معناه وانه في الآخرة لمع

الصالحين يعني الانبياء في الجنة فتكون من بمعنى مع ولما وصف الله عزوجل ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات الشريفة العالية أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعه فقال تعالى (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم) يعني دينه وما كان عليه من الشريعة والتوحيد قال أهل الاصول كان النبي صلى الله عليه وسلم مأمورا بشريعة ابراهيم الا مانسخ منها ومالم ينسخ صار شرعا له وقال أبو جعفر الطبري أمره باتباعه في التبري من الاوثان والتدين بدين الاسلام وهو قوله (حنيفا) مسلما (وما كان من المشركين) تقدم تفسيره وقوله تعالى (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) يعني انما فرض تعظيم السبت على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال أمرهم موسى بتعظيم يوم الجمعة فقال تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوما فاعبدوه في يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيأ من صنعتكم وستة أيام لصنعتكم فأبوا عليه وقالوا لا نريد الا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل ذلك اليوم عليهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضا بيوم الجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا يعنون اليهود فاتخذوا الاحد فأعطى الله عزوجل الجمعة لهذه الامة فقبلوها فبورك لهم فيها (ق) عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا فاختلفوا فيه وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع فغدا لليهود وبعد غد للنصارى وفي رواية لمسلم نحن الآخرون الاولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة وفي رواية أخرى له قال أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وللنصارى يوم الاحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والاحد وكذلك هم لنا تبع يوم القيامة نحن الآخرون في الدنيا الاولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم قال العلماء في معنى الحديث نحن الآخرون في الزمان والوجود السابقون في الفضل ودخول الجنة فتدخل هذه الامة الجنة قبل سائر الامم وقوله بيد أنهم يعني غير أنهم أو الا أنهم وقوله فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له قال القاضي عياض الظاهر أنه فرض عليهم تعظيم يوم الجمعة بغير تعيين ووكل الى اجتهادهم لاقامة شرائعهم فيه فاختلف أحبارهم في تعيينه ولم يهدهم الله له وفرضه على هذه الامة مبينا ولم يكلهم الى اجتهادهم ففازوا بفضيلته قال يعني القاضي عياضا وقد جاء أن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وأعلمهم بفضله فناظروه أن السبت أفضل فقيل له دعهم قال القاضي ولو كان منصوصا عليه لم يصح اختلافهم فيه بل كان يقول خالفوا فيه قال الشيخ محيي الدين النووي ويمكن أن يكونوا أمروا به صريحا ونص على عينه فاختلفوا فيه هل يلزم تعيينه أم لهم ابداله فابدلوه وغلطوا في ابداله قال الامام فخر الدين الرازي في قوله تعالى على الذين اختلفوا فيه يعني على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت فاختلافهم في السبت كان اختلافا على

(ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) في ثم تعظيم منزلة نبينا عليه السلام واجلال محله والايذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة اتباع رسولنا ملته (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) أي فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه

بينهم فى ذلك اليوم أى لاجله وليس معنى قوله اختلفوا فيه ان اليهود اختلفوا فمنهم من قال بالسبت ومنهم من لم يقل به لأن اليهود اتفقوا على ذلك وزاد الواحدى على هذا فقال وهذا انما أشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم معنى الاختلاف فى السبت ان بعضهم قال هو أعظم الايام حرمة لان الله فرغ فيه من خلق الاشياء وقال الآخرون بل الاحد أفضل لان الله سبحانه وتعالى ابتدأ فيه بخلق الاشياء وهذا غلط لان اليهود لم يكونوا فريقين فى السبت وانما اختار الاحد النصارى بعدهم بزمان طويل فان قلت ان اليهود انما اختاروا السبت لان أهل الملل اتفقوا على ان الله خلق الخلق فى ستة أيام وبدأ بالخلق والتكوين فى يوم الاحد وتم الخلق يوم الجمعة وكان يوم السبت يوم فراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا فى ترك العمل فى هذا اليوم فاختاروا السبت لهذا المعنى وقالت النصارى انما بدأ بخلق الاشياء فى يوم الاحد فنحن نجعل هذا اليوم عيدا لنا وهذان الوجهان معقولان فما وجه فضل يوم الجمعة حتى جعله أهل الاسلام عيدا قلت يوم الجمعة أفضل الايام لان كمال الخلق وتمامه كان فيه وحصول التمام والكمال يوجب الفرح والسرور فجعل يوم الجمعة عيدا بهذا الوجه وهو أولى ووجه آخر وهو ان الله عز وجل خلق فيه أشرف خلقه وهو آدم عليه السلام وهو أبو البشر وفيه تاب عليه فكان يوم الجمعة أشرف الايام لهذا السبب ولان الله سبحانه وتعالى اختار يوم الجمعة لهذه الامة وادخره لهم ولم يختاروا لانفسهم شيأ وكان ما اختاره الله لهم أفضل مما اختاره غيرهم لانفسهم وقال بعض العلماء بعث الله موسى بتعظيم يوم السبت ثم نسخ بيوم الاحد فى شريعة عيسى عليه السلام ثم نسخ يوم السبت ويوم الاحد بيوم الجمعة فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فكان أفضل الايام يوم الجمعة كما ان محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء وفى معنى الآية قول آخر قال قتادة الذين اختلفوا فيه اليهود استحله بعضهم وحرمه بعضهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله انما جعل السبت أى وبال السبت ولعنته على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود فأحله بعضهم فاصطادوا فيه فلعنوا ومسخوا قردة وخنازير فى زمن داود عليه السلام وقد تقدمت القصة فى تفسير سورة الاعراف وبعضهم ثبت على تحريمه فلم يصطد فيه شيأ وهم الناهون والقول الاول أقرب الى الصحة وقوله تعالى (وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يعنى فى أمر السبت فيحكم الله بينهم يوم القيامة فيجازى المحقين بالثواب والمبطلين بالعقاب قوله عز وجل (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) يعنى ادع الى دين ربك يا محمد وهو دين الاسلام بالحكمة يعنى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهى الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة والموعظة الحسنة يعنى وادعهم الى الله بالترغيب والترهيب وهو انه لا يخفى عليهم انك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم (وجادلهم بالتى هى أحسن) يعنى بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف وقيل ان الناس اختلفوا وجعلوا ثلاثة أقسام

(وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) روى ان موسى عليه السلام أمرهم ان يجعلوا فى الاسبوع يوما للعبادة وأن يكون يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذى فرغ الله فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فهذا اختلافهم فى السبت لان بعضهم اختاروه وبعضهم اختاروا عليه الجمعة فأذن الله لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازى كل واحد من الفريقين بما هو أهله (ادع الى سبيل ربك) الى الاسلام (بالحكمة) بالمقالة الصحيحة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة (والموعظة الحسنة) وهى التى لا يخفى عليهم انك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها أو بالقرآن أى ادعهم بالكتاب الذى هو حكمة وموعظة حسنة والحكمة المعرفة بمراتب الافعال والموعظة الحسنة ان يخلط الرغبة بالرهبة والانذار بالبشارة (وجادلهم بالتى هى أحسن) بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة أو بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس ويجلو العقول وهو رد على من يأبى المناظرة فى الدين

القسم الاول هم العلماء الكاملون أصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثاقبة الذين يطلبون معرفة الاشياء على حقائقها فهؤلاء هم المشار اليهم بقوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة يعني ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الاشياء بحقائقها حتى ينتفعوا وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم القسم الثاني هم أصحاب الفطرة السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان فهم أوسط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله والموعظة الحسنة أي ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة والقسم الثالث هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار اليهم بقوله وجادلهم بالتي هي أحسن حتى ينقادوا الى الحق ويرجعوا اليه وقيل المراد بالحكمة القرآن يعني ادعهم بالقرآن الذي هو حكمة وموعظة حسنة وقيل المراد بالحكمة النبوة أي ادعهم بالنبوة والرسالة والمراد بالموعظة الحسنة الرفق واللين في الدعوة وجادلهم بالتي هي أحسن أي اعرض عن اذاهم ولا تقصر في تبليغ الرسالة والدعاء الى الحق فعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير هذا منسوخ بآية السيف (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) يعني انما عليك يا محمد تبليغ ما أرسلت به اليهم ودعاؤهم بهذه الطرق الثلاثة وهو أعلم بالفريقين الضال والمهتدي فيجازي كل عامل بعمله قوله سبحانه وتعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) نزلت هذه الآية بالمدينة في سبب شهداء أحد وذلك ان المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلى المسلمين يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين الا مثل به غير حنظلة بن أبي عامر الراهب وذلك أن أباه أبا عامر الراهب كان مع أبي سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك لئن أظهرنا الله عليهم لنربين على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وآذانه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تنزل في بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال اما انها لو أكلتها لم تدخل النار أبدا حمزة أكرم على الله من ان يدخل شيأ من جسده النار فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عمه حمزة نظر الى شيء لم ينظر الى شيء قط كان أوجع لقلبه منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فانك ما علمتك ما كنت الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرني ان أدعك حتى تحشر من أفواج شتى أما والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك فأنزل الله عز وجل وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نصبر وأمسك عما أراد وكفر عن يمينه عن أبي بن كعب قال لما كان يوم أحد أصيب من الانصار أربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الانصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم قال فلما كان يوم فتح مكة

(ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) اى هو أعلم بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) سمى الفعل الاول عقوبة والعقوبة هى الثانية لازدواج الكلام كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فالثانية ليست بسيئة والمعنى ان صنع بكم صنيع سوء من قتل او نحوه فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه روى ان المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم فرأى النبي عليه السلام حمزة مبقور البطن فقال أما والذى أحلف به لامثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراده ولا خلاف فى تحريم المثلة لورود الاخبار بالنهى عنها حتى بالكلب العقور

أنزل الله عز وجل وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين فقال رجل لا قريش بعد اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا عن القوم الا أربعة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وأما تفسير الآية فقوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به سمى الفعل الاول باسم الثانى للمزاوجة فى الكلام والمعنى ان صنع بكم سوء من قتل أو مثلة ونحوها فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه فهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها أمر الله برعاية العدل والانصاف فى هذه الآية فى باب استيفاء الحقوق يعنى ان رغبتم فى استيفاء القصاص فاقتصوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه فى عدل الله وشرعه ورحمته وفى الآية دليل على ان الاولى ترك استيفاء القصاص وذلك بطريق الاشارة والرمز والتعريض بان الترك أولى فان كان لا بد من استيفاء القصاص فيكون من غير زيادة عليه بل يجب مراعاة المماثلة ثم انتقل من طريق الاشارة الى طريق التصريح فقال تعالى (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) يعنى ولئن عفوتم وتركتم استيفاء القصاص وصبرتم كان ذلك العفو والصبر خيرا من استيفاء القصاص وفيه أجر للصابرين العافين

(فصل) اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة أم لا على قولين أحدهما انها نزلت قبل براءة فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقاتل من قاتله ولا يبدأ بالقتال ثم نسخ ذلك وأمر بالجهاد وهذا قول ابن عباس والضحاك فعلى هذا يكون معنى قوله ولئن صبرتم عن القتال فلما أعز الله الاسلام وكثر اهله أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالجهاد ونسخ هذا بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم الآية والقول الثانى انها محكمة وانها نزلت فيمن ظلم ظلامة فلا يحل له ان ينال من ظالمه أكثر مما نال منه الظالم وهذا قول مجاهد والشعبى والنخعى وابن سيرين والثورى قال بعضهم الاصح انها محكمة لان الآية واردة فى تعليم حسن الادب فى كيفية استيفاء الحقوق فى القصاص وترك التعدى وهو طلب الزيادة وهذه الاشياء لا تكون منسوخة فلا تعلق لها بالنسخ والله أعلم قوله عز وجل (واصبر وما صبرك الا بالله) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر وأعلمه ان صبره بتوفيقه ومعونته (ولا تحزن عليهم) يعنى على الكافرين واعراضهم عنك وقيل معنى الآية ولا تحزن على قتلى أحد وما فعل بهم فانهم أفضوا الى رحمة الله ورضوانه (ولا تك فى ضيق مما يمكرون) يعنى ولا يضيقن صدرك يا محمد بسبب مكرهم فان الله كافيك وناصرك عليهم قرئ فى ضيق بفتح الضاد وكسرها فقيل هما لغتان وقال أبو عمرو الضيق بالفتح الغم وبالكسر الشدة وقال أبو عبيد الضيق بالكسر فى قلة المعاش وفى المسكن وأما ما كان فى القلب والصدر فانه بالفتح وقال القتيبى الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين فعلى هذا يكون صفة كأنه قال سبحانه وتعالى ولا تك فى أمر ضيق من مكرهم قال الامام فخر الدين الرازى هذا الكلام من المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة فى الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا فى الصفة فكان المعنى فلا يكن الضيق حاصلا فيك الا ان الفائدة فى قوله ولا تك فى

(ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) الضمير فى لهو يرجع الى مصدر صبرتم والمراد بالصابرين المخاطبون اى ولئن صبرتم لصبركم خير لكم فوضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم لانهم صابرون على الشدائد ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (واصبر) أنت فعزم عليه بالصبر (وما صبرك الا بالله) اى بتوفيقه وتثبيته (ولا تحزن عليهم) على الكفار ان لم يؤمنوا او على المؤمنين وما فعل بهم الكفار فانهم وصلوا الى مطلوبهم (ولا تك فى ضيق مما يمكرون) ضيق مكى والضيق تخفيف الضيق أى فى أمر ضيق ويجوز أن يكونا مصدرين كالقيل والقول والمعنى ولا يضيقن صدرك من مكرهم فانه لا ينفذ عليك

ضيق هي ان الضيق اذا عظم وقوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل جانب كالقميص المحيط به فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ بهذا المعنى (ان الله مع الذين اتقوا) اي اتقوا المثلة والزيادة في القصاص وسائر المناهي (والذين هم محسنون) يعني بالعفو عن الجاني وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة يعني ان أردت أيها الانسان ان اكون معك بالعون والفضل والرحمة فكن من المتقين المحسنين وفي هذا اشارة الى التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله قال بعض المشايخ كمال الطريق صدق مع الحق وخلق مع الخلق وكمال الانسان ان يعرف الحق لذاته والخير لاجل أن يعمل به وقيل لهرم بن حيان عند الموت أوص فقال انما الوصية في المال ولا مال لي ولكني أوصيك بخواتيم سورة النحل والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة الاسراء)

(فصل في نزولها) قال ابن الجوزي هي مكية في قول الجماعة الا ان بعضهم يقول فيها مدني فروي عن ابن عباس انه قال هي مكية الا ثمان آيات من قوله سبحانه وتعالى وان كادوا ليفتنونك الى قوله نصيرا وهذا قول قتادة وقال مقاتل فيها من المدني وقل رب أدخلني مدخل صدق الآية وقوله تعالى ان الذين أوتوا العلم من قبله وقوله ان ربك أحاط بالناس وقوله تعالى وان كادوا ليفتنونك وقوله تعالى ولولا أن ثبتناك والتي تليها وهي مائة وعشر آيات وقيل واحدى عشرة آية وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة وستون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) روى ابن الجوزي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه سئل عن تفسير سبحان الله فقال تنزيه الله عن كل شئ هكذا ذكره بغير سند وقال النحويون سبحان اسم علم على التسبيح يقال سبحت الله تسبيحا فالتسبيح هو المصدر وسبحان الله علم للتسبيح وتفسير سبحان الله تنزيه الله عن كل سوء ونقيصة وأصله في اللغة التباعد فمعنى سبحان الله بعده وتنزاهته عن كل مالا ينبغي الذي أسرى يقال سرى به وأسرى به لغتان بعبده أجمع المفسرون والعلماء والمتكلمون ان المراد به محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلف أحد من الامة في ذلك وقوله بعبده اضافة تشريف وتعظيم وتبجيل وتفخيم وتكريم ومنه قول بعضهم

لا تدعني الا بيا عبدها • فانه أشرف أسمائي

قيل لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الدرجات العالية والرتب الرفيعة ليلة المعراج أوحى الله عز وجل اليه يا محمد بم شرفتك قال رب حيث نسبتني الى نفسك بالعبودية فأنزل الله سبحانه وتعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا فان قلت الاسراء لا يكون الا بالليل فما معنى ذكر الليل قلت أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير تقليل مدة الاسراء وانه أسرى به في بعض ليلة من مكة الى الشام مسيرة شهر أو أكثر فدل تنكير

الليل

(ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أي هو ولي الذين اجتنبوا السيئات وولي العاملين بالطاعات قيل من اتقى في أفعاله وأحسن في أعماله كان الله معه في أحواله ومعيته نصرته في المأمور وعصمته في المحظور

(سورة بني اسرائيل مكية) وهي مائة وعشر آيات بصري واحدى عشرة آية كوفي وشامي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبحان) تنزيه الله عن السوء وهو علم للتسبيح كعثمان للرجل وانتصابه بفعل مضمر متروك اظهاره تقديره اسبح الله سبحان ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسده ودل على التنزيه البليغ (الذي أسرى بعبده) محمد صلى الله عليه وسلم وسرى وأسرى لغتان (ليلا) نصب على الظرف وقيده بالليل والاسراء لا يكون الا بالليل للتأكيد أوليدل بلفظ التنكير على تقليل مدة الاسراء وانه اسرى به في بعض الليل من مكة الى الشام مسيرة أربعين ليلة

الليل على البعضية (من المسجد الحرام) قيل كان الاسراء من نفس مسجد مكة وفي حديث مالك بن صعصعة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر وذكر حديث المعراج وسيأتي بكماله فيما بعد وقيل عرج به من دار أم هانئ بنت أبي طالب وهي بنت عم أخت علي رضي الله تعالى عنه فعلى هذا أراد بالمسجد الحرام الحرم (الى المسجد الاقصى) يعني الى بيت المقدس سمي أقصى لبعده عن المسجد الحرام أولانه لم يكن حينئذ وراءه مسجد (الذي باركنا حوله) يعني بالانهار والاشجار والثمار وقيل سماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحي وقبلة الانبياء قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم واليه تحشر الخلق يوم القيامة فان قلت ظاهر الآية يدل على ان الاسراء كان الى بيت المقدس والاحاديث الصحيحة تدل على انه عرج به الى السماء فكيف الجمع بين الدليلين وما فائدة ذكر المسجد الاقصى فقط قلت قد كان الاسراء على ظهر البراق الى المسجد الاقصى ومنه كان عروجه الى السماء على المعراج وفائدة ذكر المسجد الاقصى فقط انه صلى الله عليه وسلم لو أخبر بصعوده الى السماء أولا لاشتد انكارهم لذلك فلما أخبر انه أسرى به الى بيت المقدس وبان لهم صدقه فيما أخبر به من العلامات التي فيه وصدقوه عليها أخبر بعد ذلك بعروجه الى السماء فجعل الاسراء الى المسجد الاقصى كالتوطئة لمعراجه الى السماء وقوله تعالى (لنريه من آياتنا) يعني من عجائب قدرتنا فقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة الانبياء وصلى بهم ورأى الآيات العظام فان قلت لفظة من في قوله من آياتنا تقتضي التبعيض وقال في حق ابراهيم عليه السلام وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وظاهر هذا يدل على فضيلة ابراهيم عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم ولا قائل به فما وجهه قلت ملكوت السموات والارض من بعض آيات الله أيضا ولآيات الله أفضل من ذلك وأكثر والذي أراه محمدا صلى الله عليه وسلم من آياته وعجائبه تلك الليلة كان أفضل من ملكوت السموات والارض فظهر بهذا البيان فضل محمد صلى الله عليه وسلم على ابراهيم صلى الله عليه وسلم (انه هو السميع) لاقواله ودعائه (البصير) لافعاله الحافظ له في ظلمة الليل وقت أسرائه وقيل انه هو السميع لما قالت له قريش حين أخبرهم بمسراه الى بيت المقدس البصير بما ردوا عليه من التكذيب وقيل انه هو السميع لاقوال جميع خلقه البصير بأفعالهم فيجازي كل عامل بعمله وحمله على العموم أولى

(فصل) في ذكر حديث المعراج وما يتعلق به من الاحكام وما قال العلماء فيه (ق) حدثنا قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسري به قال بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعا ومنهم من قال بين النائم واليقظان اذ أتاني آت فقد قال وسمعته يقول فشق ما بين هذه الى هذه فقلت للجارود وهو الى جنبي ما يعني به قال من ثغرة نحره الى شعرته وسمعته يقول من قصه الى شعرته فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة ايمانا فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض فقال له الجارود أهو البراق يا أبا حمزة قال

بالمسجد والتباسه به وعن ابن عباس رضي الله عنهما الحرم كله مسجد وقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فقد قال عليه السلام بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتاني جبريل بالبراق وقد عرج بي الى السماء في تلك الليلة وكان العروج به من بيت المقدس وقد أخبر قريشا عن عيرهم وعدد جمالها وأحوالها وأخبرهم أيضا بما رأى في السماء من العجائب وأنه لقي الانبياء عليهم السلام وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى وكان الاسراء قبل الهجرة بسنة وكان في اليقظة وعن عائشة رضي الله عنها انها قالت والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية مثله وعلى الاول الجمهور اذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم (الى المسجد الاقصى) هو بيت المقدس لانه لم يكن حينئذ وراءه مسجد (الذي باركنا حوله) يريد بركات الدين والدنيا لانه متعبد الانبياء عليهم السلام ومهبط الوحي وهو محفوف بالانهار الجارية والاشجار المثمرة (لنريه) أي محمدا عليه السلام (من آياتنا) الدالة على وحدانية الله وصدق نبوته برؤيته السموات وما فيها من الآيات (انه هو السميع) للاقوال (البصير) بالافعال ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل أسرى ثم باركنا ثم انه هو وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة

أنس ثم يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى
أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد
أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فاذا فيها آدم فقال هذا
أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح
ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد
قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فاذا بيحيى
وعيسى وهما ابنا الخالة قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قالا مرحبا
بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي الى السماء الثالثة فاستفتح قيل من هذا قال
جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء
ففتح فلما خلصت اذا يوسف قال هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا
بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل من هذا قال
جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء
ففتح فلما خلصت فاذا ادريس قال هذا ادريس فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال
مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل من
هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم
المجيء جاء فلما خلصت فاذا هرون قال هذا هرون فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال
مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل
من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قال مرحبا
به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فاذا موسى قال هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد
ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح فلما تجاوزت بكى قيل له ما يبكيك قال
أبكي لان غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي ثم صعد بي
الى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد
قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فاذا ابراهيم قال
هذا أبوك ابراهيم فسلم عليه قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح
والنبي الصالح ثم رفعت الى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر واذا ورقها مثل
آذان الفيلة قال هذه سدرة المنتهى فاذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران
ظاهران فقلت ما هذان يا جبريل قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران
فالنيل والفرات ثم رفع لي البيت المعمور ثم أتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من
عسل فأخذت اللبن فقال هي الفطرة أنت عليها وأمتك ثم فرضت علي الصلوات
خمسين صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى فقال بم أمرت قلت أمرت
بخمسين صلاة كل يوم قال ان أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم واني والله قد
جربت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله
التخفيف لامتك فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت

فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت الى
موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت
فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بخمس
صلوات كل يوم فرجعت الى موسى فقال بم أمرت قلت أمرت بخمس صلوات كل يوم
قال ان أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم واني قد جربت الناس قبلك وعالجت
بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك قال سألت ربي حتى
استحييت ولكن أرضى وأسلم قال فلما جاوزت نادى مناد امضيت فريضتي وخففت عن
عبادي زاد في رواية أخرى وأجزي بالحسنة عشرا وفي رواية أخرى بينا انا عند البيت بين
النائم واليقظان وفيه ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ ايمانا وحكمة وفيه فرفع الى
البيت المعمور فسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف
ملك اذا خرجوا لم يعودوا مرة أخرى (ق) عن أنس بن مالك قال كان أبوذر يحدث أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري
ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فأفرغها في صدري
ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي الى السماء فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن
السماء الدنيا افتح قال من هذا قال هذا جبريل قيل هل معك أحد قال نعم معي محمد صلى الله
عليه وسلم قال فأرسل اليه قال نعم فافتح ففتح قال فلما علونا السماء الدنيا فاذا رجل عن
يمينه أسودة وعن يساره أسودة قال فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى
فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم وهذه
الاسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والأسودة التي عن شماله
أهل النار فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى قال ثم عرج بي جبريل حتى
أتى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح
قال أنس بن مالك فذكر انه وجد في السموات آدم وادريس وعيسى وموسى وابراهيم
ولم يثبت كيف منازلهم غير انه ذكر انه قد وجد آدم في السماء الدنيا وابراهيم في السماء
السادسة قال فلما مر جبريل ورسول الله بادريس قال مرحبا بالنبي الصالح والاخ
الصالح قال ثم مر فقلت من هذا قال هذا ادريس قال ثم مررت بموسى فقال مرحبا
بالنبي الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا قال هذا موسى قال ثم مررت بعيسى
فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قلت من هذا قال هذا عيسى بن مريم قال
ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت من هذا قال هذا
ابراهيم قال ابن شهاب وأخبرني ابن حزم ان ابن عباس وأبا حبة الانصاري كانا يقولان
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف
الاقلام قال ابن حزم وأنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرض الله على
أمتي خمسين صلاة قال فرجعت بذلك حتى مررت بموسى فقال موسى ماذا فرض ربك على
أمتك قال قلت فرض عليهم خمسين صلاة قال لي موسى فراجع ربك فان أمتك لا تطيق

ذلك قال فراجعت ربي فوضع شطرها قال فرجعت الى موسى فأخبرته قال راجع ربك
فان أمتك لاتطيق ذلك قال فراجعت ربي فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول
لدى قال فرجعت الى موسى فقال راجع ربك فقلت قد استحييت من ربي قال ثم انطلق بي
جبريل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ماهي قال ثم ادخلت الجنة فاذا فيها
جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك (ق) عن شريك بن أبي نمر انه سمع أنس بن مالك يقول ليلة
اسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة انه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى
اليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال
آخرهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام
عينه ولا ينام قلبه وكذلك الانبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه
فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره الى لبته حتى فرغ
من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه
تور من ذهب محشوا ايمانا وحكمة فحشا به صدره ولغاديده يعني عروق حلقه ثم أطبقه
ثم عرج به الى السماء الدنيا فضرب بابا من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا فقال
جبريل قالوا ومن معك قال معي محمد قالوا وقد بعث اليه قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا
يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء ما يريد الله به في الارض حتى يعلمهم فوجد
في السماء الدنيا آدم عليه السلام فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه ورد عليه
السلام وقال مرحبا وأهلا يا بني نعم الابن أنت فاذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان
فقال ما هذان النهران يا جبريل قال هذان النيل والفرات عنصرهما ثم مضى به في
السماء فاذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فاذا هو مسك أذفر قال
ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك ثم عرج به الى السماء الثانية فقالت
الملائكة له مثل ما قالت له الاولى من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد
بعث اليه قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا ثم عرج به الى السماء الثالثة وقالوا له مثل ما قالت
الاولى والثانية ثم عرج به الى الرابعة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السماء الخامسة
فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السادسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السماء السابعة
فقالوا له مثل ذلك كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فاوعيت منهم ادريس في الثانية وهرون
في الرابعة وآخر في الخامسة ولم أحفظ اسمه وابراهيم في السادسة وموسى في السابعة
بتفضيل كلام الله فقال موسى رب لم أظن أن يرفع علي أحد ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه
الا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه قاب قوسين أو أدنى
فاوحى الله فيما اوحى اليه خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ثم هبط حتى بلغ موسى
فاحتبسه موسى فقال يا محمد ماذا عهد اليك ربك قال عهد الي خمسين صلاة كل يوم وليلة
قال ان أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبي صلى الله
عليه وسلم الى جبريل كأنه يستشيره في ذلك فاشار اليه جبريل ان نعم ان شئت فعلا به الى
الجبار تعالى فقال وهو مكانه يا رب خفف عنا فان أمتي لا تستطيع هذا فوضع عنه عشر

صلوات

صلوات ثم رجع الى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى الى ربه حتى صارت خمس صلوات
ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال يا محمد والله لقد راودت بنى اسرائيل قومى على أدنى
من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجسادا وقلوبا وأبدانا وأبصارا وأسماعا
فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل عليه
السلام ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال يارب ان أمتى ضعفاء
أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا فقال الجبار يا محمد قال لبيك
وسعديك قال انه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك فى أم الكتاب قال فكل حسنة
بعشر أمثالها فهى خمسون فى أم الكتاب وهى خمس عليك فرجع الى موسى فقال كيف
فعلت فقال خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها قال موسى قد والله راودت بنى
اسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ارجع الى ربك فليخفف عنك أيضا قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم يا موسى قد والله استحييت من ربى مما اختلفت اليه قال فاهبط باسم
الله فاستيقظ وهو فى المسجد الحرام هذا لفظ حديث البخارى وأدرج مسلم حديث
شريك عن أنس الموقوف عليه فى حديث ثابت البنانى المسند فذكر من أول حديث
شريك طرفا ثم قال وساق الحديث نحو حديث ثابت قال مسلم وقدم وأخر وزاد ونقص
وليس فى حديث ثابت من هذه الالفاظ الا ما نورده على نصه أخرجه مسلم وحده وهو
حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت
بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه
قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال فربطته بالحلقة التى يربط بها الانبياء قال
ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن
فاخترت اللبن فقال جبريل عليه السلام اخترت الفطرة قال ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح
جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث
اليه ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح
جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال
قد بعث اليه قال ففتح لنا فاذا أنا بابنى الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بى
ودعوا الى بخير ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل
قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بيوسف عليه
السلام فاذا هو قد أعطى شطر الحسن قال فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء
الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث
اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بادريس فرحب ودعا لى بخير قال الله تعالى ورفعناه
مكانا عليا ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل
ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهرون فرحب
ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء السادسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل
ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بى

ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابراهيم عليه السلام مسندا ظهره الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه ثم ذهب بى الى سدرة المنتهى واذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة فنزلت الى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك لا يطيقون ذلك فانى قد بلوت بنى اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى ربى فقلت يارب خفف على أمتى فحط عنى خمسا فرجعت الى موسى فقلت قد حط عنى خمسا قال ان أمتك لا تطيق ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربى تبارك وتعالى وبين موسى حتى قال يا محمد انهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيأ فان عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت الى موسى فاخبرته فقال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت قد رجعت الى ربى حتى استحييت منه هذه رواية مسلم وأخرجه الترمذى مختصرا وفيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بالبراق ليلة أسرى به ملجما مسرجا فاستصعب عليه فقال له جبريل أبمحمد تفعل هكذا ما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقا وأخرجه النسائى مختصرا والمعنى واحد وفى آخره قال فرجعت الى ربى فسألته التخفيف فقال انى يوم خلقت السموات والارض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فخمس بخمسين فقم بها أنت وأمتك فعرفت انها من أمر الله تعالى حتم فلم أرجع

(فصل) قال البغوى قال بعض أهل الحديث ما وجدنا للبخارى ومسلم فى كتابيهما شيأ لا يحتمل مخرجا الا حديث شريك بن أبى نمر عن أنس وأحال الامر فيه على شريك وذلك انه ذكر فيه ان ذلك كان قبل الوحى واتفق أهل العلم على ان المعراج كان بعد الوحى بنحو من اثنتى عشرة سنة وفيه ان الجبار تبارك وتعالى دنا فتدلى وذكرت عائشة ان الذى تدلى هو جبريل عليه السلام قال البغوى وهذا الاعتراض عندى لا يصح لان هذا كان رؤيا فى النوم أراه الله ذلك قبل أن يوحى اليه بدليل آخر الحديث فاستيقظ وهو فى المسجد الحرام ثم عرج به فى اليقظة بعد الوحى وقبل الهجرة بسنة تحقيقا لرؤياه التى رآها من قبل كما أنه رأى فتح مكة فى المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة ثم كان تحقيقها سنة ثمان ونزل قوله سبحانه وتعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله تعالى فى كتابه شرح مسلم قد جاء من رواية شريك فى هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم على ذلك بقوله فقدم وأخر وزاد ونقص منها قوله وذلك قبل أن يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه فان الاسراء أقل ما قيل فيه انه

كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا وقال الحربي كانت ليلة الاسراء ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة وقال الزهري كان ذلك بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين وقال ابن اسحق أسري به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام بمكة والقبائل قال الشيخ محيي الدين وأشبه الاقوال قول الزهري وابن اسحق وأما قوله في رواية شريك وهو نائم وفي الرواية الاخرى بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان فقد يحتج به من يجعلها رؤيا نوم ولا حجة فيه اذ قد يكون ذلك حالة أول وصول الملك اليه وليس في الحديث ما يدل على كونه نائما في القصة كلها هذا كلام القاضي عياض وهذا الذي قاله في رواية شريك وان أهل العلم قد أنكروها قد قاله غيره وقد ذكر البخاري في رواية شريك هذه عن أنس في كتاب التوحيد من صحيحه وأتى بالحديث مطولا قال الحافظ عبد الحق في كتابه الجمع بين الصحيحين بعد ذكر هذه الرواية هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبي نمر عن أنس قد زاد فيه زيادة مجهولة وأتى فيه بألفاظ غير معروفة وقد روى حديث الاسراء جماعة من الحفاظ المتقنين والائمة المشهورين كابن شهاب وثابت البناني وقتادة يعني عن أنس فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث قال والاحاديث التي تقدمت قبل هذا هي المعول عليها .

(فصل) في شرح بعض ألفاظ حديث المعراج وما يتعلق به كانت ليلة الاسراء قبل الهجرة بسنة يقال كانت في رجب ويقال في رمضان وقد تقدم زيادة على هذا القدر في الفصل الذي قبل هذا واختلف الناس في الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل انما كان ذلك في المنام والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة الخلف من المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسري بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد والاحاديث الصحيحة التي تقدمت تدل على صحة هذا القول لمن طالعها وبحث عنها وحكى محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن حذيفة انه قال كل ذلك كان رؤيا وانه ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما أسري بروحه وحكي هذا القول عن عائشة أيضا وعن معاوية نحوه والصحيح ما عليه جمهور العلماء من السلف والخلف والله أعلم قوله صلى الله عليه وسلم أتيت بالبراق هو اسم للدابة التي ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به واشتقاقه من البرق لسرعته أو لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألئه ونوره والحلقة باسكان اللام ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الاخذ بالاحتياط في الامور وتعاطي الاسباب وان ذلك لا يقدح في التوكل اذا كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءني جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار والتقدير وقال لي اختر فاخترت اللبن وقول جبريل اخترت الفطرة يعني فطرة الاسلام وجعل اللبن علامة للفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلا طيبا سائغا للشاربين وانه سليم العاقبة بخلاف الخمر فانها أم الخبائث وجالبة لانواع الشر قوله ثم عرج بنا

حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فيه بيان الادب لمن
استأذن وان يقول أنا فلان ولا يقول أنا فانه مكروه وفيه ان للسماء أبوابا وبوابين وان
عليها حرسا وقول بواب السماء وقد أرسل اليه وفي الرواية الاخرى وقد بعث اليه معناه
للاسراء وصعود السماء وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة فان ذلك
لا يخفى عليه الى هذه المدة هذا هو الصحيح في معناه وقيل غيره وقوله فاذا أنا بآدم وذكر
جماعة من الانبياء فيه استحباب لقاء أهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام
اللين الحسن وان كان الزائر أفضل من المزور وفيه جواز مدح الانسان في وجهه اذا
أمن عليه من الاعجاب وغيره من أسباب الفتنة وقوله فاذا أنا بابراهيم مسندا ظهره الى
البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد الى القبلة وتحويل ظهره اليها وقوله ثم
ذهب بي الى السدرة هكذا وقع في هذه الرواية السدرة بالالف واللام وفي باقي الروايات
الى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من المفسرين سميت بذلك لان علم الملائكة
ينتهي اليها ولم يجاوزها أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت
بذلك لكونها ينتهي اليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله عز وجل
وقوله واذا ثمرها كالقلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها وهي الجرة الكبيرة التي تسع
قربتين أو أكثر قوله فرجعت الى ربي قال الشيخ محيي الدين النووي معناه رجعت الى
الموضع الذي ناجيته فيه أولا فناجيته فيه ثانيا وقوله فلم ازل أرجع بين موسى وبين ربي
معناه وبين موضع مناجاة ربي عز وجل قلت وأما الكلام على معنى الرؤية وما يتعلق
بها فانه سيأتي ان شاء الله تعالى في تفسير سورة والنجم عند قوله تعالى ثم دنا فتدلى قوله
ففرض الله سبحانه وتعالى على أمتي خمسين صلاة الى قوله فوضع شطرها وفي الرواية
الاخرى فوضع عني عشرا وفي الاخرى خمسا ليس بين هذه الروايات منافاة لان المراد
بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه التنصيف واما رواية العشر فهي رواية
شريك ورواية الخمس رواية ثابت البناني وقتادة وهما أثبت من شريك فالمراد حط عني
خمسا الى آخره ثم قال هي خمس وهن خمسون يعني خمسين في الاجر والثواب لان الحسنة
بعشر أمثالها واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشيء قبل فعله وفي أول
الحديث انه شق صدره صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وقد شق أيضا في صغره وهو عند
حليمة التي كانت ترضعه فالمراد بالشق الثاني زيادة التطهير لما يراد به من الكرامة ليلة
المعراج وقوله أتيت بطست من ذهب قد يتوهم متوهم انه يجوز استعمال اناء الذهب
لنا وليس الامر كذلك لان هذا الفعل من فعل الملائكة وهو مباح لهم استعمال
الذهب أو يكون هذا قد كان قبل تحريمه وقوله ممتلئ ايمانا وحكمة فافرغها في صدري
فان قلت الحكمة والايمان معان والافراغ صفة الاجسام فما معنى ذلك قلت يحتمل انه
جعل في الطست شيء يحصل به كمال الايمان والحكمة وزيادتهما فسمي ايمانا وحكمة
لكونه سببا لهما وهذا من أحسن المجاز وقوله في صفة آدم عليه السلام فاذا رجل عن
يمينه أسودة وعن يساره أسودة هو جمع سواد وقد فسر في الحديث بانه نسم بنيه يعني

أرواح بنيه وقد اعترض على هذا بأن أرواح المؤمنين في السماء وأرواح الكفار تحت الارض السفلى فكيف تكون في السماء والجواب عنه بأنه يحتمل أن أرواح الكفار تعرض على آدم عليه السلام وهو في السماء فوافق وقت عرضها على آدم مرور النبي صلى الله عليه وسلم فاخبر بما رأى وقوله فاذا انظر عن يمينه ضحك واذا نظر عن شماله بكى فيه شفقة الوالد على أولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم وحزنه على سوء حال الكفار منهم وقوله في ادريس مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قد اتفق المؤرخون على ان ادريس هو أخنوخ وهو جد نوح عليهما السلام فيكون جد النبي صلى الله عليه وسلم كما ان ابراهيم جده فكان ينبغي أن يقول بالنبي الصالح والابن الصالح كما قال آدم وابراهيم عليهما الصلاة والسلام فالجواب عن هذا انه قيل ان ادريس المذكور هنا هو الياس وهو من ذرية ابراهيم فليس هو جد نوح هذا جواب القاضي عياض قال الشيخ محيي الدين ليس في الحديث ما يمنع كون ادريس أبا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وان قوله الاخ الصالح يحتمل أن يكون قاله تلطفا وتأدبا وهو أخ وان كان أبا لان الانبياء اخوة والمؤمنين اخوة والله أعلم

(فصل) في ذكر الآيات التي ظهرت بعد المعراج الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وسياق أحاديث تتعلق بالاسراء قال البغوي روى انه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به وكان بذي طوى قال يا جبريل ان قومي لا يصدقوني قال يصدقك أبو بكر وهو الصديق قال ابن عباس وعائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما كانت ليلة أسري بي الى السماء أصبحت بمكة فضقت بأمري وعرفت ان الناس يكذبوني فروى انه صلى الله عليه وسلم قعد معتزلا حزينا فمر به أبو جهل فجلس اليه فقال كالمستهزئ هل استفدت من شئ قال نعم اسري بي الليلة قال الى أين قال الى بيت المقدس قال أبو جهل ثم أصبحت بين اظهرنا قال نعم فلم ير أبو جهل أن ينكر ذلك مخافة ان يجحده الحديث ولكن قال أتحدث قومك بما حدثتني به قال نعم قال أبو جهل يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا فانقضت المجالس وجاؤا حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك بما حدثتني قال نعم اسري بي الليلة قالوا الى أين قال الى بيت المقدس قالوا ثم أصبحت بين أظهرنا قال نعم قال فبقي الناس بين مصفق وبين واضع يده على رأسه متعجبا وارتد أناس ممن كان قد آمن به وصدقه وسعى رجل من المشركين الى أبي بكر فقال له هل لك في صاحبك يزعم انه اسري به الليلة الى بيت المقدس قال أوقد قال ذلك قال نعم قال لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا أوتصدقه انه ذهب الى بيت المقدس وجاء في ليلة قبل أن يصبح قال نعم انى أصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فلذلك سمى أبو بكر الصديق قال وكان في القوم من أتى المسجد الاقصى قالوا هل تستطيع ان تنعت لنا المسجد قال نعم قال فذهبت انعت حتى التبس على قال فجئ بالمسجد وأنا انظر اليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وأنا انظر اليه فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب فيه ثم قالوا يا محمد اخبرنا عن عيرنا فهي أهم الينا هل لقيت منها شيأ قال نعم مررت بعير بني فلان وهي

بالروحاء وقد أضلوا بعيرا وهم في طلبه وفي رحالهم قدح من ماء فعطشت فاخذته فشربته ثم وضعته كما كان فسلوا اهل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا قالوا هذه آية قال ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان راكبان قعودا لهما بذي مر فنفر بعيرهما مني فرمي بفلان فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك قالوا وهذه آية أخرى قالوا فاخبرنا عن عيرنا قال مررت بها بالتنعيم قالوا فما عدتها واحمالها وهيئتها فقال كنت في شغل عن ذلك ثم مثلت له بعدتها واحمالها وهيئتها ومن فيها وكانوا بالحزورة قال نعم هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه آية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيأ وبينه حتى اتوا كداء فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه اذ قال قائل منهم هذه الشمس قد طلعت وقال آخر وهذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال فلم يؤمنوا وقالوا هذه سحر مبين (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم اثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط قال فرفعه الله لي انظر اليه ما يسألوني عن شيء الا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الانبياء فاذا موسى قائم يصلي فاذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة واذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي واذا ابراهيم قائم يصلي اشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلم عليه فالتفت اليه فبدأني بالسلام (ق) عن جابر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبتني قريش قمت الى الحجر فجلى الله الي بيت المقدس فطفقت اخبرهم عن آياته وانا انظر اليه زاد البخاري في رواية له لما كذبني قريش حين اسري بي الى بيت المقدس وذكر الحديث (م) عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت على موسى ليلة اسري بي عند الكثيب الاحمر فاذا هو قائم يصلي في قبره عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهينا الى بيت المقدس قال جبريل كذا باصبعه فخرق به الحجر وشد به البراق أخرجه الترمذي فان قلت كيف رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى يصلي في قبره وكيف صلى بالانبياء في بيت المقدس ثم وجدهم على مراتبهم في السموات وسلموا عليه ورحبوا به وكيف تصح الصلاة من الانبياء بعد الموت وهم في الدار الآخرة قلت أما صلاته صلى الله عليه وسلم بالانبياء في بيت المقدس يحتمل ان الله سبحانه وتعالى جمعهم له ليصلي بهم ويعرفوا بفضله وتقدمه عليهم ثم ان الله سبحانه وتعالى اراه اياهم في السموات على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وفضلهم واما مروره بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الاحمر فيحتمل انه كان بعد رجوعه من المعراج وأما صلاة الانبياء وهم في الدار الآخرة فهم في حكم الشهداء بل أفضل منهم وقد قال الله سبحانه وتعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء فالانبياء أحياء بعد الموت وأما حكم صلاتهم فيحتمل انها الذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة فان الله تعالى قال دعواهم فيها سبحانك اللهم وورد

وورد في الحديث انهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل ان في الملائكة و تعالى فهم يحفظون في الآخرة كما هم في الدنيا يحفظون لم يحجبها عنهم منزلته صلى الله عليه وسلم ا هـ

أظهرنا قال نعم قال فبقي الناس بين مصفق وبين واضع يده على رأسه متعجبا وارتد أناس ممن كان قد آمن به
وصدقه وسعى رجل من المشركين الى أبي بكر فقال له هل لك في صاحبك يزعم انه أسري به الليلة الى بيت
المقدس قال أوقد قال ذلك قال نعم قال لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا أوتصدقه أنه ذهب الى بيت المقدس
وجاء في ليلة قبل أن يصبح قال نعم اني أصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة
فلذلك سمي أبو بكر الصديق قال وكان في القوم من أتى المسجد الأقصى قالوا هل تستطيع أن تنعت لنا
المسجد قال نعم قال فذهبت أنعت حتى التبس علي قال فجيء بالمسجد وأنا أنظر اليه حتى وضع دون دار عقيل
فنعت المسجد وأنا أنظر اليه فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب فيه ثم قالوا يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهي
أهم الينا هل لقيت منها شيئا قال نعم مررت بعير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيرا لهم في طلبه وفي
رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته فشربته ثم وضعته كما كان فسلوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا
قالوا هذه آية قال ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان راكبان قعودا لهما بذي مر فنفر بعيرهما مني فرمى
بفلان فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك قالوا وهذه آية أخرى قالوا فأخبرنا عن عيرنا قال مررت بها بالتنعيم
قالوا فما عدتها وأحمالها وهيئتها فقال كنت في شغل عن ذلك ثم مثلت له بعدتها وأحمالها وهيئتها ومن فيها
وكانوا بالحزورة قال نعم هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان
تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه آية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد
شيأ وبينه حتى أتوا كداء فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه اذ قال قائل منهم هذه
الشمس قد طلعت وقال آخر وهذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال فلم يؤمنوا
وقالوا هذا سحر مبين (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيتني
في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت
مثلها قط قال فرفعه الله لي أنظر اليه ما يسألوني عن شيء الا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الانبياء فاذا
موسى قائم يصلي فاذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة واذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس به
شبها عروة بن مسعود الثقفي واذا ابراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه صلى الله عليه وسلم
فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلم عليه
فالتفت اليه فبدأني بالسلام (ق) عن جابر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبتني قريش قمت
الى الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه زاد البخاري في رواية له لما كذبني
قريش حين أسري بي الى بيت المقدس وذكر الحديث (م) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
أتيت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الاحمر فاذا هو قائم يصلي في قبره عن بريدة قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لما انتهينا الى بيت المقدس قال جبريل كذا باصبعه فخرق به الحجر وشد به البراق أخرجه
الترمذي (فان قلت) كيف رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى يصلي في قبره وكيف صلى بالانبياء في
بيت المقدس ثم وجدهم على مراتبهم في السموات وسلموا عليه ورحبوا به وكيف تصح الصلاة من الانبياء
بعد الموت وهم في الدار الآخرة (قلت) أما صلاته صلى الله عليه وسلم بالانبياء في بيت المقدس يحتمل ان الله
سبحانه وتعالى جمعهم له ليصلي بهم ويعرفوا فضله وتقدمه عليهم ثم ان الله سبحانه وتعالى أراه اياهم في
السموات على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وفضلهم وأما مروره بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب
الاحمر فيحتمل انه كان بعد رجوعه من المعراج وأما صلاة الانبياء وهم في الدار الآخرة فهم في حكم الشهداء
بل أفضل منهم وقد قال الله سبحانه وتعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء فالانبياء أحياء
بعد الموت وأما حكم صلاتهم فيحتمل انها الذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة فان الله تعالى قال دعواهم
فيها سبحانك اللهم وورد في الحديث انهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل ان الله سبحانه وتعالى
خصهم بخصائص في الآخرة كما خصهم في الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم منها أنه صلى الله عليه وسلم أخبر

آتينا موسى الكتاب وجعلناه) أى الكتاب وهو التوراة (هدى لبنى اسرائيل أن لا تتخذوا) أى لا تتخذوا وبالياء أبو عمرو أى لئلا يتخذوا (من دونى وكيلا) ربا تكلون اليه أموركم (ذرية من حملنا مع نوح) نصب على الاختصاص أو على النداء فيمن قرأ لا تتخذوا بالتاء على النهى أى قلنا لهم لا تتخذوا من دونى وكيلا يا ذرية من حملنا مع نوح (انه) ان نوحا عليه السلام (كان عبدا شكورا) فى السراء والضراء والشكر مقابلة النعمة بالثناء على المنعم وروى أنه كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس الا قال الحمد لله وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم اسوتهم وآية رشد الابناء صحة الاقتداء بسنة الآباء وقد عرفتم حال الآباء هنالك فكونوا أيها الابناء كذلك (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض) وأوحينا اليهم وحيا مقضيا أى مقطوعا مبتوتا بأنهم يفسدون فى الارض لا محالة والكتاب التوراة ولتفسدن جواب قسم محذوف أو جرى القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابا له كانه قال وأقسمنا لتفسدن فى الارض (مرتين) أولاهما قتل زكريا عليه السلام وحبس أرمياء عليه السلام حين أنذرهم سخط الله والاخرى قتل يحيى بن

زكريا عليهما السلام وقصد قتل عيسى عليه السلام (ولتعلن علوا كبيرا) ولتستكبرن عن طاعة الله من قوله ان فرعون علا فى الارض والمراد به البغى والظلم وغلبة المفسدين على المصلحين (فاذا جاء وعد أولاهما) أى وعد عقاب أولاهما (بعثنا عليكم) سلطنا عليكم (عبادا لنا أولى بأس شديد) أشداء فى القتال يعنى سنجاريب وجنوده أو بختنصر أو جالوت قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا (فجاسوا خلال الديار) ترددوا للغارة فيها قال الزجاج الجوس طلب الشئ بالاستقصاء (وكان وعدا مفعولا) وكان وعد العقاب وعدا لابد أن يفعل (ثم رددنا لكم الكرة) أى الدولة والغلبة (عليهم) على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد التى
والعلو وقيل هى قتل بختنصر واستنقاذ بنى اسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك اليهم وقيل أعدنا لكم الدولة بملك طالوت وقتل داود جالوت (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) مما كنتم وهو تمييز جمع نفر وهو من ينفر مع الرجل من قومه (ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها) قيل اللام بمعنى على كقوله وعليها ما اكتسبت والصحيح انها على بابها لان اللام للاختصاص والعامل مختص بجزاء عمله حسنة كانت أو سيئة يعنى ان الاحسان والاساءة تختص بأنفسكم لا يتعدى النفع والضرر الى غيركم وعن على رضى الله عنه ما أحسنت الى أحد ولا أسأت اليه وتلاها (فاذا جاء وعد الآخرة) وعد المرة الآخرة بعثناهم (ليسوؤا) أى هؤلاء (وجوهكم) وحذف لدلالة ذكره أولا عليه أى ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها كقوله سيئت وجوه الذين كفروا ليسوء شامى وحمزة وأبو بكر والضمير لله عز وجل أو للوعد أو للبعث لنسوء على (وليدخلوا المسجد) بيت المقدس (كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) ما علوا مفعول ليتبروا أى ليهلكوا كل شئ غلبوه واستولوا عليه أو بمعنى مدة علوهم

انه رآهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله أعلم بالحقائق قوله سبحانه وتعالى (وآتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (وجعلناه) يعنى الكتاب (هدى لبنى اسرائيل أن لا تتخذوا) يعنى وقلنا لهم لا تتخذوا (من دونى وكيلا) يعنى ربا كفيلا (ذرية) يعنى يا ذرية (من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا) يعنى ان نوحا كان كثير الشكر وذلك انه كان اذا أكل طعاما أو شرب شرابا أو لبس ثوبا قال الحمد لله فسماه الله عبدا شكورا لذلك قوله عز وجل (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب) يعنى أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب انهم سيفسدون وهو قوله تعالى (لتفسدن فى الارض مرتين) وقال ابن عباس وقضينا عليهم فى الكتاب فالى بمعنى على والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ واللام فى لتفسدن لام القسم تقديره والله لتفسدن فى الارض يعنى بالمعاصى والمراد بالارض أرض الشام وبيت المقدس (ولتعلن) يعنى ولتستكبرن ولتظلمن الناس (علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما) يعنى أولى المرتين قيل افسادهم فى المرة الاولى هو ما خالفوا من أحكام التوراة وركبوا من المحارم وقيل افسادهم فى المرة الاولى قتلهم شعياء فى الشجرة وارتكابهم المعاصى (بعثنا عليكم عبادا لنا) يعنى جالوت وجنوده وهو الذى قتله داود وقيل هو سنجاريب وهو من أهل نينوى وقيل هو بختنصر البابلى وهو الاصح (أولى بأس شديد) يعنى ذوى بطش وقوة فى الحرب (فجاسوا خلال الديار) يعنى طافوا بين الديار ووسطها يطلبونكم ليقتلوكم (وكان وعدا مفعولا) يعنى قضاء كائنا لازما لا خلف فيه (ثم رددنا لكم الكرة عليهم) يعنى رددنا لكم الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم من ذنوبكم ورجعتم عن الفساد (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) يعنى أكثر عددا (ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم) يعنى لها ثوابها وجزاء احسانها (وان أسأتم فلها) يعنى فعليها اساءتها (فاذا جاء وعد الآخرة) يعنى المرة الآخرة من افسادكم وهو قصدهم قتل عيسى فخلصه الله منهم ورفعه اليه وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام فسلط الله عليهم الفرس والروم فسبوهم وقتلوهم وهو قوله تعالى (ليسوؤا وجوهكم) يعنى ليحزنوكم وقرئ بالنون أى لنسوء الله وجوهكم (وليدخلوا المسجد) يعنى بيت المقدس ونواحيه (كما دخلوه أول مرة) يعنى وقت افسادهم الاول (وليتبروا ما علوا تتبيرا) يعنى وليهلكوا ما غلبوا عليه من بلاد بنى اسرائيل اهلاكا ﴿ذكر القصة فى هذه الآيات﴾ قال محمد بن اسحق كانت بنو اسرائيل فيهم الاحداث والذنوب وكان الله فى ذلك متجاوزا عنهم ومحسنا اليهم وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم ان ملكا منهم كان يدعى صديقة وكان الله اذا ملك عليهم الملك بعث معه نبيا ليسدده ويرشده ولا ينزل عليهم كتابا انما يؤمرون باتباع التوراة والاحكام

التي فيها فلما ملك صديقة بعث الله معه شعياء وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وشعياء هو الذي بشر بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم فقال أبشري أورشليم الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير فملك ذلك الملك يعني صديقة بني اسرائيل وبيت المقدس زمانا فلما انقضى ملكه عظمت الاحداث فيهم وكان معه شعياء فبعث الله سنجاريب ملك بابل ومعه ستمائة ألف راية فلم يزل سائرا حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض من قرحة كانت في ساقه فجاء شعياء النبي اليه وقال يا ملك بني اسرائيل ان سنجاريب ملك بابل قد نزل بك هو وجنوده بستمائة ألف راية وقد هابهم الناس وفرقوا منهم فكبر ذلك على الملك وقال يا نبي الله هل أتاك من الله وحي فيما حدث فتخبرنا به وكيف يفعل الله بنا وبسنجاريب وجنوده فقال شعياء لم يأتني وحي في ذلك فبينما هم على ذلك أوحى الله الى شعياء النبي أن ائت ملك بني اسرائيل فمره أن يوصي وصيته ويستخلف على ملكه من يشاء من أهل بيته فأتى شعياء ملك بني اسرائيل وقال ان ربك قد أوحى الي أن آمرك أن توصي وصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فانك ميت فلما قال ذلك شعياء لصديقة الملك أقبل على القبلة فصلى ودعا فقال وهو يبكي ويتضرع الى الله تعالى بقلب مخلص اللهم رب الارباب واله الآلهة يا قدوس يا متقدس يا رحمن يا رحيم يا رؤف يا من لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني اسرائيل وذلك كله كان منك وأنت أعلم به من سري وعلانيتي لك فاستجاب الله له وكان عبدا صالحا فأوحى الله الى شعياء ان يخبر صديقة ان ربه قد استجاب له ورحمه وأخر أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنجاريب فأتاه شعياء فأخبره فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن وخر ساجدا لله وقال الهي واله آبائي لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت أنت الذي تعطي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الاول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين أنت الذي أجبت دعوتي ورحمت تضرعي فلما رفع رأسه أوحى الله الى شعياء أن قل للملك صديقة فيأمر عبدا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى فيصبح وقد برأ ففعل ذلك فشفي فقال الملك لشعياء سل ربك أن يجعل لنا علما بما هو صانع بعدونا هذا قال الله لشعياء قل له اني قد كفيتك عدوك وأنجيتك منهم وانهم سيصبحون موتى كلهم الا سنجاريب وخمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر فلما أصبحوا جاء صارخ يصرخ على باب المدينة يا ملك بني اسرائيل ان الله قد كفاك عدوك فاخرج فان سنجاريب ومن معه هلكوا فخرج الملك والتمس سنجاريب فلم يوجد في الموتى فبعث الملك في طلبه فادركه الطلب في مغارة ومعه خمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر فجعلوهم في الجوامع ثم أتوا بهم الملك فلما رآهم خر ساجدا لله تعالى من حين طلعت الشمس الى العصر ثم قال لسنجاريب كيف رأيت فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون فقال سنجاريب قد أتاني خبر ربكم ونصره اياكم ورحمته التي يرحمكم بها قبل أن أخرج من بلادي فلم أطع مرشدا ولم يلقني في الشقوة الا قلة عقلي ولو سمعت أو عقلت ما غزوتكم فقال الملك صديقة الحمد لله رب العالمين الذي كفاناكم بما شاء وان ربنا لم يمتعك ومن معك لكرامتك عليه ولكنه انما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقوة في الدنيا وعذابا في الآخرة ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم فتنذروا من بعدكم ولولا ذلك لقتلك ومن معك ولدمك ودم من معك أهون على الله من دم قراد لو قتلت ثم ان ملك بني اسرائيل أمر أمير حرسه أن يقذف في رقابهم الجوامع ففعل وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وايلياء وكان يرزقهم في كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم فقال سنجاريب للملك صديقة القتل خير مما نحن فيه وما يفعل بنا فأمر بهم الى السجن فأوحى الله الى شعياء النبي أن قل لملك بني اسرائيل يرسل سنجاريب ومن معه لينذروا من وراءهم وليكرمهم وليحملهم حتى يبلغوا بلادهم فبلغ ذلك شعياء للملك ففعل وخرج سنجاريب ومن معه حتى قدموا بابل فلما قدم جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله تعالى بجنوده فقال له كهانه وسحرته يا ملك بابل قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحي الله الى نبيهم فلم تطعنا وهي أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم وكان أمر سنجاريب تخويفا للنبي

اسرائيل ثم كفاهم الله تعالى تذكرة وعبرة ثم ان سنجاريب لبث بعد ذلك سبع سنين ثم مات واستخلف
على ملكه بختنصر ابن ابنه فعمل بعمله وقضى بقضائه فلبث سبع عشرة سنة ثم قبض الله ملك بني اسرائيل
صديقة فمرج أمر بني اسرائيل وتنافسوا الملك حتى قتل بعضهم بعضا وشعياء نبيهم معهم لا يقبلون منه فلما
فعلوا ذلك قال الله لشعياء قم في قومك حتى أوحي على لسانك فلما قام أطلق الله لسانه بالوحي فقال يا سماء
استمعي ويا ارض أنصتي فان الله يريد أن يقص شأن بني اسرائيل الذين رباهم بنعمته واصطفاهم لنفسه
وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها فآوى شاردتها وجمع ضالتها وجبر
كسيرها وداوى مريضها وأسمن مهزولها وحفظ سمينها فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل
بعضها بعضا حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر اليه آخر فويل لهذه الامة الخاطئة الذين لا يدرون أنى جاءهم
الحين ان البعير مما يذكر وطنه فينتابه وان الحمار مما يذكر الآري الذي يشبع عليه فيراجعه وان الثور
مما يذكر المرج الذي سمن فيه فينتابه وان هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم الخير وهم أولو الالباب
والعقول ليسوا ببقر ولا حمير واني ضارب لهم مثلا فليسمعوه قل كيف ترون في أرض كانت خرابا زمانا
لا عمران فيها وكان لها رب حكيم قوي فأقبل عليها بالعمارة وكره أن تخرب أرضه وهو قوي أو يقال ضيع
وهو حكيم فأحاط عليها جدارا وشيد فيها قصرا وأنبط فيها نهرا وصف فيها غراسا من الزيتون والرمان والنخيل
والاعناب وألوان الثمار كلها وولى ذلك واستحفظه فيما ذا رأي وهمة حفيظا قويا أمينا فلما أطلعت جاء طلعها
خروبا فقالوا بئست الارض هذه فنرى أن يهدم جدارها وقصرها ويدفن نهرها ويقبض قيمها ويحرق
غراسها حتى تصير كما كانت أول مرة خرابا مواتا لا عمران فيها قال الله تعالى قل لهم الجدار ديني والقصر
شريعتي وان النهر كتابي وان القيم نبيي وان الغراس هم وان الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة
واني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم وانه مثل ضربته لهم يتقربون الي بذبح البقر والغنم وليس
ينالني اللحم ولا آكله ويدعون أن يتقربوا الي بالتقوى والكف عن ذبح الانفس التي حرمتها وأيديهم
مخضوبة منها وثيابهم متزملات بدمائها يشيدون لي البيوت مساجد ويطهرون أجوافها وينجسون
قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها ويزوقون لي المساجد ويزينونها ويخربون عقولهم وأخلاقهم ويفسدونها
فأي حاجة الي تشييد البيوت ولست أسكنها وأي حاجة الي تزويق المساجد ولست أدخلها انما أمرت
برفعها لاذكر وأسبح فيها يقولون صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تنور صلاتنا وتصدقنا فلم تزك صدقتنا
ودعونا بمثل حنين الحمام وبكينا بمثل عواء الذئاب في كل ذلك لا يستجاب لنا قال الله فاسألهم ما الذي يمنعني
أن أستجيب لهم ألست أسمع السامعين وأبصر الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين فكيف أرفع
صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور ويتقوون عليه بطعمة الحرام أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية الى
من يحاربني ويحادني وينتهك محارمي أم كيف تزكو عندي صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم
انما آجر عليها أهلها المغصوبين أم كيف أستجيب لهم دعاءهم وانما هو قولهم بألسنتهم والفعل من ذلك
بعيد وانما أستجيب للداعي اللين وانما أستمع قول المستضعف المسكين وان من علامة رضاي رضا المساكين
يقولون لما سمعوا كلامي وبلغتهم رسالتي انها أقاويل منقولة وأحاديث متواترة وتآليف مما تؤلف السحرة
والكهنة وزعموا انهم لو شاؤوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا ولو شاؤوا أن يطلعوا على علم الغيب بما توحي اليهم
الشياطين اطلعوا واني قد قضيت يوم خلقت السموات والارض قضاء أثبته وحتمته على نفسي وجعلت دونه
أجلا مؤجلا لا بد أنه واقع فان صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه أو في أي زمان يكون
وان كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاؤون فليأتوا بمثل هذه القدرة التي بها أمضيت فاني مظهره على الدين
كله ولو كره المشركون وان كانوا يقدرون على أن يؤلفوا ما يشاؤون فيؤلفوا مثل هذه الحكمة التي أدبر بها
ذلك القضاء ان كانوا صادقين واني قد قضيت يوم خلقت السماء والارض أن أجعل النبوة في الاجراء وأن
أجعل الملك في الرعاء والعز في الاذلاء والقوة في الضعفاء والغنى في الفقراء والعلم في الجهلة والحكمة في

الاميين فسالهم متى هذا ومن القائم بهذا ومن أعوان هذا الامر وأنصاره ان كانوا يعلمون وانى باعث لذلك
نبيا أميا ليس أعمى من عميان ولا ضالا من ضالين وليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الاسواق ولا متزين
بالفحش ولا قوال للخنا أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم أجعل السكينة لباسه والبر شعاره
والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته
والحق شريعته والهدى امامه والاسلام ملته وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأرفع
به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد العيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به
بين قلوب مختلفة وأهواء مشتتة وأمم متفرقة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر توحيدا لى وايمانا بى واخلاصا لى يصلون قياما وقعودا وركعا وسجودا ويقاتلون فى سبيلى
صفوفا وزحوفا ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتى ألهمهم التكبير والتوحيد والتسبيح
والتحميد والتهليل والمدحة والتمجيد لى فى مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم يكبرون
ويهللون ويقدسون على رؤس الاشراف يطهرون لى الوجوه والاطراف ويعقدون لى الثياب على
الانصاف قربانهم دماؤهم وأناجيلهم فى صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار ذلك فضلى أوتيه من أشاء
وأنا ذو الفضل العظيم فلما فرغ شعياء من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة فانفلقت له
فدخل فيها فأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم اياها فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى
قطعوها وقطعوه فى وسطها واستخلف الله على بنى اسرائيل بعد ذلك رجلا منهم يقال له ناشية بن أموص
وبعث لهم أرمياء بن حلقيا نبيا وكان من سبط هرون بن عمران وذكر ابن اسحق أنه الخضر واسمه أرمياء
سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهى تهتز خضراء فبعث الله أرمياء الى ذلك الملك ليسدده
ويرشده ثم عظمت الاحداث فى بنى اسرائيل وركبوا المعاصى واستحلوا المحارم فأوحى الله الى أرمياء ان
ائت قومك من بنى اسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمى وعرفهم بأحداثهم فقال أرمياء
يارب انى ضعيف ان لم تقونى عاجز ان لم تبلغنى مخذول ان لم تنصرنى . قال الله تعالى أولم تعلم ان الامور كلها
تصدر عن مشيئتى وان القلوب والالسنة بيدى أقلبها كيف شئت انى معك ولن يصل اليك شئ معى فقام
أرمياء فيهم ولم يدر ما يقول فألهمه الله عز وجل فى الوقت خطبة بليغة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب
المعصية وقال فى آخرها عن الله عز وجل وانى حلفت بعزتى لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولأسلطن عليهم
جبارا قاسيا ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ثم أوحى الله الى أرمياء
انى مهلك بنى اسرائيل بيافث ويافث من أهل بابل فسلط الله عليهم بختنصر فخرج فى ستمائة ألف راية
ودخل بيت المقدس بجنوده ووطئ الشأم وقتل بنى اسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس وأمر جنوده
أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ثم يقذفه فى بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملؤه ثم أمرهم أن يجمعوا من
فى بلدان بيت المقدس كلهم فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بنى اسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبى فلما
خرجت غنائم جنده وأراد أن يقسمها فيهم قالت له الملوك الذين كانوا معه أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم
بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بنى اسرائيل فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل
منهم أربعة غلمان وفرق من بقى من بنى اسرائيل ثلاث فرق ثلثا أقرهم بالشأم وثلثا سباهم وثلثا قتلهم
وذهب بأثاث بيت المقدس وبالصبيان السبعين الفا حتى أقدمهم بابل فكانت هذه الوقعة الاولى التى أنزل
الله عز وجل ببنى اسرائيل بظلمهم فذلك قوله سبحانه وتعالى فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى
بأس شديد يعنى بختنصر وأصحابه ثم ان بختنصر أقام فى سلطانه ما شاء الله ثم رأى رؤيا عجيبة اذ رأى شيأ
أصابه فأنساه الذى رأى فدعا دانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل وكانوا من ذرارى الانبياء وسألهم عنها
فقالوا أخبرنا بها نخبرك بتأويلها فقال ما أذكرها ولئن لم تخبرونى بها وبتأويلها لأنزعن أكتافكم فخرجوا
من عنده فدعوا الله وتضرعوا اليه فأعلمهم الله بالذى سألهم عنه فجاؤه فقالوا رأيت تمثالا قدماه وساقاه من

فخار وركبتاه وفخذاه من نحاس وبطنه من فضة وصدره من ذهب ورأسه وعنقه من حديد قال صدقتم
قالوا فبينما أنت تنظر اليه وقد أعجبك أرسل الله صخرة من السماء فدقته فهى التى أنستكها قال صدقتم
فما تأويلها قالوا تأويلها انك رأيت الملوك بعضهم كان ألين ملكا وبعضهم كان أحسن ملكا وبعضهم كان
أشد ملكا والفخار أضعفه ثم فوقه النحاس أشد منه ثم فوق النحاس الفضة أحسن من ذلك وأفضل والذهب
أحسن من الفضة وأفضل ثم الحديد ملكك فهو أشد وأعز مما قبله والصخرة التى رأيت أرسل الله من
السماء فدقته فنبي يبعثه الله من السماء فيدق ذلك أجمع ويصير الامر اليه ثم ان أهل بابل قالوا لبختنصر
أرأيت هؤلاء الغلمان من بنى اسرائيل الذين سألناك ان تعطيناهم ففعلت فانا قد أنكرنا نساءنا منذ كانوا
معنا لقد رأينا نساءنا انصرفت وجوههن عنا اليهم فأخرجهم من بين أظهرنا واقتلهم فقال شأنكم بهم فمن
أحب منكم أن يقتل من كان فى يده فليفعل فلما قربوهم للقتل بكوا وتضرعوا الى الله عز وجل وقالوا
يا ربنا أصابنا البلاء بذنوب غيرنا فوعدهم الله أن يحييهم فقتلوا الا من كان منهم مع بختنصر منهم دانيال
وحنانيا وعزاريا وميشائيل ثم لما أراد الله تعالى هلاك بختنصر انبعث فقال لمن فى يده من بنى اسرائيل
أرأيتم هذا البيت الذى خربت والناس التى قتلت منكم وما هذا البيت قالوا هو بيت الله وهؤلاء أهله
كانوا من ذرارى الانبياء فظلموا وتعدوا فسلطت عليهم بذنوبهم وكان ربهم رب السموات والارض ورب
الخلائق كلهم يكرمهم ويعزهم فلما فعلوا ما فعلوا أهلكهم وسلط عليهم غيرهم فاستكبر وتجبر وظن أنه
بجبروته فعل ذلك ببنى اسرائيل قال فاخبرونى كيف لى أن أطلع الى السماء العليا فأقتل من فيها واتخذها
لى ملكا فانى قد فرغت من أهل الارض قالوا ما يقدر عليها أحد من الخلائق قال لتفعلن أو لأقتلنكم عن
آخركم فبكوا وتضرعوا الى الله تعالى فبعث الله عز وجل عليه بقدرته بعوضة فدخلت منخره حتى عضت أم
دماغه فما كان يقر ولا يسكن حتى يوجأ له رأسه على أم دماغه فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة
على أم دماغه ليرى الله العباد قدرته ونجى الله من بقى من بنى اسرائيل فى يده وردهم الى الشأم فبنوا فيه
وكثروا حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه ويزعمون ان الله سبحانه وتعالى أحيا أولئك الذين قتلوا فلحقوا
بهم ثم انهم لما دخلوا الشأم دخلوها وليس معهم من الله عهد كانت التوراة قد احترقت وكان عزير من
السبايا الذين كانوا ببابل فلما رجع الى الشأم جعل يبكى ليله ونهاره وخرج عن الناس فبينما هو كذلك اذ
جاءه رجل فقال له يا عزير ما يبكيك قال أبكى على كتاب الله وعهده الذى كان بين أظهرنا الذى لا يصلح ديننا
وآخرتنا غيره قال أفتحب أن يرد اليك قال نعم قال ارجع فصم وتطهر وطهر ثيابك ثم موعدك هذا المكان غدا
فرجع عزير فصام وتطهر وطهر ثيابه ثم عمد الى المكان الذى وعده فجلس فيه فأتاه ذلك الرجل باناء فيه ماء
وكان ملكا بعثه الله اليه فسقاه من ذلك الاناء فمثلت التوراة فى صدره فرجع الى بنى اسرائيل فوضع لهم
التوراة فأحبوه حبا لم يحبوا حبه شيأ قط ثم قبضه الله تعالى وجعلت بنو اسرائيل بعد ذلك يحدثون الاحداث
ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الرسل ففريقا يكذبون وفريقا يقتلون حتى كان آخر من بعث اليهم من
أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وكانوا من بيت آل داود فزكريا مات وقيل قتل وقصدوا عيسى
ليقتلوه فرفعه الله من بين أظهرهم وقتلوا يحيى فلما فعلوا ذلك بعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له
خردوش فسار اليهم باهل بابل حتى دخل عليهم الشأم فلما ظهر عليهم أمر رأسا من رؤساء جنوده يقال
له بيورزاذان صاحب القتل فقال له انى قد كنت حلفت بالهى لئن أنا ظفرت على أهل بيت المقدس لاقتلنهم
حتى يسيل الدم فى وسط عسكرى الا أن لا أجد أحدا أقتله فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ثم ان
بيورزاذان دخل بيت المقدس فقام فى البقعة التى كانوا يقربون فيها قربانهم فوجد فيها دما يغلى فسألهم
عنه فقال يا بنى اسرائيل ما شأن هذا الدم يغلى أخبرونى خبره فقالوا هذا دم قربان لنا قربناه فلم يقبل منا
فلذلك يغلى ولقد قربنا القربان من ثمانمائة سنة فتقبل منا الا هذا فقال ما صدقتمونى فقالوا لو كان كأول
زماننا لتقبل منا ولكن قد انقطع منا الملك والنبوة والوحى فلذلك لم يقبل منا فذبح بيورزاذان منهم على

ذلك الدم سبعمائة وسبعين روحا من رؤسهم فلم يهدأ الدم فأمر بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فأمر بسبعة آلاف من شيبهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فلما رأى بيورزاذان أن الدم لا يهدأ قال لهم يا بني اسرائيل ويلكم أصدقوني واصبروا على أمر ربكم فقد طال ما ملكتم في الارض تفعلون ما شئتم قبل ان لا أترك منكم نافخ نار من ذكر ولا أنثى الا قتلته فلما رأوا الجهد وشدة القتل صدقوه الخبر فقالوا ان هذا دم نبي كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله تعالى فلو كنا أطعناه كنا أرشدنا وكان يخبرنا عن أمركم فلم نصدقه فقتلناه فهذا دمه فقال لهم بيورزاذان ما كان اسمه قالوا يحيى بن زكريا قال الآن صدقتموني لمثل هذا ينتقم ربكم منكم فلما علم بيورزاذان انهم صدقوه خر ساجدا وقال لمن حوله أغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان ههنا من جيش خردوش وخلا في بني اسرائيل ثم قال يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك ومن قتل منهم فاهدأ باذن ربك قبل أن لا أبقي من قومك أحدا الا قتلته فهدأ الدم باذن الله تعالى ورفع بيورزاذان عنهم القتل وقال آمنت بما آمنت به بنو اسرائيل وأيقنت أنه لا رب غيره وقال لبني اسرائيل ان خردوش أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره واني لا أستطيع أن أعصيه قالوا له افعل ما أمرت به فأمرهم فحفروا خندقا وأمرهم بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والابل والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم في العسكر وأمر بالقتلى الذين قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من المواشي فلم يظن خردوش الا أن ما في الخندق من دماء بني اسرائيل فلما بلغ الدم عسكره أرسل الى بيورزاذان أن ارفع عنهم القتل ثم انصرف الى بابل وقد أفنى بني اسرائيل أو كاد أن يفنيهم وهي الوقعة الاخيرة التي أنزل الله ببني اسرائيل في قوله لتفسدن في الارض مرتين فكانت الوقعة الاولى بختنصر وجنوده والاخرى خردوش وجنوده وكانت أعظم الوقعتين فلم تقم لهم بعد ذلك راية وانتقل الملك بالشام ونواحيها الى الروم واليونانيين الا أن بقايا بني اسرائيل كثروا وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك وكانوا في نعمة الى أن بدلوا وأحدثوا الاحداث فسلط الله عليهم ططوس بن اسبيانوس الرومي فخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم الملك والرياسة وضربت عليهم الذلة والمسكنة فليسوا في أمة الا وعليهم الصغار والجزية وبقي بيت المقدس خرابا الى خلافة عمر بن الخطاب فعمره المسلمون بأمره * وقيل في سبب قتل يحيى عليه السلام ان ملك بني اسرائيل كان يكرمه ويدني مجلسه وان الملك هوي بنت امرأته وقال ابن عباس ابنة أخيه فسأل يحيى تزويجها فنهاه عن نكاحها فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى وعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابا رقاقا حمرا وطيبتها وألبستها الحلي وأرسلتها الى الملك وأمرتها أن تسقيه فان هو راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته فاذا أعطاها ما سألت سألت رأس يحيى بن زكريا وأن يؤتى به في طست ففعلت فلما راودها قالت لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك قال فما تسأليني قالت رأس يحيى بن زكريا في هذا الطست فقال ويحك سليني غير هذا قالت ما أريد غير هذا فلما أبت عليه بعث فأتي برأسه حتى وضع بين يديه والرأس يتكلم تقول لا يحل لك فلما أصبح اذا دمه يغلي فأمر بتراب فألقي عليه فرقي الدم يغلي فلا زال يغلي ويلقى عليه التراب وهو يغلي حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يرقى ويغلي وسلط الله عليهم ملك بابل فخرب بيت المقدس وقتل سبعين ألفا حتى سكن دمه قوله عز وجل (عسى ربكم أن يرحمكم) يعني يا بني اسرائيل بعد انتقامه منكم فيرد الدولة اليكم (وان عدتم) أي الى المعصية (عدنا) أي الى العقوبة قال قتادة فعادوا فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم عليهم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أي سجنا ومحبسا من الحصر الذي هو مجلس الحبس وقيل فراشا من الحصير الذي يبسط ويفترش قوله تعالى (ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) أي الى الطريقة التي هي أصوب وقيل الى الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا اله الا الله (ويبشر) يعني القرآن (المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا) يعني الجنة (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) يعني النار في الآخرة (ويدع الانسان) أي على نفسه وماله وولده (بالشر) يعني قوله

(عسى ربكم ان يرحمكم) بعد المرة الثانية ان تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي (وان عدتم) مرة ثالثة (عدنا) الى عقوبتكم وقد عادوا فأعاد الله عليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الأتاوة عليهم وعن ابن عباس رضي الله عنهما سلط عليهم المؤمنون الى يوم القيامة (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) محبسا يقال للسجن محصر وحصير (ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها وهي توحيد الله والايمان برسله والعمل بطاعته أو للملة أو للطريقة (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) ويبشر حمزة وعلي (ان لهم) بأن لهم (أجرا كبيرا) أي الجنة (وأن الذين) وبأن الذين (لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا) أي أعددنا قلبت تاء (لهم عذابا أليما) يعني النار والآية ترد القول بالمنزلة بين المنزلتين حيث ذكر المؤمنين وجزاءهم والكافرين وجزاءهم ولم يذكر الفسقة (ويدع الانسان بالشر

عند الغضب اللهم اهلكه اللهم العنه ونحو ذلك (دعاءه بالخير) أى كدعائه ربه أن يهب له النعمة والعافية ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك ولكن الله لا يستجيب بفضله وكرمه (وكان الانسان عجولا) أى بالدعاء على ما يكره أن يستجاب له فيه وقال ابن عباس معناه ضجر الاصبر له على سراء ولا ضراء قوله سبحانه وتعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) أى علامتين دالتين على وحدانيتنا وقدرتنا وفى معنى الآية قولان أحدهما أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار وهو انه جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدنيا والدين أما فى الدين فلان كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير مع كونهما متعاقبين على الدوام ففيه أقوى دليل على ان لهما مدبرا يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة وأما فى الدنيا فلأن مصالح العباد لا تتم الا بهما ففى الليل يحصل السكون والراحة وفى النهار يحصل التصرف فى المعاش والكسب والقول الثانى أن يكون المراد وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر (فمحونا آية الليل) أى جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسا مظلما لا يستبان فيه شئ (وجعلنا آية النهار مبصرة) أى تبصر فيه الاشياء رؤية بينة قال ابن عباس جعل الله نور الشمس سبعين جزأ ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزأ فجعلها مع نور الشمس وحكى ان الله أمر جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور وسأل ابن الكواء عليا عن السواد الذى فى القمر فقال هو أثر المحو (لتبتغوا فضلا من ربكم) أى لتتوصلوا ببياض النهار الى استبانة أعمالكم والتصرف فى معايشكم (ولتعلموا) أى باختلاف الليل والنهار (عدد السنين والحساب) أى ما تحتاجون اليه منه ولولا ذلك لما علم أحد حساب الاوقات ولتعطلت الامور ولو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولم يدر الصائم متى يفطر ولم يعرف وقت الحج ولا وقت حلول الديون المؤجلة واعلم ان الحساب يبنى على أربع مراتب الساعات والايام والشهور والسنين فالعدد للسنين والحساب لما دونها من الشهور والايام والساعات وليس بعد هذه المراتب الاربعة الا التكرار (وكل شئ فصلناه تفصيلا) يعنى وكل شئ تفتقرون اليه من أمر دينكم ودنياكم قد بيناه بيانا شافيا واضحا غير ملتبس قيل انه سبحانه وتعالى لما ذكر أحوال آيتى الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان من الله تعالى على أهل الدنيا وكل ذلك تفصل منه فلا جرم قال وكل شئ فصلناه تفصيلا قوله عز وجل (وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه) قال ابن عباس عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان وقيل خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به وقيل ما من مولود الا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى أو سعيد وقيل أراد بالطائر ما قضى عليه انه عامله وما هو صائر اليه من سعادة أو شقاوة وقيل هو من قولك طار له سهم اذا خرج يعنى ألزمناه ما طار له من عمله لزوم القلادة أو الغل لا ينفك عنه والعنق فى قوله فى عنقه كناية عن اللزوم كما يقال جعلت هذا فى عنقك أى قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به وانما خص العنق من بين سائر الاعضاء لانه موضع القلائد والاطواق والغل مما يزين أو يشين فان كان عمله خيرا كان له كالقلادة أو الحلى فى العنق وهو مما يزينه وان كان عمله شرا كان له كالغل فى عنقه وهو ما يشينه ويخرج له بقوله تبارك وتعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) قيل بسطت للانسان صحيفتان ووكل به ملكان يحفظان عليه حسناته وسيآته فاذا مات طويت الصحيفتان وجعلتا معه فى عنقه فلا ينشران الى يوم القيامة (اقرأ كتابك) أى يقال له اقرأ كتابك قيل يقرأ يوم القيامة من لم يكن قارئا (كفى بنفسك اليوم

دعاءه بالخير) أى ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله وولده كما يدعوه لهم بالخير أو يطلب النفع العاجل وان قل بالضرر الآجل وان جل (وكان الانسان عجولا) يتسرع الى طلب كل ما يقع فى قلبه ويخطر بباله لا يتأنى فيه تأنى المتبصر أو أريد بالانسان الكافر وانه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير اذا مسته الشدة وكان الانسان عجولا يعنى ان العذاب آتيه لا محالة فما هذا الاستعجال وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو النضر بن الحرث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية فأجيب فضربت عنقه صبرا وسقوط الواو من يدع فى الخط على موافقة اللفظ (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) أى الليل والنهار آيتان فى أنفسهما فتكون الاضافة فى آية الليل وآية النهار للتبيين كاضافة العدد الى المعدود أى فمحونا الآية التى هى الليل وجعلنا الآية التى هى النهار مبصرة أو وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر فمحونا آية الليل التى هى القمر حيث لم يخلق له شعاعا كشعاع الشمس فترى الاشياء به رؤية بينة وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوئها كل شئ (لتبتغوا فضلا من ربكم) لتتوصلوا ببياض النهار الى التصرف فى معايشكم (ولتعلموا) باختلاف الجديدين (عدد السنين والحساب) يعنى حساب الآجال ومواسم الاعمال ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص المكتسبين والتجار (وكل شئ) مما تفتقرون اليه فى دينكم ودنياكم (فصلناه تفصيلا) بيناه بيانا غير ملتبس فأزحنا عللكم وما تركنا لكم حجة علينا (وكل انسان ألزمناه طائره) عمله (فى عنقه) يعنى أن عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل للعنق لا ينفك عنه (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه) هو صفة لكتابا يلقاه شاى (منشورا) حال من يلقاه يعنى غير مطوى لتمكنه قراءته أو هما صفتان للكتاب ويقول له (اقرأ كتابك) أى كتاب أعمالك وكل يبعث قارئا (كفى بنفسك اليوم

عليك

عليك حسيبا) أى محاسبا قال الحسن لقد عدل عليك ³ من جعلك حسيب نفسك وقيل يقول الكافر انك لست بظلام للعبيد فاجعلنى أحاسب نفسى فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا قوله سبحانه وتعالى (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) يعنى ان ثواب العمل الصالح مختص بفاعله وعقاب الذنب مختص بفاعله أيضا ولا يتعدى منه الى غيره وهو قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا تحمل حاملة ثقل أخرى من الآثام ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد بل كل أحد مختص بذنبه (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لاقامة الحجة وقطعا للعذر وفيه دليل على ان ما وجب انما وجب بالسمع لا بالعقل قوله سبحانه وتعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها) فى معنى الآية قولان أحدهما ان المراد منه الامر بالفعل ثم ان لفظ الآية يدل على انه تعالى يأمرهم فقال أكثر المفسرين معناه انه تعالى أمرهم بالاعمال الصالحة وهى الايمان والطاعة وفعل الخير والقوم خالفوا ذلك الامر وفسقوا والقول الثانى أمرنا مترفيها أى كثرنا فساقها يقال أمر القوم اذا كثروا وأمرهم الله اذا كثرهم ومنه الحديث خير المال مهرة مأمورة أى كثيرة النتاج والنسل فعلى هذا قوله تعالى أمرنا ليس من الامر بالفعل والمترف هو الذى أبطرته النعمة وسعة العيش (ففسقوا فيها) أى خرجوا عما أمرهم الله به من الطاعة (فحق عليها القول) أى وجب عليها العقاب (فدمرناها تدميرا) أى أهلكناها الهلاك استئصال والدمار الهلاك والخراب (ق) عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق باصبعيه الابهام والتى تليها قالت زينب قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث قوله ويل للعرب ويل كلمة تقال لمن وقع فى هلكة أو أشرف أن يقع فيها وقوله اذا كثر الخبث أى الشر قوله تعالى (وكم أهلكنا من القرون) أى المكذبة (من بعد نوح) وهم عاد وثمود وغيرهم من الامم الخالية يخوف الله بذلك كفار قريش قال عبد الله بن أبى أوفى القرن عشرون ومائة سنة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول قرن ويزيد بن معاوية فى آخره وقيل القرن مائة سنة وروى عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازنى ان النبى صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا قال محمد بن القاسم مازلنا نعد له حتى تمت له مائة سنة ثم مات وقيل القرن ثمانون سنة وقيل أربعون (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) يعنى انه عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات لا يخفى عليه شئ من أحوال الخلق قوله عز وجل (من كان يريد العاجلة) أى الدار العاجلة يعنى الدنيا (عجلنا له فيها ما نشاء) أى من البسط أو التقتير (لمن نريد) أن نفعل به ذلك أو اهلاكه وقيل فى معنى الآية عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد أى القدر الذى نشاء نعجله له فى الدنيا لا الذى يشاء هو ولمن نريد أن نعجل له شيأ قدرناه له وهذا ذم لمن أراد بعمله ظاهر الدنيا ومنفعتها وبيان ان من أراده لا يدرك منها الا ما قدر له (ثم جعلنا له) أى فى الآخرة (جهنم يصلاها) أى يدخلها (مذموما مدحورا) أى مطرودا مباعدا قوله سبحانه وتعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) أى عمل

عليك) الباء زائدة أى كفى نفسك (حسيبا) تمييز وهو بمعنى حاسب وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا أو بمعنى الكافى ووضع موضع الشهيد فعدى بعلى لان الشاهد يكفى المدعى ما أهمه واغاذ كر حسيبا لانه بمنزلة الشهيد والقاضى والامير اذ الغالب أن يتولى هذه الامور الرجال فكأنه قيل كفى نفسك رجلا حسيبا أو تؤول النفس بالشخص (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) أى فلها ثواب الاهتداء وعليها وبال الضلال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى كل نفس حاملة وزرا فانما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وما صح منا أن نعذب قوما عذاب استئصال فى الدنيا الا بعد أن نرسل اليهم رسولا يلزمهم الحجة (واذا أردنا أن نهلك قرية) أى أهل قرية (أمرنا مترفيها) متنعميها وجبابرتها بالطاعة عن أبى عمرو ١٥٩ والزجاج (ففسقوا فيها) أى خرجوا عن الامر كقولك أمرته فعصى أو أمرنا كثرنا دليله قراءة يعقوب آمرنا ومنه الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النسل (فحق عليها القول) فوجب عليها الوعيد (فدمرناها تدميرا) فأهلكناها اهلاكا (وكم) مفعول (أهلكنا من القرون) بيان لكم (من بعد نوح) يعنى عادا وثمود وغيرهما (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا) وان أخفوها فى الصدور (بصيرا) وان أرخوا عليها الستور (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء) لا ما يشاء (لمن نريد) بدل من له باعادة الجار وهو بدل البعض من الكل اذ الضمير يرجع الى من أى من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد فقيد المعجل بمشيئته والمعجل له بارادته وهكذا الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون الا بعضا منه وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة وأما المؤمن التقى فقد اختار غنى الآخرة فان أوتى حظا من الدنيا فبها والا فربما كان الفقر خيرا له (ثم جعلنا له جهنم) فى الآخرة (يصلاها) يدخلها (مذموما) ممقوتا (مدحورا) مطرودا من رحمة الله (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) هو مفعول به أو حقها من السعى وكفاءها من الاعمال الصالحة

---

³ قوله لقد عدل عليك هكذا فى الاصل المطبوع وفى بعض النسخ اليك بدل عليك وفى الخطيب عدل والله فى حقك من الخ وفى الكشاف [illegible] من الخ اه مصححه

وهو مؤمن) مصدق لله فى وعده ووعيده (فأولئك كان سعيهم مشكورا) مقبولا عند الله مثابا عليه عن بعض السلف من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا الآية فانه شرط فيها ثلاث شرائط فى كون السعى مشكورا ارادة الآخرة والسعى فيما كلف والايمان الثابت (كلا) كل واحد من الفريقين والتنوين عوض عن المضاف اليه وهو منصوب بقوله (نمد هؤلاء) بدل من كلا أى نمد هؤلاء (وهؤلاء) أى من أراد العاجلة ومن أراد الآخرة (من عطاء ربك) رزقه ومن تتعلق بنمد والعطاء اسم للمعطى أى نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مددا للسالف لا نقطعه فنرزق المطيع والعاصى جميعا على وجه التفضل (وما كان عطاء ربك محظورا) ممنوعا عن عباده وان عصوا (انظر) بعين الاعتبار (كيف فضلنا بعضهم على بعض) فى المال والجاه والسعة والكمال (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) روى ان قوما من الاشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضى الله عنه فخرج الاذن لبلال وصهيب فشق على أبى سفيان فقال سهيل بن عمرو انما أتينا من قبل انهم دعوا ودعينا يعنى الى الاسلام فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت فى الآخرة ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكثر (لا تجعل مع الله الها آخر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته (فتقعد مذموما مخذولا) فتصير جامعا على نفسك الذم والخذلان وقيل مشتوما بالاهانة محروما عن الاعانة اذ الخذلان ضد النصر والعون دليله قوله تعالى ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده حيث ذكر الخذلان بمقابلة النصر (وقضى ربك) وأمر أمرا مقطوعا به (ألا تعبدوا الا اياه) أن مفسرة ولا تعبدوا نهى أو بأن لا تعبدوا (وبالوالدين احسانا) وأحسنوا بالوالدين احسانا أو بأن تحسنوا بالوالدين احسانا (اما يبلغن عندك الكبر) اما هى ان الشرطية زيدت عليها ما تأكيدا لها ولذا دخلت النون المؤكدة فى الفعل ولو أفردت ان لم يصح دخولها لا تقول ان تكرمن زيدا يكرمك ولكن اما تكرمنه (أحدهما) فاعل يبلغن وهو فى قراءة حمزة وعلى يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع الى الوالدين (أوكلاهما) عطف على أحدهما فاعلا وبدلا (فلا تقل لهما أف) مدنى وحفص أف مكى وشامى اف غيرهم وهو صوت يدل على تضجر فالكسر على أصل التقاء الساكنين والفتح للتخفيف والتنوين لارادة التنكير أى أتضجر تضجرا وتركه لقصد التعريف أى أتضجر التضجر المعلوم (ولا تنهرهما) ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك والنهى والنهر اخوان

في

لما عملها (وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) أى مقبولا قيل فى الآية ثلاث شرائط فى كون السعى مشكورا ارادة الآخرة بعمله بأن يعتقدها ويتجافى عن دار الغرور والسعى فيما كلف من الفعل والترك والايمان الصحيح الثابت وعن بعض السلف الصالح من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية **قوله** عز وجل (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء) أى نمد كلا الفريقين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة (من عطاء ربك) يعنى يرزقهما جميعا ثم يختلف الحال بهما فى المآل (وما كان عطاء ربك محظورا) أى ممنوعا عن عباده والمراد بالعطاء العطاء فى الدنيا اذ لاحظ للكافر فى الآخرة (انظر) يا محمد (كيف فضلنا بعضهم على بعض) أى فى الرزق والعمل يعنى طالب العاجلة وطالب الآخرة (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) يعنى ان تفاضل الخلق فى درجات منافع الدنيا محسوس فتفاضلهم فى درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم فان نسبة التفاضل فى درجات الآخرة الى التفاضل فى درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا فاذا كان الانسان تشتد رغبته فى طلب الدنيا فلأن تقوى وتشتد رغبته فى طلب الآخرة أولى لانها دار المقامة **قوله** تعالى (لا تجعل مع الله الها آخر) الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقيل معناه لا تجعل أيها الانسان مع الله الها آخر وهذا أولى (فتقعد مذموما) أى من غير حمد (مخذولا) أى بغير ناصر **قوله** سبحانه وتعالى (وقضى ربك) أى وأمر ربك قاله ابن عباس وقيل معناه وأوجب ربك وقيل معناه الحكم والجزم وقيل ووصى ربك وحكى عن الضحاك أنه قرأها ووصى ربك وقال انهم ألصقوا الواو بالصاد فصار قافا وهى قراءة على وابن مسعود قال الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير هذا القول بعيد جدا لانه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق الى القرآن ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان على القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك أنه طعن عظيم فى الدين (ألا تعبدوا الا اياه) فيه وجوب عبادة الله والمنع عن عبادة غيره وهذا هو الحق لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن له الانعام والافضال على عباده ولا منعم الا الله فكان هو المستحق للعبادة لا غيره (وبالوالدين احسانا) أى وأمر بالوالدين احسانا أى برا بهما وعطفا عليهما واحسانا اليهما (اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أوكلاهما) معناه انهما يبلغان الى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أول العمر واعلم أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر هذه الجملة كلف الانسان فى حق الوالدين خمسة أشياء الاول قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) وهى كلمة تضجر وكراهية وقيل ان أصل هذه الكلمة انه اذا سقط عليك تراب أو رماد ونفخت فيه تزيله تقول أف ثم انهم توسعوا بذكر هذه الكلمة الى كل مكروه يصل اليهم والثانى قوله (ولا تنهرهما) أى تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره بمعنى * فان قلت المنع من التأفيف أبلغ من المنع من الانتهار فما وجه الجمع * قلت المراد من قوله ولا تقل لهما أف المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من قوله ولا تنهرهما المنع من اظهار المخالفة

(وقل لهما) بدل التأفيف والنهر (قولا كريما) جميلا لينا كما يقتضيه حسن الادب أو هو أن يقول يا أبتاه يا أماه ولا يدعوهما بأسمائهما فانه من الجفاء ولا بأس به في غير وجههما كما قالت عائشة رضي الله عنها نحلني أبو بكر كذا وفائدة عندك انهما اذا صارا كلا على ولدهما ولا كافل لهما غيره فهما عنده في بيته وكنفه وذلك أشق عليه فهو مأمور بأن يستعمل معهما لين الخلق حتى لا يقول لهما اذا أضجره ما يستقذر منهما أف فضلا عما يزيد عليه ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الاحسان اليهما بتوحيده ثم ضيق الامر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الانسان معها (واخفض لهما جناح الذل) أي اخفض لهما جناحك كما قال واخفض جناحك للمؤمنين فأضافه الى الذل كما أضيف حاتم الى الجود والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل (من الرحمة) من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم الى من كان أفقر خلق الله اليهما بالامس وقال الزجاج وألن جانبك متذللا لهما من مبالغتك في الرحمة لهما (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك والمراد بالخطاب غيره عليه السلام والدعاء مختص بالابوين المسلمين وقيل اذا كانا كافرين له أن يسترحم لهما بشرط الايمان وأن يدعو الله لهما بالهداية وعن النبي صلى الله عليه وسلم رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما وروي يفعل البار ما شاء أن يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق ما شاء أن يفعل فلن يدخل الجنة وعنه عليه السلام اياكم وعقوق الوالدين فان الجنة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار ازاره خيلاء ان الكبرياء لله رب العالمين (ربكم أعلم بما في نفوسكم) بما في ضمائركم من قصد البر الى الوالدين ومن النشاط والكرامة في برهما (ان تكونوا صالحين) قاصدين الصلاح والبر ثم فرطت منكم في حال الغضب وعند حرج الصدر هنة تؤدي الى أذاهما ثم أبتم الى الله منها (فانه كان للاوابين غفورا) الاواب الذي اذا أذنب بادر الى التوبة فجاز أن يكون هذا عاما لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره

في القول على سبيل الرد عليهما الثالث قوله (وقل لهما قولا كريما) أي حسنا جميلا لينا كما يقتضيه حسن الادب معهما وقيل هو يا أماه يا أبتاه وقيل لا يكنيهما وقيل هو أن تقول لهما كقول العبد الذليل المذنب للسيد الفظ الغليظ الرابع قوله عز وجل (واخفض لهما جناح الذل) أي ألن لهما جناحك واخفضه لهما حتى لا تمتنع عن شيء أحباه (من الرحمة) أي من الشفقة عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم اليك كما كنت في حال الصغر والضعف مفتقرا اليهما الخامس قوله سبحانه وتعالى (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) أي وادع الله لهما أن يرحمهما برحمته الباقية وأراد به اذا كانا مسلمين فأما اذا كانا كافرين فان الدعاء منسوخ في حقهما بقوله سبحانه وتعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى وقيل يجوز الدعاء لهما بأن يهديهما الله الى الاسلام فاذا هداهما فقد رحمهما وقيل في معنى هذه الآية ان الله سبحانه وتعالى بالغ في الوصية بهما حيث افتتحها بالامر بتوحيده وعبادته ثم شفعه بالاحسان اليهما ثم ضيق الامر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تسوءهما وأن يذل ويخضع لهما ثم ختمها بالامر بالدعاء لهما والترحم عليهما

﴿فصل﴾ في ذكر الاحاديث التي وردت في بر الوالدين (ق) عن أبي هريرة قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي قال أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك (م) عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه قيل من يا رسول الله قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة (م) عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يجزي ولد والده الا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه في الجهاد فقال أحي والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رضا الرب في رضا الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين أخرجه الترمذي مرفوعا وموقوفا قال وهو أصح عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الوالد أوسط أبواب الجنة فان شئت فضيع ذلك الباب أو احفظه أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح (م) عن عبد الله بن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الاعمال أحب الى الله تعالى قال الصلاة لوقتها قلت ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله تعالى قوله سبحانه وتعالى (ربكم أعلم بما في نفوسكم) أي من بر الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير وعدم عقوقهما (ان تكونوا صالحين) أي أبرارا مطيعين قاصدين الصلاح والبر بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين أو غيرهما أو قيل فرط منكم في حال الغضب وعند حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر مما يؤدي الى أذاهما ثم أبتم الى الله واستغفرتم مما فرط منكم (فانه كان للاوابين) للتوابين (غفورا) قال سعيد بن جبير في هذه الآية هو الرجل تكون منه البادرة الى أبويه لا يريد بذلك الا الخير فانه لا يؤاخذ بها وقال سعيد بن المسيب الاواب الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وعنه أنه الرجاع الى الخير وقال ابن عباس الاواب الرجاع الى الله فيما يحزنه وينوبه وعنه انهم المسبحون وقيل هم المصلون وقيل هم الذين يصلون صلاة الضحى يدل عليه ما روي عن زيد بن أرقم قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل قباء وهم يصلون الضحى فقال صلاة الاوابين اذا رمضت الفصال أخرجه

(وآت ذا القربى) منك (حقه) أى النفقة اذا كانوا محارم فقراء (والمساكين وابن السبيل) أى وآت هؤلاء حقهم من الزكاة (ولا تبذر تبذيرا) ولا تسرف اسرافا قيل التبذير تفريق المال فى غير الحل والمحل فعن مجاهد لو أنفق مدا فى باطل كان تبذيرا وقد أنفق بعضهم نفقة فى خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير فى السرف فقال له لا سرف فى الخير (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) أمثالهم فى الشرارة وهى غاية المذمة لانه لا شر من الشيطان أوهم اخوانهم وأصدقاؤهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف (وكان الشيطان لربه كفورا) فما ينبغى أن يطاع فانه لا يدعو الا الى مثل ١٦٣ فعله (واما تعرضن عنهم) وان أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) أى وان أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك فسمى الرزق رحمة فردهم ردا جميلا فوضع الابتغاء موضع الفقد لان فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسببا عنه فوضع المسبب موضع السبب يقال يسر الامر وعسر مثل سعد الرجل ونحس فهو مفعول وقيل معناه فقل لهم رزقنا الله واياكم من فضله على انه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم كان معناه قولا ذا ميسور وهو اليسر أى دعاء فيه يسر وابتغاء مفعول له أو مصدر فى موضع الحال وترجوها حال (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) كل نصب على المصدر لاضافته اليه وهذا تمثيل لمنع الشحيح واعطاء المسرف أمر بالاقتصاد الذى هو بين الاسراف والتقتير (فتقعد ملوما) فتصير ملوما عند الله لان المسرف غير مرضى عنده وعند الناس يقول الفقير أعطى فلانا وحرمنى ويقول الغنى ما يحسن تدبير أمر المعيشة وعند نفسك اذا احتجت فندمت على ما فعلت (محسورا) منقطعا بك لا شئ عندك من حسره السفر اذا أثر فيه أثرا بليغا أو عاريا من حسر رأسه وقد خاطرت مسلمة ضرتها اليهودية فى انه يعنى محمدا عليه السلام [illegible] من موسى عليه السلام فبعثت ابنتها تسأله قميصه الذى عليه فدفعه وقعد عريانا فاقيمت الصلاة فلم يخرج للصلاة فنزلت ثم [illegible] الله عليه وسلم بأن ذلك ليس لهوان [illegible] لا لبخل به عليك ولكن لان بسط الارزاق وقدرها مفوض الى الله [illegible] ليس

مسلم قوله اذا رمضت الفصال يريد ارتفاع الضحى وأن تحمى الرمضاء وهو الرمل بحر الشمس فتبرك الفصال من الحر وشدة احراقه أخفافها والفصال جمع فصيل وهى أولاد الابل الصغار وقيل الاواب الذى يصلى بين المغرب والعشاء يدل عليه ما روى عن ابن عباس قال ان الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهى صلاة الاوابين قوله سبحانه وتعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) قيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أمره الله سبحانه وتعالى أن يؤتى أقاربه حقوقهم وقيل انه خطاب للكل وهو انه سبحانه وتعالى وصى بعد بر الوالدين بالقرابة أن يؤتوا حقهم من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك وقيل ان كانوا محاويج وهو موسر لزمه الانفاق عليهم وهو مذهب أبى حنيفة وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه لا تلزم النفقة الا للوالد على ولده أو ولد على والديه فحسب وقيل أراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم الكلام على المسكين وابن السبيل (ولا تبذر تبذيرا) أى لا تنفق مالك فى المعصية وقيل لو أنفق الانسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ولو أنفق درهما أو مدا فى باطل كان مبذرا وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال انفاق المال فى غير حقه وقيل هو انفاق المال فى العمارة على وجه السرف وقيل ان بعضهم أنفق نفقة فى خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) يعنى أولياءهم وأصدقاءهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف وقيل أمثالهم فى الشر وهذا غاية المذمة لانه لا شر من الشياطين والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم هو أخوهم (وكان الشيطان لربه كفورا) أى جحود النعمة فما ينبغى أن يطاع لانه يدعو الى مثل عمله قوله عز وجل (واما تعرضن عنهم) نزلت فى مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم فى الاحايين ما يحتاجون اليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك عن القول فنزلت هذه الآية والمعنى وان تعرض عن هؤلاء الذين أمرت أن تؤتيهم (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) أى انتظار رزق من الله ترجو أن يأتيك (فقل لهم قولا ميسورا) أى لينا جميلا أى عدهم وعدا طيبا تطيب به قلوبهم وقيل هو أن يقول رزقنا الله واياكم من فضله قوله سبحانه وتعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) قال جابر أتى صبى فقال يا رسول الله ان أمى تستكسيك درعا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا قميصه فقال للصبى من ساعة الى ساعة يظهر كذا فعد الينا وقتا آخر فعاد الى أمه فقالت قل له ان أمى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا فأذن بلال بالصلاة وانتظره فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك أى لا تمسك يدك عن النفقة فى الحق والخير كالمغلولة يده لا يقدر على مدها (ولا تبسطها) أى بالعطاء (كل البسط) أى فتعطى جميع ما عندك وقيل هذا تمثيل لمنع الشحيح واعطاء المسرف أمر بالاقتصاد الذى هو بين الاسراف والتقتير (فتقعد ملوما) أى عند الله لان السرف غير مرضى عنده وقيل ملوما عند نفسك وأصحابك أيضا يلومونك على تضييع المال بالكلية وقيل يلومك سائلوك على الامساك اذا لم تعطهم (محسورا) أى منقطعا لا شئ عندك تنفقه وقيل محسورا أى نادما على ما فرط منك ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يرهقه من الاضاقة بأن ذلك

(ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء) فليس البسط اليك (ويقدر) أى هو يضيق فلا لوم عليك (انه كان بعباده خبيرا) بمصالحهم فيبسطها (بصيرا) بحوائجهم فيقضيها (ولا تقتلوا أولادكم) قتلهم أولادهم وأدهم بناتهم (خشية املاق) فقر (نحن نرزقهم واياكم) نهاهم عن ذلك وضمن أرزاقهم (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) اثما عظيما يقال خطئ خطأ كأثم اثما وخطأ وهو ضد الصواب اسم من أخطأ وقيل هو والخطأ كالحذر والحذر خطاء بالمد والكسر مكى (ولا تقربوا الزنا) القصر فيه أكثر والمد لغة وقد قرئ به وهو نهى عن دواعى الزنا كاللمس والقبلة ونحوهما ولو أريد النهى عن نفس الزنا لقال ولا تزنوا (انه كان فاحشة) معصية مجاوزة حد الشرع والعقل (وساء سبيلا) وبئس طريقا طريقه (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) أى بارتكاب ما يبيح الدم (ومن قتل مظلوما) غير مرتكب ما يبيح الدم (فقد جعلنا لوليه سلطانا) تسلطا على القاتل فى الاقتصاص منه (فلا يسرف فى القتل) الضمير للولى أى فلا يقتل غير القاتل ولا اثنين والقاتل واحد كعادة أهل الجاهلية أو الاسراف المثلة والضمير للقاتل الاول فلا تسرف حمزة وعلى على خطاب الولى أو قاتل المظلوم (انه كان منصورا) الضمير للولى أى حسبه أن الله قد نصره بان أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك أو للمظلوم أى الله ناصره حيث أوجب القصاص بقتله وينصره فى الآخرة بالثواب أو للذى يقتله الولى بغير حق ويسرف فى قتله فانه كان منصورا بايجاب القصاص على المسرف وظاهر الآية يدل على ان القصاص يجرى بين الحر والعبد وبين المسلم والذمى لان انفس أهل الذمة والعبيد داخلة فى الآية لكونها محرمة (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن) بالخصلة أو الطريقة التى هى أحسن وهى حفظه وتثميره (حتى يبلغ أشده) اى ثمانى عشرة سنة (وأوفوا بالعهد) باوامر الله تعالى ونواهيه (ان العهد كان مسؤلا) مطلوبا يطالب من المعاهد أن لا يضيعه ويفى به أو ان صاحب العهد كان مسؤلا (وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا [illegible] بكسر القاف حمزة وعلى وحفص وهو كل ميزان صغيرا أو كبيرا من موازين الدراهم وغيرها وقيل هو القرسطون أى القـ[illegible]

ليس لهوان بك عليه ولا لبخل منه عليك فقال تعالى (ان ربك يبسط) أى يوسع (الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يقتر ويضيق وذلك لمصلحة العباد (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يعنى انه سبحانه وتعالى عالم بأحوال جميع عباده وما يصلحهم فالتفاوت فى أرزاق العباد ليس لاجل البخل بل لاجل رعاية مصالح العباد قوله عز وجل (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق) أى فاقة وفقر (نحن نرزقهم واياكم) وذلك ان أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة أو يخافون عليهم من النهب والغارات أو أن ينكحوهن لغير أكفاء لشدة الحاجة وذلك عار شديد عندهم فنهاهم الله عن قتلهن وقال نحن نرزقهم واياكم يعنى ان الارزاق بيد الله فكما انه فتح أبواب الرزق على الرجال فكذلك يفتحه على النساء (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) أى اثما كبيرا (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة) أى قبيحة زائدة على حد القبح (وساء سبيلا) أى بئس طريقا طريقه وهو ان تغصب امرأة غيرك أو أخته أو بنته من غير سبب والسبب ممكن وهو الصهر الذى شرعه الله تعالى قيل ان الزنا يشتمل على أنواع من المفاسد منها المعصية وايجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الانساب فلا يعرف الرجل ولده من هو ولا يقوم أحد بتربيته وذلك يوجب ضياع الاولاد وانقطاع النسل وذلك يوجب خراب العالم قوله عز وجل (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) الاصل فى القتل هو الحرمة المغلظة وحل القتل انما ثبت بسبب عارض فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الاصل ثم استثنى الحالة التى يحصل فيها حل القتل وهى الاسباب العرضية فقال الا بالحق أى الا باحدى ثلاث كما روى عن ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة أخرجاه فى الصحيحين (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) أى قوة وولاية على القاتل بالقتل وقيل سلطانه هو انه يتخير فان شاء استقاد منه وان شاء أخذ الدية وان شاء عفا (فلا يسرف فى القتل) أى الولى قال ابن عباس لا يقتل غير القاتل وذلك أنهم كانوا فى الجاهلية اذا قتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه وقيل معناه اذا كان القتيل واحدا فلا يقتل به جماعة بل واحد بواحد وكان أهل الجاهلية اذا كان المقتول شريفا فلا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه وقيل معناه انه لا يمثل بالقاتل (انه كان منصورا) قيل الضمير راجع للمقتول ظلما يعنى انه منصور فى الدنيا بايجاب القود على قاتله وفى الآخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقيل الضمير راجع الى ولى المقتول معناه انه كان منصورا على القاتل باستيفاء القصاص منه أو الدية وقيل فى قوله فلا يسرف فى القتل أراد به القاتل المتعدى بالقتل بغير الحق فانه ان فعل ذلك فولى القتيل منصور عليه باستيفاء القصاص منه قوله سبحانه وتعالى (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن) أى بالطريقة التى هى أحسن وهى تنميته وحفظه عليه (حتى يبلغ أشده) وهو بلوغ النكاح والمراد ببلوغ الاشد كمال عقله ورشده بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله والا لم ينفك عنه الحجر (وأوفوا بالعهد) اى الاتيان بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه وقيل أراد بالعهد ما يلتزمه الانسان على نفسه (ان العهد كان مسؤلا) أى عنه وقيل مطلوبا وقيل العهد يسئل فيقال فيم نقضت كالموءودة تسئل فيم قتلت قوله عز وجل (وأوفوا الكيل اذا كلتم) المراد منه اتمام الكيل (وزنوا بالقسطاس المستقيم) قيل هو الميزان صغيرا كان أو كبيرا من

(ذلك خير) فى الدنيا (وأحسن تأويلا) عاقبة وهو تفعيل من آل اذا رجع وهو ما يؤل اليه (ولا تقف ما ليس لك به علم) ولا تتبع ما لم تعلم أى لا تقل رأيت وما رأيت وسمعت وما سمعت وعن ابن الحنفية لا تشهد بالزور وعن ابن عباس لا ترم أحدا بما لا تعلم ولا يصح التثبت به لمبطل الاجتهاد لان ذلك نوع من العلم فان علمه وهن مؤمنات وأقام الشارع غالب الظن مقام العلم وأمر بالعمل به كما فى الشهادات وانا فى العمل بخبر الواحد لما ذكرنا (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) أولئك اشارة الى السمع والبصر والفؤاد لان أولئك كما يكون اشارة الى العقلاء يكون اشارة الى غيرهم كقول جرير

ذم المنازل بعد منزلة اللوى
والعيش بعد أولئك الايام

وعنه فى موضع الرفع بالفاعلية أى كل واحد منها كان مسؤلا عنه فمسؤل مسند الى الجار والمجرور كالمغضوب فى غير المغضوب عليهم يقال للانسان لم سمعت ما لم يحل لك سماعه ولم نظرت الى ما لم يحل لك النظر اليه ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه كذا فى الكشاف وفيه نظر لبعضهم لان الجار والمجرور انما يقومان مقام الفاعل اذا تأخرا عن الفعل فاما اذا تقدما فلا (ولا تمش فى الارض مرحا) هو حال أى ذا مرح (انك لن تخرق الارض) لن تجعل فيها خرقا بدوسك لها وشدة وطأتك (ولن تبلغ الجبال طولا) بتطاولك وهو تهكم بالمختال أو لن تحاذيها قوة وهو حال من الفاعل أو المفعول (كل ذلك كان سيئه) كوفى وشامى على اضافة سىء الى ضمير كل سيئة غيرهم (عند ربك مكروها) ذكر مكروها لان السيئة فى حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه الا ترى انك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة * فان قلت الخصال المذكورة بعضها سىء وبعضها حسن ولذلك قرأ من قرأ سيئه بالاضافة أى ما كان من المذكور سيئا كان عند الله مكروها فما وجه قراءة من قرأ سيئة * قلت كل ذلك احاط [illegible] المنهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة (ذلك) اشارة الى ما تقدم من قوله لا تجعل مع الله الها آخر الى هذه الغاية (مما أوحى اليك ربك من الحكمة) مما يحكم العقل بصحته وتصلح النفس بأسوته

ميزان الدراهم الى ما هو أكبر منه وقيل هو القبان قيل هو رومى وقيل سريانى والاصح انه عربى مأخوذ من القسط وهو العدل أى زنوا بالعدل المستقيم واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب على العاقل الاحتراز عنه وانما عظم الوعيد فيه لان جميع الناس محتاجون الى المعاوضات والبيع والشراء فالشارع بالغ فى المنع من التطفيف والنقصان سعيا فى ابقاء الاموال على أربابها (ذلك خير وأحسن تأويلا) أى أحسن عاقبة من آل اذا رجع وهو ما يؤل اليه أمره قوله سبحانه وتعالى (ولا تقف) أى ولا تتبع (ما ليس لك به علم) أى لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم وقيل معناه لا ترم أحدا بما ليس لك به علم وقيل لا تتبعه بالحدس والظن وقيل هو مأخوذ من القفا كانه يقفو الامور ويتتبعها ويتعرفها والمراد انه لا يتكلم فى أحد بالظن (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) معناه يسئل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده وقيل يسئل السمع والبصر والفؤاد عما فعله المرء فعلى هذا ترجع الاشارة فى أولئك الى الاعضاء وعلى القول الاول ترجع الى أربابها عن شكل بن حميد قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به قال فاخذ بيدى ثم قال قل أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر فؤادى وشر لسانى وشر قلبى وشر منيى قال فحفظتها أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وقال حديث حسن غريب قوله وشر منيى يعنى ماءه وذكره قوله عز وجل (ولا تمش فى الارض مرحا) أى بطرا وكبرا وخيلاء (انك لن تخرق الارض) أى لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها (ولن تبلغ الجبال طولا) أى لا تقدر أن تطاول الجبال وتساويها بكبرك والمعنى ان الانسان لا ينال بكبره وبطره شيأ كمن يريد خرق الارض ومطاولة الجبال لا يحصل على شئ وقيل ان الذى يمشى مختالا يمشى مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه فقيل له انك لن تنقب الارض ان مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال طولا ان مشيت على صدور قدميك عن على قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفأ تكفؤا كانما ينحط من صبب أخرجه الترمذى فى الشمائل قوله تكفؤا التكفؤ التمايل فى المشى الى قدام وقوله كانما ينحط من صبب هو قريب من التكفؤ أى كانه ينحدر من موضع عال عن أبى هريرة قال ما رأيت شيأ أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت أحدا أسرع فى مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانما الارض تطوى له انا لنجهد انفسنا وانه لغير مكترث أخرجه الترمذى قوله لغير مكترث أى شاق والاكتراث الامر الذى يشق على الانسان (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) أى ما ذكر من الامور التى نهى الله عنها فيما تقدم * فان قلت كيف قيل سيئه مع قوله مكروها * قلت قيل فيه تقديم وتأخير تقديره كل ذلك كان مكروها سيئه عند ربك وقوله مكروها على التكرير لا على الصفة أى كل ذلك كان سيئة وكان مكروها وقيل انه يرجع الى المعنى دون اللفظ لان السيئة الذنب وهو مذكر قوله سبحانه وتعالى (ذلك) اشارة الى ما تقدم من الاوامر والنواهى فى هذه الآيات (مما أوحى اليك ربك من الحكمة) أى ان الاحكام المذكورة فى هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية فى جميع الاديان والملل لا تقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة بهذا الاعتبار وقيل ان حاصل هذه الآيات يرجع الى الامر بالتوحيد وأنواع البر والطاعات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة وذلك من الحكمة قيل ان هذه الآيات كانت فى ألواح موسى عليه السلام أولها ولا تجعل مع الله الها آخر قال الله سبحانه وتعالى وكتبنا له فى الالواح من كل شئ موعظة واعلم ان

(ولا تجعل مع الله الهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) مطرودا من الرحمة عن ابن عباس رضى الله عنهما هذه الثمانى عشرة آية كانت فى ألواح موسى عليه السلام أولها لا تجعل مع الله الهاً آخر وآخرها مدحورا ولقد جعلت فاتحتها وخاتمتها النهى عن الشرك لان التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه حكمة وان بذفيها الحكماء وحك بيافوخه السماء وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم ثم خاطب الذين قالوا الملائكة بنات الله بقوله (أفأصفاكم ربكم بالبنين) الهمزة للانكار يعنى أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الاولاد وهم البنون (واتخذ من الملائكة اناثا) واتخذ أدونهم وهى البنات وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم فالعبيد لا يؤثرون بأجود الاشياء واصفاها ويكون أردؤها وأدونها للسادات (انكم لتقولون قولا عظيما) حيث أضفتم اليه الاولاد وهى من خواص الاجسام ثم فضلتم عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون (ولقد صرّفنا فى هذا القرآن) أى التنزيل والمراد ولقد صرفناه أى هذا المعنى فى مواضع من التنزيل فترك الضمير لانه معلوم (ليذكروا) وبالتخفيف حمزة وعلى أى كررناه ليتعظوا (وما يزيدهم الا نفورا) عن الحق وكان الثورى اذا قرأها يقول زادنى لك خضوعا ما زاد أعداءك نفورا (قل لو كان معه) مع الله (آلهة كما تقولون) وبالياء مكى وحفص (اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا) يعنى لطلبوا الى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض أو لتقربوا اليه كقوله أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة واذا دالة على ان ما بعدها وهو لابتغوا جواب عن مقالة المشركين وجزاء للو (سبحانه وتعالى عما يقولون) وبالتاء حمزة وعلى (علوا) أى تعاليا والمراد البراءة من ذلك والنزاهة (كبيرا) وصف العلو بالكبر مبالغة فى معنى البراءة والبعد مما وصفوه به (يسبح) عراقى غير أبى بكر (له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شئ الا يسبح بحمده) أى يقول سبحان الله وبحمده عن ال[illegible]
لا ترى اصطياد حوت فى البحر ولا طائر يطير الا بما يضيع من تسبيح الله تعالى

ان الله سبحانه وتعالى افتتح هذه الآيات بالامر بالتوحيد والنهى عن الشرك وختمها به والمقصود منه التنبيه على ان كل قول وعمل يجب ان يكون فيه التوحيد لانه رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه شئ ثم انه سبحانه وتعالى ذكر فى الآية الاولى أن الشرك يجب ان يكون صاحبه مذموما مخذولا وقال فى هذه الآية (ولا تجعل مع الله الهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) والفرق بين المذموم والملوم اما كونه مذموما فمعناه ان يذكر له ان الفعل الذى أقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما ثم يقال له لم فعلت هذا الفعل القبيح وما الذى حملك عليه وهذا هو اللوم والفرق بين المخذول والمدحور ان المخذول هو الضعيف الذى لا ناصر له والمدحور هو المبعود المطرود عن كل خير **قوله** سبحانه وتعالى (أفأصفاكم ربكم) يعنى أفخصكم واختاركم فجعل لكم الصفوة ولنفسه ما ليس بصفوة (بالبنين) يعنى اختصكم بأفضل الاولاد وهم البنون (واتخذ من الملائكة اناثا) لانهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله مع علمهم بأن الله سبحانه وتعالى هو الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له وهذا يدل على نهاية جهل القائلين بهذا القول (انكم لتقولون قولا عظيما) يخاطب مشركى مكة يعنى باضافتهم اليه الاولاد وهى خاصة بالاجسام ثم انهم يفضلون عليه أنفسهم حيث يجعلون له ما يكرهون لانفسهم يعنى البنات **قوله** سبحانه وتعالى (ولقد صرّفنا فى هذا القرآن) يعنى العبر والحكم والامثال والاحكام والحجج والاعلام والتشديد فى صرفنا للتكثير والتكرير (ليذكروا) أى ليتعظوا ويعتبروا (وما يزيدهم) اى تصريفنا وتذكيرنا (الا نفورا) أى تباعدا عن الحق (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين (لو كان معه آلهة كما تقولون اذا لابتغوا) أى لطلبوا يعنى هؤلاء الآلهة (الى ذى العرش سبيلا) أى بالمغالبة والقهر ليزيلوا ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض وقيل معناه لتقربوا اليه وقيل معناه لتعرفوا اليه فضله فابتغوا ما يقربهم اليه والاول أصح ثم نزه نفسه فقال عز وجل (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) معنى وصفه بذلك المبالغة فى البراءة والبعد عما يصفونه به **قوله** عز وجل (تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن) يعنى الملائكة والانس والجن (وان من شئ الا يسبح بحمده) قال ابن عباس وان من شئ حى الا يسبح بحمده وقيل جميع الحيوانات والنباتات قيل ان الشجرة تسبح والاسطوانة لا تسبح وقيل ان التراب يسبح ما لم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح وان الخرزة تسبح ما لم ترفع من موضعها فاذا رفعت تركت التسبيح وان الورقة تسبح ما دامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح وان الماء يسبح ما دام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح وان الثوب يسبح ما دام جديدا فاذا اتسخ ترك التسبيح وان الوحوش والطير تسبح اذا صاحت فاذا سكتت تركت التسبيح وقيل وان من شئ جماد أو حى الا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقيل كل الاشياء تسبح الله حيوانا كان أو جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده ويدل على ذلك ما روى عن ابن مسعود قال كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فقل الماء فقال اطلبوا فضلة من ماء فجاؤا باناء فيه ماء قليل فأدخل يده صلى الله عليه وسلم فى الاناء ثم قال حى على الطهور المبارك والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل أخرجه البخارى (م) عن جابر بن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لأعرف حجرا كان يسلم على ليالى بعثت وانى لأعرفه الآن (خ) عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

(ولكن لاتفقهون تسبيحهم) لاختلاف اللغات أولتعسر الادراك أوسوب لتسبيح الناظر اليه والدال على الخير كفاعله والوجه الاوّل (انه كان حليما) عن جهل العباد (غفورا) لذنوب المؤمنين (واذاقرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) ذا ستر أو حجابا لايرى فهومستور (وجعلنا على قلوبهم أكنة) جمع كنان وهو الذى يستر الشئ (أن يفقهوه) كراهة أن يفقهوه (وفى آذانهم وقرا) ثقلا يمنع عن الاستماع (واذاذكرت ربك فى القرآن وحده) يقال وحد يحد وحدا وحدة نحو وعد يعد وعدا وعدة فهو مصدر سد مسد الحال أصله يحدوحده بمعنى وحدا (ولواعلى 166 أدبارهم) رجعوا على أعقابهم (نفورا) مصدر بمعنى التولية أوجمع نافر كقاعد وقعود أى يحبون أن تذكر معه آلهتهم لانهم مشركون فاذا سمعوا بالتوحيد نفروا (نحن أعلم بما يستمعون به) أى نحن أعلم بالحال أو الطريقة التى يستمعون القرآن به فالقرآن هو المستمع وهو محذوف وبه حال وبيان لما أى يستمعون القرآن هازئين لاجادين والواجب عليهم أن يستمعوه جادين (اذيستمعون اليك) نصب بأعلم أى أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون (واذهم نجوى) وبما يتناجون به اذهم ذو نجوى (اذيقول الظالمون) بدل من اذهم (ان تتبعون الارجلا مسحورا) سحر فجن (انظر كيف ضربوا لك الامثال) مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون (فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أى فضلوا فى جميع ذلك ضلال من يطلب فى التيه طريقا يسلكه فلا يقدر عليه فهو متحير فى امره لايدرى مايصنع (وقالوا) أى منكرو البعث (أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أى مجددا وخلقا حال أى مخلوقين

بما

(قل كونوا حجارة أوحديدا أوخلقا مما يكبر فى صدوركم) أى السموات والارض فانها تكبر عندكم عن قبول الحياة (فسيقولون من يعيدنا قل) يعيدكم (الذى فطركم أول مرة) والمعنى انكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم و يرده الى حال الحياة بعدما كنتم عظاما يابسة مع أن العظام [illegible] أجزاء الحى بل هى عمود خلقه الذى يبنى عليه سائره فليس ببدع أن يردها الله بقدرته الى الحالة الاولى ولكن لو كنتم أبعد شئ [illegible] كونوا حجارة أوحديدا لكان قادرا على [illegible] حال الحياة (فسينغضون اليك رؤسهم) فسيحركونها نحوك [illegible]

يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحوّل اليه فحن الجذع فأتاه فمسح بيده عليه وفى رواية فنزل فاحتضنه وسارّه بشئ ففى هذه الاحاديث دليل على أن الجماد يتكلم وانه يسبح وقال بعض أهل المعانى تسبيح السموات والارض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال بحيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك و يصير لها بمنزلة التسبيح والقول الاوّل أصح كما دلت عليه الاحاديث وانه منقول عن السلف واعلم أن لله تعالى علما فى الجمادات لايقف عليه غيره فينبغى أن نكل علمه اليه وقوله تعالى (ولكن لاتفقهون تسبيحهم) أى لاتعلمون ولاتفهمون تسبيحهم ماعدا من يسبح بلغتكم ولسانكم (انه كان حليما غفورا) أى حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم و جهلكم بالتسبيح قوله عز وجل (واذاقرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أى يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به وقيل معناه مستورا عن أعين الناس فلا يرونه كما روى عن سعيد بن جبير انه قال لما نزلت تبت يدا أبى لهب جاءت امرأة أبى لهب ومعها حجر والنبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر فلم تره فقالت لأبى بكر أين صاحبك لقد بلغنى انه هجانى فقال لها أبو بكر والله ماينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت وهى تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ رأسه فقال أبو بكر مارأتك يارسول الله قال لا لم يزل ملك بينى و بينها (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أى أغطية (ان يفقهوه) أى لئلا يفهموه (وفى آذانهم وقرا) أى ثقلا لئلا يسمعوه (واذاذكرت ربك فى القرآن وحده) يعنى اذاقلت لااله الاالله وأنت تتلوا القرآن (ولوا على أدبارهم نفورا) جمع نافر (نحن أعلم بما يستمعون به) أى من الهزء بك و بالقرآن وقيل معناه نحن أعلم بالوجه الذى يستمعون به وهو التكذيب (اذيستمعون اليك) اى وأنت تقرأ القرآن (واذهم نجوى) أى و بما يتناجون به فى أمرك وقيل معناه ذو ونجوى بعضهم يقول هو مجنون و بعضهم يقول هو كاهن و بعضهم يقول ساحرا وشاعر (اذيقول الظالمون) يعنى الوليد بن المغيرة وأصحابه (ان تتبعون الارجلا مسحورا) أى مطبوبا وقيل مخدوعا وقيل معناه انه سحر فجن وقيل هو من السحر وهو الرئة ومعناه انه بشر مثلكم يأكل و يشرب قال الشاعر

أرانا موضعين لامرغيب * ونسحر بالطعام و بالشراب

أى نغذى بهما (انظر كيف ضربوا لك الامثال) أى الاشباه فقالوا ساحر شاعر كاهن مجنون (فضلوا) أى فى جميع ذلك وحاروا (فلا يستطيعون سبيلا) أى الى طريق الحق (وقالوا أئذا كنا عظاما) أى بعد الموت (ورفاتا) أى ترابا وقيل الرفات الاجزاء المفتتة من كل شئ تكسر (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) فيه أنهم استبعدوا الاعادة بعد الموت والبلى فقال الله سبحانه وتعالى ردا عليهم (قل) أى قل لهم يامحمد (كونوا حجارة) أى فى الشدة (أوحديدا) أى فى القوة وليس هذا بأمر الزام بل هو أمر تعجيز أى استشعروا فى قلوبكم انكم حجارة أوحديد فى القوة (أوخلقا مما يكبر فى صدوركم) قيل يعنى السماء والارض والجبال لانها أعظم المخلوقات وقيل يعنى به الموت لانه لاشئ فى نفس ابن آدم أكبر من الموت ومعناه لو كنتم الموت بعينه لأميتنكم ولأبعثنكم (فسيقولون من يعيدنا) أى من يبعثنا بعد الموت (قل الذى فطركم) أى خلقكم (أول مرة) فمن قدر على الانشاء قدر على الاعادة (فسينغضون اليك رؤسهم) أى يحركونها اذاقلت لهم ذلك مستهزئين

(ويقولون متى هو) أي البعث استبعاداً له ونفياً (قل عسى أن يكون قريباً) أي هو قريب وعسى للوجوب (يوم يدعوكم) الى المحاسبة وهو يوم القيامة (فتستجيبون بحمده) أي تجيبون حامدين والباء للحال عن سعيد بن جبير ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك (وتظنون ان لبثتم الا قليلاً) أي لبثاً قليلاً أو زماناً قليلاً في الدنيا أو في القبر (وقل لعبادي) وقل للمؤمنين (يقولوا) للمشركين الكلمة (التي هي أحسن) وألين ولا يخاشنوهم وهي ان يقولوا يهديكم الله (ان الشيطان ١٦٧ ينزغ بينهم) يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليوقع بينهم المشاقة والنزغ ايقاع الشر وافساد ذات البين وقرأ طلحة ينزغ بالكسر وهما لغتان (ان الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً) ظاهر العداوة أو فسر التي هي أحسن بقوله (ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم) بالهداية والتوفيق (أو ان يشأ يعذبكم) بالخذلان أي يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ولا يقولوا لهم انكم من أهل النار وانكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر وقوله ان الشيطان ينزغ بينهم اعتراض (وما أرسلناك عليهم وكيلاً) حافظاً لاعمالهم وموكولاً اليك أمرهم وانما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمداراة (وربك أعلم بمن في السموات والارض) وبأحوالهم وبكل ما يستأهل كل واحد منهم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) فيه اشارة الى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله (وآتينا داود زبوراً) دلالة على وجه تفضيله وانه خاتم الانبياء وان أمته خير الامم لان ذلك مكتوب في زبور داود قال الله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون وهم محمد وأمته ولم يعرف الزبور هنا وعرفه في قوله ولقد كتبنا في الزبور لانه كالعباس وعباس والفضل وفضل (قل ادعوا الذين زعمتم) انها آلهتكم (من دونه) أي من دون الله وهم الملائكة أو عيسى وعزير أو نفر من الجن عبدهم ناس ثم أسلم الجن ولم يشعروا (فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً) أي ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب ولا أن يحولوه من واحد الى آخر

عما تقول (ويقولون متى هو) يعني البعث والقيامة (قل عسى أن يكون قريباً) أي هو قريب (يوم يدعوكم) أي من قبوركم الى موقف القيامة (فتستجيبون بحمده) قال ابن عباس بأمره وقيل بطاعته وقيل مقرين بأنه خالقهم وباعثهم ويحمدونه حين لا ينفعهم الحمد وقيل هذا خطاب مع المؤمنين فانهم يبعثون حامدين (وتظنون ان لبثتم) أي في الدنيا وقيل في القبور (الا قليلاً) وذلك لان الانسان لو مكث في الدنيا وفي القبر ألوفاً من السنين عد ذلك قليلاً بنسبة مدة القيامة والخلود في الآخرة وقيل انهم يستحقرون مدة الدنيا في جنب القيامة قوله سبحانه وتعالى (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن) وذلك ان المشركين كانوا يؤذون المسلمين فشكوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل وقل لعبادي يقولوا يعني للكفار التي هي أحسن أي لا يكافؤهم على سفههم بل يقولون لهم يهديكم الله وكان هذا قبل الاذن في القتال والجهاد وقيل نزلت في عمر بن الخطاب وذلك أنه شتمه بعض الكفار فأمره الله بالعفو وقيل أمر الله المؤمنين أن يقولوا ويفعلوا الخلة التي هي أحسن وقيل الاحسن كلمة الاخلاص لا اله الا الله (ان الشيطان ينزغ بينهم) أي يفسد ويلقي العداوة بينهم (ان الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً) أي ظاهر العداوة قوله عز وجل (ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم) أي يوفقكم للايمان فتؤمنوا (أو ان يشأ يعذبكم) أي يميتكم على الشرك فتعذبوا وقيل معناه ان يشأ يرحمكم فينجيكم من أهل مكة أو ان يشأ يعذبكم أن يسلطهم عليكم (وما أرسلناك عليهم وكيلاً) أي حفيظاً وكفيلاً قيل نسختها آية القتال (وربك أعلم بمن في السموات والارض) يعني ان علمه غير مقصور عليكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الارضين والسموات يعلم حال كل أحد ويعلم ما يليق به من المصالح والمفاسد وقيل معناه انه عالم بأحوالهم واختلاف صورهم وأخلاقهم ومللهم وأديانهم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وذلك انه اتخذ ابراهيم خليلاً وكلم موسى تكليماً وقال لعيسى كن فكان وآتى سليمان ملكاً لا ينبغي لاحد من بعده وآتى داود زبوراً وذلك قوله تعالى (وآتينا داود زبوراً) وهو كتاب أنزله الله على داود يشتمل على مائة وخمسين سورة كلها دعاء وثناء على الله تعالى وتحميد وتمجيد ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ولا أحكام ❁فان قلت❁ لم خص داود في هذه الآية بالذكر دون غيره من الانبياء ❁قلت❁ فيه وجوه أحدها ان الله تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال تعالى وآتينا داود زبوراً وذلك ان داود أعطي مع النبوة الملك فلم يذكره بالملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيهاً على ان الفضل المذكور في هذه الآية المراد به العلم لا الملك والمال الوجه الثاني ان الله سبحانه وتعالى كتب له في الزبور ان محمداً خاتم الانبياء وان أمته خير الامم فلهذا خصه بالذكر الوجه الثالث ان اليهود زعمت أن لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله وآتينا داود زبوراً ومعنى الآية انكم ان تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم واعطاءه القرآن وان الله آتى موسى التوراة وداود الزبور وعيسى الانجيل فلم يبعد أن يفضل محمداً صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا خطاب مع من يقر بتفضيل الانبياء عليهم الصلاة والسلام قوله عز وجل (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) وذلك ان الكفار أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فقال الله عز وجل قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه (فلا يملكون كشف الضر عنكم) أي الجوع والقحط (ولا تحويلاً) أي الى غيركم أو تحويل الحال من

(أولئك) مبتدأ (الذين يدعون) صفة أي يدعونهم آلهة أو يعبدونهم والخبر (يبتغون الى ربهم الوسيلة) يعني ان آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي القربة الى الله عز وجل (أيهم) بدل من واو يبتغون وأي موصولة أي يبتغي من هو (أقرب) منهم الوسيلة الى الله فكيف بغير الاقرب أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون فكأنه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب الى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون انهم آلهة (ان عذاب ربك كان محذورا) حقيقا بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلا عن غيرهم (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا) قيل الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة (كان ذلك في الكتاب) في اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوبا وعن مقاتل وجدت في كتب الضحاك في تفسيرها أما مكة فتخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف وأما خراسان فعذابها ضروب وأما بلخ فتصيبهم هدة فيهلك أهلها وأما بذخشان فتخربها أقوام وأما ترمذ فأهلها يموتون بالطاعون وأما صغانيان الى واشجرد فيقتلون بقتل ذريع وأما سمرقند فيغلب عليها بنو قنطوراء فيقتلون أهلها قتلا ذريعا وكذا فرغانة والشاش واسبيجاب وخوارزم

وأما بخارى فهي أرض الجبابرة فيموتون قحطا وجوعا وأما مرو فيغلب عليها الرمل ويهلك بها العلماء والعباد وأما هراة فيمطرون بالحيات فتأكلهم أكلا وأما نيسابور فيصيب أهلها رعد وبرق وظلمة فيهلك أكثرهم وأما الري فيغلب عليها الطبرية والديلم فيقتلونهم وأما أرمينية واذربيجان فيهلكها سنابك الخيول والجيوش والصواعق والرواجف وأما همذان فالديلم يدخلها ويخربها وأما حلوان فتمر بها ريح ساكنة وهم نيام فيصبح أهلها قردة وخنازير ثم يخرج رجل من جهينة فيدخل مصر فويل لاهلها ولاهل دمشق وويل لاهل افريقية وويل لاهل الرملة ولا يدخل بيت المقدس وأما سجستان فيصيبهم ريح عاصف أياما ثم هدة تأتيهم ويموت فيها العلماء وأما كرمان وأصبهان وفارس فيأتيهم عدو وصاح وصيحة تخلع القلوب وتموت الابدان (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون) استعير المنع لترك ارسال الآيات وان الاولى مع صلتها في موضع النصب لانها مفعول ثان لمنعنا وان الثانية مع صلتها في موضع الرفع لانها فاعل منعنا والتقدير وما منعنا ارسال الآيات الا تكذيب الاولين والمراد الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ومن احياء الموتى وغير ذلك وسنة الله في الامم ان من اقترح منهم آية فأجيب اليها ثم لم يؤمن ان يعاجل بعذاب الاستئصال والمعنى وما منعنا عن ارسال ما يقترحونه من الآيات الا ان كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود وانها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وعذبوا العذاب المستأصل وقد حكمنا أن نؤخر أمر من بعثت اليهم الى يوم القيامة ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا واحدة وهي ناقة صالح عليه السلام لان آثارهم لا كـ... ...صرها صادرهم وواردهم فقال

العسر الى اليسر ومقصود الآية الرد على المشركين حيث قالوا ليس لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله فنحن نعبد المقربين اليه وهم الملائكة ثم انهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالا وصورة وقد اشتغلوا بعبادته فاحتج على بطلان قولهم بهذه الآية وبين عجز آلهتهم ثم قال تعالى (أولئك الذين يدعون) أي الذين يدعونهم المشركون آلهة (يبتغون الى ربهم الوسيلة) أي القربة والدرجة العليا قال ابن عباس هم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقال عبد الله بن مسعود نزلت هذه الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم أولئك الجن ولم يعلم الانس بذلك فتمسكوا بعبادتهم فعيرهم الله وأنزل هذه الآية وقوله تعالى (أيهم أقرب) معناه ينظرون أيهم أقرب الى الله فيتوسلون به وقيل أيهم أقرب يبتغي الوسيلة الى الله ويتقرب اليه بالعمل الصالح وازدياد الخير والطاعة (ويرجون رحمته) أي جنته (ويخافون عذابه) وقيل معناه يرجون ويخافون كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة (ان عذاب ربك كان محذورا) أي حقيقا بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلا عن غيرهم من الخلائق قوله سبحانه وتعالى (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) أي بالموت والخراب (أو معذبوها عذابا شديدا) أي بالقتل وأنواع العذاب اذا كفروا وعصوا وقيل الاهلاك في حق المؤمنين الاماتة وفي حق الكفار العذاب قال عبد الله بن مسعود اذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله في هلاكها (كان ذلك في الكتاب) أي في اللوح المحفوظ (مسطورا) أي مكتوبا مثبتا عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال ما أكتب قال اكتب القدر وما هو كائن الى يوم القيامة الى الابد أخرجه الترمذي قوله سبحانه وتعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون) قال ابن عباس سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وفضة وأن ينحي الجبال عنهم ليزرعوا فأوحى الله الى رسوله صلى الله عليه وسلم ان شئت أن أستأني بهم فعلت وان شئت أن أوتيهم ما سألوا فعلت فان لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا بل تستأني بهم فأنزل الله عز وجل وما منعنا أن نرسل بالآيات أي التي سألها كفار قومك الا أن كذب بها الاولون أي فأهلكناهم فان لم يؤمن قومك بعد ارسال الآيات أهلكناهم لان من سنتنا في الامم اذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد اتيانها أن نهلكهم ولا نمهلهم وقد حكمنا بامهال هذه الامة الى يوم القيامة ثم ذكر من تلك الآيات التي

اقترحها

(وآتينا ثمود الناقة) باقتراحهم (مبصرة) آية بينة (فظلموا) بها فكفروا بها (وما نرسل بالآيات) ان أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى لا نرسلها (الا تخويفا) من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له فان لم يخافوا وقع عليهم وان أراد غيرها فالمعنى وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها الا تخويفا وانذارا بعذاب الآخرة وهو مفعول له (واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس) واذكر اذ أوحينا اليك ان ربك أحاط بقريش علما وقدرة فكلهم في قبضته فلا تبال بهم وامض لأمرك وبلغ ما أرسلت به أو بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم وذلك قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد فجعله كان قد كان ووجد فقال أحاط بالناس على سنته في اخباره ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه فقد كان يقول حين ورد ماء بدر والله لكأني أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض ويقول هذا مصرع فلان فتسامعت قريش بما أوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر بدر وما أرى في منامه من مصارعهم فكانوا يضحكون ويسخرون ويستعجلون به استهزاء (والشجرة الملعونة في القرآن) أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن الا فتنة للناس فانهم حين سمعوا بقوله ان شجرة الزقوم طعام الاثيم جعلوها سخرية وقالوا ان محمدا يزعم ان الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول تنبت فيها الشجرة وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ذلك فانه لا يمتنع ان يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكلها النار فوبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك يتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها وخلق في كل شجرة نارا فلا تحرقها فجاز أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها والمعنى ان الآيات انما نرسل تخويفا للعباد وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وخوفوا بعذاب الآخرة وبشجرة الزقوم فما أثر فيهم ثم قال (ونخوفهم) أي بمخاوف الآخرة (فما يزيدهم) التخويف (الا طغيانا كبيرا) فكيف يخاف قوم هذه حالهم بارسال ما يقترحون من

اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا فقال تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أي بينة وذلك لان آثارهلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم (فظلموا بها) أي جحدوا انها من عند الله وقيل فظلموا أنفسهم بتكذيبها فعاجلناهم بالعقوبة (وما نرسل بالآيات) المقترحة (الا تخويفا) أي وما نرسل بالآيات الا تخويفا من نزول العذاب فان لم يخافوا وقع عليهم وقيل معناه وما نرسل بالآيات يعني العبر والدلالات الا تخويفا أي انذارا بعذاب الآخرة ان لم يؤمنوا فان الله سبحانه وتعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يرجعون قوله عز وجل (واذ قلنا لك) أي واذكر يا محمد اذ قلنا لك (ان ربك أحاط بالناس) أي ان قدرته محيطة بهم فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته واذا كان الامر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الامور الا بقضائه وقدره وهو حافظك ومانعك منهم فلا تهبهم وامض لما أمرك من التبليغ للرسالة فهو ينصرك ويقويك على ذلك (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس) الاكثرون من المفسرين على ان المراد منها ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من العجائب والآيات قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وهي ليلة أسري به الى بيت المقدس أخرجه البخاري وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم والعرب تقول رأيت بعيني رؤية ورؤيا فلما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أنكر بعضهم ذلك وكذبوا فكانت فتنة للناس وازداد المخلصون ايمانا وقال قوم أسري بروحه دون جسده وهو ضعيف وقال قوم كان له معراجان معراج رؤية عين في اليقظة ومعراج رؤيا منام وقيل أراد بهذه الرؤيا ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه فعجل المسير الى مكة قبل الاجل فصده المشركون فرجع الى المدينة فكان رجوعه في ذلك العام بعد ما أخبر انه يدخلها فتنة لبعضهم ثم دخل مكة في العام المقبل وأنزل الله عز وجل لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقيل ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أن ولد الحكم بن أمية يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة فساءه ذلك فان اعترض معترض على هذا التفسير وقال السورة مكية وهاتان الواقعتان كانتا بالمدينة أجيب بأنه لا اشكال فيه فانه لا يبعد ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى ذلك بمكة ثم كان ذلك حقيقة بالمدينة (والشجرة الملعونة في القرآن) يعني شجرة الزقوم التي وصفها الله تعالى في سورة الصافات والعرب تقول لكل طعام كريه طعام ملعون والفتنة فيها ان أبا جهل قال ان ابن أبي كبشة يعني النبي صلى الله عليه وسلم توعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنه تنبت فيها شجرة وتعلمون ان النار تحرق الشجر وقيل ان عبد الله بن الزبعرى قال ان محمدا يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم الا الزبد والتمر فقال أبو جهل يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بزبد وتمر فقال يا قوم تزقموا فان هذا ما يخوفكم به محمد فأنزل الله سبحانه وتعالى حين عجبوا ان يكون في النار شجر انا جعلناها فتنة للظالمين الآيات ﴿فان قلت﴾ أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن ﴿قلت﴾ لعنت حيث لعن الكفار الذين يأكلونها لان الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن وانما وصفت بلعن أصحابها على المجاز وقيل وصفها الله تعالى باللعن لان اللعن الابعاد من الرحمة وهي في أصل جهنم في أبعد مكان من الرحمة وقال ابن عباس في رواية عنه ان الشجرة الملعونة هي الكشوث الذي يلتوي على الشجر والشوك فيجففه (ونخوفهم فما يزيدهم) أي التخويف (الا طغيانا كبيرا) أي تمردا وعتوا عظيما قوله سبحانه

الآيات وقيل الرؤيا هي الاسراء وا الفتنة ارتداد من استعظم ذلك وبه تعلق من يقول كان الاسراء في المنام ومن قال كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية وانما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له لعلها رؤيا رأيتها استبعادا منهم كما سمى أشياء باسمائها عند الكفرة كقوله فراغ الى آلهتهم أين شركائي أوهي رؤياه انه سيدخل مكة والفتنة الصد بالحديبية * فان قلت ليس في القرآن ذكر لعن شجرة الزقوم * قلت معناه والشجرة الملعونة آكلها وهم الكفرة لانه قال ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالؤن منها البطون فوصفت بلعن أهلها على المجاز ولان العرب تقول لكل طعام مكروه ضار ملعون ولان اللعن هو الابعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) هو تمييز أو حال من الموصول والعامل فيه أأسجد على أأسجد له وهو طين أي أصله طين ١٧٠ (قال أرأيتك هذا الذي) الكاف لا موضع لها لانها ذكرت للخطاب تأكيدا هذا مفعول به والمعنى اخبرني عن هذا الذي (كرمت علي) أي فضلته لم كرمته علي وأنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فحذف ذلك اختصارا لدلالة ما تقدم عليه ثم ابتدأ فقال (لئن أخرتني) وبلا ياء كوفي وشامي واللام موطئة للقسم المحذوف (الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته) لأستأصلنهم باغوائهم (الا قليلا) وهم المخلصون قيل من كل ألف واحد وانما علم الملعون ذلك بالاعلام أولانه رأى أنه خلق شهواني (قال اذهب) ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء وانما معناه امض لشأنك الذي اخترته خذلانا وتخلية ثم عقبه بذكر ما جره سوء اختياره فقال (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) والتقدير فان جهنم جزاؤهم وجزاؤك ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم وانتصب (جزاء موفورا) أي موفرا باضمار تجازون (واستفزز) استزل أو استخف استفزه أي استخفه والفز الخفيف (من استطعت منهم بصوتك) بالوسوسة أو بالغناء أو بالمزمار (وأجلب عليهم) أجمع وصح بهم من الجلبة وهو الصياح (بخيلك ورجلك) بكل راكب وماش من أهل العيث فالخيل الخيالة والرجل اسم جمع للراجل ونظيره الركب والصحب ورجلك حفص على أن فعلا بمعنى فاعل كتعب وتاعب ومعناه وجمعك الرجل وهذا لان أقصى ما يستطاع في طلب الامور الخيل والرجل وقيل يجوز أن يكون لابليس خيل ورجال (وشاركهم في الاموال والاولاد) قال الزجاج كل معصية في مال وولد فابليس شريكهم فيها كالربا والمكاسب المحرمة والبحيرة والسائبة والانفاق في الفسوق والاسراف ومنع الزكاة والتوصل الى الاولاد بالسبب الحرام والتسمية بعبد العزى وعبد شمس (وعدهم) المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالانساب الشريفة وايثار العاجل على الآجل

وتعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) أي من طين وذلك ان آدم خلق من تراب الارض من عذبها وملحها فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقي (قال) يعني ابليس (أرأيتك) الكاف للخاطب والمعنى أخبرني (هذا الذي كرمت علي) أي فضلته علي (لئن أخرتني) أي أمهلتني (الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته) أي لأستأصلنهم بالاضلال وقيل معناه لأقودنهم كيف شئت وقيل لأستولين عليهم بالاغواء (الا قليلا) يعني المعصومين الذين استثناهم الله تعالى في قوله ان عبادي ليس لك عليهم سلطان (قال) الله تعالى (اذهب) أي امض لشأنك وليس هو من الذهاب الذي هو ضد المجيء (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) أي جزاؤك وجزاء أتباعك (جزاء موفورا) أي مكملا قوله سبحانه وتعالى (واستفزز) أي استخف واستزل واستجهل وأزعج (من استطعت منهم) أي من ذرية آدم (بصوتك) قال ابن عباس معناه بدعائك الى معصية الله وكل داع الى معصية الله فهو من جند ابليس وقيل أراد بصوتك الغناء والمزامير واللهو واللعب (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) أي اجمع عليهم مكايدك وحبائلك واحثثهم على الاغواء وقيل معناه استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم يقال ان له خيلا ورجلا من الجن والانس فكل من قاتل أو مشى في معصية الله فهو من جند ابليس وقيل المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل المجد في الامر جئتنا بخيلك ورجلك (وشاركهم في الاموال والاولاد) أما المشاركة في الاموال فكل مال أصيب من حرام أو أنفق في حرام وقيل هو الربا وقيل هو ما كانوا يذبحونه لآلهتهم ويحرمونه كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام وأما المشاركة في الاولاد فروي عن ابن عباس انها الموؤدة وقيل أولاد الزنا وعن ابن عباس أيضا هي تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد الحرث وعبد شمس ونحوه وقيل هو أن رغبوا أولادهم في الاديان الباطلة الكاذبة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ونحوها وقيل ان الشيطان يقعد على ذكر الرجل وقت الجماع فاذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما ينزل الرجل وروي في بعض الاخبار ان فيكم مغربين قيل وما المغربون قال الذين شارك فيهم الجن وعن ابن عباس انه سأله رجل فقال ان امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار قال ذلك من وطء الجن (وعدهم) أي منهم الجميل في طاعتك وقيل قل لهم لا جنة ولا نار ولا بعث وذلك أن الشيطان اذا دعا الى المعصية فلا بد أن يقرر أولا أنه لا مضرة في فعلها ألبتة وذلك لا يمكن الا اذا قال له لا معاد ولا جنة ولا نار ولا حياة بعد هذه الحياة فيقرر عند المدعو أنه لا مضرة ألبتة في هذه المعاصي واذا فرغ من هذا النوع قرر عنده ان هذا الفعل يفيد أنواعا من اللذة والسرور ولا حياة للانسان في الدنيا الا به فهذا طريق الدعوة الى المعصية ثم ينفره عن فعل الطاعات وهو انه يقرر عنده ان لا جنة ولا نار ولا عقاب فلا فائدة فيها

(وما يعدهم الشيطان الا غرورا) هو تزيين الخطاء بما يوهم أنه صواب (ان عبادى) الصالحين (ليس لك عليهم سلطان) يد بتقييد بل الايمان ولكن بتسويل العصيان (وكفى بربك وكيلا) لهم يتوكلون به فى الاستعاذة منك أو حافظا لهم عنك والكل أمر تهديد فيه اقيب به أو اهانة أى لايخل ذلك بملكى (ربكم الذى يزجى) يجرى ويسير (لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله) يعنى الربح فى التجارة (انه كان بكم رحيما واذا مسكم الضر فى البحر) أى خوف الغرق (ضل من تدعون الا اياه) ذهب عن أوهامكم كل من تدعونه فى حوادثكم الا اياه وحده فانكم لاتذكرون سواه أو ضل ماتدعون من الآلهة عن اغاثتكم ولكن الله وحده الذى ترجونه على الاستثناء المنقطع (فلما نجاكم الى البر أعرضتم) عن الاخلاص بعد الخلاص (وكان الانسان) أى الكافر (كفورا) للنعم (أفأمنتم) الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الاعراض (أن يخسف بكم جانب البر) انتصب جانب بيخسف مفعولا به كالارض فى قوله فخسفنا به وبداره الارض وبكم حال والمعنى أن يخسف جانب البر أى يقلبه وأنتم عليه والحاصل أن الجوانب كلها فى قدرته سواء وله فى كل جانب برا كان أو بحرا سبب من أسباب الهلاك ليس جانب البحر وحده مختصا به بل ان كان الغرق فى جانب البحر ففى جانب البر الخسف وهو تغييب تحت التراب والغرق تغييب تحت الماء فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله فى جميع الجوانب وحيث كان (أو يرسل عليكم حاصبا) هى الريح التى تحصب أى ترمى بالحصباء يعنى أو ان لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء (ثم لاتجدوا لكم وكيلا) يصرف ذلك عنكم (أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم) أى أم أمنتم ان يقوى دواعيكم ويوفر حوائجكم الى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذى نجاكم منه فأعرضتم فينتقم منكم بان يرسل عليكم (قاصفا من الريح) وهى الريح التى لها قصيف وهو الصوت الشديد أو هو الكاسر للفلك

وقيل معنى عدهم أى شفاعة الاصنام عند الله وايثار العاجل على الآجل ﴿فان قلت﴾ كيف ذكر الله هذه الاشياء بصيغة الامر والله سبحانه وتعالى يقول ان الله لا يأمر بالفحشاء ﴿قلت﴾ هذا على طريق التهديد كقوله تعالى اعملوا ماشئتم وكقول القائل اجتهد جهدك فسترى ماينزل بك وقوله سبحانه وتعالى (وما يعدهم الشيطان الا غرورا) أى يزين الباطل بما يظن أنه حق واعلم أن الله سبحانه وتعالى لما قال وعدهم أردفه بما هو زاجر عن قبول وعده بقوله ومايعدهم الشيطان الا غرورا والسبب فيه انه انما يدعو الى قضاء الشهوة وطلب الرياسة ونحو ذلك ولا يدعو الى معرفة الله تعالى ولا الى عبادته وتلك الاشياء التى يدعو اليها خيالية لاحقيقة لها ولا تحصل الا بعد متاعب ومشاق عظيمة واذا حصلت كانت سريعة الذهاب والانقضاء وينغصها الموت والهرم وغير ذلك واذا كانت هذه الاشياء بهذه الصفة كانت الرغبة فيها غرورا (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) يعنى بعباده الانبياء وأهل الفضل والصلاح لانه لا يقدر على اغوائهم (وكفى بربك وكيلا) أى حافظا والمعنى انه سبحانه وتعالى لما أمكن ابليس أن يأتى بما يقدر عليه من الوسوسة كان ذلك سببا لحصول الخوف فى قلب الانسان فقال تعالى وكفى بربك وكيلا أى فالله سبحانه وتعالى أقدر منه وأرحم بعباده فهو يدفع عنهم كيد الشيطان ووساوسه ويعصمهم عن اغوائه واضلاله وفى بعض الآثار ان ابليس لما خرج الى الارض قال يارب أخرجتنى من الجنة لاجل آدم فسلطنى عليه وعلى ذريته قال أنت مسلط قال لا أستطيعه الا بك فزدنى قال استفزز من استطعت منهم الآية فقال آدم يارب سلطت ابليس على وعلى ذريتى وانى لا أستطيعه الا بك قال لايولد لك ولد الا وكلت به من يحفظه قال رب زدنى قال الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها قال رب زدنى قال التوبة معروضة مادام الروح فى الجسد قال رب زدنى فقال ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله الآية وفى الخبر ان ابليس قال يارب بعثت أنبياء وأنزلت كتبا فما قراءتى قال الشعر قال فما كتابتى قال الوشم قال ومن رسلى قال الكهنة قال أى شئ مطعمى قال مالم يذكر عليه اسمى قال فما شرابى قال كل مسكر قال وأين مسكنى قال الحمامات قال وأين مجلسى قال فى الاسواق قال وما حبائلى قال النساء قال وما أذانى قال المزمار قوله سبحانه وتعالى (ربكم الذى يزجى) أى يسوق ويجرى (لكم الفلك) أى السفن (فى البحر لتبتغوا من فضله) أى لتطلبوا من رزقه بالارباح فى التجارة وغيرها (انه كان بكم رحيما) أى حيث يسر لكم هذه المنافع والمصالح وسهلها عليكم (واذا مسكم الضر فى البحر) أى الشدة وخوف الغرق فى البحر (ضل من تدعون) أى ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعون فى حوادثكم من الاصنام وغيرها (الا اياه) أى الا الله وحده فانكم لاتذكرون سواه ولا يخطر ببالكم غيره لانه القادر على اعانتكم ونجاتكم (فلما نجاكم) أى أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وشدته وأخرجكم (الى البر أعرضتم) أى عن الايمان والاخلاص والطاعة وكفرتم النعمة وهو قوله تعالى (وكان الانسان كفورا) أى جحودا (أفأمنتم) أى بعد انجائكم (أن نخسف بكم جانب البر) أى نغوره والمعنى ان الجهات كلها له وفى قدرته برا كان أو بحرا بل ان كان الغرق فى البحر ففى جانب البر ماهو مثله وهو الخسف لانه يغيب تحت الثرى كما أن الغرق يغيب تحت الماء (أو نرسل عليكم حاصبا) أى نمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطرناها على قوم لوط (ثم لاتجدوا لكم وكيلا) أى مانعا وناصرا (أم أمنتم أن نعيدكم فيه) أى فى البحر (تارة) أى مرة (أخرى فنرسل عليكم قاصفا من الريح) قال ابن عباس أى عاصفا وهى الريح الشديدة

وقيل هي الريح التي تقصف كل شيء من شجر وغيره (فيغرقكم بما كفرتم) أي بكفرانكم النعمة واعراضكم حين أنجيناكم (ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) التبيع المطالب والمعنى انا نفعل مانفعل بكم ثم لاتجدون لكم أحدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا لكم ودركا للثأر من جهتنا وقيل معناه من يتبعنا بالانكار علينا قوله سبحانه وتعالى (ولقد كرمنا بني آدم) قال ابن عباس هو انهم يأكلون بالايدى وغير الآدمى يأكل بفيه من الارض وقال أيضا بالعقل وقيل بالنطق والتمييز والخط والفهم وقيل باعتدال القامة وامتدادها وقيل بحسن الصورة وقيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقيل بتسليطهم على جميع مافي الارض وتسخيره لهم وقيل بحسن تدبيرهم أمر المعاش والمعاد وقيل بأن منهم خير أمة أخرجت للناس (وحملناهم في البر) أى على الابل والخيل والبغال والحمير (والبحر) أى وحملناهم في البحر على السفن وهذا من مؤكدات التكريم لان الله سبحانه وتعالى سخر لهم هذه الاشياء لينتفعوا بها ويستعينوا بها على مصالحهم (ورزقناهم من الطيبات) يعني لذيذ المطاعم والمشارب وقيل الزبد والتمر والحلواء وجعل رزق غيرهم مما لايخفى وقيل ان جميع الاغذية اما نباتية واما حيوانية ولا يتغذى الانسان الا بالطيب من القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الانسان (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) واعلم ان الله تعالى قال في أول الآية ولقد كرمنا بني آدم وفي آخرها وفضلناهم ولابد من الفرق بين التكريم والتفضيل والا لزم التكرار والاقرب أن يقال ان الله تعالى كرم الانسان على سائر الحيوان بأمور خلقية ذاتية طبيعية مثل العقل والنطق والخط وحسن الصورة ثم انه سبحانه وتعالى عرفه بواسطة ذلك العقل والفهم اكتساب العقائد الصحيحة والاخلاق الفاضلة فالاول هو التكريم والثاني هو التفضيل ثم قال سبحانه وتعالى على كثير ممن خلقنا تفضيلا ظاهر الآية يدل على انه فضل بني آدم على كثير ممن خلق لا على الكل فقال قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملائكة وهذا مذهب المعتزلة وقال الكلبي فضلوا على الخلائق كلهم الا على طائفة من الملائكة مثل جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وأشباههم وقيل فضلوا على جميع الخلائق وعلى الملائكة كلهم * فان قلت * كيف تصنع بكثير * قلت * يوضع الاكثر موضع الكل كقوله تعالى يلقون السمع وأكثرهم كاذبون أراد كلهم وفي الحديث عن جابر يرفعه قال لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال تعالى لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان وقيل بالتفصيل وهو الاولى والراجح أن خواص بني آدم وهم الانبياء أفضل من خواص الملائكة وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر من بني آدم وهذا التفضيل انما هو بين الملائكة والمؤمنين من بني آدم لان الكفار لا حرمة لهم قال الله سبحانه وتعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة الذين عنده قوله عز وجل (يوم ندعوا كل أناس بامامهم) أي بنبيهم وقيل بكتابهم الذى أنزل عليهم وقيل بكتاب أعمالهم وعن ابن عباس بامام زمانهم الذى دعاهم في الدنيا اما الى هدى واما الى ضلال وذلك ان كل قوم يجتمعون الى رئيسهم في الخير والشر وقيل بمعبودهم وقيل بامامهم جمع أم يعني بامهاتهم والحكمة فيه رعاية حق عيسى عليه السلام واظهار شرف الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وان لا يفتضح أولاد الزنا (فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم) * فان قلت لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع ان أصحاب الشمال يقرؤنه أيضا * قلت الفرق ان أصحاب الشمال اذا اطلعوا كتابهم وجدوه مشتملا على مشكلات عظيمة فيستولى عليهم الخجل والدهشة فلا يقدرون

(فيغرقكم بما كفرتم) بكفرانكم النعمة وهو اعراضكم حين نجاكم (ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) مطالبا من قوله فاتباع بالمعروف أي مطالبة والمعنى انا نفعل مانفعل بهم ثم لايجدوا أحدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثأر من جهتنا وهذا نحو قوله ولا يخاف عقباها ان نخسف أو نرسل أن نعيدكم فنرسل فنغرقكم بالنون مكي وأبو عمرو (ولقد كرمنا بني آدم) بالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد والاستيلاء وتسخير الاشياء وتناول الطعام بالايدى وعن الرشيد أنه أحضر طعاما فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف رحمه الله فقال له جاء في تفسير جدك ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق فردها وأكل بأصابعه (وحملناهم في البر) على الدواب (والبحر) على السفن (ورزقناهم من الطيبات) باللذات أو بما كسبت أيديهم (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) أي على الكل كقوله وأكثرهم كاذبون قال الحسن أى كلهم وقوله وما يتبع أكثرهم الا ظنا ذكر في الكشاف أن المراد بالاكثر الجميع وعنه عليه السلام المؤمن أكرم على الله من الملائكة وهذا لانهم مجبولون على الطاعة ففيهم عقل بلا شهوة وفي البهائم شهوة بلا عقل وفي الآدمى كلاهما فمن غلب عقله شهوته فهو أكرم من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم ولانه خلق الكل لهم وخلقهم لنفسه (يوم ندعوا) منصوب باذكر (كل أناس بامامهم) الباء للحال والتقدير مختلطين بامامهم أي بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين فيقال يا اتباع فلان يا أهل دين كذا أو كتاب كذا وقيل بكتاب أعمالهم فيقال يا أصحاب كتاب الخير ويا أصحاب كتاب الشر (فمن أوتي) من المدعوين (كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم) وانما قيل أولئك لان من في معنى الجمع

على

(ولا يظلمون فتيلا) ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شئ ولم يذكر الكفار وايتاء كتبهم بشمالهم اكتفاء بقوله (ومن كان فى هذه) الدنيا (أعمى فهو فى الآخرة أعمى) كذلك (وأضل سبيلا) من الاعمى أى أضل طريقا والاعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته لمن لا يهتدى الى طريق النجاة أما فى الدنيا فلفقدا النظر وأما فى الآخرة فلانه لا ينفعه الاهتداء اليه وقد جوزوا أن يكون الثانى بمعنى التفضيل بدليل عطف وأضل ومن ثم قرأ أبو عمرو الاول ممالا والثانى مفخما لان أفعل التفضيل تمامه بمن فكانت ألفه فى حكم الواقعة فى وسط الكلمة فلا يقبل الامالة وأما الاول فلم يتعلق به شئ فكانت ألفه واقعة فى الطرف فقبلت الامالة وأمالهما حمزة وعلى وفخمهما الباقون ولما قالت قريش اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك نزل (وان كادوا ليفتنونك) ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية والمعنى ان الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فاتنين (عن الذى أوحينا اليك) من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفترى علينا غيره) لتتقول علينا ما لم نقل يعنى ما اقترحوه من تبديل الوعد وعيدا والوعيد وعدا (واذا لاتخذوك خليلا) أى ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك خليلا ولكنت لهم وليا وخرجت من ولايتى (ولولا أن ثبتناك) ولولا تثبيتنا وعصمتنا (لقد كدت تركن اليهم) لقاربت أن تميل الى مكرهم (شيأ قليلا) ركونا قليلا وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت (اذا) لو قاربت تركن اليهم أدنى ركنة (لأذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات) لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين لعظم ذنبك بشرف منزلتك ونبوتك كما قال يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة الآية وأصل الكلام لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات لان العذاب عذابان عذاب فى الممات وهو عذاب القبر وعذاب فى حياة الآخرة وهو عذاب النار والعذاب يوصف بالضعف كقوله فآتهم عذابا ضعفا من النار أى مضاعفا فكان أصل الكلام لأذقناك عذابا ضعفا فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف ثم أضيفت الصفة اضافة الموصوف فقيل ضعف الحياة وضعف الممات ويجوز أن يراد بضعف الحياة عذاب الحياة الدنيا وبضعف الممات ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار وفى ذكر الكيدودة تقليلها مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف فى الدارين دليل على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله ولما نزلت كان عليه السلام يقول اللهم لا تكلنى الى نفسى طرفة عين (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) معينا لك يمنع عذابنا عنك (وان كادوا) أى أهل مكة (ليستفزونك) ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم (من الارض) أى (ليخرجوك منها)

على اقامة حروفه فتكون قراءتهم كلا قراءة وأصحاب اليمين اذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على الحسنات والطاعات فيقرؤنه أحسن قراءة وأبينها (ولا يظلمون فتيلا) أى ولا ينقصون من ثواب أعمالهم أدنى شئ (ومن كان فى هذه أعمى) المراد عمى القلب والبصيرة لا عمى البصر والمعنى ومن كان فى هذه الدنيا أعمى أى عن هذه النعم التى قد عددها فى هذه الآيات المتقدمة (فهو فى الآخرة) أى التى لم تعاين ولم تر (أعمى وأضل سبيلا) قاله ابن عباس وقيل معناه ومن كان فى هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق فهو فى الآخرة أعمى أى أشد عمى وأضل سبيلا أى أخطأ طريقا وقيل معناه ومن كان فى الدنيا كافرا ضالا فهو فى الآخرة أعمى لانه فى الدنيا تقبل توبته وفى الآخرة لا تقبل توبته قوله سبحانه وتعالى (وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك) قيل فى سبب نزولها ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يستلم الحجر الاسود فمنعته قريش وقالوا لا ندعك حتى تلم بآلهتنا وتمسها فحدث نفسه ما على أن أفعل ذلك والله يعلم أنى لها كاره بعد أن يدعونى أستلم الحجر وقيل طلبوا منه أن يذكر آلهتهم حتى يسلموا ويتبعوه فحدث نفسه فأنزل الله هذه الآية وقال ابن عباس قدم وفد ثقيف على النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال قال وما هن قالوا لا نجبى فى الصلاة أى لا ننحنى ولا نكسر أصنامنا بأيدينا وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا خير فى دين لا ركوع فيه ولا سجود وأما أن لا تكسروا أصنامكم بأيديكم فذاك لكم وأما الطاغية يعنى اللات والعزى فانى غير ممتعكم بها قالوا يا رسول الله انا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا فان خشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله أمرنى بذلك فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فطمع القوم فى سكوته أن يعطيهم ذلك فأنزل الله تعالى وان كادوا أى هموا ليفتنونك أى ليصرفونك عن الذى أوحينا اليك (لتفترى) أى لتختلق وتبتدع (علينا غيره) أى ما لم نقله (واذا) أى لو فعلت ما دعوك اليه (لاتخذوك خليلا) أى والوك ووافوك وصافوك (ولولا أن ثبتناك) أى على الحق بعصمتنا اياك (لقد كدت تركن) أى تميل (اليهم شيأ قليلا) أى قربت من الفعل ﴿فان قلت﴾ كان النبى صلى الله عليه وسلم معصوما فكيف يجوز أن يقرب مما طلبوه ﴿قلت﴾ كان ذلك خاطر قلب ولم يكن عزما وقد عفا الله تعالى عن حديث النفس وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول بعد ذلك اللهم لا تكلنى الى نفسى طرفة عين * والجواب الصحيح هو ان الله سبحانه وتعالى قال ولولا أن ثبتناك وقد ثبته الله فلم يركن اليهم (اذا لأذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات) أى لو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يعنى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) أى ناصرا يمنعك من عذابنا قوله سبحانه وتعالى (وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها) قيل هذه الآية مدنية وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة وذلك حسدا فأتوه فقالوا يا أبا

القاسم لقد علمت ما هذه بأرض الانبياء وان أرض الانبياء الشأم وهي الارض المقدسة وكان بها ابراهيم والانبياء عليهم السلام فان كنت نبيا مثلهم فائت الشأم وانما يمنعك من الخروج اليها مخافة الروم وان الله سيمنعك من الروم ان كنت رسوله فعسكر النبي صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أميال من المدينة وفي رواية الى ذي الحليفة حتى يجتمع اليه أصحابه فيخرج فانزل الله هذه الآية فالارض هنا أرض المدينة وقيل الارض أرض مكة والآية مكية والمعنى هم المشركون أن يخرجوه منها فكفهم الله عنه حتى أمره بالخروج للهجرة فخرج بنفسه وهذا أليق بالآية لان ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية وقيل هم المشركون كلهم وأرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه فمنع الله رسوله ولم ينالوا منه ما أملوه والاستفزاز الازعاج (واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا) أي لا يبقون بعد اخراجك الا زمانا قليلا حتى يهلكوا قوله سبحانه وتعالى (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) يعني ان كل قوم أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم فسنة الله أن يهلكهم وأن لا يعذبهم ما دام نبيهم بينهم فاذا خرج من بين أظهرهم عذبهم (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أي تبديلا قوله سبحانه وتعالى (أقم الصلوة لدلوك الشمس) روى عن ابن مسعود أنه قال الدلوك الغروب وهو قول النخعي ومقاتل والضحاك والسدي وقال ابن عباس وابن عمر وجابر هو زوال الشمس وهو قول عطاء وقتادة ومجاهد والحسن وأكثر التابعين ومعنى اللفظ يجمعهما لان أصل الدلوك الميل والشمس تميل اذا زالت واذا غربت والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به واذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها فدلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر (الى غسق الليل) أي ظهور ظلمته وقال ابن عباس بدو الليل وهذا يتناول المغرب والعشاء (وقرآن الفجر) يعني صلاة الفجر سمى الصلاة قرآنا لانها لا تجوز الا بقرآن (ان قرآن الفجر كان مشهودا) أي يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار (خ) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تفضل صلاة الجمع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزأ وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهودا قال الامام فخر الدين الرازي في تفسيره هذا دليل قاطع قوي على ان التغليس أفضل من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من أول الصبح ففي ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار أما اذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت الاسفار فهناك لم يبق أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور في هذه الآية فثبت ان قوله تعالى ان قرآن الفجر كان مشهودا دليل على ان الصلاة في أول وقتها أفضل قوله سبحانه وتعالى (ومن الليل فتهجد به) أي قم بعد نومك والتهجد لا يكون الا بعد القيام من النوم والمراد من الآية قيام الليل للصلاة وكانت صلاة الليل فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الامة في الابتداء لقوله تعالى يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخا في حق الامة بالصلوات الخمس وبقي قيام الليل على الاستحباب بدليل قوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه وبقي الوجوب ثابتا في حق النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى (نافلة لك) أي زيادة لك يريد فريضة زائدة على سائر الفرائض التي فرضها الله عليك روى عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن على فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل وقيل ان الوجوب صار منسوخا في حقه كما في حق الامة فصار قيام الليل نافلة لان الله سبحانه وتعالى قال نافلة لك ولم يقل عليك ❊فان قلت❊ ما معنى التخصيص اذا كان زيادة في حق المسلمين كما في حقه صلى الله عليه وسلم ❊قلت❊ فائدة التخصيص ان النوافل كفارات لذنوب العباد والنبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت له نافلة وزيادة في رفع الدرجات.

أو اذا لا يلبثون) لا يبقون (خلفك) بعدك أي بعد اخراجك خلافك كوفي غير أبي بكر وشامي بمعناه (الا قليلا) زمانا قليلا فان الله مهلكهم وكان كما قال فقد أهلكوا ببدر بعد اخراجه بقليل أو معناه ولو اخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم ولم يخرجوه بل هاجر بأمر ربه وقيل من أرض العرب أو من أرض المدينة (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم ونصبت نصب المصدر المؤكد أي سن الله ذلك سنة (ولا تجد لسنتنا تحويلا) تبديلا (أقم الصلوة لدلوك الشمس) لزوالها وعلى هذا الآية جامعة للصلوات الخمس أو لغروبها وعلى هذا يخرج الظهر والعصر (الى غسق الليل) هو الظلمة وهو وقت صلاة العشاء (وقرآن الفجر) صلاة الفجر سميت قرآنا وهو القراءة لكونها ركنا كما سميت ركوعا وسجودا وهو حجة على الاصم حيث زعم أن القراءة ليست بركن أو سميت قرآنا لطول قراءتها وهو عطف على الصلاة (ان قرآن الفجر كان مشهودا) يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار أو يشهده الكثير من المصلين في العادة (ومن الليل) وعليك بعض الليل (فتهجد) والتهجد ترك الهجود للصلاة ويقال في النوم أيضا تهجد (به) بالقرآن (نافلة لك) عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس وضع نافلة موضع تهجدا لان التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة أو فريضة عليك خاصة دون غيرك لانه تطوع لهم

فصل

﴿فصل﴾ في الاحاديث الواردة في قيام الليل (ق) عن المغيرة بن شعبة قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا (م) عن زيد بن خالد الجهني قال لأرمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة لفظ أبي داود (ق) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن انه سأل عائشة كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان قالت ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على أكثر من احدى عشرة ركعة يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثا قالت عائشة فقلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال يا عائشة ان عيني تنامان ولا ينام قلبي (ق) عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء الى الفجر احدى عشرة ركعة يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة ويسجد سجدتين قدر ما يسجد ويقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه فاذا سكت المؤذن من صلاة الفجر وتبين له الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الايمن حتى يأتيه المؤذن للاقامة (خ) عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين * عن عوف بن مالك الاشجعي قال قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة الا وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب الا وقف وتعوذ ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ثم سجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة النساء أخرجه أبو داود والنسائي * عن عائشة قالت قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن ليلة أخرجه الترمذي (ق) عن الاسود قال سألت عائشة كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل قالت كان ينام أوله ويقوم آخره فيصلي ثم يرجع الى فراشه فاذا أذن المؤذن وثب فان كانت به حاجة اغتسل والا توضأ وخرج عن أنس * قال ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل مصليا الا رأيناه ولا نشاء أن نراه نائما الا رأيناه أخرجه النسائي زاد في رواية غيره قال وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيأ ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيأ وقوله عز وجل (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) أجمع المفسرون على ان عسى من الله واجب وذلك لان لفظة عسى تفيد الاطماع ومن أطمع انسانا في شئ ثم أحرمه كان ذلك عارا عليه والله أكرم من أن يطمع أحدا ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه والمقام المحمود هو مقام الشفاعة لانه يحمده فيه الاولون والآخرون (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل نبي دعوة مستجابة واني اختبأت دعوتي شفاعة لامتي فهي نائلة منكم ان شاء الله من مات لا يشرك بالله شيأ (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فمن صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فانها منزلة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة (م) عن جابر بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة (ق) عن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك وفي رواية فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ولكن ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله الى أهل الارض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ولكن ائتوا ابراهيم الذي اتخذه الله خليلا فيأتون ابراهيم

فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ولكن ائتوا موسى الذي كلمه الله
وأعطاه التوراة قال فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ولكن
ائتوا عيسى روح الله وكلمته فيأتون عيسى روح الله وكلمته فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدا صلى
الله عليه وسلم عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأستأذن
على ربي تعالى فيؤذن لي فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله فيقال يا محمد ارفع رأسك قل تسمع
سل تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار
وأدخلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال لي ارفع يا محمد رأسك قل تسمع سل
تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم
الجنة قال فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال فأقول يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن أي من
وجب عليه الخلود وفي رواية للبخاري ثم تلا هذه الآية عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال وهذا
المقام المحمود الذي وعده نبيكم صلى الله عليه وسلم زاد في رواية فقال النبي صلى الله عليه وسلم يخرج من النار
من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من
الخير ما يزن برة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة قال يزيد بن زريع
في حديث شعبة ذرة وفي رواية من إيمان مكان خير وفي حديث معبد بن هلال العنزي عن أنس في
حديث الشفاعة وذكر نحوه وفيه فأقول يا رب أمتي أمتي فيقال انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من
مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل قال فلما خرجنا من عند أنس مررنا
بالحسن فسلمنا عليه فحدثناه بالحديث إلى هذا الموضع فقال هيه فقلنا لم يزدنا على هذا فقال لقد حدثني وهو
يومئذ جميع منذ عشرين سنة كما حدثكم ثم قال ثم أعود في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا
فيقال لي يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله
قال ليس ذلك لك أو قال ليس ذاك إليك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن منها من قال
لا إله إلا الله قوله وهو يومئذ جميع أي مجتمع الذهن والرأي عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي
وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر قال فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم فيقولون أنت أبونا اشفع
لنا إلى ربك فيقول إني أذنبت ذنبا عظيما فأهبطت به إلى الأرض ولكن ائتوا نوحا فيأتون نوحا فيقول إني
دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا ولكن اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقول إني كذبت ثلاث
كذبات ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منها كذبة إلا ماحل بها عن دين الله ولكن ائتوا موسى فيأتون
موسى فيقول قد قتلت نفسا ولكن ائتوا عيسى فيأتون عيسى فيقول إني عبدت من دون الله ولكن ائتوا
محمدا فيأتوني فأنطلق معهم قال ابن جدعان قال أنس فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال من هذا فيقال محمد فيفتحون لي ويقولون مرحبا فأخر ساجدا
فيلهمني الله من الثناء والحمد فيقال ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع وقل يسمع لقولك وهو المقام المحمود
الذي قال الله سبحانه وتعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال سفيان ليس عن أنس غير هذه الكلمة
فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال من هذا فيقال محمد فيفتحون لي ويرحبون بي فيقولون مرحبا
فأخر ساجدا فيلهمني الله من الثناء والحمد أخرجه الترمذي قوله ماحل المماحلة المخاصمة والمجادلة والمعنى
أنه عليه الصلاة والسلام خاصم وجادل عن دين الله بتلك الألفاظ التي صدرت منه وقوله فأقعقعها أي
أحركها حركة شديدة والقعقعة حكاية أصوات الترس وغيره مما له صوت * عن أنس قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا ولواء الحمد
يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر أخرجه الترمذي زاد في رواية غير الترمذي وأنا مستشفعهم

(عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) نصب على الظرف أي عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاما محمودا أو ضمن يبعثك معنى يقيمك وهو مقام الشفاعة عند الجمهور ويدل عليه الأخبار أو هو مقام يعطى فيه لواء الحمد

اذا حبسوا الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدى يطوف على خدم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور (م) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تنشق عنه الارض وأول شافع وأول مشفع زاد الترمذى قال أنا أول من تنشق عنه الارض فاكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش فليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيرى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال ان الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام فيشفع ليقضى بين الخلائق فيمشى حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده فيه أهل الجمع كلهم (م) عن يزيد بن صهيب قال كنت قد شغفنى رأى من رأى الخوارج فخرجنا فى عصابة ذوى عدد نريد أن نحج ثم نخرج على الناس قال فمررنا على المدينة فاذا جابر بن عبد الله جالس الى سارية يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا هو قد ذكر الجهنميين فقلت يا صاحب رسول الله ما هذا الذى تحدثونا والله يقول انك من تدخل النار فقد أخزيته وكلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها فما هذا الذى تقولون قال أتقرأ القرآن قلت نعم قال فاقرأ ما قبله انه فى الكفار ثم قال فهل سمعت بمقام محمد الذى يبعثه الله فيه قلت نعم قال فان مقام محمد صلى الله عليه وسلم المحمود الذى يخرج الله به من يخرج من النار قال ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه قال وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك قال غيره انه قد زعم ان قوما يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها قال يعنى فيخرجون كأنهم عيدان السماسم قال فيدخلون نهرا من أنهار الجنة فيغتسلون فيه فيخرجون منه كأنهم القراطيس فرجعنا فقلنا ويحكم أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعنا فلا والله ما خرج غير رجل واحد أو كما قال والاحاديث فى الشفاعة كثيرة وأول من أنكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنة وروى أبو وائل عن ابن مسعود انه قال ان الله اتخذ ابراهيم خليلا وان صاحبكم خليل الله وأكرم الخلق عليه ثم قرأ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال يقعده على العرش وعن مجاهد مثله وعن عبد الله بن سلام قال يقعد على الكرسى قوله عز وجل (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) المراد منهم الادخال والاخراج قال ابن عباس معناه أدخلنى مدخل صدق المدينة وأخرجنى مخرج صدق من مكة نزلت حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقيل معناه أخرجنى من مكة آمنا من المشركين وأدخلنى مكة ظاهرا عليها بالفتح وقيل أدخلنى فى أمرك الذى أرسلتنى به من النبوة مدخل صدق وأخرجنى من الدنيا وقد قمت بما وجب على من حق النبوة مخرج صدق وقيل معناه أدخلنى فى طاعتك مدخل صدق وأخرجنى من المناهى مخرج صدق وقيل معناه أدخلنى حيثما أدخلتنى بالصدق وأخرجنى بالصدق ولا تجعلنى ممن يخرج بوجه ويدخل بوجه فان ذا الوجهين لا يكون آمنا عند الله (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) أى حجة بينة وقيل ملكا قويا تنصرنى به على من عادانى وعزا ظاهرا أقيم به دينك فوعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما ويجعله له وأجاب دعاءه فقال له والله يعصمك من الناس وقال ليظهره على الدين كله وقال وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض الآية قوله تعالى (وقل جاء الحق) يعنى الاسلام والقرآن (وزهق الباطل) أى الشرك والشيطان (ان الباطل كان زهوقا) أى مضمحلا غير ثابت وذلك ان الباطل وان كان له دولة وصولة فى وقت من الاوقات فهو سريع الذهاب والزوال (ق) عن عبد الله بن مسعود قال دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد قوله سبحانه وتعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء) من فى قوله تعالى من القرآن لبيان الجنس والمعنى ننزل من هذا الجنس الذى هو قرآن ما هو شفاء أى بيان من الضلالة والجهالة يتبين به المختلف فيه ويتضح به المشكل ويستشفى به من الشبهة ويهتدى به من الحيرة وهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها وقيل هو شفاء للامراض الباطنة والظاهرة وذلك (٣) لانها تنقسم الى نوعين أحدهما الاعتقادات الباطلة

(وقل رب أدخلنى مدخل صدق) هو مصدر أى أدخلنى القبر ادخالا مرضيا على طهارة من الزلات (وأخرجنى مخرج صدق) أى أخرجنى منه عند البعث اخراجا مرضيا ملقى بالكرامة آمنا من الملامة دليله ذكره على أثر ذلك البعث وقيل نزلت حين أمر بالهجرة يريد ادخال المدينة والاخراج من مكة أو هو عام فى كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) حجة تنصرنى على من خالفنى أو ملكا وعزا قويا ناصرا للاسلام على الكفر مظهرا له عليه (وقل جاء الحق) الاسلام (وزهق) وذهب وهلك (الباطل) الشرك أو جاء القرآن وهلك الشيطان (ان الباطل كان زهوقا) كان مضمحلا فى كل أوان (وننزل) وبالتخفيف أبو عمرو (من القرآن) من للتبيين (ما هو شفاء) من أمراض القلوب

(٣) قوله لانها تنقسم الى نوعين أى الامراض الغير الجسمانية بدليل قوله بعد وأما كونه شفاء من الامراض الجسمانية والعبارة فى الفخر الرازى بغاية التهذيب فليراجع

(ورحمة) وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب (للمؤمنين) وفى الحديث من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله (ولا يزيد الظالمين) الكافرين (الاخسارا) ضلالا لتكذيبهم به وكفرهم (واذا أنعمنا على الانسان) بالصحة والسعة (أعرض) عن ذكر الله أو أنعمنا بالقرآن أعرض (ونأى بجانبه) تأكيد للاعراض لان الاعراض عن الشئ أن يوليه عرض وجهه والنأى بالجانب أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره أو أراد الاستكبار لان ذلك من عادة المستكبرين نأى بالامالة حمزة وبكسرهما على (واذا مسه الشر) الفقر والمرض أو نازلة من النوازل (كان يؤسا) شديد اليأس من روح الله (قل كل) أى كل أحد (يعمل على شاكلته) على مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أسد مذهبا وطريقة (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) أى من أمر يعلمه ربى الجمهور على انه الروح الذى فى الحيوان سألوه عن حقيقته فأخبر انه من أمر الله أى مما استأثر بعلمه وعن أبى هريرة لقد مضى النبى صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقد عجزت الاوائل عن ادراك ماهيته بعد انفاق الاعمار الطويلة على الخوض فيه والحكمة فى ذلك تعجيز العقل عن ادراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على انه عن ادراك خالقه أعجز ولذا رد ما قيل فى حده انه جسم دقيق هوائى فى كل جزء من الحيوان وقيل هو خلق عظيم روحانى أعظم من الملك وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو جبريل عليه السلام نزل به الروح الامين على قلبك وعن الحسن القرآن دليله وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ولان به حياة القلوب ومن أمر ربى أى من وحيه وكلامه ليس من كلام البشر وروى أن اليهود بعثت الى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عن الكل أو سكت عن الكل فليس بنبى وان أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة فندموا على سؤالهم وقيل كان السؤال عن خلق الروح يعنى أهو مخلوق أم لا وقوله من أمر ربى دليل خلق الروح فكان هذا جوابا

والثانى الاخلاق المذمومة أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة فى الذات والصفات والنبوات والقضاء والقدر والبعث بعد الموت فالقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه الاشياء وابطال المذاهب الفاسدة لا جرم كان القرآن شفاء لما فى القلوب من هذا النوع وأما النوع الثانى وهو الاخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على التنفير منها والارشاد الى الاخلاق المحمودة والاعمال الفاضلة فثبت أن القرآن شفاء من جميع الامراض الباطنة وأما كونه شفاء من الامراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الامراض يدل عليه ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فاتحة الكتاب وما يدريك أنها رقية (ورحمة للمؤمنين) لما كان القرآن شفاء الامراض الباطنة والظاهرة فهو جدير بأن يكون رحمة للمؤمنين (ولا يزيد الظالمين الاخسارا) لان الظالم لا ينتفع به والمؤمن ينتفع به فكان رحمة للمؤمنين وخسارا للظالمين وقيل لان كل آية تنزل يتجدد لهم تكذيب بها فيزداد خسارهم قال قتادة لم يجالس القرآن أحد الاقام عنه بزيادة أو نقصان قضاه الله الذى قضى شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الاخسارا قوله سبحانه وتعالى (واذا أنعمنا على الانسان) أى بالصحة والسعة (أعرض) أى عن ذكرنا ودعائنا (ونأى بجانبه) أى تباعد منا بنفسه وترك التقرب الينا بالدعاء وقيل معناه تكبر وتعظم (واذا مسه الشر) أى الشدة والضر (كان يؤسا) أى آيسا قنوطا وقيل معناه انه يتضرع ويدعو عند الضر والشدة فاذا تأخرت الاجابة يئس فلا ينبغى للمؤمن أن يدع الدعاء ولو تأخرت الاجابة قوله عز وجل (قل كل) أى كل أحد (يعمل على شاكلته) قال ابن عباس على ناحيته وقيل الشاكلة الطريقة أى على طريقته التى جبل عليها وفيه وجه آخر وهو ان كل انسان يعمل على حسب جوهر نفسه فان كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه أفعال جميلة وأخلاق زكية طاهرة وان كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه أفعال خبيثة فاسدة رديئة (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى أوضح طريقا وأحسن مذهبا واتباعا للحق قوله سبحانه وتعالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) (ق) عن عبد الله بن مسعود قال بينما أنا أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون فقاموا اليه وفى رواية فقام اليه رجل منهم فقال يا أبا القاسم ما الروح فسكت وفى رواية فقالوا حدثنا عن الروح فقام ساعة ينتظر الوحى وعرفت أنه يوحى اليه فتأخرت حتى صعد الوحى قال ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه وفى رواية وما أوتوا من العلم الا قليلا قال الاعمش هكذا فى قراءتنا العسيب جريد النخل وسعفه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا وقالوا ان محمدا نشأ فينا بالامانة والصدق وما اتهمناه بكذب قط وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم أهل كتاب فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فان أجاب عن كلها أو لم يجب عن شئ منها فليس بنبى وان أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحدة فهو نبى فاسألوه عن فتية فقدوا فى الزمن الاول ما كان شأنهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مشرق الارض ومغربها ما خبره وعن الروح قال فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم فقال أخبركم بما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحى قال مجاهد اثنى عشر يوما وقيل خمسة عشر يوما وقيل أربعين يوما وأهل مكة يقولون قد وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا لا يخبرنا بشئ حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم من

مكث

مكث الوحي وشق عليه ما يقوله أهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ونزل في الفتية أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب قوله ويسئلونك عن ذى القرنين ونزل في الروح ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى واختلفوا في الذى وقع السؤال عنه فروى عن ابن عباس انه جبريل وعن على انه ملك له سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورؤس ليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع السموات والارض ومن فيها بلقمة واحدة لفعل ذلك صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو أقرب الخلق الى الله تعالى اليوم عند الحجب السبعين وأقرب الخلق الى الله يوم القيامة وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق أهل السموات من نوره وقيل الروح هو القرآن لان الله سماه روحا لان به حياة القلوب وقيل هو الروح المركب في الخلق الذى به يحيا الانسان وهو أصح الاقوال وتكلم قوم في ماهية الروح فقال بعضهم هو الدم ألا ترى ان الانسان اذا مات لا يفوت منه شيء الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل انه يموت باحتباس النفس وقال قوم هو عرض وقال قوم هو جسم لطيف يحيا به الانسان وقيل الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ألا ترى انه اذا كان موجودا يكون الانسان موصوفا بجميع هذه الصفات واذا خرج منه ذهب الكل وأقاويل الحكماء والصوفية في ماهية الروح كثيرة وليس هذا موضع استقصائها وأولى الاقاويل أن يوكل علمه الى الله عز وجل وهو قول أهل السنة قال عبد الله بن بريدة ان الله لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل قوله قل الروح من أمر ربى أى من علم ربى الذى استأثر به (وما أوتيتم من العلم) أى من علم ربى (الا قليلا) أى في جنب علم الله عز وجل الخطاب عام وقيل هو خطاب لليهود فانهم كانوا يقولون أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير فقيل لهم ان علم التوراة قليل في جنب علم الله وقيل ان القلة والكثرة تدوران مع الاضافة فوصف الشيء بالقلة مضافا الى ما فوقه وبالكثرة مضافا الى ما تحته وقيل ان النبي صلى الله عليه وسلم علم معنى الروح ولكن لم يخبر به لان ترك الاخبار به كان علما لنبوته والقول الاصح هو ان الله عز وجل استأثر بعلم الروح قوله عز وجل (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك) ومعناه انا كما منعناك علم الروح عنك وعن غيرك ان شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثرا وبقيت كما كنت ما تدرى ما الكتاب (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) معناه لا تجد بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده عليك واعادته محفوظا مسطورا (الا رحمة من ربك) معناه الا أن يرحمك ربك فيرده عليك وقيل هو على الاستثناء المنقطع معناه لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظا * فان قلت * كيف يذهب بالقرآن وهو كلام الله عز وجل * قلت * المراد محو ما في المصاحف واذهاب ما في الصدور قال عبد الله بن مسعود اقرؤا القرآن قبل أن يرفع فانه لا تقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الناس قال يسرى عليه ليلا فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيأ ولا يجدون مما في المصاحف شيأ ثم تفيضون في الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل له دوى حول العرش كدوى النحل فيقول الرب مالك فيقول يا رب أتلى ولا يعمل بى (ان فضله كان عليك كبيرا) أى بسبب بقاء العلم والقرآن عليك وجعلك سيد ولد آدم وختم النبيين بك واعطائك المقام المحمود قوله سبحانه وتعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) أى لا يقدرون على ذلك (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أى عونا نزلت حين قال

(وما أوتيتم من العلم الا قليلا) الخطاب عام فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه فقال بل نحن وأنتم لم تؤتوا من العلم الا قليلا وقيل هو خطاب لليهود خاصة لانهم

قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا فقيل لهم ان علم التوراة قليل في جنب علم الله فالقلة والكثرة من الامور الاضافية فالحكمة التى أوتيها العبد خير كثير في نفسها الا انها اذا أضيفت الى علم الله تعالى فهى قليلة ثم نبه على نعمة الوحى وعزاه بالصبر على أذى الجدل في السؤال بقوله (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك) لنذهبن جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط واللام الداخلة على ان موطئة للقسم والمعنى ان شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثرا (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) أى ثم لا تجد لك بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده واعادته محفوظا مسطورا (الا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيرا) أى الا أن يرحمك ربك فيرده عليك كأن رحمته تتوكل عليه بالرد أو يكون على الاستثناء المنقطع أى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظا بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه ونزل جوابا لقول النضر لو نشاء لقلنا مثل هذا (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) معينا ولا يأتون جواب قسم محذوف ولولا اللام الموطئة لجاز أن يكون جوابا للشرط كقوله * يقول لا غائب مالى ولا حرم * لان الشرط وقع ماضيا أى لو تظاهروا

على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظامه وتأليفه لعجزوا عن الاتيان بمثله (ولقد صرفنا) رددنا وكررنا

(للناس في هذا القرآن من كل مثل) من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه (فأبى أكثر الناس الا كفورا) جحودا وانما جاز فأبى أكثر الناس الا كفورا ولم يجز ضربت الا زيدا لان أبى متأول بالنفي كأنه قيل فلم يرضوا الا كفورا ولما تبين اعجاز القرآن وانضمت اليه المعجزات الاخر ولزمتهم الحجة وغلبوا اقترحوا الآيات فعل المبهوت المحجوج المتحير (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا) وبالتخفيف كوفي (من الارض) أي مكة (ينبوعا) عينا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع يفعول من نبع الماء (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر) والتشديد هنا مجمع عليه (الانهار خلالها) وسطها (تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) بفتح السين مدني وعاصم أي قطعا يقال أعطني كسفة من هذا الثوب وبسكون السين غيرهما جمع كسفة كسدرة وسدر يعنون قوله ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) كفيلا بما تقول شاهدا بصحته والمعنى أو تأتي بالله قبيلا وبالملائكة قبيلا كقوله كنت منه ووالدي بريا

المشركون لو نشاء لقلنا مثل هذا فكذبهم الله عز وجل فالقرآن معجز في النظام والتأليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق لانه كلام الخالق وهو غير مخلوق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله قوله عز وجل (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي رددنا وكررنا من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه وقيل معناه من كل وجه من العبر والاحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها (فأبى أكثر الناس الا كفورا) أي جحودا قوله سبحانه وتعالى (وقالوا لن نؤمن لك) أي لن نصدقك (حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا) لما تبين اعجاز القرآن وانضمت اليه معجزات أخر وبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فقالوا لن نؤمن لك روى عكرمة عن ابن عباس ان عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحرث وأبا البختري بن هشام والاسود بن عبد المطلب وزمعة بن الاسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنبها ابني الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن انه بدا لهم في أمره بداء وكان حريصا يحب رشدهم حتى جلس اليهم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر فيك وانا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة وما بقي من قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت تريد الشرف سودناك علينا وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذي بك رئيا تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه ونعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به اطلب أموالكم ولا للشرف عليكم ولا للملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة وان تردوه علي أصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم فقالوا يا محمد ان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت انه ليس أحد أضيق بلادا ولا أشد عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها الانهار كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فان صدقوك صدقناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به فان تقبلوه فهو حظكم وان تردوه أصبر لامر الله تعالى قالوا فان لم تفعل هذا فسل لنا ربك أن يبعث ملكا يصدقك واسأله أن يجعل لك جنات وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يعينك بها على ما تريد فانك تقوم بالاسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقال ما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا قالوا فأسقط السماء كما زعمت ان ربك ان شاء فعل فقال ذلك الى الله ان شاء فعل ذلك بكم وقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن أبي أمية وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لانفسهم أمورا يعرفون بها منزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله ما أومن لك أبدا حتى تتخذ الى السماء مرقى ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها فتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله حزينا لما رأى من مباعدتهم فأنزل الله تعالى وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض يعني أرض مكة ينبوعا أي عيونا (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب) أي بستان فيه نخيل وعنب (فتفجر الانهار خلالها تفجيرا) أي تشقيقا (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) أي قطعا (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) قال ابن عباس كفيلا أي

أومقابلا كالعشير بمعنى المعاشر ونحوه لولا أنزل علينا الملائكة أونرى ربنا أو جماعة حالا من الملائكة (أويكون لك بيت من زخرف) ذهب (أوترقى فى السماء) تصعد اليها (ولن نؤمن لرقيك) لاجل رقيك (حتى تنزل علينا) وبالتخفيف أبوعمرو (كتابا) أى من السماء فيه تصديقك (نقرؤه) صفة كتاب (قل) قال مكى وشامى أى قال الرسول (سبحان ربى) تعجب من اقتراحاتهم عليه (هل كنت الابشرا رسولا) أى أنا رسول كسائر الرسل بشرمثلهم وكان الرسل لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله عليهم من الآيات فليس أمر الآيات الى انما هو الى الله فما بالكم تتخيرونها على (ومامنع الناس) يعنى أهل مكة ومحل (أن يؤمنوا) نصب بانه مفعول ثان لمنع (اذجاءهم الهدى) النبي والقرآن (الاأن قالوا) فاعل منع والتقدير ومامنعهم الايمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الاقولهم (أبعث الله بشرا رسولا) أى الاشبهة تمكنت فى صدورهم وهو انكارهم أن يرسل الله البشر والهمزة فى أبعث الله للانكار وماأنكروه فى قضية حكمته منكر[2] ثم رد الله عليهم بقوله (قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون) على أقدامهم كما يمشى الانس ولا يطيرون بأجنحتهم الى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا مايجب عليهم (مطمئنين) حال أى ساكنين فى الارض قارين (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) يعلمهم الخير ويهديهم المراشد فأما الانس فانما يرسل الملك الى مختار منهم للنبوة فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وارشادهم وبشرا وملكا حالان من رسولا (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) على انى بلغت ماأرسلت به اليكم وانكم كذبتم وعاندتم شهيدا تمييز أوحال (انه كان بعباده) المنذرين والمنذرين (خبيرا) عالما بأحوالهم (بصيرا) بأفعالهم فهو مجازيهم وهذه تسلية لرسول الله عليه السلام ووعيد للكفار (ومن يهد الله فهو المهتد) وبالياء يعقوب وسهل وافقهما أبوعمرو ومدنى فى الوصل أى من وفقه الله لقبول ماكان من الهدى فهو المهتدى عند الله (ومن يضلل) أى ومن يخذله ولم يعصمه حتى قبل وساوس الشيطان (فلن تجد لهم أولياء من دونه) أى انصارا (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) أى يسحبون عليها كقوله يوم يسحبون فى النار على وجوههم وقيل لرسول الله عليه السلام كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (عميا وبكما وصما) كما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ويتصامون عن استماعه فهم فى الآخرة كذلك لا يبصرون مايقر أعينهم ولا يسمعون مايلذ مسامعهم ولا ينطقون بما يقبل منهم

يكملون بما تقول وقيل هو جمع القبيلة أى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة يشهدون لك بصحة ماتقول وقيل معناه نراهم مقابلة عيانا (أو يكون لك بيت من زخرف) أى من ذهب وأصله الزينة (أوترقى) أى تصعد (فى السماء ولن نؤمن لرقيك) أى لاجل رقيك (حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) أمرنا فيه باتباعك وهذا قول عبد الله بن أبى أمية (قل) أى قل يامحمد (سبحان ربى) أمره بتنزيهه وتمجيده وفيه معنى التعجب (هل كنت الابشرا رسولا) أى كسائر الرسل لامجهم وكان الرسل لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله عليهم من الآيات فليس أمر الآيات اليهم انما هو الى الله تعالى ولو أراد أن ينزل ماطلبوا لفعل ولكن لا ينزل الآيات على ما اقترحه البشر وما أنا الا بشر وليس ماسألتم فى طوق البشر واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات مايغنى عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وما أشبهها من الآيات وليست بدون مااقترحوه بل هى أعظم مما اقترحوه والقوم عامتهم كانوا متعنتين ولم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا فرد الله تعالى عليهم سؤالهم قوله عز وجل (ومامنع الناس أن يؤمنوا اذجاءهم الهدى) أى الوحى والمعنى ومامنعهم الايمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الا الشبهة تلجلجت فى صدورهم وهى انكارهم ان يرسل الله البشر وهو قوله تعالى (الاأن قالوا) أى جهلا منهم (أبعث الله بشرا رسولا) وذلك ان الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لانك بشر وهلا بعث الله الينا ملكا فأجابهم الله بقوله (قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين) أى مستوطنين مقيمين فيها (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) أى من جنسهم لان الجنس الى الجنس أميل (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) أى على انى رسوله اليكم وانى قد بلغت ماأرسلت به اليكم وانكم كذبتم وعاندتم (انه كان بعباده) يعنى المنذرين والمنذرين (خبيرا بصيرا) أى عالما بأحوالهم فهو مجازيهم وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفار (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) أى يهدونهم وفيه أيضا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وهو ان الذين حكم لهم بالايمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال أن ينقلبوا عن ذلك (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) (ق) عن أنس أن رجلا قال يارسول الله قال الله الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أيحشر الكافر على وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة قال قتادة حين بلغه بلى وعزة ربنا وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم قيل يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم قال ان الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم اما انهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك أخرجه الترمذى الحدب كل ماارتفع من الارض (عميا وبكما وصما) أى لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون ﴿فان قلت﴾ كيف وصفهم بأنهم عمى وبكم وصم وقد قال الله تعالى

---

2 (قوله فى قضية حكمته منكر) عبارة الكشاف وماأنكروه فخلافه هو المنكر عند الله لان قضية حكمته ان لا يرسل ملك الوحى الا الى أمثاله أو الى الانبياء انتهى وهى ظاهرة اه مصححه

(مأواهم جهنم كلما خبت) طفئ لهبها (زدناهم سعيرا) توقدا (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أي ذلك العذاب بسبب أنهم كذبوا بالاعادة بعد الافناء فجعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها ثم يعيدها لا يزالون على ذلك ليزيد في تحسرهم على تكذيبهم البعث (أولم يروا) أولم يعلموا (أن الله الذي خلق السموات والارض قادر على أن يخلق مثلهم) من الانس (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) وهو الموت أو القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا) جحودا مع وضوح الدليل (قل لو أنتم تملكون) تقديره لو تملكون أنتم لان لو تدخل على الافعال دون الاسماء فلا بد من فعل بعدها فأضمر تملك على شريطة التفسير وأبدل من الضمير المتصل وهو الواو ضمير منفصل وهو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ فأنتم فاعل الفعل المضمر وتملكون تفسيره وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الاعراب وأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ (خزائن رحمة ربي) رزقه وسائر نعمه على خلقه (اذا لأمسكتم خشية الانفاق) أي لبخلتم خشية أن يفنيه الانفاق (وكان الانسان قتورا) بخيلا (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) عن ابن عباس رضي الله عنهما هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذي نتقه على بني اسرائيل وعن الحسن الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور (فاسأل بني اسرائيل) فقلنا له سل بني اسرائيل أي سلهم من فرعون وقل له أرسل معي بني اسرائيل وقوله (اذ جاءهم) متعلق بقوله المحذوف أي فقلنا له سلهم حين جاءهم (فقال له فرعون اني لأظنك يا موسى مسحورا) سحرت فخولط عقلك (قال) أي موسى (لقد علمت) عانده

ورأى المجرمون النار وقال دعوا هنالك ثبورا وقال سمعوا لها تغيظا وزفيرا فأثبت لهم الرؤية والكلام والسمع ﴿قلت﴾ فيه أوجه أحدها قال ابن عباس معناه عميا لا يبصرون ما يسرهم بكما لا ينطقون بحجة صما لا يسمعون ما يسرهم الوجه الثاني قيل معناه يحشرون على ما وصفهم الله تعالى ثم تعاد اليهم هذه الاشياء الوجه الثالث قيل معناه هذا حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون فيصيرون بأجمعهم عميا وبكما وصما لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون (مأواهم جهنم كلما خبت) أي سكن لهيبها وقيل ضعفت وهدأت من غير أن يوجد نقصان في ايلام الكفار لان الله سبحانه وتعالى قال لا يفتر عنهم وقيل معناه أرادت أن تخبو (زدناهم سعيرا) أي وقودا وقيل معناه خبت أي نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا الى ما كانوا عليه وزيد في سعير النار لتحرقهم (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا) لما ذكر الوعيد المتقدم قال ذلك جزاؤهم بما كفروا يعني ذلك العذاب جزاؤهم بسبب كفرهم بآياتنا (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أجابهم الله ورد عليهم بقوله (أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والارض) أي في عظمها وشدتها (قادر على أن يخلق مثلهم) أي في صغرهم وضعفهم (وجعل لهم أجلا) أي وقتا لعذابهم (لا ريب فيه) أي لا شك فيه أنه يأتيهم قيل الموت وقيل يوم القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا) أي جحودا وعنادا (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي) أي خزائن نعمه ورزقه وقيل ان خزائن الله غير متناهية والمعنى لو أنكم ملكتم من النعم خزائن لا نهاية لها (اذا لأمسكتم) أي لبخلتم وحبستم (خشية الانفاق) والفقر والنفاد وهذه المبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشح (وكان الانسان قتورا) أي ممسكا بخيلا ﴿فان قلت﴾ قد يوجد في جنس الانسان من هو جواد كريم فكيف وصفه بالبخل ﴿قلت﴾ الاصل في الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لا بد وأن يحب ما يدفع به عنه ضرر الحاجة ويمسكه لنفسه الا أنه قد يجود لاسباب خارجة مثل أن يحب المدحة أو رجاء ثواب فثبت بهذا أن الاصل في الانسان البخل قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أي دلالات واضحات قال ابن عباس هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقيل عوض فلق البحر واليد السنون ونقص من الثمرات وقيل الطمس والبحر بدل السنين والنقص قيل كان الرجل منهم مع أهله في الفراش وقد صارا حجرين والمرأة قائمة تخبز وقد صارت حجرا وروي أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب القرظي عن الآيات فذكر منها الطمس فقال عمر هذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فاذا فيه بيض مكسر نصفين وجوز مكسر نصفين وثوم وحمص وعدس كلها حجارة وقيل التسع آيات هي آيات الكتاب وهي الاحكام يدل عليه ما روي عن صفوان بن عسال أن يهوديا قال لصاحبه تعال حتى نسأل هذا النبي فقال الآخر لا تقل نبي فانه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال لا تشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبريء الى سلطان ليقتله ولا تسرقوا ولا تقذفوا المحصنات ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت فقبلا يده وقالا نشهد أنك نبي قال فما يمنعكم أن تتبعوني قالوا ان داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي وانا نخاف ان اتبعناك أن تقتلنا اليهود (فاسأل) يا محمد (بني اسرائيل) يجوز الخطاب معه والمراد غيره ويجوز أن يكون خاطبه وأمره بالسؤال ليتبين كذبهم مع قومهم (اذ جاءهم) يعني جاء موسى الى فرعون بالرسالة من عند الله عز وجل (فقال له فرعون اني لأظنك يا موسى مسحورا) قال ابن عباس مخدوعا وقيل مطبوبا أي مسحورا وقيل معناه ساحرا معطى علم السحر فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك (قال) موسى (لقد علمت) خطابا لفرعون قال ابن عباس علمه فرعون ولكنه

يا فرعون (ما أنزل هؤلاء) الآيات (الا رب السموات والارض) خالقهما (بصائر) حال أى بينات مكشوفات لانك معاند ونحوه وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا علامات على أى انى لست بمسحور كما وصفتنى بل أنا عالم بصحة الامر وان هذه الآيات منزلها رب السموات والارض ثم قارع ظنه بظنه بقوله (وانى لأظنك يا فرعون مثبورا) كأنه قال ان ظننتنى مسحورا فأنا أظنك مثبورا وظنى أصح من ظنك لان له أمارة ظاهرة وهى انكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها وأما ظنك فكذب بحت لان قولك مع علمك بصحة أمرى انى لاظنك مسحورا قول كذب وقال الفراء مثبورا مصروفا عن الخير من قولهم ما ثبرك عن هذا أى ما منعك وصرفك (فأراد فرعون (أن يستفزهم) يخرجهم أى موسى وقومه (من الارض) أى أرض مصر أو ينفيهم عن ظهر الارض بالقتل والاستئصال (فأغرقناه ومن معه جميعا) فحاق به مكره بأن استفزه الله باغراقه مع قبطه (وقلنا من بعده) من بعد فرعون (لبنى اسرائيل اسكنوا الارض) التى أراد فرعون أن يستفزكم منها (فاذا جاء وعد الآخرة) أى القيامة (جئنا بكم لفيفا) جميعا مختلطين اياكم واياهم ثم نحكم بينكم ونميز بين سعدائكم وأشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) وما أنزلنا القرآن الا بالحكمة وما نزل الا ملتبسا بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية الى كل خير أو ما أنزلناه من السماء الا بالحق محفوظا بالرصد من

الملائكة وما نزل على الرسول الا محفوظا بهم من تخليط الشياطين قال الراوى اشتكى محمد بن السماك فأخذنا ماءه وذهبنا به الى طبيب نصرانى فاستقبلنا رجل حسن الوجه طيب الرائحة نقى الثوب فقال لنا الى أين فقلنا اليه الى فلان الطبيب نريه ماء ابن السماك فقال سبحان الله تستعينون على ولى الله بعدو الله اضربوه على الارض وارجعوا الى ابن السماك وقولوا له ضع يدك على موضع الوجع وقل وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ثم غاب عنا فلم نره فرجعنا الى ابن السماك فأخبرناه بذلك فوضع يده على موضع الوجع وقال ما قال الرجل وعوفى فى الوقت وقال كان ذلك الخضر عليه السلام (وما أرسلناك الا مبشرا) بالجنة (ونذيرا) من النار (وقرآنا) منصوب بفعل يفسره (فرقناه) أى فصلناه أو فرقنا فيه الحق من الباطل (لتقرأه على الناس على مكث) على تؤدة وتثبت (ونزلناه تنزيلا) على حسب الحوادث (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) أى اختاروا لانفسكم النعيم المقيم أو العذاب الاليم ثم علل بقوله (ان الذين أوتوا العلم من قبله) أى التوراة من قبل القرآن (اذا يتلى عليهم) القرآن (يخرون للاذقان سجدا) حال (ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا) لقوله آمنوا به أو لا تؤمنوا أى أعرض عنهم فانهم ان لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بالقرآن فان خيرا منهم وهم العلماء الذين قرؤا الكتب قد آمنوا به وصدقوه فاذا تلى عليهم خروا سجدا وسبحوا الله تعظيما لامره ولانجازه ما وعد فى الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال القرآن عليه وهو المراد بالوعد المذكور ان بمعنى انه وهى تؤكد الفعل كما أن تؤكد الاسم وكما أكدت ان باللام فى انهم لمحضرون أكدت ان اللام فى لمفعولا (ويخرون للاذقان يبكون) ومعنى الخرور للذقن السقوط على الوجه وانما خص الذقن لان أقرب الاشياء من وجهه الى الارض عند السجود الذقن يقال خر على وجهه وعلى ذقنه وخر لوجهه ولذقنه اما معنى على فظاهر وأما معنى اللام فكأنه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به اذ اللام للاختصاص وكرر يخرون للاذقان لاختلاف الحالين وهما خرورهم فى حال كونهم ساجدين وخرورهم فى حال كونهم باكين (ويزيدهم) القرآن (خشوعا) لين قلب ورطوبة عين

عانده (ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض) يعنى الآيات التسع (بصائر) أى بينات يبصر بها (وانى لأظنك يا فرعون مثبورا) قال ابن عباس ملعونا وقيل هالكا وقيل مصروفا عن الخير (فأراد أن يستفزهم من الارض) معناه أراد فرعون أن يخرج موسى وبنى اسرائيل من أرض مصر (فأغرقناه ومن معه جميعا) أى أغرقنا فرعون وجنوده ونجينا موسى وقومه (وقلنا من بعده) أى من بعد هلاك فرعون (لبنى اسرائيل اسكنوا الارض) يعنى أرض مصر والشام (فاذا جاء وعد الآخرة) يعنى القيامة (جئنا بكم لفيفا) أى جميعا الى موقف القيامة واللفيف الجمع الكثير اذا كانوا مختلفين من كل نوع فيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر وقيل أراد بوعد الآخرة نزول عيسى من السماء قوله سبحانه وتعالى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) يعنى انما أردنا بانزال القرآن الا تقريره للحق فلما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع وحصل وقيل معناه وما أنزلنا القرآن الا بالحق المقتضى لانزاله وما نزل الا ملتبسا بالحق لاشتماله على الهداية الى كل خير (وما أرسلناك الا مبشرا) يعنى بالجنة للمطيعين (ونذيرا) أى مخوفا بالنار للعاصين قوله عز وجل (وقرآنا فرقناه) أى فصلناه وبيناه وقيل فرقنا به بين الحق والباطل وقيل معناه أنزلناه نجوما لم ينزل مرة واحدة بدليل قوله تعالى (لتقرأه على الناس على مكث) أى على تؤدة وترسل فى ثلاث وعشرين سنة (ونزلناه تنزيلا) أى على حسب الحوادث (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) فيه وعيد وتهديد (ان الذين أوتوا العلم من قبله) قيل هم مؤمنو أهل الكتاب الذين كانوا يطلبون الدين قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلموا بعد مبعثه مثل زيد ابن عمرو بن نفيل وسلمان الفارسى وأبى ذر وغيرهم (اذا يتلى عليهم) يعنى القرآن (يخرون للاذقان) قال ابن عباس أراد بها الوجوه (سجدا) أى يقعون على الوجوه سجدا (ويقولون سبحان ربنا) أى تعظيما لربنا لانجازه ما وعد فى الكتب المنزلة من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (ان كان وعد ربنا لمفعولا) أى كائنا واقعا (ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) أى خضوعا لربهم وقيل يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين فالبكاء

(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) لما سمعه أبو جهل يقول يا الله يا رحمن قال انه ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الها آخر فنزلت وقيل ان أهل الكتاب قالوا انك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم فنزلت والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء وأو للتخيير أى سموا بهذا الاسم أو بهذا أو اذكروا اما هذا واما هذا والتنوين فى (أياما تدعوا) عوض من المضاف اليه وما زيدت للتوكيد وأيا نصب بتدعوا وهو مجزوم بأى أى أى هذين الاسمين ذكرتم وسميتم (فله الاسماء الحسنى) والضمير فى فله يرجع الى ذات الله تعالى والفاء لانه جواب الشرط أى أياما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله فله الاسماء الحسنى لانه اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لانهما منها ومعنى كونها أحسن الاسماء انها مستقلة بمعانى التمجيد والتقديس والتعظيم (ولا تجهر بصلاتك) بقراءة صلاتك على حذف المضاف لانه لا يلبس اذ الجهر والمخافتة تعتقبان على الصوت لا غير والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بقراءته فاذا سمعها المشركون لغوا وسبوا فأمره بأن يخفض من صوته والمعنى ولا تجهر حتى تسمع المشركين (ولا تخافت بها) حتى لا تسمع من خلفك (وابتغ بين ذلك) بين الجهر والمخافتة (سبيلا) وسطا أو معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بأن تجهر صلاة الليل وتخافت بصلاة النهار أو بصلاتك بدعائك (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) كما زعمت اليهود والنصارى وبنو مليح (ولم يكن له شريك فى الملك) كما زعم المشركون (ولم يكن له ولى من الذل) أى لم يذل فيحتاج الى ناصر أو لم يوال أحدا من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته (وكبره تكبيرا) وعظمه وصفه بانه أكبر من أن يكون له ولد أو شريك وسمى النبى عليه السلام الآية آية العز وكان اذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية

مستحب عند قراءة القرآن عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ولا يجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم أخرجه الترمذى والنسائى وزاد النسائى فى منخرى مسلم أبدا الولوج الدخول والمنخر الانف عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله أخرجه الترمذى قوله عز وجل (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) قال ابن عباس سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعل يقول فى سجوده يا الله يا رحمن فقال أبو جهل ان محمدا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو الهين فأنزل الله هذه الآية ومعناه انهما اسمان لله تعالى فسموه بهذا الاسم أو بهذا الاسم (أياما تدعوا) ما صلة ومعناه أى هذين الاسمين سميتم وذكرتم أو من جميع أسمائه (فله الاسماء الحسنى) يعنى اذا حسنت أسماؤه كلها فهذان الاسمان منها ومعنى كونها حسنى انها مشتملة على معانى التقديس والتعظيم والتمجيد (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) * (ق) عن ابن عباس فى قوله ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة وكان اذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فاذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تجهر بصلاتك أى بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم وابتغ بين ذلك سبيلا زاد فى رواية وابتغ بين ذلك سبيلا أسمعهم ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن وقيل نزلت الآية فى الدعاء وهو قول عائشة والنخعى ومجاهد ومكحول (ق) عن عائشة ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قالت نزل ذلك فى الدعاء وقيل كان أعراب من بنى تميم اذا سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا يجهرون بذلك فأنزل الله عز وجل ولا تجهر بصلاتك أى لا ترفع صوتك بقراءتك ودعائك ولا تخافت بها المخافتة خفض الصوت والسكوت (وابتغ) أى اطلب (بين ذلك سبيلا) أى طريقا وسطا بين الجهر والاخفاء عن أبى قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر مررت بك وأنت تقرأ القرآن وأنت تخفض من صوتك فقال انى أسمعت من ناجيت فقال ارفع قليلا وقال لعمر مررت بك وأنت تقرأ وأنت ترفع من صوتك فقال انى أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان فقال اخفض قليلا أخرجه الترمذى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) امر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يحمده على وحدانيته وقيل معناه الحمد لله الذى عرفنى انه لم يتخذ ولدا وقيل ان كل من له ولد فهو يمسك جميع النعم لولده واذا لم يكن له ولد أفاض نعمه على عبيده وقيل ان الولد يقوم مقام والده بعد انقضائه والله عز وجل يتعالى عن جميع النقائص فهو المستحق لجميع المحامد (ولم يكن له شريك فى الملك) والسبب فى اعتبار هذه الصفة انه لو كان له شريك لم يكن مستحقا للحمد والشكر وكذا قوله (ولم يكن له ولى من الذل) ومعناه انه لم يذل فيحتاج الى ناصر يتعزز به (وكبره تكبيرا) أى وعظمه عن أن يكون له ولدا أو شريك أو ولى وقيل اذا كان منزها عن الولد والشريك والولى كان مستوجبا لجميع أنواع المحامد عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده عن جابر ابن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا اله الا الله أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الكلام الى الله أربع لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت أخرجه مسلم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿سورة الكهف مائة وإحدى عشرة آية بصري وعشر آيات كوفي﴾ (بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله الذي أنزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (الكتاب) القرآن لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الاسلام وما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم (ولم يجعل له عوجا) أي شيأ من العوج والعوج في المعاني كالعوج في الاعيان يقال في رأيه عوج وفي عصاه عوج والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شيء منه من الحكمة (قيما) مستقيما وانتصابه بمضمر وتقديره وجعله قيما لانه اذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة وفائدة الجمع بين نفي العوج واثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر التأكيد فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند التصفح أو قيما على سائر الكتب مصدقا لها شاهدا بصحتها (لينذر) أنذر متعد الى مفعولين كقوله انا أنذرناكم عذابا قريبا فاقتصر على أحدهما وأصله لينذر الذين كفروا (بأسا) عذابا (شديدا) وانما اقتصر على أحد مفعولي أنذر لأن المنذر به هو المسوق اليه فاقتصر عليه (من لدنه) صادرا من عنده (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم) اي بأن لهم (أجرا حسنا) أي الجنة ويبشر حمزة وعلي (ماكثين) حال من هم في لهم (فيه) في الاجر وهو الجنة (أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) ذكر المنذرين دون المنذر به بعكس الاول استغناء بتقديم ذكره (ما لهم به من علم) أي بالولد أو باتخاذه يعني أن قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط * فان قلت اتخاذ الله ولدا في نفسه محال فكيف قيل ما لهم به من علم * قلت معناه ما لهم به من علم لانه ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء العلم بالشيء اما للجهل بالطريق الموصل اليه أو لأنه في نفسه محال (ولا لآبائهم) المقلدين (كبرت كلمة) نصب على التمييز وفيه معنى التعجب كانه قيل ما أكبرها كلمة والضمير في كبرت يرجع الى قولهم اتخذ الله ولدا وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها (تخرج من أفواههم) صفة الكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق بها واخراجها من أفواههم فان كثيرا مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوهوا به بل يكظمون عليه فكيف بمثل هذا المنكر (ان يقولون الا كذبا) ما يقولون ذلك الا كذبا هو صفة لمصدر محذوف أي قولا كذبا (فلعلك باخع نفسك) قاتل نفسك (على آثارهم) أي آثار الكفار شبههم واياهم حين تولوا عنهم ولم يؤمنوا به وما تداخله من الاسف على توليهم برجل فارقه أحبته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجدا عليهم وتلهفا على فراقهم (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) بالقرآن (أسفا) مفعول له أي لفرط الحزن والاسف المبالغة في الحزن والغضب (انا جعلنا ما على الارض زينة لها) أي ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها

﴿تفسير سورة الكهف﴾

وهي مكية وآياتها مائة واحدى عشرة آية وكلماتها ألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وحروفها ستة آلاف وثلثمائة وستون حرفا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله عز وجل (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) أثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه بانعامه على خلقه وعلم عباده كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي الاسلام وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر لأن انزال القرآن كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم (ولم يجعل له عوجا) أي لم يجعل له شيأ من العوج قط والعوج في المعاني كالعوج في الاعيان والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وقيل معناه لم يجعله مخلوقا روى عن ابن عباس في قوله تعالى قرآنا عربيا غير ذي عوج قال غير مخلوق (قيما) أي مستقيما وقال ابن عباس عدلا وقيل قيما على الكتب كلها ومصدقا لها وناسخا لشرائعها (لينذر بأسا شديدا) معناه لينذر الذين كفروا بأسا شديدا وهو قوله سبحانه وتعالى بعذاب بئيس (من لدنه) أي من عنده (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا) يعني الجنة (ماكثين فيه) أي مقيمين فيه (أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم) أي بالولد وباتخاذه يعني أن قولهم لم يصدر عن علم بل عن جهل مفرط ﴿فان قلت﴾ اتخاذ الله ولدا في نفسه محال فكيف قيل ما لهم به من علم ﴿قلت﴾ انتفاء العلم قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد يكون في نفسه محالا لا يستقيم تعلق العلم به (ولا لآبائهم) أي ولا لأسلافهم من قبل (كبرت) أي عظمت (كلمة تخرج من أفواههم) أي هذا الذي يقولونه لا تحكم به عقولهم وفكرهم البتة لكونه في غاية الفساد والبطلان فكأنه يجري على لسانهم على سبيل التقليد (ان يقولون الا كذبا) أي ما يقولون الا كذبا قيل حقيقة الكذب انه الخبر الذي لا يطابق المخبر عنه وزاد بعضهم مع علم قائله انه غير مطابق وهذا القيل باطل لان الله سبحانه وتعالى وصف قولهم باثبات الولد بكونه كذبا مع ان الكثير منهم يقولون ذلك ولا يعلمون كونه باطلا فعلمنا ان كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب والكذب خلاف الصدق وقيل هو الانصراف عن الحق الى الباطل ورجل كذاب وكذوب اذا كان كثير الكذب قوله عز وجل (فلعلك باخع نفسك) أي قاتل نفسك (على آثارهم) أي من بعدهم (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) يعني القرآن (أسفا) أي حزنا وقيل غيظا (انا جعلنا ما على الارض زينة لها) أي مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها وقيل يعني النبات والشجر والانهار وقيل أراد به الرجال خاصة فهم زينة الارض وقيل

أراد به العلماء والصلحاء وقيل جميع ما في الارض هو زينة لها ﴿فان قلت﴾ أي زينة في الحيات والعقارب والشياطين ﴿قلت﴾ زينتها كونها تدل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وقيل ان جميع ما في الارض ثلاثة معدن ونبات وحيوان وأشرف أنواع الحيوان الانسان قيل الاولى أن لا يدخل في هذه الزينة المكلف بدليل قوله تعالى (لنبلوهم) فمن يبلو يجب ان لا يدخل في ذلك ومعنى لنبلوهم نختبرهم (أيهم أحسن عملا) أي أصلح عملا وقيل أيهم أترك للدنيا وأزهد فيها (وانا لجاعلون ما عليها) أي من الزينة (صعيدا جرزا) يعني مثل أرض لا نبات فيها بعد ان كانت خضراء معشبة والصعيد وجه الارض وقيل هو التراب والجرز الاملس اليابس الذي لا ينبت فيه شيء قوله سبحانه وتعالى (أم حسبت) أي ظننت يا محمد (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) أي هم عجب من آياتنا وقيل معناه انهم ليسوا بأعجب آياتنا فان ما خلقنا من السموات والارض وما فيهن من العجائب أعجب منهم والكهف الغار الواسع في الجبل والرقيم هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصصهم ثم وضع على باب الكهف وكان اللوح من رصاص وقيل من حجارة وعن ابن عباس ان الرقيم اسم الوادي الذي فيه أصحاب الكهف وقال كعب الاحبار هو اسم للقرية التي خرج منها أصحاب الكهف وقيل اسم للجبل الذي فيه أصحاب الكهف ثم ذكر الله عز وجل قصة أصحاب الكهف فقال عز من قائل (اذ أوى الفتية الى الكهف) أي صاروا اليه وجعلوه مأواهم والفتية جمع فتى وهو الطري من الشباب (فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) أي رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك واحسانك وهب لنا الهداية والنصر والأمن من الاعداء (وهيئ لنا) أي أصلح لنا (من أمرنا رشدا) أي حتى نكون بسببه راشدين مهتدين وقيل معناه واجعل أمرنا راشدا كله

﴿ذكر قصة أصحاب الكهف وسبب خروجهم اليه﴾ قال محمد بن اسحق ومحمد بن يسار مرج أمر أهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت الملوك حتى عبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الاصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم فلا يترك في قرية نزلها أحدا الا فتنه عن دينه حتى يعبد الاصنام أو يقتله فلما نزل مدينة أصحاب الكهف واسمها أفسوس استخفى منه أهل الايمان وهربوا في كل وجه فاتخذ شرطا من الكفار وأمرهم أن يتبعوهم فجعل أولئك الشرط يتبعون أهل الايمان في أماكنهم ويخرجونهم الى دقيانوس فخيرهم بين القتل وبين عبادة الاصنام فمنهم من يرغب في الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل فلما رأى ذلك أهل الايمان جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ويجعل ما قطع من أجسادهم على أسوار المدينة وأبوابها فلما عظمت الفتنة وكثرت ورأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء وكانوا من أشراف الروم وهم ثمانية نفر وبكوا وتضرعوا الى الله عز وجل وجعلوا يقولون ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلاهم أدركهم الشرط فوجدوهم سجودا يبكون ويتضرعون الى الله عز وجل فقال لهم الشرط ما خلفكم عن أمر الملك ثم انطلقوا الى الملك فأخبروه خبر الفتية فبعث اليهم فأتي بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم بالتراب فقال لهم ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تعبد في الارض وتجعلوا أنفسكم أسوة أهل مدينتكم اختاروا اما أن تذبحوا لآلهتنا واما أن أقتلكم فقال مكسلمينا وهو أكبرهم ان لنا الها ملء السموات والارض عظمته لن ندعو من دونه الها أبدا له الحمد والتكبير من أنفسنا خالصا أبدا اياه نعبد واياه نسأل النجاة والخير فأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا اصنع بنا ما بدا لك وقال أصحابه مثل ذلك فلما سمع الملك كلامهم أمر بنزع ثيابهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة وما يمنعني أن أعجل ذلك لكم الا أني أراكم شبانا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تذكرون فيه ترجعون الى

من هذه الزينة (صعيدا) أرضا ملساء (جرزا) يابسا لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة والمعنى نعيدها بعد عمارتها خرابا باماتة الحيوان وتجفيف النبات والاشجار وغير ذلك ولما ذكر من الآيات الكلية تزيين الارض بما خلق فوقها من الاجناس التي لا حصر لها وازالة ذلك كله كأن لم يكن قال (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم) يعني ان ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وابقاء حياتهم مدة طويلة والكهف الغار الواسع في الجبل والرقيم اسم كلبهم أو قريتهم أو اسم كتاب كتب في شأنهم أو اسم الجبل الذي فيه الكهف (كانوا من آياتنا عجبا) أي كانوا آية عجبا من آياتنا وصفا بالمصدر أو على ذات عجب (اذ) أي اذكر (أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) أي رحمة من خزائن رحمتك وهي المغفرة والرزق والأمن من الاعداء (وهيئ لنا من أمرنا) أي الذي نحن عليه من مفارقة الكفار (رشدا) حتى نكون بسببه راشدين مهتدين أو اجعل أمرنا رشدا كله كقولك رأيت منك أسدا أو يسر لنا طريق رضاك

عقولكم

عقولكم ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس الى مدينة أخرى قريبة منهم لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا وخافوا اذا قدم أن يذكرهم فأتمروا بينهم واتفقوا على أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له بنجلوس ٣ فيمكثوا فيه ويعبدوا الله حتى اذا جاء دقيانوس أتوه فيصنع بهم ما يشاء فلما اتفقوا على ذلك عمد كل فتى منهم الى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقي معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فمكثوا فيه وقال كعب الاحبار مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون مني لا تخشوا مني أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم وقال ابن عباس هربوا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعهم الكلب فخرجوا من البلد الى الكهف قال ابن عباس فلبثوا فيه ليس لهم عمل الا الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء لوجه الله عز وجل وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم اسمه تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرا وكان من أجملهم وأجلدهم وكان اذا دخل المدينة لبس ثيابا رثة كثياب المساكين ثم يأخذ ورقه فينطلق الى المدينة فيشتري لهم طعاما وشرابا ويتجسس لهم الخبر هل ذكر هو وأصحابه بشيء ثم يرجع الى أصحابه فلبثوا بذلك ما شاء الله أن يلبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الايمان وكان تمليخا بالمدينة يشتري لأصحابه طعامهم فرجع الى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل فأخبرهم ان الجبار قد دخل المدينة وانهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون الله ويتضرعون اليه ويتعوذون من الفتنة فقال لهم تمليخا يا اخوتاه ارفعوا رؤسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤسهم وأعينهم تفيض من الدمع وذلك عند غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون ويذكر بعضهم بعضا فبينما هم على ذلك اذ ضرب الله عز وجل على آذانهم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابه ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظماء المدينة لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد ظنوا أن بي غضبا عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمري ما كنت لأجهل عليهم ان هم تابوا وعبدوا آلهتي فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوما فجرة مردة عصاة قد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاؤا لرجعوا في ذلك الاجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل الى آبائهم فأتى بهم فقال أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني فقالوا أما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة انهم ذهبوا بأموالنا وأهلكوها في أسواق المدينة ثم انطلقوا الى جبل يدعى بنجلوس فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل ما يدري ما يصنع بالفتية فألقى الله سبحانه وتعالى في نفسه ان يأمر بسد باب الكهف عليهم وأراد الله عز وجل أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور فأمر دقيانوس بالكهف فسد عليهم وقال دعوهم كما هم في كهفهم يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذي اختاروه قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله عز وجل أرواحهم وفاة نوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم ان رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما اسم أحدهما بيدروس واسم الآخر روناس اهتما أن يكتبا شأن هؤلاء الفتية وأسماءهم وأنسابهم وأخبارهم في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من نحاس ويجعلا التابوت في البنيان وقالا لعل الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقي دقيانوس ما بقي ثم مات هو وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك وقال عبيد بن عمير كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوي ذوائب فخرجوا في عيد لهم عظيم في زي وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها وكان معهم كلب صيد لهم وكان أحدهم وزير الملك فقذف الله سبحانه وتعالى الايمان في قلوبهم فآمنوا وأخفى كل

---

٣ قوله بنجلوس هكذا في بعض النسخ وفي بعضها نخلوس وفي حياة الحيوان منجلوس اه

واحد ايمانه وقال فى نفسه أخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبنى عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم
حتى انتهى الى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا أن يكون على مثل أمره وجلس
اليه من غير أن يظهره على أمره ثم خرج آخر فخرجوا جميعا فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد
يكتم ايمانه من صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ويفش كل واحد سره الى صاحبه
ففعلوا ذلك فاذا هم جميعا على الايمان واذا الكهف فى جبل عظيم قريب منهم فقال بعضهم لبعض فأووا
الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيد فناموا ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا
وفقدهم قومهم وطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم فكتبوا أسماءهم وأنسابهم فى لوح فلان
وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم فى شهر كذا فى سنة كذا فى مملكة فلان بن فلان الملك ووضعوا اللوح فى خزانة
الملك وقالوا ليكونن لهؤلاء شأن ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن قال محمد بن اسحق ثم ملك أهل تلك
البلاد رجل صالح يقال له بيدروس فلما ملك بقى ملكه ثمانيا وستين سنة فتحزب الناس فى ملكه فكانوا
أحزابا منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح وتضرع
الى الله وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون لا حياة الا الحياة
الدنيا وانما تبعث الارواح دون الاجساد وجعل بيدروس الملك يرسل الى من يظن فيهم خيرا وانهم أئمة فى
الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين فلما رأى
ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلق بابه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه فدأب ليله ونهاره
يتضرع الى الله تعالى ويبكى ويقول رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم بطلان ما هم عليه
ثم ان الله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذى يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف
ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ويستجيب لعبده الصالح
بيدروس ويتم نعمته عليه وان يجمع من كان تبدد من المؤمنين فألقى الله سبحانه وتعالى فى نفس رجل من
أهل ذلك البلد الذى فيه ذلك الكهف وكان اسمه أولياس ان يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف
ويبنى به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما كان
على باب الكهف وفتحا باب الكهف وحجبهم الله تعالى عن الناس بالرعب فلما افتتح باب الكهف أذن الله
سبحانه وتعالى ذو القدرة والسلطان محيى الموتى للفتية ان يجلسوا بين ظهرانى الكهف فجلسوا فرحين مسفرة
وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون منها اذا
أصبحوا من ليلتهم ثم قاموا الى الصلاة فصلوا كما كانوا يفعلون لا يرى فى وجوههم ولا ألوانهم شئ ينكرونه
وانهم كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن دقيانوس فى طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم
أنبئنا بما قال الناس فى شأننا عشية أمس عند هذا الجبار وهم يظنون أنهم قد رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون
وقد خيل اليهم أنهم قد ناموا أطول مما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياما
قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك فى أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا قد التمستم فى
المدينة وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا
يا اخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد ايمانكم اذا دعاكم عدو الله ثم قالوا لتمليخا انطلق الى
المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذى يذكر فينا عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتغ لنا طعاما
فائتنا به وزدنا على الطعام الذى جئتنا به فقد أصبحنا جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب
التى كان يتنكر فيها وأخذ ورقا من نفقتهم التى كانت معهم التى ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف
الربع فانطلق تمليخا خارجا فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر
ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق تخوفا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر
أن دقيانوس وأهله هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب

علامة كانت لاهل الايمان اذ كان أمر الايمان ظاهرا فيها فلما رآها تعجب وجعل ينظر اليها يمينا وشمالا ثم ترك
ذلك الباب ومضى الى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل اليه أن المدينة ليست بالتي كان يعرف ورأى أشخاصا
كثيرة محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب ويخيل اليه انه حيران ثم رجع الى الباب الذي أتى
منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول ياليت شعري ما هذا أما عشية أمس كان المسلمون يخفون هذه
العلامة في هذه المدينة ويستخفون بها واليوم ظاهرة لعلي نائم حالم ثم يرى انه ليس بنائم فأخذ كساءه فجعله
على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي في أسواقها فسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده ذلك تعجبا
ورأى انه حيران فقام مسندا ظهره الى جدار من جدران المدينة وهو يقول في نفسه والله ما أدري ما هذا
أما عشية أمس فليس كان على الارض من يذكر عيسى بن مريم الا قتل وأما اليوم فأسمع كل انسان يذكر
عيسى بن مريم لا يخاف ثم قال في نفسه لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا
فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يافتى فقال اسمها افسوس فقال في نفسه لعل بي مسا
أو أمرا أذهب عقلي والله يحق لي ان أسرع الخروج قبل أن يصيبني فيها شر فاهلك فمضى الى الذين
يبتاعون الطعام فأخرج لهم الورق التي كانت معه وأعطاها رجلا منهم وقال له بعني بهذه الورق طعاما
فأخذها الرجل ونظر الى ضرب الورق ونقشها فعجب منها فناولها رجلا آخر من أصحابه فنظر ثم جعلوا
يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل ويتعجبون منها ويتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض ان هذا
أصاب كنزا خبيئا في الارض منذ زمان طويل فلما رآهم تمليخا يتحدثون فيه فرق فرقا شديدا وخاف وجعل
يرعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وانهم انما يريدون أن يذهبوا به الى ملكهم دقيانوس وجعل أناس
يأتونه ويتعرفونه فلا يعرفونه فقال لهم وهو شديد الخوف منهم أفضلوا علي قد أخذتم ورقي فامسكوها
وأما طعامكم فلا حاجة لي به فقالوا له يافتى من أنت وما شأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الاولين وأنت
تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وأرناه وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت وان لم تفعل نحملك الى
السلطان فنسلمك اليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال والله قد وقعت في كل شيء كنت أحذر منه فقالوا له يافتى انك
والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت وجعل تمليخا ما يدري ما يقول لهم وخاف حتى لم يحر على لسانه اليهم شيء
فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه فطرحوه في عنقه وجعلوا يسحبونه في سكك المدينة حتى سمع به من فيها
وقيل قد أخذ رجل معه كنز فاجتمع عليه أهل المدينة وجعلوا ينظرون اليه ويقولون والله ما هذا الفتى من
أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه وجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم وكان متيقنا أن أباه واخوته
بالمدينة وانه من عظماء أهلها وانهم سيأتونه اذا سمعوا به فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله
فيخلصه من أيديهم اذ اختطفوه وانطلقوا به الى رئيس المدينة ومدبريها اللذين يدبران أمرها وهما رجلان
صالحان اسم أحدهما اريوس واسم الآخر طنطيوس فلما انطلقوا به اليهما ظن تمليخا أنه انما ينطلق به الى
دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وهو يبكي والناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون ثم رفع
رأسه الى السماء وقال اللهم اله السماء واله الارض افرغ علي اليوم صبرا وأولج معي روحا منك تؤيدني به
عند هذا الجبار وجعل يقول في نفسه فرقوا بيني وبين اخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت ويا ليتهم يأتوني فنقوم
جميعا بين يدي هذا الجبار فانا قد كنا تواثقنا على الايمان بالله وأن لا نشرك به أحدا أبدا ولا نفترق في حياة
ولا موت فلما انتهى الى الرجلين الصالحين اريوس وطنطيوس ورأى انه لم يذهب الى دقيانوس أفاق وذهب
عنه البكاء وأخذ اريوس وطنطيوس الورق ونظرا اليها وعجبا منها وقالا أين الكنز الذي وجدت يافتى فقال
تمليخا ما وجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدري ما شأني وما أقول
لكم فقال له أحدهما ممن أنت فقال تمليخا أما أنا فكنت أرى أني من أهل هذه المدينة فقيل له ومن أبوك ومن
يعرفك بها فأخبرهم باسم أبيه فلم يوجد من يعرفه ولا أباه فقال له أحدهما أنت رجل كذاب لا تنبئنا بالحق
فلم يدر تمليخا ما يقول غير أنه نكس بصره الى الارض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون وقال بعضهم

ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا لكي ينفلت منكم فقال له أحدهم ونظر اليه نظرا شديدا أتظن انا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذه المدينة وضربها ولهذه الورق أكثر من ثلثمائة سنة وأنت غلام شاب أتظن انك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ شمط وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه المدينة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار واني لأظنني سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته فقال لهم تمليخا أخبروني عما أسألكم عنه فان أنتم فعلتم صدقتكم عما عندي فقالوا له سل لا نكتمك شيأ قال فما فعل الملك دقيانوس فقالوا ما نعرف على وجه الارض من اسمه دقيانوس ولم يكن الا ملك هلك في الزمان الاول وله دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة فقال تمليخا اني اذا لحيران وما يصدقني أحد من الناس فيما أقول لقد كنا فتية على دين واحد وان الملك أكرهنا على عبادة الاصنام والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فأتينا الى الكهف الذي في جبل بنجلوس فنمنا فيه فلما انتبهنا خرجت لاشتري لاصحابي طعاما وأتجسس الاخبار فاذا أنا معكم كما ترون فانطلقوا معي الى الكهف أريكم أصحابي فلما سمع اريوس قول تمليخا قال يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله عز وجل لكم على يدي هذا الفتى فانطلقوا بنا معه حتى يرينا أصحابه فانطلق اريوس وطنطيوس ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا اليهم فلما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي فيه ظنوا انه قد أخذ وذهب به الى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه اذ سمعوا الاصوات وجلبة الخيل مصعدة فظنوا انهم رسل الجبار دقيانوس بعث بهم اليهم ليؤتى بهم فقاموا الى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فانه الآن بين يدي الجبار وهو ينتظر نا حتى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة اذ هم باريوس وأصحابه وقوفا على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكي فلما رأوه يبكي بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله فعرفوا انهم كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمن الطويل وانما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلموا أن الساعة لا ريب فيها ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم فضة فوقف على الباب ودعا جماعة من عظماء أهل المدينة وأمر بفتح التابوت بحضرتهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوب فيهما مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس وبيرونس وديموس وبطيوس وقالوس والكلب اسمه قطمير كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وانا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم ان عثر بهم فلما قرؤه عجبوا وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذي أراهم آية تدلهم على البعث ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر أريوس وأصحابه سجودا لله وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذي أراهم آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضا وأخبرهم الفتية عن الذي لقوا من ملكهم دقيانوس ثم ان اريوس وأصحابه بعثوا بريدا الى ملكهم الصالح بيدروس أن عجل لعلك تنظر الى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك للناس آية لتكون لهم نورا وضياء وتصديقا للبعث وذلك أن فتية بعثهم الله وقد كان توفاهم منذ ثلثمائة سنة وأكثر فلما أتى الملك الخبر رجع عقله اليه وذهب همه وقال أحمدك اللهم رب السموات والارض وأعبدك وأسبح لك تطولت علي ورحمتني ولم تطفئ النور الذي جعلته لآبائي وللعبد الصالح بيدروس الملك ثم أخبر بذلك أهل مدينته فركب وركبوا معه حتى أتوا مدينة أفسوس فتلقاهم أهلها وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية بيدروس فرح بهم وخر ساجدا على وجهه وقام بيدروس الملك قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض يسبحون الله ويحمدونه ثم قال الفتية لبيدروس الملك نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الانس والجن فبينما الملك قائم اذ هم رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم فقام الملك اليهم وجعل ثيابهم عليهم وأمر

(فضربنا على آذانهم في الكهف) أي ضربنا عليها حجابا من النوم يعني أغناهم انامة ثقيلة لا تنبههم فيها الاصوات فحذف المفعول الذي هو الحجاب (سنين عددا) ذوات عدد فهو صفة لسنين قال الزجاج أي تعد عددا لكثرتها لان القليل يعلم مقداره من غير عدد فاذا كثر عد فامادراهم معدودة فهي على القلة لانهم كانوا يعدون القليل و يزنون الكثير (ثم بعثناهم) أيقظناهم من النوم (لنعلم أي الحزبين) المختلفين منهم في مدة لبثهم لانهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك وذلك قوله قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول أو أي الحزبين المختلفين من غيرهم (أحصى لما لبثوا أمدا) غاية وأحصى فعل ماض وأمدا ظرف لاحصى أو مفعول له والفعل الماضي خبر المبتدا وهو أي والمبتدا مع خبره سد مسد مفعولي نعلم والمعنى أيهم ضبط أمدا الاوقات لبثهم وأحاط علما بأمد لبثهم ومن قال أحصى أفعل من الاحصاء وهو العد فقد زل لان بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس وانما قال لنعلم مع انه تعالى لم يزل عالما بذلك لان المراد ما تعلق به العلم من ظهور الامر لهم ليزدادوا ايمانا واعتبارا وليكونوا لطفا لمؤمني زمانهم وآية بينة لكفاره أو المراد لنعلم اختلافهما موجودا كما علمناه قبل وجوده (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) بالصدق (انهم فتية) جمع فتى والفتوة بذل الندى وكف الاذى وترك الشكوى واجتناب المحارم واستعمال المكارم وقيل الفتى ما لا يدعي قبل الفعل ولا يزكي نفسه بعد الفعل (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) يقينا وكانوا من خواص دقيانوس قد قذف الله في قلوبهم الايمان وخاف بعضهم بعضا وقالوا ليخل اثنان اثنان منا فيظهر كلاهما ما يضمر لصاحبه ففعلوا فحصل اتفاقهم على الايمان (وربطنا على قلوبهم) وقويناها بالصبر على هجران الاوطان والفرار بالدين الى بعض الغيران وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالاسلام (اذ قاموا) بين يدي الجبار وهو دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام (فقالوا ربنا رب السموات والارض) مفتخرين (لن ندعو من دونه الها) ولئن سميناهم آلهة (لقد قلنا اذا شططا) قولا ذا شطط وهو الافراط في الظلم والابعاد فيه من شط يشط ويشط اذا بعد (هؤلاء) مبتدأ (قومنا) عطف بيان (اتخذوا من دونه آلهة) خبر وهو اخبار في معنى الانكار (لولا يأتون عليهم) هلا يأتون على عبادتهم فحذف المضاف (بسلطان بين) بحجة ظاهرة وهو تبكيت لان الاتيان بالسلطان على عبادة الاوثان محال (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بنسبة الشريك اليه

أن يجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه في منامه فقالوا له انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكنا خلقنا من تراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى فأمر الملك عند ذلك بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب ولم يقدر أحد منه أن يدخل عليهم وأمر الملك أن يتخذوا على باب الكهف مسجدا يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما وأمر أن يؤتى كل سنة وقيل ان تمليخا حمل الى الملك الصالح فقال له الملك من أنت قال أنا رجل من أهل هذه المدينة وذكر انه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواما لم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع ان فتية قد فقدوا في الزمان الاول وأن أسماءهم مكتوبة على لوح في خزانته فدعا باللوح ونظر في أسمائهم فاذا اسمه مكتوب وذكر أسماء الآخرين فقال تمليخا هم أصحابي فلما سمع الملك ركب ومن معه في القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعوني حتى أدخل على أصحابي فأبشرهم فانهم ان رأوكم معي أرعبتموهم فدخل تمليخا فبشرهم فقبض الله روحه وأرواحهم وأعمى على الملك وأصحابه أثرهم فلم يهتدوا اليهم فذلك قوله عز وجل اذ أوى الفتية الى الكهف أي صاروا الى الكهف واسمه خيرم فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة أي هداية في الدين وهيئ لنا أي يسر لنا من أمرنا رشدا أي ما نلتمس منه رضاك وما فيه رشدنا وقال ابن عباس أي مخرجا من الغار في سلامة قوله سبحانه وتعالى (فضربنا على آذانهم) أي ألقينا عليهم النوم وقيل منعنا نفوذ الاصوات الى مسامعهم فان النائم اذا سمع الصوت ينتبه (في الكهف سنين عددا) أي أنمناهم سنين كثيرة فان العدد يدل على الكثرة (ثم بعثناهم) أي من نومهم (لنعلم) أي علم مشاهدة وذلك ان الله عز وجل لم يزل عالما وانما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الامر لهم ليزدادوا ايمانا واعتبارا (أي الحزبين) أي الطائفتين (أحصى لما لبثوا أمدا) أي أحفظ لما مكثوا في كهفهم نياما وذلك أن أهل المدينة تنازعوا في مدة لبثهم في الكهف قوله تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) أي نقرأ عليك خبر أصحاب الكهف بالحق أي بالصدق (انهم فتية) أي شبان (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) أي ايمانا وبصيرة (وربطنا على قلوبهم) أي شددنا على قلوبهم بالصبر والتثبيت وقويناهم بنور الايمان حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ما كانوا عليه من خفض العيش وفروا بدينهم الى الكهف (اذ قاموا) يعني بين يدي دقيانوس الجبار حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام (فقالوا) أي الفتية (ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها) انما قالوا ذلك لان قومهم كانوا يعبدون الاصنام (لقد قلنا اذا شططا) قال ابن عباس يعني جورا وقيل كذبا يعني ان دعونا غير الله (هؤلاء قومنا) يعني أهل بلدهم (اتخذوا من دونه) أي من دون الله (آلهة) يعني أصناما يعبدونها (لولا) أي هلا (يأتون عليهم) أي على عبادة الاصنام (بسلطان بين) أي بحجة واضحة وفيه تبكيت لان الاتيان بحجة على عبادة الاصنام محال (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أي وزعم أن له شريكا

(واذ اعتزلتموهم) خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم (وما يعبدون) نصب عطف على الضمير أي واذا اعتزلتموهم واعتزلتم معبودهم (الا الله) استثناء متصل لانهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه غيره كاهل مكة أو منقطع أي واذا اعتزلتم الكفار والاصنام التي يعبدونها من دون الله أو هو كلام معترض اخبار من الله تعالى عن الفتية انهم لم يعبدوا غير الله (فأووا الى الكهف) صيروا اليه أو اجعلوا الكهف مأواكم (ينشر لكم ربكم من رحمته) من رزقه (ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) مرفقا مدني وشامي وهو ما يرتفق به أي ينتفع وانما قالوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم أو أخبرهم به نبي في عصرهم (وترى الشمس اذا طلعت تزاور) بتخفيف الزاي كوفي تزور شامي تزوار غيرهم وأصله تتزاور فخفف بادغام التاء في الزاي أو حذفها والكل من الزور وهو الميل ومنه زاره اذا مال اليه والزور الميل عن الصدق (عن كهفهم) أي تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم (ذات اليمين) جهة اليمين وحقيقتها الجهة المسماة باليمين (واذا غربت تقرضهم) تقطعهم أي تتركهم وتعدل عنهم (ذات الشمال وهم في فجوة منه) في متسع من الكهف

والمعنى انهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها مع انهم في مكان واسع منفتح معرض لاصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم وقيل متفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار (ذلك من آيات الله) أي ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آيات الله يعني ان ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصا لهم بالكرامة وقيل باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقنأة أبدا ومعنى ذلك من آيات الله ان شأنهم وحديثهم من آيات الله (من يهد الله فهو المهتد) مثل ما مر في سبحان وهو ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم فأرشدهم الى نيل تلك الكرامة السنية (ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) أي من أضله فلا هادي له (وتحسبهم) بفتح السين شامي وحمزة وعاصم غير الاعشى وهو خطاب لكل أحد (أيقاظا) جمع يقظ (وهم رقود) نيام قيل عيونهم مفتحة وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظا (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قيل لهم تقلبتان في السنة وقيل تقلبة واحدة في يوم عاشوراء (وكلبهم باسط ذراعيه) حكاية حال ماضية لان اسم الفاعل لا يعمل اذا كان في معنى المضي (بالوصيد) بالفناء أو بالعتبة (لو اطلعت عليهم) لو أشرفت عليهم فنظرت اليهم (لوليت منهم) لأعرضت عنهم وهربت منهم (فرارا) منصوب على المصدر لان معنى وليت منهم فررت منهم (ولملئت منهم) وبتشديد اللام حجازي للمبالغة (رعبا) تمييز وبضم العين شامي وعلي وهو الخوف الذي يرعب الصدر أي يملؤه وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة أو لطول أظفارهم وشعورهم وعظم اجرامهم وعن معاوية انه غزا الروم فمر بالكهف فقال أريد أن أدخل فقال ابن عباس رضي الله عنهما لقد قيل لمن هو خير منك لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فدخلت جماعة بامره فأحرقتهم ريح

أو ولداتهم قال بعضهم لبعض (واذ اعتزلتموهم) يعني قومكم (وما يعبدون الا الله) وذلك أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الاصنام والمعنى واذا اعتزلتموهم وجميع ما يعبدون الا الله فانكم لم تعتزلوا عبادته (فأووا الى الكهف) أي الجؤا اليه (ينشر لكم) أي يبسط لكم (ربكم من رحمته ويهيئ) أي يسهل (لكم من أمركم مرفقا) أي ما يعودا اليه يسركم ورفقكم قوله سبحانه وتعالى (وترى الشمس اذا طلعت تزاور) أي تميل وتعدل (عن كهفهم ذات اليمين) أي جانب اليمين (واذا غربت تقرضهم) أي تتركهم وتعدل عنهم (ذات الشمال وهم في فجوة منه) أي متسع من الكهف (ذلك من آيات الله) أي من عجائب صنعه ودلالات قدرته وذلك ان ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصا لهم بالكرامة وقيل ان باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقنأة أبدا لا تقع الشمس عليهم عند الطلوع ولا عند الغروب ولا عند الاستواء فتؤذيهم بحرها ولكن اختار الله لهم مضجعا في متسع ينالهم فيه برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه وعلى هذا القول يكون معنى قوله ذلك من آيات الله أي شأنهم وحديثهم من آيات الله (من يهد الله فهو المهتد) يعني مثل أصحاب الكهف وفيه ثناء عليهم (ومن يضلل) أي ومن يضلله الله ولم يرشده (فلن تجد له وليا) أي معينا (مرشدا) أي يرشده قوله سبحانه وتعالى (وتحسبهم) خطاب لكل أحد (أيقاظا) أي منتبهين لان أعينهم مفتحة (وهم رقود) أي نيام (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قال ابن عباس كانوا يقلبون في السنة مرة من جانب الى جانب لئلا تأكل الارض لحومهم قيل كانوا يقلبون في يوم عاشوراء وقيل كان لهم في السنة تقليبتان (وكلبهم باسط ذراعيه) قال ابن عباس كان كلبا أغر وعنه أنه كان فوق القلطي ودون الكرزي والقلطي كلب صيني وقيل كان أصفر وقيل كان شديد الصفرة يضرب الى حمرة وقال ابن عباس كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل صهبان قيل ليس في الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم (بالوصيد) أي فناء الكهف وقيل عتبة الباب وكان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهم قيل كان ينقلب مع أصحابه فاذا انقلبوا ذات اليمين كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها واذا انقلبوا ذات الشمال كسر أذنه اليسرى ورقد عليها (لو اطلعت عليهم) يا محمد (لوليت منهم فرارا) وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل اليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله من رقدتهم (ولملئت منهم رعبا) أي خوفا من وحشة المكان وقيل لان أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم وهم نيام وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم وتقلبهم من غير حس ولا اشعار وقيل ان الله سبحانه وتعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد قال ابن عباس غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف الله

(وكذلك بعثناهم) وكما أنمناهم تلك النومة كذلك أيقظناهم اظهارا للقدرة على الانامة والبعث جميعا (ليتساءلوا بينهم) ليسأل بعضهم بعضا ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ويزدادوا يقينا ويشكروا ما أنعم الله به عليهم (قال قائل منهم) رئيسهم (كم لبثتم) كم مدة لبثكم (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) جواب مبنى على غالب الظن وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) عدة لبثكم انكار عليهم من بعضهم كأنهم قد علموا بالادلة أو بالالهام ان المدة متطاولة وان مقدارها لا يعلمه الا الله وروى أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال فظنوا أنهم في يومهم فلما نظروا الى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك وقد استدل ابن عباس رضى الله عنهما على ان الصحيح ان عددهم سبعة لانه قد قال في الآية قال قائل منهم كم لبثتم وهذا واحد وقالوا في جوابه لبثنا يوما أو بعض يوم وهو جمع وأقله ثلاثة ثم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة (فابعثوا أحدكم) كأنهم قالوا ربكم أعلم بذلك لا طريق لكم الى علمه فخذوا في شيء آخر مما يهمكم فابعثوا أحدكم أى تمليخا (بورقكم) هي الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة وبسكون الراء أبو عمرو وحمزة وأبو بكر (هذه الى المدينة) هي طرسوس وحملهم الورق عند فرارهم دليل على ان حمل النفقة ١٩٣ وما يصلح للمسافر هو رأى المتوكلين على الله دون المتوكلين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات وعن بعض العلماء انه كان شديد الحنين الى بيت الله ويقول ما لهذا السفر الا شيئان شد الهميان والتوكل على الرحمن (فلينظر أيها) أى أهلها فحذف كما في واسأل القرية وأى مبتدأ وخبره (أزكى) أحل وأطيب أو أكثر وأرخص (طعاما) تمييز (فليأتكم برزق منه وليتلطف) وليتكلف اللطف فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن أو في أمر التخفي حتى لا يعرف (ولا يشعرن بكم أحدا) ولا يفعلن ما يؤدى الى الشعور بنا من غير قصد منه فسمى ذلك اشعارا منه بهم لانه سبب فيه والضمير في

(انهم) راجع الى الاهل المقدر في أيها (ان يظهروا عليكم) يطلعوا عليكم (يرجموكم) يقتلوكم أخبث القتلة (أو يعيدوكم في ملتهم) بالاكراه والعود في معنى الصيرورة كثير في كلامهم (ولن تفلحوا اذا أبدا) اذا دل على الشرط أى ولن تفلحوا ان دخلتم في دينهم أبدا (وكذلك أعثرنا عليهم) وكما أنمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم (ليعلموا) أى الذين أطلعناهم على حالهم (أن وعد الله) وهو البعث (حق) كائن لان حالهم في نومهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث (وأن الساعة لا ريب فيها) فانهم يستدلون بأمرهم على صحة البعث (اذ يتنازعون) متعلق بأعثرنا أى أعثرناهم عليهم حين يتنازع أهل ذلك الزمان (بينهم أمرهم) أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث فكان بعضهم يقول تبعث الارواح دون الاجساد وبعضهم يقول تبعث الاجساد مع الارواح ليرتفع الخلاف وليتبين ان الاجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت (فقالوا) حين توفى الله أصحاب الكهف (ابنوا عليهم بنيانا) أى على باب كهفهم لئلا يتطرق اليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحظيرة (ربهم أعلم بهم) من كلام المتنازعين كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم فلما لم يهتدوا الى حقيقة ذلك قالوا ربهم أعلم بهم أو من كلام الله عز وجل رد لقول الخائضين في حديثهم (قال الذين غلبوا على أمرهم) من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم

لنا عن هؤلاء لننظر اليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك فقيل له لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فبعث معاوية ناسا فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم قوله سبحانه وتعالى (وكذلك بعثناهم) يعني كما أنمناهم في الكهف وحفظنا أجسامهم من البلاء على طول الزمان بعثناهم من النومة التي تشبه الموت (ليتساءلوا بينهم) أى ليسأل بعضهم بعضا (قال قائل منهم) وهو رئيسهم وكبيرهم مكسلمينا (كم لبثتم) أى في نومكم وذلك أنهم استنكروا طول نومهم وقيل انهم راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك (قالوا لبثنا يوما) ثم نظروا فوجدوا الشمس قد بقي منها بقية فقالوا (أو بعض يوم) فلما نظروا الى طول شعورهم وأظفارهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) وقيل ان مكسلمينا لما سمع الاختلاف بينهم قال دعوا الاختلاف ربكم أعلم بما لبثتم (فابعثوا أحدكم) يعني تمليخا (بورقكم) هي الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة (هذه الى المدينة) قيل هي طرسوس وكان اسمها في الزمن الاول قبل الاسلام أفسوس (فلينظر أيها أزكى طعاما) أى أحل طعاما وقيل أمروه أن يطلب ذبيحة مؤمن ولا تكون من ذبح من يذبح لغير الله وكان فيهم مؤمنون يخفون ايمانهم وقيل أطيب طعاما وأجوده وقيل أكثر طعاما وأرخصه (فليأتكم برزق منه) أى قوت وطعام تأكلونه (وليتلطف) أى وليترفق في الطريق وفي المدينة وليكن في ستر وكتمان (ولا يشعرن) أى ولا يعلمن (بكم أحدا) أى من الناس (انهم ان يظهروا عليكم) أى يعلموا بمكانكم (يرجموكم) قيل معناه يشتموكم ويؤذوكم بالقول وقيل يقتلوكم وكان من عادتهم القتل بالحجارة وهو أخبث القتل وقيل يضربوكم (أو يعيدوكم في ملتهم) أى الكفر (ولن تفلحوا اذا أبدا) أى ان عدتم اليه قوله عز وجل (وكذلك أعثرنا عليهم) أى أطلعنا الناس عليهم (ليعلموا أن وعد الله حق) يعني قوم بيدروس الذين أنكروا البعث (وأن الساعة لا ريب فيها) أى لا شك فيها أنها آتية (اذ يتنازعون بينهم أمرهم) قال ابن عباس في البنيان فقال المسلمون نبني عليهم مسجدا يصلي فيه الناس لانهم على ديننا وقال المشركون نبني عليهم بنيانا لانهم من أهل ملتنا وقيل كان تنازعهم في البعث فقال المسلمون تبعث الاجساد والارواح وقال قوم تبعث الارواح فأراهم الله آية وأن البعث للارواح والاجساد وقيل تنازعوا في مدة لبثهم وقيل في عددهم (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم) يعني بيدروس

(لنتخذن عليهم) على باب الكهف (مسجدا) يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم روي ان أهل الانجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الاصنام وأكرهوا على عبادتها وممن شدد في ذلك دقيانوس فاراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل فأبوا الا الثبات على الايمان والتصلب فيه ثم هربوا الى الكهف ومروا بكلب فتبعهم فطردوه فأنطقه الله تعالى فقال ماتريدون مني اني أحب أحباء الله فناموا وأنا أحرسكم وقيل مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ودخلوا الكهف فضرب الله على آذانهم وقبل ان يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه ان يبين لهم الحق فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ماسد به فم الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس اتهموه بانه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والانس ثم رجعوا الى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم فألقى الملك عليهم ثيابه وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب فرآهم في المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) الضمير في سيقولون لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المؤمنين وأهل الكتاب سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فأخر الجواب الى أن يوحى اليه فيهم فنزلت اخبارا بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددهم وان المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم ويروى أن السيد والعاقب وأصحابهما ١٩٤ من أهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم وقال العاقب وكان نسطوريا كانوا خمسة سادسهم كلبهم وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فحقق الله قول المسلمين وانما عرفوا ذلك باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما ذكرنا من قبل وعن علي رضي الله عنه هم سبعة نفر أسماؤهم عليخا ومكشلينا ومشلينا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره والسابع الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسم مدينتهم افسوس واسم كلبهم قطمير وسين الاستقبال وان دخل في الاول دون الآخرين فهما داخلان في حكم السين كقولك قد أكرم وأنعم تريد معنى التوقع في الفعلين جميعا وأريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له ثلاثة خبر مبتدا محذوف أي هم ثلاثة وكذلك خمسة وسبعة ورابعهم كلبهم جملة من مبتدا وخبر واقعة صفة لثلاثة وكذلك سادسهم كلبهم وثامنهم كلبهم رجما بالغيب رميا بالخبر الخفي واتيانا به كقولك ويقذفون بالغيب أي يأتون به أو وضع الرجم موضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب لانهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين والواو الداخلة على الجملة الثالثة هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في قولك جاءني رجل ومعه آخر ومررت بزيد وفي يده سيف وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على ان اتصافه بها أمر ثابت مستقر وهذه الواو هي التي أذنت بان الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم دليله ان الله تعالى أتبع القولين الاولين قوله رجما بالغيب وأتبع القول الثالث قوله (قل ربي أعلم بعدتهم) أي قل ربي أعلم بعدتهم وقد أخبركم بها بقوله سبعة وثامنهم كلبهم (ما يعلمهم الا قليل) قال ابن عباس رضي الله عنهما أنا من ذلك القليل وقيل الاقليل من أهل الكتاب والضمير في سيقولون على هذا لاهل الكتاب خاصة أي سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا ولا علم بذلك الا في قليل منهم وأكثرهم على ظن وتخمين (فلا تمار فيهم) فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف

وأصحابه (لنتخذن عليهم مسجدا) قوله سبحانه وتعالى (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم) روي أن السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف عندهم فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم (ويقولون) أي وقال العاقب وكان نسطوريا (خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون) وقال المسلمون (سبعة وثامنهم كلبهم) فحقق الله قول المسلمين وانما عرفوا ذلك باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل صلى الله عليه وسلم بعدما حكى قول النصارى أولا ثم أتبعه بقوله سبحانه وتعالى رجما بالغيب أي ظنا وحدسا من غير يقين ولم يقل ذلك في السبعة وتخصيص الشئ بالوصف يدل على أن الحال في الباقي بخلافه فوجب أن يكون المخصوص بالظن هو قول النصارى وأن يكون قول المسلمين مخالفا لقول النصارى في كونه رجما بالغيب وظنا ثم أتبعه بقوله سبحانه وتعالى (قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) هذا هو الحق لان العلم بتفاصيل العوالم والكائنات فيه في الماضي والمستقبل لا يكون الا لله تعالى أو لمن أخبره الله سبحانه وتعالى بذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما أنا من أولئك القليل كانوا سبعة وهم (٢) مكسلمينا ويمليخا ومرطونس وبينونس وساريونس وذرنوانس وكشفيططنونس وهو الراعي واسم كلبهم قطمير (فلا تمار فيهم) أي لا تجادل ولا تقل في عددهم

(٢) قوله مكسلمينا الخ وقع اختلاف كبير في أسمائهم وذكر في القاموس في ذلك ثلاثة أقوال فليراجع

(الامراء ظاهرا) الا جدالا ظاهرا غير متعمق فيه وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله اليك فحسب ولا تزيد من غير تجهيل لهم أو تشهد
من الناس ليظهر صدقك (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) ولا تسأل احدا منهم عن قصتهم سؤال متعنت له حتى يقول شيأ فترده عليه وتزيف
ماعنده ولا سؤال مسترشد لان الله تعالى قد أرشدك بان أوحى اليك قصتهم (ولا تقولن لشئ) لاجل شئ تعزم عليه (انى فاعل ذلك) الشئ
(غدا) أى فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة (الا أن يشاء الله) ان تقوله بأن يأذن لك فيه أو ولا تقولنه الا بان يشاء الله أى
الا بمشيئته وهو فى موضع الحال أى الا متلبسا بمشيئة الله قائلا ان شاء الله وقال الزجاج معناه ولا تقولن انى أفعل ذلك الا بمشيئة الله تعالى لان
قول القائل أنا أفعل ذلك ان شاء الله معناه لا أفعله الا بمشيئة الله وهذا نهى تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح
وعن أصحاب الكهف وذى القرنين فسألوه فقال ائتونى غدا أخبركم ولم يستثن 190 فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه (واذكر
ربك) أى مشيئة ربك وقل ان شاء الله (اذا نسيت) اذا فرط منك نسيان لذلك والمعنى اذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر وعن الحسن مادام فى مجلس الذكر وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولو بعد سنة وهذا محمول على تدارك التبرك بالاستثناء فاما الاستثناء المغير حكما فلا يصح الا متصلا * وحكى أنه بلغ المنصور ان أباحنيفة رحمه الله خالف ابن عباس رضى الله عنهما فى الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له أبوحنيفة هذا يرجع عليك انك تأخذ البيعة بالايمان أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن كلامه وأمر الطاعن فيه باخراجه من عنده أو معناه واذكر
ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت كلمة الاستثناء تشديدا فى البعث على الاهتمام بها أو صل صلاة نسيتها اذا ذكرتها أو اذا نسيت شيأ
فاذكره ليذكرك المنسى (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) يعنى اذا نسيت شيأ فاذكر ربك عند نسيانه أن تقول عسى ربى
أن يهدينى لشئ آخر بدل هذا المنسى أقرب منه رشدا أو أدنى خيرا ومنفعة أن يهدين ان ترن أن يؤتين أن تعلمن مكى فى الحالين ووافقه أبو
عمرو ومدنى فى الوصل (ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين) يريد لبثهم فيه احياء مضروبا على آذانهم هذه المدة وهو بيان لما أجمل فى قوله
فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا وسنين عطف بيان لثلثمائة ثلثمائة سنين بالاضافة حمزة وعلى على وضع الجمع موضع الواحد فى
التمييز كقوله بالاخسرين أعمالا (وازدادوا تسعا) أى تسع سنين لدلالة ماقبله عليه وتسعا مفعول به لان زاد تقتضى مفعولين فازداد تقتضى
مفعولا واحدا (قل الله أعلم بما لبثوا) أى هو أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم والحق ما أخبرك به أو هو حكاية لكلام أهل الكتاب وقل
الله أعلم رد عليهم والجمهور على أن هذا اخبار من الله سبحانه وتعالى انهم لبثوا فى كهفهم كذا مدة

عددهم وشأنهم (الامراء ظاهرا) أى الا بظاهر ماقصصنا عليك فقف عنده ولا تزد عليه (ولا تستفت فيهم)
أى فى أصحاب الكهف (منهم) أى من أهل الكتاب (أحدا) أى لا ترجع الى قول أحد منهم بعد أن أخبرناك
قصتهم قوله سبحانه وتعالى (ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله) يعنى اذا عزمت على فعل شئ
غدا فقل ان شاء الله ولا تقله بغير استثناء وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن
أصحاب الكهف وعن ذى القرنين فقال أخبركم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحى أياما ثم نزلت هذه الآية
وقد تقدمت القصة فى سورة بنى اسرائيل (واذكر ربك اذا نسيت) قال ابن عباس معناه اذا نسيت الاستثناء
ثم ذكرت فاستثن وجوز ابن عباس الاستثناء المنقطع وان كان بعد سنة وجوزه الحسن مادام فى المجلس
وجوزه بعضهم اذا قرب الزمان فان بعد لم يصح ولم يجوزه جماعة حتى يكون الكلام متصلا بالاستثناء وقيل
فى معنى الآية واذكر ربك اذا غضبت قال وهب مكتوب فى التوراة والانجيل ابن آدم اذكرنى حين تغضب
اذكرك حين أغضب وقيل الآية فى الصلاة يدل عليه ماروى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها قال تعالى أقم الصلاة لذكرى متفق عليه زاد مسلم أو نام عنها فكفارتها أن
يصليها اذا ذكرها (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) أى يثبتنى على طريق هو أقرب اليه
وأرشد وقيل ان الله سبحانه وتعالى أمره أن يذكره اذا نسى شيأ ويسأله أن يذكره أو يهديه لما هو خير له من أن
يذكر مانسى وقيل ان القوم لما سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله سبحانه وتعالى أن
يخبرهم أن الله سبحانه وتعالى سيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ماهو أدل لهم من قصة أصحاب الكهف وقد فعل
حيث آتاه من علم غيب المرسلين وقصصهم ماهو أوضح وأقرب الى الرشد من خبر أصحاب الكهف وقيل هذا
شئ أمره الله أن يقوله مع قوله ان شاء الله اذا ذكر الاستثناء بعد النسيان واذا نسى الانسان قوله ان شاء الله
فتوبته من ذلك أن يقول مع قوله ان شاء الله عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا قوله عز وجل (ولبثوا
فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا) قيل هذا خبر عن قول أهل الكتاب ولو كان خبرا من الله عن قدر لبثهم
لم يكن لقوله قل الله أعلم بما لبثوا وجه ولكن الله رد قولهم بقوله (قل الله أعلم بما لبثوا) والاصح أنه اخبار من
الله تعالى عن قدر لبثهم فى الكهف ويكون معنى قوله قل الله أعلم بما لبثوا يعنى ان نازعوك فى مدة لبثهم فى
الكهف فقل أنت الله أعلم بما لبثوا أى هو أعلم منكم وقد أخبر بمدة لبثهم وقيل ان أهل الكتاب قالوا ان
المدة من حين دخلوا الكهف الى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ثلثمائة وتسع سنين
فرد الله عليهم بذلك وقال قل الله أعلم بما لبثوا يعنى بعد قبض أرواحهم الى يومنا هذا لا يعلمه الا الله ﴿فان
قلت﴾ لم قال سنين ولم يقل سنة ﴿قلت﴾ قيل لما نزل قوله سبحانه وتعالى ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة فقالوا

(له غيب السموات والارض) ذكر اختصاصه بعلم ما غاب في السموات والارض وخفي فيها من أحوال أهلها (أبصر به وأسمع) أى وأسمع به
والمعنى ما أبصره بكل موجود وما أسمعه لكل مسموع (ما لهم) لاهل السموات والارض (من دونه من ولى) من متول لامورهم (ولا يشرك
فى حكمه) فى قضائه (أحدا) منهم ولا تشرك على النهى شامى كانوا يقولون له ائت بقرآن غير هذا أو بدله فقيل له (واتل ما أوحى اليك من
كتاب ربك) أى من القرآن ولا تسمع لما يهزؤن به من طلب التبديل فانه (لا مبدل لكلماته) أى لا يقدر أحد على

تبديلها أو تغييرها انما يقدر على ذلك هو وحده (وان تجد من دونه ملتحدا) ملجأ تعدل اليه ان هممت بذلك ولما قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نح هؤلاء الموالى وهم صهيب وعمار وخباب وسلمان وغيرهم من فقراء المسلمين حتى نجالسك نزل (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) واحبسها معهم وثبتها (بالغداة والعشى) دائبين على الدعاء فى كل وقت أو بالغداة لطلب التوفيق والتيسير والعشى لطلب عفو التقصير أوهما صلاة الفجر والعصر بالغدوة شامى (يريدون وجهه) رضا الله (ولا تعد عيناك عنهم) ولا تجاوز عداه اذا جاوزه وعدى بعن لتضمن عدا معنى نبا فى قولك نبت عنه عينه وفائدة التضمين اعطاء مجموع معنيين وذلك أقوى من اعطاء معنى فذ (تريد زينة الحيوة الدنيا) فى موضع الحال (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) من جعلنا قلبه غافلا عن الذكر وهو دليل لنا على أنه تعالى خالق افعال العباد (واتبع هواه وكان أمره فرطا) مجاوزا عن الحق
(وقل الحق من ربكم) أى الاسلام أو القرآن والحق خبر مبتدا محذوف أى هو (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) أى جاء الحق وزاحت
العلل فلم يبق الا اختياركم لانفسكم ما شئتم من الاخذ فى طريق النجاة أو فى طريق الهلاك وجىء بلفظ الامر والتخيير لانه لما مكن من اختيار
أيهما شاء فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال (انا أعتدنا) هيأنا

أياما أو شهورا أو سنين فنزلت سنين على وفق قولهم وقيل هو تفسير لما أجمل فى قوله فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا وازدادوا تسعا وقيل قالت نصارى نجران أما الثلثمائة فقد عرفناها وأما التسع فلا علم لنا بها فنزلت قل الله أعلم بما لبثوا وقيل ان عند أهل الكتاب لبثوا ثلثمائة سنة شمسية والله سبحانه وتعالى ذكر ثلثمائة سنة وتسع سنين قمرية والتفاوت بين القمرية والشمسية فى كل مائة سنة ثلاث سنين فتكون الثلثمائة الشمسية ثلثمائة وتسع سنين قمرية (له غيب السموات والارض) يعنى انه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شىء من أحوال أهلها فانه العالم وحده به فكيف يخفى عليه حال أصحاب الكهف (أبصر به وأسمع) معناه ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه بكل مسموع لا يغيب عن سمعه وبصره شىء يدرك البواطن كما يدرك الظواهر والقريب والبعيد والمحجوب وغيره لا تخفى عليه خافية (ما لهم) أى ما لاهل السموات والارض (من دونه) أى من دون الله (من ولى) أى ناصر (ولا يشرك فى حكمه أحدا) قيل معناه لا يشرك الله فى علم غيبه أحدا وقيل فى قضائه قوله سبحانه وتعالى (واتل) أى واقرأ يا محمد (ما أوحى اليك من كتاب ربك) يعنى القرآن واتبع ما فيه واعمل به (لا مبدل لكلماته) أى لا مغير للقرآن ولا يقدر أحد على التطرق اليه بتغيير أو تبديل ﴿فان قلت﴾ موجب هذا أن لا يتطرق النسخ اليه ﴿قلت﴾ النسخ فى الحقيقة ليس بتبديل لان المنسوخ ثابت فى وقته الى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلا وقيل معناه لا مغير لما أوعد الله بكلماته أهل معاصيه (ولن تجد من دونه) أى من دون الله ان لم تتبع القرآن (ملتحدا) أى ملجأ وحرزا تعدل اليه قوله عز وجل (واصبر نفسك) الآية نزلت فى عيينة بن حصن الفزارى أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان وعليه شملة صوف قد عرق فيها وبيده خوص يشقه وينسجه فقال عيينة للنبى صلى الله عليه وسلم أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها ان أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك الا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا فأنزل الله عز وجل واصبر نفسك أى احبس يا محمد نفسك (مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) يعنى طرفى النهار (يريدون وجهه) أى يريدون وجه الله لا يريدون عرض الدنيا وقيل نزلت فى أصحاب الصفة وكانوا سبعمائة رجل فقراء فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجعون الى تجارة ولا الى زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون أخرى فلما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم (ولا تعد) أى لا تصرف ولا تجاوز (عيناك عنهم) الى غيرهم (تريد زينة الحيوة الدنيا) أى تطلب مجالسة الاغنياء والاشراف وصحبة أهل الدنيا (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) أى جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا يعنى عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف (واتبع هواه) أى فى طلب الشهوات (وكان أمره فرطا) ضياعا ضيع أمره وعطل أيامه وقيل ندما وقيل سرفا وباطلا وقيل مخالفا للحق (وقل الحق من ربكم) أى قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا من ربكم الحق واليه التوفيق والخذلان وبيده الهدى والضلال ليس الى من ذلك شىء (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله اعملوا ما شئتم وقيل معنى الآية وقل الحق من ربكم أى لست بطارد المؤمنين لهواكم فان شئتم فآمنوا وان شئتم فاكفروا فان كفرتم فقد أعد لكم ربكم نارا وان آمنتم فلكم ما وصف الله لاهل طاعته وعن ابن عباس فى معنى الآية من شاء الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر (انا أعتدنا) أى

هيأنا

(للظالمين) للكافرين فقيد بالسياق كما ترك حقيقة الامر والتخيير بالسياق وهو قوله انا أعتدنا للظالمين (نارا أحاط بهم سرادقها) شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق وهي الحجرة التي تكون حول الفسطاط أو هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار أو هو حائط من نار يطيف بهم (وان يستغيثوا) من العطش (يغاثوا بماء كالمهل) هو دردي الزيت أو ما أذيب من جواهر الارض وفيه تهكم بهم (يشوى الوجوه) اذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته (بئس الشراب) ذلك (وساءت) النار (مرتفقا) متكأ من المرفق وهذا لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا والا فلا ارتفاق لاهل النار وبين جزاء من اختار الايمان فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لانضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن) كلام مستأنف بيان للاجر المبهم ولك أن تجعل

انالانضيع وأولئك خبرين بعد

هيأنا من العتاد وهو العدة (للظالمين) أى الكافرين (نارا أحاط بهم سرادقها) السرادق الحجرة التى تطيف بالفساطيط عن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار أربعون سنة أخرجه الترمذى قال ابن عباس هو حائط من نار وقيل هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالحظيرة وقيل هو دخان يحيط بالكفار (وان يستغيثوا) أى من شدة العطش (يغاثوا بماء كالمهل) قال ابن عباس هو ماء غليظ مثل دردي الزيت عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قوله سبحانه وتعالى بماء كالمهل قال كعكر الزيت فاذا قرب اليه سقطت فروة وجهه منه أخرجه الترمذى وقال رشدين أحد رواة الحديث قد تكلم فيه من قبل حفظه الفروة جلدة الوجه وقيل المهل الدم والقيح وقيل هو الرصاص والصفر المذاب (يشوى الوجوه) أى ينضج الوجوه من حره (بئس الشراب) أى ذلك الذى يغاثون به (وساءت) أى النار (مرتفقا) قال ابن عباس رضى الله عنهما منزلا وقيل مجتمعا وأصل المرتفق المتكأ وانما جاء كذلك لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا والا فلا ارتفاق لاهل النار ولا متكأ قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لانضيع أجر من أحسن عملا) أى لانترك أعمالهم تذهب ضياعا بل نجازيهم بأعمالهم الصالحة وقيل ان قوله انا لانضيع أجر من أحسن عملا كلام معترض وتقديره ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات (أولئك لهم جنات عدن) أى دار اقامة سميت عدنا لخلود المؤمنين فيها (تجرى من تحتهم الانهار) وذلك لان أفضل المساكن ما كان يجرى فيه الماء (يحلون فيها من أساور من ذهب) قيل يحلى كل انسان منهم ثلاثة أساور سوار من ذهب لهذه الآية وسوار من فضة لقوله تعالى وحلوا أساور من فضة وسوار من لؤلؤ لقوله ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس) هو الديباج الرقيق (واستبرق) هو الديباج الصفيق الغليظ وقيل السندس المنسوج بالذهب (متكئين) خص الاتكاء لانه هيئة المتنعمين والملوك (فيها) أى في الجنة (على الارائك) جمع أريكة وهى السرر فى الحجال ولما وصف الله سبحانه وتعالى هذه الاشياء قال (نعم الثواب) أى نعم الجزاء (وحسنت) أى الجنات (مرتفقا) أى مقرا ومجلسا والمراد بقوله وحسنت مرتفقا مقابلة ما تقدم ذكره من قوله سبحانه وتعالى وساءت مرتفقا قوله عز وجل (واضرب لهم مثلا رجلين) قيل نزلت فى أخوين من أهل مكة من بنى مخزوم وهما أبو سلمة عبد الله بن عبد الاسد بن عبد ياليل وكان مؤمنا وأخوه الاسود بن عبد الاسد وكان كافرا وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه وسلمان وأصحابه وشبههما برجلين من بنى اسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا فى قول ابن عباس وقيل مليخا والآخر كافر واسمه قطروس وهما اللذان وصفهما الله سبحانه وتعالى فى سورة والصافات وكانت قصتهما على ما ذكره عطاء الخراسانى قال كان رجلان شريكان لهما ثمانية آلاف دينار وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار وانى قد اشتريت منك أرضا فى الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال اللهم ان فلانا بنى دارا بألف

والمراد من أحسن منهم عملا كقولك السمن منوان بدرهم ولان من أحسن عملا والذين آمنوا وعملوا الصالحات ينتظمهما معنى واحد فاقام من أحسن مقام الضمير (تجرى من تحتهم الانهار يحلون فيها من أساور) من للابتداء وتنكير أساور وهى جمع اسورة التى هى جمع سوار لابهام أمرها فى الحسن (من ذهب) من للتبيين (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس) مارق من الديباج (واستبرق) ماغلظ منه أى يجمعون بين النوعين (متكئين فيها على الارائك) خص الاتكاء لانه هيئة المتنعمين والملوك على أسرتهم (نعم الثواب) الجنة (وحسنت) الجنة والارائك (مرتفقا) متكأ (واضرب لهم مثلا رجلين) مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين وكانا

أخوين فى بنى اسرائيل أحدهما كافر اسمه قطروس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وقيل هما المذكوران فى والصافات فى قوله قال قائل منهم انى كان لى قرين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فجعلاها شطرين فاشترى الكافر أرضا بألف دينار فقال المؤمن اللهم ان أخى اشترى أرضا بالف دينار وأنا اشترى منك أرضا فى الجنة بألف فتصدق به ثم بنى أخوه دارا بألف فقال اللهم انى أشترى منك دارا فى الجنة بألف فتصدق به ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال اللهم انى جعلت ألفا صداقا للحور ثم اشترى أخوه خدما ومتاعا بألف دينار فقال اللهم انى اشتريت منك الولدان المخلدين بألف فتصدق به ثم أصابته حاجة فجلس لاخيه على طريقه فمر به فى حشمه فتعرض له فرده ووبخه على التصدق بماله

(جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب) بساتين من كروم (وحففناهما بنخل) وجعلنا النخل محيطا بالجنتين وهذا مما يؤثره الدهاقين فى كرومهم أن يجعلوها مؤزرة بالاشجار المثمرة يقال حفوه اذا طافوا به وحففته بهم أى جعلتهم حافين حوله وهو متعد الى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولا ثانيا (وجعلنا بينهما زرعا) جعلناها أرضا جامعة للاقوات والفواكه ووصف العمارة بانها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها مع الشكل الحسن والترتيب الانيق (كلتا الجنتين آتت) أعطت حمل على اللفظ لان لفظ كلتا مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز (أكلها) ثمرها (ولم تظلم منه) ولم تنقص من أكلها (شيأ وفجرنا خلالهما نهرا) نعتهما بوفاء الثمار وتمام الاكل من غير نقص ثم بما هو أصل الخير ومادته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به وهو النهر الجارى فيها (وكان له) لصاحب الجنتين (ثمر) أنواع من المال من ثمر ماله اذا كثره أى كانت له الى الجنتين الموصوفتين الاموال الكثيرة من الذهب والفضة وغيرهما اله ثمر وأحيط بثمره بفتح الميم والثاء عاصم وبضم الثاء وسكون الميم أبو عمرو وبضمهما غيرهما (فقال لصاحبه وهو يحاوره) يراجعه الكلام من حار يحور اذا رجع يعنى قطروس أخذ بيد المسلم يطوف به فى الجنتين ويريه ما فيهما ويفاخره بما ملك من المال دونه (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أنصارا وحشما وأولادا ذكورا لانهم ينفرون معه دون الاناث (ودخل جنته) احدى جنتيه أو سماها جنة لاتحاد الحائط وجنتين للنهر الجارى بينهما (وهو ظالم لنفسه) ضار لها بالكفر (قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا) أى أن تهلك هذه الجنة شك فى بيدودة جنته لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بالمهلة وترى أكثر الاغنياء من المسلمين تنطق ألسنة أحوالهم بذلك (وما أظن الساعة قائمة) كائنة (ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا) اقسام منه على انه ان رد الى ربه على سبيل الفرض كما يزعم صاحبه ليجدن فى الآخرة خيرا من جنته فى الدنيا ادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده منقلبا تمييز أى مرجعا وعاقبة (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب) أى خلق أصلك لان خلق أصله سبب فى خلقه وكان خلقه خلقا له (ثم من نطفة) أى خلقك من نطفة (ثم سواك رجلا) عدلك وكملك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال جعله كافرا بالله لشكه فى البعث (لكنا) بالالف فى الوصل شامى الباقون بغير ألف وبالالف فى الوقف اتفاق وأصله لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن فتلاقت النونان فأدغمت الاولى فى الثانية بعد أن سكنت (هو الله ربى) هو ضمير الشأن والشأن الله ربى والجملة خبر أنا والراجع منه اليه ياء الضمير وهو استدراك لقوله أكفرت قال لاخيه أنت كافر بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرا حاضر وفيه حذف أى أقول هو الله بدليل عطف (ولا أشرك بربى أحدا ولولا) وهلا (اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله) ما موصولة مرفوعة المحل على انها خبر مبتدا محذوف تقديره الامر ما شاء الله أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف يعنى أى شئ شاء الله كان والمعنى هلا

دينار وانى اشتريت منك دارا فى الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال هذا اللهم انى أخطب اليك امرأة من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه اشترى خدما ومتاعا بألف دينار فقال هذا اللهم انى أشترى منك خدما ومتاعا بألف دينار فى الجنة فتصدق بها ثم اصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبى لعل ينالنى منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به فى خدمه وحشمه فقام اليه فنظر اليه صاحبه فعرفه فقال فلان قال نعم قال ما شأنك قال أصابتنى حاجة بعدك فأتيتك لتعينني بخير قال فما فعلت بمالك وقد قاسمتك مالا وأخذت شطره فقص عليه قصته فقال وانك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيأ فطرده فقضى لهما فتر فيما فنزل فيهما قوله فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم انى كان لى قرين وروى انه لما أتاه أخذ بيده وجعل يطوف به ويريه أمواله فنزل فيهما واضرب لهم مثلا رجلين (جعلنا لاحدهما جنتين) أى بستانين (من أعناب وحففناهما) أى أطفناهما من جوانبهما (بنخل وجعلنا بينهما زرعا) أى وجعلنا بين النخل والاعناب الزرع وقيل بينهما أى بين الجنتين يعنى لم يكن بين الجنتين خراب بغير زرع (كلتا الجنتين آتت) أى أعطت كل واحدة من الجنتين (أكلها) أى ثمرها تاما (ولم تظلم منه شيأ) أى ولم تنقص منه شيأ (وفجرنا خلالهما) شققنا وسطهما (نهرا وكان له) أى لصاحب البستان (ثمر) قرئ بالفتح جمع ثمرة وقرئ بالضم وهو الاموال الكثيرة المثمرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما (فقال) يعنى صاحب البستان (لصاحبه) يعنى المؤمن (وهو يحاوره) أى يخاطبه (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أى عشيرة ورهطا وقيل خدما وحشما (ودخل جنته) يعنى الكافر آخذا بيد أخيه المؤمن يطوف به فيها ويريه اياها (وهو ظالم لنفسه) أى بكفره (قال ما أظن أن تبيد) أى تهلك (هذه) يعنى جنته (أبدا) وذلك أنه راقه حسنها وغرته زهرتها فتوهم أنها لا تفنى أبدا وأنكر البعث فقال (وما أظن الساعة قائمة) أى كائنة (ولئن رددت الى ربى) ﴿فان قلت﴾ كيف قال ولئن رددت الى ربى وهو منكر البعث ﴿قلت﴾ معناه ولئن رددت الى ربى على ما تزعم من أن الساعة آتية (لأجدن خيرا منها منقلبا) أى يعطينى هناك خيرا منها لانه لم يعطنى الجنة فى الدنيا الا ليعطينى فى الآخرة أفضل منها (قال له صاحبه) يعنى المؤمن (وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب) أى خلق أصلك من تراب لان خلق أصله سبب فى خلقه فكان خلقا له (ثم من نطفة ثم سواك رجلا) أى عدلك بشرا سويا وكملك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال (لكنا هو الله ربى) مجازه لكن أنا هو الله ربى (ولا أشرك بربى أحدا ولولا) أى هلا (اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله) والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر الى ما رزقك الله منها ما شاء الله اعترافا بأنها وكل خير فيها انما

حصل

قالت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها الأمر ما شاء الله اعترافاً بأنها وكل ما فيها إنما حصل بمشيئة الله وان أمرها بيده ان شاء تركها عامرة وان شاء خربها (لا قوة إلا بالله) اقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونته وتأييده من قرأ (ان ترن أنا أقل منك مالا) بنصب أقل فقد جعل أنا فصلا ومن رفع وهو الكسائي جعله مبتدأ وأقل خبره والجملة مفعولا ثانيا لترني وفي قوله (وولدا) نصرة لمن فسر النفر بالأولاد في قوله وأعز نفرا (فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك) في الدنيا أو في العقبى (ويرسل عليها حسبانا) عذابا (من السماء فتصبح صعيدا زلقا) أرضا بيضاء يزلق عليها لملاستها (أو يصبح ماؤها غورا) غائرا أي ذاهبا في الأرض (فلن تستطيع له طلبا) فلا يتأتى منك طلبه فضلا عن الوجود والمعنى ان ترن أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لإيماني جنة خيرا من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بستانك (وأحيط بثمره) هو عبارة عن إهلاكه وأصله من أحاط به العدو لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل في كل إهلاك (فأصبح) أي الكافر (يقلب كفيه) يضرب إحداهما على الأخرى ندما وتحسرا وإنما صار تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر لأن النادم يقلب كفيه ظهر البطن كما كنى عن ذلك ١٩٩ بعض الكف والسقوط في اليد ولأنه في معنى الندم عدى تعديته بعلى كأنه قيل فأصبح يندم (على ما أنفق فيها) أي في عمارتها (وهي خاوية على عروشها) يعني أن كرومها المعروشة سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم (ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحدا) تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتى من جهة كفره وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك الله بستانه حين لم ينفعه التمني ويجوز أن يكون توبة من الشرك وندما على ما كان منه ودخولا في الإيمان (ولم تكن له فئة ينصرونه) يقدرون على نصرته (من دون الله) أي هو وحده القادر على نصرته لا يقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لحكمة (وما كان منتصرا) وما كان ممتنعا بقوته عن انتقام الله (هنالك الولاية لله الحق) يكن بالياء والولاية بكسر الواو حمزة وعلي فهي بالفتح النصرة والتولي وبالكسر السلطان والملك والمعنى هنالك أي في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها أحد سواه تقريرا لقوله ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله أو هنالك السلطان والملك لله لا يغلب أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر يعني أن قوله ياليتني لم أشرك بربي أحدا كلمة ألجئ إليها فقالها جزعا مما دهاه من شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها أو هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم يعني أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء ويؤيده قوله (هو خير ثوابا وخير عقبا) أي لأوليائه أو هنالك إشارة إلى الآخرة أي في تلك الدار الولاية لله كقوله لمن الملك اليوم الحق بالرفع أبو عمرو وعلي صفة للولاية أو خبر مبتدأ محذوف أي هي الحق أو هو الحق غيرهما بالجر صفة لله عقبا بسكون القاف عاصم وحمزة وبضمها غيرهما وفي الشواذ عقبى على وزن فعلى وكلها بمعنى العاقبة (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) أي هو كماء أنزلناه (فاختلط به نبات الأرض) فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا أو أثر في النبات الماء فاختلط به حتى روي (فأصبح هشيما) يابسا متكسرا الواحدة هشيمة (تذروه الرياح) تنسفه وتطيره الريح حمزة وعلي

حصل بمشيئة الله تعالى وفضله وان أمرها بيده وانه ان شاء تركها عامرة وان شاء تركها خرابا (لا قوة إلا بالله) أي وقلت لا قوة إلا بالله اقرارا بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونة الله وتأييده ولا أقدر على حفظ مالي ودفع شيء عنه إلا بالله روي عن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى من ماله شيئا يعجبه أو دخل حائطا من حيطانه قال ما شاء الله لا قوة إلا بالله الحائط البستان (ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا) أي لأجل ذلك تكبرت علي وتعظمت (فعسى ربي) أي فلعل ربي (أن يؤتين) أي يعطيني (خيرا من جنتك) يعني في الآخرة (ويرسل عليها) أي على جنتك (حسبانا) قال ابن عباس نارا وقيل مرامي (من السماء) وهي الصواعق فتهلكها (فتصبح صعيدا زلقا) أي أرضا جرداء ملساء لا نبات فيها وقيل تزلق فيها الأقدام وقيل رملا هائلا (أو يصبح ماؤها غورا) غائرا ذاهبا لا تناله الأيدي ولا الدلاء (فلن تستطيع له طلبا) يعني ان طلبته لم تجده (وأحيط بثمره) يعني أحاط العذاب بثمر جنته وذلك أن الله تعالى أرسل عليها من السماء نارا فأهلكتها وغار ماؤها (فأصبح) يعني صاحبها الكافر (يقلب كفيه) يصفق بكف على كف ويقلب كفيه ظهر البطن تأسفا وتلهفا (على ما أنفق فيها) المعنى فأصبح يندم على ما أنفق في عمارتها (وهي خاوية على عروشها) أي ساقطة سقوفها وقيل ان كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض (ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحدا) يعني أنه تذكر موعظة أخيه المؤمن فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركا (ولم تكن له فئة) أي جماعة (ينصرونه من دون الله) أي يمنعونه من عذاب الله (وما كان منتصرا) أي ممتنعا لا يقدر على الانتصار لنفسه وقيل معناه لا يقدر على رد ما ذهب منه قوله سبحانه وتعالى (هنالك الولاية) قرئ بكسر الواو ويعني السلطان في القيامة (لله الحق) وقرئ بفتحها من الموالاة والنصرة يعني أنهم يتولونه يومئذ ويتبرؤون مما كانوا يعبدون من دونه في الدنيا (هو خير ثوابا) أي أفضل جزاء لأهل طاعته لو كان غيره يثيب (وخير عقبا) يعني عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره فهو خير إثابة وعاقبة قوله عز وجل (واضرب لهم) أي اضرب يا محمد لقومك (مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) يعني المطر (فاختلط به نبات الأرض) أي خرج منه كل لون وزهرة (فأصبح) أي عن قريب (هشيما) قال ابن عباس يابسا (تذروه الرياح)

(وكان الله على كل شئ) من الانشاء والافناء (مقتدرا) قادرا شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والافناء بحال النبات يكون أخضر ثم يهيج فتطيره الريح كأن لم يكن (المال والبنون زينة الحيوة الدنيا) لا زاد القبر وعدة العقبى (والباقيات الصالحات) أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للانسان أو الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (خير عند ربك ثوابا) جزاء (وخير أملا) لانه وعد صادق وأكثر الآمال كاذبة يعني ان صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ونصيبه في الآخرة (ويوم) واذكر يوم (نسير الجبال) مكي وشامي وأبو عمرو أي تسير في الجو أو يذهب بها بان تجعل هباء منثورا منبثا (وترى الأرض بارزة) ليس عليها ما يسترها مما كان عليها من الجبال والاشجار (وحشرناهم) أي الموتى (فلم نغادر منهم أحدا) أي فلم نترك غادره أي تركه ومنه الغدر ترك الوفاء والغدير ما غادره السيل (وعرضوا على ربك صفا) مصطفين ظاهرين ترى جماعتهم كما ترى كل واحد لا يحجب أحد أحدا شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان (لقد جئتمونا) أي قلنا لهم لقد جئتمونا وهذا المضمر يجوز أن يكون عامل النصب في يوم نسير (كما خلقناكم أول مرة) أي لقد بعثناكم كما انشأناكم أول مرة أو جئتمونا عراة لا شئ معكم كما خلقناكم أولا وانما قال وحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى للدلالة على حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الاهوال كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) وقتا لانجاز ما وعدتم على ألسنة الانبياء من البعث والنشور أو مكان وعد للمحاسبة (ووضع الكتاب) أي صحف الأعمال (فترى المجرمين مشفقين) خائفين (مما فيه) من الذنوب (ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة) أي لا يترك شيأ من المعاصي (الا أحصاها) حصرها وضبطها

قال ابن عباس تذريه وقيل تفرقه وتنسفه (وكان الله على كل شئ مقتدرا) أي قادرا قوله سبحانه وتعالى (المال والبنون) يعني التي يفتخر بها عيينة وأصحابه الاغنياء (زينة الحيوة الدنيا) يعني ليست من زاد الآخرة قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه المال والبنون حرث الدنيا والاعمال الصالحة حرث الآخرة وقد يجمعهما الله لاقوام (والباقيات الصالحات) قال ابن عباس هي قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لان أقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أحب الي مما طلعت عليه الشمس * عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال استكثروا من قول الباقيات الصالحات قيل وما هن يارسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله * عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قلت يارسول الله وما رياض الجنة قال المساجد قلت وما الرتع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أخرجه الترمذي وقال حديث غريب * عن سعيد بن المسيب ان الباقيات الصالحات هي قول العبد الله أكبر وسبحان الله ولا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله أخرجه مالك في الموطأ موقوفا عليه وعن ابن عباس ان الباقيات الصالحات الصلوات الخمس وعنه أنها الاعمال الصالحة (خير عند ربك ثوابا) أي جزاء (وخير أملا) أي ما يؤمله الانسان قوله سبحانه وتعالى (ويوم نسير الجبال) أي نذهب بها وذلك أن تجعل هباء منثورا كما يسير السحاب (وترى الارض بارزة) أي ظاهرة ليس عليها شجر ولا جبل ولا بناء وقيل هو بروز ما في بطنها من الموتى وغيرهم فيصير باطن الارض ظاهرها (وحشرناهم) يعني جميعا الى موقف الحساب (فلم نغادر منهم أحدا) أي لم نترك منهم أحدا (وعرضوا على ربك صفا) أي صفا صفا وفوجا فوجا لانهم صف واحد وقيل قياما وقيل كل أمة وزمرة صف ثم يقال لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) يعني أحياء وقيل حفاة عراة غرلا (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) يعني القيامة يقول ذلك لمنكري البعث (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ألا ان أول الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم عليه السلام الا وانه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يارب أصحابي فيقول انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم الى قوله العزيز الحكيم قال فيقال لي انهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم زاد في رواية فأقول سحقا سحقا قوله غرلا أي قلفا والغرلة القلفة التي تقطع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله سحقا أي بعدا قال بعض العلماء ان المراد بهؤلاء أصحاب الردة الذين ارتدوا من العرب ومنعوا الزكاة بعده (ق) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا قالت عائشة فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض قال الأمر أشد من أن يهمهم ذلك زاد النسائي في رواية له لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه قوله عز وجل (ووضع الكتاب) يعني صحائف أعمال العباد توضع في أيدي الناس في أيمانهم وشمائلهم وقيل توضع بين يدي الله تعالى (فترى المجرمين مشفقين) أي خائفين (مما فيه) يعني من الأعمال السيئة (ويقولون) يعني اذا رأوها (ياويلتنا) أي ياهلاكنا وكل من وقع في هلكة دعا بالويل (مال هذا الكتاب لا يغادر) أي لا يترك (صغيرة ولا كبيرة) أي من ذنوبنا (الا أحصاها) أي عدها وكتبها وأثبتها فيه وحفظها قال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم والمس والقبلة والكبيرة الزنا

الزنا * عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم ومحقرات الذنوب فانما مثل محقرات الذنوب
مثل قوم نزلوا في بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فأنضجوا خبزهم وان محقرات
الذنوب لموبقات الحقير الشيء الصغير التافه وقوله لموبقات أي مهلكات (ووجدوا ما عملوا حاضرا) أي
مكتوبا مثبتا في كتابهم (ولا يظلم ربك أحدا) أي لا ينقص ثواب أحد عمل خيرا ولا يؤاخذ أحدا بجرم
لم يعمله * عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض الناس يوم القيامة ثلاث
عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الايدي فآخذ بيمينه
وآخذ بشماله أخرجه الترمذي وقال لا يصح هذا الحديث من قبل ان الحسن لم يسمع من أبي هريرة وقد رواه
بعضهم عن الحسن عن أبي موسى قوله سبحانه وتعالى (واذ قلنا) أي واذكر يا محمد اذ قلنا (للملائكة اسجدوا
لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن) قال ابن عباس كان من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار
السموم وقال الحسن كان من الجن ولم يكن من الملائكة فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الانس وكونه من
الملائكة لا ينافي كونه من الجن بدليل قوله سبحانه وتعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وذلك أن قريشا
قالت الملائكة بنات الله فهذا يدل على ان الملك يسمى جنا ويعضده اللغة لان الجن مأخوذ من الاجتنان
وهو الستر فعلى هذا تدخل الملائكة فيه فكل الملائكة جن لاستتارهم وليس كل جن ملائكة ووجه
كونه من الملائكة أن الله سبحانه وتعالى استثناه من الملائكة والاستثناء يفيد اخراج ما لولاه لدخل ويصح
دخوله وذلك يوجب كونه من الملائكة ووجه من قال انه كان من الجن ولم يكن من الملائكة قوله كان من
الجن والجن جنس مخالف للملائكة وقوله أفتتخذونه وذريته فأثبت له ذرية والملائكة لا ذرية لهم
وأجيب عن الاستثناء انه استثناء منقطع وهو مشهور في كلام العرب قال الله سبحانه وتعالى واذ قال ابراهيم
لابيه وقومه انني براء مما تعبدون الا الذي فطرني وقال تعالى لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما قيل انه كان من
الملائكة فلما خالف الامر مسخ وغير وطرد ولعن وقوله تعالى (ففسق عن أمر ربه) أي خرج عن طاعة ربه
(أفتتخذونه) يعني يا بني آدم أفتتخذون ابليس (وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو) يعني أعداء روى
مجاهد عن الشعبي قال اني لقاعد يوما اذ أقبل رجل فقال أخبرني هل لابليس زوجة قلت ان ذلك العرس
ما شهدته ثم ذكرت قول الله عز وجل أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني فعلمت انه لا تكون ذرية الا من
زوجة فقلت نعم قيل يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل انه يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن
جماعة من الشياطين قال مجاهد من ذرية ابليس لاقيس وولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة
والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور وهو صاحب الاسواق يزين اللغو والحلف الكاذب ومدح السلع وبتر
وهو صاحب المصائب يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والاعور وهو صاحب الزنا ينفخ في
احليل الرجل وعجيزة المرأة ومطوس وهو صاحب الاخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس لا يجدون لها أصلا
وداسم وهو الذي اذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يرفع أو يحسن موضعه واذا
أكل ولم يسم أكل معه قال الاعمش ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت
ارفعوا هذه وخاصمتهم ثم أذكر فأقول داسم داسم أعوذ بالله منه روى أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء أخرجه الترمذي (م) عن عثمان بن أبي
العاص قال قلت يا رسول الله ان الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وبين قراءتي يلبسها علي فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ذلك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا قال
ففعلت ذلك فأذهبه الله عني (م) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابليس يضع عرشه على الماء
ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت
شيئا ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت قال
الاعمش أراه قال فيلتزمه وقوله (بئس للظالمين بدلا) يعني بئس ما استبدلوا طاعة ابليس وذريته بعبادة

(ووجدوا ما عملوا حاضرا) في الصحف عتيدا أو جزاء ما عملوا (ولا يظلم ربك أحدا) فيكتب عليه ما لم يعمل أو يزيد في عقابه أو يعذبه بغير جرم (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) سجود تحية أو سجود انقياد (فسجدوا الا ابليس كان من الجن) هو مستأنف كأن قائلا قال ماله لم يسجد فقيل كان من الجن (ففسق عن أمر ربه) خرج عما أمره ربه به من السجود وهو دليل على انه كان مأمورا بالسجود مع الملائكة (أفتتخذونه وذريته) الهمزة للانكار والتعجيب كأنه قيل أعقيب ما وجد منه تتخذونه وذريته (أولياء من دوني) وتستبدلونهم بي ومن ذريته لاقيس موسوس الصلاة والاعور صاحب الزنا وبتر صاحب المصائب ومطوس صاحب الاراجيف وداسم يدخل ويأكل مع من لم يسم الله تعالى (وهم لكم عدو) أعداء (بئس للظالمين بدلا) بئس البدل من الله ابليس لمن استبدله فأطاعه بدل طاعة الله

(ما أشهدتهم) أي ابليس وذريته (خلق السموات والارض) يعني انكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة وانما يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في
الالهية فنفى مشاركتهم في الالهية بقوله ما أشهدتهم خلق السموات والارض لأعتضد بهم في خلقها أو أشاورهم فيه أي تفردت بخلق الاشياء
فأفردوني في العبادة (ولا خلق أنفسهم) أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله ولا تقتلوا أنفسكم (وما كنت متخذ المضلين) أي وما
كنت متخذهم (عضدا) أي أعوانا فوضع المضلين موضع الضمير ذما لهم بالاضلال فاذا لم يكونوا عضدا لي في الخلق فما لكم تتخذونهم شركاء لي في
العبادة (ويوم يقول) الله للكفار وبالنون حمزة (نادوا) ادعوا بصوت عال (شركائي الذين زعمتم) انهم فيكم شركائي ليمنعوكم من عذابي وأراد
الجن وأضاف الشركاء اليه على زعمهم توبيخا لهم (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا) مهلكا من وبق يبق وبوقا اذا هلك أو مصدرا
كالموعد أي وجعلنا بينهم واديا من أودية ٢٠٢ جهنم وهو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركا يهلكون فيه جميعا أو الملائكة وعزيرا
وعيسى والموبق البرزخ البعيد أي وجعلنا بينهم أمدا بعيدا لانهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان (ورأى المجرمون النار فظنوا) فأيقنوا (انهم مواقعوها) مخالطوها واقعون فيها (ولم يجدوا عنها) عن النار (مصرفا) معدلا (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل) يحتاجون اليه (وكان الانسان أكثر شيء جدلا) تمييز أي أكثر الاشياء التي يتأتى منها الجدل ان فصلتها واحدا بعد واحد خصومة ومماراة بالباطل يعني ان جدل الانسان أكثر من جدل كل شيء (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) أي سببه وهو الكتاب والرسول (ويستغفروا ربهم الا أن تأتيهم سنة الاولين أو يأتيهم العذاب) ان الاولى نصب والثانية رفع وقبلها
مضاف محذوف تقديره وما منع الناس الايمان والاستغفار الا انتظار ان يأتيهم سنة الاولين وهي الاهلاك اغطية
أو انتظار ان يأتيهم العذاب أي عذاب الآخرة (قبلا) كوفي أي أنواعا جمع قبيل الباقون قبلا أي عيانا (وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين)
يوقف عليه ويستأنف بقوله (ويجادل الذين كفروا بالباطل) هو قولهم للرسل ما أنتم الا بشر مثلنا ولو شاء الله لأنزل ملائكة ونحو ذلك
(ليدحضوا به الحق) ليزيلوا ويبطلوا بالجدال النبوة (واتخذوا آياتي) القرآن (وما أنذروا) ما موصولة والراجع من الصلة محذوف أي وما
أنذروه من العقاب أو مصدرية أي وانذارهم (هزوا) موضع استهزاء بسكون الزاي والهمزة حمزة وبابدال الهمزة واوا حفص وبضم الزاي
والهمزة غيرهما (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) بالقرآن ولذلك رجع الضمير اليها مذكرا في قوله أن يفقهوه (فأعرض عنها) فلم يتذكر
حين ذكر ولم يتدبر (ونسي ما قدمت يداه) عاقبة ما قدمت يداه من الكفر والمعاصي غير متفكر فيها ولا ناظر في ان المسيء والمحسن لا بد لهما
من جزاء ثم علل اعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم بقوله (انا جعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية جمع كنان وهو الغطاء

ربهم وطاعته قوله سبحانه وتعالى (ما أشهدتهم) أي ما أحضرتهم يعني ابليس وذريته وقيل الكفار
وقيل الملائكة (خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) والمعنى ما أشهدتهم خلقا فأستعين بهم على
خلقها وأشاورهم فيها (وما كنت متخذ المضلين) يعني الشياطين الذين يضلون الناس (عضدا) يعني أنصارا
وأعوانا قوله عز وجل (ويوم يقول نادوا) يعني يقول الله تعالى يوم القيامة نادوا (شركائي) يعني الاصنام
(الذين زعمتم) يعني انهم شركائي (فدعوهم) أي فاستغاثوا بهم (فلم يستجيبوا لهم) أي فلم يجيبوهم
ولم ينصروهم (وجعلنا بينهم) يعني بين الاصنام وعبدتها وقيل بين أهل الهدى وبين أهل الضلال (موبقا)
يعني مهلكا قال ابن عباس هو واد في النار وقيل نهر تسيل منه نار وعلى حافتيه حيات مثل البغال الدهم
وقيل كل حاجز بين شيئين فهو موبق وأصله الهلاك (ورأى المجرمون) أي المشركون (النار فظنوا) أي
أيقنوا (أنهم مواقعوها) أي داخلوها وواقعون فيها (ولم يجدوا عنها مصرفا) أي معدلا لانها أحاطت بهم من
كل جانب وقيل لان الملائكة تسوقهم اليها قوله سبحانه وتعالى (ولقد صرفنا) أي بينا (في هذا القرآن
للناس من كل مثل) أي ليتذكروا ويتعظوا (وكان الانسان أكثر شيء جدلا) أي خصومة في الباطل قال
ابن عباس أراد النضر بن الحرث وجداله في القرآن وقيل أراد به أبي بن خلف وقيل أراد به جميع الكفار
وقيل الآية على العموم وهو الاصح (ق) عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلا فقال ألا تصليان فقلت يا رسول الله أنفسنا بيد الله تعالى فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا
فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع الي شيئا ثم سمعته يقول وهو مول يضرب
فخذه بيده وكان الانسان أكثر شيء جدلا قوله عز وجل (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) يعني
القرآن وأحكام الاسلام والبيان من الله تعالى وقيل انه رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويستغفروا ربهم)
والمعنى انه لا مانع لهم من الايمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة والاعذار زائلة فلم يقدموا
على الايمان والاستغفار (الا أن تأتيهم سنة الاولين) يعني سنتنا في اهلاك الاولين ان لم يؤمنوا وهو عذاب
الاستئصال (أو يأتيهم العذاب قبلا) قال ابن عباس أي عيانا من المقابلة وقيل فجأة قوله سبحانه وتعالى
(وما نرسل المرسلين الا مبشرين) أي بالثواب على الطاعة (ومنذرين) بالعقاب لمن عصى (ويجادل الذين
كفروا بالباطل) هو قولهم أبعث الله بشرا رسولا وقولهم للرسل ما أنتم الا بشر مثلنا وشبه ذلك (ليدحضوا)
أي ليبطلوا (به الحق) ويزيلوه (واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا) فيه اضمار يعني اتخذوا ما أنذروا به وهو
القرآن استهزاء قوله عز وجل (ومن أظلم ممن ذكر) أي وعظ (بآيات ربه فأعرض عنها) أي تولى عنها
وتركها ولم يؤمن بها (ونسي ما قدمت يداه) أي ما عمل من المعاصي من قبل (انا جعلنا على قلوبهم أكنة) أي

أغطية (أن يفقهوه) يريد لئلا يفقهوه (وفي آذانهم وقرا) أي ثقلا وصمما (وان تدعهم) يا محمد (الى الهدى) أي الدين (فلن يهتدوا اذا أبدا) وهذا في أقوام علم الله منهم انهم لا يؤمنون (وربك الغفور) أي البليغ المغفرة (ذو الرحمة) أي الموصوف بالرحمة (لو يؤاخذهم) أي يعاقب الكفار (بما كسبوا) من الذنوب (لعجل لهم العذاب) أي في الدنيا (بل لهم موعد) يعني البعث والحساب (لن يجدوا من دونه موئلا) أي ملجأ (وتلك القرى) يعني قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم (أهلكناهم لما ظلموا) أي كفروا (وجعلنا لمهلكهم موعدا) أي أجلا لاهلاكهم قوله سبحانه وتعالى (واذ قال موسى لفتاه) الآيات أكثر العلماء على ان موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران من سبط لاوى بن يعقوب صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن كعب الأحبار انه موسى بن ميشا من أولاد يوسف بن يعقوب وكان قد تنبأ قبل موسى بن عمران والقول الأول أصح بدليل ان الله سبحانه وتعالى لم يذكر في كتابه العزيز موسى الا أراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ولو أراد شخصا آخر لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز بينهما وتزيل الشبهة فلما لم يميزه بصفة علمنا انه موسى بن عمران صاحب التوراة وأما فتاه فالأصح انه يوشع بن نون بن افرائم بن يوسف وهو صاحب موسى وولي عهده بعد وفاته وقيل انه أخو يوشع وقيل انه فتاه يعني عبده بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي (ق) عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس ان نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني اسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان موسى عليه السلام قام خطيبا في بني اسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه فأوحى الله سبحانه وتعالى اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب فكيف لي به قال تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتا فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى اذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما فاضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت وانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى اذا كانا من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به فقال له فتاه أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا فقال موسى ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا قال رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا الى الصخرة فاذا رجل مسجى بثوب أبيض فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام فقال أنا موسى قال موسى بني اسرائيل قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معي صبرا يا موسى اني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه فقال موسى ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا فقال له الخضر فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول فلما ركبا السفينة لم يفجأ موسى الا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا امرا قال ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت الاولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما نقص علمي وعلمك من علم الله الا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل اذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك انك لن تستطيع

(أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) ثقلا عن استماع الحق وجمع بعد الافراد حملا على لفظ من ومعناه (وان تدعهم) يا محمد (الى الهدى) الى الايمان (فان يهتدوا) فلا يكون منهم اهتداء البتة (اذا) جزاء وجواب ودل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول يعني أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سببا في وجود الاهتداء سببا في انتفائه وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله مالي لا أدعوهم حرصا على اسلامهم فقيل وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا (أبدا) مدة التكليف كلها (وربك الغفور) البليغ المغفرة (ذو الرحمة) الموصوف بالرحمة (لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) أي ومن رحمته ترك مؤاخذته أهل مكة عاجلا مع فرط عداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم (بل لهم موعد) وهو يوم بدر (لن يجدوا من دونه موئلا) منجا ولا ملجأ يقال وأل اذا نجا ووأل اليه اذا لجأ اليه (وتلك) مبتدأ (القرى) صفة لان أسماء الاشارة توصف بأسماء الاجناس والخبر (أهلكناهم) أو تلك القرى نصب باضمار أهلكنا على شريطة التفسير والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم والمراد قوم نوح وعاد وثمود (لما ظلموا) مثل ظلم أهل مكة (وجعلنا لمهلكهم موعدا) وضربنا لاهلاكهم وقتا معلوما لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر والمهلك الاهلاك ووقته وبفتح الميم وكسر اللام حفص وبفتحهما أبو بكر أي لوقت هلاكهم أو لهلاكهم والموعد وقت أو مصدر (واذ) واذكر اذ (قال موسى لفتاه) هو يوشع بن نون وانما قيل فتاه لانه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه العلم

(لا أبرح) لا أزال وقد حذف الخبر لدلالة الحال والكلام عليه أما الاولى فلانها كانت حال سفر وأما الثانى فلان قوله (حتى أبلغ مجمع البحرين) غاية مضر وبة تستدعى ماهى غاية له فلابد أن يكون المعنى لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين وهو المكان الذى وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحر فارس والروم وسمى خضرا لانه أينما يصلى يخضر ما حوله (أو أمضى حقبا) أو أسير زمانا طويلا قيل ثمانون سنة روى انه لما ظهر موسى عليه السلام على مصر مع بنى اسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط سأل ربه أى عبادك أحب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فأى عبادك أقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فأى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال ان كان فى عبادك من هو أعلم منى فدلنى عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فاخبرنى فذهبا يمشيان فرقد موسى فاضطرب الحوت ووقع فى البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فاخبره فتاه بوقوعه فى البحر فأتيا الصخرة فاذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى فقال وأنى بأرضنا السلام فعرفه نفسه فقال ياموسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا (فلما بلغا مجمع بينهما) مجمع البحرين (نسيا حوتهما) أى نسى أحدهما وهو يوشع لانه كان صاحب الزاد دليله فانى نسيت الحوت وهو كقولهم نسوا زادهم وانما ينساه متعهد الزاد قيل كان الحوت سمكة مملوحة فنزلا ليلة على شاطئ عين الحياة ونام موسى فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده عاشت ووقعت فى الماء (فاتخذ سبيله فى البحر) أى اتخذ طريقه من البر الى البحر (سربا) نصب على المصدر أى سرب فيه سربا يعنى دخل فيه واستتر به (فلما جاوزا) مجمع البحرين ثم نزلا وقد سارا ماشاء الله (قال) موسى (لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) تعبا ولم يتعب ولا جاع قبل ذلك (قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة) هى موضع الموعد (فانى نسيت الحوت) ثم اعتذر فقال (وما أنسانيه) وبضم الهاء حفص (الا الشيطان) بالقاء الخواطر فى القلب (أن أذكره) بدل من الهاء فى أنسانيه أى وما أنسانى ذكره الا الشيطان

معى صبرا قال وهذه أشد من الاولى قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض أى مائلا فقال الخضر بيده هكذا فأقامه فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله موسى لوددت انه صبر حتى يقص علينا من أخبارهما قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين وفى رواية عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قام موسى عليه السلام ذكر الناس يوما حتى اذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال أى رسول الله هل فى الارض أحد أعلم منك قال لا فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم الى الله تعالى فقال بلى (1) قال أى رب وأين هو قال بمجمع البحرين قال خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح وفى رواية تزود حوتا مالحا فانه حيث يفقد الحوت زاد فى رواية وفى أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شئ الا حيى فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ورجعنا الى التفسير قوله سبحانه وتعالى (لا أبرح) أى لا أزال أسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) قيل أراد بحر فارس والروم مما يلى المشرق وقيل طنجة وقيل افريقية (أو أمضى حقبا) يعنى أو أسير دهرا طويلا والحقب ثمانون سنة فحمل خبزا وسمكة مالحة فى المكتل وهو الزنبيل الذى يسع خمسة عشر صاعا ومضيا حتى انتهيا الى الصخرة التى عند مجمع البحرين وعندها عين تسمى عين الحياة لا تصيب شيأ الا حيى فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت فى المكتل وعاشت ودخلت فى البحر (فلما بلغا) يعنى موسى وفتاه (مجمع بينهما) أى بين البحرين (نسيا) أى تركا (حوتهما) وانما كان الحوت مع يوشع بن نون وهو الذى نسيه وانما أضاف النسيان اليهما لانهما تزوداه لسفرهما وقيل المراد من قوله نسيا حوتهما أى نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول للمطلوب (فاتخذ) أى الحوت (سبيله فى البحر سربا) أى مسلكا وروى أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم يلتئم فدخل موسى الكوة على أثر الحوت فاذا هو بالخضر قال ابن عباس جعل الحوت لا يمس شيأ من البحر الا يبس حتى صار صخرة وقد روينا انهما لما انتهيا الى الصخرة وضعا رؤسهما فناما واضطرب الحوت فخرج فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره فانطلقا حتى اذا كانا من الغد وهو قوله سبحانه وتعالى (فلما جاوزا) يعنى ذلك الموضع وهو مجمع البحرين (قال) يعنى موسى (لفتاه آتنا غداءنا) أى طعامنا (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أى تعبا وشدة وذلك انه ألقى على موسى الجوع بعد ما جاوز الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع فى طلبه (قال) يعنى يوشع أرأيت اذ أوينا الى الصخرة وهى صخرة كانت بالموضع الموعود (فانى نسيت الحوت) أى تركته وفقدته وذلك ان يوشع حين رأى من الحوت ذلك قام ليدرك موسى فيخبره فنسى أن يخبره فمكثا يومهما حتى صليا الظهر من الغد ثم قال (وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره) أى

(1) قوله فقال بلى قال الخ هكذا بالاصول التى بأيدينا وهى غير مستقيمة فليحرر اه

(واتخذ سبيله في البحر عجبا) وهو ان أثره بقي الى حيث سار (قال ذلك ما كنا نبغ) نطلب و بالياء مكي وافقه أبو عمرو وعلي ومدني في الوصل
و بغير ياء فيهما غيرهما اتباعا لخط المصحف وذلك اشارة الى اتخاذه سبيلا أي ذلك الذي كنا نطلب لان ذهاب الحوت كان علما على لقاء الخضر
عليه السلام (فارتدا على آثارهما) فرجعا في الطريق الذي جاآ فيه (قصصا) يقصان قصصا أي يتبعان آثارهما اتباعا قال الزجاج
القصص اتباع الاثر (فوجدا عبدا من عبادنا) أي الخضر راقدا تحت ثوب أو جالسا في البحر (آتيناه رحمة من

عندنا) هي الوحي والنبوة أو العلم أو طول الحياة (وعلمناه من لدنا علما) يعني الاخبار بالغيوب وقيل العلم اللدني ما حصل للعبد بطريق الالهام (قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) أي علما ذا رشد أرشد به في ديني ورشدا أبو عمرو وهما لغتان كالبخل والبخل وفيه دليل على انه لا ينبغي لاحد أن يترك طلب العلم وان كان قد بلغ نهايته وأن يتواضع لمن هو أعلم منه (قال انك لن تستطيع معي) وبفتح الياء حفص وكذا ما بعده في هذه السورة (صبرا) أي عن الانكار والسؤال (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) تمييز نفي استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد وعلل ذلك بانه يتولى أمورا هي في ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا يتمالك أن لا يخرج اذا رأى ذلك فكيف اذا كان نبيا (قال ستجدني ان شاء الله صابرا) من الصابرين عن الانكار

والاعتراض (ولا أعصي لك أمرا) في محل النصب عطف على صابرا أي ستجدني صابرا وغير عاص أو هو عطف على ستجدني ولا محل له (قال فان اتبعتني فلا تسألني) بفتح اللام وتشديد النون مدني وشامي وبسكون اللام وتخفيف النون غيرهما والياء ثابتة فيهما اجماعا (عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) أي فمن شرط اتباعك لي انك اذا رأيت مني شيأ وقد علمت انه صحيح الا انه خفي عليك وجه صحته فأنكرت في نفسك أن لا تفاتحني بالسؤال ولا تراجعني فيه حتى أكون أنا الفاتح عليك وهذا من أدب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع (فانطلقا

وما أنسانى أن أذكر لك أمر الحوت الا الشيطان قيل المراد من النسيان شغل قلب الانسان بوساوس الشيطان التي هي من فعله دون النسيان الذي يضاد الذكر لان ذلك لا يصح الا من قبل الله تعالى (واتخذ سبيله في البحر عجبا) قيل هذا من قول يوشع بن نون يعني وقع الحوت في البحر فاتخذ سبيله فيه مسلكا وروى في الخبر كان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا وقيل أي شيء أعجب من حوت يؤكل منه دهرا ثم صار حيا بعدما أكل بعضه قوله عز وجل (قال) يعني موسى (ذلك ما كنا نبغ) نطلب (فارتدا على آثارهما قصصا) أي رجعا يقصان الذي جاآ منه ويتبعانه (فوجدا عبدا من عبادنا) قيل كان ملكا من الملائكة والصحيح الذي ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء في التواريخ انه الخضر واسمه بليا بن ملكان وكنيته أبو العباس قيل كان من بني اسرائيل وقيل كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب له سمي به لانه جلس على فروة بيضاء فاخضرت (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما سمي خضرا لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هي تهتز تحته خضراء الفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمي خضرا لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله وروي ان موسى رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال الخضر واني بأرضك السلام قال أنا موسى أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ومعنى مسجى بثوب أي مغطى بثوب وقوله واني بأرضك السلام معناه من أين بأرضك التي أنت فيها الآن السلام وروي انه لقيه على طنفسة خضراء على جانب البحر فذلك قوله سبحانه وتعالى فوجدا عبدا من عبادنا (آتيناه رحمة) أي نعمة (من عندنا وعلمناه من لدنا علما) أي علم الباطن الهاما ولم يكن الخضر نبيا عند أكثر أهل العلم * فان قلت ظاهر هذه الآيات يدل على ان الخضر كان أعلى شأنا من موسى وكان موسى يظهر التواضع له والتأدب معه * قلت لا يخلو اما أن يكون الخضر من بني اسرائيل أو من غيرهم فان كان من بني اسرائيل فهو من أمة موسى ولا جائز أن يكون أحد الامة أفضل من نبيها أو أعلى شأنا منه وان كان من غير بني اسرائيل فقد قال الله تعالى لبني اسرائيل وأني فضلتكم على العالمين أي على عالمي زمانكم (قال له موسى هل أتبعك) معناه جئت لاصحبك وأتبعك (على أن تعلمن مما علمت رشدا) أي صوابا وقيل علما ترشدني به وفي بعض الاخبار قال الخضر لموسى كفى بالتوراة علما وببني اسرائيل شغلا فقال له موسى ان الله أمرني بهذا فحينئذ (قال) الخضر لموسى (انك لن تستطيع معي صبرا) وانما قال ذلك لانه علم أنه يرى أمورا منكرة ولا يجوز للانبياء الصبر مع المنكرات ثم بين عذره في ترك الصبر فقال (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) أي علما (قال) موسى (ستجدني ان شاء الله صابرا) انما استثنى لانه لم يثق من نفسه بالصبر (ولا أعصي لك أمرا) أي لا أخالفك فيما تأمرني به (قال فان اتبعتني) أي فان صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن جعل الاختيار اليه ثم شرط عليه شرطا فقال (فلا تسألني عن شيء) أي مما أعمله مما تنكره ولا تعترض عليه (حتى أحدث لك منه ذكرا) معناه حتى أبتدئ بذكره فأبين لك شأنه قوله سبحانه وتعالى (فانطلقا) أي يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها فوجدا سفينة فركباها فقال أهل السفينة هؤلاء لصوص وأمروهما بالخروج فقال صاحب السفينة ما هم بلصوص ولكن أرى وجوه الانبياء وروينا عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم مرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول أي بغير عوض ولا عطاء فلما لججوا في البحر أخذ الخضر فأساً فخرق لوحا من ألواح السفينة فذلك

حتى اذاركبا فى السفينة خرقها) فانطلقا على ساحل البحر يطلبان السفينة فلما ركباها قال أهلها هما من اللصوص وقال صاحب السفينة
أرى وجوه الانبياء فحملوهما بغير نول فلما لججوا أخذ الخضر الفاس فخرق السفينة بان قلع لوحين من ألواحها مما يلى الماء فجعل موسى
يسد الخرق بثيابه ثم (قال أخرقتها لتغرق أهلها) ليغرق حمزة وعلى من غرق (لقد جئت شيأ امرا) أتيت شيأ عظيما من أمر الامر اذا عظم
(قال) أى الخضر (ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا) فلما رأى موسى ان الخرق لايدخله الماء ولم يفر من السفينة (قال لاتؤاخذنى
بما نسيت) بالذى نسيته أو بشئ نسيته أو بنسيانى أراد انه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسى أوأراد بالنسيان الترك أى لاتؤاخذنى بما
تركت من وصيتك أول مرة (ولا ترهقنى ٢٠٦ من أمرى عسرا) رهقه اذا غشيه وأرهقه اياه أى ولا تغشنى عسرا من أمرى وهو اتباعه اياه
أى ولا تعسر على متابعتك
ويسرها على بالاغضاء
وترك المناقشة (فانطلقا
حتى اذا لقيا غلاما فقتله)
قيل ضرب برأسه الحائط
وقيل اضجعه ثم ذبحه
بالسكين وانما قال فقتله
بالفاء وقال خرقها بغير فاء
لان خرقها جعل جزاء
للشرط وجعل قتله من
جملة الشرط معطوفا عليه
والجزاء (قال أقتلت
نفسا) وانما خولف بينهما
لان خرق السفينة لم
يتعقب الركوب وقد
تعقب القتل لقاء الغلام
(زكية) زاكية حجازى
وأبو عمرو وهى الطاهرة
من الذنوب اما لانها
طاهرة عنده لانه لم يرها قد
أذنبت أو لانها صغيرة لم
تبلغ الحنث (بغير نفس)
أى لم تقتل نفسا فيقتص
منها وعن ابن عباس
رضى الله تعالى عنهما ان
نجدة الحرورى كتب اليه
كيف جاز قتله وقد نهى
رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن قتل الولدان
فكتب اليه ان علمت من حال الولدان ماعلمه عالم موسى
فلك أن تقتل (لقد جئت شيأ نكرا) وبضم الكاف حيث كان مدنى وأبو بكر وهو المنكر وقيل المنكر أقل من الامر لان قتل نفس واحدة
أهون من اغراق أهل السفينة أو معناه جئت شيأ أنكر من الاول لان الخرق يمكن تداركه بالسد ولا يمكن تدارك القتل (قال ألم أقل لك انك
لن تستطيع معى صبرا) زاد لك هنا لان النكر فيه أكثر (قال ان سألتك عن شئ بعدها) بعد هذه الكرة أو المسئلة (فلا تصاحبنى قد بلغت من
لدنى عذرا) أعذرت فيما بينى وبينك فى الفراق ولدنى بتخفيف النون مدنى وأبو بكر (فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية) هى انطاكية أو
الابلة وهى أبعد أرض الله من السماء

انطاكية

قوله تعالى (حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها قال) يعنى موسى له (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيأ امرا)
أى أتيت شيأ عظيما منكرا روى ان الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروى ان موسى لما رأى ذلك
أخذ ثوبه فحشا به الخرق (قال) العالم وهو الخضر (ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا قال) يعنى موسى
(لاتؤاخذنى بما نسيت) قال ابن عباس لم ينس ولكنه من معاريض الكلام فكأنه نسى شيأ آخر وقيل
معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك وقال أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم كانت الاولى من
موسى نسيانا والثانية شرطا والثالثة عمدا (ولا ترهقنى) أى لاتغشنى (من أمرى عسرا) والمعنى لاتعسر على
متابعتك ويسرها بالاغضاء وترك المناقشة وقيل لاتكلفنى مشقة ولا تضيق على أمرى (فانطلقا حتى اذا لقيا
غلاما فقتله) فى القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون فأخذ الخضر غلاما ظريفا وضىء
الوجه كان وجهه يتوقد حسنا فاضجعه ثم ذبحه بالسكين وروينا انه أخذ برأسه فاقتلعه بيده وروى عبد
الرزاق هذا الخبر وفيه وأشار بأصابعه الثلاث الابهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه وروى انه رضخ رأسه
بحجر وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله قال ابن عباس كان غلاما لم يبلغ الحنث ولم يكن نبى الله موسى يقول
أقتلت نفسا زاكية الا وهو صبى لم يبلغ الحنث وقيل كان رجلا وقيل كان اسمه حيسور وقيل كان فتى يقطع
الطريق ويأخذ المتاع ويلجأ الى أبويه وقيل كان غلاما يعمل بالفساد ويتأذى منه أبواه (ق) عن أبى بن كعب
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا
وكفرا لفظ مسلم (قال) يعنى موسى (أقتلت نفسا زاكية) أى لم تذنب قط وقرئ زكية وهى التى أذنبت ثم
تابت (بغير نفس) أى لم تقتل نفسا حتى يجب عليها القتل (لقد جئت شيأ نكرا) أى منكرا عظيما وقيل
النكر أعظم من الامر لانه حقيقة الهلاك وفى خرق السفينة خوف الهلاك وقيل الامر أعظم لان فيه تغريق
جمع كثير وقيل معناه لقد جئت شيأ أنكر من الاول لان ذلك كان خرقا يمكن تداركه بالسد وهذا لاسبيل
الى تداركه (قال) يعنى الخضر (ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا) قيل زاد فى هذه الآية قوله
لك لانه نقض العهد مرتين وقيل ان هذه اللفظة توكيد للتوبيخ فعند هذا (قال) موسى (ان سألتك عن شئ
بعدها فلا تصاحبنى) قيل ان يوشع كان يقول لموسى يانبى الله اذكر العهد الذى أنت عليه قال موسى ان
سألتك عن شئ بعد هذه المرة فلا تصاحبنى أى فارقنى ولا تصاحبنى (قد بلغت من لدنى عذرا) قال ابن عباس
أى قد أعذرت فيما بينى وبينك وقيل معناه اتضح لك العذر فى مفارقتى والمعنى انه مدحه بهذه الطريقة من
حيث انه احتمله مرتين أولا وثانيا مع قرب المدة (ق) عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
رحمة الله علينا وعلى موسى وكان اذا ذكر أحدا من الانبياء بدأ بنفسه لولا انه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته
من صاحبه ذمامة فقال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا فلو صبر لرأى العجب
قوله ذمامة هو بذال معجمة أى حياء واشفاق من الذم واللوم يقال ذممته ذمامة يعنى لمته ملامة ويشهد له
قول الخضر هذا فراق بينى وبينك قوله سبحانه وتعالى (فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية) قال ابن عباس يعنى

(استطعما أهلها) استضافا (فأبوا أن يضيفوهما) ضيفه أنزله وجعله ضيفه وقال عليه السلام كانوا أهل قرية لئاما وقيل شر القرى التي تبخل بالقرى (فوجدا فيها) في القرية (جدارا) طوله مائة ذراع (يريد أن ينقض) يكاد يسقط استعيرت الارادة للمداناة والمشارفة كما استعير الهم والعزم لذلك (فأقامه) بيده أو مسحه بيده فقام واستوى أو نقضه وبناه كانت الحال حال اضطرار وافتقار الى المطعم وقد لزمتهم الحاجة الى آخر كسب المرء وهو المسئلة فلم يجدا مواسيا فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن (قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) أي لطلبت على عملك جعلا حتى تستدفع به الضرورة لتخذت بتخفيف التاء وكسر الخاء وادغام الذال بصري وباظهارها مكي وبتشديد التاء وفتح الخاء واظهار الذال حفص وبتشديد التاء وفتح الخاء وادغام الذال ٢٠٧ في التاء غيرهم والتاء في تخذ أصل كما في تبع واتخذ افتعل منه كاتبع من تبع وليس من الأخذ في شيء (قال هذا فراق بيني وبينك) هذا اشارة الى السؤال الثالث أي هذا الاعتراض سبب الفراق والاصل هذا فراق بيني وبينك وقد قرئ به فأضيف المصدر الى الظرف كما يضاف الى المفعول به (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) قيل كانت لعشرة اخوة خمسة منهم زمنى وخمسة يعملون في البحر (فأردت أن أعيبها) أجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) أمامهم أو خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره فأعلم الله به الخضر وهو جلندى (يأخذ كل سفينة غصبا) أي يأخذ كل سفينة صالحة لا عيب فيها غصبا وان كانت معيبة تركها وهو مصدر أو مفعول له * فان قلت قوله فأردت أن أعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب * قلت المراد به التأخير وانما قدم للعناية (وأما الغلام) وكان اسمه الحسين (فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغيانا عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شرا وبلاء أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وهو من كلام الخضر وانما خشي الخضر منه ذلك لانه تعالى أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره وان كان من قول الله تعالى فمعنى فخشينا فعلمنا أن عاش أن يصير سببا لكفر والديه (فأردنا أن يبدلهما ربهما) يبدلهما ربهما مدني وأبو عمرو (خيرا منه زكاة) طهارة ونقاء من الذنوب (وأقرب رحما) رحمة وعطفا وزكاة ورحما شامي وروي انه ولدت لهما جارية تزوجها نبي فولدت نبيا أو سبعين نبيا أو أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما

انطاكية وقيل الابلة وهي أبعد الارض من السماء وقيل هي بلدة بالاندلس (استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما) قال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أتيا أهل قرية لئاما فطافا في المجالس فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما وروي انهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم فلم يضيفوهما * وعن أبي هريرة قال أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد ان طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعا لنسائهم ولعن رجالهم وعن قتادة قال شر القرى التي لا تضيف الضيف (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) أي يسقط وهذا من مجاز الكلام لان الجدار لا ارادة له وانما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول داري تنظر الى دار فلان اذا كانت تقابلها فاستعير لها النظر كما استعير للجدار الارادة (فأقامه) أي سواه وفي حديث أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده هكذا فأقامه وقال ابن عباس هدمه وقعد يبنيه (قال) يعني موسى (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) يعني على اصلاح الجدار جعلا والمعنى انك قد علمت انا جياع وان أهل القرية لم يطعمونا فلو اتخذت على عملك أجرا (قال) يعني الخضر (هذا فراق بيني وبينك) يعني هذا وقت فراق بيني وبينك وقيل هذا الانكار على ترك أخذ الاجر هو المفرق بيننا (سأنبئك) أي سوف أخبرك (بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) وقيل ان موسى أخذ بثوب الخضر وقال أخبرني بمعنى ما عملت قبل أن تفارقني فقال الخضر (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) قيل كانت لعشرة اخوة خمسة زمني وخمسة يعملون في البحر أي يؤجرونها ويكتسبون بها وفيه دليل على ان المسكين وان كان يملك شيأ لا يزول عنه اسم المسكنة اذا لم يقم ما يملكه بكفايته وان حال الفقير في الضر والحاجة أشد من حال المسكين لان الله سبحانه وتعالى سماهم مساكين مع انهم كانوا يملكون تلك السفينة (فأردت أن أعيبها) أي أجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) أي أمامهم وقيل خلفهم وكان رجوعهم في طريقهم عليه والاول أصح (يأخذ كل سفينة غصبا) أي كل سفينة صالحة فخرقتها وعيبتها حتى لا يأخذها الملك الغاصب وكان اسمه الجلندي الازدي وكان كافرا وقيل كان اسمه هدد بن بدد وروي ان الخضر اعتذر الى القوم وذكر لهم شأن الملك الغاصب ولم يكونوا يعلمون بخبره وقال أردت اذا هي مرت به أن يدعها لعيبها فاذا جاوز وأصلحوها وانتفعوا بها قوله عز وجل (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا) أي خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه وقيل معناه فعلمنا (أن يرهقهما) أي يغشيهما وقيل يكلفهما (طغيانا وكفرا) قيل معناه فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه على دينه (فأردنا أن يبدلهما ربهما) الابدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه (خيرا منه زكاة) أي صلاحا وتقوى وقيل هو في مقابلة قوله تعالى أقتلت نفسا زاكية فقال الخضر أردنا أن يرزقهما الله خيرا منه زكاة (وأقرب رحما) أي ويكون المبدل منه أقرب عطفا ورحمة بأبويه بأن يبرهما ويشفق عليهما قيل أبدلهما جارية فتزوجها نبي من الانبياء فولدت له نبيا فهدى الله على يديه أمة من الامم وقيل ولدت سبعين نبيا وقيل أبدلهما بغلام مسلم وقيل ان الغلام الذي قتل فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي لكان فيه هلاكهما فليرض العبد بقضاء الله تعالى فان قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما

وهما الغلامان (وأما الجدار فكان لغلامين) أصرم وصريم (يتيمين في المدينة) هي القرية المذكورة (وكان تحته كنز لهما) أي لوح من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله أو مال

يجب قوله سبحانه وتعالى (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة) قيل كان اسمهما أصرم وصريم (وكان تحته كنز لهما) روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان الكنز ذهبا وفضة أخرجه الترمذي وقيل كان الكنز صحفا فيها علم وقال ابن عباس كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجبا لمن أيقن بالقدر كيف يغضب عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجبا لمن أيقن بالحساب كيف يغفل عجبا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف تطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر مكتوب أنا الله لا اله الا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه والويل كل الويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه وقيل الكنز اذا أطلق يراد به المال ومع التقييد يراد به غيره يقال عند فلان كنز علم وكان هذا اللوح جامعا لهما (وكان أبوهما صالحا) قيل ان اسمه كاشح وكان من الأتقياء قال ابن عباس حفظا بصلاح أبيهما وقيل كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء قال محمد بن المنكدر ان الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم وقال سعيد بن المسيب اني لأصلي فاذكر ولدي فأزيد في صلاتي (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) أي يدركا ويعقلا قوتهما وهو البلوغ وقيل ثمان عشرة سنة * فان قلت كيف قال في الأولى فأردت وفي الثانية فأردنا وفي الثالثة فأراد ربك وما وجه كل واحدة من هذه الالفاظ * قلت انه لما ذكر العيب أضافه الى نفسه على سبيل الأدب مع الله تعالى فقال فأردت أن أعيبها ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على انه من العلماء العظماء في علم الباطن وعلوم الحكمة وانه لم يقدم على مثل هذا القتل الا لحكمة عالية ولما ذكر رعاية المصالح في مال اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه الى الله سبحانه وتعالى لأن حفظ الأبناء وصلاح أحوالهم لرعاية حق الآباء ليس الا الله سبحانه وتعالى فلأجل ذلك أضافه الى الله تعالى (ويستخرجا كنزهما) يعني اذا بلغا وعقلا وقويا (رحمة من ربك) أي نعمة من ربك (وما فعلته عن أمري) أي باختياري ورأيي بل فعلته بأمر الله والهامه اياي لأن تنقيص أموال الناس واراقة دمائهم وتغيير أحوالهم لا يكون الا بالنص وأمر الله تعالى وقد استدل بعضهم بقوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن أمري على أن الخضر كان نبيا لأن هذا يدل على الوحي وذلك للأنبياء والصحيح انه ولي لله وليس بنبي وأجيب عن قوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن أمري انه الهام من الله سبحانه وتعالى له بذلك وهذه درجة الأولياء وقيل معناه انما فعلت هذه الأفعال لغرض ان تظهر رحمة الله لأنها بأسرها ترجع الى معنى واحد وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) أي لم تطق أن تصبر عليه روي ان موسى عليه السلام لما أراد أن يفارق الخضر قال أوصني قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلب العلم لتعمل به واختلف العلماء في ان الخضر أحي أم ميت فقيل انه حي وهو قول الأكثرين من العلماء وهو متفق عليه عند مشايخ الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة والحكايات في رؤيته والاجتماع به ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن تحصر قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في فتاواه هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة هذا آخر كلامه وقيل ان الخضر والياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم وكان السبب في حياة الخضر فيما حكي انه شرب من عين الحياة وذلك ان ذا القرنين دخل الظلمة لطلب عين الحياة وكان الخضر في مقدمته فوقع الخضر على العين فاغتسل وشرب منها وصلى شكرا لله تعالى وأخطأ ذو القرنين الطريق فرجع وذهب آخرون الى انه ميت لقوله سبحانه وتعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء ليلة أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ولو

مدفون من ذهب وفضة أو صحف فيها علم والأول أظهر وعن قتادة أحل الكنز لمن قبلنا وحرم علينا وحرمت الغنيمة عليهم وأحلت لنا (وكان أبوهما) قيل جدهما السابع (صالحا) ممن يصحبني وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما انه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما بم حفظ الله الغلامين قال بصلاح أبيهما قال فأبي وجدي خير منه (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) أي الحلم (ويستخرجا كنزهما رحمة) مفعول له أو مصدر منصوب بأراد ربك لأنه في معنى رحمهما (من ربك وما فعلته) وما فعلت ما رأيت (عن أمري) عن اجتهادي وانما فعلته بأمر الله والهاء يعود الى الكل أو الى الجدار (ذلك) أي الأجوبة الثلاثة (تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) حذف التاء تخفيفا وقد زل أقدام أقوام من الضلال في تفضيل الولي على النبي وهو كفر جلي حيث قالوا أمر موسى بالتعلم من الخضر وهو ولي والجواب ان الخضر نبي وان لم يكن

كما زعم البعض فهذا ابتلاء في حق موسى عليه السلام على ان أهل الكتاب يقولون ان موسى هذا ليس موسى بن عمران انما هو موسى بن ماثان ومن المحال ان يكون الولي وليا الا بايمانه بالنبي ثم يكون النبي دون الولي ولا غضاضة في طلب موسى العلم لأن الزيادة في العلم مطلوبة وانما ذكر أولا فأردت لأنه افساد في الظاهر وهو فعله وثانيا فأراد ربك لأنه انعام محض وغير مقدور البشر وثالثا فأردنا لأنه افساد من حيث الفعل انعام من حيث التبديل وقال الزجاج معنى فأردنا فأراد الله عز وجل ومثله في القرآن كثير

(ويسئلونك) أى اليهود على جهة الامتحان أو أبو جهل وأشياعه (عن ذى القرنين) هو الاسكندر الذى ملك الدنيا قيل ملكها مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمرود وبختنصر وكان بعد نمرود وقيل كان عبدا صالحا ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وسخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل نبيا وقيل ملكا من الملائكة وعن على رضى الله عنه أنه قال ليس بملك ولا نبى ولكن كان عبدا صالحا ضرب على قرنه الأيمن فى طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله فسمى ذا القرنين وفيكم مثله أراد نفسه قيل كان يدعوهم الى التوحيد فيقتلونه فيحييه الله تعالى وقال عليه الصلاة والسلام سمى ذا القرنين لأنه طاف قرنى الدنيا يعنى جانبيها شرقها وغربها وقيل كان له قرنان أى ضفيرتان أو انقرض فى وقته قرنان من الناس أو لأنه ملك الروم وفارس أو الترك والروم أو كان لتاجه قرنان أو على رأسه ما يشبه القرنين أو كان كريم الطرفين أبا وأما وكان من الروم (قل سأتلوا عليكم منه) من ذى القرنين (ذكرا إنا مكنا له فى الأرض) جعلنا له فيها مكانة واعتلاء (وآتيناه من كل شئ) أراده من أغراضه ومقاصده فى ملكه (سببا) طريقا موصلا اليه (فأتبع سببا) والسبب ما يتوصل به الى المقصود من علم أو قدرة فأراد بلوغ المغرب فأتبع سببا يوصله اليه حتى بلغ وكذلك أراد المشرق فأتبع سببا وأراد بلوغ السدين فأتبع سببا فاتبع ثم أتبع كوفى وشامى الباقون بوصل الألف وتشديد التاء عن الأصمعى أتبع لحق واتبع اقتفى وان لم يلحق (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) أى منتهى العمارة نحو المغرب وكذا المطلع قال صلى الله عليه وسلم بدء أمره انه وجد فى الكتب أن أحدا من ولد سام يشرب من عين الحياة فيخلد فجعل يسير فى طلبها والخضر وزيره وابن خالته فظفر فشرب ولم يظفر ذو القرنين (وجدها تغرب فى عين حمئة) ذات حمأة من حمئت البئر اذا صارت فيها الحمأة حامية شامى وكوفى غير حفص بمعنى حارة وعن أبى ذر كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال أتدرى يا أبا ذر أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تغرب فى عين حمئة وكان ابن عباس رضى الله عنهما عنده معاوية فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة

كان الخضر حيا لكان لا يعيش بعده وقوله عز وجل (ويسئلونك عن ذى القرنين) قيل اسمه مرزبان بن مرزبة اليونانى من ولد يونان بن يافث بن نوح وقيل اسمه الاسكندر بن فيلفوس كذا صح الرومى وكان ولد عجوز ليس لها ولد غيره ونقل الامام فخر الدين فى تفسيره عن أبى الريحان البيرونى المنجم فى كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية انه من حمير واسمه أبو كرب سمى بن عمير بن افريقيس الحميرى وهو الذى افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول

قد كان ذو القرنين جدى مسلما * ملكا علا فى الأرض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغى * أسباب ملك من كريم مرشد
فرأى مآب الشمس عند غروبها * فى عين ذى خلب وثأط حرمد

قوله فرأى مآب الشمس أى ذهاب الشمس وقوله فى عين ذى خلب أى حمأة والثأطة الحمأة أيضا والجمع ثأط والحرمد الطين الأسود وقيل سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقيل لأنه ملك فارس والروم وقيل لانه دخل النور والظلمة وقيل لأنه رأى فى المنام كأنه أخذ بقرنى الشمس وقيل لانه كان له ذؤابتان حسنتان وقيل كان له قرنان تواريهما العمامة وروى عن على أنه أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه الايمن فمات فأحياه الله ثم بعثه فأمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الايسر فمات فأحياه الله واختلفوا فى نبوته فقيل كان نبيا ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى قلنا يا ذا القرنين وخطاب الله لا يكون الا مع الانبياء وقيل لم يكن نبيا قال أبو الطفيل سئل على عن ذى القرنين أكان نبيا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا أحب الله فأحبه الله وناصح الله فناصحه الله وروى أن عمر سمع رجلا يقول لآخر يا ذا القرنين فقال تسميتم بأسماء الانبياء فلم ترضوا حتى تسميتم بأسماء الملائكة والاصح الذى عليه الاكثرون أنه كان ملكا صالحا عادلا وانه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال والجنوب وهذا هو القدر المعمور من الارض وذلك انه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن دان له طوائف ثم مضى الى ملوك العرب وقهرهم ومضى حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم رجع الى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بيت المقدس وقرب فيه القربان ثم انعطف الى أرمينية وباب الابواب وبنى السد ودانت له ملوك العراق والنبط والبربر واستولى على ممالك الفرس ثم مضى الى الهند والصين وغزا الامم البعيدة ثم رجع الى العراق ومرض بشهرزور ومات بها وحمل الى حيث هو مدفون وقيل ان عمره كان ألفا وثلاثين سنة ومثل هذا الملك البسيط الذى هو على خلاف العادات وجب أن يبقى ذكره مخلدا على وجه الارض فذلك قوله سبحانه وتعالى ويسئلونك عن ذى القرنين (قل سأتلوا عليكم منه ذكرا) أى خبرا يتضمن حاله قوله سبحانه وتعالى (انا مكنا له فى الارض) أى وطأنا له والتمكين تمهيد الاسباب قال على سخر الله له السحاب فحمل عليه ومد له فى الاسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير فى الارض وذلل له طرقها (وآتيناه من كل شئ) مما يحتاج اليه الخلق وكل ما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الاعداء (سببا) أى علما يتسبب به الى كل ما يريد ويسير به فى أقطار الارض وقيل بلاغا الى حيث أراد وقيل قربنا له أقطار الارض (فأتبع سببا) أى سلك طريقا (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) أى ذات حمأة

فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرؤها فقال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء وطين كذلك نجده في التوراة فوافق قول ابن عباس رضي الله عنهما ولاتنافي فجاز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعا (ووجد عندها) عند تلك العين (قوما) عراة من الثياب لباسهم جلود الصيد وطعامهم مالفظ البحر وكانوا كفارا (قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا) ان كان نبيا فقد أوحى الله اليه بهذا والا فقد أوحى الى نبي فأمره النبي به أوكان الهاما خير بين أن يعذبهم بالقتل ان أصروا على أمرهم وبين أن يتخذ فيهم حسنا باكرامهم وتعليم الشرائع ان آمنوا أو التعذيب القتل واتخاذ الحسن الاسر لأنه بالنظر الى القتل احسان (قال) ذو القرنين (أما من ظلم فسوف نعذبه) بالقتل (ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا) في القيامة يعني أما من دعوته الى الاسلام فأبى الا البقاء على الظلم العظيم وهو الشرك

فذاك هو المعذب في الدارين (وأما من آمن وعمل صالحا) أي عمل ما يقتضيه الايمان (فله جزاء الحسنى) فله جزاء الفعلة الحسنى التي هي كلمة الشهادة جزاء الحسنى كوفي غير أبي بكر أي فله الفعلة الحسنى جزاء (وسنقول له من أمرنا يسرا) أي ذا يسر أي لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك (ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم) هم الزنج (لم نجعل لهم من دونها) من دون الشمس (سترا) أي أبنية عن كعب أرضهم لاتمسك الابنية وبها أسراب فاذا طلعت الشمس دخلوها فاذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم أو الستر اللباس عن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض (كذلك) أي أمر ذو القرنين كذلك أي كما وصفناه تعظيما لامره (وقد أحطنا بما لديه) من الجنود والآلات وأسباب الملك (خبرا) نصب على المصدر لان في أحطنا معنى خبرنا أو بلغ مطلع الشمس مثل ذلك أي كما بلغ مغربها أو تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم يعني أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر واحسانه الى من آمن منهم (ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ بين السدين) بين الجبلين وهما جبلان سد ذو القرنين ما بينهما السدين وسدا مكي وأبو عمرو وحفص السدين وسدا حمزة وعلي وبضمهما غيرهم قيل ما كان مسدودا خلقة فهو مضموم وما كان من عمل العباد فهو مفتوح وانتصب بين على أنه مفعول به لبلغ كما انجر بالاضافة في هذا فراق بيني وبينك وكما ارتفع في لقد تقطع بينكم لأنه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفا وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق (وجد من دونهما) من ورائهما (قوما) هم الترك (لا يكادون يفقهون قولا) أي لا يكادون يفهمونه الا بجهد ومشقة من اشارة ونحوها يفقهون حمزة وعلي أي لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه لأن لغتهم غريبة مجهولة

وهي الطينة السوداء وقرئ حامية أي حارة وسأل معاوية كعبا كيف تجد في التوراة تغرب الشمس وأين تغرب قال نجد في التوراة أنها تغرب في ماء وطين وقيل يجوز أن يكون معنى في عين حمئة أي عندها عين حمئة أو في رأي العين وذلك انه بلغ موضعا من المغرب لم يبق بعده شئ من العمران فوجد الشمس كانها تغرب في وهدة مظلمة كما ان راكب البحر يرى أن الشمس كانها تغيب في البحر (ووجد عندها قوما) أي عند العين امة قال ابن جريج مدينة لها اثنا عشر ألف باب يقال انها الجاسوس واسمها بالسريانية حرجيسا يسكنها قوم من نسل ثمود الذين آمنوا بصالح لولا ضجيج أهلها لسمع الناس وجبة الشمس حين تجب أي تغيب (قلنا ياذا القرنين) يستدل بهذا من يزعم انه كان نبيا فان الله خاطبه ومن قال انه لم يكن نبيا قال المراد منه الالهام وقيل يحتمل أن يكون الخطاب على لسان غيره (اما أن تعذب) يعني تقتل من لم يدخل في الاسلام (واما أن تتخذ فيهم حسنا) يعني تعفو وتصفح وقيل تأسرهم فتعلمهم الهدى خيره الله سبحانه وتعالى بين الأمرين (قال أما من ظلم) أي كفر (فسوف نعذبه) أي نقتله (ثم يرد الى ربه) أي في الآخرة (فيعذبه عذابا نكرا) أي منكرا يعني بالنار لأنها أنكر من القتل (وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى) أي جزاء أعماله الصالحة (وسنقول له من أمرنا يسرا) أي نلين له القول ونعامله باليسر من أمرنا (ثم أتبع سببا) أي سلك طرقا ومنازل (حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) قيل انهم كانوا في مكان ليس بينهم وبين الشمس ستر من جبل ولا شجر ولا يستقر عليهم بناء فاذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب لهم تحت الارض فاذا زالت الشمس عنهم خرجوا الى معايشهم وحروثهم وقيل انهم كانوا اذا طلعت الشمس نزلوا في الماء فاذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم وقيل هم قوم عراة يفترش أحدهم احدى أذنيه ويلتحف بالأخرى وقيل انهم قوم من نسل مؤمني قوم هود واسم مدينتهم جابلق واسمها بالسريانية مرقيسيا وهم مجاورون يأجوج ومأجوج قوله سبحانه وتعالى (كذلك) أي كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها وقيل معناه أنه حكم في القوم الذين هم عند مطلع الشمس كما حكم في القوم الذين عند مغربها وهو الاصح (وقد أحطنا بما لديه خبرا) أي علما بما عنده ومن معه من الجند والعدة وآلات الحرب وقيل معناه وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به والقيام بأمره قوله عز وجل (ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ بين السدين) هما هنا جبلان في ناحية الشمال في منقطع أرض الترك حكي ان الواثق بعث بعض من يثق به من أتباعه اليه ليعاينوه فخرجوا من باب من الابواب حتى وصلوا اليه وشاهدوه فوصفوا انه بناء من لبن حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل (وجد من دونهما قوما) أي أمام السدين قيل هم الترك (لا يكادون يفقهون قولا) قال ابن عباس لا يفهمون كلام أحد ولا يفهم

الناس

الناس كلامهم (قالوا يا ذا القرنين) فان قلت كيف أثبت لهم القول وهم لا يفقهون * قلت تكلم عنهم
مترجم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم وقيل معناه لا يكادون يفقهون قولا الا بجهد ومشقة من اشارة
ونحوها كما يفهم الخرس (ان يأجوج ومأجوج) أصلهما من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها شبهوا به
لكثرتهم وشدتهم وهم من أولاد يافث بن نوح والترك منهم قيل ان طائفة منهم خرجت تغير فضرب ذو
القرنين السد فبقوا خارجه فسموا الترك لذلك لانهم تركوا خارجين قال أهل التواريخ أولاد نوح ثلاثة
سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر
والصقالبة ويأجوج ومأجوج قال ابن عباس هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء وروى حذيفة مرفوعا
ان يأجوج أمة ومأجوج أمة وكل أمة أربعة آلاف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر ألف ذكر من
صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم يسيرون الى خراب الدنيا قال وهم ثلاثة أصناف صنف منهم
أمثال الارز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع في السماء وصنف منهم طوله وعرضه سواء عشرون
ومائة ذراع وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف بالاخرى لا يمرون
بفيل ولا وحش ولا خنزير الا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون
أنهار المشرق وبحيرة طبرية وعن علي منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط في الطول وقال كعب هم
نادرة في ولد آدم وذلك ان آدم (٣) احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج
ومأجوج فهم متصلون بنا من جهة الاب دون الام وذكر وهب بن منبه ان ذا القرنين كان رجلا من الروم
ابن عجوز فلما بلغ كان عبدا صالحا قال الله سبحانه وتعالى له اني باعثك الى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهما
طول الارض احداهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والاخرى عند مطلعها يقال لها منسك وأمتان
بينهما عرض الارض احداهما في القطر الايمن يقال لها هاويل والاخرى في قطر الارض الايسر يقال لها
تاويل وأمم في وسط الارض منهم الجن والانس ويأجوج ومأجوج فقال ذو القرنين بأي قوة أكابدهم
وبأي جمع أكاثرهم وبأي لسان أناطقهم فقال الله سبحانه وتعالى اني سأقويك وأبسط لسانك وأشد
عضدك فلا يهولنك شيء وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك
فالنور يهديك من أمامك والظلمة تحوطك من ورائك فانطلق حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعا وعددا
لا يحصيهم الا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم في مكان واحد فدعاهم الى الله تعالى وعبادته فمنهم من
آمن به ومنهم من صد عنه فعمد الى الذين تولوا عنه فأدخل عليهم الظلمة فدخلت أجوافهم وبيوتهم فدخلوا
في دعوته فجند من أهل المغرب جندا عظيما وانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى هاويل ففعل فيهم
كفعله في ناسك ثم مضى حتى أتى منسك ففعل فيهم كفعله في الامتين وجند منهم جندا عظيما ثم أخذ ناحية
اليسرى فأتى تاويل ففعل بهم كفعله فيما قبلها ثم عمد الى الامم التي في وسط الارض فلما كان فيما يلي منقطع
الترك مما يلي المشرق قالت له أمة صالحة من الانس يا ذا القرنين ان بين هذين الجبلين خلقا أشباه البهائم
يفترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذي روح خلق في الارض وليس
يزداد خلق كزيادتهم فلا شك انهم يتملكون الارض ويظاهرون عليها ويفسدون فيها فهل نجعل لك خرجا
على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكني فيه ربي خير وقال أعدوا الى الصخور والحديد والنحاس حتى أعلم
علمهم فانطلق حتى توسط بلادهم فوجدهم على مقدار واحد يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل
المربوع منا لهم مخالب وأضراس كالسباع ولهم هلب شعر يواري أجسادهم ويتقون به من الحر والبرد
ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان يفترش احداهما ويلتحف بالاخرى يصيف في واحدة ويشتي في واحدة
يتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا فلما عاين ذو القرنين ذلك انصرف الى بين الصدفين فقاس ما بينهما
وحفر له الاساس حتى بلغ الماء فذلك قوله تعالى قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج (مفسدون في
الارض) قيل فسادهم انهم كانوا يخرجون أيام الربيع الى أرضهم فلا يدعون فيها شيأ أخضر الا أكلوه ولا

(قالوا يا ذا القرنين ان
يأجوج ومأجوج) هما
اسمان أعجميان بدليل
منع الصرف وهمزهما عاصم
فقط وهما من ولد يافث
أو يأجوج من الترك
ومأجوج من الجيل
والديلم (مفسدون في
الارض) قيل كانوا يأكلون
الناس وقيل كانوا
يخرجون أيام الربيع فلا
يتركون شيأ أخضر الا
أكلوه ولا يابسا الا احتملوه
ولا يموت أحدهم حتى
ينظر الى ألف ذكر من
صلبه كلهم قد حمل السلاح
وقيل هم على صنفين
طوال مفرطوا الطول
وقصار مفرطوا القصر

٣ احتلم كذا بالنسخ
بأيدينا وتفسير الخطيب
ويرده ما احتلم نبي قط الله
الا أن يكون المراد أنه سال
منيه في نومه لامتلاء
وعائه اه

(فهل نجعل لك خرجا) خراجا حمزة وعلى أى جعلا نخرجه من أموالنا ونظيرهما النول والنوال (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكنى) بالادغام وبفكه مكى (فيه ربى خير) أى ما جعلنى فيه مكينا من كثرة المال واليسار خير مما تبذلون لى من الخراج فلا حاجة لى اليه (فأعينونى بقوة) بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبالآلات (أجعل بينكم وبينهم ردما) جدارا وحاجزا حصينا موثقا والردم أكبر من السد (آتونى زبر الحديد) قطع الحديد والزبرة القطعة الكبيرة قيل حفر الاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين الى أعلاهما ثم وضع المنافيخ حتى اذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جلدا صلدا وقيل بعد ما بين السدين مائة فرسخ (حتى اذا ساوى بين الصدفين) بفتحتين جانبى الجبلين لانهما يتصادفان أى يتقابلان الصدفين مكى وبصرى وشامى الصدفين أبو بكر (قال انفخوا) أى قال ذو القرنين للعملة انفخوا فى الحديد (حتى اذا جعله) أى المنفوخ فيه وهو الحديد (نارا) كالنار (قال آتونى) أعطونى (أفرغ) صب (عليه قطرا) نحاسا مذابا لانه يقطر وهو منصوب بأفرغ وتقديره آتونى قطرا أفرغ عليه قطرا فحذف الاول لدلالة الثانى عليه قال ائتونى بوصل الالف حمزة واذا ابتدأ كسر الالف أى جيئونى (فما اسطاعوا) بحذف التاء للخفة لان التاء قريبة المخرج من الطاء (أن يظهروه) أن يعلوا السد (وما استطاعوا له نقبا) أى لا حيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه ولا نقب لصلابته (قال هذا رحمة من ربى) أى هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده أو هذا الاقدار والتمكين من تسويته (فاذا جاء وعد ربى) فاذا دنا مجىء يوم القيامة وشارف أن يأتى (جعله) أى السد (دكا) أى مدكوكا مبسوطا مسوى بالارض وكل ما انبسط بعد ارتفاعه فقد اندك دكاء كوفى أى أرضا مستوية (وكان وعد ربى حقا) آخر قول ذى القرنين (وتركنا) وجعلنا (بعضهم) بعض الخلق (يومئذ يموج) يختلط (فى بعض) أى يضطربون ويختلطون انسهم وجنهم حيارى ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج وانهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين فى البلاد وروى أنهم يأتون البحر فيشربون

يابسا الا حملوه وأدخلوه أرضهم فلقوا منهم أذى شديدا وقيل فسادهم انهم كانوا يأكلون الناس وقيل معناه انهم سيفسدون عند خروجهم (فهل نجعل لك خرجا) أى جعلا وأجرا من الاموال (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) أى حاجزا فلا يصلون الينا (قال) لهم ذو القرنين (ما مكنى فيه ربى خير) أى ما قوانى به ربى خير من جعلكم (فأعينونى بقوة) يعنى لا أريد منكم المال بل أعينونى بأبدانكم وقوتكم (أجعل بينكم وبينهم ردما) أى سدا قالوا وما تلك القوة قال فعلة وصناع يحسنون البناء والآلة قالوا وما تلك الآلة قال (آتونى) أى أعطونى (٣) وقيل جيئونى (زبر الحديد) أى قطع الحديد فأتوه بها وبالحطب فجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب (حتى اذا ساوى بين الصدفين) أى بين طرفى الجبلين (قال انفخوا) يعنى فى النار (حتى اذا جعله نارا) أى صار نارا (قال آتونى أفرغ عليه) أى أصب عليه (قطرا) أى نحاسا مذابا فجعلت النار تأكل الحطب وجعل النحاس يسيل مكانه حتى لزم الحديد النحاس قيل ان السد كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء وقيل ان عرضه خمسون ذراعا وارتفاعه مائة ذراع وطوله فرسخ واعلم أن هذا السد معجزة عظيمة ظاهرة لان الزبرة الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر أحد على القرب منها والنفخ عليها لا يمكن الا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين حتى تمكنوا من العمل فيه (فما اسطاعوا أن يظهروه) أى يعلوا عليه املوه وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) أى من أسفله لشدته وصلابته (قال) يعنى ذو القرنين (هذا) أى السد (رحمة من ربى) أى نعمة من ربى (فاذا جاء وعد ربى) قيل يعنى يوم القيامة وقيل وقت خروجهم (جعله دكاء) أى أرضا ملساء وقيل مدكوكا مستويا مع الارض (وكان وعد ربى حقا) (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد بيده تسعين قوله وعقد بيده تسعين هو من موضوعات الحساب وهو أن تجعل رأس أصبعك السبابة فى وسط الابهام من باطنها شبه الحلقة لكن لا يتبين لها الا خلل يسير وعنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى السد يحفرونه كل يوم حتى اذا كادوا يخرقونه قال بعضهم ارجعوا فستحفرونه غدا قال فيعيده الله كأشد ما كان حتى اذا بلغوا مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ان شاء الله تعالى واستثنى قال فيرجعون فيجدونه على هيئته حين تركوه فيخرقونه فيخرجون على الناس فيستقون المياه وتفر منهم الناس وفى رواية تحصن الناس فى حصونهم منهم فيرمون بسهام الى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من فى الارض وعلونا من فى السماء فيزدادون قسوة وعتوا فيبعث الله عليهم نغفا فى رقابهم فيهلكون فوالذى نفس محمد بيده ان دواب الارض لتسمن وتشكر من لحومهم شكرا أخرجه الترمذى وقوله قسوة وعتوا أى غلظة وفظاظة وتكبرا والنغف دود يكون فى أنوف الابل والغنم وقوله وتشكر يقال شكرت الشاة تشكر شكرا اذا امتلأ ضرعها لبنا والمعنى انها تمتلئ أجسادها لحما وتسمن (خ) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج قوله عز وجل (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) قيل هذا عند فتح السد يقول تركنا يأجوج ومأجوج يموج أى يدخل بعضهم

قوله وقيل جيئونى ظاهره انه تفسير لآتونى مقطوع الهمزة ولا يصح انما يصح اذا كان تفسيرا لائتونى بوصلها فليتأمل اه

ماءه و يأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة و بيت المقدس ثم يبعث الله نغفا في (أقفائهم فيدخل آذانهم فيموتون (ونفخ في الصور) لقيام الساعة (فجمعناهم) أي جمع الخلائق للثواب والعقاب (جمعا) تأكيد (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) وأظهرناها لهم فرأوها وشاهدوها (الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى) عن آياتي التي ينظر اليها أو عن القرآن فاذكر ه بالتعظيم أو عن القرآن وتأمل معانيه (وكانوا لا يستطيعون سمعا) أي وكانوا صما عنه الا انه أبلغ اذ الاصم قد يستطيع السمع اذا صيح به وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء) أي أفظن الكفار اتخاذهم عبادي يعني الملائكة وعيسى عليهم السلام أولياء نافعهم بئس ماظنوا وقيل ان بصلتها سد مسد مفعولي أفحسب وعبادي أولياء مفعولا ان يتخذوا وهذا أوجه يعني انهم لا يكونون لهم أولياء (انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) هو ما يقام للنزيل وهو الضيف ونحوه فبشرهم بعذاب أليم (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) أعمالا تمييز وانما جمع والقياس ان يكون مفردا لتنوع الاهواء وهم أهل الكتاب أو الرهبان (الذين ضل سعيهم) ضاع وبطل وهو في محل الرفع أي هم الذين (في الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) فلا يكون لهم عندنا وزن ومقدار (ذلك جزاؤهم جهنم) هي عطف بيان لجزاؤهم (بما كفروا واتخذوا آياتي و رسلي هزوا) أي جزاؤهم جهنم بكفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها) حال (لا يبغون عنها حولا) تحولا الى غيرها رضا بما أعطوا يقال حال من مكانه حولا أي لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم الى أجمع لاغراضهم وأمانيهم وهذه غاية الوصف لان الانسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامح مائل الطرف الى أرفع منه والمراد نفي التحول وتأكيد الخلود

في بعض كموج الماء و يختلط بعضهم في بعض لكثرتهم وقيل هذا عند قيام الساعة يدخل الخلق بعضهم في بعض لكثرتهم و يختلط انسهم بجنهم حيارى (ونفخ في الصور) فيه دليل على ان خروج يأجوج ومأجوج من علامات قرب الساعة (فجمعناهم جمعا) اي في صعيد واحد (وعرضنا) أي أبرزنا (جهنم يومئذ للكافرين عرضا) ليشاهدوها عيانا (الذين كانت أعينهم في غطاء) أي غشاء وستر (عن ذكرى) أي عن الايمان والقرآن والهدى والبيان وقيل عن رؤية الدلائل وتبصرها (وكانوا لا يستطيعون سمعا) أي سمع قبول للايمان والقرآن لغلبة الشقاء عليهم وقيل معناه لا يستطيعون أن يسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة عداوتهم له قوله تعالى (أفحسب) أي أفظن (الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء) يعني أربابا يريد عيسى والملائكة بل هم لهم أعداء يتبرؤن منهم وقال ابن عباس يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله والمعنى أفظن الذين كفروا أن يتخذوا غيري أولياء واني لا أغضب لنفسي فلا أعاقبهم وقيل معناه أظنوا انه ينفعهم ان يتخذوا عبادي من دوني أولياء (انا أعتدنا) أي هيأنا (جهنم للكافرين نزلا) أي منزلا قال ابن عباس رضي الله عنهما هي مثواهم وقيل معدة لهم عندنا كالمنزل للضيف قوله تعالى (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) يعني الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا قال ابن عباس هم اليهود والنصارى وقيل هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع وقال علي بن أبي طالب هم أهل حروراء يعني الخوارج (الذين ضل سعيهم) أي بطل عملهم واجتهادهم (في الحيوة الدنيا وهم يحسبون) أي يظنون (أنهم يحسنون صنعا) أي عملا ثم وصفهم فقال تعالى (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) يعني انهم جحدوا دلائل توحيده وقدرته وكفروا بالبعث والثواب والعقاب وذلك لانهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالقرآن فصاروا كافرين بهذه الاشياء (فحبطت أعمالهم) أي بطلت (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) قيل لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما توضع لاهل الحسنات والسيآت من الموحدين ليتميز مقدار الطاعات ومقدار السيآت قال أبو سعيد الخدري يأتي أناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم من العظم كجبال تهامة فاذا وزنوها لم تزن شيأ فذلك قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وقيل معناه نزدري بهم فليس لهم عندنا حظ ولا قدر ولا وزن (ق) عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (ذلك) اشارة الى ماذكر من حبوط أعمالهم وخسة قدرهم ثم ابتدأ فقال تعالى (جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا) يعني سخرية واستهزاء قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة قال كعب ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها وقيل الفردوس هو البستان الذي فيه الاعناب وقيل هي الجنة الملتفة بالاشجار التي تنبت ضروبا من النبات وقيل الفردوس البستان بالرومية وقيل بلسان الحبش منقول الى العربية نزلا هو ما يهيأ للنازل على معنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلا وقيل في معنى كانت لهم أي في علم الله تعالى قبل أن يخلقوا (خالدين فيها لا يبغون) أي لا يطلبون (عنها حولا) أي تحولا الى غيرها قال ابن عباس لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار اذا لم توافقه الى

دار أخرى قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي) قال ابن عباس قالت اليهود يا محمد تزعم أنا قد أوتينا الحكمة وفي كتابك ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ثم تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل لما نزل وما أوتيتم من العلم الا قليلا قالت اليهود أوتينا علم التوراة وفيها علم كل شيء فأنزل الله تعالى قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي أي ما يستمده الكاتب ويكتب به وأصله من الزيادة قال مجاهد لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب قيل والخلائق يكتبون (لنفد البحر) أي نفد ماؤه (قبل أن تنفد كلمات ربي) أي علمه وحكمه (ولو جئنا بمثله مددا) والمعنى ولو كان الخلائق يكتبون والبحر يمدهم لفني ماء البحر ولم تفن كلمات ربي ولو جئنا بمثل ماء البحر في كثرته مددا وزيادة قوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم) قال ابن عباس علم الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم التواضع لئلا يزهى على خلقه فأمره أن يقر فيقول أنا آدمي مثلكم الا أني خصصت بالوحي وأكرمني الله به وهو قوله تعالى (يوحى الي أنما الهكم اله واحد) لا شريك له في ملكه (فمن كان يرجو لقاء ربه) أي يخاف المصير اليه وقيل يؤمل رؤية ربه (فليعمل عملا صالحا) أي من حصل له رجاء لقاء الله تعالى والمصير اليه فليستعمل نفسه في العمل الصالح (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) أي لا يرائي بعمله ولما كان العمل الصالح قد يراد به وجه الله سبحانه وتعالى وقد يراد به الرياء والسمعة اعتبر فيه قيدان أحدهما أن يراد به الله سبحانه وتعالى والثاني أن يكون مبرأ من جهات الشرك جميعها (ق) عن جندب بن عبد الله البجلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سمع سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به قوله من سمع سمع الله به أي من عمل عملا مراآة للناس يشتهر بذلك شهره الله يوم القيامة وقيل سمع الله به أي أسمعه المكروه (م) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تبارك وتعالى يقول أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه وفي رواية فأنا منه بريء هو والذي عمله عن سعيد بن أبي فضالة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جمع الناس ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان يشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه منه فان الله أغنى الشركاء عن الشرك أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر قال الرياء (م) عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وفي رواية من آخرها والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة مريم عليها السلام﴾

هي مكية وهي ثمان وتسعون آية وثمانون وسبعمائة كلمة وثلاثة آلاف وسبعمائة حرف

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قوله عز وجل (كهيعص) قال ابن عباس رضي الله عنهما هو اسم من أسماء الله تعالى وقيل اسم للقرآن وقيل للسورة وقيل هو قسم أقسم الله تعالى به وعن ابن عباس قال الكاف من كريم وكبير والهاء من هاد والياء من رحيم والعين من عليم والصاد من صادق وقيل معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق في وعده (ذكر) أي هذا الذي نتلو عليك ذكر (رحمت ربك

(قل لو كان البحر) أي ماء البحر (مدادا لكلمات ربي) قال أبو عبيدة المداد ما يكتب به أي لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مدادا لها والمراد بالبحر الجنس (لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله) بمثل البحر (مددا) لنفد أيضا والكلمات غير نافدة ومددا تمييز نحو لي مثله رجلا والمدد مثل المداد وهو ما يمد به ينفد حمزة وعلي وقيل قال حيي بن أخطب في كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ثم تقرؤون وما أوتيتم من العلم الا قليلا فنزلت يعني ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الي أنما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه) فمن كان يأمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضا وقبول أو فمن كان يخاف سوء لقاء ربه والمراد باللقاء القدوم عليه وقيل رؤيته كما هو حقيقة اللفظ والرجاء على هذا مجرى على حقيقته (فليعمل عملا صالحا) خالصا لا يريد به الا وجه ربه ولا يخلط به غيره وعن يحيى بن معاذ هو ما لا يستحيى منه (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) هو نهي عن الشرك أو عن الرياء قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر قال الرياء قال صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة تكون فان يخرج الدجال في تلك الثمانية عصمه الله من فتنة الدجال ومن قرأ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الي الى آخرها عند مضجعه كان له نور يتلألأ من مضجعه الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم من مضجعه وان كان مضجعه بمكة فتلاها كان له نور يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه ويستغفرون له حتى يستيقظ ﴿سورة مريم عليها السلام﴾ مكية وهي ثمان أو تسع وتسعون آية مدني وشامي ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (كهيعص) قال السدي هو اسم الله الأعظم وقيل هو اسم للسورة قرأ علي ويحيى بكسر الهاء والياء ونافع بين الفتح والكسر والى الفتح أقرب وأبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء وحمزة بعكسه وغيرهم بفتحهما (ذكر رحمت ربك) خبر مبتدأ أي هذا ذكر

(عبده) مفعول الرحمة (زكريا) بالقصر حمزة وعلي وحفص بدل من عبده (اذ) ظرف للرحمة (نادى ربه نداء خفيا) دعاه دعاء سرا كما هو المأمور به وهو أبعد عن الرياء وأقرب الى الصفاء أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في أوان الكبر لانه كان ابن خمس وسبعين أو ثمانين سنة (قال رب) هذا تفسير الدعاء وأصله يا ربي فحذف حرف النداء والمضاف اليه اختصارا (اني وهن العظم مني) ضعف وخص العظم لانه عمود البدن وبه قوامه فاذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولانه أشد ما فيه وأصلبه فاذا وهن كان ما وراءه أوهن ووحده لان الواحد هو الدال على معنى الجنسية والمراد انه هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن (واشتعل الرأس شيبا) تمييز أي فشا في رأسي الشيب واشتعلت النار اذا تفرقت في التهابها وصارت شعلا فشبه الشيب بشواظ النار في بياضه وانتشاره في الشعر وأخذه منه كل مأخذ كاشتعال النار ولا ترى كلاما أفصح من هذا الا ترى ان أصل الكلام يا رب قد شخت اذ الشيخوخة تشتمل على ضعف البدن وشيب الرأس المتعرض لهما وأقوى منه ضعف بدني وشاب رأسي ففيه مزيد التقرير للتفصيل وأقوى منه وهنت عظام بدني ففيه عدول عن التصريح الى الكناية فهي أبلغ منه وأقوى منه انا وهنت عظام بدني وأقوى منه اني وهنت عظام بدني وأقوى منه اني وهنت العظام من بدني ففيه سلوك طريق الاجمال والتفصيل وأقوى منه اني وهنت العظام مني ففيه ترك توسيط البدن وأقوى منه اني وهن العظم مني لشمول الوهن العظام فردا فردا باعتبار ترك جمع العظم الى الافراد لصحة حصول وهن

المجموع بالبعض دون كل فرد فرد ولهذا تركت الحقيقة في شاب رأسي الى أبلغ وهي الاستعارة فحصل اشتعل شيب رأسي وأبلغ منه اشتعل رأسي شيبا لاسناد الاشتعال الى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس لافادة شمول الاشتعال الرأس اذ وزان اشتعل شيب رأسي واشتعل رأسي شيبا وزان اشتعل النار في بيتي واشتعل بيتي نارا والفرق نير ولان فيه الاجمال والتفصيل كما عرف في طريق التمييز وأبلغ منه واشتعل الرأس مني شيبا لما مر وأبلغ منه واشتعل الرأس شيبا ففيه اكتفاء بعلم المخاطب انه رأس زكريا بقرينة العطف على وهن العظم (ولم أكن بدعائك) مصدر مضاف الى المفعول أي بدعائي اياك (رب شقيا) أي كنت مستجاب الدعوة قبل اليوم سعيدا به غير شقي فيه يقال سعد فلان بحاجته اذا ظفر بها وشقي اذا خاب ولم ينلها وعن بعضهم ان محتاجا سأله وقال انا الذي أحسنت الي وقت كذا فقال مرحبا بمن توسل بنا الينا وقت حاجته وقضى حاجته (واني خفت الموالي) هم عصبته اخوته وبنو عمه وكانوا شرار بني اسرائيل فخافهم ان يغيروا الدين وان لا يحسنوا الخلافة على أمته فطلب عقبا صالحا من صلبه يقتدى به في احياء الدين (من ورائي) بعد موتي وبالقصر وفتح الياء كعصاي مكي وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لان وجود خوفه بعد موته لا يتصور ولكن بمحذوف أو بمعنى الولاية في الموالي أي خفت فعل الموالي وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي أو خفت الذين يلون الامر من ورائي (وكانت امرأتي عاقرا) عقيما لا تلد (فهب لي من لدنك) اختراعا منك بلا سبب لان امرأتي لا تصلح للولادة (وليا) ابنا يلي أمرك بعدي (يرثني ويرث) برفعهما صفة لوليا أي هب لي ولدا وارثا مني العلم ومن آل يعقوب النبوة ومعنى وراثة النبوة أنه يصلح لان يوحى اليه ولم يرد ان نفس النبوة تورث وبجزمهما أبو عمرو وعلي على انه جواب الدعاء يقال ورثته وورثت منه (من آل يعقوب) يعقوب بن اسحق (واجعله رب رضيا) مرضيا ترضاه أو راضيا عنك وبحكمك فأجاب الله تعالى دعاءه وقال (يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى) تولى الله تسميته تشريفا له نبشرك بالتخفيف حمزة (لم نجعل له من قبل سميا) لم يسم أحد بيحيى قبله وهذا دليل على ان الاسم الغريب جدير بالاثرة وقيل مثلا وشبيها ولم يكن له مثل في انه لم يعص ولم يهم بمعصية قط وانه ولد بين شيخ وعجوز وانه كان حصورا فلما بشرته الملائكة به

عبده زكريا) قيل معناه ذكر ربك عبده زكريا برحمته (اذ نادى) أي دعا (ربه) في المحراب (نداء خفيا) أي دعاء سرا من قومه في جوف الليل وقيل راعى سنة الله في اخفاء دعائه لان الجهر والاسرار عند الله تعالى سيان لكن الاخفاء أولى لانه أبعد عن الرياء وأدخل في الاخلاص وقيل أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في زمن الشيخوخة وقيل خفت صوته لضعفه وهرمه يدل عليه قوله تعالى (قال رب اني وهن) أي رق وضعف (العظم مني) أي من الكبر وقيل اشتكى سقوط الاضراس (واشتعل الرأس) أي ابيض الشعر (شيبا) أي شمط (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أي عودتني الاجابة فيما مضى ولم تخيبني وقيل معناه لما دعوتني الى الايمان آمنت ولم أشق بترك الايمان (واني خفت الموالي من ورائي) أي من بعد موتي والموالي هم بنو العم وقيل العصبة وقيل الكلالة وقيل جميع الورثة (وكانت امرأتي عاقرا) أي لا تلد (فهب لي من لدنك وليا) أي اعطني من عندك ولدا مرضيا (يرثني ويرث من آل يعقوب) أي وليا ذا رشاد وقيل أراد به يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة وقيل أراد ميراث النبوة والعلم وقيل أراد به الحبورة لان زكريا كان رأس الاحبار والاولى ان يحمل على ميراث غير المال لان الانبياء لم يورثوا المال وانما يورثون العلم ويبعد من زكريا وهو نبي من الانبياء ان يشفق على ماله ان يرثه بنو عمه وانما خاف ان يضيع بنو عمه دين الله ويغيروا أحكامه وذلك لما أن شاهد من بني اسرائيل تبديل الدين وقتل الانبياء فسأل ربه ولدا صالحا يأمنه على أمته ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع وهذا قول ابن عباس (واجعله رب رضيا) أي برا تقيا مرضيا قوله تعالى (يا زكريا) المعنى فاستجاب الله دعاءه فقال يا زكريا (انا نبشرك بغلام) أي بولد ذكر (اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) أي لم يسم أحد قبله بيحيى وقيل معناه لم نجعل له شبها ومثلا وذلك لانه لم يعص الله

(قال رب أنى) كيف (يكون لى غلام) وليس هذا باستبعاد بل هو استكشاف انه بأى طريق يكون أيوهب له وهو وامرأته بتلك الحال أم يحولان شابين (وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) أى بلغت عتيا وهو اليبس والجساوة فى المفاصل والعظام كالعود اليابس من أجل الكبر والطعن فى السن العالية عتيا وصليا وجثيا وبكيا بكسر الاوائل حمزة وعلى وحفص الا فى بكيا (قال كذلك) الكاف رفع أى الامر كذلك تصديق له ثم ابتدأ (قال ربك) أو نصب بقال وذلك اشارة الى مبهم يفسره (هو على هين) أى خلق يحيى من كبيرين سهل (وقد خلقتك من قبل) أوجدتك

من قبل يحيى خلقناك حمزة وعلى (ولم تك شيأ) لان المعدوم ليس بشئ (قال رب اجعل لى آية) علامة أعرف بها حبل امرأتى (قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) حال من ضمير تكلم أى حال كونك سوى الاعضاء واللسان يعنى علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح ما بك خرس ولا بكم ودل ذكر الليالى هنا والايام فى آل عمران على ان المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن اذ ذكر الايام يتناول ما بازائها من الليالى وكذا ذكر الليالى يتناول ما بازائها من الايام عرفا (فخرج على قومه من المحراب) من موضع صلاته وكانوا ينتظرونه ولم يقدر أن يتكلم (فأوحى اليهم) أشار باصبعه (ان سبحوا) صلوا وان هى المفسرة (بكرة وعشيا) صلاة الفجر والعصر (يا يحيى) أى وهبنا له يحيى وقلنا له بعد ولادته وأوان الخطاب يا يحيى (خذ الكتاب) التوراة (بقوة) حال أى بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد (وآتيناه الحكم) الحكمة وهو فهم

نفسه

التوراة والفقه فى الدين (صبيا) حال قيل دعاه الصبيان الى اللعب وهو صبى فقال ما للعب خلقنا (وحنانا) شفقة ورحمة لابويه وغيرهما عاطفا على الحكم (من لدنا) من عندنا (وزكاة) أى طهارة وصلاحا فلم يعمد بذنب (وكان تقيا) مسلما مطيعا (وبرا بوالديه) وبارا بهما الايصحبهما (ولم يكن جبارا) متكبرا (عصيا) عاصيا لربه (وسلام عليه) أمان من الله له (يوم ولد) من أن يناله الشيطان (ويوم يموت) من فتانى القبر (ويوم يبعث حيا) من الفزع الاكبر قال ابن عيينة انها أوحش المواطن

ولم يهم بمعصية قط وقال ابن عباس لم تلد العواقر مثله ولذا قيل لم يرد الله تعالى بذلك اجتماع الفضائل كلها ليحيى وانما أراد بعضها لان الخليل والكليم كانا قبله وهما افضل منه (قال رب أنى يكون لى) أى من أين يكون لى (غلام وكانت امرأتى عاقرا) أى وامرأتى عاقر (وقد بلغت من الكبر عتيا) أى يأسا يريد بذلك نحول الجسم ودقة العظم ونحول الجلد (قال كذلك قال ربك هو على هين) أى يسير (وقد خلقتك من قبل) أى من قبل يحيى (ولم تك شيأ قال رب اجعل لى آية) أى دلالة على حمل امرأتى (قال آيتك) أى علامتك (أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) أى صحيحا سليما من غير ما بأس ولا خرس وقيل ثلاث ليال متتابعات والاول أصح قيل انه لم يقدر فيها أن يتكلم مع الناس فاذا أراد ذكر الله انطلق لسانه قوله عز وجل (فخرج على قومه من المحراب) أى من الموضع الذى كان يصلى فيه وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه حتى يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون اذ خرج اليهم زكريا متغيرا لونه فأنكروا ذلك عليه وقالوا له مالك (فأوحى) أى فأومأ وأشار (اليهم) وقيل كتب لهم فى الارض (ان سبحوا) أى صلوا لله (بكرة وعشيا) المعنى انه كان يخرج على قومه بكرة وعشيا فيأمرهم بالصلاة فلما كان وقت حمل امرأته ومنع من الكلام خرج اليهم فأمرهم بالصلاة اشارة قوله عز وجل (يا يحيى) فيه اضمار ومعناه وهبنا له يحيى وقلنا له يا يحيى (خذ الكتاب) أى التوراة (بقوة) أى بجد واجتهاد (وآتيناه الحكم) قال ابن عباس يعنى النبوة (صبيا) وهو ابن ثلاث سنين وذلك ان الله تعالى أحكم عقله وأوحى اليه * فان قلت كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا * قلت لان أصل النبوة مبنى على خرق العادات اذا ثبت هذا فلا تمنع صيرورة الصبى نبيا وقيل أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير وعن بعض السلف قال من قرأ القرآن قبل ان يبلغ فهو ممن أوتى الحكم صبيا (وحنانا من لدنا) أى رحمة من عندنا قال الحطيئة يخاطب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

تحنن على هداك المليك * فان لكل مقام مقالا

أى ترحم على (وزكاة) قال ابن عباس يعنى بالزكاة الطاعة والاخلاص وقيل هى العمل الصالح ومعنى الآية وآتيناه رحمة من عندنا وتحننا على العباد ليدعوهم الى طاعة ربهم ويعملا صالحا فى اخلاصه (وكان تقيا) أى مسلما مخلصا مطيعا وكان من تقواه انه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها قط (وبرا بوالديه) أى بارا لطيفا بهما محسنا اليهما لانه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا الآية (ولم يكن جبارا) الجبار المتكبر وقيل الذى يقتل ويضرب على الغضب وقيل الجبار الذى لا يرى لاحد على نفسه حقا وهو من التعظيم بنفسه يرى أن لا يلزمه قضاء لاحد (عصيا) قيل هو أبلغ من العاصى والمراد وصف يحيى بالتواضع ولين الجانب وهو من صفة المؤمنين (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) معناه وأمان له من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بنى آدم وأمان له يوم يموت من عذاب القبر ويوم يبعث حيا من عذاب يوم القيامة وقيل أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن يوم يولد لانه يرى نفسه خارجا من مكان قد كان فيه ويوم يموت لانه يرى قوما ما شاهدهم قط ويوم يبعث لانه يرى مشهدا عظيما فأكرم الله تعالى يحيى فى هذه المواطن كلها

(واذكر) يا محمد (فى الكتاب) القرآن (مريم) أى اقرأ عليهم فى القرآن قصة مريم ليقفوا عليها ويعلموا ما جرى عليها (اذ) بدل من مريم بدل
اشتمال اذ الاحيان مشتملة على ما فيها وفيه ان المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا الوقوع هذه القصة العجيبة فيه (اذ انتبذت من أهلها) أى
اعتزلت (مكانا) ظرف (شرقيا) أى تخلت للعبادة فى مكان مما يلى شرقى بيت المقدس أو من دارها معتزلة عن الناس وقيل قعدت فى مشرقه
للاغتسال من الحيض (فاتخذت من دونهم حجابا) جعلت بينها وبين أهلها حجابا يسترها لتغتسل وراءه (فأرسلنا اليها روحنا) جبريل عليه
السلام والاضافة للتشريف وانما سمى روحا لان الدين يحيى به وبوحيه (فتمثل لها بشرا) أى تمثل لها جبريل فى صورة آدمى شاب أمرد وضىء
الوجه جعد الشعر (سويا) مستوى الخلق وانما مثل لها فى صورة الانسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ولو بدا لها فى صورة الملائكة لنفرت
ولم تقدر على استماع كلامه (قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) أى ان كان يرجى ٢١٧ منك ان تتق الله فانى عائذة به منك
(قال) جبريل عليه السلام (انما انا رسول ربك) امنها مما خافت وأخبر انه ليس بآدمى بل هو رسول من استعاذت به (لأهب لك) باذن الله تعالى أو لاكون سببا فى هبة الغلام بالنفخ فى الدرع ليهب لك أى الله أبو عمرو ونافع (غلاما زكيا) طاهرا من الذنوب أو ناميا على الخير والبركة (قالت أنى) كيف (يكون لى غلام) ابن (ولم يمسسنى بشر) زوج بالنكاح (ولم اك بغيا) فاجرة تبغى الرجال أى تطلب الشهوة من أى رجل كان ولا يكون الولد عادة الا من أحد هذين والبغى فعول عند المبرد بغوى فقلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت الغين اتباعا ولذا لم تلحق تاء التأنيث كما لم تلحق فى امرأة صبور وشكور وعند

فخصه بالسلامة فيها قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب) أى فى القرآن (مريم اذ انتبذت) أى تنحت
واعتزلت (من أهلها) أى من قومها (مكانا شرقيا) أى مكانا فى الدار مما يلى المشرق وكان ذلك اليوم شاتيا
شديد البرد فجلست فى مشرقه تفلى رأسها وقيل ان مريم كانت قد طهرت من الحيض فذهبت تغتسل قيل
ولهذا المعنى اتخذت النصارى المشرق قبلة (فاتخذت) أى فضربت (من دونهم حجابا) قال ابن عباس أى
سترا وقيل جلست وراء جدار وقيل ان مريم كانت تكون فى المسجد فاذا حاضت تحولت الى بيت خالتها حتى
اذا طهرت عادت الى المسجد فبينما هى تغتسل من الحيض قد تجردت اذ عرض لها جبريل فى صورة شاب
أمرد وضىء الوجه سوى الخلق فذلك قوله تعالى (فأرسلنا اليها روحنا) يعنى جبريل (فتمثل لها بشرا
سويا) أى سوى الخلق لم ينتقص من الصورة الآدمية شيأ وانما مثل لها فى صورة الانسان لتستأنس
بكلامه ولا تنفر عنه ولو بدا لها فى صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه وقيل المراد من
الروح روح عيسى جاء فى صورة بشر فحملت به والقول الاول أصح فلما رأت مريم جبريل عليه السلام
يقصد نحوها بادرته من بعيد (قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) أى مؤمنا مطيعا لله تعالى دل
تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها * فان قلت انما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت ان كنت
تقيا * قلت هذا كقول القائل ان كنت مؤمنا فلا تظلمنى أى ينبغى أن يكون ايمانك مانعا لك من الظلم
كذلك ههنا معناه ينبغى أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور (قال) لها جبريل عليه السلام (انما أنا
رسول ربك لأهب) أسند الفعل اليه وان كانت الهبة من الله تعالى لانه أرسل به (لك غلاما زكيا) قال ابن
عباس ولدا صالحا طاهرا من الذنوب (قالت) مريم (أنى يكون لى) أى من أين يكون لى (غلام ولم يمسسنى
بشر) أى ولم يقربنى زوج (ولم اك بغيا) أى فاجرة تريد ان الولد انما يكون من نكاح أو سفاح ولم يكن ههنا
واحد منهما (قال) جبريل (كذلك قال ربك) أى هكذا قال ربك (هو على هين) أى خلق ولدك بلا أب
(ولنجعله آية للناس) أى علامة لهم ودلالة على قدرتنا (ورحمة منا) أى ونعمة لمن تبعه على دينه الى بعثة محمد
صلى الله عليه وسلم (وكان أمرا مقضيا) أى محكوما مفروغا منه لا يرد ولا يبدل قوله عز وجل (فحملته)
قيل ان جبريل رفع درعها فنفخ فى جيبه فحملت حين لبست الدرع وقيل مد جيب درعها بأصبعه ثم نفخ
فى الجيب وقيل نفخ فى كمها وقيل فى ذيلها وقيل فى فيها وقيل نفخ من بعيد فوصل النفخ اليها فحملت بعيسى
عليه السلام فى الحال (فانتبذت به) أى فلما حملته تنحت بالحمل وانفردت (مكانا قصيا) أى بعيدا من أهلها
قال ابن عباس أقصى الوادى وهو بيت لحم فرارا من أهلها وقومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج قال

غيره هى فعيل ولم تلحقها الهاء لانها بمعنى مفعولة وان كانت بمعنى فاعلة فهو قد يشبه به مثل ان رحمة الله قريب
(قال) جبريل (كذلك) أى الأمر كما قلت لم يمسسك رجل نكاحا أو سفاحا (قال ربك هو على هين) أى اعطاء الولد بلا أب على سهل (ولنجعله
آية للناس) تعليل معلله محذوف أى ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك أو هو معطوف على تعليل مضمر أى لنبين به قدرتنا ولنجعله آية للناس أى
عبرة وبرهانا على قدرتنا (ورحمة منا) لمن آمن به (وكان) خلق عيسى (أمرا مقضيا) مقدرا مسطورا فى اللوح فلما اطمأنت الى قوله دنا منها
فنفخ فى جيب درعها فوصلت النفخة الى بطنها (فحملته) أى الموهوب وكان سنها ثلاث عشرة سنة أو عشرا أو عشرين (فانتبذت به) اعتزلت
وهو فى بطنها والجار والمجرور فى موضع الحال عن ابن عباس رضى الله عنهما كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته وقيل ستة أشهر
وقيل سبعة وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية الا عيسى وقيل حملته فى ساعة ووضعته فى ساعة (مكانا قصيا) بعيدا من أهلها وراء
الجبل وذلك لانها لما أحست بالحمل هربت من قومها مخافة اللائمة

(فأجاءها) جاء بها وقيل ألجأها وهو منقول من جاء الا ان استعماله قد تغير بعد النقل الى معنى الالجاء الا ترى انك لا تقول جئت المكان وأجاءنيه زيد (المخاض) وجع الولادة (الى جذع النخلة) أصلها وكانت يابسة وكان الوقت شتاء وتعريفها مشعر بأنها كانت نخلة معروفة وجاز أن يكون التعريف للجنس أي جذع هذه الشجرة كأنه تعالى أرشدها الى النخلة ليطعمها منها الرطب لانه خرسة النفساء أي طعامها ثم (قالت) جزعا مما أصابها (ياليتني مت قبل هذا) اليوم مدني وكوفي غير أبي بكر وغيرهم بالضم يقال مات يموت ومات يمات (وكنت نسيا منسيا) شيأ متروكا لا يعرف ولا يذكر بفتح النون حمزة وحفص وبالكسر غيرهما ومعناهما واحد وهو الشئ الذي حقه أن يطرح وينسى لحقارته (فناداها من تحتها) أي الذي تحتها فهو فاعل وهو جبريل عليه السلام لانه كان بمكان منخفض عنها أو عيسى عليه السلام لانه خاطبها

من تحت ذيلها من تحتها مدني وكوفي سوى أبي بكر والفاعل مضمر وهو عيسى عليه السلام أو جبريل والهاء في تحتها للنخلة واشد ما لقيت سليت بقوله (أن لا تحزني) لا تهتمي بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومقالة الناس وان بمعنى أي (قد جعل ربك تحتك) بقربك أو تحت أمرك ان أمرته أن يجري جرى وان أمرته ان يقف وقف (سريا) نهرا صغيرا عند الجمهور وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السري فقال هو الجدول وعن الحسن سيدا كريما يعني عيسى عليه السلام وروي أن خالد بن صفوان قال له ان العرب تسمي الجدول سريا فقال الحسن صدقت ورجع الى قوله وقال ابن عباس رضي الله عنهما ضرب عيسى أو جبريل عليهما السلام بعقبه الارض فظهرت عين ماء عذب فجرى النهر اليابس فاخضرت النخلة وأثمرت وأينعت ثمرتها فقيل لها (وهزي) حركي (اليك) الى نفسك (بجذع النخلة) قال أبو علي الباء زائدة أي هزي جذع النخلة (تساقط عليك) بادغام التاء الاولى في الثانية مكي ومدني وشامي وأبو عمرو وعلي وأبو بكر والاصل تتساقط باظهار التاءين وتساقط بفتح التاء والقاف وطرح التاء الثانية وتخفيف السين حمزة ويساقط بفتح الياء والقاف وتشديد السين يعقوب وسهل وحماد ونصير وتساقط حفص من المفاعلة وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجذع فهذه تسع قراآت (رطبا) تمييز أو مفعول به على حسب القراءة (جنيا) طريا وقالوا التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت وقيل ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض من العسل (فكلي) من الجني (واشربي) من السري

ابن عباس كان الحمل والولادة في ساعة واحدة وقيل حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها وقيل كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر الحوامل من النساء وقيل كانت مدة حملها ثمانية أشهر وذلك آية أخرى له لانه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدة وعاش وقيل ولد لستة أشهر وهي بنت عشر سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل ست عشرة سنة وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى وقال وهب ان مريم لما حملت بعيسى كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين الى المسجد الذي عند جبل صهيون وكانا يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم من أهل زمانهما أحد أشد عبادة واجتهادا منهما وأول من علم بحمل مريم يوسف فبقي متحيرا في أمرها كلما أراد أن يتهمها ذكر عبادتها وصلاحها وانها لم تغب عنه واذا أراد أن يبرئها رأى ما ظهر منها من الحمل فأول ما تكلم به أن قال انه وقع في نفسي من أمرك شئ وقد حرصت على كتمانه فغلبني ذلك فرأيت أن أتكلم به أشفي صدري فقالت قل قولا جميلا قال أخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل ينبت شجر بغير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر قالت نعم ألم تعلم ان الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ألم تر ان الله أنبت الشجرة بالقدرة من غير غيث أو تقول ان الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على انباتها قال يوسف لا أقول هذا ولكني أقول ان الله تعالى يقدر على كل شئ يقول له كن فيكون قالت له مريم ألم تعلم ان الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى فعند ذلك زال ما عنده من التهمة وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل فلما دنت ولادتها أوحى الله اليها أن اخرجي من أرض قومك فذلك قوله تعالى فانتبذت به مكانا قصيا قوله عز وجل (فأجاءها المخاض) أي ألجأها وجاء بها والمخاض وجع الولادة (الى جذع النخلة) وكانت نخلة يبست في الصحراء في شدة البرد ولم يكن لها سعف وقيل التجأت اليها لتستند اليها وتستمسك بها من شدة الطلق ووجع الولادة (قالت ياليتني مت قبل هذا) تمنت الموت استحياء من الناس وخوفا من الفضيحة (وكنت نسيا منسيا) يعني شيأ حقيرا متروكا لم يذكر ولم يعرف لحقارته وقيل جيفة ملقاة وقيل معناه أنها تمنت انها لم تخلق (فناداها من تحتها) قيل ان مريم كانت على أكمة وجبريل وراء الاكمة تحتها وقيل ناداها من سفح الجبل وقيل هو عيسى وذلك انه لما خرج من بطن أمه ناداها (أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا) أي نهرا قال ابن عباس رضي الله عنهما ضرب جبريل عليه السلام وقيل عيسى عليه السلام برجله في الارض فظهرت عين ماء عذبة وجرت وقيل كان هناك نهر يابس فجرى فيه الماء بقدرة الله سبحانه وتعالى وحييت النخلة اليابسة فأورقت وأثمرت وأرطبت وقيل معنى تحتك أي تحت أمرك ان أمرته أن يجري جرى وان أمرته بالامساك أمسك وقيل معنى سريا أي عيسى وكان عبدا سريا رفيعا (وهزي اليك) أي حركي اليك (بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) قيل الجني الذي بلغ الغاية وجاء أوان اجتنائه قال الربيع ابن خيثم ما للنفساء عندي خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل (فكلي واشربي) أي يا مريم كلي من

الرطب واشربي من النهر (وقري عينا) أي طيبي نفسا وقيل قري عينك بولدك عيسى يقال أقر الله عينك أي صادف فؤادك ما يرضيك فتقر عينك عن النظر الى غيره (فاما ترين من البشر أحدا) معناه يسألك عن ولدك (فقولي اني نذرت للرحمن صوما) أي صمتا قيل كان في بني اسرائيل من أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم حتى يمسي وقيل ان الله أمرها أن تقول هذا اشارة وقيل أمرها أن تقول هذا القول نطقا ثم تمسك عن الكلام بعده وانما منعت من الكلام لامرين أحدهما أن يكون عيسى عليه السلام هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها في ازالة التهمة عنها وفيه دلالة على أن تفويض الكلام الى الافضل أولى الثاني كراهة مجادلة السفهاء وفيه ان السكوت عن السفيه واجب (فلن أكلم اليوم انسيا) يقال انها كانت تكلم الملائكة ولا تكلم الانس قوله تعالى (فأتت به قومها تحمله) قيل انها لما ولدت عيسى عليه السلام حملته في الحال الى قومها وقيل ان يوسف النجار احتمل مريم وابنها عيسى الى غار فمكثت فيه أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته الى قومها فكلمها عيسى في الطريق فقال يا أماه ابشري فاني عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين (قالوا يا مريم لقد جئت شيأ فريا) أي عظيما منكرا وقيل معناه جئت بأمر عجيب بديع (يا أخت هرون) أي يا شبيهة هرون قيل كان رجلا صالحا في بني اسرائيل شبهت به في عفتها وصلاحها وليس المراد الاخوة في النسب قيل انه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا من بني اسرائيل كلهم يسمى هرون سوى سائر الناس (م) عن المغيرة بن شعبة قال لما قدمت خراسان سألوني فقالوا الي انكم تقرؤن يا أخت هرون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال انهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم وقيل كان هرون أخا مريم لابيها وقيل كان من أمثل رجل في بني اسرائيل وقيل انما عنوا هرون أخا موسى لانها كانت من نسله كما يقال للتميمي يا أخا تميم وقيل كان هرون في بني اسرائيل فاسقا أعظم الفسق فشبهوها به (ما كان أبوك) يعني عمران (امرأ سوء) قال ابن عباس زانيا (وما كانت أمك) يعني حنة (بغيا) أي زانية فمن أين لك هذا الولد (فأشارت اليه) أي أشارت مريم الى عيسى أن كلمهم قال ابن مسعود لما لم يكن لها حجة أشارت اليه ليكون كلامه حجة لها وقيل لما أشارت اليه غضب القوم وقالوا مع ما فعلت تسخرين بنا (قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) قيل أراد بالمهد الحجر وهو حجرها وقيل هو المهد بعينه قيل لما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم وقيل لما أشارت اليه ترك الرضاع واتكأ على يساره وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه و (قال اني عبد الله) قال وهب أتاها زكرياء عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى انطق بحجتك ان كنت أمرت بها فقال عند ذلك عيسى وهو ابن أربعين يوما وقيل بل يوم ولد اني عبد الله أقر على نفسه بالعبودية لله تعالى أول ما تكلم لئلا يتخذ الها ﴿فان قلت﴾ ان الذي اشتدت اليه الحاجة في ذلك الوقت نفي التهمة عن أمه وان عيسى لم ينص على ذلك وانما نص على اثبات عبوديته لله تعالى ﴿قلت﴾ كأنه جعل ازالة التهمة عن الله تعالى أولى من ازالة التهمة عن أمه فلهذا أول ما تكلم انما تكلم باعترافه على نفسه بالعبودية لتحصل ازالة التهمة عن الام لان الله تعالى لم يختص بهذه المرتبة العظيمة من ولد في زنا والتكلم بازالة التهمة عن أمه لا يفيد ازالة التهمة عن الله سبحانه

(وقري عينا) بالولد الرضي وعينا تمييز أي طيبي نفسا بعيسى وارفضي عنك ما أحزنك (فاما) أصله ان الشرطية ضمت اليها ما وأدغمت فيها (ترين من البشر أحدا فقولي اني نذرت للرحمن صوما) أي فان رأيت آدميا يسألك عن حالك فقولي اني نذرت للرحمن صمتا وامساكا عن الكلام وكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الاكل والشرب وقيل صياما حقيقة وكان صيامهم فيه الصمت فكان التزامه التزامه وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم الصمت فصار ذلك منسوخا فينا وانما أمرت أن تنذر السكوت لان عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها ولئلا تجادل السفهاء وفيه دليل على ان السكوت عن السفيه واجب وما قدع سفيه بمثل الاعراض ولا أطلق عنانه بمثل العراض وانما أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالاشارة وقد تسمى الاشارة كلاما وقولا ألا ترى الى قول الشاعر في وصف القبور

وتكلمت عن أوجه تبلى

وقيل كان وجوب الصمت بعد هذا الكلام أو سوغ لها هذا القدر بالنطق (فلن أكلم اليوم انسيا) آدميا (فأتت به) بعيسى (قومها) بعد ما طهرت من نفاسها (تحمله) حال منها أي أقبلت نحوهم حاملة اياه فلما رأوه معها (قالوا يا مريم لقد جئت شيأ فريا) بديعا عجيبا والفري القطع كأنه يقطع العادة (يا أخت هرون) وكان أخاها من أبيها ومن أفضل بني اسرائيل أو هو أخو موسى عليه السلام وكانت من أعقابه وبينهما ألف سنة وهذا كما يقال يا أخا همدان أي يا واحدا منهم أو رجل صالح أو طالح في زمانها شبهوها به في الصلاح أو شتموها به (ما كان أبوك) عمران (امرأ سوء) زانيا (وما كانت أمك) حنة (بغيا) زانية (فأشارت اليه) الى عيسى ان يجيبهم وذلك أن عيسى عليه السلام قال لها لا تحزني وأحيلي بالجواب علي وقيل أمرها جبريل بذلك ولما أشارت اليه غضبوا وتعجبوا و (قالوا كيف نكلم من كان) حدث ووجد (في المهد) المعهود (صبيا) حال (قال اني عبد الله) ولما أسكتت بأمر الله لسانها الناطق أنطق الله لها اللسان الساكت حتى اعترف بالعبودية وهو ابن أربعين ليلة أو ابن يوم روي انه أشار بسبابته وقال بصوت رفيع اني عبد الله وفيه رد لقول النصارى

(آتانى الكتاب) الانجيل (وجعلنى نبيا) روى عن الحسن أنه كان فى المهد نبيا وكلامه معجزته وقيل معناه أن ذلك سبق فى قضائه أو جعل الآتى لا محالة كأنه وجد (وجعلنى مباركا أينما كنت) نفاعا حيث كنت أو معلما للخير (وأوصانى) وأمرنى (بالصلوة والزكاة) ان ملكت مالا وقيل صدقة الفطر أو تطهير البدن ويحتمل وأوصانى بأن آمركم بالصلاة والزكاة (مادمت حيا) نصب على الظرف أى مدة حياتى (وبرا بوالدتى) عطفا على مباركا أى بارا بها أكرمها وأعظمها (ولم يجعلنى جبارا) متكبرا (شقيا) عاقا (والسلام على يوم ولدت) يوم ظرف والعامل فيه الخبر وهو على (ويوم أموت ويوم أبعث حيا) أى ذلك السلام الموجه الى يحيى فى المواطن الثلاثة موجه الى ان كان حرف التعريف للعهد وان كان للجنس فالمعنى وجنس السلام على وفيه تعريض باللعنة على أعداء مريم وابنها لانه اذا قال وجنس السلام على فقد عرض بان ضده عليكم اذ المقام مقام مناكرة وعناد ٢٢٠ فكان مئنة لمثل هذا التعريض (ذلك) مبتدأ (عيسى) خبره (ابن مريم) نعته أو خبر ثان أى ذلك الذى قال انى كذا وكذا عيسى بن مريم لا كما قالت النصارى انه اله أو ابن الله (قول الحق) كلمة الله فالقول الكلمة والحق الله وقيل له كلمة الله لانه ولد بقوله كن بلا واسطة أب وارتفاعه على انه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من عيسى ونصبه شامى وعاصم على المدح أو على المصدر أى أقول قول الحق هو ابن مريم وليس باله كما يدعونه (الذى فيه يمترون) يشكون من المرية الشك أو يختلفون من المراء فقالت اليهود ساحر كذاب وقالت النصارى ابن الله وثالث ثلاثة (ما كان لله) ما ينبغى له (أن يتخذ من ولد) جىء بمن لتأكيد النفى (سبحانه) نزه ذاته عن اتخاذ الولد (اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) بالنصب شامى أى كما قال يا عيسى كن فكان من غير أب ومن كان متصفا بهذا كان منزها ان يشبه الحيوان الوالد (وان الله ربى وربكم فاعبدوه) بالكسر شامى وكوفى على الابتداء وهو من كلام عيسى يعنى كما أنا عبده فأنتم عبيده على وعليكم أن نعبده ومن فتح عطف على بالصلاة أى وأوصانى بالصلاة وبالزكاة وبان الله ربى وربكم أو علقه بما بعده أى ولئن الله ربى وربكم فاعبدوه (هذا) الذى ذكرت (صراط مستقيم) فاعبدوه ولا تشركوا به شيأ (فاختلف الاحزاب) الحزب الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها وهم ثلاث فرق نسطورية ويعقوبية وملكانية (من بينهم) من بين أصحابه أو من بين قومه أو من بين الناس وذلك أن النصارى اختلفوا فى عيسى حين رفع ثم اتفقوا على أن يرجعوا الى قول ثلاثة كانوا عندهم أعلم أهل زمانهم وهم يعقوب ونسطور وملكان فقال يعقوب هو الله هبط الى الارض ثم صعد الى السماء وقال نسطور كان ابن الله أظهره ما شاء ثم رفعه اليه وقال الثالث كذبوا كان عبدا مخلوقا نبيا فتبع كل واحد منهم قوم (فويل للذين كفروا) من الاحزاب اذ الواحد منهم على الحق (من مشهد يوم عظيم) هو يوم القيامة أو من

وتعالى فكان الاشتغال بذلك أولى (آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) قيل معناه سيجعلنى نبيا ويؤتينى الكتاب وهو الانجيل وهذا اخبار عما كتب له فى اللوح المحفوظ كما قيل للنبى صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا قال كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد وقال الاكثرون انه أوتى الانجيل وهو صغير وكان يعقل عقل الرجال الكمل وعن الحسن انه ألهم التوراة وهو فى بطن أمه (وجعلنى مباركا أينما كنت) معناه انى نفاع أينما توجهت وقيل معلما للخير أدعو الى الله والى توحيده وعبادته وقيل مباركا على من يتبعنى (وأوصانى بالصلوة والزكوة) أى أمرنى بهما وكلفنى فعلهما ﴿فان قلت﴾ كيف يؤمر بالصلاة والزكاة فى حال طفوليته وقد قال صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث الصبى حتى يبلغ الحديث ﴿قلت﴾ ان قوله وأوصانى بالصلاة والزكاة لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما فى الحال بل المراد أوصاه بادائهما فى الوقت المعين لهما وهو البلوغ وقيل ان الله تعالى صيره حين انفصل عن أمه بالغا عاقلا وهذا القول أظهر فى سياق قوله (مادمت حيا) فانه يفيد ان هذا التكليف متوجه اليه فى زمان جميع حياته حين كان فى الارض وحين رفع الى السماء وحين ينزل الارض بعد رفعه (وبرا بوالدتى) أى وجعلنى برا بوالدتى (ولم يجعلنى جبارا شقيا) أى عاصيا لربى متكبرا على الخلق بل أنا خاضع متواضع وروى أنه قال قلبى لين وأنا صغير فى نفسى قال بعض العلماء لا تجد العاق الا جبارا شقيا وتلا هذه الآية وقيل الشقى الذى يذنب ولا يتوب (والسلام على يوم ولدت) أى السلامة عند الولادة من طعن الشيطان (ويوم أموت) أى عند الموت من الشرك (ويوم أبعث حيا) أى من أهوال يوم القيامة فلما كلمهم عيسى بذلك علموا براءة مريم ثم سكت عيسى بعد فلم يتكلم حتى بلغ المدة التى يتكلم فيها الاطفال (ذلك عيسى بن مريم) أى ذلك الذى قال انى عبد الله هو عيسى بن مريم (قول الحق) أى هذا الكلام هو القول الحق أضاف القول الى الحق وقيل هو نعت لعيسى يعنى بذلك عيسى بن مريم كلمة الله الحق والحق هو الله (الذى فيه يمترون) أى يشكون ويختلفون فقائل يقول هو ابن الله وقائل يقول الله وقائل يقول ثالث ثلاثة تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ثم نزه نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه فقال تعالى (ما كان لله أن يتخذ من ولد) أى ما كان من صفاته اتخاذ الولد ولا ينبغى له ذلك (سبحانه اذا قضى أمرا) أى اذا أراد أن يحدث أمرا (فانما يقول له كن فيكون) أى لا يتعذر عليه اتخاذه على الوجه الذى اراده (وان الله ربى وربكم فاعبدوه) هذا اخبار عن عيسى انه قال ذلك يعنى ولان الله ربى وربكم لا رب للمخلوقات سواه (هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى أخبرتكم به ان الله أمرنى به هو الصراط المستقيم الذى يؤدى الى الجنة (فاختلف الاحزاب من بينهم) يعنى النصارى سموا أحزابا لانهم تحزبوا ثلاث فرق فى أمر عيسى النسطورية والملكانية واليعقوبية (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) يعنى يوم القيامة

شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وجوارحهم بالكفر أو من مكان الشهادة أو وقتها أو المراد يوم اجتماعهم للتشاور فيه وجعله عظيما لفظاعة ما شهدوا به في عيسى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) الجمهور على أن لفظه أمر ومعناه التعجب والله تعالى لا يوصف بالتعجب ولكن المراد أن أسماعهم وأبصارهم جدير بأن يتعجب منهما بعدما كانوا صما وعميا في الدنيا قال قتادة إن عموا وصموا عن الحق في الدنيا فما أسمعهم وما أبصرهم بالهدى يوم لا ينفعهم وبهم مرفوع المحل على الفاعلية كأكرم بزيد فمعناه كرم زيد جدا (لكن الظالمون اليوم) أقيم الظاهر مقام المضمر أي لكنهم اليوم في الدنيا بظلمهم أنفسهم حيث تركوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم ووضعوا العبادة في غير موضعها (في ضلال) عن الحق (مبين) ظاهر وهو اعتقادهم عيسى الها معبودا مع ظهور آثار الحدث فيه اشعارا بأن لا ظلم أشد من ظلمهم (وأنذرهم) خوفهم (يوم الحسرة) يوم القيامة لأنه يقع فيه الندم على ما فات وفي الحديث اذا رأوا منازلهم في الجنة أن لو آمنوا (اذ) بدل من يوم الحسرة أو ظرف للحسرة وهو مصدر (قضي الأمر) فرغ من الحساب وتصادر الفريقان الى الجنة والنار (وهم في غفلة) هنا عن الاهتمام لذلك المقام (وهم لا يؤمنون) لا يصدقون به وهم وهم حالان أي وأنذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين (انا نحن نرث الأرض ومن عليها) أي ننفرد بالملك والبقاء عند تعميم الهلاك والفناء وذكر من لتغليب العقلاء (والينا يرجعون) بضم الياء وفتح الجيم وفتح الياء يعقوب أي يردون فيجازون جزاء وفاقا (واذكر) لقومك (في الكتاب) القرآن (ابراهيم) قصته مع أبيه (انه كان صديقا نبيا) بغير همز وهمزة نافع قيل الصادق المستقيم في الأفعال والصديق المستقيم في الأحوال فالصديق من أبنية المبالغة ونظيره الضحيك والمراد فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله أي كان مصدقا لجميع الأنبياء وكتبهم وكان نبيا في نفسه وهذا [illegible]

حين (أسمع بهم وأبصر) أي ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر أخبر أنهم يسمعون ويبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ويبصروا في الدنيا وقيل معناه التهديد بما يسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم (يوم يأتوننا) أي يوم القيامة (لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين) قيل أراد باليوم الدنيا يعني أنهم في الدنيا في خطأ بين وفي الآخرة يعرفون الحق وقيل معناه لكن الظالمون في الآخرة في ضلال عن طريق الجنة بخلاف المؤمنين قوله تعالى (وأنذرهم يوم الحسرة) يعني خوف يا محمد كفار مكة يوم الحسرة سمي بذلك لأن المسيء يتحسر هلا أحسن العمل والمحسن هلا ازداد في الاحسان يدل عليه ما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من أحد يموت الا ندم قالوا وما ندمه يا رسول الله قال ان كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد وان كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع أخرجه الترمذي قوله أن لا يكون نزع النزع عن الشيء الكف عنه وقال أكثر المفسرين يعني بيوم الحسرة حين يذبح الموت (ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد يا أهل الجنة فيشرفون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادي مناد آخر يا أهل النار فيشرفون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح بين الجنة والنار ثم يقول يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت ثم قرأ وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون وأشار بيده الى الدنيا زاد الترمذي فيه فلو أن أحدا مات فرحا لمات أهل الجنة ولو أن أحدا مات حزنا لمات أهل النار قوله كهيئة كبش أملح الى الشيء الأملح المختلط بالبياض والسواد قوله فيشرفون يقال أشرف اذا اطلع ينظر اليه ومالت نحوه نفسه قوله فيذبح بين الجنة والنار اعلم أن الموت عرض ليس بجسم في صورة كبش أو غيره فعلى هذا يتأول الحديث على أن الله تعالى يخلق هذا الجسم وهو حيوان فيذبح فيموت فلا يبقى يرجى له حياة ولا وجود وكذلك حال أهل الجنة والنار بعد الاستقرار فيهما لا زوال لهما ولا انتقال (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صار أهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار فيذبح ثم ينادي مناد يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا الى حزنهم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة أحد الا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ولا يدخل النار أحد الا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة أخرجه البخاري وقوله تعالى (اذ قضي الأمر) أي فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذبح الموت (وهم في غفلة) أي عما يراد بهم في الآخرة (وهم لا يؤمنون) أي لا يصدقون (انا نحن نرث الأرض ومن عليها) أي نميت سكان الأرض جميعا ويبقى الله سبحانه وتعالى وحده فيرثهم (والينا يرجعون) فنجزيهم بأعمالهم قوله عز وجل (واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا) أي كثير الصدق وهو مبالغة في كونه صديقا وقيل الصديق الكثير التصديق قيل من صدق الله في وحدانيته وصدق أنبياءه ورسله وصدق بالبعث بعد الموت وقام بالأوامر فعمل بها فهو صديق ولما قربت رتبة الصديق من رتبة النبي انتقل من ذكر كونه صديقا الى ذكر كونه نبيا والنبي العالي في الرتبة بارسال

(اذقال) وجاز أن يتعلق اذبكان أو بصدّيقا نبيا أى كان جامعا لخصائص الصدّيقين والانبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات والمراد بذكر الرسول اياه وقصته فى الكتاب أن يتلو ذلك على الناس و يبلغه اياهم كقوله واتل عليهم نبأ ابراهيم والا فالله عز وعلا هو ذاكره ومورده فى تنزيله (لابيه يا أبت) بكسر التاء وفتحها ابن عامر والتاء عوض من ياء الاضافة ولا يقال يا أبتى لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه (لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر) المفعول فيهما منسى غير منوى ويجوز أن يقدر أى لا يسمع شيأ ولا يبصر شيأ (ولا يغنى عنك شيأ) يحتمل أن يكون شيأ فى موضع المصدر أى شيأ من الاغناء وأن يكون مفعولا به من قولك أغن عنى وجهك أى بعد (يا أبت انى قد جاءنى من العلم) الوحى أو معرفة الرب (مالم يأتك) ما فى ما لا يسمع وما لم يأتك يجوز أن تكون موصولة أو موصوفة (فاتبعنى أهدك) أرشدك (صراطا سويا) مستقيما (يا أبت لا تعبد الشيطان) لا تطعه فيما سول من عبادة الصنم (ان الشيطان كان للرحمن عصيا) عاصيا (يا أبت انى أخاف) قيل أعلم (أن يمسك عذاب من الرحمن ٢٢٢ فتكون للشيطان وليا) قرينا فى النار تليه و يليك فانظر فى نصيحته كيف راعى المجاملة والرفق والخلق الحسن كما أمر ففى الحديث أوحى الى ابراهيم انك خليلى حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الابرار فطلب منه أولا العلة فى خطئه طلب منبه على تماديه موقظ لافراطه وتناهيه لان من يعبد أشرف الخلق منزلة وهم الأنبياء كان محكوما عليه بالغى المبين فكيف بمن يعبد حجرا أو شجرا لا يسمع ذكر عابده ولا يرى هيآت عبادته ولا يرفع عنه بلاء ولا يقضى له حاجة ثم ثنى بدعوته الى الحق مترفقا به متلطفا فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال ان معى شيأ من العلم ليس معك وذلك علم الدلالة على الطريق السوى فهب انى واياك فى مسير وعندى معرفة بالهداية دونك فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه ثم ثلث بنهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذى عصى بى الرحمن الذى جميع النعم منه أوقعك فى عبادة الصنم وزينها لك فأنت عابده فى الحقيقة ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة وما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال مع مراعاة الادب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق به وأن العذاب لاصق به بل قال أخاف أن يمسك عذاب بالتنكير المشعر بالتقليل كأنه قال انى أخاف أن يصيبك نفيان من عذاب الرحمن وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب كما أن رضوان الله أكبر من الثواب فى نفسه وصدر كل نصيحة بقوله يا أبت توسلا اليه واستعطافا واشعارا بوجوب احترام الاب وان كان كافرا ثم (قال) آزر توبيخا (أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم) أى أترغب عن عبادتها فناداه باسمه ولم يقابل يا أبت بيا بنى وقدم الخبر على المبتدا لأنه كان أهم عنده (لئن لم تنته) عن شتم الاصنام (لارجمنك) لاقتلنك بالرجام أو لأضربنك بها حتى تتباعد أو لأشتمنك (واهجرنى) عطف على محذوف يدل عليه لأرجمنك تقديره فاحذرنى واهجرنى (مليا) ظرف أى زمانا طويلا من الملاوة (قال سلام عليك) سلام توديع ومتاركة أو تقريب وملاطفة ولذا وعده بالاستغفار بقوله (سأستغفر لك ربى) سأسأل الله أن يجعلك من أهل المغفرة بأن يهديك للاسلام [illegible]

الله اياه وأى رتبة أعلى من رتبة من جعله الله تعالى واسطة بينه و بين عباده (اذقال لأبيه) يعنى آزر وهو يعبد الاصنام (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع) يعنى صوتا (ولا يبصر) ولا ينظر شيأ (ولا يغنى عنك) أى يكفيك (شيأ) وصف الاصنام بثلاثة أشياء كل واحد منها قادح فى الالهية وذلك أن العبادة هى غاية التعظيم للمعبود فلا يستحقها الا من له ولاية الانعام وله أوصاف الكمال وهو الله تعالى فلا يستحق العبادة الا هو (يا أبت انى قد جاءنى من العلم) يعنى بالله والمعرفة (مالم يأتك فاتبعنى) أى على دينى (أهدك صراطا سويا) أى مستقيما (يا أبت لا تعبد الشيطان) أى لا تطعه فيما زين لك من الكفر والشرك (ان الشيطان كان للرحمن عصيا) أى عاصيا (يا أبت انى أخاف) أى أعلم وقيل هو على ظاهره لانه يمكن أن يؤمن فيكون من أهل الجنة او يصر على الكفر فيكون من أهل النار فحمل الخوف على ظاهره أولى واعلم أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام رتب هذا الكلام فى غاية الحسن مقرونا بالتلطف والرفق فان قوله فى مقدمة كلامه يا أبت دليل على شدة الحب والرغبة فى صرفه عن العقاب وارشاده الى الصواب لانه نبهه أولا على ما يدل على المنع من عبادة الاصنام ثم أمره باتباعه فى الايمان ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة فى العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الاقدام على ما لا ينبغى بقوله انى أخاف (أن يمسك) أى يصيبك (عذاب من الرحمن) أى ان أقمت على الكفر (فتكون للشيطان وليا) أى قرينا فى النار وقيل صديقا له فى النار واعلم ان فعل ابراهيم عليه الصلاة والسلام هذا مع أبيه لامور أحدها الشدة تعلق قلبه بصلاحية أبيه وأداء حق الابوة والرفق به وثانيها أن النبى الهادى الى الحق لابد أن يكون رفيقا لطيفا حتى يقبل منه كلامه وثالثها النصح لكل أحد فالاب أولى (قال) يعنى أباه مجيبا له (أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم) أى أتاركها أنت وتارك عبادتها (لئن لم تنته) أى ترجع وتسكت عن عيبك آلهتنا وشتمك اياها (لأرجمنك) قال ابن عباس معناه لاضربنك وقيل لاقتلنك بالحجارة وقيل لاشتمنك وقيل لابعدنك عنى بالقول القبيح والقول الاول هو الصحيح (واهجرنى) أى اجتنبنى قال ابن عباس اعتزلنى سالما لا يصيبنك منى معرة (مليا) أى دهرا طويلا (قال) يعنى ابراهيم (سلام عليك) أى سلمت منى لا أصيبك بمكروه وذلك لانه لم يؤمر بقتاله على كفره وقيل هذا سلام هجران ومفارقة وقيل هو سلام بر ولطف وهو جواب الحليم للسفيه (سأستغفر لك ربى) قيل انه لما أعياه أمره وعده أن يراجع الله فيه فيسأله أن يرزقه التوحيد و يغفر له وقيل معناه سأسأل الله لك توبة تنال بها المغفرة (انه كان

بى حفيا) ملطفا بعموم النعم أو رحيما أو مكرما والحفاوة الرأفة والرحمة والكرامة (واعتزلكم) أراد بالاعتزال المهاجرة من أرض بابل الى الشام (وما تدعون من دون الله) أى ما تعبدون من أصنامكم (وأدعوا) واعبد (ربى) ثم قال تواضعا وهضما للنفس ومعرضا بشقاوتهم بدعاء آلهتهم (عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا) أى كما شقيتم أنتم بعبادة الاصنام (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) فلما اعتزل الكفار ومعبودهم (وهبنا له اسحق) ولدا (ويعقوب) نافلة ليستأنس بهما (وكلا) كل واحد منهما (جعلنا نبيا) أى لما ترك الكفار الفجار لوجهه عوضه أولادا مؤمنين أنبياء (ووهبنا لهم من رحمتنا) هى المال والولد (وجعلنا لهم لسان صدق) ثناء حسنا وهو الصلاة على ابراهيم وآل ابراهيم فى الصلوات وعبر باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهى العطية (عليا) رفيعا مشهورا (واذكر فى الكتاب موسى انه

بى حفيا) أى برا لطيفا والمراد انه يستجيب لى اذا دعوته لانه عودنى الاجابة لدعائى (واعتزلكم وما تدعون من دون الله) أى أفارقكم وأفارق ما تعبدون من دون الله وذلك انه فارقهم وهاجر الى الارض المقدسة (وأدعو ربى) أى أعبد ربى الذى خلقنى وأنعم على (عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا) أى أرجو أن لا أشقى بدعاء ربى وعبادته كما تشقون أنتم بعبادة الاصنام ففيه التواضع له مع التعريض بشقاوتهم قوله عز وجل (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) أى ذهب مهاجرا (وهبنا له) أى بعد الهجرة (اسحق ويعقوب) أى آنسنا وحشته من فراقهم بأولاد أكرم على الله من أبيه (وكلا جعلنا نبيا) أى أنعمنا عليهما بالنبوة (ووهبنا لهم من رحمتنا) أى مع ما وهبنا لهم من النبوة وهبنا لهم المال والولد وذلك انه بسط لهم فى الدنيا من سعة الرزق وكثرة الاولاد (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) يعنى ثناء حسنا رفيعا فى أهل كل دين حتى ادعاهم أهل الاديان كلهم فهم يتولونهم ويثنون عليهم قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا) قرئ بكسر اللام أى أخلص العبادة والطاعة لله تعالى ولم يراء وقرئ بالفتح أى مختارا اختاره الله تعالى ثم استخلصه واصطفاه (وكان رسولا نبيا) فهذان وصفان مختلفان فكل رسول نبى ولا عكس (وناديناه من جانب الطور الأيمن) أى من ناحية يمين موسى والطور جبل معروف بين مصر ومدين ويقال ان اسمه الزبير وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار فنودى ياموسى انى أنا الله رب العالمين (وقربناه) قال ابن عباس قربه وكلمه ومعنى التقريب اسماعه كلامه وقيل رفعه على الحجب حتى سمع صرير الاقلام وقيل معناه رفع قدره ومنزلته أى وشرفناه بالمناجاة وهو قوله تعالى (نجيا) أى مناجيا (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا) وذلك ان موسى دعا ربه فقال واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى فأجاب الله دعوته وأرسل الى هرون ولذلك سماه هبة له وكان هرون أكبر من موسى قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب اسمعيل) هو اسمعيل بن ابراهيم وهو جد النبى صلى الله عليه وسلم (انه كان صادق الوعد) قيل انه لم يعد شيأ الا وفى به وقيل انه وعد رجلا أن يقوم مكانه حتى يرجع الرجل فوقف اسمعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع اليه الرجل وقيل انه وعد نفسه الصبر على الذبح فوفى به فوصفه الله بهذا الخلق الحسن الشريف سئل الشعبى عن الرجل يعد ميعادا الى أى وقت ينتظر فقال ان وعده نهارا فكل النهار وان وعده ليلا فكل الليل وسئل بعضهم عن مثل ذلك فقال ان وعده فى وقت صلاة ينتظر الى وقت صلاة أخرى (وكان رسولا) الى جرهم وهم قبيلة من عرب اليمن نزلوا على هاجر أم اسمعيل بوادى مكة حين خلفهم ابراهيم وجرهم هو جرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ وقحطان أبو قبائل اليمن (نبيا) أى مخبرا عن الله تعالى (وكان يأمر أهله) أى قومه وجميع أمته (بالصلاة والزكاة) قال ابن عباس يريد بالصلاة المفروضة عليهم وهى الحنيفية التى افترضت علينا وقيل كان يبدأ بأهله فى الامر بالصلاة والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم (وكان عند ربه مرضيا) أى قائما لله بطاعته وقيل رضيه لنبوته ورسالته وهذا نهاية فى المدح لان المرضى عند الله هو الفائز فى كل طاعة بأعلى الدرجات قوله عز وجل (واذكر فى

كان مخلصا) كوفى غير المفضل أى أخلصه الله واصطفاه ومخلصا بالكسر غيرهم أى أخلص هو العبادة لله تعالى فهو مخلص عاله من السعادة بأصل الفطرة ومخلص فيما عليه من العبادة بصدق الهمة (وكان رسولا نبيا) الرسول الذى معه كتاب من الانبياء والنبى الذى ينبئ عن الله عز وجل وان لم يكن معه كتاب كيوشع (وناديناه) دعوناه وكلمناه ليلة الجمعة (من جانب الطور) هو جبل بين مصر ومدين (الأيمن) من اليمين أى من ناحية اليمين والجمهور على ان المراد أيمن موسى عليه السلام لان الجبل لا يمين له والمعنى انه حين أقبل من مدين يريد مصر نودى من الشجرة وكانت فى جانب الجبل على يمين موسى عليه السلام (وقربناه) تقريب منزلة ومكانة لا منزل ومكان (نجيا) حال أى مناجيا كنديم بمعنى منادم (ووهبنا له من رحمتنا) من أجل رحمتنا له وترؤفنا عليه (أخاه) مفعول (هرون) بدل منه (نبيا) حال أى وهبنا له نبوة أخيه والا فهرون كان أكبر سنا منه (واذكر فى الكتاب اسمعيل) هو ابن ابراهيم فى الاصح (انه كان صادق الوعد) وافيه وعد رجلا أن يقيم مكانه حتى يعود اليه فانتظره سنة فى مكانه حتى عاد وناهيك انه وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى وقيل لم يعد بموعد الا أنجزه وانما خصه بصدق الوعد وان كان موجودا فى غيره من الانبياء تشريفا له وكانه المشهور من خصاله (وكان رسولا) الى جرهم (نبيا) مخبرا منذرا (وكان يأمر أهله) أمته لان النبى أبو أمته وأهل بيته وفيه دليل على انه لم يداهن غيره (بالصلاة والزكاة) يحتمل [illegible] (وكان عند ربه مرضيا) قرئ مرضوا على الاصل (واذكر فى

الكتاب ادريس) هو جد أبي نوح واسمه اخنوخ سمي ادريس لكثرة درسه الكتب وكان خياطا وهو أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط وكانوا من قبل يلبسون الجلود وهو أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار وأول من نظر في علم الحساب (انه كان صديقا نبيا) وذلك أن الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة (ورفعناه مكانا عليا) قيل هي الرفعة بعلو المرتبة في الدنيا وقيل انه رفع الى السماء وهو الاصح يدل عليه ما روى أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه رأى ادريس في السماء الرابعة ليلة المعراج متفق عليه وكان سبب رفع ادريس الى السماء الرابعة على ما قاله كعب الاحبار وغيره انه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب اني مشيت يوما فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال يارب خلقتني لحر الشمس فما الذي قضيت فيه قال ان عبدي ادريس سألني أن اخفف عنك حلها وحرها فاجبته قال يارب فاجمع بيني وبينه واجعل بيني وبينه خلة فاذن له حتى أتى ادريس فكان ادريس يسأله فكان مما سأله ان قال اني أخبرت انك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لي اليه ليؤخر أجلي لعلي أزداد شكرا وعبادة فقال الملك لا يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها وأنا مكلمه فرفعه الى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملك الموت فقال له لي اليك حاجة صديق لي من بني آدم تشفع بي اليك لتؤخر أجله فقال ملك الموت ليس لي ذلك ولكن ان أحببت أعلمته أجله فيقدم لنفسه قال نعم فنظر في ديوانه فقال انك كلمتني في انسان ما أراه يموت أبدا قال وكيف ذلك فقال لا أجده يموت الا عند مطلع الشمس قال اني أتيتك وتركته هناك قال انطلق فلا أراك تجده الا وقد مات فوالله ما بقي من عمر ادريس شئ فرجع الملك فوجده ميتا وقال وهب كان يرفع لادريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الارض في زمانه فعجب منه الملائكة واشتاق اليه ملك الموت فاستأذن ربه في زيارته فأذن له فأتاه في صورة بني آدم وكان ادريس يصوم الدهر فلما كان وقت افطاره دعاه الى الطعام فأبى أن يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره ادريس وقال له في الليلة الثالثة اني أريد أن أعلم من أنت قال أنا ملك الموت استأذنت ربي ان أصحبك فقال لي اليك حاجة قال وما هي قال تقبض روحي فأوحى الله اليه أن اقبض روحه فقبض روحه ورده الله اليه بعد ساعة فقال له ملك الموت ما الفائدة في سؤالك قبض الروح قال لأذوق كرب الموت وغمه فأكون أشد استعدادا له ثم قال له ادريس لي اليك حاجة أخرى قال وما هي قال ترفعني الى السماء لأنظر اليها والى الجنة والنار فأذن الله له فرفعه فلما قرب من النار قال لي اليك حاجة قال وما هي قال أريد أن أسأل مالكا أن يرفع أبوابها فأردها ففعل قال فكما أريتني النار فأرني الجنة فذهب به الى الجنة فاستفتح ففتحت أبوابها فأدخله الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود الى مقرك فتعلق بشجرة وقال ما أخرج منها فبعث الله اليه ملكا حكما بينهما فقال له الملك مالك لا تخرج قال لان الله تعالى قال كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته ثم قال وان منكم الا واردها فأنا وردتها وقال وما هم منها بمخرجين فلست أخرج فأوحى الله تعالى الى ملك الموت باذني دخل الجنة وبأمري لا يخرج فهو حي هناك فذلك قوله تعالى ورفعناه مكانا عليا * واختلفوا في أنه حي في السماء أم ميت فقال قوم هو ميت واستدلوا بالاول وقال قوم هو حي واستدلوا بهذا وقالوا أربعة من الانبياء أحياء اثنان في الارض وهما الخضر والياس واثنان في السماء وهما ادريس وعيسى قوله عز وجل (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين) أولئك اشارة الى المذكورين في هذه السورة أنعم الله عليهم بالنبوة وغيرها مما تقدم وصفه (من ذرية آدم) يعني ادريس ونوحا (وممن حملنا مع نوح) أي ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة يريد ابراهيم لانه من ولد سام بن نوح (ومن ذرية ابراهيم) يعني اسحق واسمعيل ويعقوب (واسرائيل) أي ومن ذرية اسرائيل وهو يعقوب وهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم فرتب الله تعالى أحوال الانبياء الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبها بذلك على انهم كما شرفوا بالنبوة شرفوا

فيه الاسبب واحد وهو العلمية وكان منصرفا فامتناعه من الصرف دليل العجمة (انه كان صديقا نبيا) أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة (ورفعناه مكانا عليا) هو شرف النبوة والزلفى عند الله وقيل معناه رفعته الملائكة الى السماء الرابعة وقد رآه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فيها وعن الحسن الى الجنة لا شئ أعلى من الجنة وذلك انه حبب لكثرة عبادته الى الملائكة فقال لملك الموت أذقني الموت يهن علي ففعل ذلك باذن الله فحيي وقال أدخلني النار أزدد رهبة ففعل ثم قال أدخلني الجنة أزدد رغبة ثم قال له اخرج فقال قد ذقت الموت ووردت النار فما أنا بخارج من الجنة فقال الله عز وجل باذني فعل وباذني دخل فدعه (أولئك) اشارة الى المذكورين في السورة من زكريا الى ادريس (الذين أنعم الله عليهم من النبيين) من للبيان لان جميع الانبياء منعم عليهم (من ذرية آدم) من للتبعيض وكان ادريس من ذرية آدم لقربه منه لانه جد أبي نوح (وممن حملنا مع نوح) ابراهيم من ذرية من حمل مع نوح لانه ولد سام بن نوح (ومن ذرية ابراهيم) اسمعيل واسحق ويعقوب بالنسب

ومن ذرية اسرائيل أي يعقوب وهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى لان مريم من ذريته

(ومن) يحتمل العطف على من الاولى والثانية (هدينا) لمحاسن الاسلام (واجتبينا) من الانام أولشرح الشريعة وكشف الحقيقة (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن) أى اذا تليت عليهم كتب الله المنزلة وهو كلام مستأنف ان جعلت الذين خبر الاولئك وان جعلته صفة له كان خبرا يتلى بالياء قتيبة لوجود الفاصل مع ان التأنيث غير حقيقى (خروا سجدا) سقطوا على وجوههم ساجدين رغبة (وبكيا) باكين رهبة جمع باك كسجود وقعود فى جمع ساجد وقاعد فى الحديث اتلوا القرآن وابكوا وان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المرى قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ويقول فى سجود التلاوة سبحان ربى الاعلى ثلاثا (فخلف من بعدهم) فجاء من بعد هؤلاء المفضلين (خلف) أولاد سوء وبفتح اللام العقب الخير عن ابن عباس هم اليهود (أضاعوا الصلوة) تركوا الصلاة المفروضة (واتبعوا الشهوات) ملاذ النفوس وعن على رضى الله عنه من بنى الشديد وركب المنظور ولبس ٢٢٥ المشهور وعن قتادة رضى الله عنه هو فى هذه الامة (فسوف يلقون غيا) جزاء غى وكل شر عند العرب غى وكل خير رشاد وعن ابن عباس وابن مسعود هو واد فى جهنم أعد للمصرين على الزنا وشارب الخمر وآكل الربا والعاق وشاهد الزور (الا من تاب) رجع عن كفره (وآمن) بشرطه (وعمل صالحا) بعد ايمانه (فأولئك يدخلون الجنة) بضم الياء وفتح الخاء مكى وبصرى وأبو بكر (ولا يظلمون شيأ) أى لا ينقصون شيأ من جزاء أعمالهم ولا يمنعونه بل يضاعف لهم أو لا يظلمون شيأ من الظلم (جنات) بدل من الجنة لان الجنة تشتمل على جنات عدن لانها جنس أو نصب على المدح (عدن) معرفة لانها علم لمعنى العدن وهو الاقامة أو علم لارض الجنة لكونها مقام اقامة (التى وعد الرحمن عباده) أى عباده التائبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات كما سبق ذكرهم ولانه أضافهم اليه وهو للاختصاص وهؤلاء أهل الاختصاص (بالغيب) أى وعدها وهى غائبة عنهم غير حاضرة أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها (انه) ضمير الشأن أو ضمير الرحمن (كان وعده) أى موعوده وهو الجنة (مأتيا) أى هم يأتونها (لا يسمعون فيها) فى الجنة (لغوا) فحشا أو كذبا أو ما لا طائل تحته من الكلام وهو المطروح منه وفيه تنبيه على وجوب تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله عنه داره التى لا تكليف فيها (الا سلاما) أى لكن يسمعون سلاما من الملائكة أو من بعضهم على بعض أو لا يسمعون فيها الا قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة فهو استثناء منقطع عند الجمهور وقيل معنى السلام هو الدعاء بالسلامة ولما كان أهل دار السلام أغنياء عن الدعاء بالسلامة كان ظاهره من باب اللغو [illegible] الاكلام

بالنسب ثم قال تعالى (وممن هدينا واجتبينا) أى هؤلاء ممن أرشدنا واصطفينا وقيل ممن هدينا الى الاسلام واجتبينا على الانام (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا) جمع ساجد (وبكيا) جمع باك أخبر الله تعالى ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا اذا سمعوا آيات الله سجدوا وبكوا خضوعا وخشوعا وخوفا وحذرا والمراد من الآيات ما خصهم به من الكتب المنزلة عليهم وقيل المراد من الآيات ذكر الجنة والنار والوعد والوعيد ففيه استحباب البكاء وخشوع القلب عند سماع القرآن

﴿فصل﴾ وسجدة سورة مريم من عزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند تلاوة هذه السجدة وقيل يستحب لمن قرأ آية سجدة فسجد أن يدعو بما يناسب تلك السجدة فان قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلنى من الباكين اليك والخاشعين لك وان قرأ سجدة مريم قال اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وان سجد سجدة الم السجدة قال اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك قوله تعالى (فخلف من بعدهم) أى من بعد النبيين المذكورين (خلف) أى قوم سوء أراد بهم اليهود ومن لحق بهم وتابعهم وقيل هم فى هذه الامة (أضاعوا الصلاة) أى تركوا الصلاة المفروضة وقيل أخروها عن وقتها وهو أن لا يصلى الظهر حتى يأتى العصر ولا العصر حتى تأتى المغرب (واتبعوا الشهوات) أى آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله تعالى وقيل اتبعوا المعاصى وشرب الخمور وقيل هؤلاء قوم يظهرون فى آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض فى الاسواق والازقة (فسوف يلقون غيا) قال ابن عباس الغى واد فى جهنم وان أودية جهنم لتستعيذ من حره أعد للزانى المصر عليه ولشارب الخمر المدمن له ولآكل الربا الذى لا ينزع عنه ولاهل العقوق ولشاهد الزور وقيل هو واد فى جهنم بعيد قعره خبيث طعمه يسيل قيحا ودما وقيل هو واد فى جهنم أبعدها قعرا وأشدها حرا فيه بئر تسمى الهيم كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فتسعر بها جهنم وقيل معنى غيا خسرانا وقيل هلاكا وعذابا وليس معنى يلقون يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية قوله تعالى (الا من تاب وآمن وعمل صالحا) يعنى الا من تاب من التقصير فى الصلوات والمعاصى وآمن من الكفر وعمل صالحا بطاعة الله تعالى (فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيأ) أى لا ينقصون شيأ ثم وصف الجنة فقال تعالى (جنات عدن) أى بساتين اقامة وصفها بالدوام بخلاف جنات الدنيا فانها لا تدوم (التى وعد الرحمن عباده بالغيب) أى انهم لا يرونها فهى غائبة عنهم وهم غائبون عنها (انه كان وعده مأتيا) أى آتيا وقيل معنى وعده موعوده وهو الجنة مأتيا أى يأتيه أولياء الله وأهل طاعته (لا يسمعون فيها لغوا) أى باطلا وفحشا وهو فضول الكلام (الا سلاما) يعنى بل يسمعون فيها سلاما والسلام اسم جامع للخير لانه يتضمن معنى السلامة وذلك أن أهل الجنة لا يسمعون فيها ما يؤلمهم انما يسمعون تسليما وقيل هو تسليم بعضهم على

(ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) أى يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفى النهار من الدنيا اذ لا ليل ولا نهار ثم لانهم فى النور أبدا وانما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب ومقدار الليل بارخائها والرزق بالبكرة والعشى أفضل العيش عند العرب فوصف الله جنته بذلك وقيل أراد دوام الرزق كما تقول أنا عند فلان بكرة وعشيا تريد الدوام (تلك الجنة التى نورث من عبادنا) أى نجعلها ميراث أعمالهم يعنى ثمرتها وعاقبتها وقيل يرثون المساكن التى كانت لاهل النار لو آمنوا لان الكفر موت حكما (من كان تقيا) عن الشرك عن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى عليه السلام قال يا جبريل ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزل (وما نتنزل الا بأمر ربك) والتنزيل على معنيين معنى النزول على مهل ومعنى النزول على الاطلاق والاول أليق هنا يعنى ان نزولنا فى الاحايين وقتا غب وقت ليس الا بأمر الله (له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا) أى له ما قدامنا وما خلفنا من الاماكن وما نحن فيها فلا نتمالك أن ننتقل من مكان الى مكان الا بأمر الملك ومشيئته وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون وما يحدث من الاحوال لا تجوز عليه الغفلة والنسيان فأنى لنا أن نتقلب فى ملكوته الا اذا أذن لنا فيه (رب السموات والارض وما بينهما) بدل من ربك أو خبر مبتدا محذوف أى هو رب السموات والارض ثم قال لرسوله لما عرفت أنه متصف بهذه الصفات (فاعبده) فاثبت على عبادته (واصطبر لعبادته) أى اصبر على مكافأة الحسود لعبادة المعبود واصبر على المشاق لاجل عبادة الخلاق أى لتتمكن من الاتيان بها (هل تعلم له سميا) شبيها ومثلا أو هل يسمى أحد باسم الله غيره لانه مخصوص بالمعبود بالحق أى اذا صح أن لا معبود توجه اليه العباد العبادة الا هو وحده لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها فأخذ أبى بن خلف عظما وقال أنبعث بعدما صرنا كذا فنزل (ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) والعامل فى اذا ما دل عليه الكلام وهو أبعث أى اذا ما مت أبعث وانتصابه بأخرج ممتنع لان ما بعد لام الابتداء لا يعمل فيما قبلها فلا تقول اليوم لزيد قائم ولام الابتداء الداخلة على المضارع تعطى معنى الحال وتؤكد مضمون الجملة فلما جامعت حرف الاستقبال خلصت للتوكيد واضمحل معنى الحال وما فى اذا ما للتوكيد أيضا فكأنه قال أحقا أنا سنخرج من القبور أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك على وجه الاستنكار والاستبعاد وتقديم الظرف وايلاؤه حرف الانكار من قبل ان ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ومنه جاء انكارهم (أولا يذكر الانسان) خفيف شامى ونافع وعاصم من الذكر والسائر بتشديد الذال والكاف وأصله يتذكر كقراءة أبى فأدغمت التاء فى الذال أى أولا يتدبر والواو عطفت لا يذكر على يقول ووسطت همزة الانكار بين المعطوف عليه وحرف العطف يعنى أيقول ذلك ولا يتذكر حال النشأة الاولى حتى لا ينكر النشأة الاخرى فان تلك أدل على قدرة الخالق حيث أخرج الجواهر والاعراض من العدم الى الوجود وأما الثانية فليس فيها الا تأليف

بعض وتسليم الملائكة عليهم وقيل هو تسليم الله عليهم (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال أهل التفسير ليس فى الجنة ليل ولا نهار حتى تعرف به البكرة والعشى بل هم فى نور أبدا ولكنهم يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفى النهار كعادتهم فى الدنيا وقيل انهم يعرفون وقت النهار برفع الحجب ووقت الليل بارخاء الحجب وقيل المراد منه رفاهية العيش وسعة الرزق من غير تضييق ولا تقتير وقيل كانت العرب لا تعرف أفضل من الرزق الذى يؤتى به بالبكرة والعشى فوصف الله تعالى الجنة بذلك وقوله تعالى (تلك الجنة التى نورث من عبادنا) أى نعطى وننزل وقيل يورث عباده المؤمنين المساكن التى كانت لاهل النار لو آمنوا (من كان تقيا) أى المتقين من عباده قوله عز وجل (وما نتنزل الا بأمر ربك) (خ) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يا جبريل ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا الآية قال فكان هذا جواب جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل احتبس جبريل عن النبى صلى الله عليه وسلم حين سأله اليهود عن أمر الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين فقال أخبركم غدا ولم يقل ان شاء الله حتى شق على النبى صلى الله عليه وسلم ثم نزل بعد أيام فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أبطأت على حتى ساء ظنى واشتقت اليك فقال له جبريل وانى كنت أشوق اليك ولكنى عبد مأمور اذا بعثت نزلت واذا حبست احتبست فأنزل الله تعالى وما نتنزل الا بأمر ربك وأنزل الله تعالى والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وقوله (له ما بين أيدينا وما خلفنا) أى له علم ما بين أيدينا وما خلفنا وقيل أكد ذلك بقوله له ما بين أيدينا وما خلفنا أى هو المدبر لنا فى كل الاوقات الماضى والمستقبل وقيل معناه له ما بين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب وما خلفنا أى ما مضى من الدنيا (وما بين ذلك) أى من هذا الوقت الى أن تقوم الساعة وقيل ما بين ذلك أى ما بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة وقيل ما بين أيدينا ما بقى من الدنيا وما خلفنا ما مضى منها وما بين ذلك أى مدة حياتنا (وما كان ربك نسيا) أى ناسيا أى ما نسيك ربك وما تركك (رب السموات والارض وما بينهما) أى من يكون كذلك لا يجوز عليه النسيان لانه لا بد أن يدبر أحوالها كلها وفيه دليل على أن فعل العبد خلق الله لانه حاصل بين السموات والارض فكان لله تعالى (فاعبده واصطبر لعبادته) أى اصبر على أمره ونهيه (هل تعلم له سميا) قال ابن عباس مثلا وقيل هل تعلم أحدا يسمى الله غير الله قوله تعالى (ويقول الانسان) أى جنس الانسان والمراد به الكفار الذين أنكروا البعث وقيل هو أبى بن خلف الجمحى وكان منكر البعث (أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) قاله استهزاء وتكذيبا بالبعث قال الله تعالى (أولا يذكر الانسان) أى يتذكر ويتفكر يعنى منكر البعث

الاجزاء الموجودة وردها الى ما كانت عليه مجموعة بعد التفريق (أنا خلقناه من قبل) من قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه (ولم يك شيأ)
هو دليل على ما بينا وعلى أن المعدوم ليس بشيء خلافا للمعتزلة (فوربك لنحشرنهم) أي الكفار المنكرين للبعث (والشياطين) الواو للعطف
وبمعنى مع أوقع أي يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة وفي اقسام الله باسمه مضافا الى
رسوله تفخيم لشأن رسوله (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) حال جمع جاث أي باركا على الركب ووزنه فعول لأن أصله جثوو كسجود
وساجد أي يقبلون من المحشر الى شاطئ جهنم عتلا على حالهم التي كانوا عليها في الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم (ثم لننزعن من
كل شيعة) طائفة شاعت أي تبعت غاويا من الغواة (أيهم أشد على الرحمن عتيا) جرأة أو فجورا أي لنخرجن من كل طائفة من طوائف الغي
أعتاهم فأعتاهم فاذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم وقيل المراد بأشدهم عتيا الرؤساء لتضاعف
جرمهم لكونهم ضلالا ومضلين قال سيبويه أيهم مبني على الضم لسقوط صدر الجملة ٢٢٧ التي هي صلته وهو من هو أشد حتى
لو جيء به لاعرب بالنصب وقيل أيهم هو أشد وهذا لان الصلة توضح الموصول وتبينه كما ان المضاف اليه يوضح المضاف ويخصصه فكما أن حذف المضاف اليه في من قبل يوجب بناء المضاف وجب ان يكون حذف الصلة أو شيء منها موجبا للبناء وموضعها نصب بننزع وقال الخليل هي معربة وهي مبتدأ وأشد خبره وهو رفع على الحكاية تقديره لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد على الرحمن عتيا ويجوز ان يكون النزع واقعا على من كل شيعة كقوله ووهبنا لهم من رحمتنا أي لننزعن بعض كل شيعة فكأن قائلا قال من هم فقيل أيهم أشد عتيا وعلى يتعلق بأفعل أي عتوهم أشد على الرحمن (ثم لنحن
أعلم بالذين هم أولى بها) أحق بالنار (صليا) تمييز أي دخولا والباء تتعلق بأولى (وان منكم) أحد (الا واردها) داخلها والمراد النار والورود
الدخول عند علي وابن عباس رضي الله عنهم وعليه جمهور أهل السنة لقوله تعالى فأوردهم النار ولقوله تعالى لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها
ولقوله ثم ننجي الذين اتقوا اذ النجاة انما تكون بعد الدخول ولقوله عليه السلام الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على
المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على ابراهيم وتقول النار للمؤمن جز يا مؤمن فان نورك أطفأ لهبي وقيل الورود بمعنى الدخول لكنه يختص
بالكفار لقراءة ابن عباس وان منهم وتحمل القراءة المشهورة على الالتفات وعن عبد الله الورود الحضور لقوله تعالى ولما ورد ماء مدين
وقوله أولئك عنها مبعدون وأجيب عنه بأن المراد عن عذابها وعن الحسن وقتادة الورود المرور على الصراط لان الصراط ممدود عليها
فيسلم أهل الجنة ويتقاذف أهل النار وعن مجاهد ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده في الدنيا لقوله عليه السلام الحمى حظ كل مؤمن
من النار وقال رجل من الصحابة لآخر أيقنت بالورود قال نعم قال وأيقنت بالصدر قال لا قال ففيم الضحك وفيم التثاقل

(أنا خلقناه من قبل ولم يك شيأ) والمعنى أولا يتفكر هذا الجاحد في بدء خلقه فيستدل به على الاعادة قال بعض
العلماء لو اجتمع كل الخلائق على ايراد حجة في البعث على هذا الاختصار ما قدروا عليه اذ لا شك أن الاعادة
ثانيا أهون من الايجاد أولا ثم أقسم بنفسه فقال تعالى (فوربك) وفيه تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم
(لنحشرنهم) أي لنجمعنهم في المعاد يعني المشركين المنكرين للبعث (والشياطين) أي مع الشياطين وذلك
انه يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) قال ابن عباس جماعات وقيل
جاثين على الركب لضيق المكان وقيل ان البارك على ركبتيه صورته كصورة الذليل ﴿فان قلت﴾ هذا
المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى وترى كل أمة جاثية ﴿قلت﴾ وصفوا بالجثو على العادة المعهودة في
مواقف المقالات والمناقلات وذلك لما فيه من القلق مما دهمهم من شدة الامور التي لا يطيقون معها القيام
على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوا (ثم لننزعن) أي لنخرجن (من كل شيعة) أي من كل أمة وأهل دين
من الكفار (أيهم أشد على الرحمن عتيا) قال ابن عباس يعني جرأة وقيل فجورا وتمردا وقيل قائدهم ورئيسهم
في الشرك والمعنى أنه يقدم في ادخال النار الأعتى فالأعتى ممن هو أكبر جرما وأشد كفرا وفي بعض الاخبار
انهم يحضرون جميعا حول جهنم مسلسلين مغلولين ثم يقدم الأكفر فالأكفر فمن كان أشدهم تمردا في
كفره خص بعذاب أعظم وأشد لان عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب الضال التابع لغيره
في الضلال وفائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب فلذلك قال في جميعهم
(ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) ولا يقال أولى الا مع اشتراك القوم في العذاب وقيل معنى الآية
انهم أحق بدخول النار قوله عز وجل (وان منكم الا واردها) أي وما منكم الا واردها وقيل القسم
فيه مضمر أي والله ما منكم من أحد الا واردها والورود هو موافاة المكان واختلفوا في معنى الورود ههنا
وفيما تنصرف اليه الكناية في قوله واردها فقال ابن عباس والاكثرون معنى الورود ههنا الدخول والكناية
راجعة الى النار فيدخلها البر والفاجر ثم ينجي الله الذين اتقوا منها يدل عليه ما روي أن نافع بن الازرق
سأل ابن عباس في الورود فقال ابن عباس هو الدخول فقال نافع ليس الورود الدخول فقرأ ابن عباس
انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع والله أنا وأنت
سنردها وأنا أرجو أن يخرجني الله منها وما أرى الله أن يخرجك منها بتكذيبك فمن قال بدخول المؤمنين
النار يقول من غير خوف ولا ضرر ولا عذاب البتة بل مع الغبطة والسرور لان الله تعالى أخبر

عنهم انهم لا يحزنهم الفزع الاكبر * فان قلت كيف يدفع عن المؤمنين حر النار وعذابها * قلت يحتمل ان الله يخمد النار فتعبرها المؤمنون ويحتمل أن الله تعالى يجعل الاجزاء الملاصقة لأبدان الكفار من النار محرقة والاجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين تكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت فى حق ابراهيم عليه السلام وكما أن الملائكة الموكلين بها لا يجدون ألمها ﴿فان قلت﴾ اذا لم يكن على المؤمنين عذاب فما فائدة دخولهم النار ﴿قلت﴾ فيه وجوه أحدها ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منه وثانيها ان فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها وهم باقون فيها وثالثها انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب الذى على الكفار صار ذلك سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة وقال قوم ليس المراد من الورود الدخول وقالوا لا يدخل النار مؤمن أبدا لقوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها فعلى هذا يكون المراد من الورود الحضور والرؤية لا الدخول كما قال تعالى ولما ورد ماء مدين أراد به الحضور وقال عكرمة الآية فى الكفار فانهم يدخلونها ولا يخرجون منها وروى عن ابن مسعود أنه قال وان منكم الا واردها يعنى القيامة والكناية راجعة اليها والقول الأول أصح وعليه أهل السنة فانهم جميعا يدخلون النار ثم يخرج الله منها أهل الايمان بدليل قوله تعالى ثم ننجى الذين اتقوا أى الشرك وهم المؤمنون والنجاة انما تكون مما دخلت فيه يدل عليه ما روى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت لأحد من المؤمنين ثلاثة من الولد فتمسه النار الا تحلة القسم وفى رواية فيلج النار الا تحلة القسم أخرجاه فى الصحيحين أراد بالقسم قوله تعالى وان منكم الا واردها (م) عن أم مبشر الانصارية أنها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة لا يدخل النار ان شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها قالت بلى يا رسول الله فانتهرها فقالت حفصة وان منكم الا واردها فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد قال الله تعالى ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا وقال خالد بن معدان يقول أهل الجنة ألم يعد ربنا أن نرد النار فيقال بلى ولكنكم مررتم بها وهى خامدة وفى الحديث تقول النار للمؤمن جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى وروى عن مجاهد فى قوله تعالى وان منكم الا واردها قال من حم من المسلمين فقد وردها وفى الخبر الحمى كير من جهنم وهى حظ المؤمن من النار (ق) عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء قوله فيح جهنم أى وهجها وحرها وقوله تعالى (كان على ربك حتما مقضيا) أى كان ورودهم قضاء لازما قضاه الله تعالى عليكم وأوجبه (ثم ننجى الذين اتقوا) أى الشرك (ونذر الظالمين فيها جثيا) أى جميعا وقيل جاثين على الركب قالت المعتزلة فى الآية دليل على صحة مذهبهم فى أن صاحب الكبيرة والفاسق يخلد فى النار بدليل أن الله بين ان الكل يردونها ثم بين صفة من ينجو منها وهم المتقون والفاسق لا يكون متقيا فيبقى فى النار أبدا وأجيب عنه بأن المتقى هو الذى يتقى الشرك بقوله لا اله الا الله ويشهد لصحة ذلك أن من آمن بالله ورسوله صح ان يقال انه متق من الشرك ومن صدق عليه انه متق من الشرك صح انه متق لان المتقى جزء من المتقى من الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد فثبت أن صاحب الكبيرة متق واذا ثبت ذلك وجب أن يخرج من النار بعموم قوله تعالى ثم ننجى الذين اتقوا فصارت الآية التى توهموها دليلا لهم من أقوى الدلائل على فساد قولهم وهذا من حيث البحث وأما من حيث النص فقد وردت أحاديث تدل على اخراج المؤمن الموحد من النار (خ) عن أنس ابن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير وفى رواية من ايمان (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تمارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا يا رسول الله قال هل تمارون فى الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا يا رسول الله قال فانكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول الله من كان يعبد شيأ فليتبعه فمنهم من يتبع الشمس ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع

(كان على ربك حتما مقضيا) أى كان ورودهم واجبا كائنا محتوما والحتم مصدر حتم الامر اذا أوجبه فسمى به الموجب كقولهم ضرب الامير (ثم ننجى) وعلى بالتخفيف (الذين اتقوا) عن الشرك وهم المؤمنون (ونذر الظالمين فيها جثيا) فيه دليل على دخول الكل لانه قال ونذر ولم يقل وندخل والمذهب أن صاحب الكبيرة قد يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو لا محالة وقالت المرجئة الخبيثة لا يعاقب لان المعصية لا تضر مع الاسلام عندهم وقالت المعتزلة يخلد

الطواغيت وتبقى هذه الامة فيها منافقوها فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا
فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهرانى
جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ الا الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم
وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم قال فانها مثل شوك السعدان غير
انه لا يعلم قدر عظمها الا الله تعالى تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو
حتى اذا اراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم
ويعرفونهم بآثار السجود وحرم الله على النار أن تأكل أعضاء السجود فيخرجون من النار وقد امتحشوا
فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ثم يفرغ من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين
الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار فيقول يارب اصرف وجهى عن
النار فقد قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها فيقول هل عسيت ان أفعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك فيقول
لا وعزتك فيعطى الله ماشاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار فاذا أقبل به على الجنة رأى نكهتها
وبهجتها سكت ماشاء الله تعالى أن يسكت ثم يقول يارب قدمنى عند باب الجنة فيقول الله أليس قد أعطيت
المواثيق والعهود أن لا تسأل غير الذى كنت سألت فيقول يارب لا أكون أشقى خلقك فيقول فما عسيت
ان أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره فيقول وعزتك لا أسأل غير ذلك فيعطى ربه ماشاء من عهد وميثاق
فيقدمه الى باب الجنة فاذا بلغ بابها رأى زهرتها ومافيها من النضرة والسرور فيسكت ماشاء الله أن يسكت
فيقول يارب أدخلنى الجنة فيقول الله تبارك وتعالى ويحك يا ابن آدم ما أغدرك أليس قد أعطيت العهد
والميثاق أن لا تسأل غير الذى أعطيت فيقول يارب لا تجعلنى أشقى خلقك فيضحك الله عز وجل منه ثم
يؤذن له فى دخول الجنة فيقول له تمن فيتمنى حتى اذا انقطعت أمنيته قال الله تمن كذا وكذا أقبل يذكره ربه
حتى اذا انتهت به الأمانى قال الله لك ذلك ومثله معه قال أبو سعيد الخدرى لأبى هريرة وعشرة أمثاله قال
أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم الا قوله لك ذلك ومثله معه قال أبو سعيد رضى الله تعالى
عنه سمعته يقول لك ذلك وعشرة أمثاله وفى رواية للبخارى قال فيأتيهم الله فى غير الصورة التى يعرفونها
فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا أتانا عرفناه فيأتيهم الله فى الصورة
التى يعرفونها فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه * قلت أما ما يتعلق بمعانى الحديث والكلام على
الرؤية فسيأتى فى تفسير سورة ن والقيامة ونتكلم ههنا على شرح غريب ألفاظه **قوله** مثل شوك
السعدان هو نبت ذو شوك معقف وهو من أجود مراعى الابل وقوله فمنهم من يوبق بعمله يقال أو بقته
الذنوب أى أهلكته والمخردل المرمى المصروع وقيل هو المقطع والمعنى انه تقطعه كلاليب الصراط حتى يقع
فى النار **قوله** وقد امتحشوا أى احترقوا وقيل هو أن تذهب النار الجلد وتبدى العظم **قوله** كما تنبت
الحبة فى حميل السيل الحبة بكسر الحاء وهى البزورات جميعا وحميل السيل هو الزبد وما يلقيه الماء على
شاطئه **قوله** قشبنى ريحها أى آذنى والقشب السم فكأنه قال قد سمنى ريحها **قوله** وأحرقنى ذكاؤها أى
اشتعالها ولهبها **قوله** رأى زهرتها الزهرة الحسن والنضارة والبهجة (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم انى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها وآخر أهل الجنة دخولا الجنة رجل يخرج من
النار حبوا فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل اليه أنها ملأى فيرجع فيقول يارب وجدتها
ملأى فيقول الله تعالى له اذهب فادخل الجنة قال فيأتيها فيخيل اليه أنها ملأى فيرجع فيقول يارب وجدتها
ملأى فيقول الله تعالى اذهب فادخل الجنة فان لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو ان لك مثل عشرة
أمثال الدنيا فيقول أتسخر بى وأنت الملك فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت
نواجذه فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة **قوله** حتى بدت نواجذه أى أضراسه وأنيابه وقيل هى آخر
الاسنان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب ناس من أهل التوحيد فى النار حتى يكونوا

(واذا تتلى عليهم آياتنا) أى القرآن (بينات) ظاهرات الاعجاز أو حججا وبراهين حال مؤكدة كقوله وهو الحق مصدقا اذ آيات الله لا تكون الا واضحة وحججا (قال الذين كفروا) أى مشركو قريش وقد رجلوا شعورهم وتكلفوا فى زيهم (للذين آمنوا) للفقراء ورؤسهم شعثة وثيابهم خشنة (أى الفريقين) نحن أم أنتم (خير مقاما) بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان والمسكن وبالضم مكى وهو موضع الاقامة والمنزل (وأحسن نديا) مجلسا يجتمع القوم فيه للمشاورة ومعنى الآية ان الله تعالى يقول اذا أنزلنا آية فيها دلائل وبراهين أعرضوا عن التدبر فيها الى الافتخار بالثروة والمال وحسن المنزل والحال فقال تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) فكم مفعول أهلكنا ومن تبيين لابهامها أى كثيرا من القرون أهلكنا وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم (هم أحسن) فى محل النصب صفة لكم الا ترى انك لو تركت هم كان أحسن نصبا على الوصفية (أثاثا) هو متاع البيت أو ما جد من الفرش (ورئيا) منظرا وهيئة فعل بمعنى مفعول من رأيت وريا بغير همز مشددا نافع وابن عامر على قلب الهمزة ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم الادغام أو من الرى الذى هو النعمة (قل من كان فى الضلالة) الكفر (فليمدد له الرحمن مدا) جواب من لانها شرطية وهذا الامر بمعنى الخبر أى من كفر مده الرحمن يعنى أمهله وأملى له ٢٣٠ فى العمر ليزداد طغيانا وضلالا كقوله تعالى انما نملى لهم ليزدادوا اثما وانما أخرج على لفظ الامر ايذانا بوجوب ذلك وانه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل ليقطع معاذير الضلال (حتى اذا رأوا ما يوعدون) هى متصلة بقوله خير مقاما وأحسن نديا وما بينهما اعتراض أى لا يزالون يقولون هذا القول الى أن يشاهدوا الموعود رأى عين (اما العذاب) فى الدنيا وهو تعذيب المسلمين اياهم بالقتل والاسر (واما الساعة) أى القيامة وما ينالهم من الخزى والنكال فهما بدلان مما يوعدون (فسيعلمون من هو شر مكانا) منزلا (وأضعف جندا) أعوانا وأنصارا أى فحينئذ يعلمون ان الامر على عكس ما قدروه وانهم شر مكانا وأضعف جندا لا خير مقاما وأحسن نديا وان المؤمنين على خلاف صفتهم وجاز أن تتصل بما يليها والمعنى ان الذين فى الضلالة ممدود لهم فى ضلالتهم لا ينفكون عن ضلالتهم الى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين أو يشاهدوا الساعة وحتى هى التى يحكى بعدها الجمل الا ترى ان الجملة الشرطية واقعة بعدها وهى قوله اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) معطوف على موضع فليمدد لوقوعه موضع الخبر تقديره من كان فى الضلالة مد أو يمد له الرحمن ويزيد أى يزيد فى ضلال الضلال بخذلانه ويزيد المهتدين أى المؤمنين هدى ثباتا على الاهتداء أو يقينا وبصيرة بتوفيقه (والباقيات الصالحات) أعمال الآخرة كلها أو الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (خير عند ربك ثوابا) مما يفتخر به الكفار (وخير مردا) أى مرجعا وعاقبة تهكم بالكفار لانهم قالوا للمؤمنين أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا) وبضم الواو وسكون اللام فى أربعة مواضع ههنا وفى الزخرف ونوح حمزة وعلى جمع ولد كأسد فى أسد أو بمعنى الولد كالعرب فى العرب ولما كانت رؤية الاشياء طريقا الى العلم بها وصحة الخبر عنها استعملوا أرأيت فى معنى أخبر والفاء أفادت التعقيب كأنه قال اخبر أيضا بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقيب حديث أولئك وقوله لأوتين جواب قسم مضمر (أطلع الغيب) من قولهم اطلع الجبل

حمائم تدركهم الرحمة قال فيخرجون فيطرحون على أبواب الجنة قال فيرش عليهم أهل الجنة من الماء فينبتون كما تنبت الحبة فى حمالة السيل أخرجه الترمذى الحمم الفحم والحمالة كل ما جاء به السيل فدلت الآية الاولى على ان الكل دخلوا النار ودلت الآية الثانية والاحاديث ان الله تعالى أخرج منها المتقين وجميع الموحدين وترك فيها الظالمين وهم المشركون قوله تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) أى دلائل واضحات (قال الذين كفروا) يعنى النضر بن الحرث ومن دونه من كفار قريش (للذين آمنوا) يعنى فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت فيهم قشافة وفى عيشهم خشونة وفى ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤسهم ويلبسون أفخر ثيابهم (أى الفريقين خير مقاما) أى منزلا ومسكنا وهو موضع الاقامة (وأحسن نديا) أى مجلسا فأجابهم الله تعالى بقوله (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا) أى متاعا وأموالا وقيل أحسن ثيابا ولباسا (ورئيا) أى منظرا من الرؤية (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) هذا أمر بمعنى الخبر معناه يدعه فى طغيانه ويمهله فى كفره (حتى اذا رأوا ما يوعدون اما العذاب) أى الاسر والقتل فى الدنيا (واما الساعة) يعنى القيامة فيدخلون النار (فسيعلمون) أى عند ذلك (من هو شر مكانا) أى منزلا (وأضعف جندا) أى أقل ناصرا والمعنى فسيعلمون أهم خير وهم فى النار أم المؤمنون وهم فى الجنة وهذا رد عليهم فى قولهم أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا قوله عز وجل (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) أى ايمانا وايقانا على يقينهم (والباقيات الصالحات) أى الاذكار والاعمال الصالحة التى تبقى لصاحبها (خير عند ربك ثوابا وخير مردا) أى عاقبة ومرجعا قوله تعالى (أفرأيت الذى كفر بآياتنا) الآية (ق) عن خباب بن الارت قال كنت رجلا قينا فى الجاهلية وكان لى على العاص بن وائل السهمى دين فأتيته أتقاضاه وفى رواية فعملت للعاص بن وائل السهمى سيفا فجئته أتقاضاه فقال لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث قال وانى لميت ثم مبعوث قلت بلى قال دعنى حتى أموت وأبعث فسأوتى مالا وولدا فأقضيك فنزلت أفرأيت الذى كفر بآياتنا (وقال لأوتين مالا وولدا) الى قوله فردا القين الحداد فرد الله عليه بقوله (أطلع الغيب) قال ابن عباس معناه أنظر فى اللوح المحفوظ

اذا ارتقى الى أعلاه الهمزة للاستفهام وهمزة الوصل محذوفة أى أنظر فى اللوح المحفوظ فرأى منيته (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) موثقا أن يؤتيه ذلك أو العهد كلمة الشهادة وعن الحسن نزلت فى الوليد بن المغيرة والمشهور أنها فى العاص بن وائل فقد روى أن خباب بن الارت صاغ للعاص بن وائل حليا فاقتضاه الاجر فقال انكم تزعمون انكم تبعثون وان فى الجنة ذهبا وفضة فانا أقضيك ثم فانى أوتى مالا وولدا حينئذ (كلا) ردع وتنبيه على الخطا وهو مخطئ فيما تصوره لنفسه فليرتدع عنه (سنكتب ما يقول) أى قوله والمراد سنظهر له ونعلمه انا كتبنا قوله لانه كما قال كتب من غير تأخير قال الله تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وهو كقوله * اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة * أى علم وتبين بالانتساب أنى لست بابن لئيمة (ونمد له من العذاب) نزيده من العذاب كما يزيد فى الافتراء والاجتراء من المدد يقال مده وأمده بمعنى (مدا) أكد بالمصدر لفرط غضبه تعالى (ونرثه ما يقول) أى نزوى عنه ما زعم أنه يناله فى الآخرة والمعنى مسمى ما يقول وهو المال والولد (ويأتينا فردا) حال أى بلا مال ولا ولد كقوله ولقد جئتمونا فرادى فما يجدى عليه تمنيه وتأليه (واتخذوا من دون الله آلهة) أى اتخذ هؤلاء المشركون أصناما يعبدونها (ليكونوا لهم عزا) أى ليعتزوا بآلهتهم ويكونوا لهم شفعاء وأنصارا ينقذونهم من العذاب (كلا) ردع لهم عما ظنوا (سيكفرون بعبادتهم) الضمير للآلهة أى سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون أو للمشركين أى ينكرون أن يكونوا قد عبدوها كقوله والله ربنا ما كنا مشركين (ويكونون) أى المعبودون (عليهم) على المشركين (ضدا) خصما لان الله تعالى ينطقهم فتقول يارب عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك والضد يقع على الواحد والجمع وهو فى مقابلة لهم عزا والمراد ضد العز وهو الذل والهوان أى يكونون عليهم ضدا لما قصدوه أى يكونون عليهم لا لهم عزا وان رجع الضمير فى سيكفرون ويكونون الى المشركين فالمعنى ويكونون عليهم أى أعداؤهم ضدا أى كفرة بهم بعد أن كانوا يعبدونها ثم تعجب نبيه عليه السلام بقوله (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) أى خليناهم واياهم من أرسلت البعير أطلقته أو سلطناهم عليهم بالاغواء (تؤزهم أزا) تغريهم على المعاصى اغراء والازو الهز أخوان ومعناهما التهييج وشدة الازعاج (فلا تعجل عليهم) بالعذاب (انما نعد لهم عدا) أى أعمالهم للجزاء وأنفاسهم للفناء وقرأها ابن السماك عند المأمون فقال اذا كانت الانفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا) ركبانا على نوق رحالها ذهب وعلى نجائب سرجها ياقوت (ونسوق المجرمين) الكافرين سوق الانعام لانهم كانوا أضل من الانعام (الى جهنم وردا) عطاشا لان من يرد الماء لا يرده الا لعطش وحقيقة الورد المسير الى الماء فيسمى به الواردون فالوفد جمع وافد كركب والورد جمع وارد ونصب يوم بمضمر أى يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين

المحفوظ وقيل أعلم علم الغيب حتى يعلم أهو فى الجنة أم لا (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) يعنى قال لا اله الا الله محمد رسول الله وقيل يعنى عمل عملا صالحا قدمه وقيل عهد اليه أنه يدخله الجنة (كلا) رد عليه يعنى لم يفعل ذلك (سنكتب ما يقول) أى سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه به فى الآخرة وقيل يأمر الملائكة حتى يكتبوا ما يقول (ونمد له من العذاب مدا) أى نزيده عذابا فوق العذاب وقيل نطيل مدة عذابه (ونرثه ما يقول) معناه أى ما عنده من المال والولد باهلاكنا اياه وابطال ملكه وقيل يزول عنه ما عنده من مال وولد فيعود الارث الى من خلفه واذا سلب ذلك بقى فردا فذلك قوله (ويأتينا) يعنى يوم القيامة (فردا) بلا مال ولا ولد فلا يصح أن يبعث فى الآخرة بمال وولد قوله تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة) يعنى مشركى قريش اتخذوا الاصنام آلهة يعبدونها (ليكونوا لهم عزا) اى منعة يعنى يكونوا شفعاء يمنعونهم من العذاب (كلا) أى ليس الامر كما زعموا (سيكفرون بعبادتهم) يعنى تجحد الاصنام والآلهة التى كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرؤن منهم (ويكونون عليهم ضدا) أى أعوانا عليهم يكذبونهم ويلعنونهم وقيل أعداء لهم وكانوا أولياءهم فى الدنيا قوله عز وجل (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) أى سلطناهم عليهم (تؤزهم أزا) أى تزعجهم ازعاجا من الطاعة الى المعصية والمعنى تحثهم وتحرضهم على المعاصى تحريضا شديدا وفى الآية دليل على ان الله تعالى مدبر لجميع الكائنات (فلا تعجل عليهم) أى لا تعجل بطلب عقوبتهم (انما نعد لهم عدا) يعنى الليالى والايام والشهور والاعوام وقيل الانفاس التى يتنفسونها فى الدنيا الى الاجل الذى أجل لعذابهم قوله تعالى (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا) أى اذكر لهم يا محمد اليوم الذى يجتمع فيه من اتقى الله فى الدنيا بطاعته الى جنته وفدا أى جماعات قال ابن عباس ركبانا قال أبو هريرة على الابل وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالها من الذهب ونجائب سرجها يواقيت ان هموا بها سارت وان هموا بها طارت (ونسوق المجرمين) أى الكافرين (الى جهنم وردا) أى مشاة عطاشا قد تقطعت أعناقهم من العطش والورد جماعة يردون الماء ولا يرد أحد الا بعد العطش وقيل يساقون الى النار باهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق الى الماء (ق) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر معهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسى معهم حيث أمسوا قوله تقيل معهم حيث قالوا من القيلولة وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما انهم

ثالا يوصف أى اذكر يوم نحشر ذكر المتقون بأنهم يجمعون الى ربهم الذى غمرهم برحمته كما يفد الوفود على الملوك تبجيلا لهم والكافرون بأنهم يساقون الى النار كأنهم نعم عطاش يساقون الى الماء استخفافا بهم (لا يملكون الشفاعة) حال والواو ان جعل ضميرا فهو للعباد ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين لانهم على هذه القسمة ويجوز ان يكون علامة للجمع كالتى فى أكلونى البراغيث والفاعل من اتخذ لانه فى معنى الجمع ومحل من اتخذ رفع على البدل من واو يملكون أو على الفاعلية أو نصب على تقدير حذف المضاف أى الاشفاعة من اتخذ والمراد لا يملكون أن يشفع لهم (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) بان آمن فى الحديث من قال لا اله الا الله كان له عند الله عهد وعن ابن مسعود رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم ان يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انى أعهد اليك بأنى أشهد أن لا اله الا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك و رسولك وانك ان تكلنى الى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير وانى لا اثق الا برحمتك فاجعل لى عهدا توفينيه يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كان لهم عند الله عهد فيدخلون الجنة أو يكون من عهد الامير الى فلان بكذا اذا امره به أى لا يشفع الا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) أى النصارى واليهود ومن زعم أن الملائكة بنات الله (لقد جئتم شيأ ٢٣٢ ادا) خاطبهم بهذا الكلام بعد الغيبة وهو التفات أو أمر نبيه عليه السلام بان يقول لهم ذلك والادّ العجب أو العظيم المنكر والادة الشدة وأدنى الامر أثقلنى وعظم على ادا (تكاد السموات) تقرب وبالياء نافع وعلى (يتفطرن) وبالنون بصرى وشامى وحمزة وخلف وأبو بكر الانفطار من فطره اذا شقه والتفطر من فطره اذا شققه (منه) من عظم هذا القول (وتنشق الارض) تخسف وتنفصل أجزاؤها (وتخر الجبال) تسقط (هدا) كسرا أو قطعا أو هدما والهدة صوت الصاعقة من السماء وهو مصدر أى تهدهدا من سماع قولهم أو مفعول له أو حال أى مهدودة (أن دعوا) لان سموا وحله جر بدل من الهاء فى منه أو نصب مفعول له علل الخرور بالهد والهد بدعاء الولد للرحمن أو رفع فاعل هدا أى هدها دعاؤهم للرحمن ولدا (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) انبغى مطاوع بغى اذا طلب أى ما يتأتى له اتخاذ الولد وما ينطلب لو طلب مثلا لانه محال غير داخل تحت الصحة وهذا لان اتخاذ الولد لحاجة ومجانسة وهو منزه عنهما وفى اختصاص الرحمن وتكريره كرات بيان انه الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره لان أصول النعم وفروعها منه فلينكشف عن بصرك غطاؤه فانت وجميع ما عندك عطاؤه فمن أضاف اليه ولدا فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن (ان كل من) نكرة موصوفة صفتها (فى السموات والارض) وخبر كل (الا آت الرحمن) ووحد آتى وآتيه حملا على لفظ كل وهو اسم فاعل من أتى وهو مستقبل أى يأتيه (عبدا) حال أى خاضعا ذليلا منقادا والمعنى ما كل من فى السموات والارض من الملائكة والناس الا هو يأتى الله يوم القيامة مقرا بالعبودية والعبودية والنبوة تتنافيان حتى لو ملك الاب ابنه يعتق عليه ونسبة الجميع اليه نسبة العبد الى المولى فكيف يكون البعض ولدا والبعض عبدا وقرأ ابن مسعود آت الرحمن على أصله قبل الاضافة (لقد أحصاهم وعدهم عدا) أى حصرهم بعلمه وأحاط بهم (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) أى كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردا بلا مال ولا ولد أو بلا معين ولا ناصر (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا)

يتقون بوجوههم كل حدب وشوك أخرجه الترمذى قوله عز وجل (لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) يعنى لا اله الا الله وقيل لا يشفع الشافعون الا للمؤمنين وقيل لا يشفع الا من قال لا اله الا الله أى لا يشفع الا المؤمن (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) يعنى اليهود والنصارى ومن زعم ان الملائكة بنات الله من العرب (لقد جئتم شيأ ادا) قال ابن عباس منكرا وقيل معناه لقد قلتم قولا عظيما (تكاد السموات يتفطرن منه) من الانفطار وهو الشق (وتنشق الارض) أى تخسف بهم (وتخر الجبال هدا) أى تسقط وتنطبق عليهم (أن دعوا) أى من أجل أن جعلوا (للرحمن ولدا) فان قلت ما معنى انفطار السموات وانشقاق الارض وخرور الجبال ومن أين تؤثر هذه الكلمات فى هذه الجمادات قلت فيه وجهان أحدهما ان الله تعالى يقول كدت ان أفعل هذا بالسموات والارض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها لولا حلمى وأنى لا أعجل بالعقوبة الثانى ان يكون استعظاما للكلمة وتهويلا من فظاعتها وتصوير الأثرها فى الدين وهدمها لاركانه وقواعده قال ابن عباس فزعت السموات والارض والجبال وجميع الخلائق الا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولدا ثم نزه الله نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه فقال تعالى (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) أى ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به لان الولد لا بد أن يكون شبيها بالوالد ولا شبيه لله تعالى ولان اتخاذ الولد انما يكون لاغراض لا تصح فى الله تعالى من سرور به واستعانة وذكر جميل بعده وكل ذلك لا يليق بالله تعالى (ان كل من فى السموات والارض الا آت الرحمن عبدا) أى آتيه يوم القيامة عبدا ذليلا خاضعا والمعنى ان الخلائق كلهم عبيده (لقد أحصاهم وعدهم عدا) أى عد أنفاسهم وأيامهم وآثارهم فلا يخفى عليه شئ من أمورهم وكلهم تحت تدبيره وقهره وقدرته (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) أى وحيدا ليس معه من أحوال الدنيا شئ قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) أى محبة قيل يحبهم الله تعالى ويحببهم الى عباده المؤمنين (ق) عن أبى

هريرة

مودة في قلوب العباد قال الربيع يحبهم و يحببهم الى الناس وفي الحديث يعطى المؤمن مقة في قلوب الأبرار ومهابة في قلوب الفجار وعن قتادة وهرم ما أقبل العبد الى الله الا أقبل الله بقلوب العباد اليه وعن كعب ما يستقر لعبد ثناء في الأرض حتى يستقر له في السماء (فانما يسرناه) سهلنا القرآن (بلسانك) بلغتك حال (لتبشر به المتقين) المؤمنين (وتنذر به قوما لدا) شدادا في الخصومة بالباطل أي الذين يأخذون في كل لديد أي شق من المراء والجدال جمع الالد يريد به أهل مكة (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) تخويف لهم وانذار

هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا أحب الله سبحانه وتعالى عبدا دعا جبريل عليه السلام ان الله تعالى يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الارض وفي رواية لمسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى اذا أحب عبدا دعا جبريل فقال اني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الارض واذا أبغض الله عبدا دعا جبريل عليه السلام فيقول اني أبغض فلانا فابغضه فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء ان الله يبغض فلانا فأبغضوه ثم يوضع له البغضاء في الارض قال هرم بن حيان ما أقبل عبد بقلبه الى الله عز وجل الا أقبل الله بقلوب المؤمنين اليه حتى يرزقه مودتهم وقال كعب مكتوب في التوراة لا محبة لاحد في الارض حتى يكون ابتداؤها من الله عز وجل ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الارض وتصديق ذلك في القرآن سيجعل لهم الرحمن ودا قوله تعالى (فانما يسرناه) أي سهلنا القرآن (بلسانك) يا محمد (لتبشر به المتقين) يعني المؤمنين (وتنذر به) أي بالقرآن (قوما لدا) أي شدادا في الخصومة وقيل صما عن الحق وقيل الالد الظالم الذي لا يستقيم ولا يقبل الحق ويدعي الباطل (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) ختم الله تعالى هذه السورة بموعظة بليغة لانهم اذا علموا وأيقنوا انه لابد من زوال الدنيا بالموت خافوا ذلك وخافوا سوء العاقبة في الآخرة فكانوا الى الحذر من المعاصي أقرب ثم أكد ذلك فقال تعالى (هل تحس منهم) أي هل ترى وقيل هل تجد منهم أي من القرون (من أحد أو تسمع لهم ركزا) أي صوتا خفيا قال الحسن بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا اثر والله اعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة طه عليه السلام﴾

وهي مكية وهي مائة وأربعة وقيل خمس وثلاثون آية وألف وستمائة واحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفا عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطيت السورة التي فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة النافلة الزيادة وفقنا الله لفهم ذلك

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله عز وجل (طه) قيل هو قسم أقسم الله بطوله وهدايته وقيل هو من أسماء الله فالطاء افتتاح اسمه طاهر والهاء افتتاح اسمه هادي وقيل معناه يارجل والمراد به النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك يا انسان وقيل هو بالسريانية وقيل بالقبطية فعلى هذا يكون قد وافقت لغة العرب هذه اللغات في هذه الكلمة وقيل هو يا انسان بلغة عك وعك قبيلة من قبائل العرب وقيل معناه طأ الأرض بقدميك يريد به في التهجد وذلك لما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه وكان يصلي الليل كله فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمره ان يخفف على نفسه فقال تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى وقيل لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا ما أنزل عليك القرآن يا محمد الا لشقائك فنزلت (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) أي لتتعنى وتتعب (الا تذكرة لمن يخشى) أي لكن أنزلناه

(هل تحس منهم من أحد) أي هل تجد أو ترى أو تعلم والاحساس الادراك بالحاسة (أو تسمع لهم ركزا) صوتا خفيا ومنه الركاز أي لما أتاهم عذابنا لم يبق شخص يرى ولا صوت يسمع يعني هلكوا كلهم فكذا هؤلاء ان أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك فليهن عليك أمرهم والله أعلم

﴿سورة طه صلى الله عليه وسلم مكية وهي مائة وخمس وثلاثون آية كوفي﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طه) فخم الطاء لاستعلائها وأمال الهاء أبو عمرو وأمالهما حمزة وعلي وخلف وأبو بكر وفخمهما على الأصل غيرهم وما روى عن مجاهد والحسن والضحاك وعطاء وغيرهم ان معناه يارجل فان صح فظاهر والا فالحق ما هو المذكور في سورة البقرة (ما أنزلنا عليك القرآن) ان جعلت طه تعديدا لأسماء الحروف فهو ابتداء كلام وان جعلتها اسما للسورة احتملت أن تكون خبرا عنها وهي في موضع المبتدا والقرآن ظاهر أوقع موقع المضمر لانها قرآن وأن يكون جوابا لها وهي قسم (لتشقى) لتتعب لفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا أو بقيام الليل وانه روى أنه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل أبق على نفسك فان لها عليك حقا أي ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة (الا تذكرة) استثناء منقطع أي لكن [illegible] (لمن يخشى) لمن يخاف الله أو لمن تؤل أمره الى الخشية

(تنزيلا) بدل من تذكرة اذا جعل حالا ويجوز أن ينتصب بنزل مضمرا أو على المدح أو بيخشى مفعولا به أي أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله (ممن خلق الأرض والسموات) من يتعلق بتنزيلا صلة له (العلى) جمع العلياء تأنيث الاعلى ووصف السموات بالعلى دليل ظاهر على عظم قدرة خالقها (الرحمن) رفع على المدح أي هو الرحمن (على العرش) خبر مبتدا محذوف (استوى) استولى عن الزجاج ونبه بذكر العرش وهو أعظم المخلوقات على غيره وقيل لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على العرش أي ملك وان لم يقعد على السرير ألبتة وهذا كقولك يد فلان مبسوطة أي جواد وان لم يكن له يد رأسا والمذهب قول علي رضي الله عنه الاستواء غير مجهول والتكييف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة لأنه تعالى كان ولا مكان فهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان (له ما في السموات وما في الأرض) خبر ومبتدأ ومعطوف (وما بينهما) أي ذلك كله ملكه (وما تحت الثرى) ما تحت سبع الارضين أو هو الصخرة التي تحت الارض السابعة (وان تجهر بالقول) ترفع صوتك (فانه يعلم السر) ما أسررته الى غيرك (وأخفى) منه وهو ما أخطرته ببالك أو ما أسررته في نفسك وما ستسره فيها (الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) أي هو واحد بذاته وان افترقت عبارات صفاته رد لقولهم انك تدعو آلهة حين سمعوا أسماءه تعالى والحسنى تأنيث الأحسن (وهل) أي وقد (أتاك حديث موسى) خبره قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة بالصبر على المكاره ولينال الدرجة العليا كما نالها موسى (اذ رأى) ظرف لمضمر أي حين رأى (نارا) كان كيت وكيت أو مفعول به لاذكر روي أن موسى عليه السلام استأذن شعيبا في الخروج الى أمه وخرج بأهله فولد له ابن في الطريق في ليلة مظلمة مثلجة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فرأى عند ذلك نارا في زعمه وكان نورا (فقال لأهله امكثوا) أقيموا في مكانكم (اني آنست) أبصرت (نارا) والايناس رؤية شئ يؤنس به (لعلي آتيكم منها) بنى الامر على الرجاء لئلا يعد ما ليس بمستيقن الوفاء به (بقبس) نار مقتبس في رأس عود أو فتيلة (أو أجد على النار هدى) ذوي هدى أو قوما يهدونني الطريق ومعنى الاستعلاء في على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها (فلما أتاها) أي النار وجد نارا بيضاء تتوقد في شجرة خضراء من أسفلها الى

عظة لمن يخشى وانما خص من يخشى بالتذكرة لانهم هم المنتفعون بها (تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى) أي من الله الذي خلق الارض والسموات العلية الرفيعة التي لا يقدر على خلقها في عظمها وعلوها الا الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) تقدم الكلام عليه في سورة الاعراف مستوفى (له ما في السموات وما في الارض وما بينهما) يعني الهواء (وما تحت الثرى) أي انه مالك لجميع ما في الاربعة الاقسام والثرى هو التراب الندي وقيل معناه ما وراء الثرى من شئ وقال ابن عباس ان الارضين على ظهر الثور والثور على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في قصة لقمان والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى ولا يعلم ما تحت ذلك الثرى الا الله تعالى وذلك الثور فاتح فاه فاذا جعل الله البحار بحرا واحدا سالت في جوف ذلك الثور فاذا وقعت في جوفه يبست قوله تعالى (وان تجهر بالقول) أي تعلن به (فانه يعلم السر وأخفى) قال ابن عباس السر ما تسر في نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله في قلبك من بعد ولا تعلم أنك ستحدث به نفسك لانك لا تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا والله يعلم ما أسررت به اليوم وما تسر به غدا وعنه ان السر ما أسر به ابن آدم في نفسه وأخفى ما هو فاعله قبل أن يعلمه وقيل السر ما أسره الرجل الى غيره وأخفى من ذلك ما أسره في نفسه وقيل السر هو العمل الذي يسر من الناس وأخفى هو الوسوسة وقيل السر أن يعلم الله تعالى أسرار العباد وأخفى هو سره من عباده فلا يعلم أحد سره وقيل مقصود الآية زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة والترغيب في الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة فعلى هذا الوجه ينبغي أن يحمل السر والاخفاء على ما فيه ثواب أو عقاب فالسر هو الذي يسره المرء في نفسه من الأمور التي عزم عليها والاخفاء هو الذي لم يبلغ حد العزيمة ثم وحد نفسه فقال تعالى (الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى) تأنيث الأحسن والذي فضلت به أسماؤه في الحسن دون سائر الأسماء دلالتها على معنى التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن قوله عز وجل (وهل أتاك حديث موسى) أي وقد أتاك لما تقدم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قفاه بقصة موسى عليه الصلاة والسلام ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاسات الشدائد حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود (اذ رأى نارا) وذلك أن موسى استأذن شعيبا في الرجوع من مدين الى مصر ليزور والدته وأخاه فأذن له فخرج بأهله وماله وكانت أيام الشتاء فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل في شهرها لا يدري أليلا تضع أم نهارا فسار في البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير الى جانب الطور الغربي الأيمن وذلك في ليلة مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد لما أراد الله من كرامته فأخذ امرأته الطلق فأخذ زنده فجعل يقدح فلا يوري فأبصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور (فقال لأهله امكثوا) أي أقيموا (اني آنست نارا) أي أبصرت نارا (لعلي آتيكم منها بقبس) أي شعلة من نار في طرف عود (أو أجد على النار هدى) أي أجد عند النار من يدلني على الطريق (فلما أتاها) أي أتى النار رأى شجرة خضراء من أعلاها الى أسفلها أطافت بها نار بيضاء تتقد

أعلاها وكانت شجرة العناب أو العوسج ولم يجد عندها أحدا وروى انه كلما طلبها بعدت عنه فاذا تركها اقتربت منه فثم (نودي) موسى (ياموسى انى) بكسر الهمزة أى نودى فقيل ياموسى انى أولان النداء ضرب من القول فعومل معاملته وبالفتح مكى وأبو عمرو أى نودى بانى (أنا ربك) انا مبتدأ أوتأكيد أو فصل وكرر الضمير لتحقيق المعرفة واماطة الشبهة روى انه لما نودى ياموسى قال من المتكلم فقال الله عز وجل أنا ربك فعرف انه كلام الله عز وجل بانه سمعه من جميع جهاته الست وسمعه بجميع أعضائه (فاخلع نعليك) انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادى المقدس أولانها كانت من جلد حمار ميت غير مدبوغ أولان الحفوة تواضع لله ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين والقرآن يدل على ان ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها فخلعهما وألقاهما من وراء الوادى (انك بالواد المقدس) المطهر أو المبارك (طوى) حيث كان منون شامى وكوفى لانه اسم علم للوادى وهو بدل منه وغيرهم بغير تنوين بتأويل البقعة وقرأ أبو زيد بكسر الطاء بلا تنوين (وأنا اخترتك) اصطفيتك للنبوة وانا اخترناك حمزة (فاستمع لما يوحى) اليك الذى يوحى أو للوحى واللام يتعلق باستمع أو باخترتك (اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى) وحدنى وأطعنى (وأقم الصلوة لذكرى) لتذكرنى فيها لاشتمال الصلاة على الاذكار أولانى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها أولان أذكرك بالمدح والثناء أولذكرى خاصة لاتشوبه بذكر غيرى أو لتكون لى ذاكرا غير ناس أو لاوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة لقوله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها وذا يصح بتقدير حذف المضاف أى لذكر صلاتى وهذا دليل على انه لافريضة بعد التوحيد أعظم منها (ان الساعة آتية) لامحالة (أكاد) أريد عن الاخفش وقيل صلة (أخفيها) قيل هو من الاضداد أى أظهرها أو أسترها عن العباد فلا أقول هى آتية لارادتى اخفاءها ولولا مافى الاخبار باتيانها مع تعمية وقتها من الحكمة وهو انهم اذا لم يعلموا متى تقوم كانوا على وجل منها فى كل وقت لما أخبرت به (لتجزى) متعلق بآتيه (كل نفس بما تسعى) بسعيها من خير أوشر (فلا يصدنك عنها) فلا يصرفنك عن العمل للساعة أو عن اقامة الصلاة عن الايمان بالقيامة فالخطاب لموسى والمراد به أمته (من لايؤمن بها) لايصدق بها

كأنه ضوء ما يكون فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار قيل كانت الشجرة ثمرة خضراء وقيل كانت من العوسج وقيل كانت من العليق وقيل كانت شجرة من العناب روى ذلك عن ابن عباس وقال أهل التفسير لم يكن الذى رآه موسى نارا بل كان نورا ذكر بلفظ النار لان موسى عليه الصلاة والسلام حسبه نارا قال ابن عباس هو من نور الرب سبحانه وتعالى وقيل هى النار بعينها وهى احدى حجب الرب تبارك وتعالى يدل عليه ماروى عن أبى موسى الاشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال حجابه النار لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه ماانتهى اليه بصره من خلقه أخرجه مسلم قيل ان موسى أخذ شيأ من الحشيش اليابس وقصد الشجرة فكان كلما دنا نأت عنه واذا نأى دنت منه فوقف متحيرا وسمع تسبيح الملائكة وألقيت عليه السكينة فعند ذلك (نودى ياموسى انى أنا ربك) قال وهب نودى من الشجرة فقيل ياموسى فأجاب سريعا وما يدرى من دعاه فقال انى أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت فقال أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب اليك منك فعلم ان ذلك لاينبغى الا الله تعالى فأيقن به وقيل انه سمعه بكل أجزائه حتى ان كل جارحة منه كانت أذنا وقوله (فاخلع نعليك) كان السبب فيه ماروى عن ابن مسعود مرفوعا فى قوله فاخلع نعليك قال كانتا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ وانما أمر بخلعهما صيانة للوادى المقدس وقيل أمر بخلعهما ليباشر بقدميه تراب الارض المقدسة لتناله بركتها فانها قدست مرتين فخلعهما موسى فألقاهما من وراء الوادى (انك بالوادى المقدس) أى المطهر (طوى) اسم للوادى الذى حصل فيه وقيل طوى واد مستدير عميق مثل المطوى فى استدارته (وأنا اخترتك) اصطفيتك برسالاتى وبكلامى (فاستمع لما يوحى) فيه نهاية الهيبة والجلال له كأنه قال له لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له (اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى) ولا تعبد غيرى (وأقم الصلاة لذكرى) أى لتذكرنى فيها وقيل لذكرى خاصة لاتشوبه بذكر غيرى وقيل لاخلاص ذكرى وطلب وجهى ولا ترائى فيها ولا تقصد بها غرضا آخر وقيل معناه اذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها (ق) عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسى صلاة فليصل اذا ذكرها لا كفارة لها الا ذلك وتلا قتادة وأقم الصلاة لذكرى وفى رواية اذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها اذا ذكرها فان الله عز وجل يقول وأقم الصلاة لذكرى (ان الساعة آتية أكاد أخفيها) قال أكثر المفسرين معناه أكاد أخفيها من نفسى فكيف يعلمها مخلوق وكيف أظهرها لكم ذكر ذلك على عادة العرب اذا بالغوا فى الكتمان للشئ يقولون كتمت سرك فى نفسى أى أخفيته غاية الاخفاء والله تعالى لايخفى عليه شئ والمعنى فى اخفائها التهويل والتخويف لانهم اذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى فى اخفاء وقت الموت على الانسان لانه اذا عرف وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصى الى أن يقرب من ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصى بتعريف وقت الموت وانه اذا لم يعرف وقت موته لايزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصى أو يتوب منها فى كل وقت مخافة معاجلة الاجل قوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) أى بما تعمل من خير وشر (فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها) أى فلا يصرفنك

(واتبع هواه) فى مخالفة أمره (فتردى) فتهلك (وماتلك بيمينك ياموسى) ماميتدأ وتلك خبره وهى بمعنى هذه و بيمينك حال عمل فيها معنى الاشارة أى قارة أو مأخوذة بيمينك أو تلك موصول صلته بيمينك والسؤال للتنبيه لتقع المعجزة بها بعد التثبت أو للتوطين لئلا يهول انقلابها حية أو للايناس ورفع الهيبة للمكالمة (قال هى عصاى أتوكأ عليها) أعتمد عليها اذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة (وأهش بها على غنمى) أخبط ورق الشجر على غنمى لتأكل (ولى فيها) حفص (مآرب) جمع مأربة بالحركات الثلاث وهى الحاجة (أخرى) والقياس أخر وانما قال أخرى ردا الى الجماعة ٢٣٦ أو لنسق الآى وكذا الكبرى ولما ذكر بعضها شكرا أجمل الباقى حياء من التطويل أو ليسأل عنها الملك العلام فيزيد فى الاكرام والمآرب الاخر أنها كانت تماشيه وتحدثه وتحارب العدو والسباع وتصير رشاء فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا وتكونان شمعتين بالليل وتحمل زاده ويركزها فتثمر ثمرة يشتهيها ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام والزيادة على الجواب لتعداد النعم شكرا أو لانها جواب سؤال آخر لانه لما قال هى عصاى قيل له ما تصنع بها فاخذ يعدد منافعها (قال ألقها ياموسى) اطرح عصاك لتفزع مما تتكئ عليه فلا تسكن الا الينا وترى فيها كنه مافيها من المآرب فتعتمد علينا فى المطالب (فألقاها) فطرحها (فاذا هى حية تسعى) تمشى سريعا قيل انقلبت ثعبانا يبتلع الصخر والشجر فلما رآها تبتلع كل شئ خاف وانما وصف بالحية هنا وبالثعبان وهو العظيم من الحيات وبالجان وهو الدقيق فى غيرها لان الحية اسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير والكبير وجاز أن تنقلب حية صفراء دقيقة ثم يتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا فاريد بالجان أول حالها و بالثعبان مآلها أو لانها كانت فى عظم الثعبان وسرعة الجان وقيل كان بين لحييها أربعون ذراعا ولما (قال) له ربه (خذها ولا تخف) بلغ من ذهاب خوفه ان أدخل يده فى فمها وأخذ بلحييها (سنعيدها) سنردها (سيرتها الاولى) تأنيث الاول والسيرة الحالة التى يكون عليها الانسان غريزية كانت أو مكتسبة وهى فى الاصل فعلة من السير كالركبة من الركوب ثم استعملت بمعنى الحالة والطريقة وانتصبت على الظرف أى سنعيدها فى طريقتها الاولى أى فى حال ما كانت عصا والمعنى نردها عصا كما كانت وأرى ذلك موسى عند المخاطبة لئلا يفزع منها اذا انقلبت حية عند فرعون ثم نبه على آية أخرى فقال (واضمم يدك الى جناحك) الى جنبك تحت العضد وجناحا الانسان جنباه والاصل المستعار منه جناحا

تحت

عن الايمان بالساعة ومجيئها من لا يؤمن بها (واتبع هواه) أى مراده وخالف أمر الله (فتردى) أى فتهلك قوله عز وجل (وماتلك بيمينك ياموسى) سؤال تقرير والحكمة فيه تنبيهه وتوقيفه على انها عصا حتى اذا قلبها حية علم انها معجزة عظيمة (قال هى عصاى) قيل كان لها شعبتان وفى أسفلها سنان ولها محجن واسمها نبعة (أتوكأ عليها) أى أعتمد عليها اذا مشيت واذا عييت وعند الوثبة (وأهش بها على غنمى) أى أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم (ولى فيها مآرب أخرى) أى حاجة ومنافع أخرى وأراد بالمآرب ما كان يستعمل فيه العصا فى السفر فكان يحمل بها الزاد و يشد بها الحبل و يستقى بها الماء من البئر و يقتل بها الحيات ويحارب بها السباع و يستظل بها اذا قعد و روى عن ابن عباس ان موسى كان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه وتحدثه وكان يضرب بها الارض فيخرج له ما يأكل يومه و يركزها فيخرج الماء فاذا رفعها ذهب الماء وكان اذا اشتهى ثمرة ركزها فتصير غصن تلك الشجرة وتورق وتثمر واذا أراد الاستقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو حتى يستقى وكانت تضئ بالليل كالسراج واذا ظهر له عدو كانت تحارب وتناضل عنه (قال) الله تعالى (ألقها ياموسى) أى انبذها واطرحها قال وهب ظن موسى انه يقول ارفضها (فألقاها) أى فطرحها على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة (فاذا هى حية) صفراء من أعظم ما يكون من الحيات (تسعى) أى تمشى بسرعة على بطنها وقال فى موضع آخر كأنها جان وهى الحية الصغيرة الجسم الخفيفة وقال فى موضع آخر كأنها ثعبان وهو أكبر ما يكون من الحيات ووجه الجمع ان الحية اسم جامع للكبير والصغير والذكر والانثى فالجان عبارة عن ابتداء حالها فانها كانت حية على قدر العصا ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعبانا وهو انتهاء حالها وقيل انها كانت فى عظم الثعبان وسرعة الجان قال محمد بن اسحق نظر موسى فاذا العصا حية من أعظم ما يكون من الحيات وصارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقا وعرفا يهتز كالنيازك وعيناها يتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من الابل فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها و يسمع لأنيابها صريفا عظيما فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ثم نودى ياموسى أقبل وارجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف (قال خذها) أى بيمينك (ولا تخف) قيل كان خوفه لما عرف مالقى آدم من الحية وقيل لما قال له ربه لا تخف بلغ من طمأنينة نفسه وذهاب الخوف عنه ان أدخل يده فى فمها وأخذ بلحيها (سنعيدها سيرتها الاولى) أى الى هيئتها فنردها عصا كما كانت وقيل كان على موسى مدرعة صوف قد خلها بعود فلما قال الله تعالى له خذها لف طرف المدرعة على يده فأمره الله تعالى أن يكشف يده فكشفها وذكر بعضهم انه لما لف كم المدرعة على يده قال له ملك أرأيت لو أمر الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغنى عنك شيأ قال لا ولكنى ضعيف من ضعف خلقت قال فكشف عن يده ثم وضعها فى فم الحية فاذا هى عصا كما كانت و يده فى شعبتيها فى الموضع الذى كان يضعها اذا توكأ قال المفسرون أراد الله تعالى أن يرى موسى ما أعطاه من الآية التى لا يقدر عليها مخلوق ولئلا يفزع منها اذا ألقاها عند فرعون قوله تعالى (واضمم يدك الى جناحك) أى الى ابطك وقيل

الطائر سميا جناحين لانه يجنحهما أي يميلهما عند الطيران والمعنى ادخلها تحت عضدك (تخرج بيضاء) لها شعاع كشعاع الشمس يغشى البصر (من غير سوء) برص (آية أخرى) لنبوتك بيضاء وآية حالان معا ومن غير سوء صلة بيضاء كقولك ابيضت من غير سوء وجاز ان ينتصب آية بفعل محذوف يتعلق به الام (لنريك من آياتنا الكبرى) اى خذ هذه الآية أيضا بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى العظمى اونريك بهما الكبرى من آياتنا أو المعنى فعلنا ذلك لنريك من آياتنا الكبرى (اذهب الى فرعون انه طغى) جاوز حد العبودية الى دعوى الربوبية ولما أمره بالذهاب الى فرعون الطاغي وعرف انه كلف أمرا عظيما يحتاج الى صدر فسيح (قال رب اشرح لى صدري) وسعه ليحتمل الوحي والمشاق وردىء الاخلاق من فرعون وجنده (ويسر لى أمري) وسهل على ما أمرتني به من تبليغ الرسالة الى فرعون واشرح لى صدري آكد من اشرح صدري لانه تكرير للمعنى الواحد من طريق الاجمال والتفصيل لأنه يقول اشرح لى ويسر لى علم ان ثمة مشروحا وميسرا ثم رفع الابهام بذكر الصدر والامر (واحلل) افتح (عقدة من لساني) وكان في لسانه رتة للجمرة التى وضعها على لسانه في صباه وذلك ان موسى أخذ لحية فرعون واطمه لطمة شديدة في صغره فاراد قتله فقالت آسية أيها الملك انه صغير لا يعقل فجعلت في طشت نارا وفي طشت يواقيت ووضعتهما لدى موسى فقصد اليواقيت فامال الملك يده الى النار فرفع جمرة فوضعها على لسانه فاحترق لسانه فصار لكنة منها وروى أن يده احترقت واجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال الى أى رب تدعوني قال الى الذى أبرأ يدي وقد عجزت عنها ومن لساني صفة لعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لساني وهذا يشعر بانه لم تزل العقدة بكمالها وأكثرهم على ذهاب جميعها (يفقهوا قولي) عند تبليغ الرسالة (واجعل لى وزيرا) ظهيرا أعتمد عليه من الوزر الثقل لانه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنته أو من الوزر الملجأ لان الملك يعتصم برأيه ويلتجئ اليه في أموره أو معينا من الموازرة وهي المعاونة فوزيرا مفعول أول لاجعل والثاني (من أهلي) أولى وزيرا مفعولاه وقوله (هرون) عطف بيان لوزيرا وقوله (أخى) بدل أو عطف بيان آخر ووزيرا وهرون مفعولاه وقدم ثانيهما على أولهما اعتناء بأمر الوزارة (أشدد به أزري) قوبه ظهري وقيل الازر القوة (وأشركه في أمري) اجعله شريكي في النبوة والرسالة واشدد وأشركه على حكاية النفس شامي على الجواب والباقون على الدعاء والسؤال (كى نسبحك) نصلي لك وننزهك تسبيحا (كثيرا ونذكرك كثيرا) في الصلوات وخارجها (انك كنت بنا بصيرا) عالما بأحوالنا فأجابه الله تعالى حيث (قال قد أوتيت سؤلك ياموسى) أعطيت مسؤلك فالسؤل الطلبة فعل بمعنى مفعول كخبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول ... سؤلك بلاهمز أبو عمرو

تحت عضدك (تخرج بيضاء) اى نيرة مشرقة (من غير سوء) أي من غير عيب والسوء ههنا بمعنى البرص قال ابن عباس كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر (آية أخرى) أى دلالة أخرى على صدقك سوى العصا (لنريك من آياتنا الكبرى) قال ابن عباس كانت يد موسى أكبر آياته قوله عز وجل (اذهب الى فرعون انه طغى) أى جاوز الحد في العصيان والتمرد وانما خص فرعون بالذكر مع ان موسى كان مبعوثا الى الكل لانه ادعى الالهية وتكبر وكان متبوعا فكان ذكره الاولى قال وهب قال الله تعالى لموسى اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي وانك بعيني وسمعي وان معك يدي وبصري وانى ألبسك حلة من سلطاني تستكمل بها القوة في أمري بعثتك الى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وأمن مكري حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي وانى أقسم بعزتي لولا الحجة التي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان على وسقط من عيني فبلغه رسالاتي وادعه الى عبادتي وحذره نقمتي وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا فان ناصيته بيدي ولا يتنفس الا بعلمي قال فسكت موسى فجاءه ملك وقال له أجب ربك (قال) يعني موسى (رب اشرح لى صدري) أى وسعه للحق قال ابن عباس يريد حتى لا أخاف غيرك وذلك ان موسى كان يخاف فرعون خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده فكان يضيق بما كلف من مقاومة فرعون وحده فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه للحق حتى يعلم ان أحدا لا يقدر على مضرته الا باذن الله تعالى واذا علم ذلك لم يخف من فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده (ويسر لى أمري) اى سهل على ما أمرتني به من تبليغ الرسالة الى فرعون (واحلل عقدة من لساني) وذلك أن موسى كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لامرأته آسية ان هذا عدوي وأراد أن يقتله فقالت له آسية انه صبي لا يعقل وقيل ان أم موسى لما فطمته ردته الى فرعون فنشأ في حجره وحجر امرأته يربيانه واتخذاه ولدا فبينما هو يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب اذ رفعه فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير منه حتى هم بقتله فقالت آسية أيها الملك انه صبي لا يعقل جربه ان شئت فجاءت بطشتين في أحدهما جمر وفي الآخر جوهر فوضعهما بين يدي موسى فأراد أن يأخذ الجوهر فأخذ جبريل يد موسى فوضعها على الجمر فأخذ جمرة فوضعها في فيه فاحترق لسانه وصارت فيه عقدة (يفقهوا قولي) أى احلل العقدة كى يفهموا قولي (واجعل لى وزيرا من أهلي) أى معينا وظهيرا والوزير من يوازرك ويحتمل عنك بعض ثقل عملك ثم بين من هو فقال (هرون أخى) وكان هرون أكبر من موسى وأفصح لسانا وأجمل وأوسم وكان أبيض اللون وكان موسى آدم أقنى جعدا (أشدد به أزري) أى قو به ظهري (وأشركه في أمري) أى في أمر النبوة وتبليغ الرسالة (كى نسبحك كثيرا) أى نصلي لك كثيرا (ونذكرك كثيرا) أى نحمدك ونثنى عليك بما أوليتنا من جميل نعمك (انك كنت بنا بصيرا) أى خبيرا عليما (قال) الله تعالى (قد أوتيت سؤلك ياموسى) أى أعطيت جميع

(ولقد مننا) أنعمنا (عليك مرة) كرة (أخرى) قبل هذه ثم فسرها فقال (اذ أوحينا الى أمك ما يوحى) الهاما أو مناما حين ولدت وكان فرعون يقتل أمثالك واذ ظرف لمننا ثم فسر ما يوحى بقوله (أن اقذفيه) ألقيه (فى التابوت) وان مفسرة لان الوحى بمعنى القول (فاقذفيه فى اليم) النيل (فليلقه اليم بالساحل) الجانب وسمى ساحلا لان الماء يسحله أى يقشره والصيغة أمر ليناسب ما تقدم ومعناه الاخبار أى يلقيه اليم بالساحل (يأخذه عدو لى وعدو له) يعنى فرعون والضمائر كلها راجعة الى موسى ورجوع بعضها اليه وبعضها الى التابوت يفضى الى تنافر النظم والمقذوف فى البحر والملقى الى الساحل وان كان هو التابوت لكن موسى فى جوف التابوت روى أنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا فوضعته فيه وقيرته ثم ألقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر كبير فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية اذا بالتابوت فأمر به فأخرج ففتح فاذا بصبى أصبح الناس وجها فأحبه فرعون حبا شديدا فذلك قوله (وألقيت عليك محبة منى) يتعلق منى بألقيت يعنى انى أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب فما رآه أحد الا أحبه قال قتادة كان فى عينى موسى ملاحة ما رآه أحد الا أحبه (ولتصنع) معطوف على محذوف تقديره وألقيت عليك محبة لتحب ولتصنع (على عينى) أى لتربى بمرأى منى وأصله من صنع الفرس أى أحسن القيام عليه يعنى أنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشئ بعينه اذا اعتنى به ولتصنع بسكون اللام والجزم يزيد على أنه أمر منه (اذ تمشى) بدل من اذ أوحينا لان مشى أخته كان منة عليه (أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله) روى ان أخته مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثدى امرأة فقالت هل أدلكم على من يضمه الى نفسه فيربيه وأرادت بذلك المرضعة الام وتذكير الفعل للفظ من فقالوا نعم فجاءت بالام فقبل ثديها وذلك قوله (فرجعناك) فرددناك (الى أمك) كما وعدناها بقولنا انا رادوه اليك (كى تقر عينها) بلقائك (ولا تحزن) على فراقك (وقتلت نفسا) قبطيا كافرا (فنجيناك من الغم) من القود وقيل الغم القتل بلغة قريش وقيل اغتم بسبب القتل خوفا من عقاب الله تعالى ومن اقتصاص فرعون فغفر الله له باستغفاره قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى ونجاه من فرعون بان ذهب به من مصر الى مدين (وفتناك فتونا) ابتليناك ابتلاء بايقاعك فى المحن وتخليصك منها والفتون مصدر كالقعود أو جمع فتنة أى فتناك ضروبا من الفتن والفتنة المحنة وكل ما يبتلى الله به عباده فتنة ونبلوكم بالشر والخير فتنة (فلبثت سنين فى أهل مدين) هى بلدة شعيب عليه السلام على ثمان مراحل من مصر قال وهب لبث عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة عشر منها مهر لصفوراء وأقام عنده ثمانى عشرة سنة بعدها حتى ولد له أولاد (ثم جئت على قدر يا موسى) أى موعد ومقدار للرسالة وهو أربعون سنة (واصطنعتك لنفسى) اخترتك واصطفيتك لوحيى ورسالتى لتتصرف على ارادتى ومحبتى قال الزجاج اخترتك لامرى وجعلتك القائم بحجتى والمخاطب بينى وبين خلقى كانى أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم

ما سألته (ولقد مننا عليك مرة أخرى) أى قبل هذه المرة ثم بين تلك المنة بقوله تعالى (اذ أوحينا الى أمك ما يوحى) أى ما يلهم ثم فسر ذلك الالهام وعدد نعمه عليه فقال (أن اقذفيه فى التابوت) أى ألهمناها أن اجعليه فى التابوت (فاقذفيه فى اليم) يعنى نهر النيل (فليلقه اليم بالساحل) يعنى شاطئ البحر (يأخذه عدو لى وعدو له) يعنى فرعون فاتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا ووضعت فيه موسى وقيرت رأسه وشقوقه ثم ألقته فى النيل وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون فبينما فرعون جالس على البركة مع امرأته آسية اذا هو بتابوت يجىء به الماء فأمر الغلمان والجوارى باخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبى من أصبح الناس وجها فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك نفسه وعقله فذلك قوله تعالى (وألقيت عليك محبة منى) قال ابن عباس أحبه وحببه الى خلقه قيل ما رآه أحد الا أحبه لملاحة كانت فى عينى موسى (ولتصنع على عينى) لتربى ويحسن اليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشئ بعينه اذا اعتنى به ونظر اليه (اذ تمشى أختك) واسمها مريم متعرفة خبره (فتقول هل أدلكم على من يكفله) أى على امرأة ترضعه وتضمه اليها وذلك انه كان لا يقبل ثدى امرأة فلما قالت لهم أخته ذلك قالوا نعم فجاءت بالام فقبل ثديها فذلك قوله تعالى (فرجعناك الى أمك كى تقر عينها) أى بلقائك ورؤيتك (ولا تحزن) أى وليذهب عنها الحزن (وقتلت نفسا) قال ابن عباس كان قتل قبطيا كافرا قيل كان عمره اذ ذاك اثنتى عشرة سنة (فنجيناك من الغم) أى من غم القتل وكربه (وفتناك فتونا) قال ابن عباس اختبرناك اختبارا وقيل ابتليناك ابتلاء قال ابن عباس الفتون وقوعه فى محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى منها أولها ان أمه حملته فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الاطفال ثم القاؤه فى البحر فى التابوت ثم منعه من الرضاع الا من ثدى أمه ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطى وخروجه الى مدين خائفا (فلبثت) أى مكثت (سنين فى أهل مدين) هى بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر هرب اليها موسى قال وهب لبث موسى عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة عشر سنين منها يرعى الغنم مهر زوجته صفوراء ابنة شعيب وثمان عشرة سنة أقام عنده بعد ذلك حتى ولد له وخرج من مصر ابن اثنتى عشرة سنة هاربا (ثم جئت على قدر يا موسى) أى جئت على القدر الذى قدرت أن تجىء فيه قيل على رأس أربعين سنة وهو القدر الذى يوحى الى الانبياء فيه (واصطنعتك لنفسى) أى اخترتك واصطفيتك لوحيى ورسالتى لتتصرف على ارادتى ومحبتى وذلك أن

قيامه

(اذهب أنت وأخوك بآياتى) بمعجزاتى (ولا تنيا) تفترا من الونى وهو الفتور والتقصير (فى ذكرى) أى اتخذا ذكرى جناحا تطيران به أو أريد بالذكر تبليغ الرسالة فالذكر يقع على سائر العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها (اذهبا الى فرعون) كرر لأن الأول مطلق والثانى مقيد (انه طغى) جاوز الحد بادعائه الربوبية (فقولا له قولا لينا) لطفا له فى القول لماله من حق تربية موسى أو كنياه وهو من ذوى الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة أو عداه شبابا لا يهرم بعده وملكا لا ينزع عنه الا بالموت أو هو قوله هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى فظاهره الاستفهام والمشورة (لعله يتذكر) أى يتعظ و يتأمل فيذعن للحق ((أو يخشى) أى يخاف أن يكون الأمر كما تصفان فيجره انكاره الى الهلكة وانما قال لعله يتذكر مع علمه انه لا يتذكر لأن الترجى لهما أى اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يطمع أن يثمر عمله وجدوى ارسالهما اليه مع العلم بأنه لن يؤمن الزام الحجة وقطع المعذرة وقيل معناه لعله يتذكر متذكر أو يخشى خاش وقد كان ذلك من كثير من الناس وقيل لعل من الله تعالى واجب وقد تذكر ولكن حين لم ينفعه التذكر وقيل لم تذكر فرعون وخشى وأراد اتباع موسى فمنعه هامان وكان لا يقطع أمرا دونه وتليت عند يحيى بن معاذ فبكى وقال هذا رفقك بمن يقول أنا الاله فكيف بمن قال أنت الاله وهذا رفقك بمن قال أنا ربكم الأعلى فكيف بمن قال سبحان ربى الأعلى (قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا) يعجل علينا بالعقوبة ومنه الفارط يقال فرط عليه أى عجل (أو أن يطغى) يجاوز الحد فى الاساءة الينا (قال لا تخافا اننى معكما) أى حافظكما وناصركما (أسمع) أقوالكم (وأرى) أفعالكم قال ابن عباس رضى الله عنهما أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنع لست بغافل عنكما فلا تهتما (فأتياه) أى فرعون (فقولا انا رسولا ربك) اليك (فأرسل معنا بنى اسرائيل) أى اطلقهم عن الاستعباد والاسترقاق (ولا تعذبهم) بتكليف المشاق (قد جئناك بآية من ربك) بحجة على صدق ما ادعيناه وهذه الجملة جارية من الجملة الأولى وهى انا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير والتفصيل لأن دعوى الرسالة لا تثبت الا ببينتها وهى المجىء بالآى فقال فرعون وماهى فأخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس (والسلام على من اتبع الهدى) أى سلم من العذاب من أسلم وليس بتحية وقيل وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين (انا قد أوحى الينا أن العذاب) فى الدنيا والعقبى (على من كذب) بالرسل (وتولى) أعرض عن الايمان وهى أرجى آى القرآن لأنه جعل جنس السلام للمؤمن وجنس العذاب على المكذب وليس وراء الجنس شىء فأتياه وأديا

قيامه بأداء الرسالة تصرف على ارادة الله ومحبته وقيل معناه اخترتك لامرى وجعلتك القائم بحجتى والمخاطب بينى و بين خلقى كأنى الذى أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم (اذهب أنت وأخوك بآياتى) أى بدلائلى قال ابن عباس يعنى الآيات التسع التى بعث بها موسى عليه السلام (ولا تنيا) أى لا تضعفا وقيل لا تفترا ولا تقصرا (فى ذكرى) أى لا تقصرا فى ذكرى بالاحسان اليكما والانعام عليكما ومن ذكر النعمة شكرها (اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا) أى داريا وارفقا به قال ابن عباس لا تعنفا فى قولكما وقيل كنياه فقولا له يا أبا العباس وقيل يا أبا الوليد وقيل أراد بالقول اللين قوله هل لك الى أن تزكى الآية وقيل انما أمرهما باللطافة لماله من حق تربية موسى وقيل عداه على قبول الايمان شبابا لا يهرم وملكا لا ينزع منه الا بالموت وتبقى عليه لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته واذا مات دخل الجنة فلما أتاه موسى و وعده بذلك أعجبه وكان لا يقطع أمرا دون هامان وكان غائبا فلما قدم أخبره بالذى دعاه اليه موسى وقال أردت أن أقبل منه فقال له هامان كنت أرى أن لك عقلا و رأيا أنت رب تريد أن تكون مربوبا وأنت تعبد تريد أن تعبد فقال فرعون صواب ما قلت فغلبه على رأيه وكان هرون بمصر فأمر الله موسى أن يأتى هرون وأوحى الله الى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى فتلقاه الى مرحلة وأخبره بما أوحى اليه وقوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) أى يتعظ و يخاف فيسلم ﴿فان قلت﴾ كيف قال لعله يتذكر وقد سبق فى علمه انه لا يتذكر ولا يسلم ﴿قلت﴾ معناه اذهبا على رجائكما وطمعكما وقضاء الله وراء أمركما وقيل هو الزام الحجة وقطع المعذرة كقوله تعالى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك وقيل هو ينصرف الى غير فرعون مجازه لعله يتذكر متذكر و يخشى خاش اذا رأى برى و الطافى عن خلقته وأنعمت عليه ثم ادعى الربوبية وقيل لعل من الله واجب ولقد تذكر فرعون وخشى حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين ألجمه الغرق وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ الرازى فقولا له قولا لينا الآية فبكى يحيى وقال الهى هذا رفقك بمن يقول أنا الاله فكيف رفقك بمن يقول أنت الاله (قالا) يعنى موسى وهرون (ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا) قال ابن عباس يعجل علينا بالقتل والعقوبة (أو أن يطغى) أى يجاوز الحد فى الاساءة الينا (قال) الله تعالى (لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى) قال ابن عباس أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنع لست بغافل عنكما فلا تهتما (فأتياه فقولا انا رسولا ربك) أى أرسلنا اليك ربك (فأرسل معنا بنى اسرائيل) أى خل عنهم وأطلقهم من أعمالك (ولا تعذبهم) أى لا تتعبهم فى العمل وكان فرعون يستعملهم فى الاعمال الشاقة كالبناء وقطع الصخر ومع قتل الولدان وغير ذلك (قد جئناك بآية من ربك) قال فرعون وماهى فأخرج موسى يده لها شعاع كشعاع الشمس وقيل معناه قد جئناك بمعجزة و برهان يدل على صدقنا على ما ادعيناه من الرسالة (والسلام على من اتبع الهدى) ليس المراد منه سلام التحية بل انما معناه سلم من العذاب من أسلم (انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى) أى انما يعذب الله من كذب بما جئنا به

الرسالة وقالا انما أمرابه (قال فمن ربكما ياموسى) خاطبهما ثم نادى أحدهما لأن موسى هو الأصل فى النبوة وهرون تابعه (قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه) خلقه أول مفعولى أعطى أى أعطى خليقته كل شئ يحتاجون اليه و يرتفقون به أو ثانيهما أى أعطى كل شئ صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الابصار والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع وكذا الانف والرجل واليد كل واحد منها مطابق للمنفعة المنوطة بها وقرأ نصير خلقه صفة للمضاف أو للمضاف اليه أى أعطى كل شئ مخلوق عطاء (ثم هدى) عرف كيف يرتفق بما أعطى للمعيشة فى الدنيا والسعادة فى العقبى (قال فما بال القرون الأولى) فما حال الأمم الخالية والرمم البالية سأله عن حال من تقدم من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد (قال) موسى مجيبا (علمها عند ربى) مبتدأ وخبر (فى كتاب) أى اللوح خبر ثان أى هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه الا هو وما أنا الا عبد مثلك لا أعلم منه الا ما أخبرنى به علام الغيوب وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله فى اللوح المحفوظ (لا يضل ربى) أى لا يخطئ شيأ يقال ضللت الشئ اذا أخطأته فى مكانه فلم تهتد له أى لا يخطئ فى سعادة الناس وشقاوتهم (ولا ينسى) ثوابهم وعقابهم وقيل لا ينسى ما علم فيذكره الكتاب ولكن ليعلم الملائكة ان معمول الخلق يوافق معلومه (الذى) مرفوع صفة لربى أو خبر مبتدا محذوف أو منصوب على المدح (جعل لكم الأرض مهدا) كوفى وغيرهم مهادا وهما لغتان لما يبسط ويفرش (وسلك) أى جعل (لكم فيها سبلا) طرقا (وأنزل من السماء ماء) أى مطرا (فأخرجنا به) بالماء نقل الكلام من الغيبة الى لفظ المتكلم المطاع للافتنان وقيل تم كلام موسى ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله فأخرجنا به وقيل هذا كلام موسى أى فأخرجنا نحن بالحراثة والغرس (أزواجا) أصنافا (من نبات) هو مصدر سمى به النابت فاستوى فيه الواحد والجمع (شتى) صفة للازواج أو للنبات جمع شتيت كمريض ومرضى أى انها مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها للناس و بعضها للبهائم ومن نعمته تعالى ان أرزاقنا تحصل بعمل الأنعام وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتنا مما لا نقدر على أكله قائلين (كلوا وارعوا أنعامكم) حال من الضمير فى فأخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين فى الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها (ان فى ذلك) فى الذى ذكرت (لآيات) لدلالات (لأولى النهى) لذوى العقول واحدها نهية لأنها تنهى عن المحظور أو تنتهى اليها فى الأمور (منها) من الأرض (خلقناكم) أى أباكم آدم عليه السلام وقيل يعجن كل نطفة بشئ من تراب مدفنه فيخلق من التراب والنطفة معا أو لأن النطفة من الأغذية وهى من الأرض (وفيها نعيدكم) اذا متم فدفنتم (ومنها نخرجكم) عند البعث (تارة أخرى) مرة أخرى والمراد باخراجهم أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب و يردهم كما كانوا أحياء ويخرجهم الى المحشر عدد الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم حيث جعلها لهم فراشا ومهادا يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤا وأنبت فيها أصناف النبات التى منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم وهى أصلهم الذى منه تفرعوا وأمهم التى منها ولدوا وهى كفاتهم اذا ماتوا (ولقد أريناه) أى فرعون (آياتنا كلها) وهى تسع آيات العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل فكذب الآية (وأبى) قبول الحق

وأعرض عنه (قال) يعنى فرعون (فمن ربكما ياموسى) أى فمن الهكما الذى أرسلكما (قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) أى كل شئ يحتاجون اليه و يرتفقون به وقيل أعطى كل شئ صلاحه وهداه وقيل أعطى كل شئ صورته فخلق اليد للبطش والرجل للمشى واللسان للنطق والعين للنظر والاذن للسمع ثم هداه الى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح وقيل يعنى جعل زوجة الرجل المرأة والبعير الناقة والفرس الرمكة وهى الحجرة والحمار الاتان ثم هدى ألهمه كيف يأتى الذكر الانثى (قال) يعنى فرعون (فما بال القرون الاولى) أى فما حال القرون الماضية والامم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود فانها كانت تعبد الاوثان وتنكر البعث وانما قال فرعون ذلك لموسى حين خوفهم مصارع الامم الخالية فحينئذ قال فرعون فما بال القرون الاولى (قال) يعنى موسى (علمها عند ربى) أى أعمالهم محفوظة عند الله يجازى بها وقيل انما رد موسى علم ذلك الى الله تعالى لانه لم يعلم ذلك لان التوراة انما نزلت بعد هلاك فرعون وقومه (فى كتاب) يعنى اللوح المحفوظ (لا يضل ربى) أى لا يخطئ وقيل لا يغيب عنه شئ (ولا ينسى) أى فيتذكر وقيل لا ينسى ما كان من أعمالهم حتى يجازيهم بها (الذى جعل لكم الارض مهادا) أى فراشا وقيل مهدها لكم (وسلك لكم فيها سبلا) أى أدخل فى الارض لاجلكم طرقا وسهلها لكم لتسلكوها (وأنزل من السماء ماء) يعنى المطر ثم الاخبار عن موسى قال الله تعالى (فأخرجنا به) أى بذلك الماء (أزواجا) أى أصنافا (من نبات شتى) أى مختلف الالوان والطعوم والمنافع فمنها ما هو للناس ومنها ما هو للدواب (كلوا وارعوا أنعامكم) أى أخرجنا أصناف النبات للانتفاع بالاكل والرعى (ان فى ذلك) أى الذى ذكر (لآيات لاولى النهى) أى لذوى العقول قيل هم الذين ينتهون عما حرم الله عليهم (منها خلقناكم) أى من الارض خلقنا آدم وقيل ان الملك ينطلق فيأخذ من التراب الذى يدفن فيه فيذره فى النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة (وفيها نعيدكم) أى عند الموت والدفن (ومنها نخرجكم تارة أخرى) أى يوم القيامة للبعث والحساب قوله تعالى (ولقد أريناه) يعنى فرعون (آياتنا كلها) يعنى الآيات التسع التى أعطاها الله موسى (فكذب وأبى) يعنى فرعون و زعم انها سحر وأبى

(قال) فرعون (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) مصر (بسحرك ياموسى) فيه دليل على أنه خاف منه خوفا شديدا وقوله بسحرك تعلل ساحر يقدر أن يخرج ملكا من أرضه (فلنأتينك بسحر مثله) فلنعارضنك بسحر مثل سحرك (فاجعل بيننا وبينك موعدا) هو بمعنى الوعد ويقدر مضاف أي مكان موعد والضمير في (لانخلفه) للموعد قرأ يزيد بالجزم على جواب الامر وغيره بالرفع على الوصف لموعدا (نحن ولا أنت مكانا) هو بدل من المكان المحذوف ويجوز أن لايقدر مضاف ويكون المعنى اجعل بيننا وبينك وعدا لانخلفه وانتصب مكانا بالمصدر أو بفعل يدل عليه المصدر (سوى) بالكسر حجازي وأبو عمرو وعلي وغيرهم بالضم وهو نعت لمكانا أي منصفا بيننا وبينك وهو من الاستواء لان المسافة من الوسط الى الطرفين مستوية (قال موعدكم يوم الزينة) مبتدأ وخبر وهو يوم عيد كان لهم أو يوم النيروز أو يوم عاشوراء وانما استقام الجواب بالزمان وان كان السؤال عن المكان على تأويل الاول لان اجتماعهم يوم الزينة يكون في مكان لامحالة فبذكر الزمان علم المكان وعلى الثاني تقديره وعدكم وعد يوم الزينة (وأن يحشر الناس) أي تجمع في موضع رفع أو جر عطفا على يوم أو الزينة (ضحى) اي وقت الضحوة لتكون أبعد عن الريبة وأبين لكشف الحق وليشيع في جميع أهل الوبر والمدر (فتولى فرعون) أدبر عن موسى معرضا (فجمع كيده) مكره وسحرته وكانوا اثنين وسبعين أو أربعمائة أو سبعين ألفا (ثم أتى) للوعد (قال لهم موسى) أي للسحرة (ويلكم لاتفتروا على الله كذبا) لاتدعوا آياته ومعجزاته سحرا (فيسحتكم) كوفي ٢٤١ غير أبي بكر يهلككم وبفتح الياء والحاء غيرهم والسحت والاسحات بمعنى الاعدام وانتصب على جواب النهي (بعذاب) عظيم (وقد خاب من افترى) من كذب على الله (فتنازعوا) اختلفوا أي السحرة فقال بعضهم هو ساحر مثلنا وقال بعضهم ليس هذا بكلام السحرة أي لاتفتروا على الله كذبا الآية (أمرهم بينهم وأسروا النجوى) أي تشاوروا في السر وقالوا ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله أمر والنجوى يكون مصدرا واسما ثم لفقوا هذا الكلام يعني (قالوا ان هذان لساحران) يعني موسى وهرون قرأ أبو عمرو ان هذين لساحران وهو ظاهر ولكنه مخالف للامام وابن كثير وحفص والخليل وهو أعرف بالنحو واللغة ان هذان لساحران بتخفيف ان مثل قولك ان زيد لمنطلق واللام هي الفارقة بين ان النافية والمخففة من الثقيلة وقيل هي بمعنى ما واللام بمعنى الا أي ماهذان الا ساحران دليله قراءة أبي ان ذان الا ساحران وغيرهم ان هذان لساحران قيل هي لغة بلحارث بن كعب وخثعم ومراد وكنانة فالتثنية في لغتهم بالالف أبدا فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب كعصى وسعدى قال ان أباها وأبا أباها * قد بلغا في المجد غايتاها وقال الزجاج ان بمعنى نعم قال الشاعر

ويقلن شيب قد علا * ك وقد كبرت فقلت انه

أي نعم والهاء للوقف وهذان مبتدأ وساحران خبر مبتدأ محذوف واللام داخلة على المبتدأ المحذوف تقديره هذان لهما ساحران فيكون دخولها في موضعها الموضوع لها وهو الابتداء وقد يدخل اللام في الخبر كما يدخل في المبتدأ قال * خالي لأنت ومن جرير خاله * قال فعرضته على المبرد فرضيه وقد زيفه أبو علي (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) مصر (بسحرهما ويذهبا بطريقتكم) بدينكم وشريعتكم (المثلى) الفضلى تأنيث الامثل وهو الافضل (فأجمعوا) فاحكموا أي اجعلوه مجمعا عليه حتى لاتختلفوا فاجمعوا أبو عمرو ويعضده فجمع كيده (كيدكم) هو مايكاد به (ثم ائتوا صفا) مصطفين حال أمر بأن يأتوا صفا لانه أهيب في صدور الرائين

أن نسلم (قال) يعني فرعون (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) يعني مصر (بسحرك ياموسى) تريد أن تغلب على ديارنا فيكون لك الملك وتخرجنا منها (فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا) أي اضرب أجلا وميقاتا (لانخلفه) لانجاوزه (نحن ولا أنت مكانا سوى) أي مكانا عدلا وقال ابن عباس نصفا تستوي مسافة الفريقين اليه وقيل معناه سوى هذا المكان (قال) يعني موسى (موعدكم يوم الزينة) قيل كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة وقيل هو يوم النيروز وقال ابن عباس يوم عاشوراء (وأن يحشر الناس ضحى) أي وقت الضحوة نهارا جهارا ليكون أبعد من الريبة (فتولى فرعون فجمع) يعني فرعون (كيده) يعني مكره وسحره وحيله (ثم أتى) يوم الميعاد (قال لهم موسى) يعني للسحرة التي جمعهم فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل ساحر حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل كانوا اثنى عشر ألفا (ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب) أي فيهلككم ويستأصلكم (وقد خاب من افترى) أي خسر من ادعى مع الله إلها آخر وقيل معناه خسر من كذب على الله تعالى قوله تعالى (فتنازعوا أمرهم بينهم) أي تناظروا وتشاوروا يعني السحرة في أمر موسى سرا من فرعون وقالوا ان غلبنا موسى اتبعناه وقيل معناه لما قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا قال بعضهم لبعض ماهذا بقول ساحر (وأسروا النجوى) اي المناجاة (قالوا) قال بعضهم لبعض سرا (ان هذان لساحران) يعني موسى وهرون (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) يعني من مصر (بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) قال ابن عباس يعني بسراة قومكم وأشرافكم وقيل معناه يصرفان وجوه الناس عنكم وقيل أراد أهل طريقتكم المثلى وهم بنو اسرائيل يعني يريدان أن يذهبا بهم لانفسهما وقيل معناه يذهبا بسنتكم وبدينكم الذي أنتم عليه (فاجمعوا كيدكم) اي لاتدعوا شيأ من كيدكم الاجئتم به وقيل معناه اعزموا كلكم على كيده مجتمعين له ولا تختلفوا فيختل أمركم (ثم ائتوا صفا) أي جميعا مصطفين ليكون أشد لهيبتكم وقيل معناه ثم ائتوا المكان الموعود به

(وقد أفلح اليوم من استعلى) وقد فاز من غلب وهو اعتراض (قالوا) أى السحرة (ياموسى اما أن تلقى) عصاك أولا (واما أن نكون أول من ألقى) ما مع ما و موضع أن مع ما بعده فيهما نصب بفعل مضمر أو رفع بأنه خبر مبتدا محذوف معناه اختر أحد الامرين أو الامر القاؤك أو القاؤنا وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه وكأنه تعالى ألهمهم ذلك وقد وصلت اليهم بركته وعلم موسى اختيار القائهم أولا حتى (قال بل ألقوا) أنتم أولا ليبرز وا ما معهم من مكايد السحر ويظهر الله سلطانه ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ويسلط المعجزة على السحر فتمحقه فيصير آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين فألقوا (فاذا حبالهم وعصيهم) يقال فى اذا هذه اذا المفاجأة والتحقيق أنها اذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف اليها وخصت فى بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير والتقدير ففاجأ موسى وقت تخيل سعى حبالهم وعصيهم والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة اليه السعى (يخيل) وبالتاء ابن ذكوان (اليه) الى موسى (من سحرهم أنها تسعى) رفع بدل اشتمال من الضمير فى يخيل أى يخيل الملقى روى أنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيلت ذلك (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أضمر فى نفسه خوفا ظنا منه أنها تقصده للجبلة البشرية أو خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه (قلنا لا تخف انك أنت الاعلى) الغالب القاهر وفى ذكر ان وأنت وحرف التعريف ولفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة مبالغة بينة (وألق ما فى يمينك تلقف) بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف حفص وتلقف ابن ذكوان الباقون تلقف (ما صنعوا) زوروا وافتعلوا أى اطرح عصاك تبتلع عصيهم وحبالهم ولم يقل عصاك تعظيما لها أى لا تحتفل بما صنعوا فان ما فى يمينك أعظم منها أو تحقيرا أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الذى فى يمينك فانه بقدرتنا يتلقفها على وحدته وكثرتها (انما صنعوا كيد ساحر) كوفى غير عاصم سحر بمعنى ذى سحر أو ذوى سحر أو هم لتوغلهم فى السحر كأنهم السحر وكيد بالرفع على القراءتين وما موصولة أو مصدرية وانما وحد ساحر ولم يجمع لان القصد فى هذا الكلام الى معنى الجنسية لا الى معنى العدد فلو جمع تخيل أن المقصود هو العدد الاترى الى قوله (ولا يفلح الساحر) أى هذا الجنس (حيث أتى) أينما كان فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا فلعظم ما رأوا من الآية وقعوا الى السجود فذلك قوله (فألقى السحرة سجدا) قال الاخفش من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا فما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين روى أنهم رأوا الجنة ومنازلهم فيها فى السجود فرفعوا رؤسهم ثم (قالوا آمنا برب هرون وموسى) وانما قدم هرون هنا وأخر فى الشعراء محافظة للفاصلة ولان الواو لا توجب ترتيبا (قال آمنتم) بغير مد حفص وبهمزة ممدودة بصرى وشامى وحجازى بهمزتين غيرهم (له قبل أن آذن لكم) أى لموسى يقال آمن له وآمن به (انه لكبيركم الذى علمكم السحر) لعظيمكم أو لمعلمكم تقول أهل مكة علم أمرنى كبيرى (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لان كل واحد من العضوين يخالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال ومن لابتداء الغاية لان القطع مبتدأ وناشئ من مخالفة العضو ومحل الجار والمجرور النصب على الحال يعنى لأقطعنها مختلفات لانها اذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف شبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن المظروف فى الظرف فلهذا قال (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) وخص النخل لطول جذوعها (ولتعلمن أينا أشد عذابا) أنا على ايمانكم بى أو رب موسى على ترك الايمان به وقيل يريد نفسه لعنه الله وموسى صلوات الله وسلامه عليه بدليل قوله آمنتم له واللام مع الايمان فى كتاب الله لغير الله كقوله يؤمن بالله

(وقد أفلح اليوم من استعلى) أى فاز من غلب (قالوا) يعنى السحرة (ياموسى اما أن تلقى) أى عصاك (واما أن نكون أول من ألقى) أى عصينا (قال) يعنى موسى (بل ألقوا) يعنى أنتم أولا (فاذا حبالهم) فيه اضمار أى فألقوا فاذا حبالهم (وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) قيل انهم لما ألقوا الحبال والعصى أخذوا أعين الناس فرأى موسى كأن الارض امتلأت حيات وكانت قد أخذت ميلا فى ميل من كل جانب ورآها كأنها تسعى (فأوجس) أى أضمر وقيل وجد (فى نفسه خيفة موسى) قيل هو طبع البشرية وذلك انه ظن أنها تقصده وقيل انه خاف على القوم أن يلتبس عليهم الامر فيشكوا فى أمره فلا يتبعوه (قلنا لا تخف) أى قال الله تعالى لموسى لا تخف (انك أنت الاعلى) أى الغالب عليهم ولك الغلبة عليهم والظفر (وألق ما فى يمينك) أى عصاك والمعنى لا يخيفنك كثرة حبالهم وعصيهم فان فى يمينك شيأ أعظم منها كلها (تلقف) أى تلتقم وتبتلع (ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر) أى حيلة ساحر (ولا يفلح الساحر حيث أتى) أى من الارض وقال ابن عباس لا يسعد حيث كان (فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى) قال صاحب الكشاف سبحان الله ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين وقيل انهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار وقيل انهم لما سجدوا أراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم التى يصيرون اليها فى الجنة (قال) يعنى فرعون (آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم) أى لرئيسكم وعظيمكم يعنى انه أسحركم وأعلاكم فى صناعة السحر ومعلمكم (الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أى أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى على جذوع النخل (ولتعلمن أينا أشد عذابا) أى على ايمانكم به أنا أو رب موسى على ترك الايمان

ويؤمن للمؤمنين (وأبقى) أدوم (قالوا لن نؤثرك) لن نختارك (على ما جاءنا من البينات) القاطعة الدالة على صدق موسى (والذي فطرنا) عطف على ما جاءنا أي لن نختارك على الذي جاءنا ولا على الذي خلقنا أو قسم وجوابه لن نؤثرك مقدم على القسم (فاقض ما أنت قاض) فاصنع ما أنت صانع من القتل والصلب قال وعليهما مسرد وتار قضاهما أي صنعهما أو احكم ما أنت حاكم (انما تقضي هذه الحيوة الدنيا) أي في هذه الحياة الدنيا فانتصب على الظرف أي انما تحكم فينا مدة حياتنا (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه) ما موصولة منصوبة بالعطف على خطايانا (من السحر) حال من ما روي أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بسحر الساحر اذا نام بطل سحره فكرهوا معارضته خوفا وفضيحة فأكرههم فرعون على الاتيان بالسحر وضر فرعون بجهله به وتقدمهم علمهم السحر فكيف بعلم الشرع (والله خير) ثوابا لمن أطاعه (وأبقى) عقابا لمن عصاه وهو رد لقول فرعون ولتعلمن أينا أشد

الايمان به (وأبقى) أي أدوم (قالوا) يعني السحرة (لن نؤثرك) أي لن نختارك (على ما جاءنا من البينات) يعني الدلالات الواضحات قيل هي اليد البيضاء والعصا وقيل كان استدلالهم انهم قالوا لو كان هذا سحرا فأين حباله وعصيه وقيل انهم لما سجدوا رأوا الجنة والنار ورأوا منازلهم في الجنة فعند ذلك قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات (والذي فطرنا) قيل هو قسم وقيل معناه لن نؤثرك على الله الذي فطرنا (فاقض ما أنت قاض) أي فاصنع ما أنت صانع (انما تقضي هذه الحيوة الدنيا) أي انما أمرك وسلطانك في الدنيا وسيزول عن قريب (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) فان قلت كيف قالوا هذا وقد جاؤا مختارين غير مكرهين قلت كان فرعون أكرههم في الابتداء على تعلم السحر لكي لا يذهب أصله وقيل كانت السحرة اثنين وسبعين اثنان من القبط وسبعون من بني اسرائيل وكان فرعون أكره الذين هم من بني اسرائيل على تعلم السحر وقيل قال السحرة لفرعون أرنا موسى اذا هو نام فأراهم موسى نائما وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون هذا ليس بساحر ان الساحر اذا نام بطل سحره فأبى عليهم فأكرههم على أن يعملوا فذلك قولهم وما أكرهتنا عليه من السحر (والله خير وأبقى) أي خير منك ثوابا وأبقى عقابا وقيل خير منك ان أطيع وأبقى عذابا ان عصي وهذا جواب لقوله ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى (انه من يأت ربه مجرما) قيل هذا ابتداء كلام من الله تعالى وقيل هو من تمام قول السحرة معناه من مات على الشرك (فان له جهنم لا يموت فيها) فيستريح (ولا يحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) أي من مات على الايمان (قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) أي الرفيعة العلية ثم فسر الدرجات بقوله (جنات عدن تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) أي تطهر من الذنوب وقيل أعطى زكاة نفسه وقال لا اله الا الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء وان أبا بكر وعمر منهم وأنعما أخرجه الترمذي قوله وأنعما يقال أحسن فلان الى فلان وأنعم أي وأفضل وزاد في الاحسان والمعنى انهما منهم وزادا وتناهيا الى غايته قوله تعالى (ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي) أي أسر بهم ليلا من أرض مصر (فاضرب لهم طريقا) أي اجعل لهم طريقا (في البحر) بالضرب بالعصا (يبسا) أي يابسا ليس فيه ماء ولا طين وذلك ان الله تعالى أيبس لهم الطريق في البحر (لا تخاف دركا ولا تخشى) قيل معناه لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك ولا تخشى أن يغرقك البحر أمامك (فأتبعهم) أي فلحقهم (فرعون بجنوده فغشيهم) أي أصابهم (من اليم ما غشيهم) وهو الغرق وقيل علاهم وسترهم من اليم ما لم يعلم كنهه الا الله تعالى فغرق فرعون وجنوده ونجا موسى وقومه (وأضل فرعون قومه وما هدى) أي وما أرشدهم وهو تكذيب لفرعون في قوله وما

عذابا وأبقى (انه) هو ضمير الشأن (من يأت ربه مجرما) كافرا (فان له) للمجرم (جهنم لا يموت فيها) فيستريح بالموت (ولا يحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) مات على الايمان (قد عمل الصالحات) بعد الايمان (فأولئك لهم الدرجات العلى) جمع العليا (جنات عدن) بدل من الدرجات (تجري من تحتها الانهار خالدين فيها) دائمين (وذلك جزاء من تزكى) تطهر من الشرك بقول لا اله الا الله قيل هذه الآيات الثلاث حكاية قولهم وقيل خبر من الله تعالى لا على وجه الحكاية وهو أظهر (ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي) لما أراد الله تعالى اهلاك فرعون وقومه أمر موسى أن يخرج بهم من مصر ليلا ويأخذ بهم طريق البحر (فاضرب لهم طريقا في البحر) اجعل لهم من قولهم ضرب له في ماله سهما (يبسا) أي يابسا وهو مصدر وصف به يقال يبس يبسا ويبسا (لا تخاف) حال من الضمير في فاضرب أي اضرب لهم طريقا غير خائف لا تخف حمزة على الجواب (دركا) هو اسم من الادراك أي لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك (ولا تخشى) الغرق وعلى قراءة حمزة ولا تخشى استئناف أي وأنت لا تخشى أو يكون الالف للاطلاق كما في وتظنون بالله الظنونا فخرج بهم موسى من أول الليل وكانوا سبعين ألفا وقد استعاروا حليهم فركب فرعون في ستمائة ألف من القبط فقص أثرهم فذلك قوله (فأتبعهم فرعون بجنوده) وهو حال أي خرج خلفهم ومعه جنوده (فغشيهم من اليم) أصابهم من البحر (ما غشيهم) هو من جوامع الكلام التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة أي غشيهم ما لا يعلم كنهه الا الله عز وجل (وأضل فرعون قومه) عن سبيل الرشاد (وما هدى) وما أرشدهم الى الحق والسداد وهو تدارك لقوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد ثم ذكر منته على بني اسرائيل بعد ما أنجاهم من البحر وأهلك فرعون وقومه بقوله

(يابني اسرائيل) أي أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي وقلنا يابني اسرائيل (قد أنجيناكم من عدوّكم) أي فرعون (وواعدناكم) بايتاء الكتاب (جانب الطور الأيمن) وذلك ان الله عز وجل وعد موسى أن يأتي هذا المكان و يختار سبعين رجلا يحضرون معه لنزول التوراة وانما نسب اليهم المواعدة لانها كانت لنبيهم ونقبائهم واليهم رجعت منافعها التي قام بها شرعهم ودينهم والأيمن نصب لانه صفة جانب وقرئ بالجر على الجوار (ونزلنا عليكم المن والسلوى) في التيه وقلنا لكم (كلوا من طيبات) حلالات (ما رزقناكم) أنجيتكم و واعدتكم و رزقتكم كوفي غير عاصم (ولا تطغوا فيه) ولا تتعدوا حدود الله فيه بأن تكفروا النعم وتنفقوها في المعاصي أو لا يظلم بعضكم بعضا (فيحل عليكم غضبي) عقوبتي (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) هلك أو سقط سقوطا لا نهوض بعده وأصله ان يسقط من جبل فيهلك وتحقيقه سقط من شرف الايمان الى حفرة من حفر النيران قرأ علي فيحل و يحلل والباقون بكسرهما فالمكسور في معنى الوجوب من حل الدين يحل اذا وجب أداؤه والمضموم في معنى النزول (واني لغفار لمن تاب) عن الشرك (وآمن) وحد الله تعالى وصدقه فيما أنزل (وعمل صالحا) أدى الفرائض (ثم اهتدى) ثم استقام وثبت على الهدى المذكور وهو التوبة والايمان والعمل الصالح (وما أعجلك) أي وأي شئ عجل بك (عن قومك ياموسى) أي عن السبعين الذين اختارهم وذلك انه مضى معهم الى الطور على الوعد المضروب ثم تقدمهم شوقا الى كلام ربه وأمرهم أن يتبعوه قال الله تعالى وما أعجلك أي أي شئ أوجب عجلتك استفهام انكار وما مبتدأ وأعجلك الخبر (قال هم أولاء على أثري) أي هم خلفي يلحقون بي وليس بيني وبينهم الا مسافة يسيرة ذكر موجب العجلة فقال (وعجلت اليك رب) أي الى الموعد الذي وعدت (لترضى) لتزداد عني رضا وهذا دليل على جواز الاجتهاد (قال فانا قد فتنا قومك) ألقيناهم في فتنة (من بعدك) من بعد خروجك من بينهم والمراد بالقوم الذين خلفهم مع هرون (وأضلهم السامري) بدعائه اياهم الى عبادة العجل واجابتهم له وهو منسوب الى قبيلة من بني اسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجا من كرمان اتخذ عجلا واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا (فرجع موسى) من مناجاة ربه (الى قومه غضبان أسفا) شديد الغضب أو حزينا (قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) وعدهم الله أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور وكانت ألف سورة كل سورة ألف آية يحمل أسفارها سبعون جملا ولا وعد أحسن من ذلك (أفطال عليكم العهد) أي مدة مفارقتي اياكم والعهد الزمان يقال طال عهدي بك أي طال زماني بسبب مفارقتك (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) أي أردتم أن تفعلوا فعلا يجب به عليكم الغضب من ربكم (فأخلفتم موعدي) وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الآيات فأخلفوا موعده باتخاذ العجل

أهديكم الا سبيل الرشاد **قوله عز وجل** (يابني اسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى) ذكرهم الله النعمة في نجاتهم وهلاك عدوّهم وفيما وعد موسى من المناجاة بجانب الطور وكتب التوراة في الالواح وانما قال وواعدناكم لانها اتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ورجعت منافعها اليهم وبها قوام دينهم وشريعتهم وفيما أفاض الله عليهم من سائر نعمه وأرزاقه (كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه) قال ابن عباس ولا تظلموا وقيل لا تكفروا النعمة فتكونوا طاغين وقيل لا تنفقوا بنعمتي على المعاصي وقيل لا تدخروا (فيحل عليكم غضبي) أي يجب عليكم غضبي (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) أي هلك وسقط في النار (واني لغفار لمن تاب) قال ابن عباس تاب عن الشرك (وآمن) أي وحد الله وصدق رسوله (وعمل صالحا) أي أدى الفرائض (ثم اهتدى) قال ابن عباس علم ان ذلك توفيق من الله تعالى وقيل لزم الاسلام حتى مات عليه وقيل علم ان لذلك ثوابا وقيل أقام على السنة **قوله عز وجل** (وما أعجلك) أي وما حملك على العجلة (عن قومك ياموسى) وذلك ان موسى اختار من قومه سبعين رجلا يذهبون معه الى الطور ليأخذوا التوراة فسار بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقا الى ربه وخلف السبعين وأمرهم ان يتبعوه الى الجبل فقال الله له وما أعجلك عن قومك ياموسى فأجاب ربه ف(قال هم أولاء على أثري) أي هم بالقرب مني يأتون على أثري من بعدي ﴿فان قلت﴾ لم يطابق السؤال الجواب فانه سأله عن سبب العجلة فعدل عن الجواب فقال هم أولاء على أثري ﴿قلت﴾ كان هم موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه فاعتل بانه لم يوجد منه الا تقدم يسير ثم أعقبه بجواب السؤال فقال (وعجلت اليك رب لترضى) أي لتزداد رضا (قال فانا قد فتنا قومك) أي فانا ابتلينا الذين خلفتهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفا (من بعدك) أي من بعد انطلاقك الى الجبل (وأضلهم السامري) أي دعاهم وصرفهم الى الضلالة وهو عبادة العجل وانما أضاف الضلال الى السامري لانهم ضلوا بسببه وقيل ان جميع المسببات تضاف الى منشئها في الظاهر وان كان الموجد لها في الاصل هو الله تعالى فذلك قوله هنا وأضلهم السامري قيل كان السامري من عظماء بني اسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة وقيل كان من القبط وكان جار الموسى وآمن به وقيل كان علجا من علوج كرمان رفع الى مصر وكان من قوم يعبدون البقر (فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا) أي حزينا جزعا (قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) أي صدقا انه يعطيكم التوراة (أفطال عليكم العهد) أي مدة مفارقتي اياكم (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) أي أردتم أن تفعلوا فعلا يجب عليكم الغضب من ربكم بسببه (فأخلفتم موعدي) يعني ما وعدوه من

(قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) بفتح الميم مدني وعاصم وبضمها حمزة وعلي وبكسرها غيرهم أي ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا أي لو ملكنا أمرنا وخلينا ورأينا لما أخلفناك موعدك ولكن غلبنا من جهة السامري وكيده (ولكنا حملنا) بالضم والتشديد حجازي وشامي وحفص وبفتح الحاء والميم مع التخفيف غيرهم (أوزارا من زينة القوم) أثقالا من حلي القبط أو أوزارا وآثاما وأوزارها آثام وتبعات لأنهم قد استعاروها ليلة الخروج من مصر بعلة أن لنا غدا عيدا فقال السامري إنما احتبس موسى لشؤم حرمتها لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ فأحرقوها

خفيا في حفرة النار كالب عجل

الإقامة على دينه إلى أن يرجع (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) أي بملك أمرنا وقيل باختيارنا وذلك أن المرء إذا وقع في الفتنة لم يملك نفسه (ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم) أي حملنا مع أنفسنا ما كنا استعرناه من قوم فرعون والأوزار الأثقال سميت أوزارا لكثرتها وثقلها وقيل الأوزار الآثام أي حملنا آثاما وذلك أن بني إسرائيل استعاروا حليا من القبط ولم يردوها وبقيت معهم إلى حين خروجهم من مصر وقيل إن الله لما أغرق فرعون نبذ البحر حليهم فأخذها بنو إسرائيل فكانت غنيمة ولم تكن الغنائم تحل لهم (فقذفناها) أي ألقيناها قيل إن السامري قال لهم احفروا حفيرة وألقوها فيها حتى يرجع موسى فيرى رأيه فيها وقيل إن هرون أمرهم بذلك ففعلوا (فكذلك ألقى السامري) أي ما كان معه من الحلي فيها قال ابن عباس أوقد هرون نارا وقال اقذفوا ما معكم فيها وقيل إن هرون مر على السامري وهو يصوغ العجل فقال له ما هذا قال أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لي فقال هرون اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه فألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل في فم العجل وقال كن عجلا يخور فكان كذلك بدعوة هرون فذلك قوله تعالى (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) اختلفوا هل كان الجسد حيا أم لا على قولين أحدهما لا لأنه لا يجوز إظهار خرق العادة على يد ضال بل السامري صور صورة على شكل العجل وجعل فيه منافذ ومخاريق بحيث إذا دخل فيها الريح صوت كصوت العجل الثاني أنه صار حيا وخار كما يخور العجل (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى) يعني قال ذلك السامري ومن تابعه ممن افتتن به وقيل عكفوا عليه وأحبوه حبا لم يحبوا شيئا قط مثله (فنسي) قيل هو إخبار عن قول السامري أي أن موسى نسي إلهه وتركه هاهنا وذهب يطلبه وقيل معناه أن موسى إنما طلب هذا ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر فأخطأ الطريق وضل وقيل هو من كلام الله تعالى وكأنه أخبر عن السامري أنه نسي الاستدلال على حدوث الأجسام وأن الإله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء ثم بين سبحانه وتعالى المعنى الذي يجب الاستدلال به فقال (أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا) أي أن العجل لا يرد لهم جوابا إذا دعوه ولا يكلمهم (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) هذا توبيخ لهم إذ عبدوا ما لا يملك ضرا من ترك عبادته ولا ينفع من عبده وكان العجل فتنة من الله تعالى ابتلى به بني إسرائيل قوله عز وجل (ولقد قال لهم هرون من قبل) أي من قبل رجوع موسى (يا قوم إنما فتنتم به) أي ابتليتم بالعجل (وإن ربكم الرحمن فاتبعوني) على ديني في عبادة الله (وأطيعوا أمري) أي في ترك عبادة العجل اعلم أن هرون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم أولا عن الباطل بقوله إنما فتنتم به ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى بقوله وإن ربكم الرحمن ثم دعاهم إلى معرفة النبوة بقوله فاتبعوني ثم دعاهم إلى الشرائع بقوله وأطيعوا أمري فهذا هو الترتيب الجيد لأنه لا بد من إماطة الأذى عن الطريق وهي إزالة الشبهات ثم معرفة الله فإنها هي الأصل ثم النبوة ثم الشريعة وإنما قال وإن ربكم الرحمن فخص هذا الموضع بهذا الاسم لأنه ينبههم على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لأنه هو التواب الرحيم فقابلوا هذا القول بالإصرار والجحود (قالوا لن نبرح) أي لن نزال (عليه) أي على عبادة العجل (عاكفين) أي مقيمين (حتى يرجع إلينا موسى) كأنهم قالوا لن نقبل حجتك ولا نقبل إلا قول موسى فاعتزلهم هرون ومعه اثنا عشر ألفا الذين

فانصاغت عجلا [illegible] خار بدخول الريح [illegible] منه أشباه العروق وقيل نفخ فيه ترابا من موضع قوائم فرس جبريل عليه السلام يوم الغرق وهو فرس حياة فخار ومالت طباعهم إلى الذهب فعبدوه (فقذفناها) في نار السامري التي أوقدها في الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحلي (فكذلك ألقى السامري) ما معه من الحلي في النار أو ما معه من التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام (فأخرج لهم) السامري من الحفرة (عجلا) خلقه الله تعالى من الحلي التي سبكتها النار ابتلاء (جسدا) مجسدا (له خوار) صوت وكان يخور كما تخور العجاجيل (فقالوا) أي السامري وأتباعه (هذا إلهكم وإله موسى) فأجاب عامتهم إلا اثني عشر ألفا (فنسي) أي فنسي موسى ربه هنا وذهب يطلبه عند الطور أو هو ابتداء كلام من الله تعالى أي نسي السامري ربه وترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر أو نسي السامري الاستدلال على أن العجل لا يكون إلها بدليل قوله (أفلا يرون أن لا يرجع) أي أنه لا يرجع فأن مخففة من الثقيلة (إليهم قولا) أي لا يجيبهم (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) أي هو عاجز عن الخطاب والضر والنفع فكيف تتخذونه إلها وقيل إنه ما خار إلا مرة (ولقد قال لهم) لمن عبدوا العجل (هرون من قبل) من قبل رجوع موسى إليهم (يا قوم إنما فتنتم به) ابتليتم بالعجل فلا تعبدوه (وإن ربكم الرحمن) لا العجل (فاتبعوني) كونوا على ديني الذي هو الحق (وأطيعوا أمري) في ترك عبادة العجل (قالوا لن نبرح عليه عاكفين) أي لن نزال مقيمين على العجل وعبادته (حتى يرجع إلينا موسى) فننظر هل يعبده كما عبدناه وهل صدق السامري أم لا فلما رجع موسى

(قال يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا) بعبادة العجل (ألا تتبعني) بالياء في الوصل والوقف مكي وافقه أبو عمرو ونافع في الوصل وغيرهم بلا ياء أي ما دعاك الى ان لا تتبعني لوجود التعلق بين الصارف عن فعل الشيء وبين الداعي الى تركه وقيل لا مزيدة والمعنى أي شيء منعك ان تتبعني حين لم يقبلوا قولك وتلحق بي وتخبرني أو ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ومالك لم تباشر الامر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهدا (أفعصيت أمري) أي الذي أمرتك به من القيام بمصالحهم ثم أخذ بشعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضبا وانكارا عليه لان الغيرة في الله ملكته (قال يا ابن أم) وبخفض الميم شامي وكوفي غير حفص وكان لأبيه وأمه عند الجمهور ولكنه ذكر الام استعطافا وترفيقا (لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) ثم ذكر عذره فقال (اني خشيت أن تقول) ان قاتلت بعضهم ببعض (فرقت بين بني اسرائيل) أو خفت أن تقول ان فارقتهم واتبعتك ولحق بي فريق وتبع السامري فريق فرقت بين بني اسرائيل (ولم ترقب) ولم تحفظ (قولي)

اخلفني في قومي واصلح وفيه دليل على جواز الاجتهاد ثم أقبل موسى على السامري منكرا عليه حيث (قال فما خطبك) ما أمرك الذي تخاطب عليه (يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به) وبالتاء حمزة وعلي قال الزجاج بصر علم وأبصر نظر أي علمت ما لم يعلمه بنو اسرائيل قال موسى وما ذاك قال رأيت جبريل على فرس الحياة فألقي في نفسي أن أقبض من أثره فما ألقيته على شيء الا صار له روح ولحم ودم (فقبضت قبضة) القبضة المرة من القبض واطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الامير وقرئ فقبصت قبصة فالضاد بجميع الكف والصاد بأطراف الاصابع (من أثر الرسول) أي من أثر فرس الرسول وقرئ بهما (فنبذتها) فطرحتها في جوف العجل (وكذلك سولت) زينت (لي نفسي) في

أن أفعله ففعلته اتباعا للهوى وهو اعتراف بالخطإ واعتذار (قال) له موسى (فاذهب) من بيننا طريدا (فان لك في الحيوة) ما عشت (أن تقول) لمن أراد مخالطتك جاهلا بحالك (لا مساس) أي لا يمسني أحد ولا أمسه فمنع من مخالطة الناس منعا كليا وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته واذا اتفق أن يماس أحدا حم الماس والممسوس وكان يهيم في البرية يصيح لا مساس ويقال ان ذلك موجود في أولاده الى الآن وقيل أراد موسى عليه السلام أن يقتله فمنعه الله تعالى منه لسخائه (وان لك موعدا لن تخلفه) أي لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الارض يجزيك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا لن تخلفه مكي وأبو عمرو وهذا من أخلفت الموعد اذا وجدته مخلفا (وانظر الى الهك الذي ظلت عليه) وأصله ظللت فحذف اللام الاولى تخفيفا (عاكفا) مقيما (لنحرقنه) بالنار (ثم لننسفنه) لنذرينه

لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى سمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين معه هذا صوت الفتنة فلما رأى هرون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله و (قال) له (يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا) أي أشركوا (ألا تتبعني) أي تتبع أمري ووصيتي وهلا قاتلتهم وقد علمت اني لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم وقيل معناه ما منعك من اللحوق بي واخباري بضلالتهم فتكون مفارقتك اياهم زجرا لهم عما أتوه (أفعصيت أمري) أي خالفت أمري (قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) أي بشعر رأسي وكان قد أخذ بذوائبه (اني خشيت أن تقول) أي لو أنكرت عليهم لصاروا أحزابا يقتل بعضهم بعضا فتقول (فرقت بين بني اسرائيل) أي خشيت ان فارقتهم واتبعتك أن يصيروا أحزابا فيتقاتلون فتقول فرقت بين بني اسرائيل (ولم ترقب قولي) أي لم تحفظ وصيتي حين قلت لك اخلفني في قومي وأصلح وارفق بهم ثم أقبل موسى على السامري (قال فما خطبك) أي فما أمرك وشأنك وما الذي حملك على ما صنعت (يا سامري قال) يعني السامري (بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول) أي من تراب حافر فرس جبريل (فنبذتها) أي فقذفتها في فم العجل فخار * فان قلت كيف عرف السامري جبريل ورآه من بين سائر الناس * قلت ذكروا فيه وجهين أحدهما أن أمه ولدته في السنة التي كان يقتل فيها البنون فوضعته في كهف حذرا عليه من القتل فبعث الله اليه جبريل ليربيه لما قضى الله على يديه من الفتنة الوجه الثاني انه لما نزل جبريل الى موسى ليذهب به الى الطور رآه السامري من بين سائر الناس فلما رآه قال ان لهذا شأنا فقبض القبضة من أصل تربة أثر موطئه فلما سأله موسى قال قبضت قبضة من أثر الرسول اليك يوم جاء للميعاد وقيل رآه يوم فلق البحر فأخذ القبضة وجعلها في عمامته لما يريد الله أن يظهره من الفتنة على يديه وهو قوله (وكذلك سولت) أي زينت (لي نفسي) وقيل انه من السؤال والمعنى انه لم يدعني الى فعله غيري واتبعت فيه هواي (قال) يعني موسى للسامري (فاذهب فان لك في الحيوة) أي ما دمت حيا (أن تقول لا مساس) أي لا تخالط أحدا ولا يخالطك أحد فعوقب في الدنيا بعقوبة ولا شيء أوحش منها ولا أعظم وذلك أن موسى أمر بني اسرائيل ان لا يخالطوه ولا يقربوه وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وقال ابن عباس رضي الله عنهما لا مساس لك ولولدك فصار السامري يهيم في البرية مع الوحش والسباع لا يمس أحدا ولا يمسه أحد وقيل كان اذا مس أحدا أو مسه أحد حما جميعا فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح لا مساس حتى ان بقاياهم اليوم يقولون ذلك (وان لك) أي يا سامري (موعدا) أي بعذابك في الآخرة (لن تخلفه) قرئ بكسر اللام ومعناه لن تغيب عنه ولا مذهب لك عنه بل توافيه يوم القيامة وقرئ بالفتح أي لن تكذبه ولم يخلفكه الله بل يكافئك على فعلك (وانظر الى الهك) أي الذي تزعم (الذي ظلت عليه عاكفا) أي دمت عليه مقيما تعبده (لنحرقنه) بالنار (ثم لننسفنه) أي لنذرينه

(فى اليم نسفا) فحرقه وذراه فى البحر فشرب بعضهم من مائه حباله فظهرت على شفاههم صفرة الذهب (انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شئ علما) تمييز اى وسع علمه كل شئ ومحل الكاف فى (كذلك) نصب أى مثل ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون (نقص عليك من أنباء ما قد سبق) من أخبار الامم الماضية تكثيرا لبيناتك وزيادة فى معجزاتك (وقد آتيناك) اى أعطيناك (من لدنا) من عندنا (ذكرا) فى قرآنا فهو ذكر عظيم وقرآن كريم فيه النجاة لمن أقبل عليه وهو مشتمل على الاقاصيص والاخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار (من أعرض عنه) عن هذا الذكر وهو القرآن ولم يؤمن به (فانه يحمل يوم القيامة وزرا) عقوبة ثقيلة سماها وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الثقيل الذى ينقض ظهره ويلقى عليه بهره أو لانها جزاء الوزر وهو الاثم (خالدين) حال من الضمير فى يحمل وانما جمع على المعنى و وحد فى فانه حملا على لفظ من (فيه) فى الوزر أى فى جزاء الوزر وهو العذاب (وساء لهم يوم القيامة حملا) ساء فى حكم بئس وفيه ضمير مبهم يفسره حملا وهو تمييز واللام فى لهم للبيان كما فى هيت لك والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه تقديره ساء الحمل حملا وزرهم (يوم ينفخ) بدل من يوم القيامة ننفخ أبو عمرو (فى الصور) القرن أو هو جمع صورة أى ننفخ الارواح فيها دليله قراءة قتادة الصور بفتح الواو جمع صورة (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) حال أى عميا كما قال ونحشرهم يوم القيامة ٢٤٧ على وجوههم عميا وهذا لان حدقة من يذهب نور بصره تزرق (يتخافتون) يتسارون (بينهم) أى يقول بعضهم لبعض سرا لهول ذلك اليوم (ان لبثتم) ما لبثتم فى الدنيا (الا عشرا) أى عشر ليال يستقصرون مدة لبثهم فى القبور أو فى الدنيا لما يعاينون من الشدائد التى تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر لان أيام السرور قصار أو لانها ذهبت عنهم والذاهب وان طالت مدته قصير بالانتهاء أو لاستطالتهم الآخرة لانها أبدا يستقصر اليها عمر الدنيا ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس الى لبثهم فى الآخرة وقد رجح الله قول من يكون أشد تقالا منه بقوله (نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة) أعدلهم قولا (ان لبثتم الا يوما) وهو كقوله قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين (ويسئلونك عن الجبال) سألوا النبى صلى الله عليه وسلم ما يصنع بالجبال يوم القيامة وقيل لم يسئل وتقديره ان سألوك (فقل) ولذا قرن بالفاء بخلاف سائر السؤالات مثل قوله ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى وقوله ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى ويسئلونك عن الروح قل الروح ويسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلو لانها سؤالات تقدمت فورد جوابها ولم يكن فيها معنى الشرط فلم يذكر الفاء (ينسفها ربى نسفا) أى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فيفرقها كما يذرى الطعام وقال الخليل يقلعها (فيذرها) فيذر مقارها أو يجعل الضمير للارض للعلم بها كقوله ما ترك على ظهرها (قاعا صفصفا) مستوية ملساء (لا ترى فيها عوجا) انخفاضا (ولا أمتا) ارتفاعا والعوج بالكسر وان كان فى المعانى كما أن المفتوح فى الاعيان والارض عين ولكن لما استوت الارض استواء لا يمكن أن يوجد فيها اعوجاج بوجه ما وان دقت الحيلة ولطفت جرت مجرى المعانى (يومئذ) أضاف اليوم الى وقت نسف الجبال أى يوم اذ نسفت ويجوز أن يكون بدلا بعد بدل من يوم القيامة (يتبعون الداعى) الى المحشر أى صوت

(فى اليم) أى فى البحر (نسفا) روى ان موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم وحرقه فى النار ثم ذراه فى البحر وقيل معناه لنحرقنه أى لنبردنه فعلى هذا التأويل لم ينقلب لحما ودما فان ذلك لا يمكن أن تبرد بالمبرد ويمكن ان يقال صار لحما ودما فذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث ان يمكن نسفها فى البحر فلما فرغ موسى من أمر العجل وابطال ما ذهب اليه السامرى رجع الى بيان الدين الحق فقال مخاطبا لبنى اسرائيل (انما الهكم الله) أى المستحق للعبادة والتعظيم هو الله (الذى لا اله الا هو وسع كل شئ علما) اى وسع علمه كل شئ وقيل يعلم من يعبده قوله عز وجل (كذلك نقص عليك من أنباء) يعنى من أخبار (ما قد سبق) يعنى الامم الخالية وقيل ما سبق من الامور (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) وهو القرآن (من أعرض عنه) اى عن القرآن ولم يؤمن به ولم يعمل بما فيه (فانه يحمل يوم القيامة وزرا) أى حملا ثقيلا من الاثم (خالدين فيه) اى مقيمين فى عذاب الوزر (وساء لهم يوم القيامة حملا) أى بئس ما حملوا أنفسهم من الاثم (يوم ينفخ فى الصور) قيل هو قرن ينفخ فيه يدعى به الناس للحشر والمراد بهذه النفخة النفخة الثانية لانه أتبعه بقوله (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) أى نحشر المجرمين زرق العيون سود الوجوه وقيل عميا وقيل عطاشا (يتخافتون) أى يتشاورون (بينهم) ويتكلمون خفية (ان لبثتم) أى مكثتم فى الدنيا (الا عشرا) أى عشر ليال وقيل فى القبور وقيل بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة وذلك أن العذاب رفع عنهم بين النفختين فاستقصروا مدة لبثهم لهول ما عاينوا فقال الله تعالى (نحن أعلم بما يقولون) أى يتشاورون فيما بينهم (اذ يقول أمثلهم طريقة) أى أوفاهم عقلا وأعدلهم قولا (ان لبثتم الا يوما) قصر ذلك فى أعينهم فى جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة وقيل نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم قوله عز وجل (ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا) قال ابن عباس سأل رجل من ثقيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كيف تكون الجبال يوم القيامة فأنزل الله تعالى هذه الآية والنسف هو القلع أى يقلعها من أصولها ويجعلها هباء منثورا (فيذرها) أى يدع أماكن الجبال من الارض (قاعا صفصفا) أى أرضا ملساء مستوية لا نبات فيها (لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) أى لا انخفاضا ولا ارتفاعا أى لا ترى واديا ولا رابية (يومئذ يتبعون الداعى) أى صوت الداعى الذى يدعوهم

(فالنبي وهو اسرافيل حين ينادي على صخرة بيت المقدس أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلمي الى عرض الرحمن
مقبلون من كل أوب الى صوبه لا يعدلون عنه (لا عوج له) أي لا يعوج له مدعو بل يستوون اليه من غير انحراف متبعين لصوته
(وخشعت) وسكنت (الاصوات للرحمن) هيبة واجلالا (فلا تسمع الا همسا) صوتا خفيا لتحريك الشفاه وقيل هو من همس الابل وهو صوت
أخفافها اذا مشت أي لا تسمع الا خفق الاقدام ونقلها الى المحشر (يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن) محل من رفع على البدل من
لان الرعة بتقدير حذف المضاف أي لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن أي أذن للشافع في الشفاعة (و رضي له قولا) أي رضي قولا
وترفيعه لأن يكون المشفوع له مسلما أو نصب على المدح لانه مفعول تنفع (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أي يعلم ما تقدمهم
من الاحوال وما يستقبلونه
(ولا يحيطون به علما) أي
بما أحاط به علم الله فيرجع
الضمير الى ما أو يرجع
الضمير الى الله لانه تعالى
ليس بمحاط (وعنت)
خضعت وذلت ومنه قيل
للاسيرعان (الوجوه) أي
أصحابها (للحي) الذي
لا يموت وكل حياة يتعقبها
الموت فهي كأن لم تكن
(القيوم) الدائم القائم على
كل نفس بما كسبت أو
القائم بتدبير الخلق (وقد
خاب) يئس من رحمة الله
(من حمل ظلما) من حمل
الى موقف القيامة شركا
لان الظلم وضع الشيء في
غير موضعه ولا ظلم أشد
من جعل المخلوق شريك
من خلقه (ومن يعمل من
الصالحات) الصالحات
الطاعات (وهو مؤمن)
مصدق بما جاء به محمد عليه
السلام وفيه دليل أنه
يستحق اسم الايمان بدون
الاعمال الصالحة وان
الايمان شرط قبولها (فلا
يخاف) أي فهو لا يخاف
فلا يخف على النهي مكي (ظلما) أن يزاد في سيآته
(ولا هضما) ولا ينقص من حسناته وأصل الهضم النقص والكسر (وكذلك) عطف على كذلك نقص أي ومثل ذلك الانزال (أنزلناه قرآنا
عربيا) بلسان العرب (وصرفنا) كررنا (فيه من الوعيد لعلهم يتقون) يجتنبون الشرك (أو يحدث لهم) الوعيد أو القرآن (ذكرا) عظة أو
شرفا بايمانهم به وقيل أو بمعنى الواو (فتعالى الله) ارتفع عن فنون الظنون وأوهام الافهام وتنزه عن مضاهاة الانام ومشابهة الاجسام (الملك)
الذي يحتاج اليه الملوك (الحق) المحق في الألوهية ولما ذكر القرآن وانزاله قال استطرادا واذا لقنك جبريل ما يوحي اليك من القرآن فتأن
عليك ريثما يسمعك ويفهمك (ولا تعجل بالقرآن) بقراءته

جبريل

الى موقف يوم القيامة وهو اسرافيل وذلك أنه يضع الصور في فيه و يقف على صخرة بيت المقدس و يقول
أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا الى عرض الرحمن (لا عوج له) أي لا عوج لهم عن
دعائه ولا يزيغون عنه يمينا ولا شمالا بل يتبعونه سراعا (وخشعت الاصوات للرحمن) أي سكنت وذلت
وخضعت وضعفت والمراد به أصحاب الاصوات وقيل خضعت الاصوات من شدة الفزع (فلا تسمع الا همسا)
وهو الصوت الخفي قال ابن عباس هو تحريك الشفاه من غير نطق وقيل أراد بالهمس صوت وطء الاقدام الى
المحشر كصوت أخفاف الابل (يومئذ لا تنفع الشفاعة) لاحد من الناس (الا من أذن له الرحمن) أي الا من
أذن له أن يشفع (و رضي له قولا) قال ابن عباس يعني قال لا اله الا الله وفيه دليل على انه لا يشفع غير المؤمن
وقيل ان درجة الشافع درجة عظيمة فهي لا تحصل الا لمن يأذن الله له فيها وكان عند الله مرضيا (يعلم ما بين
أيديهم وما خلفهم) قيل الكناية راجعة الى الذين يتبعون الداعي أي يعلم الله ما قدموا من الاعمال وما خلفوا
من الدنيا وقيل الضمير يرجع الى من أذن له الرحمن وهو الشافع والمعنى لا تنفع الشفاعة الا لمن أذن له الرحمن
أن يشفع ثم قال يعلم ما بين أيديهم أي أيدي الشافعين وما خلفهم (ولا يحيطون به علما) قيل الكناية ترجع الى
ما أي هو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يعلمونه والمعنى ان العباد لا يحيطون بما بين أيديهم وما خلفهم
علما وقيل الكناية راجعة الى الله تعالى أي ولا يحيطون بالله علما (وعنت الوجوه) أي ذلت وخضعت في
ذلك اليوم و يصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وذكر الوجوه وأراد بها المكلفين لان عنت من صفات
المكلفين لا من صفات الوجوه وانما خص الوجوه بالذكر لان الخضوع بها يتبين وفيها يظهر وقوله تعالى
(للحي القيوم) تقدم تفسيره (وقد خاب من حمل ظلما) قال ابن عباس خسر من أشرك بالله (ومن يعمل من
الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) قال ابن عباس معناه لا يخاف ان يزاد على سيآته ولا ينقص
من حسناته وقيل لا يؤاخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل عنه حسنة عملها قوله تعالى (وكذلك أنزلناه) أي كما بينا
في هذه السورة أو هذه الآيات المتضمنة للوعيد أنزلنا القرآن كله كذلك وقوله (قرآنا عربيا) أي بلسان
العرب ليفهموه ويقفوا على اعجازه وحسن نظمه وخروجه عن كلام البشر (وصرفنا فيه من الوعيد) أي
كررنا وفصلنا القول فيه بذكر الوعيد ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعيد بهما يتعلق
فتكريره وتصريفه يقتضي بيان الاحكام فلذلك قال تعالى (لعلهم يتقون) أي يجتنبون الشرك والمحارم
وترك الواجبات (أو يحدث لهم ذكرا) أي انما أنزلنا القرآن ليصيروا متقين مجتنبين ما لا ينبغي و يحدث لهم
القرآن ذكرا يرغبهم في الطاعات وفعل ما ينبغي وقيل معناه يجدد لهم القرآن عبرة وموعظة فيعتبرون
و يتعظون بذكر عقاب الله الامم السالفة قوله تعالى (فتعالى الله الملك الحق) أي جل الله وعظم عن الحاد
الملحدين وعما يقوله المشركون والجاحدون وقيل فيه تنبيه على ما يلزم خلقه من تعظيمه وتمجيده وقيل انما
وصف نفسه بالملك الحق لان ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به منه (ولا
تعجل بالقرآن) أراد النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادره فيقرأ معه قبل أن يفرغ

يسبحون الليل والنهار لا يفترون) حال من فاعل يسبحون أى تسبيحهم متصل دائم فى جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر فتسبيحهم جار مجرى التنفس منا ثم أضرب عن المشركين منكرا عليهم وموبخا فجاء بأم التى بمعنى بل والهمزة فقال (أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون) يحيون الموتى ومن الارض صفة لآلهة لان آلهتهم كانت متخذة من جواهر الارض كالذهب والفضة والحجر وتعبد فى الارض فنسبت اليها كقولك فلان من المدينة أى مدنى أو متعلق باتخذوا ويكون فيه بيان غاية الاتخاذ وفى قولهم هم ينشرون زيادة توبيخ وان لم يدعوا ان أصنامهم تحيي الموتى وكيف يدعون ومن أعظم المنكرات ان ينشر الموتى بعض الموات لانه يلزم من دعوى الالوهية لها دعوى الانشار لان العاجز عنه لا يصح أن يكون الها اذ لا يستحق هذا الاسم الا القادر على كل مقدور والانشار من جملة المقدورات وقرأ الحسن ينشرون بفتح الياء وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها أى أحياها (لو كان فيهما آلهة الا الله) أى غير الله وصفت آلهة بالا كما وصفت بغير لو قيل آلهة غير الله ولا يجوز رفعه على البدل لان لو بمنزلة ان فى أن الكلام معه موجب والبدل لا يسوغ الا فى الكلام غير الموجب كقوله تعالى ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك ولا يجوز نصبه استثناء لان الجمع اذا كان منكرا لا يجوز أن يستثنى منه عند المحققين لانه لا عموم له بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء والمعنى لو كان يدبر أمر السموات والارض آلهة شتى غير الواحد الذى هو فاطرهما (لفسدتا) لخربتا لوجود التمانع وقد قررناه فى أصول الكلام ثم نزه ذاته فقال (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) من الولد والشريك (لا يسئل عما يفعل) لانه المالك على الحقيقة ولو اعترض على السلطان بعض عبيده مع وجود التجانس وجواز الخطا عليه وعدم الملك الحقيقى لاستقبح ذلك وعد سفها فمن هو مالك الملوك ورب الارباب وفعله صواب كله أولى بان لا يعترض عليه (وهم يسئلون) لانهم مملوكون خطاؤن فما أخلقهم بأن يقال لهم لم فعلتم فى

عن العبادة ثم وصفهم الله تعالى بقوله (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) أى لا يضعفون ولا يسأمون وذلك ان تسبيحهم متصل دائم لا يفتر فى جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر قال كعب الاحبار التسبيح لهم كالنفس لبنى آدم (أم اتخذوا آلهة من الارض) يعنى الاصنام من الحجارة والخشب وغيرهما من المعادن وهى من الارض (هم ينشرون) أى يحيون الاموات اذ لا يستحق الالهية الا من يقدر على الاحياء والايجاد من العدم والانعام بابلغ وجوه النعم وهو الله عز وجل (لو كان فيهما) أى فى السماء والارض (آلهة الا الله) أى غير الله (لفسدتا) أى لخربتا وهلك من فيهما لوجود التمانع من الآلهة لان كل أمر صدر عن الاثنين فاكثر لم يجر على النظام وقال الامام فخر الدين الرازى قال المتكلمون القول بوجود الهين يفضى الى المحال فوجب أن يكون القول بوجود الهين محالا وانما قلنا انه يفضى الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلابد وان يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ولو فرضنا ان أحدهما أراد تحريكه وأراد الآخر تسكينه فاما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثانى وذلك أيضا محال لوجهين أحدهما انه لو كان كل واحد منهما قادرا على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لابد وأن يستويا فى القدرة واذا استويا فى القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثانى والا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح وثانيهما انه اذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذى وقع مراده يكون قادرا والذى لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الاله محال ولو فرضنا الهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضى الى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لان اسناد الفعل الى الفاعل انما كان لامكانه فاذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل اسناده الى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه اليهما معا وذلك محال وهذه حجة تامة فى مسئلة التوحيد فنقول القول بوجود الهين يفضى الى امتناع وقوع المقدور بواحد منهما واذا كان كذلك وجب أن لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا أو نقول لو قدرنا الهين فاما أن يتفقا أو يختلفا فان اتفقا على الشئ الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومرادهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وان اختلفا فاما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الثانى والكل محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات واعلم انك اذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع ما فى العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى وأما الدلائل السمعية على الوحدانية فكثيرة فى القرآن واعلم ان كل من طعن فى دلالة التمانع فسر الآية بأن المراد لو كان فى السماء والارض آلهة يقول بالهيتها عبدة الاصنام لزم فساد العالم لانها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فلزم افساد العالم قالوا وهذا أولى لانه تعالى حكى عنهم فى قوله أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به وأما قوله (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) ففيه تنزيه الله سبحانه وتعالى عما يصفه به المشركون من الشريك والولد (لا يسئل عما يفعل) أى لا يسئل الله عما يفعله ويقضيه فى خلقه (وهم يسئلون) أى والناس يسئلون عن أعمالهم والمعنى انه لا يسئل عما يحكم فى عباده من اعزاز واذلال وهدى

كل شئ فعلوه وقيل وهم يسئلون يرجع الى المسيح والملائكة أى هم مسؤلون فكيف يكونون آلهة والالوهية تنافى الجنسية والمسؤلية (أم اتخذوا من دونه آلهة) الاعادة لزيادة الافادة فالاول للانكار من حيث العقل والثانى من حيث النقل أى وصفتم الله تعالى بان يكون له شريك فقيل لمحمد (قل هاتوا برهانكم) حجتكم على ذلك وذا عقلى وهو يأباه كما مر أو نقلى وهو الوحى وهو أيضا يأباه فانكم لا تجدون كتابا من الكتب السماوية الا وفيه توحيده وتنزيهه عن الانداد (هذا) أى القرآن (ذكر من معى) يعنى أمته (وذكر من قبلى) يعنى أمم الانبياء من قبلى وهو وارد فى توحيد الله ونفى الشركاء عنه معى حفص فلما لم يمتنعوا عن كفرهم أضرب عنهم فقال (بل أكثرهم لا يعلمون الحق) أى القرآن وهو نصب بيعلمون وقرئ الحق أى هو الحق (فهم) لاجل ذلك (معرضون) عن النظر فيما يجب عليهم (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحى اليه) الا نوحى كوفى غير أبى بكر وحماد (انه لا اله الا أنا فاعبدون) وحدونى فهذه الآية مقررة لما سبقها من آى التوحيد (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه) نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله فنزه ذاته عن ذلك ثم أخبر عنهم بانهم عباد بقوله (بل عباد مكرمون) أى بل هم عباد مكرمون مشرفون ٢٥٨ مقربون وليسوا باولاد اذ العبودية تنافى الولادة (لا يسبقونه بالقول) أى بقولهم فانيبت اللام مناب الاضافة والمعنى أنهم يتبعون قوله فلا يسبق قولهم قوله ولا يتقدمون قوله بقولهم (وهم بأمره يعملون) أى كما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضا مبنى على أمره لا يعملون عملا لم يؤمروا به (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى ما قدموا وأخروا من أعمالهم (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) أى لمن رضى الله عنه وقال لا اله الا الله (وهم من خشيته مشفقون) خائفون (ومن يقل منهم) من الملائكة (انى اله من دونه) من دون الله انى مدنى وأبو عمرو (فذلك) مبتدأ أى فذلك القائل خبره (نجزيه جهنم) وهو جواب الشرط (كذلك نجزى الظالمين) الكافرين الذين وضعوا الالهية فى غير موضعها وهذا على سبيل الفرض والتمثيل لتحقق عصمتهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة والضحاك قد تحقق الوعيد فى ابليس فانه ادعى الالهية لنفسه ودعا الى طاعة نفسه وعبادته (أولم ير الذين كفروا) ألم ير مكى (ان السموات والارض كانتا) أى جماعة السموات وجماعة الارض فلذا لم يقل كن (رتقا) بمعنى المفعول أى كانتا مرتوقتين وهو مصدر فلذا صلح أن يقع موقع مرتوقتين (ففتقناهما) فشققناهما والفتق الفصل بين الشيئين والرتق ضد الفتق فان قيل متى رأوهما رتقا حتى جاء تقريرهم بذلك قلنا انه وارد فى القرآن الذى هو معجزة فقام مقام المرئى المشاهد ولان الرؤية بمعنى العلم وتلاصق الارض والسماء وتباينهما جائزان فى العقل فالاختصاص بالتباين دون التلاصق لا بد له من مخصص وهو القديم جل جلاله ثم قيل ان السماء كانت لاصقة بالارض لا فضاء بينهما ففتقناهما أى فصلنا بينهما بالهواء وقيل كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها الله تعالى وجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع أرضين وقيل كانت السماء رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر

مرتتقة

واضلال واسعاد واشقاء لانه الرب مالك الاعيان والخلق يسئلون سؤال توبيخ يقال لهم يوم القيامة لم فعلتم كذا لانهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم والله تعالى ليس فوقه أحد يقول له لشئ فعله لم فعلته قوله عز وجل (أم اتخذوا من دونه آلهة) لما أبطل الله تعالى أن تكون آلهة سواه بقوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا أنكر عليهم اتخاذهم الآلهة فقال أم اتخذوا من دونه آلهة وهو استفهام انكار وتوبيخ (قل هاتوا برهانكم) أى حجتكم على ذلك ثم قال تعالى مستأنفا (هذا) يعنى القرآن (ذكر من معى) أى فيه خبر من معى على دينى ومن يتبعنى الى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية (وذكر) أى خبر (من قبلى) أى من الأمم السالفة وما فعل بهم فى الدنيا وما يفعل بهم فى الآخرة وقال ابن عباس ذكر من معى القرآن وذكر من قبلى التوراة والانجيل والمعنى راجعوا القرآن والتوراة والانجيل وسائر الكتب هل تجدون فيها أن الله اتخذ ولدا أو كان معه آلهة (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) قوله عز وجل (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) أى فوحدونى وقيل لما توجهت الحجة عليهم ذمهم على جهلهم بمواضع الحق فقال بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون أى عن التأمل والتفكر وما يجب عليهم من الايمان بانه لا اله الا هو قوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه نفسه عما قالوا (بل عباد) أى هم عباد يعنى الملائكة (مكرمون) أى أكرمهم الله واصطفاهم (لا يسبقونه) أى لا يتقدمونه (بالقول) أى لا يتكلمون الا بما يأمرهم به (وهم بأمره يعملون) المعنى انهم لا يخالفونه قولا ولا عملا (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى ما عملوا وما هم عاملون وقيل ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) قال ابن عباس الا لمن قال لا اله الا الله وقيل الا لمن رضى الله تعالى عنه (وهم من خشيته مشفقون) أى خائفون وجلون لا يأمنون مكره (ومن يقل منهم انى اله من دونه) قيل عنى به ابليس حيث دعا الى عبادة نفسه فان أحدا من الملائكة لم يقل انى اله من دون الله (فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) أى الواضعين الالهية والعبادة فى غير موضعها قوله عز وجل (أولم ير الذين كفروا) أى ألم يعلم الذين كفروا (أن السموات والارض كانتا رتقا) قال ابن عباس كانتا شيأ واحدا ملتزقتين (ففتقناهما) أى فصلنا بينهما بالهواء قال كعب خلق الله السموات والارض بعضها على بعض ثم خلق ريحا بوسطهما ففتحهما بها وقيل كانت السموات

والارض بالنبات (وجعلنا من الماء كل شئ حي) أي خلقنا من الماء كل حيوان كقوله والله خلق كل دابة من ماء أو كانما خلقناه من الماء لفرط احتياجه اليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله خلق الانسان من عجل (أفلا يؤمنون) يصدقون بما يشاهدون (وجعلنا في الارض رواسي) جبالا ثوابت من رسا اذا ثبت (أن تميد بهم) لئلا تضطرب بهم فحذف لا واللام وانما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما تزاد لذلك في لئلا يعلم أهل الكتاب (وجعلنا فيها فجاجا) أي طرقا واسعة جمع فج وهو الطريق الواسع ونصب على الحال من (سبلا) متقدمة ﴿فان قلت﴾ أي فرق بين قوله تعالى لتسلكوا منها سبلا فجاجا وبين هذه ﴿قلت﴾ الاول للاعلام بانه جعل فيها طرقا واسعة والثاني لبيان انه حين خلقها خلقها على تلك الصفة فهو بيان لما أبهم ثم (لعلهم يهتدون) ليهتدوا بها الى البلاد المقصودة (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) في موضعه عن السقوط كما قال ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه أو محفوظا بالشهب من الشياطين كما قال وحفظناها من كل شيطان رجيم (وهم) أي الكفار (عن آياتها) عن الادلة التي فيها كالشمس والقمر والنجوم (معرضون) غير متفكرين فيها فيؤمنون (وهو الذي خلق الليل) لتسكنوا فيه (والنهار) لتتصرفوا فيه (والشمس) لتكون سراج النهار (والقمر) ليكون سراج الليل (كل) التنوين فيه عوض عن المضاف اليه أي كلهم والضمير للشمس والقمر والمراد بهما جنس الطوالع وجمع جمع العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة (في فلك) عن ابن عباس رضي الله عنهما الفلك السماء والجمهور على ان الفلك موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم وكل مبتدأ خبره (يسبحون) يسيرون أي يدورون والجملة في محل النصب على الحال من الشمس والقمر (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) البقاء الدائم (أفان مت) بكسر الميم مدني وكوفي غير أبي بكر (فهم الخالدون) والفاء الاول لعطف جملة على جملة والثاني لجزاء الشرط كانوا يقدرون أنه سيموت فنفى الله عنه الشماتة بهذا أي قضى الله أن لا يخلد في الدنيا بشرا فان مت أنت أيبقى هؤلاء (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم) ونختبركم سمي ابتلاء وان كان عالما بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم لانه في صورة الاختبار (بالشر) بالفقر والضر (والخير) الغنى والنفع (فتنة) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (والينا ترجعون) فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر وعن ابن ذك[illegible] جعون

مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض وقيل كانت السماء رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات (وجعلنا من الماء كل شئ حي) أي وأحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شئ من الحيوان ويدخل فيه النبات والشجر وذلك لانه سبب لحياة كل شئ وقال المفسرون معناه ان كل شئ حي فهو مخلوق من الماء وقيل يعني النطفة ﴿فان قلت﴾ قد خلق الله بعض ما هو حي من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة والجان ﴿قلت﴾ خرج هذا اللفظ مخرج الاغلب والاكثر يعني أن أكثر ما على وجه الارض مخلوق من الماء أو بقاؤه بالماء (أفلا يؤمنون) أي أفلا يصدقون (وجعلنا في الارض رواسي) أي جبالا ثوابت (أن تميد بهم) أي لئلا تميد بهم قيل ان الارض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة في الماء فارساها الله وأثبتها بالجبال (وجعلنا فيها) أي في الرواسي (فجاجا) أي طرقا ومسالك والفج الطريق الواسع بين الجبلين (سبلا) هو تفسير الفجاج (لعلهم يهتدون) أي الى مقاصدهم (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) أي من أن يسقط ويقع وقيل محفوظا من الشياطين بالشهب (وهم) يعني الكفار (عن آياتها معرضون) أي عما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وكيفية حركاتها في أفلاكها ومطالعها ومغاربها والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة القاهرة لا يتفكرون ولا يعتبرون بها (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) أي يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء وانما قال يسبحون ولم يقل تسبح على ما يقال لما لا يعقل لانه ذكر عنها فعل العقلاء وهو السباحة والجري والفلك مدار النجوم الذي يضمها وهو في كلام العرب كل شئ مستدير وجمعه أفلاك وقيل الفلك طاحونة كهيئة فلك المغزل يريد أن الذي تجري فيه النجوم مستدير كاستدارة الرحى وقيل الفلك السماء الذي فيه ذلك الكواكب فكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه وقيل الفلك استدارة السماء وقيل الفلك موج مكفوف دون السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم وقال أصحاب الهيئة الافلاك أجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول والحق أنه لا سبيل الى معرفة صفة السموات الا باخبار الصادق فسبحان الخالق المدبر لخلقه بالحكمة والقدرة الباهرة غير المتناهية قوله عز وجل (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) يعني الدوام والبقاء في الدنيا (أفان مت فهم الخالدون) نزلت هذه الآية حين قالوا نتربص بمحمد ريب المنون نشمت بموته فنفى الله الشماتة عنه بهذا والمعنى ان الله تعالى قضى أن لا يخلد في الدنيا بشرا الا أنت ولا هم فان مت أنت أفيبقى هؤلاء وفي معناه قول القائل

فقل للشامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

(كل نفس ذائقة الموت) هذا العموم مخصوص بقوله تعالى تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك فان الله تعالى حي لا يموت ولا يجوز عليه الموت والذوق ههنا عبارة عن مقدمات الموت وآلامه العظيمة قبل حلوله (ونبلوكم) أي نختبركم (بالشر والخير) أي بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر وقيل بما تحبون وما تكرهون (فتنة) أي ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبون وصبركم فيما تكرهون (والينا ترجعون) أي

(واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك) ما يتخذونك (الاهزوا) مفعول ثان ليتخذونك نزلت في أبي جهل مر به النبي صلى الله عليه وسلم فضحك وقال هذا نبي بني عبد مناف (أهذا الذي يذكر) يعيب (آلهتكم) والذكر يكون بخير وبخلافه فان كان الذاكر صديقا فهو ثناء وان كان عدوا فذم (وهم بذكر الرحمن) أي بذكر الله وما يجب ان يذكر به من الوحدانية (هم كافرون) لا يصدقون به أصلا فهم أحق ان يتخذوا هزوا منك فانك محق وهم مبطلون وقيل بذكر الرحمن أي بما أنزل عليك من القرآن هم كافرون جاحدون والجملة في موضع الحال أي يتخذونك هزوا وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية وهي الكفر بالله تعالى وكرر هم للتأكيد أو لان الصلة حالت بينه وبين الخبر فاعيد المبتدأ (خلق الانسان من عجل) فسر بالجنس وقيل نزلت حين كان النضر بن الحرث يستعجل بالعذاب والعجل والعجلة مصدران وهو تقديم الشئ على وقته والظاهر ان المراد الجنس وانه ركب فيه العجلة فكأنه خلق من العجل ولانه يكثر منه والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم خلق من الكرم فقدم أولا ذم الانسان على افراط العجلة وانه مطبوع عليها ثم منعه وزجره كأنه قال ليس ببدع منه ان يستعجل فانه مجبول على ذلك وهو طبعه وسجيته فقد ركب فيه وقيل العجل الطين بلغة حمير قال شاعرهم

والنخل ينبت بين الماء والعجل

وانما منع عن الاستعجال وهو مطبوع عليه كما أمره بقمع الشهوة وقد ركبها فيه لانه أعطاه القوة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة ومن عجل حال أي عجلا (سأريكم آياتي) نقماتي (فلا تستعجلون) بالاتيان بها وهو بالياء عند يعقوب وافقه سهل وعياش في الوصل (ويقولون متى هذا الوعد) اتيان العذاب أو القيامة (ان كنتم صادقين) قيل هو أحد وجهي استعجالهم (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون) جواب لو محذوف وحين مفعول به ليعلم أي لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد وهو وقت تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ولا يجدون ناصرا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذي هونه عندهم (بل تأتيهم) الساعة (بغتة) فجأة (فتبهتهم) تحيرهم أي لا يكفونها بل تفجأهم فتغلبهم (فلا يستطيعون ردها) فلا يقدرون على دفعها (ولا هم ينظرون) يمهلون (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق) فحل ونزل (بالذين سخروا منهم) جزاء (ما كانوا به يستهزؤن) سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به بان له في الانبياء أسوة وان ما يفعلونه به يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالانبياء ما فعلوا (قل من يكلؤكم) يحفظكم (بالليل والنهار من الرحمن) أي من عذابه ان أتاكم ليلا أو نهارا (بل هم

للحساب والجزاء. قوله عز وجل (واذا رآك الذين كفروا ان) أي ما (يتخذونك الاهزوا) أي سخريا قيل نزلت في أبي جهل مر به النبي صلى الله عليه وسلم فضحك وقال هذا نبي بني عبد مناف (أهذا الذي يذكر آلهتكم) أي يقول بعضهم لبعض هذا الذي يعيب آلهتكم والذكر يطلق على المدح والذم مع القرينة (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) وذلك انهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة وهو مسيلمة الكذاب قوله تعالى (خلق الانسان من عجل) قيل معناه ان بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع وقيل لما دخل الروح في رأس آدم وعينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل ان تبلغ الروح الى رجليه عجلا الى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الانسان من عجل وأورث بنيه العجلة وقيل معناه خلق الانسان من تعجيل في خلق الله اياه لان خلقه كان بعد كل شئ في آخر النهار يوم الجمعة فاسرع في خلقه قبل مغيب الشمس فلما أحيا الروح رأسه قال يارب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس وقيل خلق بسرعة وتعجيل على غير قياس خلق بنيه لانهم خلقوا من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة أطوارا طورا بعد طور وقيل معنى خلق الانسان من عجل أي من طين قال الشاعر *والنخل ينبت بين الماء والعجل* أي بين الماء والطين وقيل أراد بالانسان النوع الانساني يدل عليه قوله (سأريكم آياتي فلا تستعجلون) وذلك ان المشركين كانوا يستعجلون العذاب وقيل نزلت في النضر بن الحرث ومعنى سأريكم آياتي أي مواعيدي فلا تطلبوا العذاب قبل وقته فأراهم يوم بدر وقيل كانوا يستعجلون القيامة فلذلك قال تعالى (ويقولون) يعني المشركين (متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء فبين تعالى أنهم انما يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ثم بين ما لهؤلاء المستهزئين فقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون) أي لا يدفعون (عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) قيل السياط (ولا هم ينصرون) أي لا يمنعون من العذاب والمعنى لو علموا لما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا بالعذاب ولما قالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (بل تأتيهم) يعني الساعة (بغتة) أي فجأة (فتبهتهم) أي تحيرهم (فلا يستطيعون ردها) أي صرفها ودفعها عنهم (ولا هم ينظرون) أي لا يمهلون للتوبة والمعذرة (ولقد استهزئ برسل من قبلك) أي يا محمد كما استهزأ بك قومك (فحاق) أي نزل وأحاط (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) أي عقوبة استهزائهم وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم أي فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم قوله تعالى (قل من يكلؤكم) أي يحفظكم (بالليل) اذا نمتم (والنهار) اذا انصرفتم في معايشكم (من الرحمن) قال ابن عباس معناه من يمنعكم من عذاب الرحمن (بل هم

عن

عن ذكر ربهم معرضون) أي بل هم معرضون عن ذكره ولا يخطرونه ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه حتى اذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالئ وصلحوا للسؤال عنه والمعنى انه أمر رسوله بسؤالهم عن الكالئ ثم بين أنهم لا يصلحون لذلك لاعراضهم عن ذكر من يكلؤهم ثم أضرب عن ذلك بقوله (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) لما في أم من معنى بل فقال ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا ثم استأنف بقوله (لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) فبين ان ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره ثم قال (بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) أي ما هم فيه من الحفظ والكلاءة انما هو منا لا من مانع يمنعهم من اهلاكنا وما كلأناهم وآباءهم الماضين الا تمتيعا لهم بالحياة الدنيا وامهالا كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وظنوا انهم دائمون على ذلك وهو أمل كاذب (أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها) أي ننقص أرض[ها] الكفر ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها واظهارهم على أهلها وردها دار اسلام وذكر يأتي يشير بأن الله يجريه على أيدي المسلمين وان عساكرهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها (أفهم الغالبون) أفكفار مكة يغلبون بعد ان نقصنا من أطراف أرضهم أي ليس كذلك بل يغلبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بنصر[ه] (قل انما أنذركم بالوحي) أخوفكم من العذاب بالقر[آن] (ولا يسمع الصم الدعاء) بفتح الياء والميم ورفع الصم ولا تسمع الصم شامي على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم (اذا ما ينذرون) يخوفون واللام في الصم للعهد وهو اشارة الى هؤلاء المنذرين والاصل [ولا] يسمعون اذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم اذا ما أنذروا (ولئن مستهم نفحة) دفعة يسيرة (من عذاب ربك) صفة لنفحة (ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين) أي ولئن مسهم من هذا الذي ينذرون به أدنى شئ لذلوا ودعوا بالويل على أنفسهم وأقروا انهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا وقد بولغ حيث ذكر المس والنفحة لان النفح يدل على القلة يقال نفحه بعطية رضخه بها مع ان بناءها للمرة والمس والنفحة ثلاث مبالغات لأن النفح في معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو رمح لين ونفحه بعطية رضخه والبناء للمرة (ونضع الموازين) جمع ميزان وهو ما يوزن به الشئ فتعرف كميته وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وانما جمع الموازين لتعظيم شأنها كما في قوله تعالى [...] ما يوزن لصحائف الاعمال في قول (القسط) وصفت الموازين بالقسط وهو العدل مبالغة كأنها في نفسها قسط أو على حذف [المضاف أي ذو]ات القسط (ليوم القيامة) لاهل يوم القيامة أي لأجلهم

عن ذكر ربهم) أي عن القرآن ومواعظه (معرضون) أي لا يتأملون في شئ منها (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) معناه ألهم آلهة من دوننا تمنعهم ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال (لا يستطيعون نصر أنفسهم) أي لا يقدرون على نصر أنفسهم فكيف ينصرون من عبدهم (ولا هم منا يصحبون) قال ابن عباس يمنعون وقيل يجارون وقيل ينصرون وقيل معناه لا يصحبون من الله بخير (بل متعنا هؤلاء) يعني الكفار (وآباءهم) أي في الدنيا بأن أنعمنا عليهم وأمهلناهم (حتى طال عليهم العمر) أي امتد بهم الزمان فاغتروا (أفلا يرون) يعني هؤلاء المشركين (أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها) يعني ننقص من أطراف المشركين ونزيد في أطراف المؤمنين يريد بذلك ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وفتحه ديار الشرك أرضا فأرضا وقرية فقرية والمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا في اتيان الارض من جوانبها بأخذ الواحد بعد الواحد وفتح البلاد والقرى مما حول مكة وادخالها في ملك محمد صلى الله عليه وسلم وموت رؤس المشركين المتنعمين بالدنيا أما كان لهم عبرة في ذلك فيؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويعلموا انهم لا يقدرون على الامتناع منا ومن ارادتنا فيهم ثم قال (أفهم الغالبون) استفهام بمعنى التقريع معناه بل نحن الغالبون وهم المغلوبون (قل) يا محمد (انما أنذركم بالوحي) أي أخوفكم بالقرآن (ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون) أي يخوفون (ولئن مستهم) أي أصابتهم (نفحة من عذاب ربك) قال ابن عباس طرف وقيل شئ قليل (ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين) دعوا على أنفسهم بالويل بعد ما أقروا على أنفسهم بالظلم والشرك قوله عز وجل (ونضع الموازين القسط) أي ذوات العدل وصفها بذلك لان الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه فبين أن تلك الموازين تجري على حد العدل ومعنى وضعها احضارها (ليوم القيامة) أي لاهل يوم القيامة قيل المراد بالميزان العدل والقسط بينهم في الاعمال فمن أحاطت حسناته بسيئاته فاز ونجا وبالعكس ذل وخسر والصحيح الذي عليه أئمة السلف ان الله سبحانه وتعالى يضع الموازين الحقيقية ويزن بها أعمال العباد وقال الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وأكثر الاقوال أنه ميزان واحد وانما جمع لاعتبار تعدد الاعمال الموزونة به وروي أن داود عليه الصلاة والسلام سأل ربه عز وجل أن يريه الميزان فأراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب فلما رآه غشي عليه ثم أفاق فقال الهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات قال يا داود اني اذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة فعلى هذا في كيفية وزن الاعمال مع انها اعراض طريقان أحدهما ان توزن صحائف الاعمال فتوضع صحائف الحسنات في كفة وصحائف السيآت في كفة والثاني أن يجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفي كفة السيآت جواهر سود مظلمة * فان قلت كيف تصنع بقوله ونضع الموازين القسط مع قوله فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * قلت هذه في حق الكفار لانهم ليس لهم أعمال توزن مع الكفر

(فلا تظلم نفس شيأ) من الظلم (وان كان مثقال حبة) وان كان الشئ مثقال حبة مثقال بالرفع مدنى وكذا فى لقمان على كان التامة (من خردل) صفة لحبة (أتينا بها) احضرناها وأنث ضمير المثقال لاضافته الى الحبة كقولهم ذهبت بعض أصابعه (وكفى بنا حاسبين) عالمين حافظين عن ابن عباس رضى الله عنهما لان من حفظ شيأ حسبه وعلمه (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا) قيل هذه الثلاثة هى التوراة فهى فرقان بين الحق والباطل وضياء يستضاء به ويتوصل به الى سبيل النجاة وذكر أى شرف أو وعظ وتنبيه أو ذكر ما يحتاج الناس اليه فى مصالح دينهم ودخلت الواو على الصفات كما فى قوله وسيدا وحصورا ونبيا وتقول مررت بزيد الكريم والعالم والصالح

وقوله تعالى (فلا تظلم نفس شيأ) أى لا تبخس مما لها وما عليها من خير وشر شيأ (وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها) معناه انه لا ينتقص من احسان محسن ولا يزاد فى اساءة مسىء وأراد بالحبة الجزء اليسير من الخردل ومعنى أتينا بها أى أحضرناها للمجازاة بها عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله سيخلص رجلا من أمتى على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيأ أظلمك كتبتى الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول الله تعالى بلى ان لك عندنا حسنة فانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فانك لا تظلم فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شئ أخرجه الترمذى السجل الكتاب الكبير وأصله من التسجيل لانه يجمع أحكاما والبطاقة ورقة صغيرة تجعل فى طى الثوب يكتب فيها ثمنه والطيش الخفة قلت فى الحديث دليل على ان صحائف الاعمال هى التى توزن لان الاعمال تجسد جواهر فتوزن والله أعلم قوله تعالى (وكفى بنا حاسبين) قال ابن عباس معناه كفى بنا عالمين حافظين لان من حسب شيأ فقد علمه وحفظه والغرض منه التحذير فان المحاسب اذا كان فى العلم بحيث لا يمكن ان يشتبه عليه شئ وفى القدرة بحيث لا يعجز عن شئ فحقيق بالعاقل أن يكون بأشد الخوف منه ويروى عن الشبلى أنه رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال

حاسبونا فدققوا * ثم منوا فأعتقوا
هكذا سيمة الملوك * بالمماليك يرفقوا

قوله عز وجل (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان) يعنى الكتاب المفرق بين الحق والباطل وهو التوراة وقيل الفرقان النصر على الاعداء فعلى هذا يكون (وضياء) يعنى التوراة ومن قال الفرقان هو التوراة جعل الواو زائدة فى وضياء والمعنى آتينا موسى التوراة ضياء (وذكرى للمتقين) يعنى يتذكرون بمواعظها ويعملون بما فيها (الذين يخشون ربهم بالغيب) أى يخافونه ولم يروه وقيل يخافونه فى الخلوات اذا غابوا عن أعين الناس (وهم من الساعة مشفقون) أى خائفون (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) أى كما آتينا موسى التوراة فكذلك أنزلنا القرآن ذكرا مباركا أى هو ذكر لمن آمن به مبارك يتبرك به ويطلب منه الخير (أفأنتم) يا أهل مكة (له منكرون) أى جاحدون قوله تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده) أى صلاحه وهداه (من قبل) أى من قبل موسى وهرون وقيل من قبل البلوغ وهو حين خرج من السرب وهو صغير (وكنا به عالمين) أى انه من أهل الهداية والنبوة (اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل) يعنى الصور والاصنام (التى أنتم لها عاكفون) أى مقيمون على عبادتها (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) أى فاقتدينا بهم (قال) يعنى ابراهيم (لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) أى فى خطأ بين بعبادتكم اياها (قالوا أجئتنا بالحق) أى بالصدق (أم أنت من اللاعبين) يعنون أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) أى خلقهن (وأنا على ذلكم من الشاهدين) أى على انه الاله الذى يستحق العبادة وقيل شاهد على انه خالق السموات

ولما انتفع بذلك المتقون خصهم بقوله (للمتقين) محل (الذين) جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه (يخشون ربهم) يخافونه (بالغيب) حال أى يخافونه فى الخلاء (وهم من الساعة) القيامة وأهوالها (مشفقون) خائفون (وهذا) القرآن (ذكر مبارك) كثير الخير غزير النفع (أنزلناه) على محمد (أفأنتم له منكرون) استفهام توبيخ أى أتجحدون أنه منزل من عند الله (ولقد آتينا ابراهيم رشده) هداه (من قبل) من قبل موسى وهرون أو من قبل محمد عليه الصلاة والسلام (وكنا به) بابراهيم أو برشده (عالمين) أى علمنا أنه أهل لما آتيناه (اذ) اما أن تتعلق بآتينا أو برشده (قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل) أى الاصنام المصورة على صورة السباع والطيور والانسان وفيه تجاهل لهم ليحقر آلهتهم مع علمه بتعظيمهم لها (التى أنتم لها عاكفون) أى لأجل عبادتها مقيمون فلما عجزوا عن الاتيان بالدليل على ذلك (قالوا وجدنا آباءنا والارض (عابدين) فقلدناهم (قال) ابراهيم (لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) أراد ان المقلدين والمقلدين منخرطون فى سلك ضلال ظاهر لا يخفى على عاقل وأكد بأنتم ليصح العطف لأن العطف على ضمير هو فى حكم بعض الفعل ممتنع (قالوا أجئتنا بالحق) بالجد (أم أنت من اللاعبين) أى أجاد أنت فيما تقول أم لاعب استعظاما منهم انكاره عليهم واستبعادا لأن يكون ما هم عليه ضلالا ثم أضرب عنهم مخبرا بأنه جاد [illegible] قال لاعب مثبتا لربوبية الملك العلام وحدوث الأصنام بقوله (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) أى التماثيل [illegible] الخالق (وأنا على ذلكم) المذكور من التوحيد شاهد (من الشاهدين)

(وتالله) أصله والله وفي التاء معنى التعجب من تسهيل الكيد على يده مع صعوبته وتعذره لقوة سلطة نمروذ (لأكيدن أصنامكم) لأكسرنها (بعد أن تولوا مدبرين) بعد ذهابكم عنها الى عيدكم قال ذلك سرا من قومه فسمعه رجل واحد فعرض بقوله انى سقيم أى سأسقم ليتخلف فرجع الى بيت الاصنام (فجعلهم جذاذا) قطاعا من الجذ وهو القطع جمع جذاذة كزجاجة وزجاج جذاذا بالكسر على جمع جذيذ أى مجذوذ كخفيف وخفاف (الا كبيرا لهم) للاصنام او للكفار أى فكسرها كلها بفاس فى يده الا كبيرها فعلق الفاس فى عنقه (لعلهم اليه) الى الكبير (يرجعون) فيسألونه عن كاسرها فيتبين لهم عجزه أو الى ابراهيم ليحتج عليهم أو الى الله لما رأوا عجز آلهتهم (قالوا) أى الكفار حين رجعوا من عيدهم ورأوا ذلك (من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين) أى ان من فعل هذا الكسر لشديد الظلم لجراءته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير والتعظيم (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) الجملتان صفتان لفتى الا أن الاول وهو يذكرهم أى يعيبهم لا بد منه للسمع لانك لا تقول سمعت زيدا وتسكت حتى تذكر شيأ مما يسمع بخلاف الثانى وارتفاع ابراهيم بأنه فاعل يقال فالمراد الاسم لا المسمى أى الذى يقال له هذا الاسم (قالوا) أى نمرود وأشراف قومه (فأتوا به) أحضروا ابراهيم (على أعين الناس) فى محل الحال بمعنى معاينا مشاهدا أى بمرأى منهم ومنظر (لعلهم يشهدون) عليه بما سمع منه أو بما فعله كأنهم كرهوا عقابه بلا بينة أو يحضرون عقوبتنا له فلما أحضروه (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال) ابراهيم (بل فعله) عن الكسائى انه يقف عليه أى فعله من فعله وفيه حذف الفاعل وانه لا يجوز وجاز أن يكون الفاعل مسندا الى الفتى المذكور فى قوله سمعنا فتى يذكرهم أو الى ابراهيم فى قوله يا ابراهيم ثم قال (كبيرهم هذا) وهو مبتدأ وخبر والاكثر انه لا وقف والفاعل كبيرهم وهذا وصف أو بدل ونسب الفعل الى كبيرهم وقصده تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضى تبكيتا لهم والزاما للحجة عليهم لانهم اذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم وانه لا يصلح الها وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق أنيق أأنت كتبت هذا وصاحبك أمى فقلت له بل كتبته أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك واثباته للامى لان اثباته للعاجز منكما والامر كائن بينكما استهزاء به واثبات للقادر ويمكن ان يقال غاظته تلك الاصنام حين أبصرها مصطفة وكان غيظ كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه لان الفعل كما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه ويجوز أن يكون حكاية لما يقود الى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها أن يقدر على هذا ويحكى أنه قال غضب أن تعبد هذه الصغار معه وهو أكبر منها فكسرهن وأسند الى مباهج ونبهوا وانما أضاف الى الاصنام فيكون نفيا للمذبر عنه أى بل فعله كبيرهم ان كانوا ينطقون وقوله فاسئلوهم اعتراض ابراهيم نفسه اليهم سترا لهم فى المضمون

والارض (وتالله لأكيدن أصنامكم) أى لأمكرن بها (بعد أن تولوا مدبرين) أى منطلقين الى عيدكم قيل انما قال ابراهيم هذا القول سرا فى نفسه ولم يسمع ذلك الا رجل واحد من قومه فأفشاه عليه وهو القائل انا سمعنا فتى يذكرهم وقيل كان لهم فى كل سنة مجمع وعيد فكانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم رجعوا الى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو ابراهيم يا ابراهيم لو خرجت معنا الى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم ابراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه الى الارض وقال انى سقيم اشتكى رجلى فتركوه ومضوا فنادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه ثم رجع ابراهيم الى بيت الآلهة وهن فى بهو عظيم ومستقبل باب البهو صنم عظيم الى جنبه صنم أصغر منه والاصنام جنبها الى جنب بعض كل صنم الذى يليه أصغر منه وهكذا الى باب البهو واذا هم قد جعلوا طعاما بين يدى الآلهة وقالوا اذا رجعنا وقد بركت الآلهة عليه أكلنا منه فلما نظر ابراهيم اليهم والى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء ألا تأكلون فلما لم يجيبوه قال ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين وجعل يكسرهن بفاس فى يده حتى اذا لم يبق الا الصنم العظيم علق الفاس فى عنقه وقيل فى يده ثم خرج فذلك قوله تعالى (فجعلهم جذاذا) أى كسرا وقطعا (الا كبيرا لهم) أى تركه ولم يكسره ووضع الفاس فى عنقه ثم خرج وقيل ربطه على يده وكانت اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد وبعضها من نحاس ورصاص وحجر وخشب وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر فى عينيه ياقوتتان تتقدان وقوله (لعلهم اليه يرجعون) قيل معناه يرجعون الى ابراهيم والى دينه وما يدعوهم اليه اذا علموا ضعف الآلهة وعجزها وقيل معناه لعلهم اليه يرجعون الى الصنم فيسألونه ما لهؤلاء تكسروا وأنت صحيح والفاس فى عنقك فلما رجع القوم من عيدهم الى بيت آلهتهم رأوا أصنامهم مكسرة (قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين) اى فى تكسيرها واجترائه عليها (قالوا سمعنا فتى يذكرهم) أى يسبهم ويعيبهم (يقال له ابراهيم) أى هو الذى نظن أنه صنع هذا فبلغ ذلك نمرود الجبار وأشراف قومه (قالوا فأتوا به على أعين الناس) أى جيئوا به ظاهرا بمرأى من الناس وانما قاله نمرود (لعلهم يشهدون) أى عليه بأنه الذى فعل ذلك كرهوا أن يأخذوه بغير بينة وقيل معناه لعلهم يحضرون عذابه وما يصنع به فلما أتوا به (قالوا) له (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال) يعنى ابراهيم (بل فعله كبيرهم هذا) غضب اذ تعبدون معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن وأراد ابراهيم

(فاسئلوهم) عن حالهم (ان كانوا ينطقون) وأنتم تعلمون عجزهم عنه (فرجعوا الى أنفسهم) فرجعوا الى عقولهم وتفكروا بقلوبهم لما أخذ بمخانقهم (فقالوا انكم أنتم الظالمون) على الحقيقة بعبادة مالا ينطق لا من ظلمتموه حين قلتم من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين فان من لا يدفع عن رأسه الفاس كيف يدفع عن عابديه الباس (ثم نكسوا على رؤسهم) قال أهل التفسير أجرى الله تعالى الحق على لسانهم فى القول الاول ثم أدركتهم الشقاوة أى ردوا الى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم يقال نكسته قلبته فجعلت أسفله أعلاه أى استقاموا حين رجعوا الى أنفسهم وجاؤا بالفكرة الصالحة ثم انقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا فى المجادلة بالباطل والمكابرة وقالوا (لقد علمت ماهؤلاء ينطقون) فكيف تأمرنا بسؤالها والجملة سدت مسد مفعولى علمت والمعنى لقد علمت عجزهم عن النطق فكيف نسألهم (قال) محتجا عليهم (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيأ) هو فى موضع المصدر أى نفعا (ولا يضركم) ان لم تعبدوه (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) أف صوت اذا صوت به علم أن صاحبه متضجر ضجر مما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق فتأفف بهم واللام لبيان المتأفف به أى لكم ولآلهتكم هذا التأفف أف مدنى وحفص أف مكى وشامى أف غيرهم (أفلا تعقلون) ان من هذا وصفه لا يجوز أن يكون الها فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب (قالوا حرقوه) بالنار لانها أهول ما يعاقب به وأفظع (وانصروا آلهتكم) بالانتقام لابراهيم منه (ان كنتم فاعلين) أى ان كنتم ناصرين آلهتكم نصرا مؤزرا فاختاروا له أهول المعاقبات وهو الاحراق بالنار والا فرطتم فى نصرتها والذى أشار باحراقه نمرود أو رجل من أكراد فارس وقيل انهم حين هموا باحراقه حبسوه ثم بنوا بيتا بكوثى وجمعوا أشهرا أصناف الخشب ثم أشعلوا نارا عظيمة كادت الطير تحترق فى الجو من وهجها ثم وضعوه فى المنجنيق مقيدا مغلولا فرموا به فيها وهو يقول حسبى الله ونعم الوكيل وقال ابن عباس انما نجا بقوله ... لك الخالق (وأما الى) أما اليك فلا قال فسل ربك قال حسبى من سؤالى علمه بحالى وما أحرقت النار الا وثاقه وعن ...

بذلك اقامة الحجة عليهم فذلك قوله (فاسئلوهم ان كانوا ينطقون) أى حتى يخبروا عن فعل ذلك بهم وقيل معناه ان قدروا على النطق قدروا على الفعل فأراهم عجزهم عن النطق وفى ضمنه أنا فعلت ذلك (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات ثنتين منهن فى ذات الله قوله انى سقيم وقوله فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هذه أختى لفظ الترمذى قيل فى قوله انى سقيم أى سأسقم وقيل سقيم القلب مغتم بضلالتكم وأما قوله بل فعله كبيرهم هذا فانه علق خبره بشرط نطقه كأنه قال ان كان ينطق فهو فعل على طريق التبكيت لقوله وقوله لسارة هذه أختى أى فى الدين والايمان قال الله تعالى انما المؤمنون اخوة فكل هذه الالفاظ صدق فى نفسها ليس فيها كذب ﴿فان قلت﴾ قد سماها النبى صلى الله عليه وسلم كذبات بقوله لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات وقال فى حديث الشفاعة ويذكر كذباته ﴿قلت﴾ معناه انه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب وان كان حقا فى الباطن الا هذه الكلمات ولما كان مفهوم ظاهرها خلاف باطنها أشفق ابراهيم عليه الصلاة والسلام منها بمؤاخذته بها قال البغوى وهذه التأويلات لنفى الكذب عن ابراهيم والاولى هو الاول للحديث ويجوز أن يكون الله أذن له فى ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما أذن ليوسف حين أمر مناديه فقال أيتها العير انكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا قال الامام فخر الدين الرازى وهذا القول مرغوب عنه والدليل القاطع عليه انه لو جاز أن يكذب لمصلحة ويأذن الله فيه فلنجوزه هذا الاحتمال فى كل ما أخبر الانبياء عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع ويطرق التهمة الى كلها والحديث محمول على المعاريض فان فيها مندوحة عن الكذب وقوله (فرجعوا الى أنفسهم) أى تفكروا بقلوبهم ورجعوا الى عقولهم (فقالوا) ما نراه الا كما قال (انكم أنتم الظالمون) يعنى بعبادتكم مالا يتكلم وقيل معناه أنتم الظالمون لهذا الرجل فى سؤالكم اياه وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها (ثم نكسوا على رؤسهم) قال أهل التفسير أجرى الله الحق على ألسنتهم فى القول الاول وهو اقرارهم على أنفسهم بالظلم ثم أدركتهم الشقاوة فرجعوا الى حالهم الاولى وهو قوله ثم نكسوا على رؤسهم أى ردوا الى الكفر وقالوا (لقد علمت ماهؤلاء ينطقون) أى فكيف نسألهم فلما اتجهت الحجة لابراهيم عليهم (قال) لهم (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيأ) أى ان عبدتموه (ولا يضركم) أى ان تركتم عبادته (أف لكم) أى تبا لكم (ولما تعبدون من دون الله) والمعنى انه حقرهم وحقر معبودهم (أفلا تعقلون) أى أليس لكم عقل تعقلون به ان هذه الاصنام لا تستحق العبادة فلما الزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم) يعنى انكم لا تنصرونها الا بتحريق ابراهيم لانه يعيبها ويطعن فيها (ان كنتم فاعلين) أى ناصرين آلهتكم قال ابن عمر الذى قال هذا رجل من الاكراد قيل اسمه هيزن خسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقيل قاله نمرود ابن كنعان بن سنجاريب بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح

﴿ذكر القصة فى ذلك﴾ فلما اجتمع نمرود وقومه لاحراق ابراهيم حبسوه فى بيت وبنوا بنيانا كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له صلاب الحطب وأصناف الخشب مدة شهر حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عوفيت لأجمعن حطبا لابراهيم وكانت المرأة تنذر فى بعض ما تطلب لئن أصابته لتحطبن فى نار ابراهيم وكانت المرأة تغزل وتشترى الحطب بغزلها احتسابا فى دينها وكان الرجل يوصى بشراء الحطب من ماله

لابراهيم فلما جمعوا ما أرادوا وأشعلوا فى كل ناحية من الحطب نارا فاشتعلت النار واشتدت حتى ان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها فأوقدوا عليها سبعة أيام فلما أرادوا أن يلقوا ابراهيم لم يعلموا كيف يلقونه فقيل ان ابليس جاء وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه ثم عمدوا الى ابراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه فى المنجنيق مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق الا الثقلين صيحة واحدة أى ربنا ابراهيم خليلك يلقى فى النار وليس فى أرضك أحد يعبدك غيره فائذن لنا فى نصرته فقال الله تعالى انه خليلى ليس لى خليل غيره وأنا الهه ليس له اله غيرى فان استغاث بأحد منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له فى ذلك وان لم يدع غيرى فانا أعلم به وأنا وليه فخلوا بينى وبينه فلما أرادوا القاءه فى النار أتاه خازن المياه وقال ان أردت أخمدت النار وأتاه خازن الهواء وقال ان شئت طيرت النار فى الهواء فقال ابراهيم لا حاجة لى اليكم حسبى الله ونعم الوكيل وروى عن أبى بن كعب ان ابراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه فى النار لا اله الا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به فى المنجنيق الى النار فاستقبله جبريل فقال يا ابراهيم ألك حاجة فقال أما اليك فلا قال جبريل فاسأل ربك فقال ابراهيم حسبى من سؤالى علمه بحالى (خ) عن ابن عباس فى قوله تعالى وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل قال قالها ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم قال كعب الاحبار جعل كل شئ يطفئ عنه النار الا الوزغ فانه كان ينفخ فى النار (ق) عن أم شريك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الاوزاغ زاد البخارى وقال كان ينفخ على ابراهيم (قلنا) أى قال الله عز وجل (يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) قال ابن عباس لو لم يقل سلاما لمات ابراهيم من بردها وفى بعض الآثار انه لم يبق يومئذ نار فى الارض الا طفئت فلم ينتفع فى ذلك اليوم بنار فى العالم ولو لم يقل على ابراهيم بقيت ذات برد أبدا وقيل أخذت الملائكة بضبعى ابراهيم فاقعدوه على الارض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس قال كعب ما أحرقت النار من ابراهيم الا وثاقه قالوا وكان ابراهيم فى ذلك الموضع سبعة أيام قال المنهال بن عمرو قال ابراهيم ما كنت أياما قط أنعم منى من الايام التى كنت فى النار قيل وبعث الله تعالى ملك الظل فى صورة ابراهيم فقعد الى جنب ابراهيم يؤنسه قالوا وبعث الله عز وجل جبريل بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه وقال جبريل يا ابراهيم ان ربك يقول أما علمت أن النار لا تضر أحبائى ثم نظر نمرود وأشرف على ابراهيم من صرح له فرآه جالسا فى روضة والملك قاعد الى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه يا ابراهيم كبير الهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار يا ابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال هل تخشى ان أقمت ان تضرك قال لا قال فقم فاخرج منها فقام ابراهيم يمشى فيها حتى خرج منها فلما وصل اليه قال له يا ابراهيم من الرجل الذى رأيته معك مثلك فى صورتك قاعدا الى جنبك قال ذلك ملك الظل أرسله الى ربى ليؤنسنى فيها فقال نمرود يا ابراهيم انى مقرب الى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت الا عبادته وتوحيده وانى ذابح له أربعة آلاف بقرة قال ابراهيم لا يقبل الله منك ما دمت على دينك حتى تفارقه وترجع الى دينى فقال لا أستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبحها له فذبحها نمرود وكف عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام ومنعه الله عز وجل منه قوله عز وجل (وأرادوا به كيدا) أى أرادوا أن يكيدوه (فجعلناهم الاخسرين) قيل معناه أنهم خسروا السعى والنفقة ولم يحصل لهم مرادهم وقيل ان الله تعالى أرسل على نمرود وقومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت فى دماغه بعوضة فأهلكته قوله تعالى (ونجيناه ولوطا) يعنى من نمرود وقومه (الى الارض التى باركنا فيها للعالمين) يعنى الى أرض الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الاشجار والثمار والانهار وقال أبى بن كعب بارك الله فيها وسماها مباركة لانه ما من ماء عذب الا وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس وقيل لان أكثر الانبياء منها (ق) عن أبى قتادة ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال لكعب الا تتحول الى المدينة فيها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره فقال كعب انى وجدت فى

...ض) أى بحفظها

(قلنا يا نار كونى بردا وسلاما) أى ذات برد وسلام فبولغ فى ذلك كان ذاتها برد وسلام (على ابراهيم) أراد ابردى فيسلم منك ابراهيم وعن ابن عباس رضى الله عنهما لو لم يقل ذلك لاهلكته ببردها والمعنى ان الله تعالى نزع عنها طبعها الذى طبعها عليه من الحر والاحراق وأبقاها على الاضاءة والاشراق كما كانت وهو على كل شئ قدير (وأرادوا به كيدا) احراقا (فجعلناهم الاخسرين) فارسل على نمرود وقومه البعوض فاكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت بعوضة فى دماغ نمرود فاهلكته (ونجيناه) أى ابراهيم (ولوطا) ابن أخيه هاران من العراق (الى الارض التى باركنا فيها للعالمين) أى أرض الشام وبركتها ان أكثر الانبياء منها فانتشرت فى العالمين آثارهم الدينية وهى أرض خصب يطيب فيها عيش الغنى والفقير وقيل ما من ماء عذب فى الارض الا وينبع أصله من صخرة بيت المقدس روى أنه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة وقال عليه السلام انها ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس الى مهاجر ابراهيم

(فاسئلوه بـ... سحق و يعقوب نافلة) قيل هو مصدر كالعافية من غير لفظ الفعل السابق أي وهبناله هبة وقيل هي ولد الولد وقد سأل ولدا فأعطيه وأعطي يعقوب نافلة أي زيادة وفضلا من غير سؤال وهي حال من يعقوب (وكلا) أي ابراهيم واسحق و يعقوب وهو المفعول الاول لقوله (جعلنا) والثاني (صالحين) في الدين والنبوة (وجعلناهم أئمة) يقتدى بهم في الدين (يهدون) الناس (بأمرنا) بوحينا (وأوحينا اليهم فعل الخيرات) وهي جميع الاعمال الصالحة ٢٦٦ وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات وكذلك قوله (واقام الصلوة وايتاء الزكوة) والاصل واقامة الصلاة الاان المضاف اليه جعل بدلا من الهاء (وكانوا لنا عابدين) لا الاصنام فانتم يامعشر العرب أولاد ابراهيم فاتبعوه في ذلك (ولوطا) انتصب بفعل يفسره (آتيناه حكما) حكمة وهي مايجب فعله من العمل أوفصلا بين الخصوم أونبوة (وعلما) فقها (ونجيناه من القرية) من أهلها وهي سدوم (التي كانت تعمل الخبائث) اللواطة والضراط وحذف المارة بالحصى وغيرها (انهم كانوا قوم سوء فاسقين) خارجين عن طاعة الله (وأدخلناه في رحمتنا) في أهل رحمتنا أو في الجنة (انه من الصالحين) أي جزاءله على صلاحه كما أهلكنا قومه عقابا على فسادهم (ونوحا) أي واذكر نوحا (اذنادى) أي دعا على قومه بالهلاك (من قبل) من قبل هؤلاء المذكورين (فاستجبناله) أي دعاءه (فنجيناه وأهله) أي المؤمنين من ولده وقومه (من الكرب العظيم) من الطوفان وتكذيب أهل الطغيان (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) معناه منهم أي من أذاهم (انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم (وداود وسليمان) أي واذكرهما (اذ) بدل منهما (يحكمان في الحرث) في الزرع أو الكرم (اذ) ظرف ليحكمان (نفشت) دخلت (فيه غنم القوم) ليلا فأكلته وأفسدته والنفش انتشار الغنم ليلا بلا راع (وكنالحكمهم) أرادهما والمتحاكمين اليهما (شاهدين) أي كان ذلك بعلمنا ومرأى منا

كتاب الله المنزل ياأمير المؤمنين ان الشام كنزالله من أرضه وبها كنزه من عباده عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الارض الزمهم مهاجر ابراهيم أخرجه أبوداود أراد بالهجرة الثانية الهجرة الى الشام يرغب في المقام بها عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لأهل الشام فقلت وماذاك يارسول الله قال لان الملائكة باسطة أجنحتها عليها أخرجه الترمذي *عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال قلت يارسول الله أين تأمرني قال ههنا ونحا بيده نحو الشام أخرجه الترمذي قال محمد بن اسحق استجاب لابراهيم رجال من قومه حين رأوا ماصنع الله تعالى به من جعل النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمرود وملئهم وآمنت به سارة بنت هاران الاكبر عم ابراهيم وتبعه لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران وهو أخو ابراهيم وكان لهما أخ ثالث اسمه ناخور فثلاثتهم أولاد تارخ وهو آزر فخرج ابراهيم من كوثى من أرض العراق مهاجرا الى ربه ومعه لوط وسارة فخرج يلتمس الفرار بدينه والامان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ماشاء الله ثم خرج مهاجرا حتى قدم مصر ثم خرج و رجع الى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله نبيا الى أهلها وماقرب منها فذلك قوله تعالى ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين قوله تعالى (ووهبناله اسحق و يعقوب نافلة) أي عطية من عطاء الله قال ابن عباس النافلة هو يعقوب لان الله تعالى أعطى ابراهيم اسحق بدعائه حيث قال رب هب لي من الصالحين وزاده يعقوب نافلة وهو ولد الولد (وكلا جعلنا صالحين) يعني ابراهيم واسحق و يعقوب (وجعلناهم أئمة) أي قدوة يهتدى بهم في الخير (يهدون بأمرنا) أي يدعون الناس الى ديننا بأمرنا (وأوحينا اليهم فعل الخيرات) أي العمل بالشرائع (واقام الصلوة) أي المحافظة عليها (وايتاء الزكوة) أي الواجبة وخصهما لان الصلاة أفضل العبادات البدنية وشرعت لذكر الله والزكاة أفضل العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله (وكانوا لنا عابدين) أي موحدين قوله عز وجل (ولوطا آتيناه حكما) أي الفصل بين الخصوم بالحق وقيل أراد الحكمة والنبوة (وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث) يعني قرية سدوم وأراد أهلها وأراد بالخبائث اتيان الذكور في أدبارهم وكانوا يتضارطون في مجالسهم مع أشياء أخر كانوا يعملونها من المنكرات (انهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا) قيل أراد بالرحمة النبوة وقيل أراد بها الثواب (انه من الصالحين) يعني الانبياء قوله تعالى (ونوحا اذ نادى من قبل) أي من قبل ابراهيم ولوط (فاستجبناله) أي أجبنادعاءه (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) قال ابن عباس من الغرق وتكذيب قومه له وقيل انه كان أطول الانبياء عمرا وأشدهم بلاء والكرب أشد الغم (ونصرناه) أي منعناه (من القوم الذين كذبوا بآياتنا) من أن يصلوا اليه بسوء وقيل من بمعنى على (انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) قوله عز وجل (وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث) قال ابن عباس وأكثر المفسرين كان الحرث كرما قد تدلت عناقيده وقيل كان زرعا وهو أشبه بالعرف (اذ نفشت فيه غنم القوم) أي رعته ليلا فأفسدته وكانت بلا راع (وكنا لحكمهم شاهدين) أي كان ذلك بعلمنا ومرأى منالا يخفى علينا علمه وفيه دليل لمن يقول بأن أقل الجمع اثنان لقوله وكنا لحكمهم والمراد به داود وسليمان قال ابن عباس وغيره ان رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع ان غنم هذا دخلت زرعي ليلا فوقعت فيه فأفسدته فلم تبق منه شيأ فأعطاه رقاب الغنم بالزرع فخرجا فمرا على سليمان فقال كيف قضى بينكما فأخبراه فقال سليمان

لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا او روى انه قال غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه وقال كيف تقضي ويروى انه قال له بحق النبوة والابوة الا ما أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين قال ادفع الغنم الى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فاذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع الى صاحبه وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك فقيل كان لسليمان يوم حكم بذلك من العمر احدى عشرة سنة وحكم الاسلام في هذه المسئلة أن ما أفسدته الماشية المرسلة من مال الغير بالنهار فلا ضمان على ربها وما أفسدته بالليل ضمنه ربها لان في عرف الناس ان أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار والمواشي تسرح بالنهار وترد بالليل الى المراح ويدل على هذه المسئلة ما روى حرام بن سعد بن محيصة ان ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل من الانصار فافسدت فيه فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان على أهل الاموال حفظها بالنهار وعلى أهل المواشي حفظها بالليل زاد في رواية وان على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل أخرجه أبو داود مرسلا وذهب أصحاب الرأى أن المالك اذا لم يكن مع ماشيته فلا ضمان عليه فيما أتلفت ليلا كان أو نهارا فذلك قوله تعالى (ففهمناها سليمان) أى علمناه وألهمناه حكم القضية (وكلا) يعني داود وسليمان (آتينا حكما وعلما) أى بوجوه الاجتهاد وطرق الاحكام قال الحسن لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده واختلف العلماء في أن حكم داود كان باجتهاده أم بنص وكذلك حكم سليمان فقال بعضهم حكما بالاجتهاد قال ويجوز الاجتهاد للانبياء ليدركوا ثواب المجتهدين وللعلماء لهم الاجتهاد في الحوادث اذا لم يجدوا فيها نص كتاب أو سنة واذا أخطؤا فلا اثم عليهم (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران واذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر وقال قوم ان داود وسليمان حكما بالوحي فكان حكم سليمان ناسخا لحكم داود ومن قال بهذا يقول لا يجوز للانبياء الحكم بالاجتهاد لانهم مستغنون عنه بالوحي واحتج من ذهب الى أن كل مجتهد مصيب بظاهر هذه الآية وبالحديث حيث وعد الثواب للمجتهد على الخطا وهو قول أصحاب الرأى وذهب جماعة الى انه ليس كل مجتهد مصيبا بل اذا اختلف اجتهاد المجتهدين في حادثة كان الحق مع واحد لا بعينه ولو كان كل واحد مصيبا لم يكن للتقسيم معنى وقوله صلى الله عليه وسلم اذا اجتهد فأخطأ فله أجر لم يرد به انه يؤجر على الخطا بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق لان اجتهاده عبادة والاثم في الخطا عنه موضوع اذا لم يأل جهدا ووجه الاجتهاد في هذا الحكم ان داود قوم قدر الضرر في الحرث فكان مساويا لقيمة الغنم وكان عنده ان الواجب في ذلك الضرر في الحرث قيمة المثل فلا جرم سلم الغنم الى المجني عليه وأما سليمان فان اجتهاده أدى الى انه يجب مقابلة الاصول بالاصول والزوائد بالزوائد فأما مقابلة الاصول بالزوائد فغير جائزة ولعل منافع الغنم في تلك السنة كانت موازية لمنافع الحرث فحكم به ومن أحكام داود وسليمان عليهما السلام ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن احداهما فقالت لصاحبتها انما ذهب بابنك وقالت الاخرى انما ذهب بابنك فتحاكما الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال ائتوني بالسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى أخرجاه في الصحيحين قوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) أى يسبحن مع داود اذا سبح قال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر وقيل كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير وقيل معنى يسبحن يصلين معه اذا صلى وقيل كان داود اذا فتر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق اليه (وكنا فاعلين) يعني ما ذكر من التفهيم وايتاء الحكم والتسخير (وعلمناه صنعة لبوس لكم) أى صنعة الدروع التي تلبس في الحرب قيل أول من صنع الدروع وسردها واتخذها حلقا داود وكانت من قبل صفائح قالوا ان الله

(ففهمناها) أى الحكومة أو الفتوى (سليمان) وفيه دليل على أن الصواب كان مع سليمان صلوات الله عليه (وقصته ... ض) أى يحفظها الحرث وأفسدته بلا راع ليلا فتحاكما الى داود فحكم بالغنم لأهل الحرث وقد استوت قيمتاهما أى قيمة الغنم كانت على النقصان من الحرث فقال سليمان وهو ابن احدى عشرة سنة غير هذا أرفق بالفريقين فعزم عليه ليحكمن فقال أرى أن تدفع الغنم الى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها والحرث الى رب الغنم حتى يصلح الحرث ويعود كهيئته يوم أفسد ثم يترادان فقال القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك وكان ذلك باجتهاد منهما وهذا كان في شريعتهم فأما في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم بالليل أو بالنهار الا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد وعند الشافعي رحمه الله يجب الضمان بالليل وقال الجصاص انما ضمنوا لأنهم أرسلوها أو نسخ الضمان بقوله عليه الصلاة والسلام العجماء جبار وقال مجاهد كان هذا صلحا وما فعله داود كان حكما والصلح خير (وكلا) من داود وسليمان (آتينا حكما) نبوة (وعلما) معرفة بموجب الحكم (وسخرنا) وذللنا (مع داود الجبال يسبحن) وهو حال بمعنى مسبحات أو استئناف كأن قائلا قال كيف سخرهن فقال يسبحن (والطير) معطوف على الجبال أو مفعول معه وقدمت الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأدخل في الاعجاز لأنها جماد روى أنه كان يمر بالجبال مسبحا وهي تجاوبه وقيل كانت تسير معه حيث سار (وكنا فاعلين) بالانبياء مثل ذلك وان كان عجبا عندكم (وعلمناه صنعة لبوس لكم) أى عمل اللبوس وهو الدروع واللبوس اللباس والمراد الدروع

الان الحديد لداود وبأن يعمل منه بغير نار كأنه طين والدرع يجمع بين الخفة والحصانة وهو قوله تعالى (لتحصنكم) أي تمنعكم (من بأسكم) أي حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم وقيل ليحصنكم الله به (فهل أنتم شاكرون) أي يقول ذلك لداود وأهل بيته قوله عز وجل (ولسليمان الريح) أي وسخرنا لسليمان الريح وهو جسم متحرك لطيف ممتنع بلطفه من القبض عليه يظهر للحس بحركته ويخفى عن البصر بلطفه (عاصفة) أي شديدة الهبوب ﴿فإن قلت﴾ قد وصفها الله بالرخاء وهي الريح اللينة ﴿قلت﴾ كانت الريح تحت أمره ان أراد أن تشتد اشتدت وان أراد أن تلين لانت (تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها) يعني الشام وذلك لانها كانت تجري بسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان ثم يعود الى منزله بالشام (وكنا بكل شيء عالمين) أي بصحة التدبير فيه وعلمنا ان ما يعطى سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه الى الخضوع لربه قال وهب كان سليمان عليه السلام اذا خرج الى مجلسه حلقت عليه الطير وقام له الانس والجن حتى يجلس على سريره وكان امرأ غزاء قلما كان يقعد عن الغزو ولا يسمع في ناحية من الارض بملك الا أتاه حتى يذله وكان فيما يزعمون اذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فاذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى اذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهرا في روحته وشهرا في غدوته الى حيث أراد وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء وبالمزرعة فما تحركها ولا تثير ترابا ولا تؤذي طائرا قال وهب ذكر لي أن منزلا بناحية دجلة مكتوب فيه كتبه بعض صحابة سليمان اما من الانس أو من الجن نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه ان شاء الله فبائتون بالشام وقال مقاتل نسجت الشياطين لسليمان بساطا فرسخا في فرسخ ذهبا في ابريسم وكان يوضع له منبر من ذهب وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة تقعد الانبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه شمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح الى الرواح وقال الحسن لما شغلت نبي الله سليمان الخيل حتى فاتته صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل فأبدله الله مكانها خيرا منها وأسرع الريح تجري بأمره كيف شاء فكان يغدو من ايلياء فيقيل باصطخر ثم يروح منها فيكون رواحه ببابل وروي أن سليمان سار من أرض العراق فقال بمدينة بلخ متخللا بلاد الترك ثم جاوزهم الى أرض الصين يغدو على مسيرة شهر ويروح على مثل ذلك ثم عطف يمنة على مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى أرض السند وجاوزها وخرج منها الى مكران وكرمان ثم جاوزها حتى أتى أرض فارس فنزلها أياما وغدا منها فقال بكسكر ثم راح الى الشام وكان مستقره بمدينة تدمر وكان أمر الشياطين قبل شخوصه الى العراق فبنوها له بالصفاح والعمد والرخام الأصفر والأبيض وفي ذلك يقول النابغة

الا سليمان اذ قال المليك له * قم في البرية فاحددها عن الفند
وجيش الجن اني قد أذنت لهم * يبنون تدمر بالصفاح والعمد

قوله عز وجل (ومن الشياطين) أي وسخرنا له من الشياطين (من يغوصون له) أي يدخلون تحت الماء فيخرجون له من قعر البحر الجواهر (ويعملون عملا دون ذلك) أي دون الغوص وهو اختراع الصنائع العجيبة كما قال يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية ويتجاوزون في ذلك الى أعمال المدن والقصور والصناعات كاتخاذ النورة والقوارير والصابون وغير ذلك (وكنا لهم حافظين) أي حتى لا يخرجوا عن أمره وقيل حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا وذلك أنهم كانوا اذا عملوا عملا في النهار وفرغ قبل الليل أفسدوه وخربوه وقيل ان سليمان كان اذا بعث شيطانا مع انسان ليعمل له عملا قال له اذا فرغ من عمله قبل الليل أشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل ويخربه قوله تعالى (وأيوب اذ نادى ربه) أي دعا ربه

﴿ذكر قصة أيوب عليه السلام﴾ قال وهب بن منبه كان أيوب رجلا من الروم وهو أيوب بن اموص بن تارخ

ابن

(فاسئلوهم) شامي وحفص وفي الصنعة وبالنون أبو بكر وحماد أي الله عز وجل وبالياء غيرهم أي اللبوس أو الله عز وجل (من بأسكم) من حرب عدوكم (فهل أنتم شاكرون) استفهام بمعنى الامر أي فاشكروا الله على ذلك (ولسليمان الريح) أي وسخرنا له الريح (عاصفة) حال أي شديدة الهبوب ووصفت في موضع آخر بالرخاء لانها تجري باختياره فكانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفة لهبوبها على حكم ارادته (تجري بأمره) بأمر سليمان (الى الارض التي باركنا فيها) بكثرة الانهار والاشجار والثمار والمراد الشام وكان منزله بها وتحمله الريح من نواحي الارض اليها (وكنا بكل شيء عالمين) وقد أحاط علمنا بكل شيء فنجري الاشياء كلها على ما يقتضيه علمنا (ومن الشياطين) أي وسخرنا منهم (من يغوصون له) في البحار بأمره لاستخراج الدر وما يكون فيها (ويعملون عملا دون ذلك) أي دون الغوص وهو بناء المحاريب والتماثيل والقصور والقدور والجفان (وكنا لهم حافظين) أن يزيغوا عن أمره أو يبدلوا أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه (وأيوب) أي واذكر أيوب (اذ نادى ربه)

ابن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم وكانت أمه من ولد لوط بن هاران وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه
وبسط له الدنيا وكانت له البثنية من أرض البلقاء من أعمال حوران زم مع أرض الشام كلها سهلها وجبلها
وكان له فيها من أصناف المال كله من الابل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه في العدد
والكثرة وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل له آلة كل فدان
أتان لكل أتان من الولد اثنان أو ثلاثة أو أربع أو خمس وفوق ذلك وكان الله تعالى قد أعطاه أهلا وولدا
من رجال ونساء وكان برا تقيا رحيما بالمساكين يطعمهم ويكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف ويبلغ ابن
السبيل وكان شاكر الأنعم الله مؤديا لحق الله قد امتنع من عدو الله ابليس ان يصيب منه ما يصيب من أهل
الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من أمر الدنيا وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه
رجل من أهل اليمن يقال له النغر وقيل نغير ورجلان من أهل بلده يقال لاحدهما تلدد والآخر صافر
وكان لهؤلاء مال وكان ابليس لا يحجب عن شيء من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد حتى رفع الله عيسى
فحجب عن أربع فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن السموات كلها الا من استراق السمع فسمع ابليس
تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه فادرك ابليس الحسد والبغي فصعد
سريعا حتى وقف من السماء حيث كان يقف وقال الهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت
عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج
عن طاعتك قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله ابليس حتى وقع على الارض فجمع
عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فقد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة
الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة ما اذا شئت
تحولت اعصارا من نار فاحرق كل شيء آتي عليه قال ابليس اذهب فائت الابل ورعاتها فاتى الابل حين وضعت
رؤسها ورعت فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار فاحرق الابل ورعاتها حتى أتى على
آخرها ثم جاء عدو الله ابليس في صورة قيم ممن كانوا عليها على قعود الى أيوب فوجده قائما يصلي فقال يا أيوب
أقبلت نار حتى غشيت ابلك وأحرقتها ومن فيها غيري فقال أيوب بعد ان فرغ من الصلاة الحمد لله هو
أعطانيها وهو أخذها وانها مال الله أعارنيها وهو أولى بها اذا شاء نزعها قال فتركت الناس مبهوتين يتعجبون
منها منهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيأ وما كان الا في غرور ومنهم من يقول لو كان اله أيوب يقدر على أن
يصنع شيأ لمنع وليه ومنهم من يقول بل هو الذي فعل ما فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه فقال أيوب
الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني عريانا خرجت من بطن أمي وعريانا أعود الى التراب وعريانا أحشر الى
الله عز وجل ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعارك وتجزع حين قبض عاريته الله أولى بك وبما أعطاك ولو علم
الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الارواح وصرت شهيدا ولكنه علم منك شرا فأخرك فرجع
ابليس الى أصحابه خاسئا ذليلا فقال ما عندكم من القوة فاني لم أكلم قلبه قال عفريت من الجن عندي من
القوة ما اذا شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح الا خرجت روحه قال ابليس فائت الغنم ورعاتها فانطلق حتى
توسطها ثم صاح صيحة فتجثمت أمواتا من عند آخرها ومات رعاتها فجاء ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة
الى أيوب فوجده يصلي فقال له مثل القول الاول فرد عليه أيوب مثل الرد الاول فرجع ابليس الى أصحابه
فقال ماذا عندكم من القوة فاني لم أكلم قلب أيوب فقال عفريت عندي من القوة ما اذا شئت تحولت ريحا
عاصفة تنسف كل شيء تأتي عليه قال فائت الفدادين في الحرث والزرع فانطلق يؤمهم وذلك حين شرع
الفدادون في الحرث والزرع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصفة فنسفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن ثم
جاء ابليس متمثلا بقهرمانهم الى أيوب وهو قائم يصلي فقال له مثل قوله الاول فرد عليه أيوب مثل رده الاول
وجعل ابليس يصف ماله مالا مالا حتى مر على آخره كلما انتهى الى هلاك مال من أمواله حمد الله وأحسن
الثناء عليه ورضي عنه بالقضاء ووطن نفسه بالصبر والبلاء حتى لم يبق له مال فلما رأى ابليس أنه قد أفنى ماله

ولم ينجح منه بشئ صعد سريعا حتى وقف فى الموقف الذى يقف فيه وقال الهى ان أيوب يرى أنك ما متعته بولده
فأنت معطيه المال فهل أنت مسلطى على ولده فانها المصيبة التى لا تقوم لها قلوب الرجال قال الله عز وجل
انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض عدو الله حتى أتى بنى أيوب وهم فى قصرهم فلم يزل يزلزل بهم القصر حتى
تداعى من قواعده وجعل جدره يضرب بعضها بعضا يرميهم بالخشب والحجارة فلما مثل بهم كل مثلة رفع القصر
وقلبه عليهم وصاروا منكسين وانطلق الى أيوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ
الوجه يسيل دمه فأخبره وقال لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف انقلبوا منكسين على رؤسهم تسيل
دماؤهم وادمغتهم ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك عليهم فلم يزل يقول هذا
ونحوه حتى رق أيوب وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال ياليت أمى لم تلدنى فاغتنم
ابليس ذلك فصعد سريعا بالذى كان من جزع أيوب مسرورا به ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر واستغفر فصعد
قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته الى الله وهو أعلم فوقف ابليس خاسئا ذليلا وقال الهى انما هون على
أيوب المال والولد انه يرى انك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على جسده
فقال الله عز وجل انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله وكان الله
أعلم به ولم يسلطه عليه الا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين فى كل بلاء نزل بهم
ليتأسوا به فى الصبر ورجاء الثواب فانقض عدو الله ابليس سريعا اليه فوجد أيوب ساجدا فعجل قبل ان يرفع
رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ فى منخريه نفخة اشتعل منها جسده فخرج من قرنه الى قدمه ثآليل مثل
أليات الغنم ووقعت فيه حكة فحك باظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها
بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحك حتى قرح لحمه وتقطع وتغير وأنتن فأخرجه أهل القرية فجعلوه على
كناسة لهم وجعلوا له عريشة ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته وهى رحمة بنت افرائيم بن يوسف بن يعقوب
فكانت تختلف اليه بما يصلحه وتلزمه فلما رأى الثلاثة من أصحابه ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير
ان يتركوا دينه فلما طال به البلاء انطلق اليه أصحابه فبكتوه ولاموه وقالوا تب الى الله من الذنب الذى عوقبت
به قال وحضر معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم الفتى انكم تكلمتم أيها الكهول وأنتم
أحق بالكلام منى لاسنانكم ولكن تركتم من القول ما هو أحسن من الذى قلتم ومن الرأى أصوب من الذى
رأيتم ومن الامر أجمل من الذى أتيتم وقد كان لايوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذى وصفتم
فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم ألم تعلموا ان
أيوب نبى الله وصفوته وخيرته من أهل الارض الى يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على انه سخط شيأ من
أمره منذ آتاه الله ما آتاه الى يومكم هذا ولا على أنه نزع منه شيأ من الكرامة التى أكرمه الله بها ولا ان أيوب
قال على الله غير الحق فى طول ما صحبتموه الى يومكم هذا فان كان البلاء هو الذى أزرى به عندكم ووضعه
فى أنفسكم فقد علمتم أن الله يبتلى المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لأولئك
دليلا على سخطه عليهم ولا لهوانهم عليه ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة الا أنه
أخ أحببتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحليم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه
بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكى ويستغفر له ويحزن لحزنه ويدله على مراشد أمره وليس
بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول وقد كان فى عظمة الله وجلاله وذكر الموت
ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا ان لله عبادا أسكتتهم الخشية من غير عى ولا بكم وانهم لهم الفصحاء
البلغاء النبلاء الالباء العالمون بالله ولكنهم اذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم
وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم اعظاما لامر الله واجلالا فاذا استفاقوا من ذلك استبقوا الى الله
بالاعمال الزاكية يعدون أنفسهم من الظالمين والخاطئين وانهم لابرار برآء ومع المقصرين المفرطين وانهم
لاكياس أقوياء فقال أيوب عليه السلام ان الله يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب الصغير والكبير فاذا نبتت فى

القلب يظهرها الله على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن ولا طول التجربة واذا جعل الله العبد حكيما في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله سبحانه وتعالى عليه نور الكرامة ثم أقبل أيوب على الثلاثة وقال أتيتموني غضابا رهبتم قبل ان تسترهبوا وبكيتم قبل ان تضربوا كيف بي لو قلت تصدقوا عني بأموالكم لعل الله ان يخلصني أو قربوا عني قربانا لعل الله أن يقبله ويرضى عني وانكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم قد عوفيتم باحسانكم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا قد سترها الله تعالى بالعافية التي ألبسكم وقد كنتم فيما خلا توقرونني وأنا مسموع كلامي معروف حقي منتصف من خصمي فاصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام معكم فأنتم كنتم أشد علي من مصيبتي ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستغيثا به متضرعا اليه فقال يا رب لأي شيء خلقتني ليتني اذ كرهتني لم تخلقني يا ليتني عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت أمتني فالحقتني بآبائي فالموت كان أجمل بي ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللارملة قيما الهي أنا عبد ذليل ان أحسنت فالمن لك وان أسأت فبيدك عقوبتي جعلتني للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وقد وقع علي من البلاء ما لو سلطته على جبل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي وان قضاءك هو الذي أذاني وان سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي لرجوت ان يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه انه عذاب ثم نودي يا أيوب ان الله يقول ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريبا قم فادل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد ازرك وقم مقام جبار يخاصم جبارا ان استطعت فانه لا ينبغي ان يخاصمني الا جبار مثلي لقد منتك نفسك يا أيوب أمرا ما يبلغ لمثله مثلك أين أنت مني يوم خلقت الارض فوضعتها على أساسها هل كنت معي تمد باطرافها هل علمت باي مقدار قدرتها أم على أي شيء وضعت أكنافها أبطاعتك حمل الماء الارض أم بحكمتك كانت الارض للماء غطاء أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفا في الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها هل يبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها أين كنت مني يوم أنبعت الانهار وسكبت البحار أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم بقدرتك فتحت الارحام حين بلغت مدتها أين كنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال هل تدري على أي شيء أرسيتها أم باي مثقال وزنتها أم هل لك من ذراع تطيق حملها أم هل تدري من أين الماء الذي أنزلت من السماء أم هل تدري من أي شيء أنشأت السحاب أم هل تدري أين خزانة الثلج أم أين جبال البرد أم أين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل وأين خزانة الريح وبأي لغة تتكلم الاشجار ومن جعل العقول في أجواف الرجال وشق الاسماع والابصار ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم الارزاق بحكمته في كلام كثير يدل على آثار قدرته ذكرها لايوب فقال أيوب صغر شأني وكل لساني وعقلي ورأيي وضعفت قوتي عن هذا الامر الذي يعرض علي الهي قد علمت ان كل الذي قد ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت ولا يعجزك شيء ولا تخفى عليك خافية الهي أوثقني البلاء فتكلمت ولم أملك نفسي فكان البلاء هو الذي أنطقني ليت الارض انشقت بي فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخطك ربي وليتني مت بغمي في أشد بلائي قبل ذلك انما تكلمت حين تكلمت بعذري وسكت حين سكت لترحمني كلمة زلت مني فلن أعود وقد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني وألصقت بالتراب خدي أعوذ بك اليوم منك وأستجير بك من جهد البلاء فأجرني وأستغيث بك من عقابك فاغثني وأستعينك على أمري فأعني وأتوكل عليك فاكفني وأعتصم بك فاعصمني وأستغفرك فاغفر لي فلن أعود لشيء تكرهه مني قال الله تعالى يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي فقد غفرت لك ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية وتكون عبرة لاهل البلاء وعزاء للصابرين فاركض برجلك

هذا مغتسل بارد وشراب فنه تناول وقرب عن أصحابك قربانا واستغفر لهم فانهم قد عصوني فيك روي عن
أنس يرفعه ان أيوب ابتلي بلائه ثماني عشرة سنة وقال وهب ثلاث سنين لم يزد يوما وقال كعب سبع سنين
وقال الحسن مكث أيوب مطروحا على كناسة لبني اسرائيل سبع سنين وأشهرا يختلف فيه الدود لا يقربه
أحد غير رحمة صبرت معه بصدق وكانت تأتيه بالطعام وتحمد الله معه اذا حمد وأيوب مع ذلك لا يفتر عن
ذكر الله تعالى والصبر على بلائه فصرخ ابليس صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الارض فلما اجتمعوا اليه
قالوا ما أحزنك قال أعياني هذا العبد الذي لم أدع له مالا ولا ولدا ولم يزدد الا صبرا ثم سلطت على جسده فتركته
قرحة ملقاة على كناسة لا تقربه الا امرأته فاستعنت بكم لتعينوني عليه فقالوا له فاين مكرك الذي أهلكت
به من مضى قال بطل ذلك كله في أيوب فاشيروا علي قالوا من أين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة قال من
قبل امرأته قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فانه لا يستطيع ان تعصيها وليس يقربه أحد غيرها قال
أصبتم فانطلق ابليس حتى أتى رحمة امرأة أيوب وهي تصدق فتمثل لها في صورة رجل وقال لها أين بعلك
يا أمة الله قالت هو ذاك يحك قروحه وتتردد الديدان في جسده فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع
فوسوس اليها وذكرها ما كانت فيه من النعم والمال وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضر وان
ذلك لا ينقطع عنه أبدا فصرخت فعلم انها قد جزعت فاتاها بسخلة وقال ليذبح لي هذه أيوب ويبرأ فجاءت
تصرخ يا أيوب حتى متى يعذبك ربك أين المال أين الولد أين الصديق أين لونك الحسن أين جسمك الحسن
اذبح هذه السخلة واسترح قال أيوب أتاك عدو الله فنفخ فيك ويلك أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد
والصحة من أعطانيه قالت الله قال كم متعنا به قالت ثمانين سنة قال فمنذ كم ابتلانا قالت منذ سبع سنين وأشهر
قال ويلك ما أنصفت ربك ألا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفاني الله
لأجلدنك مائة جلدة أمرتني أن أذبح لغير الله طعامك وشرابك الذي تأتيني به علي حرام ان أذوق منه شيأ
أعزبي عني فلا أراك فطردها فذهبت فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خر ساجدا لله
وقال رب (اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) فقيل له ارفع رأسك فقد استجيبت لك اركض برجلك
فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبق عليه من درنه ودائه شئ ظاهر الا سقط وعاد شبابه وجماله
أحسن ما كان ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء الا خرج فقام صحيحا وكسي
حلة فجعل يلتفت فلا يرى شيأ مما كان عليه وما كان له من أهل ومال الا وقد ضعفه الله له وذكر لنا ان الماء
الذي اغتسل منه تطاير على صدره جرادا من ذهب فجعل يضمه بيده فأوحى الله اليه يا أيوب ألم أغنك قال بلى
ولكنها بركتك فمن يشبع منها قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف ثم ان امرأته قالت أرأيت ان كان
طردني الى من أكله أدعه يموت جوعا ويضيع فتأكله السباع لأرجعن اليه فرجعت اليه فلا الكناسة رأت
ولا تلك الحالة التي كانت تعرف واذا الامور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك
بعيني أيوب وهابت صاحب الحلة ان تأتيه فتسأله عن أيوب فدعاها وقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت
أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذا على الكناسة لا أدري أضاع أم ما فعل به فقال أيوب ما كان منك فبكت
وقالت بعلي فقال هل تعرفينه اذا رأيته قالت وهل يخفى على أحد رآه ثم جعلت تنظر اليه وهي تهابه ثم قالت
أما انه أشبه خلق الله بك اذ كان صحيحا قال فاني أنا أيوب الذي أمرتني ان أذبح سخلة لابليس واني أطعت الله
وعصيت الشيطان ودعوت الله فرد علي ما ترين وقال وهب لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب
ابليس ولم يستطع منه شيأ اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على
مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء فقال لها أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى قالت نعم قال
هل تعرفيني قالت لا قال أنا اله الارض وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت لانه عبد اله السماء وتركني
فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليك وعليه كل ما كان لكما من مال وولد فانه عندي ثم أراها اياه
ببطن الوادي الذي لقيها فيه وفي بعض الكتب ان ابليس قال لها اسجدي لي سجدة واحدة حتى أرد عليك

اني) أي دعا باني (مسني الضر) الضر بالفتح الضرر في كل شئ وبالضم الضرر في النفس من مرض أو هزال (وأنت أرحم الراحمين) ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فكأنه قال أنت أهل أن ترحم وأيوب أهل أن يرحم فارحمه واكشف عنه الضر الذي مسه وعن أنس رضي الله عنه أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض الى الصلاة ولم يشتك وكيف يشكو من قيل له انا وجدناه صابرا نعم العبد وقيل انما شكى اليه تلذذا بالنجوى لا منه تضررا بالشكوى والشكاية اليه غاية القرب كما ان الشكاية منه غاية البعد

المال والولد وأعافى زوجك فرجعت الى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراها قال لقد أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ثم أقسم ان عافاه الله ليضربنها مائة جلدة وقال عند ذلك مسنى الضر من طمع ابليس فى سجود حرمتى له ودعائه اياها واياى الى الكفر ثم ان الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها وأراد أن يبر يمين أيوب فأمره أن يأخذ ضغثا يشتمل على مائة عود صغير فيضربها به ضربة واحدة وقيل انما قال مسنى الضر حين قصد الدود الى قلبه ولسانه فخشى أن يفتر عن الذكر والفكر وقيل لم يدع الله بالكشف عنه حتى ظهرت له ثلاثة أشياء أحدها ما قيل فى حقه لو كان لك عند الله منزلة ما أصابك هذا والثانى ان امرأته طلبت طعاما فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها فأتته بطعام والثالث قول ابليس انى أداويه على أن يقول أنت شفيتنى وقيل معنى الضر أى من شماتة الاعداء حتى روى أنه قيل له بعد ما عوفى قال ما كان أشد عليك فى بلائك قال شماتة الاعداء ❊ فان قلت كيف سماه الله صابرا وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله مسنى الضر وقوله مسنى الشيطان بنصب وعذاب ❊ قلت ليس هذا شكاية وانما هو دعاء بدليل قوله تعالى فاستجبنا له والشكوى انما تكون الى الخلق لا الى الخالق بدليل قول يعقوب انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقال سفيان بن عيينة من أظهر الشكوى الى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعا كما روى أن جبريل عليه السلام دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه فقال كيف تجدك قال أجدنى مغموما وأجدنى مكروبا وقال لعائشة حين قالت وارأساه بل أنا وارأساه قوله تعالى (فاستجبنا له) أى أجبنا دعاءه (فكشفنا ما به من ضر) وذلك انه قال له اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فأمره أن يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يضرب برجله الارض مرة أخرى ففعل فنبعت عين ماء بارد فأمره أن يشرب منها فشرب فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح ما كان (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) قال ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين رد الله اليه أهله وأولاده بأعيانهم أحياهم الله وأعطاه مثلهم معهم وهو ظاهر القرآن وعن ابن عباس رواية أخرى ان الله رد الى المرأة شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا وقيل كان له سبع بنين وسبع بنات وعن أنس يرفعه انه كان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فأفرغت احداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الاخرى على أندر الشعير الورق حتى فاضا وروى أن الله تعالى بعث اليه ملكا وقال له ان ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج الى أندرك فخرج اليه فأرسل الله عليه جرادا من الذهب فذهبت واحدة فاتبعها وردها الى أندره فقال له الملك ما يكفيك ما فى أندرك فقال هذه بركة من بركات ربى ولا أشبع من بركاته (خ) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال بلى يا رب ولكن لا غنى لى عن بركتك وقيل آتى الله أيوب مثل أهله الذين هلكوا قال عكرمة قيل لأيوب ان أهلك فى الآخرة فان شئت عجلناهم لك فى الدنيا وان شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا فقال بل يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا فعلى هذا يكون معنى الآية وآتيناه أهله فى الآخرة ومثلهم معهم فى الدنيا وأراد بالاهل الاولاد (رحمة من عندنا) أى نعمة (وذكرى للعابدين) أى عظة وعبرة لهم قوله عز وجل (واسمعيل) هو ابن ابراهيم صلى الله عليهما وسلم (وادريس) هو اخنوخ (وذا الكفل كل من الصابرين) لما ذكر أمر أيوب وصبره على البلاء أتبعه بذكر هؤلاء الانبياء لانهم صبروا على المحن والشدائد والعبادة أيضا أما اسمعيل صلى الله عليه وسلم فانه صبر على الانقياد الى الذبح وأما ادريس فقد تقدمت قصته وأما ذو الكفل فاختلفوا فيه فقيل ان نبيا من بنى اسرائيل وكان ملكا أوحى الله اليه انى أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بنى اسرائيل فمن تكفل انه يصلى الليل ولا يفتر ويصوم النهار ولا يفطر ويقضى بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك اليه ففعل ذلك فقام شاب فقال أنا أتكفل لك بهذا فتكفل ووفى فشكر الله له ونبأه فسمى ذا الكفل وقيل لما كبر اليسع قال انى أستخلف رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى أنظر كيف يعمل قال فجمع الناس وقال من يتقبل

ض) أى يحفظها [illegible]

فاستجبنا له) أجبنا دعاءه (فكشفنا ما به من ضر) فكشفنا ضره انعاما عليه (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) روى أن أيوب عليه السلام كان روميا من ولد اسحق بن ابراهيم عليه السلام وله سبعة بنين وسبع بنات وثلاثة آلاف بعير وسبعة آلاف شاة وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ونخيل فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده وماله وبمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو ثلاث سنين وقالت له امرأته يوما لو دعوت الله عز وجل فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال أنا أستحى من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى فلما كشف الله عنه أحيا ولده بأعيانهم ورزقه مثلهم معهم (رحمة من عندنا) هو مفعول له (وذكرى للعابدين) يعنى رحمة لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كصبره فيثابوا كثوابه (واسمعيل) بن ابراهيم

منى ثلاثا استخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ويقضي ولا يغضب فقام رجل تزدريه العين فقال أنا فرده ذلك اليوم وقال مثلها في اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال أنا فاستخلفه فأتاه ابليس في صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام من الليل والنهار الا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا فقال شيخ كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال ان بيني وبين قومي خصومة وانهم ظلموني وفعلوا وفعلوا وجعل يطول عليه حتى ذهبت القائلة فقال اذا رحت فائتني حتى آخذ حقك فانطلق وراح فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يبتغيه فلم يجده فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلم يره فلما رجع الى القائلة وقال وأخذ مضجعه دق الباب فقال من هذا فقال الشيخ المظلوم ففتح له وقال له ألم أقل اذا قعدت فائتني قال انهم أخبث قوم اذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك واذا قمت جحدوني قال فانطلق فاذا جلست فائتني وفاتته القائلة فلما جلس جعل ينظر فلا يراه وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض أهله لا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فانه قد شق علي النعاس فلما كانت تلك الساعة نام فجاء فلم يأذن له الرجل فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسورها فاذا هو في البيت فدق الباب من داخل فاستيقظ فقال يا فلان ألم آمرك قال أما من قبلي فلم تؤت فانظر من أين أتيت فقام الى الباب فاذا هو مغلق كما أغلقه واذا الرجل معه في البيت فقال أتنام والخصوم ببابك فنظر اليه فعرفه فقال أعدو الله قال نعم أعييتني ففعلت ما فعلت لأغضبك فعصمك الله فسمي ذا الكفل لانه تكفل بأمر فوفى به واختلف في نبوته فقيل كان نبيا وهو الياس وقيل هو زكريا وقيل انه كان عبدا صالحا ولم يكن نبيا (وأدخلناهم في رحمتنا) يعني ما أنعم به عليهم من النبوة وصيرهم اليه في الجنة من الثواب (انهم من الصالحين) قوله عز وجل (وذا النون) أي واذكر صاحب الحوت أضيف الى الحوت لابتلاعه اياه وهو يونس بن متى (اذ ذهب مغاضبا) قال ابن عباس في رواية عنه كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقي منهم سبطان ونصف فأوحى الله الى شعياء النبي أن سر الى حزقيل الملك وقل له يوجه نبيا قويا فاني ألقي في قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بني اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان في مملكته خمسة من الانبياء قال يونس انه قوي أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس هل الله أمرك باخراجي قال لا قال فهل سماني الله لك قال لا قال فههنا غيري أنبياء أقوياء فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبي وللملك وقومه وأتى بحر الروم فركب وقيل ذهب عن قومه مغاضبا لربه لما كشف عنهم العذاب بعدما أوعدهم وكره أن يكون بين أظهر قوم جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذي رفع العذاب عنهم به فكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وانه يسمى كذابا لا كراهية لحكم الله وفي بعض الاخبار انه كان من عادة قومه انهم يقتلون من جربوا عليه الكذب فخشي أن يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد فذهب مغاضبا وقال ابن عباس أتى جبريل يونس فقال انطلق الى أهل نينوى فأنذرهم فقال ألتمس دابة قال الامر أعجل من ذلك فغضب وانطلق الى السفينة وقال وهب ان يونس كان عبدا صالحا في خلقه ضيق فلما حمل أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها من يديه وخرج هاربا منها فلذلك أخرجه الله من أولي العزم من الرسل وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل وقال ولا تكن كصاحب الحوت وقوله (فظن أن لن نقدر عليه) أي ان لن نقضي عليه العقوبة قاله ابن عباس في رواية عنه وقيل معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس وقيل معناه فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه قيل لما انطلق يونس مغاضبا لربه واستزله الشيطان حتى ظن أن لن نقدر عليه وكان له سلف وعبادة أبى الله ان يدعه للشيطان فقذفه في بطن الحوت فمكث فيه أربعين ما بين يوم وليلة وقيل سبعة أيام وقيل ثلاثة وقيل ان الحوت ذهب به حتى بلغ تخوم الارض السابعة فتاب الى ربه وراجع نفسه في بطن الحوت (فنادى في الظلمات) أي ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت (أن لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين) أي حيث عصيتك

(فاستغاثوا بمن شيث بن آدم (وذا الكفل) اي اذكرهم وهو الياس أو زكريا أو يوشع بن نون وسمي به لانه ذو الحظ من الله والكفل الحظ (كل من الصابرين) أي هؤلاء المذكورون كلهم موصوفون بالصبر (وأدخلناهم في رحمتنا) نبوتنا أو النعمة في الآخرة (انهم من الصالحين) أي ممن لا يشوب صلاحهم كدر الفساد (وذا النون) أي اذكر صاحب الحوت والنون الحوت فأضيف اليه (اذ ذهب مغاضبا) حال أي مراغما لقومه ومعنى مغاضبته لقومه انه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها روي انه برم بقومه لطول ما ذكرهم فلم يتعظوا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله الا غضبا لله وبغضا للكفر وأهله وكان عليه أن يصابر وينتظر الاذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت (فظن أن لن نقدر) نضيق (عليه) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه دخل على معاوية فقال لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصا الا بك قال وما هي يا معاوية فقرأ الآية فقال أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه قال هذا من القدر لا من القدرة (فنادى في الظلمات) أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات أو ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت (أن) أي أنه (لا اله الا أنت) أو بمعنى أي (سبحانك اني كنت من الظالمين) لنفسي في خروجي من قومي قبل أن تأذن لي في الحديث ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه والله الا اقراره على نفسه بالظلم وما

(فاستجبنا له ونجيناه من الغم) غم الزلة والوحشة والوحدة (وكذلك ننجي المؤمنين) اذا دعونا واستغاثوا بنا نجي شامي وأبو بكر ... أي بحفظها
الجيم عند البعض لان النون لا تدغم في الجيم وقيل تقديره نجي النجاء المؤمنين فسكن الياء تخفيفا وأسند الفعل الى المصدر ونصب المؤمنين
بالنجاء لكن فيه اقامة المصدر مقام الفاعل مع وجود المفعول وهذا لا يجوز وفيه تسكين الياء وبابه الضرورات وقيل أصله ننجي من التنجية
فحذفت النون الثانية لاجتماع النونين كما حذفت احدى التاءين في تنزل الملائكة (وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرني
فردا) سأل ربه أن يرزقه ولدا يرثه ولا يدعه وحيدا بلا وارث ثم رد أمره الى الله مستسلما فقال (وأنت خير الوارثين) أي فان لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فانك خير وارث أي باق (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى) ولدا (وأصلحنا له زوجه) جعلناها صالحة للولادة بعد العقار أي بعد عقرها أو حسنة وكانت سيئة الخلق (انهم) أي الانبياء المذكورين (كانوا يسارعون في الخيرات) أي انهم انما استحقوا الاجابة الى طلباتهم لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم في تحصيلها (ويدعوننا رغبا ورهبا) أي طمعا وخوفا كقوله يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه وهما مصدران في موضع الحال أو المفعول له أي للرغبة فينا والرهبة منا (وكانوا لنا خاشعين) متواضعين خائفين (والتي) أي واذكر التي (أحصنت فرجها) حفظته من الحلال والحرام (فنفخنا فيها من روحنا) أجرينا فيها روح المسيح أو أمرنا جبريل
فنفخ في جيب درعها فأحدثنا بذلك النفخ عيسى في بطنها واضافة الروح اليه تعالى لتشريف عيسى عليه السلام (وجعلناها وابنها آية)
مفعول ثان (للعالمين) وانما لم يقل آيتين كما قال وجعلنا الليل والنهار آيتين لان حالهما بمجموعهما آية واحدة وهي ولادتها اياه من غير
فحل أو التقدير وجعلناها آية وابنها كذلك فآية مفعول المعطوف عليه ويدل عليه قراءة من قرأ آيتين

وما صنعت من شيء فلم أعبد غيرك فأخرجه الله من بطن الحوت برحمته وروى أبو هريرة مرفوعا قال أوحى
الله تعالى الى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فأخذه ثم أهوى به الى مسكنه في البحر
فلما انتهى به الى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ما هذا فأوحى الله اليه هذا تسبيح دواب البحر قال
فسبح هو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة وفي رواية
صوتا معروفا من مكان مجهول فقال ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت فقالوا العبد الصالح
الذي كان يصعد اليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في
الساحل فذلك قوله تعالى (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) أي من تلك الظلمات (وكذلك ننجي المؤمنين)
أي من الكروب اذا دعونا واستغاثوا بنا * فان قلت قد تمسك بمواضع من هذه القصة من أجاز وقوع الذنب
من الانبياء منها قوله اذ ذهب مغاضبا ومنها فظن أن لن نقدر عليه ومنها قوله اني كنت من الظالمين * قلت
أما الجواب الكلي فقد اختلفوا في هذه الواقعة هل كانت قبل الرسالة أم لا فقال ابن عباس كانت رسالته
بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت بدليل قوله تعالى في الصافات بعد ذكر خروجه وأرسلناه الى مائة ألف
أو يزيدون فثبت بهذا أن هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد أجاز بعضهم عليهم الصغائر قبل النبوة ومنعها
بعد النبوة وهو الصحيح وأما الجواب التفصيلي لقوله اذ ذهب مغاضبا فحمله على انه لقومه أو للملك أولى بحال
الانبياء وأما قوله فظن أن لن نقدر عليه فقد تقدم معناه أي لن نضيق عليه وذلك أن يونس ظن أنه مخير
ان شاء أقام وان شاء خرج وان الله تعالى لا يضيق عليه في اختياره وقيل هو من القدر لا من القدرة وأما
قوله اني كنت من الظالمين فالظلم وضع الشيء في غير موضعه وهذا اعتراف عند بعضهم بذنبه فاما أن يكون
لخروجه عن قومه بغير اذن ربه أو لضعفه عما حمله أو لدعائه بالعذاب على قومه وفي هذه الاشياء ترك الافضل
مع قدرته على تحصيله فكان ذلك ظلما وقيل كانت رسالته قبل هذه الواقعة بدليل قوله وان يونس لمن
المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فعلى هذا يكون الجواب عن هذه الواقعة ما تقدم من التفصيل والله أعلم
قوله عز وجل (وزكريا اذ نادى ربه) أي دعا ربه فقال (رب لا تذرني فردا) أي وحيدا لا ولد لي يساعدني
وارزقني وارثا (وأنت خير الوارثين) هو ثناء على الله بانه الباقي بعد فناء الخلق وانه الوارث لهم وهذا على سبيل
التمثيل والمجاز فهو كقوله وأنت خير الرازقين (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى) أي ولدا (وأصلحنا له زوجه)
أي جعلناها ولودا بعد ما كانت عقيما وقيل كانت سيئة الخلق فأصلحها الله تعالى له بأن رزقها حسن الخلق
(انهم كانوا يسارعون في الخيرات) يعني الانبياء المذكورين في هذه السورة وقيل زكريا وأهل بيته والمسارعة
في الخيرات من أكبر ما يمدح به المرء لانها تدل على حرص عظيم في طاعة الله عز وجل (ويدعوننا رغبا
ورهبا) يعني انهم ضموا الى فعل الطاعات أمرين أحدهما الفزع الى الله لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من
عقابه والثاني الخشوع وهو قوله تعالى (وكانوا لنا خاشعين) الخشوع هو الخوف اللازم للقلب فيكون الخاشع
هو الحذر الذي لا ينبسط في الامور خوفا من الوقوع في الاثم قوله تعالى (والتي أحصنت فرجها) أي
احصانا كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت لم يمسسني بشر ولم أك بغيا وهي مريم بنت عمران (فنفخنا فيها
من روحنا) أمرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها فخلقنا بذلك النفخ المسيح في بطنها وأضاف الروح اليه
تشريفا لعيسى كبيت الله وناقة الله (وجعلناها وابنها آية) أي دلالة (للعالمين) على كمال قدرتنا على خلق ولد
من غير أب * فان قلت هما آيتان فكيف قال آية * قلت معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية واحدة أي

(فاسئلوه بحم امة واحدة) الامة الملة وهذه اشارة الى ملة الاسلام وهي ملة جميع الانبياء وامة واحدة حال أى متوحدة غير متفرقة والعامل معنى ما دل عليه اسم الاشارة أى ان ملة الاسلام هي ملتكم التى يجب ان تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار اليها ملة واحدة غير مختلفة (وأنا ربكم فاعبدون) أى وربيتكم اختيارا فاعبدونى شكرا وافتخارا والخطاب للناس كافة (وتقطعوا أمرهم بينهم) أصل الكلام وتقطعتم الا ان الكلام صرف الى الغيبة على طريقة الالتفات والمعنى وجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا وصار وافرقا وأحزابا ثم توعدهم بان هؤلاء الفرق المختلفة (كل الينا راجعون) فنجازيهم على أعمالهم (فمن يعمل من الصالحات) شيأ (وهو مؤمن) بما يجب الايمان به (فلا كفران لسعيه) أى فان سعيه مشكور مقبول والكفران مثل فى حرمان الثواب كما أن الشكر مثل فى اعطائه وقد نفى نفى الجنس ليكون أبلغ (وانا له) للسعى أى الحفظة بامرنا (كاتبون) فى صحيفة عمله فنثيبه به (وحرام) وحرم كوفى غير حفص وخلف وهما لغتان كحل وحلال وزنا وضده معنى والمراد بالحرام الممتنع وجوده (على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون) والمعنى وممتنع على مهلك غير ممكن أن لا يرجع الى الله بالبعث أو وحرام على قرية أهلكناها أى قدرنا اهلاكهم أو حكمنا باهلاكهم ذلك وهو المذكور فى الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور غير المكفور انهم لا يرجعون من الكفر الى الاسلام (حتى) هى التى يحكى بعدها الكلام والكلام المحكى الجملة من الشرط والجزاء أعنى (اذا) ومافى حيزها (فتحت يأجوج ومأجوج) أى فتح سدهما فحذف المضاف كما حذف المضاف الى قرية فتحت شامى وهما قبيلتان من جنس الانس يقال الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج (وهم) راجع الى الناس المسوقين الى المحشر وقيل هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد (من كل حدب) نشز من الارض أى ارتفاع (ينسلون) يسرعون فيصبحون

ولادتها اياه من غير أب آية قوله تعالى (ان هذه أمتكم) اى ملتكم ودينكم (أمة واحدة) أى دينا واحدا وهو الاسلام فابطل ما سوى الاسلام من الاديان والامة الجماعة التى هى على مقصد واحد وجعلت الشريعة أمة لاجتماع أهلها على مقصد واحد (وأنا ربكم فاعبدون) أى لا دين سوى دينى ولا رب لكم غيرى فاعبدونى أى وحدونى (وتقطعوا أمرهم بينهم) أى اختلفوا فى الدين فصار وافرقا وأحزابا حتى لعن بعضهم بعضا وتبرأ بعضهم من بعض (كل الينا راجعون) فنجزيهم بأعمالهم (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه) أى لا يجحد ولا يبطل سعيه بل يشكر ويثاب عليه (وانا له كاتبون) أى لعمله وحافظون له وقيل الشكر من الله المجازاة والكفران ترك المجازاة قوله عز وجل (وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون) قال ابن عباس معناه وحرام على أهل قرية أهلكناهم ان يرجعوا بعد الهلاك وقيل معناه وحرام على أهل قرية حكمنا باهلاكهم أن نقبل أعمالهم لانهم لا يتوبون قوله عز وجل (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج) يريد فتح السد وذلك أن الله يفتحه أخبر عن يأجوج ومأجوج وهما قبيلتان يقال انهم تسعة أعشار بنى آدم (وهم من كل حدب ينسلون) أى يسرعون النزول من الآكام والتلال وفى هذه الكناية وجهان أحدهما ان المراد بهم يأجوج ومأجوج وهو الاصح بدليل ما روى عن النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظننا انه فى طائفة النخل فلما رحنا اليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل فقال غير الدجال أخوفنى عليكم ان يخرج وأنا فيكم فانا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم انه شاب قطط عينه طافئة كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف انه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله وما لبثه فى الارض قال أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم قال لا أقدروا له قدره قلنا يا رسول الله وما اسراعه فى الارض قال كالغيث استدبرته الريح فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والارض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا وأسبغه ضروعا وأمده خواصر ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شئ من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه الا مات ونفسه ينتهى الى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ثم يأتى عيسى عليه السلام الى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح على وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك اذ أوحى الله الى عيسى عليه السلام انى قد أخرجت عبادا لى لا يدان لاحد أن يقاتلهم فحرز عبادى الى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لاحدهم خيرا من مائة دينار لاحدكم اليوم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم

فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه الى الارض فلا يجدون فى الارض موضع شبر الاملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطرا لايكن منه بيت مدر ولاوبر فيغسل الارض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للارض أنبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك فى الرسل حتى ان اللقحة من الابل لتكفى الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس فبينما هم كذلك اذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة أخرجه مسلم

﴿شرح غريب ألفاظ الحديث﴾ قوله حتى ظنناه فى طائفة النخل أى ناحية النخل وجانبه والطائفة القطعة من الشئ وقوله فخفض فيه ورفع أى خفض صوته ورفعه من شدة ما تكلم به فى أمره وقيل انه خفض من أمره تهوينا له ورفع من شدة فتنته والتخويف من أمره قوله انه شاب قطط أى جعد الشعر وقوله طافئة أى خارجة عن حدها قوله انه خارج خلة أى انه يخرج قصدا وطريقا بين جهتين والخلال الدخول فى الشئ قوله فعاث أى أفسد قوله أقدروا له قدره أى قدروا قدر يوم من أيامكم المعهودة وصلوا فيه بقدر أوقاته وقوله فتروح عليهم سارحتهم أى مواشيهم وقوله فيصبحون ممحلين أى مقحطين قد أجدبت أرضهم وغلت أسعارهم قوله كيعاسيب النحل جمع يعسوب وهو فحل النحل ورئيسها قوله فيقطعه جزلتين رمية الغرض أى قطعتين والغرض الهدف الذى يرمى بالنشاب قوله بين مهرودتين روى بالدال المهملة وبالمعجمة أى شقتين وقيل حلتين وقيل المهرد الصبغ الاصفر بالورس والزعفران قوله لايدان لاحد بقتالهم أى لاقدرة ولاقوة لاحد بقتالهم والنغف دود يكون فى أنوف الابل والغنم فرسى جمع فريس وهو القتيل قوله زهمهم أى ريحهم المنتنة قوله كالزلفة أى كالمرآة وجمعها زلف ويروى بالقاف وأراد به استواءها ونظافتها قوله تأكل العصابة أى الجماعة قيل يبلغون أربعين وقحف الرمانة فى الحديث قشرها والرسل بكسر الراء اللبن واللقحة الناقة ذات اللبن والفئام الجماعة من الناس والفخذ دون القبيلة وقوله يتهارجون أى يختلفون والتهارج الاختلاف وأصله القتل ﴿الوجه الثانى فى تفسير قوله تعالى وهم من كل حدب ينسلون﴾ قيل جميع الخلائق يخرجون من قبورهم الى موقف الحساب (م) عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال اطلع النبى صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ماتذكرون قالوا نذكر الساعة قال انها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم قوله عز وجل (واقترب الوعد الحق) أى القيامة قال حذيفة لوأن رجلا اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة الفلو المهر (فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) قيل معنى الآية أن القيامة اذا قامت شخصت أبصار الذين كفروا من شدة الاهوال ولا تكاد تطرف من هول ذلك اليوم ويقولون (ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا) يعنى فى الدنيا حيث كذبنابه وقلنا انه غير كائن (بل كنا ظالمين) أى فى وضعنا العبادة فى غير موضعها قوله عز وجل (انكم) الخطاب للمشركين (وما تعبدون من دون الله) يعنى الاصنام (حصب جهنم) أى حطبها ووقودها وقيل يرمى بهم فى النار كما يرمى بالحصباء وأصل الحصب الرمى (أنتم لها واردون) أى فيها داخلون (لوكان هؤلاء) يعنى الاصنام (آلهة) أى على الحقيقة (ماوردوها) أى مادخل الاصنام النار وعابدوها (وكل فيها خالدون) يعنى العابدين والمعبودين (لهم فيها زفير) قيل الزفير هو أن يملأ الرجل صدره غما ثم يتنفس وقيل هو شدة ماينالهم من العذاب (وهم فيها لايسمعون) قال ابن مسعود فى هذه الآية اذا بقى فى النار من يخلد فيها جعلوا فى توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت فى توابيت أخر ثم تلك التوابيت فى توابيت أخر عليها مسامير من نار فلا يسمعون

...ض) أى يحفظها (واقترب الوعد الحق) أى القيامة وجواب اذا (فاذا هى) وهى اذا المفاجأة وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء كقوله اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل فهى شاخصة أواذا هى شاخصة كان سديدا وهى ضمير مبهم يوضحه الابصار ويفسره (شاخصة أبصار الذين كفروا) أى مرتفعة الأجفان لاتكاد تطرف من هول ماهم فيه (ياويلنا) متعلق بمحذوف تقديره يقولون ياويلنا ويقولون حال من الذين كفروا (قد كنا فى غفلة من هذا) اليوم (بل كنا ظالمين) بوضعنا العبادة فى غير موضعها (انكم وما تعبدون من دون الله) يعنى الأصنام وابليس وأعوانه لانهم بطاعتهم له واتباعهم خطواتهم فى حكم عبدتهم (حصب) حطب وقرئ حطب (جهنم أنتم لها واردون) فيها داخلون (لو كان هؤلاء آلهة) كما زعمتم (ماوردوها) مادخلوا النار (وكل) أى العابد والمعبود (فيها) فى النار (خالدون لهم) للكفار (فيها زفير) أنين وبكاء وعويل (وهم فيها لايسمعون) شيأ مّا لانهم صاروا صما وفى السماع نوع أنس فلم يعطوه

(فاستبقوا ... سبقت لهم منا الحسنى) الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الاحسن وهي السعادة او البشرى بالثواب او التوفيق للطاعة نزلت جوابا عما قال ابن الزبعرى عند تلاوته عليه السلام على صناديد قريش انكم وما تعبدون من دون الله الى قوله خالدون أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة على ان قوله وما تعبدون لا يتناولهم لان ما لمن لا يعقل الا انهم أهل عناد فزيد في البيان (أولئك) يعني عزيرا والمسيح والملائكة (عنها) عن جهنم (مبعدون) لانهم لم يرضوا بعبادتهم وقيل المراد بقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى جميع المؤمنين لما روى أن عليا رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وقال الجنيد رحمه الله سبقت لهم منا العناية في البداية فظهرت لهم الولاية في النهاية (لا يسمعون حسيسها) صوتها الذي يحس وحركة تلهبها وهذه مبالغة في الابعاد عنها أي لا يقربونها حتى لا يسمعوا صوتها وصوت من فيها (وهم فيما اشتهت أنفسهم) من النعيم (خالدون)

شيأ ولا يرى أحد منهم أن في النار أحدا يعذب بذنب غيره قوله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال العلماء ان هنا بمعنى الا أي الا الذين سبقت لهم منا الحسنى يعني السعادة والعدة الجميلة بالجنة (أولئك عنها) أي عن النار (مبعدون) قيل الآية عامة في كل من سبقت له من الله السعادة وقال أكثر المفسرين عنى بذلك كل من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فعرض له النضر ابن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليه انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآيات الثلاث ثم قام فأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن الزبعرى أما والله لو وجدته لخصمته فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبعرى أنت قلت انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال نعم قال أليست اليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد المسيح وبنو مليح يعبدون الملائكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل هم يعبدون الشيطان فأنزل الله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى يعني عزيرا والمسيح والملائكة أولئك عنها مبعدون وأنزل في ابن الزبعرى ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون وزعم جماعة ان المراد من الآية الاولى الاصنام لان الله تعالى قال انكم وما تعبدون من دون الله ولو أراد به الملائكة والناس لقال انكم ومن تعبدون لان من لمن يعقل وما لمن لا يعقل (لا يسمعون حسيسها) يعني صوتها وحركة تلهبها اذا نزلوا منازلهم في الجنة (وهم فيما اشتهت أنفسهم) أي من النعيم والكرامة (خالدون) أي مقيمون قوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الاكبر) قال ابن عباس يعني النفخة الاخيرة وقيل هو حين يذبح الموت وينادي يا أهل النار خلود بلا موت وقيل هو حين يطبق على جهنم وذلك بعد أن يخرج الله منها من يريد أن يخرجه (وتتلقاهم الملائكة) أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) أي في الدنيا قوله عز وجل (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب) قال ابن عباس السجل الصحيفة والمعنى كطي الصحيفة على مكتوبها والطي هو الدرج الذي هو ضد النشر وقيل السجل اسم ملك يكتب أعمال العباد اذا رفعت اليه والمعنى نطوي السماء كما يطوي السجل الطومار الذي يكتب فيه والتقدير لا يحزنهم الفزع الاكبر في ذلك اليوم (كما بدأنا أول خلق نعيده) أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم عراة غرلا كذلك نعيدهم يوم القيامة (ق) عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده قوله غرلا أي قلفا وقوله تعالى (وعدا علينا انا كنا فاعلين) يعني الاعادة والبعث بعد الموت قوله تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر)

مقيمون والشهوة طلب النفس اللذة (لا يحزنهم الفزع الاكبر) النفخة الاخيرة (وتتلقاهم الملائكة) أي تستقبلهم الملائكة مهنئين على أبواب الجنة يقولون (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) أي هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربكم في الدنيا * العامل في (يوم نطوي السماء) لا يحزنهم أو تتلقاهم تطوى السماء يزيد وطيها تكوير نجومها ومحو رسومها أو هو ضد النشر نجمعها ونطويها (كطي السجل) أي الصحيفة (للكتب) حمزة وعلي وحفص أي للمكتوبات أي لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة وغيرهم للكتاب أي كما يطوى الطومار للكتابة أي لما يكتب فيه لان الكتاب أصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب وقيل السجل ملك يطوي كتب بني آدم اذا رفعت اليه وقيل كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قيل والكتاب على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها والطي مضاف الى الفاعل وعلى الاول الى المفعول (كما بدأنا أول خلق نعيده) انتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نعيده وما موصولة أي نعيده مثل الذي بدأناه نعيده وأول خلق ظرف لبدأنا أي أول ما خلق او حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت في المعنى وأول الخلق ايجاده أي فكما أوجده أولا يعيده ثانيا تشبيها للاعادة بالابداء في تناول القدرة لهما على السواء والتنكير في خلق مثله في قولك هو أول رجل جاءني تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته ارادة تفصيلهم رجلا رجلا فكذلك معنى أول خلق أول الخلق بمعنى أول الخلائق لان الخلق مصدر لا يجمع (وعدا) مصدر مؤكد لان قوله نعيده عدة للاعادة (علينا) أي وعدا كائنا لا محالة (انا كنا فاعلين) ذلك أي محققين هذا الوعد فاستعدوا له وقدموا صالح الاعمال للخلاص من هذه الاهوال (ولقد كتبنا في الزبور) كتاب داود عليه السلام (من بعد الذكر) التوراة

...الارض) أى يحفظها

(ان الارض) أى الشأم (يرثها عبادى) ساكنة الياء حمزة وغيره بفتح الياء (الصالحون) أى أمة محمد عليه السلام أو الزبور بمعنى المزبور أى المكتوب يعنى ما أنزل على الأنبياء من الكتب والذكر أم الكتاب يعنى به اللوح لان الكل أخذوا منه دليله قراءة حمزة وخلف بضم الزاى على جمع الزبر بمعنى المزبور والارض أرض الجنة (ان فى هذا) أى القرآن أو فى المذكور فى هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ (لبلاغا) لكفاية وأصله ما يبلغ به البغية (لقوم عابدين) موحدين وهم أمة محمد عليه السلام (وما أرسلناك الا رحمة) قال عليه السلام انما أنا رحمة مهداة (للعالمين) لانه جاء بما يسعدهم ان اتبعوه ومن لم يتبع فانما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها وقيل هو رحمة للمؤمنين فى الدارين وللكافرين فى الدنيا بتأخير العقوبة فيها وقيل هو رحمة للمؤمنين والكافرين فى الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال والمسخ والخسف ورحمة مفعول له أو حال أى ذا رحمة (قل انما) انما لقصر الحكم على شئ أو لقصر الشئ على حكم نحو انما زيد قائم وانما يقوم زيد وفاعل (يوحى الى أنما الهكم اله واحد) والتقدير يوحى الى وحدانية الهى ويجوز أن يكون المعنى ان الذى يوحى الى فتكون ما موصولة (فهل أنتم مسلمون) استفهام بمعنى الامر أى أسلموا (فان تولوا) عن الاسلام (فقل آذنتكم) أعلمتكم ما أمرت به (على سواء) حال أى مستوين فى الاعلام به ولم أخصص بعضكم وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية (وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون) أى لا أدرى متى يكون يوم القيامة لان الله تعالى لم يطلعنى عليه ولكنى أعلم بأنه كائن لا محالة أولا أدرى متى يحل بكم العذاب ان لم تؤمنوا (انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) أى انه عالم بكل شئ يعلم ما تجاهرونى به من الطعن فى الاسلام وما تكتمونه فى صدوركم من الاحقاد للمسلمين وهو مجازيكم عليه (وان أدرى لعله فتنة لكم) وما أدرى لعل تأخير العذاب عنكم فى الدنيا امتحان لكم لينظر كيف تعملون (ومتاع الى حين) وتمتيع لكم الى الموت ليكون ذلك حجة عليكم (قال رب احكم بالحق) اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل أو بما يحق عليهم من العذاب ولا تحابهم وشدد عليهم كما قال واشدد وطأتك على مضر قال رب حفص على حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم رب احكم يزيد ربى أحكم زيد عن يعقوب (وربنا الرحمن) العاطف على خلقه (المستعان) المطلوب منه المعونة (على ما تصفون) وعن ابن ذكوان بالياء كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة لهم والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم

قيل الزبور جميع الكتب المنزلة على الانبياء والذكر هو أم الكتاب الذى عنده ومن ذلك الكتاب تنسخ جميع الكتب ومعنى من بعد الذكر أى بعد ما كتب فى اللوح المحفوظ وقال ابن عباس الزبور التوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة وقيل الزبور كتاب داود والذكر هو القرآن وبعد هنا بمعنى قبل (ان الارض يرثها عبادى الصالحون) يعنى أرض الجنة يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى أن الله تعالى كتب فى اللوح المحفوظ فى كتب الانبياء ان الجنة يرثها من كان صالحا من عباده عاملا بطاعته وقال ابن عباس أراد ان أراضى الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى باظهار الدين واعزاز المسلمين وقيل أراد الارض المقدسة يرثها الصالحون بعد من كان فيها (ان فى هذا) أى فى القرآن (لبلاغا) أى وصولا الى البغية يعنى من اتبع القرآن وعمل بما فيه وصل الى ما يرجو من الثواب وقيل البلاغ الكفاية أى فيه كفاية لما فيه من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة فهو زاد العباد الى الجنة وهو قوله تعالى (لقوم عابدين) أى مؤمنين لا يعبدون أحدا من دون الله تعالى وقيل هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان والحج وقال ابن عباس عالمين وقيل هم العالمون العاملون قوله عز وجل (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) قيل كان الناس أهل كفر وجاهلية وضلال وأهل الكتابين كانوا فى حيرة من أمر دينهم لطول مدتهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف فى كتبهم فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حين لم يكن لطالب الحق سبيل الى الفوز والثواب فدعاهم الى الحق وبين لهم سبيل الصواب وشرع لهم الاحكام وبين الحلال من الحرام قال الله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين قيل يعنى المؤمنين خاصة فهو رحمة لهم وقال ابن عباس هو عام فى حق من آمن ومن لم يؤمن فمن آمن فهو رحمة له فى الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن فهو رحمة له فى الدنيا بتأخير العذاب عنه ورفع المسخ والخسف والاستئصال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنا رحمة مهداة (قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون) أى منقادون لما يوحى الى من اخلاص الالهية والتوحيد لله والمراد بهذا الاستفهام الامر أى أسلموا (فان تولوا) أى أعرضوا ولم يسلموا (فقل آذنتكم) أى أعلمتكم بالحرب وأن لا صلح بيننا (على سواء) أى انذارا بينا نستوى فى علمه لا أستبد أنا به دونكم لتتأهبوا لما يراد بكم والمعنى آذنتكم على وجه نستوى نحن وأنتم فى العلم به وقيل معناه لتستووا فى الايمان به وأعلمتكم بما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره (وان أدرى) أى وما أعلم (أقريب أم بعيد ما توعدون) يعنى يوم القيامة لا يعلمه الا الله (انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) أى لا يغيب عن علمه شئ منكم فى علانيتكم وسركم (وان أدرى لعله فتنة لكم) أى لعل تأخير العذاب عنكم اختبار لكم ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم بكم (ومتاع الى حين) أى تتمتعون الى انقضاء آجالكم (قال رب احكم) أى افصل بينى وبين من كذبنى (بالحق) أى بالعذاب كانه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر وقيل معناه افصل بينى وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرنى عليهم والله يحكم بالحق طلب أو لم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) أى من الشرك والكفر والكذب والاباطيل كانه سبحانه

(فاستشهدوا) رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وخذلهم أي الكفار وهو المستعان على ما يصفون

﴿سورة الحج مكية وهي ثمان وسبعون آية﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (يا أيها الناس اتقوا ربكم) أمر بني آدم بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة بقوله (ان زلزلة الساعة شئ عظيم) لينظروا الى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردي بلباس التقوى الذي يؤمنهم من تلك الافزاع والزلزلة شدة التحريك

والازعاج واضافة الزلزلة الى الساعة اضافة المصدر الى فاعله كأنها هي التي تزلزل الارض على المجاز الحكمي أو الى الظرف لانها تكون فيها كقوله بل مكر الليل والنهار ووقتها يكون يوم القيامة أو عند طلوع الشمس من مغربها ولا حجة فيها للمعتزلة في تسمية المعدوم شيأ فان هذا اسم لها حال وجودها وانتصب (يوم ترونها) أى الزلزلة أو الساعة بقوله (تذهل) تغفل والذهول الغفلة (كل مرضعة عما أرضعت) عن ارضاعها أو عن الذي أرضعته وهو الطفل وقيل مرضعة ليدل على ان ذلك الهول اذا حدث وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة اذ المرضعة هي التي في حال الارضاع ملقمة ثديها الصبي والمرضع التي شأنها ان ترضع وان لم تباشر الارضاع في حال وصفها به (وتضع كل ذات حمل) أى حبلى (حملها) ولدها قبل تمامه عن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام (وترى الناس) أيها الناظر (سكارى) على التشبيه لما شاهدوا بساط العزة وسلطنة الجبروت وسرادق الكبرياء حتى قال كل نبي نفسي نفسي (وما هم بسكارى) على التحقيق (ولكن عذاب الله شديد) فخوف عذاب الله هو الذي اذهب عقولهم وطير تمييزهم وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه وعن الحسن وترى الناس سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب سكرى فيهما بالامالة حمزة وعلى وهو كعطشى في عطشان روى انه نزلت الآيتان ليلا في غزوة بني المصطلق فقرأهما النبي عليه السلام فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة

سبعون

وتعالى كال قل داعيا الى رب احكم بالحق وقل متوعد الكفار وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة الحج﴾

وهي مكية غير ست آيات من قوله عز وجل هذان خصمان الى قوله وهدوا الى صراط الحميد وهي ثمان وسبعون آية وألف ومائتان واحدى وتسعون كلمة وخمسة آلاف وخمسة وسبعون حرفا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قوله عز وجل (يا أيها الناس اتقوا ربكم) أى احذروا عقابه واعملوا بطاعته (ان زلزلة الساعة شئ عظيم) الزلزلة شدة الحركة على الحال الهائلة ووصفها بالعظم ولا شئ أعظم مما عظمه الله تعالى قيل هي من أشراط الساعة قبل قيامها وقال ابن عباس زلزلة الساعة قيامها فتكون معها (يوم ترونها) أى الساعة وقيل الزلزلة (تذهل) قال ابن عباس تشغل وقيل تنسى (كل مرضعة عما أرضعت) أى كل امرأة معها ولد ترضعه (وتضع كل ذات حمل حملها) أى تسقط من هول ذلك اليوم كل حامل حملها قال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام فعلى هذا القول تكون الزلزلة في الدنيا لان بعد البعث لا يكون حبل ومن قال تكون الزلزلة في القيامة قال هذا على وجه تعظيم الامر وتهويله لا على حقيقته كما تقول أصابنا أمر يشيب فيه الوليد تريد به شدته (وترى الناس سكارى) على التشبيه (وما هم بسكارى) على التحقيق ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وأزال تمييزهم وقيل سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب (ولكن عذاب الله شديد) (ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك زاد في رواية والخير في يديك فينادي بصوت ان الله تعالى يأمرك أن تخرج من ذريتك بعث النار قال رب وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحوامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم زاد في رواية قالوا يا رسول الله أينا ذلك الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الابيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الاسود وفي رواية كالرقمة في ذراع الحمار واني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا لفظ البخاري وفي حديث عمران بن حصين وغيره ان هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلا فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطي حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا والناس من بين باك وجالس حزين متفكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعث النار وذكر نحو حديث أبي سعيد وزاد فيه ثم قال يدخل من أمتي

سبعون ألفا الجنة بغير حساب فقال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا قوله عز وجل (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) نزلت فى النضر بن الحرث كان كثير الجدل وكان يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين وكان ينكر البعث واحياء من صار ترابا (ويتبع) أى فى جداله فى الله بغير علم (كل شيطان مريد) أى المتمرد المستمر فى الشر وفيه وجهان أحدهما انهم شياطين الانس وهم رؤساء الكفر الذين يدعون من دونهم الى الكفر والثانى انها ابليس وجنوده (كتب عليه) أى قضى على الشيطان (انه من تولاه) أى اتبعه (فانه) يعنى الشيطان (يضله) أى يضل من تولاه عن طريق الجنة (ويهديه الى عذاب السعير) وفى الآية زجر عن اتباعه والمعنى كتب عليه انه من يقبل منه فهو فى ضلال ثم ألزم الحجة منكرى البعث فقال (يا أيها الناس ان كنتم فى ريب) أى شك (من البعث) أى بعد الموت (فانا خلقناكم من تراب) يعنى أباكم آدم الذى هو أصل النسل (ثم من نطفة) يعنى ذريته من المنى وأصلها الماء القليل (ثم من علقة) أى من دم جامد غليظ وذلك ان النطفة تصير دما غليظا (ثم من مضغة) وهى لحمة قليلة قدر ما يمضغ (مخلقة وغير مخلقة) قال ابن عباس أى تامة الخلق وغير تامة الخلق وقيل مصورة وغير مصورة وهو السقط وقيل المخلقة بالولد الذى تأتى به المرأة لوقته وغير المخلقة السقط فكأنه سبحانه وتعالى قسم المضغة الى قسمين أحدهما تام الصورة والحواس والتخطيط والقسم الثانى هو الناقص عن هذه الأحوال كلها وروى عن علقمة عن ابن مسعود موقوفا عليه قال ان النطفة اذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه وقال أى رب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة قذفها فى الرحم دما ولم تكن نسمة وان قال مخلقة قال الملك أى رب أذكر أم أنثى أشقى أم سعيد ما الأجل ما العمل ما الرزق بأى أرض يموت فيقال له اذهب الى أم الكتاب فانك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها فى أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتى على آخر صفته والذى أخرجاه فى الصحيحين عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذى لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها وقوله تعالى (لنبين لكم) أى كمال قدرتنا وحكمتنا فى تصريف خلقكم ولتستدلوا بقدرته فى ابتداء الخلق على قدرته على الاعادة وقيل لنبين لكم ما تأتون وما تذرون وما تحتاجون اليه فى العبادة وقيل لنبين لكم أن تغير المضغة الى الخلقة هو اختيار الفاعل المختار فان القادر على هذه الأشياء كيف يكون عاجزا عن الاعادة (ونقر فى الأرحام ما نشاء) أى لا تسقطه ولا تمجه (الى أجل مسمى) أى وقت خروجه من الرحم تام الخلق (ثم نخرجكم) أى وقت الولادة من بطون أمهاتكم (طفلا) أى صغارا وانما وحد الطفل لان الغرض الدلالة على الجنس (ثم لتبلغوا أشدكم) أى كمال القوة والعقل والتمييز (ومنكم من يتوفى) أى قبل بلوغ الكبر (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أى

(ومن الناس من يجادل فى الله) فى دين الله (بغير علم) [illegible] الملائكة بنات الله [illegible] أى محفظها الأولين والله غير قادر على احياء من بلى أو هى عامة فى كل من يخاصم فى الدين بالهوى (ويتبع) فى ذلك (كل شيطان مريد) عات مستمر فى الشر ولا وقف على مريد لان ما بعده صفته (كتب عليه) قضى على الشيطان (أنه) ان الأمر والشأن وهو فاعل كتب (من تولاه) تبعه أى تبع الشيطان (فانه) فان الشيطان (يضله) عن سواء السبيل (ويهديه الى عذاب السعير) النار قال الزجاج الفاء فى فانه للعطف وان مكررة للتأكيد ورد عليه أبو على وقال ان من ان كان للشرط فالفاء دخل لجزاء الشرط وان كان بمعنى الذى فالفاء دخل على خبر المبتدا والتقدير فالأمر انه يضله قال والعطف والتأكيد يكون بعد تمام الاول والمعنى كتب على الشيطان اضلال من تولاه وهدايته الى النار ثم ألزم الحجة على منكرى البعث فقال (يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث) يعنى ان ارتبتم فى البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا فى بدء خلقكم وقد كنتم فى الابتداء ترابا وماء وليس سبب انكاركم البعث الا هذا وهو صيرورة الخلق ترابا وماء (فانا خلقناكم) أى أباكم (من تراب ثم) خلقتم (من نطفة ثم من علقة) أى قطعة دم جامد (ثم من مضغة) أى لحمة صغيرة قدر ما يمضغ (مخلقة وغير مخلقة) المخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب كان الله عز وجل يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم وانما نقلناكم من حال الى حال ومن خلقة الى خلقة (لنبين لكم) بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنا وان من قدر على خلق البشر من تراب أولا ثم نطفة ثانيا ولا مناسبة بين التراب والماء وقدر أن يجعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما قدر على اعادة ما بدأه (ونقر) بالرفع عند غير المفضل مستأنف بعد وقف أى نحن نثبت (فى الارحام ما نشاء) ثبوته (الى أجل مسمى) أى وقت الولادة وما لم نشأ ثبوته أسقطته الارحام (ثم نخرجكم) من الرحم (طفلا) حال وأريد به الجنس فلذا لم يجمع أو أريد به ثم نخرج كل واحد منكم طفلا (ثم لتبلغوا) ثم نربيكم لتبلغوا (أشدكم) كمال عقلكم وقوتكم وهو من ألفاظ الجموع التى لا يستعمل لها واحد (ومنكم من يتوفى) عند بلوغ الاشد أو قبله أو بعده (ومنكم من يرد الى أرذل العمر)

رف (لكيلا يعلم من ... ... بعد علم ... ... وينسى ما كان عالما به

(فاستدل تدليلا آخر على البعث فقال (وترى الارض هامدة) ميتة يابسة (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت) تحركت بالنبات (وربت) وانتفخت
يجوز بأنه حيث كان يزداد ارتفعت (وأنبتت من كل زوج) صنف (بهيج) حسن سار للناظرين اليه (ذلك) مبتدأ خبره (بأن الله هو الحق) أى
ذلك الذى ذكرنا من خلق بنى آدم واحياء الارض مع ما فى تضاعيف ذلك من أصناف الحكم حاصل بهذا وهو أن الله هو الحق أى الثابت
الوجود (وانه يحيي الموتى) كما أحيا الارض (وانه على كل شئ قدير) قادر (وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) أى
انه حكيم لا يخالف الميعاد وقد وعد الساعة والبعث فلا بد أن يفى بما وعد (ومن الناس من يجادل فى الله) فى صفاته فيصفه بغير ما هو له نزلت
فى أبى جهل (بغير علم) ضرورى (ولا هدى) ٢٨٢ أى استدلال لانه يهدى الى المعرفة (ولا كتاب منير) أى وحى والعلم للانسان من
أحد هذه الوجوه الثلاثة
(ثانى عطفه) حال أى
لاويا عنقه عن طاعة الله
كبرا وخيلاء وعن الحسن
ثانى عطفه بفتح العين أى
مانع تعطفه الى غيره
(ليضل) تعليل للمجادلة
ليضل مكى وأبو عمرو
(عن سبيل الله) دينه (له
فى الدنيا خزى) أى القتل
يوم بدر (ونذيقه يوم
القيامة عذاب الحريق)
أى جمع له عذاب الدارين
(ذلك بما قدمت يداك)
أى السبب فى عذاب
الدارين هو ما قدمت نفسه
من الكفر والتكذيب
وكنى عنها باليد لان اليد
آلة الكسب (وأن الله
ليس بظلام للعبيد) فلا
يأخذ أحدا بغير ذنب ولا
بذنب غيره وهو عطف
على بما أى وبأن الله
وذكر الظلام بلفظ
المبالغة لاقترانه بلفظ
الجمع وهو العبيد ولان
قليل الظلم منه مع علمه
بقبحه واستغنائه كالكثير منا (ومن الناس من يعبد الله على حرف) على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة وهو حال أى مضطربا (فان أصابه خير) صحة فى جسمه وسعة فى معيشته (اطمأن) سكن واستقر (به) بالخير الذى أصابه أو بالدين فعبد الله (وان أصابته فتنة) شر وبلاء فى جسده وضيق معيشته (انقلب على وجهه) جهته أى ارتد ورجع الى الكفر كالذى يكون على طرف من العسكر فان أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن والا فر وطار على وجهه قالوا نزلت فى أعاريب قدموا المدينة مهاجرين وكان أحدهم اذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سويا وولدت امرأته غلاما سويا وكثر ماله وماشيته قال ما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا الا خيرا واطمأن وان كان الامر بخلافه قال ما أصبت الا شرا وانقلب عن دينه (خسر الدنيا والآخرة) حال وقد مقدرة دليله قراءة روح وزيد خاسر

الهرم والخرف (لكيلا يعلم من بعد علم شيأ) أى يبلغ من السن ما يتغير به عقله فلا يعقل شيأ فيصير كما كان فى أول طفوليته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال تعالى (وترى الارض هامدة) أى يابسة لا نبات فيها (فاذا أنزلنا عليها الماء) يعنى المطر (اهتزت) أى تحركت بالنبات (وربت) أى ارتفعت وذلك ان الارض ترتفع بالنبات (وأنبتت) هو مجاز لان الله تعالى هو المنبت وأضيف الى الارض توسعا (من كل زوج بهيج) أى من كل صنف حسن نضير والبهيج هو المبهج وهو الشئ المشرق الجميل ثم ان الله تعالى لما ذكر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب فقال تعالى (ذلك) أى ذكرنا ذلك لتعلموا (بأن الله هو الحق) وان هذه الأشياء دالة على وجود الصانع (وانه يحيي الموتى) أى انه اذا لم يستبعد منه ايجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه اعادة الأموات (وانه على كل شئ قدير) أى من كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات (وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) أى ما ذكر من الدلائل لتعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها وانها حق وان البعث بعد الموت حق قوله تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) يعنى النضر بن الحرث (ولا هدى) أى ليس معه من الله بيان ولا رشاد (ولا كتاب منير) أى ولا كتاب من الله له نور (ثانى عطفه) أى لاوى جنبه وعنقه متبخترا لتكبره معرضا عما يدعى اليه من الحق تكبرا (ليضل عن سبيل الله) أى عن دين الله (له فى الدنيا خزى) أى عذاب وهوان وهو أنه قتل يوم بدر صبرا هو وعقبة بن أبى معيط (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك) أى يقال له ذلك (بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى فيعذبهم بغير ذنب والله تعالى على أى وجه أراد يتصرف فى عبده فحكمه عدل وهو غير ظالم قوله عز وجل (ومن الناس من يعبد الله على حرف) الآية نزلت فى قوم من الاعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم اذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهرا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيرا واطمأن له وان أصابه مرض وولدت امرأته جارية ولم تلد فرسه وقل ماله قال ما أصبت منذ دخلت فى هذا الدين الا شرا فينقلب عن دينه وذلك هو الفتنة فانزل الله تعالى ومن الناس من يعبد الله على حرف أى على شك وأصله من حرف الشئ وهو طرفه نحو حرف الجبل والحائط الذى غير مستقر فقيل للشاك فى الدين انه يعبد الله على حرف لانه لم يدخل فيه على الثبات والتمكن وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكينة وطمأنينة ولو عبدوا الله بالشكر على السراء والصبر على الضراء لم يكونوا على حرف وقيل هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه (فان أصابه خير) أى صحة فى جسمه وسعة فى معيشته (اطمأن به) أى رضى به وسكن اليه (وان أصابته فتنة) أى بلاء فى جسمه وضيق فى معيشته (انقلب على وجهه) أى ارتد ورجع على عقبه الى الوجه الذى كان عليه من الكفر (خسر الدنيا والآخرة) أى خسر فى الدنيا العز والكرامة

... ض) أي يحفظها

الدنيا والآخرة والخسران في الدنيا بالقتل فيها وفي الآخرة بالخلود في النار (ذلك) أي خسران الدارين (هو الخسران المبين) الظاهر الذي لا يخفى على أحد (يدعو من دون الله) يعني الصنم فانه بعد الردة يفعل كذلك (ما لا يضره) ان لم يعبده (وما لا ينفعه) ان عبده (ذلك هو الضلال البعيد) عن الصواب (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) والاشكال أنه تعالى نفى الضر والنفع عن الاصنام قبل هذه الآية وأثبتهما هنا والجواب ان المعنى اذا فهم ذهب هذا الوهم وذلك ان الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جماد الا يملك ضرا ولا نفعا وهو يعتقد فيه انه ينفعه ثم قال يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالاصنام ولا يرى لها أثر الشفاعة ٢٨٣ لمن ضره أقرب من نفعه (لبئس

ولا يبقى دمه وماله مصونا وقيل خسر في الدنيا ما كان يؤمل والآخرة بذهاب الدين والخلود في النار (ذلك هو الخسران المبين) أي الظاهر (يدعو من دون الله ما لا يضره) ان عصاه ولم يعبده (وما لا ينفعه) أي ان أطاعه وعبده (ذلك هو الضلال البعيد) أي عن الحق والرشد (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) * فان قلت قد قال الله تعالى في الآية الاولى يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه وقال في هذه الآية يدعو لمن ضره أقرب من نفعه وهذا تناقض فكيف الجمع بينهما * قلت اذا حمل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك ان الله تعالى قال في الآية الاولى ما لا يضره أي لا يضره ترك عبادته وقوله لمن ضره أي ضر عبادته وقيل انها لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفي في اضافة الضرر اليها وقيل ان الله تعالى سفه الكافر حيث عبد جمادا لا يضر ولا ينفع وهو يعتقد بجهله وضلاله انه ينتفع به حين يستشفع وقيل الآية في الرؤساء وهم الذين كانوا يفزعون اليهم لانه يصح منهم ان يضروا و ينفعوا وجه هذا القول ان الله تعالى بين في الآية الاولى ان الاوثان لا تضر ولا تنفع وهذه الآية تقتضي كون المذكور فيها ضارا نافعا فلو كان المذكور في هذه الأوثان لزم التناقض فثبت انهم الرؤساء بدليل قوله (لبئس المولى ولبئس العشير) أي الناصر والصاحب المعاشر قوله عز وجل (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد) أي بأوليائه وأهل طاعته من الكرامة و بأهل معصيته من الهوان قوله تعالى (من كان يظن أن لن ينصره الله) يعني نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم (في الدنيا) أي باعلاء كلمته واظهار دينه (والآخرة) أي وفي الآخرة باعلاء درجته والانتقام ممن كذبه (فليمدد بسبب) أي بحبل (الى السماء) أي سقف البيت على قول الاكثرين والمعنى ليشدد حبلا في سقف بيته فليختنق به حتى يموت (ثم ليقطع) أي الحبل بعد الاختناق وقيل ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقا (فلينظر هل يذهبن كيده) أي صنيعه وحيلته (ما يغيظ) أي فليختنق غيظا وليس هذا على سبيل الحتم لانه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق ولكنه كما يقال للحاسد مت غيظا وقيل المراد بالسماء السماء المعروفة والمعنى من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه و يكيد في أمره ليقطعه عنه فليقطعه من أصله فان أصله في السماء فليطلب سببا يصل به الى السماء ثم ليقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم الوحي الذي يأتيه فلينظر هل يتهيأ له الوصول الى السماء بحيلة وهو يقدر على اذهاب غيظه بهذا الفعل فاذا كان ذلك ممتنعا كان غيظه عديم الفائدة وفي الآية زجر للكافر عن الغيظ فيما لا فائدة فيه روي ان الآية نزلت في قوم من أسد وغطفان دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم الى الاسلام وكان بينهم و بين اليهود محالفة فقالوا لا يمكننا أن نسلم لانا نخاف ان لا ينصر محمد ولا يظهر أمره فتنقطع المحالفة بيننا و بين اليهود فلا يميرونا ولا يؤونا وقيل النصر معناه الرزق ومعنى الآية من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فان ذلك لا يجعله مرزوقا تقول العرب من ينصرني نصره الله أي من يعطني أعطاه الله (وكذلك أنزلناه) يعني القرآن (آيات بينات وأن الله يهدي من يريد ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا) يعني عبدة الأوثان قيل الاديان ستة واحد لله وهو الاسلام وخمسة للشيطان وهو ما عدا الاسلام (ان الله يفصل بينهم) أي يحكم بينهم (يوم القيامة) وقيل يفصل بينهم في الاحوال والاماكن جميعا فلا يجازيهم

المولى) أي الناصر الصاحب (ولبئس العشير) المصاحب وكرر يدعو كأنه قال يدعو يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ثم قال لمن ضره بكونه معبودا أقرب من نفعه بكونه شفيعا (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد) هذا وعد لمن عبد الله بكل حال لا لمن عبد الله على حرف (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة) المعنى ان الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة فمن ظن من أعاديه غير ذلك (فليمدد بسبب) بحبل (الى السماء) الى سماء بيته (ثم ليقطع) ثم ليختنق به وسمي الاختناق قطعا لان المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه و بكسر اللام بصري وشامي (فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) أي الذي يغيظه أو ما مصدرية أي غيظه والمعنى فليصور في نفسه انه ان فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه

وسمي فعله كيدا على سبيل الاستهزاء لانه لم يكد به محسوده انما كاد به نفسه والمراد ليس في يده الا ما ليس بمذهب لما يغيظ (وكذلك أنزلناه) ومثل ذلك الانزال أنزل القرآن كله (آيات بينات) واضحات (وان الله يهدي من يريد) أي ولان الله يهدي به الذين يعلم انهم يؤمنون أو يثبت الذين آمنوا و يزيدهم هدى أنزله كذلك مبينا (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا) قيل الاديان خمسة أربعة للشيطان و واحد للرحمن والصابئون نوع من النصارى فلا تكون ستة (ان الله يفصل بينهم يوم القيامة) في الاحوال والاماكن فلا يجازيهم جزاء واحدا ولا يجمعهم في موطن واحد وخبر ان الذين آمنوا ان الله يفصل بينهم كما تقول ان زيدا ان أباه قائم

جزاء واحدا بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد (ان الله على كل شئ شهيد) أي انه عالم بما يستحقه كل واحد منهم فلا يجرى في ذلك الفصل ظلم ولا حيف وقد تقدم بسط الكلام على معنى هذه الآية في تفسير سورة البقرة قوله عز وجل (ألم تر) أي ألم تعلم وقيل ألم تر بقلبك (أن الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) قيل سجود هذه الاشياء تحول ظلالها وقيل ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر الا يقع ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع الى مطلعه وقيل معنى سجودها الطاعة فانه ما من جماد الا وهو مطيع لله تعالى خاشع ومسبح له كما وصفهم بالخشية والتسبيح وهذا مذهب أهل السنة وهو ان هذه الاجسام لما كانت قابلة لجميع الأعراض التي خلقها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة أشبهت بطاعتها أفعال المكلف وهو السجود الذي كل خضوع دونه ﴿فان قلت﴾ هذا التأويل يبطله قوله (وكثير من الناس) فان السجود بالمعنى الذي ذكر عام في الناس كلهم فاسناده الى كثير من الناس يكون تخصيصا من غير فائدة ﴿قلت﴾ المعنى الذي ذكرته وان كان عاما في حق الكل الا أن بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود في الظاهر فهذا وان كان ساجدا بذاته لكنه متمرد بظاهره وأما المؤمن فانه ساجد بذاته و بظاهره أيضا فلاجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر وقيل معنى الآية ولله يسجد من في السموات ومن في الارض و يسجد له كثير من الناس فيكون السجود الاول بمعنى الانقياد والثاني بمعنى الطاعة والعبادة ﴿فان قلت﴾ قوله من في السموات ومن في الارض لفظ عموم فيدخل فيه الناس فلم قال وكثير من الناس ﴿قلت﴾ لو اقتصر على ما تقدم لأوهم أن كل الناس يسجدون فبين ان كثيرا من الناس يسجدون طوعا دون بعض وهم الذين قال فيهم (وكثير حق عليه العذاب) وهم الكفار أي حق عليهم العذاب بكفرهم وتركهم السجود ومع كفرهم وامتناعهم من السجود تسجد ظلالهم لله عز وجل (ومن يهن الله فما له من مكرم) أي من يذله الله فلا يكرمه أحد (ان الله يفعل ما يشاء) أي يكرم الله بالسعادة من يشاء و يهين بالشقاوة من يشاء وقيل هو الذي يصح منه الاكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب

﴿فصل﴾ هذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند تلاوتها أو سماع تلاوتها قوله عز وجل (هذان خصمان اختصموا في ربهم) أي جادلوا في دينه وأمره واختلفوا في هذين الخصمين فروى عن قيس بن عبادة قال سمعت أبا ذر يقسم قسما ان هذه الآية هذان خصمان اختصموا في ربهم نزلت في الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة أخرجاه في الصحيحين (خ) عن علي بن أبي طالب قال أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الرحمن يوم القيامة قال قيس بن عبادة فيهم نزلت هذان خصمان اختصموا في ربهم قال هم الذين تبارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة بن الحرث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وابن أخيه الوليد بن عتبة قال محمد بن اسحق خرج يوم بدر عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وابن أخيه الوليد بن عتبة ودعوا الى المبارزة فخرج اليهم فتية من الانصار ثلاثة عوف ومعوذ ابنا الحرث وأمهما عفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا من أنتم قالوا رهط من الانصار فقالوا حين انتسبوا أكفاء كرام ثم نادى مناديهم يا محمد أخرج الينا أكفاءنا من قومنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قم يا عبيدة بن الحرث و يا حمزة بن عبد المطلب و يا علي بن أبي طالب فلما دنوا منهم قالوا من أنتم فذكروا أنفسهم قالوا نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة و بارز حمزة شيبة و بارز علي الوليد بن عتبة فاما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة وعلي الوليد واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما أثبت صاحبه فكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة الى أصحابه وقد قطعت رجله ومخها يسيل فلما أتوا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألست شهيدا يا رسول الله قال بلى فقال عبيدة لو كان أبو طالب حيا لعلم أنا أحق بما قال منه حيث يقول

(فاستبقوا الخيرات) على كل شئ شهيد) مقام العيان (أن الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) قيل ان الكل يسجد له ولكنا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها قال الله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم وقيل سمى مطاوعة غير المكلف له فيما يحدث فيه من أفعاله وتسخيره له سجودا له تشبيها لمطاوعته بسجود المكلف الذي كل خضوع دونه (وكثير من الناس) أي و يسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة أو هو مرفوع على الابتداء ومن الناس صفة له والخبر محذوف وهو مثاب و يدل عليه قوله (وكثير حق عليه العذاب) أي وكثير منهم حق عليه العذاب بكفره واباته السجود (ومن يهن الله) بالشقاوة (فما له من مكرم) بالسعادة (ان الله يفعل ما يشاء) من الاكرام والاهانة وغير ذلك وظاهر هذه الآية والتي قبلها تنقض على المعتزلة قولهم لانهم يقولون شاء أشياء ولم يفعل وهو يقول يفعل ما يشاء (هذان خصمان) أي فريقان مختصمان فالخصم صفة وصف بها الفريق وقوله (اختصموا) للمعنى وهذان للفظ والمراد المؤمنون والكافرون وقال ابن عباس رضي الله عنهما رجع الى أهل الاديان المذكورة فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم (في ربهم) في دينه وصفاته ثم بين جزاء كل خصم بقوله ونسلمه

ونسلمه حتى نصرع حوله * ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وقال ابن عباس نزلت الآية في المسلمين وأهل الكتاب قال أهل الكتاب نحن أولى بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون نبينا وكتابنا وكفرتم حسدا فهذه خصومتهم في ربهم وقيل هم المؤمنون والكافرون من أي ملة كانوا فالمؤمنون خصم والكفار خصم وقيل الخصمان الجنة والنار (ق) عن أبي هريرة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فمالي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقطهم زاد في رواية وغرتهم فقال الله عز وجل للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار انما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها فاما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله فتقول قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها الى بعض ولا يظلم ربك من خلقه أحدا وأما الجنة فان الله تبارك وتعالى ينشئ لها خلقا وللبخاري اختصمت الجنة والنار وهذا القول ضعيف والاقوال الاولى أولى بالصحة لان حمل الكلام على ظاهره أولى وقوله هذان كالاشارة الى سبب تقدم ذكره وهو أهل الاديان الستة وأيضا فانه ذكر صنفين أهل طاعته وأهل معصيته وذكر مآل الخصمين فقال تعالى (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) قال سعيد بن جبير ثياب من نحاس مذاب وليس من الآنية شئ اذا حمى أشد حرا منه وسمى باسم الثياب لانها تحيط بهم كاحاطة الثياب وقيل يلبس أهل النار مقطعات من نار (يصب من فوق رؤسهم الحميم) أي الماء الحار الذي انتهت حرارته (يصهر به) أي يذاب بالحميم الذي يصب من فوق رؤسهم (ما في بطونهم) من الشحوم والاحشاء (والجلود) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الحميم ليصب على رؤسهم فينفذ حتى يخلص الى جوف أحدهم فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان * أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب صحيح (ولهم مقامع من حديد) أي سياط من حديد وهي الجرز من الحديد وفي الخبر لو وقع مقمع من حديد في الارض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الارض (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم) أي كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفاسهم (أعيدوا فيها) أي ردوا اليها بالمقامع قيل ان جهنم لتجيش بهم فتلقيهم الى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بمقامع الحديد فيهوون فيها سبعين خريفا (وذوقوا عذاب الحريق) أي تقول لهم الملائكة ذلك والحريق بمعنى المحرق فهذا وصف حال أحد الخصمين وهم الكفار وقال تعالى في وصف الخصم الآخر وهم المؤمنون (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) وهو الابريسم الذي حرم لبسه على الرجال في الدنيا عن معاوية هو جد بهز بن حكيم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الانهار بعد * أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح (ق) عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين ان ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عليهم التيجان أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب * أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (ق) عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة قوله تعالى (وهدوا) من الهداية أي أرشدوا (الى الطيب من القول) قال ابن عباس هو شهادة أن لا اله الا الله وقيل هو لا اله الا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله وقيل الى القرآن وقيل هو قول أهل الجنة الحمد لله الذي صدقنا وعده

...رض) أي يحفظها

(فالذين كفروا) وهو فصل الخصومة المعنى بقوله ان الله يفصل بينهم يوم القيامة (قطعت لهم ثياب من نار) كأن الله يقدر لهم نيرانا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة واختير لفظ الماضي لانه كائن لا محالة فهو كالثابت المتحقق (يصب من فوق رؤسهم) بكسر الهاء والميم بصري وبضمهما حمزة وعلي وخلف وبكسر الهاء وضم الميم غيرهم (الحميم) الماء

الحار عن ابن عباس رضي الله عنهما لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها (يصهر) يذاب (به) بالحميم (ما في بطونهم والجلود) أي يذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم فيؤثر في الظاهر والباطن (ولهم مقامع) سياط مختصة بهم (من حديد) يضربون بها (كلما أرادوا أن يخرجوا منها) من النار (من غم) بدل الاشتمال من منها باعادة الجار أو الاولى لابتداء الغاية والثانية بمعنى من أجل يعني كلما أرادوا الخروج من النار من أجل غم يلحقهم فخرجوا (أعيدوا فيها) بالمقامع ومعنى الخروج عند الحسن ان النار تضربهم بلهبها فتلقيهم الى أعلاها فضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا والمراد اعادتهم الى معظم النار لانهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعودون اليها (وذوقوا) أي وقيل لهم ذوقوا (عذاب الحريق) هو الغليظ من النار المنتشر العظيم الاهلاك ثم ذكر جزاء الخصم الآخر فقال (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار يحلون فيها من أساور) جمع اسورة جمع سوار (من ذهب ولؤلؤا) بالنصب مدني وعاصم وعلي ويؤتون لؤلؤا وبالجر غيرهم عطفا على من ذهب وبترك الهمزة الاولى في كل القرآن أبو بكر وحماد (ولباسهم فيها حرير) أبريسم (وهدوا الى الطيب من القول)

(وهدوا الى صراط الحميد) أى الى دين الله وهو الاسلام والحميد هو الله المحمود فى أفعاله **قوله عز وجل** (ان الذين كفروا) أى بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم (ويصدون عن سبيل الله) أى بالمنع من الهجرة والجهاد والاسلام (والمسجد الحرام) أى ويصدون عن المسجد الحرام (الذى جعلناه للناس) أى قبلة لصلاتهم ومنسكا ومتعبدا (سواء العاكف) أى المقيم (فيه) قال بعضهم ويدخل فيه الغريب اذا جاور وأقام به ولزم التعبد فيه (والباد) أى الطارئ المنتاب اليه من غيره واختلفوا فى معنى الآية فقيل سواء العاكف فيه والبادى فى تعظيم حرمته وقضاء النسك به واليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة قالوا والمراد منه نفس المسجد الحرام ومعنى التسوية هو التسوية فى تعظيم الكعبة وفى فضل الصلاة فيه والطواف به وعن جبير بن مطعم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يا بنى عبد مناف لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار * أخرجه الترمذى وأبو داود والنسائى وقيل المراد منه جميع الحرم ومعنى التسوية ان المقيم والبادى سواء فى النزول به ليس أحدهما أحق بالمنزل من الآخر غير انه لا يزعج أحد أحدا اذا كان قد سبق الى منزله وقول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد قالوا هما سواء فى البيوت والمنازل قال عبد الرحمن بن سابط كان الحجاج اذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم وكان عمر بن الخطاب ينهى الناس ان يغلقوا أبوابهم فى الموسم فعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة واجارتها قالوا ان أرض مكة لا تملك لانها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادى فلما استويا ثبت ان سبيلها سبيل المساجد واليه ذهب أبو حنيفة قالوا والمراد بالمسجد الحرام جميع الحرم وعلى القول الاول الاقرب الى الصواب انه يجوز بيع دور مكة واجارتها وهو قول طاوس وعمرو بن دينار واليه ذهب الشافعى احتج الشافعى فى ذلك بقوله تعالى الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق أضاف الديار الى مالكيها وقال النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن فنسب الديار اليهم نسبة ملك واشترى عمر بن الخطاب دار السجن بأربعة آلاف درهم فدلت هذه النصوص على جواز بيعها وقوله تعالى (ومن يرد فيه) أى فى المسجد الحرام (بالحاد بظلم) أى يميل الى الظلم قيل الالحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله وقيل هو كل شئ كان منهيا عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم وقيل هو دخول الحرم بغير احرام أو ارتكاب شئ من محظورات الحرم من قتل صيد وقطع شجر وقال ابن عباس هو ان تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم فيه من لا يظلمك وقال مجاهد تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقيل احتكار الطعام بمكة بدليل ما روى يعلى بن أمية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان احتكار الطعام فى الحرم الحاد فيه * أخرجه أبو داود وقال عبد الله بن مسعود فى قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم (نذقه من عذاب أليم) قال لو ان رجلا هم بخطيئة لم تكتب عليه ما لم يعملها ولو ان رجلا هم بقتل رجل بمكة وهو بعدن أبين أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم قال السدى الا أن يتوب وروى عن عبد الله بن عمر وانه كان له فسطاطان أحدهما فى الحل والآخر فى الحرم فاذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الحل فسئل عن ذلك فقال كنا نحدث ان من الالحاد فيه ان يقول الرجل كلا والله وبلى والله **قوله تعالى** (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت) قال ابن عباس جعلنا وقيل وطأنا وقيل بينا واتماذ كر مكان البيت لان الكعبة رفعت الى السماء زمن الطوفان فلما أمر الله تعالى ابراهيم عليه السلام ببناء البيت لم يدر أى جهة يبنى فبعث الله تعالى ريحا خجوجا فكنست له ما حول البيت عن الاساس وقيل بعث الله سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا ابراهيم ابن على قدرى فبنى عليه (أن لا تشرك بى شيأ) أى عهدنا الى ابراهيم وقلنا له لا تشرك بى شيأ (وطهر بيتى) أى من

(فاستجوا الى صراط الحميد) أى أرشد هؤلاء فى الدنيا الى كلمة التوحيد والى صراط الحميد أى الاسلام أو هداهم الله فى الآخرة وألهمهم أن يقولوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وهداهم الى طريق الجنة والحميد الله المحمود بكل لسان (ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) أى يمنعون عن الدخول فى الاسلام ويصدون حال من فاعل كفروا أى وهم يصدون أى الصد ومنهم مستمر دائم كما يقال فلان يحسن الى الفقراء فانه يراد به استمرار وجود الاحسان منه فى الحال والاستقبال (والمسجد الحرام) أى ويصدون عن المسجد الحرام والدخول فيه (الذى جعلناه للناس) مطلقا من غير فرق بين حاضر وباد فان أريد بالمسجد الحرام مكة ففيه دليل على انه لا تباع دور مكة وان أريد به البيت فالمعنى انه قبلة لجميع الناس (سواء) بالنصب حفص مفعول ثان لجعلناه أى جعلناه مستويا (العاكف فيه والباد) وغير المقيم بالياء مكى ووافقه أبو عمرو فى الوصل وغيره بالرفع على انه خبر والمبتدأ مؤخر أى العاكف فيه والبادى سواء والجملة مفعول ثان وللناس حال (ومن يرد فيه) فى المسجد الحرام (بالحاد بظلم) حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما فالالحاد العدول عن القصد (نذقه من عذاب أليم) فى الآخرة وخبران محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم وكل من ارتكب الشرك فيه ذنبا فهو كذلك (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت) واذكر يا محمد حين جعلنا لابراهيم مكان البيت مباءة أى مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة وقد رفع البيت الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله ابراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أسه القديم (أن) هى المفسرة للقول المقدر أى قائلين له (لا تشرك بى شيأ وطهر بيتى) من الاصنام والاقذار وبفتح الياء مدنى وحفص

(الطائفين) لمن يطوف به (والقائمين) والمقيمين بمكة (والركع السجود) المصلين جمع راكع وساجد (وأذن في الناس بالحج) أي ناد فيهم والحج هو القصد البليغ الى مقصد منيع وروى انه صعد أبا قبيس فقال يا أيها الناس حجوا بيت ربكم فأجاب من قدر له أن يحج من الاصلاب والارحام بلبيك اللهم لبيك وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع والأول أظهر وجواب الامر (يأتوك رجالا) مشاة جمع راجل كقائم وقيام (وعلى كل ضامر) حال معطوفة على رجال كأنه قال رجالا وركبانا والضامر البعير المهزول وقدم الرجال على الركبان اظهارا لفضيلة المشاة كما ورد في الحديث (يأتين) صفة لكل ضامر لانه في معنى الجمع وقرأ عبد الله يأتون صفة للرجال والركبان (من كل فج) طريق (عميق) بعيد قال محمد بن ياسين قال لي شيخ في الطواف من أين أنت فقلت من خراسان قال كم بينكم وبين البيت قلت مسيرة شهرين أو ثلاثة قال فانتم جيران البيت فقلت أنت من أين جئت قال من مسيرة خمس سنوات وخرجت وأنا شاب فاكتهلت قلت والله هذه الطاعة الجميلة والمحبة الصادقة فقال

زر من هويت وان شطت بك الدار * وحال من دونه حجب وأستار
لا يمنعك بعد عن زيارته * ان المحب لمن يهواه زوار

واللام في (ليشهدوا) ليحضروا متعلق بأذن أو بيأتوك (منافع لهم) نكرها لانه أراد منافع مختصة ٢٨٧ بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادة وهذا لان العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم أو بالمال كالزكاة وقد اشتمل الحج عليهما مع ما فيه من تحمل الاثقال وركوب الاهوال وخلع الاسباب وقطيعة الاصحاب وهجر البلاد والاوطان وفرقة الاولاد والخلان والتنبيه على ما يستمر عليه اذا انتقل من دار الفناء الى دار البقاء * فالحاج اذا دخل البادية لا يتكل فيها الا على عتاده ولا يأكل الا من زاده فكذا المرء اذا خرج من شاطئ الحياة وركب بحر الوفاة لا ينفع وحدته الا ما سعى في معاشه لمعاده ولا يؤنس وحشته الا ما كان يأنس به من أوراده وغسل من يحرم وتأهبه ولبسه غير المخيط وتطيبه مرآة لما سيأتي عليه من وضعه على سريره لغسله وتجهيزه مطيبا بالحنوط ملففا في كفن غير مخيط ثم المحرم يكون أشعث حيران فكذا يوم الحشر يخرج من القبر لهفان ووقوف الحجيج بعرفات آملين رغبا أو رهبا سائلين خوفا وطمعا وهم من بين مقبول ومخذول كموقف العرصات لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد والافاضة الى المزدلفة بالمساء هو السوق لفصل القضاء ومنى هو موقف المنى للمذنبين الى شفاعة الشافعين وحلق الرأس والتنظيف كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف والبيت الحرام الذي من دخله كان آمنا من الايذاء والقتال انموذج لدار السلام التي هي من نزلها بقي سالما من الفناء والزوال والغيران الجنة حفت بكاره النفس العادية كما ان الكعبة حفت بمتالف البادية فمرحبا بمن جاوز مهالك البوادي شوقا الى اللقاء يوم التنادي (ويذكروا اسم الله) عند الذبح (في أيام معلومات) هي عشر ذي الحجة عند أبي حنيفة رحمه الله وآخرها يوم النحر وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وأكثر المفسرين رحمهم الله وعند صاحبيه هي أيام النحر وهو قول ابن عمر رضي الله عنهما (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) أي على ذبحه وهو يؤيد قولهما والبهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر فبينت بالانعام وهي الابل والبقر والضأن والمعز (فكلوا منها) من لحومها والامر للاباحة ويجوز الاكل من هدي التطوع والمتعة والقران لانه دم نسك فاشبه الاضحية ولا يجوز الاكل من بقية الهدايا

الشرك والأوثان والاقذار (للطائفين) أي الذين يطوفون بالبيت (والقائمين) أي المقيمين فيه (والركع السجود) أي المصلين قوله عز وجل (وأذن) أي أعلم وناد والأذان في اللغة الاعلام (في الناس) قال ابن عباس أراد بالناس أهل القبلة (بالحج) فقال ابراهيم عليه السلام وما يبلغ صوتي فقال الله عليك الأذان وعلينا الابلاغ فقام ابراهيم على المقام حتى صار كأطول الجبال وأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وقال يا أيها الناس ألا ان ربكم قد بنى بيتا وكتب عليكم الحج الى البيت فاجيبوا ربكم فاجابه كل من يحج من أصلاب الآباء وأرحام الامهات لبيك اللهم لبيك قال ابن عباس فأول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجا وروى ان ابراهيم صعد أبا قبيس ونادى وزعم الحسن ان المأمور بالتأذين هو محمد صلى الله عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع (م) عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا (يأتوك رجالا) أي مشاة على أرجلهم جمع راجل (وعلى كل ضامر) أي ركبانا على الابل المهزولة من كثرة السير وبدأ بذكر المشاة تشريفا لهم (يأتين) أي جماعة الابل (من كل فج عميق) أي من كل طريق بعيد فمن أتى مكة حاجا فكأنه قد أتى ابراهيم لانه مجيب نداءه قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) قيل العفو والمغفرة وقيل التجارة وقال ابن عباس الاسواق وقيل ما يرضى به الله من أمر الدنيا والآخرة (ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) يعني عشر ذي الحجة في قول أكثر المفسرين قيل لها معلومات للحرص عليها من أجل وقت الحج في آخرها وعن ابن عباس أنها أيام عرفة والنحر وأيام التشريق وقيل انها يوم النحر وثلاثة أيام بعده (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) يعني الهدايا والضحايا تكون من النعم وهي الابل والبقر والغنم وفيه دليل على ان الايام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق لان التسمية على بهيمة الانعام عند نحرها ونحر الهدايا يكون في هذه الايام (فكلوا منها) أمر اباحة ليس بواجب وذلك ان أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئا فأمر الله بمخالفتهم واتفق العلماء على أن الهدي اذا كان تطوعا يجوز للمهدي أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روي عن جابر بن عبد الله في

(وأطعموا البائس) الذى أصابه بؤس أى شدة (الفقير) الذى أضعفه الاعسار (ثم ليقضوا تفثهم) ثم ليزيلوا عنهم أدرانهم كذا قاله نفطويه قيل قضاء التفث قص الشارب والاظفار ونتف الابط والاستحداد والتفث الوسخ والمراد قضاء ازالة التفث وقال ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم قضاء التفث مناسك الحج كلها (وليوفوا نذورهم) مواجب حجهم والعرب تقول لكل من خرج عما وجب عليه وفى بنذره وان لم ينذر أوما ينذرونه من أعمال البر فى حجهم وليوفوا بسكون اللام والتشديد أبو بكر (وليطوفوا) طواف الزيارة الذى هو ركن الحج ويقع به تمام التحلل اللامات الثلاث ساكنة عند غير ابن عياش وأبى عمرو (بالبيت العتيق) القديم لانه أول بيت وضع للناس بناه آدم ثم جدده ابراهيم أو الكريم ومنه عتاق الخيل لكرائمها وعتاق الرقيق لخروجه من ذل العبودية الى كرم الحرية أولانه أعتق من الغرق لانه رفع زمن الطوفان أومن أيدى الجبابرة كم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله أو من أيدى الملاك فلم يملك قط وهو مطاف أهل الغبراء كما ان العرش مطاف أهل السماء فان الطالب اذا هاجته معية الطرب وجذبته جواذب الطلب جعل يقطع مناكب الارض مراحل ويتخذ مسالك المهالك منازل فاذا عاين البيت لم يزده التسلى به الا اشتياقا ولم يفده التشفى باستلام الحجر الا احتراقا فيرده الاسف لهفان ويردده اللهف حوله فى الدوران وطواف الزيارة آخر فرائض الحج الثلاث وأولها الاحرام وهو عقد الالتزام يشبه الاعتصام بعروة الاسلام حتى لا ينتقض بارتكاب ما هو محظور فيه ويبقى عقده مع ما يفسده وينافيه كما ان عقد الاسلام لا ينحل بازدحام الآثام وترتفع ألف حوبة بتوبة وثانيها الوقوف بعرفات بسمة الابتهال فى صفة الاهتبال وصدق الاعتزال عن دفع الاشكال على مراتب الاعمال وشواهد الاحوال (ذلك) خبر مبتدا محذوف أى الامر ذلك أو تقديره ليفعلوا ذلك (ومن يعظم حرمات الله) الحرمة مالا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله عز وجل بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها فيحتمل أن يكون عاما فى جميع تكاليفه ويحتمل أن يكون خاصا بما يتعلق بالحج وقيل حرمات الله البيت الحرام والمشعر الحرام والشهر

قصة حجة الوداع قال وقدم على ببدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين بدنة ونحر على ما غبر وأشركه فى بدنه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت فى قدر وطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها * أخرجه مسلم قوله ما غبر أى ما بقى قوله ببضعة أى بقطعة واختلف العلماء فى الهدى الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بافساد الحج وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدى أن يأكل منه شيأ قال الشافعى لا يأكل منه شيأ وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال أحمد واسحق وقال مالك يأكل من هدى التمتع ومن كل هدى وجب عليه الا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور وعند أصحاب الرأى انه يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما وقوله تعالى (وأطعموا البائس الفقير) يعنى الزمن الذى لا شئ له قوله تعالى (ثم ليقضوا تفثهم) أى ليزيلوا أدرانهم وأوساخهم والمراد منه الخروج عن الاحرام بالحلق وقص الشارب ونتف الابط وقلم الاظفار والاستحداد ولبس الثياب والحاج أشعث أغبر اذ لم يزل هذه الأوساخ وقال ابن عمر وابن عباس قضاء التفث مناسك الحج كلها (وليوفوا نذورهم) أراد نذر الحج والهدى وما ينذر الانسان من شئ يكون فى الحج أى ليتموها بقضائها وقيل المراد منه الوفاء بما نذر وهو على ظاهره وقيل أراد به الخروج عما وجب عليه نذره أولم ينذره (وليطوفوا بالبيت العتيق) أراد به طواف الواجب وهو طواف الافاضة ووقته يوم النحر بعد الرمى والحلق والطواف ثلاثة طواف القدوم وهو ان من قدم مكة يطوف بالبيت سبعا يرمل ثلاثا من الحجر الاسود الى أن ينتهى اليه ويمشى أربعا وهذا الطواف سنة لا شئ على من تركه (ق) عن عائشة ان أول شئ بدأ به حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم أنه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حج أبو بكر وعمر مثله (ق) عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا طاف الطواف الاول خب ثلاثا ومشى أربعا زاد فى رواية ثم يصلى ركعتين يعنى بعد الطواف بالبيت ثم يطوف بين الصفا والمروة ولفظ أبى داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا طاف فى الحج أو العمرة أول ما يقدم فانه يسعى ثلاثة أشواط ويمشى أربعا ثم يصلى سجدتين والطواف الثانى هو طواف الافاضة وذلك يوم النحر بعد الرمى والحلق (ق) عن عائشة قالت حاضت صفية ليلة النفر فقالت ما أرانى الا حابستكم قال النبى صلى الله عليه وسلم عقرى حلقى أطافت يوم النحر قيل نعم قال فانفرى قوله عقرى حلقى معناه عقرها الله أى أصابها بالعقر وبوجع فى حلقها وقيل معناه مشؤمة مؤذية ولم يرد به الدعاء عليها وانما هو شئ يجرى على ألسنة العرب كقولهم لا أم لك وتربت يمينك وفيه دليل على ان من لم يطف يوم النحر طواف الافاضة لا يجوز له أن ينفر الثالث طواف الوداع لا رخصة لمن أراد مفارقة مكة الى مسافة القصر فى ان يفارقها حتى يطوف سبعا فمن تركه فعليه دم الا المرأة الحائض فانه يجوز لها تركه للحديث المتقدم ولما روى ابن عباس قال أمر الناس أن يكون الطواف آخر عهدهم بالبيت الا انه رخص للمرأة الحائض متفق عليه والرمل سنة تختص بطواف القدوم ولا رمل فى طواف الافاضة والوداع وقوله بالبيت العتيق قال ابن عباس وغيره سمى عتيقا لان الله أعتقه من أيدى الجبابرة أن يصلوا الى تخريبه فلم يظهر عليه جبار قط وقيل لانه أول بيت وضع للناس وقيل لان الله أعتقه من الغرق فانه رفع أيام الطوفان وقيل لانه لم يملك قوله عز وجل (ذلك) أى الامر ذلك يعنى ما ذكر من أعمال الحج (ومن يعظم حرمات الله) أى ما نهى الله عنه من معاصيه وتعظيمها ترك ملابستها

جارية في البحر ونصب الفلك عطفا على ما وتجري حال لها أي وسخر لكم الفلك في حال جريها (ويمسك السماء أن تقع على الارض) أي يحفظها من أن تقع (الا باذنه) بامره أو بمشيئته (ان الله بالناس لرؤف) بتسخير ما في الارض (رحيم) بامساك السماء لئلا تقع على الارض عدد آلائه مقرونة بأسمائه ليشكروه على آلائه ويذكروه بأسمائه وعن أبي حنيفة رحمه الله ان اسم الله الأعظم في الآيات الثمانية يستجاب لقارئها البتة (وهو الذي أحياكم) في أرحام أمهاتكم (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) لايصال جزائكم (ان الانسان لكفور) لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ودفع عنه من صنوف النقم أولا يعرف نعمة الانشاء المبدئ للوجود ولا الافناء المقرب الى الموعود ولا الاحياء الموصل الى المقصود (لكل أمة) أهل دين (جعلنا منسكا) مر بيانه وهو رد لقول من يقول ان الذبح ليس بشريعة الله اذ هو شريعة كل أمة (هم ناسكوه) عاملون به (فلا ينازعنك) فلا يجادلنك والمعنى فلا تلتفت الى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك (في الأمر) أمر الذبائح أو الدين نزلت حين قال المشركون للمسلمين ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله يعني الميتة (وادع) الناس (الى ربك) الى عبادة ربك (انك لعلى هدى مستقيم) طريق قويم ولم يذكر الواو في لكل أمة بخلاف ما تقدم لان تلك ٢٩٧ وقعت مع ما يناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك فعطفت على اخواتها وهذه وقعت مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفا (وان جادلوك) مراء وتعنتا كما يفعله السفهاء بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع وجدال (فقل الله أعلم بما تعملون) أي فلا تجادلهم وادفعهم بهذا القول والمعنى أن الله أعلم بأعمالكم وما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به وهذا وعيد وانذار ولكن برفق ولين وتأديب يجاب به كل متعنت (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) هذا خطاب من الله للمؤمنين والكافرين أي يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما كان يلقى منهم (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والارض) أي كيف يخفى عليه ما تعملون ومعلوم عند العلماء بالله انه يعلم كل ما يحدث في السموات والارض (ان ذلك) الموجود فيهما (في كتاب) في اللوح المحفوظ (ان ذلك على الله يسير) أي علمه بجميع ذلك عليه يسير ثم أشار الى جهالة الكفار لعبادتهم غير المستحق لها بقوله (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به) بنزل مكي وبصري (سلطانا) حجة وبرهانا (وما ليس لهم به علم) أي لم يتمسكوا في عبادتهم لها ببرهان سماوي من جهة الوحي ولا حملهم عليها دليل عقلي (وما للظالمين من نصير) وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوب مذهبهم (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعني القرآن (تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر) الانكار بالعبوس والكراهة والمنكر مصدر (يكادون يسطون) يبطشون والسطو الوثب والبطش (بالذين يتلون عليهم آياتنا) هم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه (قل أفأنبئكم بشر من ذلكم) من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلي عليكم (النار) خبر مبتدا محذوف كأن قائلا قال ما هو فقيل النار أي هو النار (وعدها الله الذين كفروا) استئناف كلام (وبئس المصير) النار ولما كانت دعواهم بأن لله تعالى شريكا جارية في الغرابة والشهرة مجرى الامثال المسيرة قال الله تعالى (يا أيها الناس ضرب) بين (مثل

ما جرت (ويمسك السماء أن تقع) أي لكيلا تسقط (على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم) يعني انه أنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدنيا والدين وقد بلغ الغاية في الانعام والاحسان فهو اذا رؤف رحيم بكم (وهو الذي أحياكم) أي أنشأكم ولم تكونوا شيأ (ثم يميتكم) أي عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) أي يوم البعث للثواب والعقاب (ان الانسان لكفور) أي لجحود لنعم الله عز وجل قوله تعالى (لكل أمة جعلنا منسكا) قال ابن عباس شريعة (هم ناسكوه) هم عاملون بها وعنه انه قال عيدا وقيل موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة (فلا ينازعنك في الامر) أي في أمر الذبائح نزلت في بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون مما قتله الله وقيل معناه لا تنازعهم أنت قوله تعالى (وادع الى ربك) أي الى الايمان به والى دينه (انك لعلى هدى مستقيم) أي على دين واضح قويم (وان جادلوك) أي خاصموك في أمر الذبح وغيره (فقل الله أعلم بما تعملون) أي من التكذيب (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) أي فتعلمون حينئذ الحق من الباطل وقيل حكم يوم القيامة يتردد بين جنة وثواب لمن قبل وبين نار وعقاب لمن رد وأبى قوله عز وجل (ألم تعلم) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه الامة (ان الله يعلم ما في السماء والارض ان ذلك في كتاب) أي في اللوح المحفوظ (ان ذلك) أي علمه بجميعه (على الله يسير) أي هين وقيل ان كتب الحوادث مع انها من الغيب على الله يسير (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا) أي حجة ظاهرة من دليل سمعي (وما ليس لهم به علم) أي انهم فعلوا ما فعلوه عن جهل لا عن علم ولا دليل عقلي (وما للظالمين) أي المشركين (من نصير) أي مانع عنهم من العذاب (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعني القرآن ووصفه بذلك لان فيه بيان الاحكام والفصل بين الحلال والحرام (تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر) أي الانكار والكراهة يتبين ذلك في وجوههم (يكادون يسطون) أي يقعون ويبسطون اليكم أيديهم بالسوء وقيل يبطشون (بالذين يتلون عليهم آياتنا) أي بمحمد وأصحابه من شدة الغيظ (قل) أي قل لهم يا محمد (أفأنبئكم بشر من ذلكم) أي بشر لكم وأكره اليكم من هذا القرآن الذي تستمعون (النار) أي هي النار (وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) قوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل) فان قلت الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا قلت لما كان المثل في الا كثر

فاستمعوا له) لضرب هذا المثل (ان الذين تدعون) بدعون سهل ويعقوب (من دون الله) آلهة باطلة (لن يخلقوا ذبابا) لن لتأكيد نفي المستقبل وتأكيده هنا للدلالة على ان خلق الذباب منهم مستحيل كأنه قال محال أن يخلقوا وتخصيص الذباب لمهانته وضعفه واستقذاره وسمي ذبابا لانه كلما ذب لاستقذاره آب لاستكباره (ولو اجتمعوا له) لخلق الذباب ومحله النصب على الحال كأنه قيل مستحيل منهم أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم جميعا لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزل في تجهيل قريش حيث وصفوا بالالهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والاحاطة بالمعلومات عن آخرها صورا وتماثيل يستحيل منها ان تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله ولو اجتمعوا لذلك (وان يسلبهم الذباب شيأ) شيأ ثاني مفعولي يسلبهم (لا يستنقذوه منه) أي هذا الخلق الاقل الاذل لو اختطف منهم شيأ فاجتمعوا على ان يستخلصوه منه لم يقدروا وعن ابن عباس رضي الله عنهما انهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤسها بالعسل فاذا سلبه الذباب عجز الاصنام عن أخذه (ضعف الطالب) أي الصنم بطالب ٢٩٨ ما سلب منه (والمطلوب) الذباب بما سلب وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف فان الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب (ما قدروا الله حق قدره) ما عرفوه حق معرفته حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكا له (ان الله لقوي عزيز) أي ان الله قادر وغالب فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيها به أو لقوي ينصر أولياءه عزيز ينتقم من أعدائه (الله يصطفي) يختار (من الملائكة رسلا) كجبريل وميكائيل واسرافيل وغيرهم (ومن الناس) رسلا كابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم عليهم السلام هذا رد لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر وبيان أن رسل الله على ضربين ملك وبشر وقيل نزلت حين قالوا أأنزل عليه الذكر من بيننا (ان الله سميع) لقولهم (بصير) بمن يختاره لرسالته أو سميع لأقوال الرسل فيما تقبله العقول بصير باحوال الأمم في الرد والقبول (يعلم ما بين أيديهم) ما مضى (وما خلفهم) ما لم يأت أو ما عملوه وما سيعملوه أو أمر الدنيا أو أمر الآخرة (والى الله ترجع الامور) أي اليه مرجع الامور كلها والذي هو بهذه الصفات لا يسئل عما يفعل وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدبيره واختيار رسله ترجع شامي وحمزة وعلي (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) في صلاتكم وكان أول ما أسلموا يصلون بلا ركوع وسجود فامروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود وفيه دليل على أن الاعمال ليست من الايمان وان هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة (واعبدوا ربكم) واقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله لا الصنم (وافعلوا الخير) قيل لما كان للذكر مزية على غيره من الطاعات دعا المؤمنين أولا الى الصلاة التي هي ذكر خالص لقوله تعالى وأقم الصلاة لذكري ثم الى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج وغيرهما ثم عم بالحث على سائر الخيرات وقيل أريد به صلة الا[illegible] مكارم الاخلاق لعلكم

نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل كلام كان كذلك مثلا وقال في الكشاف قد سميت الصفة والقصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلا تشبيها لها ببعض الامثال المسيرة لكونها مسيرة عندهم مستحسنة مستغربة (فاستمعوا له) أي تدبروه حق تدبره فان الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع والمعنى جعل لي شبيه وشبه بي الاوثان أي جعل المشركون الاصنام شركائي يعبدونها ثم بين حالها وصفتها فقال تعالى (ان الذين تدعون من دون الله) يعني الاصنام (لن يخلقوا ذبابا) أي واحدا في صغره وضعفه وقلته لانها لا تقدر على ذلك (ولو اجتمعوا له) أي لخلقته والمعنى أن هذه الاصنام لو اجتمعت لم يقدروا على خلق ذبابة على ضعفها وصغرها فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا له (وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه) قال ابن عباس كانوا يطلون الاصنام بالزعفران فاذا جف جاء الذباب فاستلبه منه وقيل كانوا يضعون الطعام بين أيدي الاصنام فيقع الذباب عليه ويأكل منه (ضعف الطالب والمطلوب) قال ابن عباس الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب الذي على الصنم والمطلوب هو الصنم وقيل الطالب الصنم والمطلوب الذباب أي لو طلب الصنم أن يخلق الذباب لعجز عنه وقيل الطالب عابد الصنم والمطلوب هو الصنم (ما قدروا الله حق قدره) أي ما عظموه حق عظمته وما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه (ان الله لقوي عزيز) أي غالب لا يقهر قوله عز وجل (الله يصطفي من الملائكة) أي يختار من الملائكة (رسلا) جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وغيرهم (ومن الناس) أي ويختار الله من الناس رسلا مثل ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الانبياء والرسل صلى الله وسلم عليهم أجمعين نزلت حين قال المشركون أأنزل عليه الذكر من بيننا فاخبر الله تعالى أن الاختيار اليه يختار من يشاء من عباده لرسالته (ان الله سميع) أي لاقوالهم (بصير) أي لافعالهم لا تخفى عليه خافية قوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم) قال ابن عباس ما قدموا (وما خلفهم) أي ما خلفوا وقيل يعلم ما عملوا وما هم عاملون وقيل يعلم ما بين أيدي ملائكته ورسله قبل أن يخلقهم ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم (والى الله ترجع الامور) أي في الآخرة قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) أي صلوا لان الصلاة لا تكون الا بالركوع والسجود (واعبدوا ربكم) أي وحده وقيل أخلصوا له العبادة (وافعلوا الخير) قال ابن عباس صلة الارحام ومكارم الاخلاق وقيل فعل الخير ينقسم الى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لامر الله تعالى والى الاحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة وحسن القول وغير ذلك من أعمال البر

(لعلكم تفلحون) أى لكى تسعدوا وتفوزوا بالجنة

﴿فصل فى حكم سجود التلاوة هنا﴾ لم يختلف العلماء فى السجدة الاولى من هذه السورة واختلفوا فى السجدة الثانية فروى عن عمر وعلى وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبى الدرداء وأبى موسى انهم قالوا فى الحج سجدتان وبه قال ابن المبارك والشافعى وأحمد واسحق يدل عليه ما روى عن عقبة بن عامر قال قلت يا رسول الله أفى الحج سجدتان قال نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما * أخرجه الترمذى وأبو داود وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين وقال ان هذه السورة فضلت بسجدتين * أخرجه مالك فى الموطا وذهب قوم الى أن فى الحج سجدة واحدة وهى الاولى وليست هذه بسجدة وهو قول الحسن وسعيد ابن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثورى وأبى حنيفة ومالك بدليل انه قرن السجود بالركوع فدل ذلك أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة واختلف العلماء فى عدة سجود التلاوة فذهب الشافعى وأحمد وأكثر أهل العلم الى أنها أربع عشرة سجدة لكن الشافعى قال فى الحج سجدتان وأسقط سجدة ص وقال أبو حنيفة فى الحج سجدة وأثبت سجدة ص وبه قال أحمد فى احدى الروايتين عنه فعنده أن السجدات خمس عشرة سجدة وذهب قوم الى ان المفصل ليس فيه سجود يروى ذلك عن أبى بن كعب وابن عباس وبه قال مالك فعلى هذا يكون سجود القرآن احدى عشرة سجدة يدل عليه ما روى عن أبى الدرداء ان النبى صلى الله عليه وسلم قال فى القرآن احدى عشرة سجدة * أخرجه أبو داود وقال اسناده واه ودليل من قال فى القرآن خمس عشرة سجدة ما روى عن عمرو بن العاص قال أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن خمس عشرة سجدة منها ثلاث فى المفصل وفى سورة الحج سجدتان * أخرجه أبو داود وصح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اقرأ واذا السماء انشقت * أخرجه مسلم وسجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع وبه قال الشافعى وقال أبو حنيفة هو واجب قوله عز وجل (وجاهدوا فى الله حق جهاده) أى جاهدوا فى سبيل الله أعداء الله ومعنى حق جهاده هو استفراغ الطاقة فيه قاله ابن عباس وعنه أنه قال لا تخافوا فى الله لومة لائم فهو حق الجهاد كما تجاهدون فى سبيل الله ولا تخافون لومة لائم وقيل معناه اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته قيل نسخها قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم وقال أكثر المفسرين حق الجهاد أن يكون بنية صادقة خالصة لله ولتكون كلمة الله هى العليا بدليل قوله صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله * أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى موسى الاشعرى وقيل مجاهدة النفس والهوى هو حق الجهاد وهو الجهاد الاكبر روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ذكره البغوى بغير سند قيل أراد بالاصغر جهاد الكفار وبالاكبر جهاد النفس (هو اجتباكم) أى اختاركم لدينه والاشتغال بخدمته وعبادته وطاعته فأى رتبة أعلى من هذا وأى سعادة فوق هذا (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) أى ضيق وشدة وهو أن المؤمن لا يبتلى بشئ من الذنوب الا جعل الله له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بأنواع الكفارات من الامراض والمصائب وغير ذلك فليس فى دين الاسلام ما لا يجد العبد فيه سبيلا الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب لمن وفق وقيل معناه رفع الضيق فى أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج اذا التبس عليكم وسع ذلك عليكم حتى تتيقنوا وقيل معناه الرخص عند الضرورات كقصر الصلاة والفطر فى السفر والتيمم عند عدم الماء وأكل الميتة عند الضرورة والصلاة قاعدا والفطر مع العجز بعذر المرض ونحو ذلك من الرخص التى رخص الله لعباده قيل أعطى الله هذه الامة خصلتين لم يعطهما أحدا غيرهم جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم فى الدين من حرج وقال ابن عباس الحرج ما كان على بنى اسرائيل من الآصار التى كانت عليهم وضعها الله عن هذه الامة (ملة أبيكم ابراهيم) لا نهاد اخلة فى ملة محمد صلى الله عليه وسلم * فان قلت لم يكن ابراهيم أبا للامة كلها فكيف سماه أبا فى قوله ملة أبيكم ابراهيم * قلت ان كان الخطاب للعرب فهو أبو العرب قاطبة وان كان الخطاب لكل المسلمين

(لعلكم تفلحون) أى كى تفوزوا وافعلوا هذا كله وأنتم راجعون للفلاح غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم (وجاهدوا) أمر بالغزو أو بمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الاكبر أو هو كلمة حق عند أمير جائر (فى الله) أى فى ذات الله ومن أجله (حق جهاده) وهو أن لا يخاف فى الله لومة لائم يقال هو حق عالم وجد عالم أى عالم حقا وجدا ومنه حق جهاده وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه لكن الاضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لوجهه ومن أجله صحت اضافته اليه ويجوز أن يتسع فى الظرف كقوله ويوم شهدناه سليما وعامرا (هو اجتباكم) اختاركم لدينه ونصرته (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) ضيق بل رخص لكم فى جميع ما كلفكم من الطهارة والصلاة والصوم والحج بالتيمم وبالايماء وبالقصر والافطار لعذر السفر والمرض وعدم الزاد والراحلة (ملة أبيكم ابراهيم) أى اتبعوا ملة أبيكم أو نصب على الاختصاص أى أعنى بالدين ملة أبيكم وسماه أبا وان لم يكن أبا للامة كلها لانه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أبا للامة لان أمة الرسول فى حكم أولاده قال عليه الصلاة

(هو سماكم المسلمين) أى الله بدليل قراءة أبى "الله سماكم" (من قبل) فى الكتب المتقدمة (وفى هذا) أى فى القرآن أى فضلكم على سائر الامم وسماكم بهذا الاسم الاكرم (ليكون الرسول شهيدا عليكم) انه قد بلغكم رسالة ربكم (وتكونوا شهداء على الناس) بتبليغ الرسل رسالات الله اليهم واذا خصكم بهذه الكرامة والاثرة (فأقيموا الصلاة) بواجباتها (وآتوا الزكاة) بشرائطها (واعتصموا بالله)

فهو أبو المسلمين والمعنى ان وجوب احترامه وحفظ حقه يجب كما يجب احترام الاب فهو كقوله وأزواجه أمهاتهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنا لكم كالوالد وفى قوله (هو سماكم المسلمين من قبل) قولان أحدهما أن الكناية ترجع الى الله تعالى يعنى أن الله سماكم المسلمين فى الكتب القديمة من قبل نزول القرآن القول الثانى ان الكناية راجعة الى ابراهيم يعنى أن ابراهيم سماكم المسلمين فى أيامه من قبل هذا الوقت وهو قوله ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله دعاءه فينا (وفى هذا) أى وفى القرآن سماكم المسلمين (ليكون الرسول شهيدا عليكم) يعنى يوم القيامة أن قد بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) يعنى تشهدون يوم القيامة على الامم أن رسلهم قد بلغتهم (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله) أى ثقوا به وتوكلوا عليه وقيل تمسكوا بدين الله وقال ابن عباس سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يكره وقيل معناه ادعوا ربكم أن يثبتكم على دينه وقيل الاعتصام هو التمسك بالكتاب والسنة (هو مولاكم) أى وليكم وناصركم وحافظكم (فنعم المولى ونعم النصير) أى الناصر لكم والله تعالى أعلم

تفسير سورة المؤمنين وهى مكية

وهى مائة وثمان عشرة آية وألف وثمانمائة وأربعون كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل فأنزل الله عليه يوما فمكثنا ساعة ثم سرى عنه فقرأ قد أفلح المؤمنون الى عشر آيات من أولها وقال من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم أرضنا وارض عنا * أخرجه الترمذى قوله عز وجل (قد أفلح المؤمنون) قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا فى الجنة وقيل الفلاح البقاء والنجاة (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) قال ابن عباس مخبتون أذلاء خاضعون وقيل خائفون وقيل متواضعون وقيل الخشوع من أفعال القلب كالخوف والرهبة وقيل هو من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات وغض البصر وقيل لا بد من الجمع بين أفعال القلب والجوارح وهو الاولى فالخاشع فى صلاته لا بد وان يحصل له الخشوع فى جميع الجوارح فأما ما يتعلق بالقلب من الافعال فنهاية الخضوع والتذلل للمعبود ولا يلتفت الخاطر الى شئ سوى ذلك التعظيم وأما ما يتعلق بالجوارح فهو أن يكون ساكنا مطرقا ناظرا الى موضع سجوده وقيل الخشوع هو ان لا يعرف من على يمينه ولا من على شماله (ق) عن عائشة قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات فى الصلاة فقال هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد الاختلاس هو الاختطاف عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يزال الله مقبلا على العبد وهو فى صلاته ما لم يلتفت فاذا التفت انصرف عنه وفى رواية أعرض عنه * أخرجه أبو داود والنسائى وقيل الخشوع هو ان لا يرفع بصره الى السماء (خ) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بال أقوام يرفعون أبصارهم الى السماء فى صلاتهم فاشتد قوله فى ذلك حتى قال لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم وقال أبو هريرة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم الى السماء فى الصلاة فلما نزل الذين هم فى صلاتهم خاشعون رمقوا بأبصارهم الى مواضع السجود وقيل

وثقوا بالله وتوكلوا عليه لا بالصلاة والزكاة (هو مولاكم) أى مالككم وناصركم ومتولى أموركم (فنعم المولى) حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم (ونعم النصير) أى الناصر هو حيث أعانكم على طاعتكم وقد أفلح من هو مولاه وناصره والله الموفق للصواب

﴿سورة المؤمنين مكية وهى مائة وثمان عشرة آية﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قد أفلح المؤمنون) قد نقيضة لما هى تثبت المتوقع ولما تنفيه وكان المؤمنون يتوقعون مثل هذه البشارة وهى الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه والفلاح الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب أى فازوا بما طلبوا ونجوا مما هربوا والايمان فى اللغة التصديق والمؤمن المصدق لغة وفى الشرع كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فهو مؤمن قال عليه الصلاة والسلام خلق الله الجنة فقال لها تكلمى فقالت قد أفلح المؤمنون ثلاثا أنا حرام على كل بخيل مراء لانه بالرياء أبطل العبادات البدنية وليس له عبادة مالية (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) خائفون بالقلب ساكنون بالجوارح وقيل الخشوع فى الصلاة جمع الهمة لها والاعراض عما سواها وان لا يجاوز بصره مصلاه وان لا يلتفت ولا يعبث ولا يسدل ولا يفرقع أصابعه ولا يقلب الحصى ونحو ذلك وعن أبى الدرداء هو اخلاص المقال وإعظام المقام واليقين التام وجمع الاهتمام وأضيفت الصلاة الى المصلين لا الى المصلى له لانتفاع المصلى بها وحده وهى عدته وذخيرته وأما

الخشوع

والذين هم عن اللغو معرضون) اللغو كل كلام ساقط حقه أن يلغى كالكذب والشتم والهزل يعني أن لهم من الجد ما شغلهم عن الهزل ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالاعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف (والذين هم للزكاة فاعلون) مؤدون ولفظ فاعلون يدل على المداومة بخلاف مؤدون وقيل الزكاة اسم مشترك يطلق على العين وهو القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب الى الفقير وعلى المعنى وهو فعل المزكي الذي هو التزكية وهو المراد هنا فجعل المزكين فاعلين له لان لفظ الفعل يعم جميع الافعال كالضرب والقتل ونحوهما تقول للضارب والقاتل والمزكي فعل الضرب والقتل والتزكية ويجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محذوف وهو الاداء ودخل اللام لتقدم المفعول وضعف اسم الفاعل في العمل فانك تقول هذا ضارب لزيد ولا تقول ضرب لزيد (والذين هم لفروجهم حافظون) الفرج يشمل سوءة الرجل والمرأة (الا على أزواجهم) في موضع الحال أي الا والين على أزواجهم أو قوامين عليهن من قولك كان زياد على البصرة أي واليا عليها والمعنى انهم لفروجهم حافظون في جميع الاحوال الا في حال تزوجهم أو تسريهم أو تعلق على بمحذوف يدل عليه غير ملومين كانه قيل يلامون الا على أزواجهم أي يلامون على كل مباشرة الا على ما أطلق لهم فانهم غير ملومين عليه وقال الفراء الا من أزواجهم أي زوجاتهم (أو ما ملكت أيمانهم) أي امائهم ولم يقل من لان المملوك جرى مجرى غير العقلاء ولهذا يباع كما تباع البهائم (فانهم غير ملومين) أي لا لوم عليهم ان لم يحفظوا فروجهم عن نسائهم وامائهم (فمن ابتغى وراء ذلك) طلب قضاء شهوة من غير هذين (فأولئك هم العادون) الكاملون في العدوان وفيه دليل تحريم المتعة والاستمتاع بالكف لارادة الشهوة (والذين هم لأماناتهم وعهدهم) لأمانتهم مكي وسهل سمى الشئ المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وانما تؤدى العيون لا المعاني والمراد به العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله عز وجل ومن جهة الخلق (راعون) حافظون والراعي القائم على الشئ بحفظ واصلاح كراعي الغنم (والذين هم على صلواتهم) صلاتهم كوفي غير أبي بكر (يحافظون) يداومون في أوقاتها واعادة ذكر الصلاة لانها أهم ولان الخشوع فيها غير المحافظة عليها أولا لانها وحدت أولا ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أية صلاة كانت وجمعت آخرا ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل (أولئك) الجامعون لهذه الاوصاف (هم الوارثون) الأحقاء بأن يسموا وراثا دون من عداهم ثم ترجم الوارثين بقوله

الخشوع هو أن لا يعبث بشئ من جسده في الصلاة لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أبصر رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه ذكره البغوي بغير سند عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا قام أحدكم الى الصلاة فلا يمسح الحصى فان الرحمة تواجهه أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وقيل الخشوع في الصلاة هو جمع الهمة والاعراض عما سوى الله والتدبر فيما يجري على لسانه من القراءة والذكر قوله تعالى (والذين هم عن اللغو معرضون) قال ابن عباس عن الشرك وقيل عن المعاصي وقيل هو كل باطل ولهو وما لا يجمل من القول والفعل وقيل هو معارضة الكفار بالشتم والسب (والذين هم للزكوة فاعلون) أي الزكاة الواجبة مؤدون فعبر عن التأدية بالفعل لانها فعل وقيل الزكاة ههنا هي العمل الصالح والأول أولى (والذين هم لفروجهم حافظون) الفرج اسم لسوأة الرجل والمرأة وحفظه التعفف عن الحرام (الا على أزواجهم) على بمعنى من (أو ما ملكت أيمانهم) يعني الاماء والجواري والآية في الرجال خاصة لان المرأة لا يجوز لها أن تستمتع بفرج مملوكها (فانهم غير ملومين) يعني بعدم حفظ فرجه من امرأته وأمته فانه لا يلام على ذلك وانما الايلام فيما اذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الاتيان في غير المأتى وفي حال الحيض والنفاس فانه محظور فلا يجوز ومن فعله فانه ملوم (فمن ابتغى وراء ذلك) أي التمس وطلب سوى الازواج والولائد وهن الجواري المملوكة (فأولئك هم العادون) أي الظالمون المجاوزون الحد من الحلال الى الحرام وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام وهو قول أكثر العلماء سئل عطاء عنه فقال مكروه سمعت ان قوما يحشرون وأيديهم حبالى فاظن انهم هؤلاء وقال سعيد بن جبير عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم قوله عز وجل (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أي حافظون يحفظون ما ائتمنوا عليه والعقود التي عاقدوا الناس عليها يقومون بالوفاء بها والامانات تختلف فمنها ما يكون بين العبد وبين الله تعالى كالصلاة والصوم وغسل الجنابة وسائر العبادات التي أوجبها الله تعالى على العباد فيجب الوفاء بجميعها ومنها ما يكون بين العباد كالودائع والصنائع والأسرار وغير ذلك فيجب الوفاء به أيضا (والذين هم على صلواتهم يحافظون) أي يداومون ويراعون أوقاتها واتمام أركانها وركوعها وسجودها وسائر شروطها * فان قلت كيف كرر ذكر الصلاة أولا وآخرا * قلت هما ذكران مختلفان فليس تكرارا وصفهم أولا بالخشوع في الصلاة وآخرا بالمحافظة عليها قوله عز وجل (أولئك) يعني أهل هذه الصفة (هم الوارثون) يعني يرثون منازل أهل النار من الجنة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فمن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله وذلك قوله تعالى أولئك هم الوارثون ذكره البغوي بغير سند وقيل معنى الوراثة هو أن يؤول أمرهم الى الجنة

(الذين يرثون) من الكفار فى الحديث مامنكم من أحد الاوله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فان مات ودخل الجنة ورث أهل النار منزله وان مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله (الفردوس) هو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر وقال قطرب هو أعلى الجنان (هم فيها خالدون) أنث الفردوس بتأويل الجنة (ولقد خلقنا الانسان) أى آدم (من سلالة) من للابتداء والسلالة الخلاصة لانها تسل من بين الكدر وقيل انما سمى التراب الذى خلق آدم منه سلالة لانه سل من كل تربة (من طين) من للبيان كقوله من الأوثان (ثم جعلناه) أى نسله فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه لان آدم عليه السلام لم يصر نطفة وهو كقوله وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وقيل الانسان بنو آدم والسلالة النطفة والعرب تسمى النطفة سلالة أى ولقد خلقنا الانسان من سلالة يعنى من نطفة مسلولة من طين أى مخلوق من طين وهو آدم عليه السلام (نطفة) ماء قليلا (فى قرار) مستقر يعنى الرحم (مكين) حصين (ثم خلقنا النطفة)

٣٠٢

(أى صيرناها بدلالة تعديه الى مفعولين والخلق يتعدى الى مفعول واحد (علقة) قطعة دم والمعنى أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء (فخلقنا العلقة مضغة) لحما قدر ما يمضغ (فخلقنا المضغة عظاما) فصيرناها عظاما (فكسونا العظام لحما) فأنبتنا عليها اللحم فصار لها كاللباس عظما العظم شامى وأبو بكر عظما العظام زيد عن يعقوب عظاما العظم عن أبى زيد وضع الواحد موضع الجمع لعدم اللبس اذ الانسان ذو عظام كثيرة (ثم أنشأناه) الضمير يعود الى الانسان أو الى المذكور (خلقا آخر) أى خلقا مباينا للخلق الاول حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وسميعا وبصيرا وكان بضد هذه الصفات ولهذا قلنا اذا غصب بيضة فافرخت عنده يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لانه خلق آخر سوى البيضة (فتبارك الله) فتعالى أمره فى قدرته وعلمه (أحسن) بدل أو خبر مبتدا محذوف وليس بصفة لانه نكرة وان أضيف لان المضاف اليه عوض من من (الخالقين) المقدرين أى أحسن المقدرين تقديرا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه وقيل ان عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب للنبى عليه السلام فنطق بذلك قبل املائه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هكذا نزلت فقال عبد الله ان كان محمد نبيا يوحى اليه فأنا نبى يوحى الى فارتد ولحق بمكة ثم أسلم يوم الفتح وقيل هذه الحكاية غير صحيحة لان ارتداده كان بالمدينة وهذه السورة مكية وقيل القائل عمر أو معاذ رضى الله عنهما (ثم انكم بعد ذلك) بعد ما ذكرنا من [illegible] (لميتون) عند انقضاء آجالكم (ثم انكم يوم القيامة تبعثون) تحيون للجزاء (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) جمع طريقة وهى [illegible] (وما كنا عن الخلق غافلين) أراد بالخلق السموات كأنه قال خلقناها فوقكم وما كنا غافلين عن

ويناولوها كما يئول أمر الميراث الى الوارث (الذين يرثون الفردوس) هو أعلى الجنة عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والارض والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس أخرجه الترمذى (هم فيها خالدون) أى لا يخرجون منها ولا يموتون قوله عز وجل (ولقد خلقنا الانسان) يعنى ولد آدم لان الانسان اسم جنس (من سلالة من طين) قال ابن عباس السلالة صفوة الماء وقيل هى المنى لان النطفة تسل من الظهر من طين يعنى طين آدم لان السلالة تولدت من طين خلق منه آدم وقيل المراد من الانسان هو آدم وقوله من سلالة أى سل من كل تربة (ثم جعلناه نطفة) يعنى الذى هو الانسان جعلناه نطفة (فى قرار مكين) أى حريز وهو الرحم وسمى مكينا لاستقرار النطفة فيه الى وقت الولادة (ثم خلقنا النطفة علقة) أى صيرنا النطفة قطعة دم جامد (فخلقنا العلقة مضغة) أى جعلنا الدم الجامد قطعة لحم صغيرة (فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما) وذلك لان اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة له قيل ان بين كل خلق وخلق أربعين يوما (ثم أنشأناه خلقا آخر) أى مباينا للخلق الأول قال ابن عباس هو نفخ الروح فيه وقيل جعله حيوانا بعد ما كان جمادا وناطقا بعد ما كان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره عجائب صنعه وغرائب فطره وعن ابن عباس قال ان ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال الى الرضاع الى القعود والقيام الى المشى الى الفطام الى أن يأكل ويشرب الى أن يبلغ الحلم ويتقلب فى البلاد الى ما بعدها (فتبارك الله) أى استحق التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال (أحسن الخالقين) أى المصورين والمقدرين * فان قلت كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى الله خالق كل شئ وقوله هل من خالق غير الله * قلت الخلق له معان منها الايجاد والابداع ولا موجد ولا مبدع الا الله تعالى ومنها التقدير كما قال الشاعر

ولانت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى

معناه أنت تقدر الأمور وتقطعها وغيرك لا يفعل ذلك فعلى هذا يكون معنى الآية الله أحسن المقدرين وجواب آخر وهو ان عيسى عليه الصلاة والسلام خلق طيرا وسمى نفسه خالقا بقوله انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فقال فتبارك الله أحسن الخالقين (ثم انكم بعد ذلك) أى بعد ما ذكر من تمام الخلق (لميتون) أى عند انقضاء آجالكم (ثم انكم يوم القيامة تبعثون) أى للحساب والجزاء قوله عز وجل (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) أى سبع سموات طرائق لان بعضها فوق بعض وقيل لانها طرائق الملائكة فى الصعود والهبوط (وما كنا عن الخلق غافلين) أى بل كنا لهم حافظين من أن

تحفظها أو أراد به الناس وانه انما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الارزاق والبركات منها وما كان غافلا عنهم وعما يصلحهم (وأنزلنا من السماء ماء) مطرا (بقدر) بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون الى المنفعة أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم (فأسكناه في الارض) كقوله فسلكه ينابيع في الارض وقيل جعلناه ثابتا في الارض فماء الارض كله من السماء ثم استأدى شكرهم بقوله (وانا على ذهاب به لقادرون) أي كما قدرنا على انزاله نقدر على اذهابه فقيدوا هذه النعمة بالشكر (فأنشأنا لكم به) بالماء (جنات من نخيل وأعناب لكم فيها) في الجنات

(فواكه كثيرة) سوى النخيل والاعناب (ومنها تأكلون) أي من الجنات أي من ثمارها ويجوز أن هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يعتلها أي انها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه كأنه قال وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها ترزقون وتتعيشون (وشجرة) عطف على جنات وهي شجرة الزيتون (تخرج من طور سيناء) طور سيناء وطور سينين لا يخلو اما ان يضاف الطور الى بقعة اسمها سيناء وسينون واما أن يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وهو جبل فلسطين وسيناء غير منصرف بكل حال مكسور السين كقراءة الحجازي وأبي عمرو للتعريف والعجمة أو مفتوحها كقراءة غيرهم لان الالف للتأنيث كصحراء (تنبت بالدهن) قال الزجاج الباء للحال أي تنبت ومعها الدهن تنبت مكي وأبو عمرو واما لان أنبت بمعنى نبت كقوله حتى اذا أنبت البقل أو لان مفعوله محذوف أي تنبت زيتونها وفيه الدهن (وصبغ للآكلين) أي ادام لهم قال مقاتل جعل الله تعالى في هذه اداما ودهنا فالادام الزيتون والدهن الزيت وقيل هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان وخص هذه الانواع الثلاثة لانها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع (وان لكم في الانعام) جمع نعم وهي الابل والبقر والغنم (لعبرة نسقيكم) بفتح النون شامي ونافع وأبو بكر وسق وأسقى لغتان (مما في بطونها) أي نخرج لكم من بطونها لبنا سائغا (ولكم فيها منافع كثيرة) سوى الالبان وهي منافع الاصواف والاوبار والاشعار (ومنها تأكلون) [illegible]

تسقط السماء عليهم فتهلكهم وقيل معناه بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب وقيل ما تركناهم سدى بغير أمر ونهي وقيل معناه انما خلقنا السماء فوقهم لتنزل عليهم الارزاق والبركات منها وقيل معناه وما كنا عن الخلق غافلين أي عن أعمالهم وأقوالهم وضمائرهم لا تخفى علينا خافية (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) أي يعلمه الله من حاجتهم اليه وقيل بقدر ما يكفيهم لمعايشهم في الزرع والغرس والشرب وأنواع المنفعة (فأسكناه في الارض) يعني ما يبقى في الغدران والمستنقعات مما ينتفع به الناس في الصيف عند انقطاع المطر وقيل أسكناه في الارض ثم أخرجناه منها ينابيع كالعيون والآبار فكل ماء في الارض من السماء (وانا على ذهاب به لقادرون) وصح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة # أخرجه مسلم وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل أنزلها الله عز وجل من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل استودعها الجبال وأجراها في الارض وجعل فيها منافع للناس فذلك قوله وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض فاذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله عز وجل جبريل فرفع من الارض القرآن والعلم كله والحجر الاسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء فذلك قوله تعالى وانا على ذهاب به لقادرون فاذا رفعت هذه الاشياء كلها من الارض فقد أهلها خير الدين والدنيا وروى هذا الحديث البغوي في تفسيره وقال روى هذا الحديث الامام الحسن بن سفيان بن عثمان بن سعيد بالاجازة عن سعيد بن سابق الاسكندراني عن مسلمة بن علي عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس ثم ذكر ما أنبت بالماء فقال تعالى (فأنشأنا لكم به) أي بالماء (جنات) أي بساتين (من نخيل وأعناب) انما أفردهما بالذكر لكثرة منافعهما فانهما يقومان مقام الطعام والادام والفواكه رطبا ويابسا (لكم فيها) أي في الجنات (فواكه كثيرة ومنها تأكلون) أي شتاء وصيفا (وشجرة) أي وأنشأنا لكم شجرة وهي الزيتون (تخرج من طور سيناء) أي من جبل مبارك وقيل من جبل حسن قيل هو بالنبطية وقيل بالحبشية وقيل بالسريانية ومعناه الجبل الملتف بالاشجار وقيل كل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سيناء وسينين وقيل هو من السناء وهو الارتفاع وهو الجبل الذي منه نودي موسى بين مصر وأيلة وقيل هو جبل فلسطين وقيل سيناء اسم حجارة بعينها أضيف الجبل اليها لوجودها عنده وقيل هو اسم المكان الذي فيه هذا الجبل (تنبت بالدهن) أي تنبت وفيها الدهن وقيل تنبت بثمر الدهن وهو الزيت (وصبغ للآكلين) الصبغ الادام الذي يكون مع الخبز ويصبغ به جعل الله تعالى في هذه الشجرة المباركة أدما وهو الزيتون ودهنا وهو الزيت وخص جبل الطور بالزيتون لانه منه نشأ وقيل ان أول شجرة نبتت بعد الطوفان الزيتون وقيل انها تبقى في الارض نحو ثلاثة آلاف سنة قوله عز وجل (وان لكم في الانعام لعبرة) أي آية تعتبرون بها (نسقيكم مما في بطونها) أي ألبانها ووجه الاعتبار فيه ان اللبن يخلص الى الضرع من بين فرث ودم باذن الله تعالى ليس فيه منهما شيء فيستحيل الى الطهارة والى طعم يوافق الشهوة والطبع ويصير غذاء وتقدم بسط الكلام بما فيه كفاية في سورة النحل (ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون) يعني كما

(وعليها) وعلى الانعام فى البر (وعلى الفلك) فى البحر (تحملون) فى أسفاركم وهـذا يشير الى ان المراد بالانعام الابل لانها هى المحمول عليها فى العادة فلذا قرنها بالفلك التى هى السفائن لانها سفائن البر قال ذو الرمة * سفينة بر تحت خدى زمامها * يريد ناقته (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله) وحدوه (مالكم من اله) معبود (غـيره) بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ والجملة استئناف تجرى مجرى التعليـل للامر بالعبادة (أفلا تتقون) أفلا تخافون عقوبة الله الذى هو ربكم وخالقكم اذا عبدتم غـيره مما ليس من استحقاق العبادة فى شئ (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) أى أشرافهم لعوامهم (ماهذا الا بشر مثلكم) يأكل ويشرب (يريد أن يتفضل عليكم) أى يطلب الفضل عليكم ويترأس (ولوشاء الله) ارسال الرسول (لأنزل ملائكة) لأرسل ملائكة (ماسمعنا بهـذا) أى بارسال البشر رسولا أو بما يأمرنا به من التوحيد وسب آلهتنا والعجب منهم أنهم رضوا بالالوهية للحجر ولم يرضوا بالنبوة للبشر (فى آبائنا الأولين ان هو الا رجل به جنة) جنون (فتربصوا به حتى حين) فانتظروا واصبروا عليه الى زمان حتى يتجلى أمره فان أفاق من جنونه والا قتلتموه (قال رب انصرنى بما كذبون) فلما أيس من ايمانهم دعا الله بالانتقام منهم والمعنى أهلكهم بسبب تكذيبهم اياى اذ فى نصرتى اهلاكهم أو انصرنى بدل ما كذبون كقولك هذا بذاك أى بدل ذاك والمعنى أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصرة عليهم (فأوحينا اليه) أى أجبنا دعاءه فأوحينا اليه (أن اصنع الفلك بأعيننا) أى تصنعه وأنت واثق بحفظ الله لك ورؤيته اياك أو بحفظنا وكلاءتنا كأن معك من الله حفاظا يكلؤنك بعيونهـم لئلا يتعرض لك ولا يفسد عليك مفسد عملك ومنه قولهم عليه من الله عين كالئة (ووحينا) أمرنا وتعليمنا اياك صنعتها روى انه أوحى اليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر (فاذا جاء أمرنا) أى عذابنا بأمرنا (وفار التنور) أى فار الماء من تنور الخبز أى أخرج سبب الغـرق من موضع الحرق ليكون أبلغ فى الانذار والاعتبار روى انه قيل لنوح اذا رأيت الماء يفور مـن التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وكان تنور آدم.

نوح

فصار الى نوح وكان من حجارة واختلف فى مكانه فقيل فى مسجد الكوفة وقيـل بالشام وقيـل بالهند (فاسلك فيها) فادخل فى السفينة (من كل زوجين) من كل أمة زوجين وهما أمة الذكر وأمة الانثى كالجمال والنوق والحصن والرماك (اثنين) واحدين مزدوجين كالجمل والناقة والحصان والرمكة روى انه لم يحمل الا ما يلد ويبيض من كل حفص والمفضـل أى من كل أمة زوجين اثنين واثنـين تأكيد وزيادة بيان (وأهلك) ونساءك وأولادك (الا من سبق عليه القول) من الله باهلاكه وهو ابنه واحدى زوجتيه فجىء بعلى مع سـبق الضار كما جىء باللام مع سبق النافع فى قوله ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ونحوها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت (منهـم ولا تخاطبـنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون) ولا تسألنى نجاة الذين كفروا فانى أغرقهم (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك) فاذا تمكنتم عليها راكبين (فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهـم ولم يقل فقولوا وان كان فاذا استويت أنت ومن معك فى معنى اذا استـويتم لانه نبيهم وامامهم فكان قوله قولهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبوة (وقل) حين ركبت على السفينة أو حين خرجت منها (رب أنزلنى منزلا) أى انزالا أو موضع انزال منزلا أبو بكر أى مكانا (مباركا وأنت خير المنزلين) والبركة فى السفينة النجاة فيها وبعد الخروج منها كثرة النسل وتتابع [illegible]ات (ان فى ذلك) فيما

تنتفعون بها وهى حية فكذلك تنتفعون بها بعد الذبح للاكل (وعليها) أى وعلى الابل (وعلى الفلك تحملون) أى على الابل فى البر وعلى السفن فى البحر قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبـدوا الله مالكم من اله غيره) أى مالكم معبود سواه (أفلا تتقون) أى أفلا تخافون عقابه اذا عبدتم غيره (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا الا بشر مثلكم) أى آدمى مثلكم مشارك لكم فى جميع الأمور (يريد أن يتفضل عليكم) أى انه يحب الشرف والرياسة فيصير متبوعا وأنتم له تبع (ولوشاء الله لأنزل ملائكة) يعنى بابلاغ الوحى (ماسمعنا بهذا) أى الذى يدعونا اليه نوح (فى آبائنا الاولين ان هو الا رجل به جنـة) أى جنون (فتربصوا به حتى حين) أى الى الموت فتستريحوا منه (قال رب انصرنى بما كذبون) أى أعنى باهلاكهم بتكذيبهم اياى (فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا) أى بمرأى منا قاله ابن عباس وقيل بعلمنا وحفظنا لئلا يتعرض له أحد ولا يفسد عليه عمله (ووحينا) قيل ان جبريل علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها (فاذا جاء أمرنا) أى عذابنا (وفار التنور) قيل هو التنور الذى يخبز فيه وكان من حجارة وقيل التنور هو وجه الارض والمعنى انك اذا رأيت الماء يفور من التنور (فاسلك فيها) أى فأدخل فى السفينة (من كل زوجين اثنين) أى من كل حيوان ذكرا وأنثى (وأهلك) أى وسائر من آمن بك (الا من سبق عليه القول) أى وجب عليه العذاب (منهم) يعنى الكفار وقيل أراد بأهله أهـل بيته خاصة والذى سبق عليه القول منهـم هو ابنه كنعان (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون) قوله عز وجل (فاذا استويت) أى اعتدلت (أنت ومن معك على الفلك) أى فى السفينة (فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) أى الكافرين (وقل رب أنزلنى منزلا مباركا) قيل موضع النزول وهو السفينة عند الركوب وقيل هو وجه الارض بعد الخروج من السفينة وأراد بالبركة النجاة من الغرق وكثرة النسل بعد الانجاء (وأنت خير المنزلين) معناه انه قد يكون الانزال من غير الله كما يكون من الله فحسن أن يقول وأنت خير المنزلين لانه يحفظ من أنزله ويكلؤه فى سائر أحواله ويدفع عنه المكاره بخلاف منزل الضيف فانه لا يقدر على ذلك (ان فى ذلك) أى الذى ذكر من أمر

فعل بنوح وقومه (لآيات) لعبرا ومواعظ (وان) هي المخففة من المثقلة واللام هي الفارقة بين النافية وبينها والمعنى وان الشأن والقصة (كنا لمبتلين) مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر كقوله تعالى ولقد تركناها آية فهل من مدكر (ثم أنشأنا) خلقنا (من بعدهم) من بعد قوم نوح (قرنا آخرين) هم عاد قوم هود ويشهد له قول هود واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ومجيء قصة هود على اثر قصة نوح في الاعراف وهود والشعراء (فارسلنا فيهم) الارسال يتعدى بالى ولم يعد بفي هنا وفي قوله كذلك أرسلناك في أمة وما أرسلنا في قرية ولكن الامة والقرية جعلت موضعا للارسال كقول رؤبة * أرسلت فيهم مصعبا ذا اقحام * (رسولا) هو هود (منهم) من قومهم (أن اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون) أن مفسرة لأرسلنا أي قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله (وقال الملأ من قومه) ذكر مقالة قوم هود في جوابه في الاعراف وهود بغير واو لانه على تقدير سؤال سائل قال فما قال قومه فقيل له قالوا كيت وكيت وههنا مع الواو لانه عطف لما قالوه على ما قاله الرسول ومعناه انه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل وليس بجواب للنبي صلى الله عليه وسلم متصل بكلامه ولم يكن بالفاء وجيء بالفاء في قصة نوح لانه جواب لقوله واقع عقيبه (الذين كفروا) صفة للملأ ولقومه (وكذبوا بلقاء الآخرة) أي بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك (واترفناهم) نعمناهم (في الحيوة الدنيا) بكثرة الأموال والاولاد (ماهذا) أي النبي (الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) أي منه فحذف لدلالة ما قبله عليه أي من أين يدعي رسالة الله من بينكم وهو مثلكم (ولئن أطعتم بشرا مثلكم) أي فيما يأمركم به وينهاكم عنه (انكم اذا) واقع في جزاء الشرط وجواب للذين قاولوهم من قومهم (لخاسرون) بالانقياد لمثلكم ومن حمقهم انهم أبوا اتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم (أيعدكم انكم اذا متم) بالكسر نافع وحمزة وعلي وحفص وغيرهم بالضم (وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون) مبعوثون للسؤال والحساب والثواب والعقاب وثني انكم للتأكيد وحسن ذلك للفصل بين الاول والثاني بالظرف ومخرجون خبر عن الاول والتقدير ايعدكم انكم مخرجون اذا متم وكنتم ترابا وعظاما (هيهات هيهات) وبكسر التاء يزيد وروي عنه بالكسر والتنوين فيهما والكسائي يقف بالهاء وغيره بالتاء وهو اسم للفعل واقع موقع بعد فاعلها مضمر أي بعد التصديق أو الوقوع (لما توعدون) من العذاب أو فاعلها ما توعدون واللام زائدة أي بعد ما توعدون من البعث (ان هي) هذا ضمير لا يعلم ما يعنى به الا بما يتلوه من بيانه واصله ان الحياة (الا حياتنا الدنيا) ثم وضع هي موضع الحياة لان الخبر يدل عليها ويبينها والمعنى لا حياة الا هذه الحياة التي نحن فيها ودنت منا وهذه الا ان النافية دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التي لنفي الجنس (نموت ونحيا) أي يموت بعض ويولد بعض ينقرض قرن فيأتي قرن آخر أو فيه تقديم وتأخير أي نحيا ونموت وهو قراءة أبي وابن مسعود رضي الله عنهما (وما نحن بمبعوثين) أي بعد الموت (ان هو الا رجل افترى على الله كذبا) أي ما هو الا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه له وفيما يعدنا من البعث (وما نحن له بمؤمنين) بمصدقين (قال رب انصرني بما كذبون) فأجاب الله دعاء الرسول بقوله (قال عما قليل) قليل صفة للزمان كقديم وحديث في قولك ما رأيته قديما ولا حديثا وفي معناه عن قريب وما زائدة أو بمعنى شيء أو زمن وقليل بدل منها وجواب القسم المحذوف (ليصبحن نادمين) اذا عاينوا ما يحل بهم (فأخذتهم الصيحة) أي صيحة جبريل صاح عليهم فدمرهم (بالحق) بالعدل من الله يقال فلان يقضي بالحق أي بالعدل (فجعلناهم غثاء) شبههم في دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما بلي واسود من الورق والعيدان (فبعدا) فهلاكا يقال بعد بعدا وبعدا أي هلك وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا يستعمل اظهارها (للقوم الظالمين) بيان لمن دعي عليه بالبعد نحو هيت لك

نوح والسفينة واهلاك أعداء الله (لآيات) أي دلالات على قدرتنا (وان كنا) أي وما كنا (لمبتلين) أي المختبرين اياهم بارسال نوح ووعظه وتذكيره لننظر ماهم عاملون قبل نزول العذاب بهم قوله تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم) أي من بعد اهلاكهم (قرنا آخرين) يعني عادا (فأرسلنا فيهم رسولا منهم) يعني هودا قاله أكثر المفسرين وقيل القرن ثمود والرسول صالح والاول أصح (أن اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون) أي هذه الطريقة التي أنتم عليها مخافة العذاب (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة) أي بالمصير اليها (واترفناهم) أي نعمناهم ووسعنا عليهم (في الحيوة الدنيا ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) أي من مشربكم (ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون) أي لمغبونون (أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) أي من قبوركم أحياء (هيهات هيهات) قال ابن عباس أي بعيد بعيد (لما توعدون) استبعد القوم بعثهم بعد الموت اغفالا منهم للتفكر في بدء أمرهم وقدرة الله على ايجادهم وارادوا بهذا الاستبعاد انه لا يكون أبدا (ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) قيل معناه نحيا ونموت لانهم كانوا ينكرون البعث وقيل يموت الآباء ويحيا الابناء وقيل معناه يموت قوم ويحيا قوم (وما نحن بمبعوثين) أي بعد الموت (ان هو) يعنون رسولهم (الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين) أي بمصدقين بالبعث بعد الموت (قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن) أي ليصيرن (نادمين) على كفرهم وتكذيبهم (فأخذتهم الصيحة بالحق) يعني صيحة العذاب وقيل صاح بهم جبريل فتصدعت قلوبهم وقيل أراد بالصيحة الهلاك (فجعلناهم غثاء) هو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان وشجر والمعنى صيرناهم هلكى فيبسوا يبس الغثاء من نبات الارض (فبعدا) أي الزمنا بعدا من الرحمة (للقوم الظالمين) قوله عز وجل

(ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم (ما تسبق من أمة) من صلة أي ما تسبق أمة (أجلها) المكتوب لها والوقت الذي حد لهلاكها وكتب (وما يستأخرون) لا يتأخرون عنه (ثم أرسلنا رسلنا تترى) فعلى والالف للتأنيث كسكرى لان الرسل جماعة ولذا لا ينون لانه غير منصرف تترى بالتنوين مكي وأبو عمرو ويزيد على ان الالف للالحاق كارطى وهو نصب على الحال في القراءتين أي متتابعين واحدا بعد واحد وتاؤها فيهما بدل من الواو والاصل وترى من الوتر وهو الفرد فقلبت الواو تاء كتراث (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) أضاف الرسول مع الارسال الى المرسل والمرسل اليه والاضافة تكون بالملابسة فتصح اضافته اليهما (فأتبعنا) الامم والقرون (بعضهم بعضا) في الاهلاك (وجعلناهم أحاديث) أخبارا يسمع بها ويتعجب منها والاحاديث تكون اسم جمع للحديث ومنه أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام وتكون جمعا للاحدوثة وهو ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا وهو المراد هنا (فبعدا لقوم لا يؤمنون ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون) بدل من أخاه (بآياتنا) القسم (وسلطان مبين) وحجة ظاهرة (الى فرعون وملئه فاستكبروا) امتنعوا عن قبول الايمان ترفعا وتكبرا (وكانوا قوما عالين) متكبرين مترفين (فقالوا أنؤمن

لبشرين مثلنا) البشر يكون واحدا وجمعا ومثل وغير يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث (وقومهما) أي بنو اسرائيل (لنا عابدون) خاضعون مطيعون وكل من دان الملك فهو عابد له عند العرب (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) بالغرق (ولقد آتينا موسى) أي قوم موسى (الكتاب) التوراة (لعلهم يهتدون) يعملون بشرائعها ومواعظها (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) تدل على قدرتنا على ما نشاء لانه خلق من غير نطفة وحدث من الاعجوبة فيهما واحدة أو المراد وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها (وآويناهما) جعلنا مأواهما أي منزلهما (الى ربوة) شامي وعاصم ربوة غيرهما أي أرض مرتفعة وهي بيت المقدس ودمشق أو الرملة أو مصر (ذات قرار) مستقر من أرض مستوية منبسطة أو ذات ثمار وماء يعني أنه لاجل الثمار يستقر فيها ساكنوها (ومعين) وماء ظاهر جار على وجه الارض أو انه فعول أي مدرك بالعين بظهوره من عانه اذا أدركه بعينه أو فعيل لانه نفاع بظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما لانهم أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة وانما المعنى الاعلام بان كل رسول في زمانه نودي بذلك ووصي به ليعتقد السامع ان أمرا نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه أو هو خطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام لفضله وقيامه مقام الكل في زمانه وكان يأكل من الغنائم أو لعيسى عليه السلام لاتصال الآية بذكره وكان يأكل من غزل أمه وهو أطيب الطيبات والمراد بالطيبات ما حل والامر للتكليف أو ما يستطاب ويستلذ والامر للترفيه والاباحة (واعملوا صالحا) موافقا للشريعة (اني بما تعملون عليم) فأجازيكم على أعمالكم (وان هذه) كوفي على الاستئناف وأن حجازي وبصري بمعنى ولان أي فاتقون لان هذه أو معطوف على ما قبله أي بما تعملون عليم وبان هذه أو تقديره واعلموا ان هذه (أمتكم) أي ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها

(ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) أي أقواما آخرين (ما تسبق من أمة أجلها) أي وقت هلاكها (وما يستأخرون) أي عن وقت هلاكهم (ثم أرسلنا رسلنا تترى) أي مترادفين يتبع بعضهم بعضا غير متواصلين لان بين كل رسولين زمنا طويلا (كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا) أي بالهلاك فأهلكنا بعضهم في أثر بعض (وجعلناهم أحاديث) أي سمرا وقصصا يتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم (فبعدا لقوم لا يؤمنون) قوله تعالى (ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين) أي بحجة بينة كالعصا واليد وغيرهما (الى فرعون وملئه فاستكبروا) أي تعظموا عن الايمان (وكانوا قوما عالين) أي متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم (فقالوا) يعني فرعون وقومه (أنؤمن لبشرين مثلنا) يعنون موسى وهرون (وقومهما لنا عابدون) أي مطيعون متذللون (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) أي بالغرق (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعني التوراة (لعلهم يهتدون) أي لكي يهتدي به قومه قوله عز وجل (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) أي دلالة على قدرتنا لانه خلقه من غير ذكر وأنطقه في المهد * فان قلت لم قال آية ولم يقل آيتين * قلت معناه جعلنا شأنهما آية لان عيسى ولد من غير ذكر وكذلك مريم ولدته من غير ذكر فاشتركا في هذه الآية فكانت آية واحدة (وآويناهما الى ربوة) أي مكان مرتفع قيل هي دمشق وقيل هي الرملة وقيل أرض فلسطين وقال ابن عباس هي بيت المقدس قال كعب بيت المقدس أقرب الارض الى السماء بثمانية عشر ميلا وقيل هي مصر وسبب الايواء أنها فرت بابنها اليها وقوله (ذات قرار) أي منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها (ومعين) هو الماء الجاري الذي تراه العيون قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) قيل أراد بالرسل محمدا صلى الله عليه وسلم وحده وقيل أراد به عيسى عليه السلام وقيل أراد جميع الرسل وأراد بالطيبات الحلال (واعملوا صالحا) أي استقيموا على ما يوجبه الشرع (اني بما تعملون عليم) فيه تحذير من مخالفة ما أمرهم به واذا كان الرسل مع علو شأنهم كذلك فلأن يكون تحذيرا لغيرهم أولى لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده الى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك أخرجه مسلم قوله عز وجل (وان هذه أمتكم) أي ملتكم وشريعتكم التي أنتم

(أمة واحدة) ملة واحدة وهي شريعة الاسلام وانتصاب أمة على الحال والمعنى وان الدين دين واحد وهو الاسلام ومثله ان الدين عند الله الاسلام (وأنا ربكم) وحدي (فاتقون) فخافوا عقابي في مخالفتكم أمري (فتقطعوا أمرهم بينهم) تقطع بمعنى قطع أي قطعوا أمر دينهم (زبرا) جمع زبور أي كتبا مختلفة يعني جعلوا دينهم أديانا وقيل تفرقوا في دينهم فرقا كل فرقة تنتحل كتابا وعن الحسن قطعوا كتاب الله قطعا وحرفوه وقرئ زبرا جمع زبرة أي قطعا (كل حزب) كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المقطعين دينهم (بما لديهم) من الكتاب والدين أو من الهوى والرأي (فرحون) مسرورون معتقدون انهم على الحق (فذرهم في غمرتهم) جهالتهم وغفلتهم (حتى حين) أي الى أن يقتلوا أو يموتوا (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) ما بمعنى الذي وخبران (نسارع لهم في الخيرات) والعائد من خبران الى اسمها محذوف أي نسارع لهم به والمعنى ان هذا الامداد ليس الا استدراجا لهم الى المعاصي وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات ومعاجلة بالثواب جزاء على حسن صنيعهم وهذه الآية حجة على المعتزلة في مسئلة الأصلح لانهم يقولون ان الله لا يفعل بأحد من الخلق الا ما هو أصلح له في الدين وقد أخبر ان ذلك ليس بخير لهم في الدين ولا أصلح (بل لا يشعرون) بل استدراك لقوله أيحسبون أي انهم أشباه البهائم لا شعور لهم حتى يتأملوا في ذلك أنه استدراج أو مسارعة في الخير ثم بين ذكر أوليائه فقال (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أي خائفون (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أي بكتب الله كلها لا يفرقون بين كتبه كالذين تقطعوا أمرهم بينهم وهم أهل الكتاب (والذين هم بربهم لا يشركون) كمشركي العرب (والذين يؤتون ما آتوا) أي يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات وقرئ يأتون ما أتوا بالقصر أي يفعلون ما فعلوا (وقلوبهم وجلة) خائفة أن لا تقبل منهم لتقصيرهم (أنهم الى ربهم راجعون) الجمهور على ان التقدير لانهم وخبران الذين (أولئك يسارعون في الخيرات) يرغبون في الطاعات فيبادرونها (وهم لها سابقون) أي لاجل الخيرات سابقون الى الجنات أو لاجلها سبقوا الناس (ولا نكلف نفسا الا وسعها) أي طاقتها يعني ان الذي وصف به الصالحون غير خارج من حد الوسع والطاقة وكذلك كل ما كلفه عباده وهو رد على من جوز تكليف ما لا يطاق (ولدينا كتاب) أي اللوح أو صحيفة الاعمال (ينطق بالحق وهم لا يظلمون) لا يقرؤن منه يوم القيامة الا ما هو صدق وعدل لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد بزيادة عقاب أو نقصان ثواب أو بتكليف ما لا وسع له به (بل قلوبهم في غمرة من هذا) بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين (ولهم أعمال من دون ذلك) أي ولهم أعمال خبيثة متجاوزة متخطية لذلك أي لما وصف به المؤمنون (هم لها عاملون) وعليها مقيمون

عليها (أمة واحدة) أي ملة واحدة وهي الاسلام (وأنا ربكم فاتقون) أي فاحذرون وقيل معناه أمرتكم بما أمرت به المرسلين قبلكم فأمركم واحد وأنا ربكم فاتقون (فتقطعوا) أي تفرقوا فصاروا فرقا يهودا ونصارى ومجوسا وغير ذلك من الأديان المختلفة (أمرهم) أي دينهم (بينهم زبرا) أي فرقا وقطعا مختلفة وقيل معنى زبرا أي كتبا والمعنى تمسك كل قوم بكتاب فآمنوا به وكفروا بما سواه من الكتب (كل حزب بما لديهم فرحون) أي مسرورون معجبون بما عندهم من الدين (فذرهم) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم (في غمرتهم) قال ابن عباس في كفرهم وضلالتهم وقيل في عمايتهم وغفلتهم (حتى حين) أي الى أن يموتوا (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) أي ما نعطيهم ونجعله لهم مددا من المال والبنين في الدنيا (نسارع لهم في الخيرات) أي نعجل لهم ذلك في الخيرات ونقدمه ثوابا لأعمالهم لمرضاتنا عنهم (بل لا يشعرون) أي ان ذلك استدراج لهم ثم ذكر المسارعين في الخيرات فقال تعالى (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أي خائفون والمعنى ان المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه قال الحسن البصري المؤمن جمع احسانا وخشية والمنافق جمع اساءة وأمنا (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أي يصدقون (والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا) أي يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات وقيل معناه يعملون ما عملوا من أعمال البر (وقلوبهم وجلة) أي خائفة أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله وان أعمالهم لا تقبل منهم (أنهم الى ربهم راجعون) أي انهم يوقنون أنهم الى الله صائرون قال الحسن عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا ان ترد عليهم * عن عائشة قالت قلت يا رسول الله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال لا يا بنت الصديق ولكن هم الذين يصومون ويتصدقون ويخافون أن لا يقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات * أخرجه الترمذي وقوله (أولئك يسارعون في الخيرات) أي يبادرون الى الاعمال الصالحة (وهم لها سابقون) أي اليها وقال ابن عباس سبقت لهم من الله السعادة وقيل سبقوا الامم الى الخيرات قوله عز وجل (ولا نكلف نفسا الا وسعها) أي طاقتها من الاعمال فمن لم يستطع القيام فليصل قاعدا ومن لم يستطع الصوم فليفطر وليقض (ولدينا كتاب) هو اللوح المحفوظ (ينطق بالحق) أي يبين الصدق والمعنى قد أثبتنا عمل كل عامل في اللوح المحفوظ فهو ينطق به ويبينه وقيل هو كتاب أعمال العباد التي تكتبها الحفظة (وهم لا يظلمون) أي لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيآتهم ثم ذكر الكفار فقال تعالى (بل قلوبهم في غمرة) أي غفلة وجهالة (من هذا) أي القرآن (ولهم أعمال) أي للكفار أعمال خبيثة من المعاصي والخطايا محكومة عليهم (من دون ذلك) يعني من دون أعمال المؤمنين التي ذكرها الله في قوله ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون (هم) يعني الكفار (لها) أي لتلك الاعمال الخبيثة (عاملون) أي لا بد لهم

لا يقطعون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب (حتى اذا أخذنا مترفيهم) متنعميهم (بالعذاب) عذاب الدنيا وهو القحط سبع سنين حين دعا عليهم النبي عليه الصلاة والسلام أو قتلهم يوم بدر وحتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام والكلام الجملة الشرطية (اذا هم يجأرون) يصرخون استغاثة والجؤار الصراخ باستغاثة فيقال لهم (لا تجأروا اليوم) فان الجؤار غير نافع لكم (انكم منا لا تنصرون) أى من جهتنا لا يلحقكم نصر أو معونة (قد كانت آياتى تتلى عليكم) أى القرآن (فكنتم على أعقابكم تنكصون) ترجعون القهقرى والنكوص ان يرجع القهقرى وهو أقبح مشية لانه لا يرى ما وراءه (مستكبرين) متكبرين على المسلمين حال من تنكصون (به) بالبيت أو بالحرم لانهم يقولون لا يظهر علينا أحد لانا أهل الحرم والذى سوغ هذا الاضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت أو بآياتى لانها فى معنى كتابى ومعنى استكبارهم بالقرآن تكذيبهم به استكبارا ضمن مستكبرين معنى مكذبين فعدى تعديته أو يتعلق الباء بقوله (سامرا) تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته شعرا وسحرا والسامر نحو الحاضر فى الاطلاق على الجمع وقرئ سمارا (تهجرون) وهو من الهجر الهذيان تهجرون نافع من أهجر فى منطقه اذا أفحش (أفلم يدبروا القول) أفلم يتدبروا القرآن ليعلموا انه الحق المبين فيصدقوا به وبمن جاء به (أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين) بل أجاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين فلذلك أنكروه واستبدعوه (أم لم يعرفوا رسولهم) محمدا بالصدق والامانة ووفور العقل وصحة النسب وحسن الاخلاق أى عرفوه بهذه الصفات (فهم له منكرون) بغيا وحسدا (أم يقولون به جنة) جنون وليس كذلك لانهم يعلمون انه أرجحهم عقلا وأثقبهم ذهنا (بل جاءهم بالحق) الابلج والصراط المستقيم وبما خالف شهواتهم وأهواءهم وهو التوحيد والاسلام ولم يجدوا له مردا ولا مدفعا فلذلك نسبوه الى الجنون (وأكثرهم للحق كارهون) وفيه دليل على أن أقلهم ما كان كارها للحق بل كان تاركا للايمان به أنفة واستنكافا من توبيخ قومه وان يقولوا صبأ وترك دين آبائه كأبى طالب (ولو اتبع الحق) أى الله (أهواءهم) فيما يعتقدون من الآلهة (لفسدت السموات والارض) كما قال لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (ومن فيهن) خص العقلاء بالذكر لان غيرهم تبع (بل أتيناهم بذكرهم) بالكتاب الذى هو ذكرهم أى وعظهم أو شرفهم لان الرسول منهم والقرآن بلغتهم أو بالذكر الذى كانوا يتمنونه ويقولون لو أن عندنا ذكرا من الاولين الآية (فهم عن ذكرهم معرضون) بسوء اختيارهم (أم تسئلهم خرجا فخراج ربك خير) حجازى وبصرى وعاصم خرجا فخرج على وحمزة شامى خراجا فخراج وهو ما تخرجه الى الامام من زكاة أرضك والى كل عامل من أجرته وجعله والخرج أخص من الخراج تقول خراج القرية وخراج الكوفة فزيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذا حسنت القراءة الاولى يعنى أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من الخالق خير (وهو

من أن يملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم فى الازل من الشقاوة (حتى اذا أخذنا مترفيهم) أى رؤساءهم وأغنياءهم (بالعذاب) قال ابن عباس هو السيف يوم بدر وقيل هو الجوع حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف (اذا هم يجأرون) أى يصيحون ويستغيثون ويجزعون (لا تجأروا اليوم) أى لا تجزعوا ولا تضجوا اليوم (انكم منا لا تنصرون) أى لا تمنعون منا ولا ينفعكم تضرعكم (قد كانت آياتى تتلى عليكم) يعنى القرآن (فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى ترجعون القهقرى وتتأخرون عن الايمان (مستكبرين به) قال ابن عباس أى بالبيت الحرام كناية عن غير مذكور أى مستعظمين بالبيت وذلك انهم كانوا يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس فى الخوف وقيل مستكبرين به أى بالقرآن فلم يؤمنوا به والقول الاول أظهر (سامرا) يعنى أنهم يسمرون بالليل حول البيت وكان عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا ونحو ذلك من القول فيه وفى النبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله (تهجرون) من الاهجار وهو الافحاش فى القول وقيل معنى تهجرون تعرضون عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الايمان به وبالقرآن وقيل هو من الهجر وهو القول القبيح أى تهذون وتقولون ما لا تعلمون (أفلم يدبروا القول) يعنى أفلم يتدبروا ما جاءهم من القرآن فيعتبروا بما فيه من الدلالات الواضحة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين) يعنى فانكروا وابر يدا انا قد بعثنا من قبلهم رسلا الى قومهم فكذلك بعثنا محمدا صلى الله عليه وسلم (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) قال ابن عباس أليس قد عرفوا محمدا صلى الله عليه وسلم صغيرا وكبيرا وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الاعراض عنه بعد ما عرفوه بالصدق والامانة (أم يقولون به جنة) أى جنون وليس هو كذلك (بل جاءهم بالحق) أى بالصدق والقول الذى لا تخفى صحته وحسنه على عاقل (وأكثرهم للحق كارهون) قوله عز وجل (ولو اتبع الحق أهواءهم) قيل الحق هو الله تعالى والمعنى ولو اتبع الله مرادهم فيما يفعل وقيل لو سمى لنفسه شريكا وولدا كما يقولون وقيل الحق هو القرآن أى لو نزل القرآن بما يحبون وما يعتقدون (لفسدت السموات والارض ومن فيهن) أى لفسد العالم (بل أتيناهم بذكرهم) قال ابن عباس بما فيه شرفهم وفخرهم وهو القرآن (فهم عن ذكرهم) أى شرفهم (معرضون أم تسئلهم) أى على ما جئتهم به (خرجا) أى أجرا وجعلا (فخراج ربك خير) أى ما يعطيك الله من رزقه وثوابه خير (وهو

خير الرازقين) أفضل المعطين (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) وهو دين الاسلام فحقيق أن يستجيبوا لك (وان الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) لعادلون عن هذا الصراط المذكور وهو الصراط المستقيم (ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر) لما أخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز جاء أبو سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أنشدك الله والرحم ألست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت الآية والمعنى لو كشف الله عنهم هذا الضر وهو القحط الذى أصابهم برحمته لهم و وجدوا الخصب (للجوا) أى لتمادوا (فى طغيانهم يعمهون) يترددون يعنى لعادوا الى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولذهب عنهم هذا التملق بين يديه (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) استشهد على ذلك بانا أخذناهم أولا بالسيوف و بما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجدت بعد ذلك منهم استكانة أى خضوع ولا تضرع وقوله وما يتضرعون عبارة عن دوام حالهم أى وهم على ذلك بعد ولذا لم يقل وما تضرعوا و وزن استكان استفعل من السكون أى انتقل من كون الى كون كما قيل استحال اذا انتقل من حال الى حال (حتى اذا فتحنا) فتحنا بزيد (عليهم بابا ذا عذاب شديد) أى باب الجوع الذى هو أشد من الاسر والقتل (اذاهم فيه مبلسون) متحيرون آيسون من كل خير وجاء أعتاهم وأشدهم شكيمة فى العناد ليستعطفك أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤى فيهم لين مقادة وهم كذلك حتى اذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون (وهو الذى أنشأ لكم السمع والابصار والأفئدة) خصها بالذكر لانها يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية مالا يتعلق بغيرها (قليلا ما تشكرون) أى تشكرون شكرا قليلا وما مزيدة للتأكيد بمعنى حقا والمعنى انكم لم تعرفوا عظم هذه النعم و وضعتموها غير مواضعها فلم تعملوا أبصاركم وأسماعكم فى آيات الله وأفعاله ولم تستدلوا بقلوبكم فتعرفوا المنعم ولم تشكروا له شيأ (وهو الذى ذرأكم) خلقكم و بثكم بالتناسل (فى الارض واليه تحشرون) تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم (وهو الذى يحيى و يميت) أى يحيى النسم بالانشاء ويميتها بالافناء (وله اختلاف الليل والنهار) أى مجىء أحدهما عقيب الآخر واختلافهما فى الظلمة والنور أو فى الزيادة والنقصان وهو مختص به ولا يقدر على تصريفهما غيره (أفلا تعقلون) فتعرفوا قدرتنا على البعث أو فتستدلوا بالصنع على الصانع فتؤمنوا (بل قالوا) أى أهل مكة (مثل ماقال الاولون) أى الكفار قبلهم ثم بين ماقالوا بقوله (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) متنا نافع وحمزة وعلى وحفص (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) أى البعث (من قبل) مجىء محمد (ان هذا الا أساطير الاولين) جمع أسطار جمع سطر وهى ما كتبه الاولون مما لاحقيقة له و جمع أسطورة أوفق ثم أمر نبيه عليه الصلاة والسلام باقامة الحجة على المشركين بقوله (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون) فانهم (سيقولون لله) لانهم مقرون بأنه الخالق فاذا قالوا (قل أفلا تذكرون) فتعلموا أن من فطر الارض ومن فيها كان قادرا على اعادة الخلق وكان حقيقا بأن لايشرك به بعض خلقه فى الربوبية أفلا تذكرون بالتخفيف حمزة وعلى وحفص وبالتشديد غيرهم (قل من رب السموات السبع ورب العرش

خير الرازقين) تقدم تفسيره (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) أى الى دين الاسلام (وان الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط) أى عن دين الحق (لناكبون) أى لعادلون عنه ومائلون (ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر) اى قحط وجدوبة (للجوا) أى لتمادوا (فى طغيانهم يعمهون) أى لم ينزعوا عنه (ولقد أخذناهم بالعذاب) وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا على قريش أن يجعل الله عليهم سنين كسنى يوسف فاصابهم القحط فجاء أبو سفيان الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أنشدك الله والرحم ألست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال انهم قد أكلوا القد والعظام وشكا اليه الضر فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية (فما استكانوا لربهم) أى ماخضعوا وماذلوا لربهم (وما يتضرعون) أى لم يتضرعوا الى ربهم بل مضوا على تمردهم (حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وقيل هو الموت وقيل هو قيام الساعة (اذاهم فيه مبلسون) أى آيسون من كل خير قوله عز وجل (وهو الذى أنشأ لكم السمع والابصار والأفئدة) أى لتسمعوا بها وتبصروا وتعقلوا (قليلا ماتشكرون) أى لم تشكروا هذه النعم (وهو الذى ذرأكم فى الارض) أى خلقكم (واليه تحشرون) أى تبعثون (وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار) أى تدبير الليل والنهار فى الزيادة والنقصان وقيل جعلهما مختلفين يتعاقبان و يختلفان فى السواد والبياض (أفلا تعقلون) أى ماترون من صنعه فتعتبروا (بل قالوا مثل ماقال الاولون) أى كذبوا كما كذب الأولون وقيل معناه أنكروا البعث مثل ما أنكر الأولون مع وضوح الأدلة (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) أى لمحشورون قالوا ذلك على طريق الانكار والتعجب (لقد وعدنا نحن) أى هذا الوعد (وآباؤنا هذا من قبل) أى وعد آباءنا قوم ذكروا انهم رسل الله فلم نره حقيقة (ان هذا الا أساطير الاولين) أى أكاذيب الاولين قوله تعالى (قل) أى يا محمد لاهل مكة (لمن الارض ومن فيها) من الخلق (ان كنتم تعلمون) أى خالقها ومالكها (سيقولون لله) أى لابد لهم من ذلك لانهم يقرون أنها مخلوقة لله (قل) أى قل لهم يا محمد اذا أقروا بذلك (أفلا تذكرون) أى فتعلموا أن من قدر على خلق الارض ومن فيها ابتداء يقدر على احيائهم بعد الموت (قل من رب السموات السبع و رب العرش

العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون) أفلا تخافونه فلا تشركوا به أو أفلا تتقون في جحودكم قدرته على البعث مع اعترافكم بقدرته على خلق هذه الاشياء (قل من بيده ملكوت كل شئ) الملكوت الملك والواو والتاء للمبالغة فتنبئ عن عظم الملك (وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون) أجرت فلانا على فلان اذا أغثته منه ومنعته يعني وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد منه أحدا (سيقولون لله قل فأنى تسحرون) تخدعون عن الحق أو عن توحيده وطاعته والخادع هو الشيطان والهوى الاول لله بالاجماع اذ السؤال لمن وكذا الثاني والثالث عند غير أهل البصرة على المعنى لانك اذا قلت من رب هذا فمعناه لمن هذا فيجاب لفلان كقول الشاعر

اذا قيل من رب المزالف والقرى * ورب الجياد الجرد قيل لخالد أي لمن المزالف ومن قرأ بحذفه فعلى الظاهر لانك اذا قلت من رب هذا فجوابه فلان (بل أتيناهم بالحق) بان نسبة الولد اليه محال والشرك باطل (وانهم لكاذبون) في قولهم اتخذ الله ولدا وادعائهم الشريك ثم أكد كذبهم بقوله (ما اتخذ الله من ولد) لانه منزه عن النوع والجنس وولد الرجل من جنسه (وما كان معه من اله) وليس معه شريك في الالوهية (اذا لذهب كل اله بما خلق) لانفرد كل واحد من الآلهة بالذي خلقه فاستبد به ولتميز ملك كل واحد منهم عن الآخر (ولعلا بعضهم على بعض) ولغلب بعضهم بعضا كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون وحين لم تروا أثر التمايز للممالك والتغالب فاعلموا انه اله واحد بيده ملكوت كل شئ ولا يقال ٣١٠ اذا لا تدخل الا على كلام هو جزاء وجواب وههنا وقع لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل لان الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة لدلالة وما كان معه من اله عليه وهو جواب لمن حاجه من المشركين (سبحان الله عما يصفون) من الانداد والاولاد (عالم) بالجر صفة لله وبالرفع مدني وكوفي غير حفص خبر مبتدا محذوف (الغيب والشهادة) السر والعلانية (فتعالى عما يشركون) من الاصنام وغيرها (قل رب اما تريني ما يوعدون) ما والنون مؤكدتان اي ان كان لابد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة (رب فلا تجعلني في القوم الظالمين) أي فلا تجعلني قرينا لهم

العظيم سيقولون لله قل افلا تتقون) أي عبادة غيره وقيل معناه أفلا تحذرون عقابه (قل من بيده ملكوت كل شئ) أي ملك كل شئ (وهو يجير) أي يؤمن من يشاء (ولا يجار عليه) أي لا يؤمن من أخافه الله وقيل يمنع هو من يشاء من السوء ولا يمتنع منه من أراده بسوء (ان كنتم تعلمون) أي فاجيبوا (سيقولون لله قل فأنى تسحرون) أي فأنى تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته وكيف يخيل لكم الحق باطلا (بل أتيناهم بالحق) أي بالصدق (وانهم لكاذبون) أي فيما يدعون من الشريك والولد (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله) أي من شريك (اذا لذهب كل اله بما خلق) أي لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه ولم يرض أن يضاف خلقه وانعامه الى غيره ومنع كل اله الآخر عن الاستيلاء على ما خلقه هو (ولعلا بعضهم على بعض) أي طلب بعضهم مغالبة بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم واذا كان كذلك فاعلموا أنه اله واحد بيده ملكوت كل شئ ويقدر على كل شئ ثم نزه نفسه تعالى فقال (سبحان الله عما يصفون) أي من اثبات الولد والشريك (عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) أي تعظم من أن يوصف بما لا يليق به قوله عز وجل (قل رب) أي يارب (اما تريني ما يوعدون) أي ما وعدتهم من العذاب (رب) أي يارب (فلا تجعلني في القوم الظالمين) أي لا تهلكني بهلاكهم (وانا على أن نريك ما نعدهم) أي من العذاب (لقادرون ادفع بالتي هي أحسن) أي بالخلة التي هي أحسن وهي الصفح والاعراض والصبر (السيئة) يعني أذاهم أمر بالصبر على أذى المشركين والكف عن المقاتلة ثم نسخها الله بآية السيف (نحن أعلم بما يصفون) أي يكذبون ويقولون من الشرك قوله عز وجل (وقل رب أعوذ بك) أي أمتنع وأعتصم بك (من همزات الشياطين) قال ابن عباس نزغاتهم وقيل وساوسهم وقيل نفخهم ونفثهم وقيل دفعهم بالاغواء الى المعاصي (وأعوذ بك رب أن يحضرون) أي في شئ من أموري وانما ذكر الحضور لان الشيطان اذا حضره يوسوس له * عن جبير بن مطعم

ولا تعذبني بعذابهم عن الحسن رضي الله عنه أخبره الله ان له في أمته نقمة ولم يخبره متى وقتها فأمر ان يدعو بهذا الدعاء ويجوز أن يسأل النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم ربه ما علم أنه يفعله وان يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه واستغفاره عليه الصلاة والسلام اذا قام من مجلسه سبعين مرة لذلك والفاء في فلا لجواب الشرط ورب اعتراض بينهما للتأكيد (وانا على أن نريك ما نعدهم لقادرون) كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه فقيل لهم ان الله قادر على انجاز ما وعد ان تأملتم فما وجه هذا الانكار (ادفع بالتي) بالخصلة التي (هي أحسن السيئة) هو أبلغ من أن يقال بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل كأنه قال ادفع بالحسنى السيئة والمعنى اصفح عن اساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الاحسان وعن ابن عباس رضي الله عنه هي شهادة أن لا اله الا الله والسيئة الشرك أو الفحش بالسلام أو المنكر بالموعظة وقيل هي منسوخة بآية السيف وقيل محكمة اذ المداراة محثوث عليها ما لم تؤد الى ثلم دين (نحن أعلم بما يصفون) من الشرك أو بوصفهم لك وسوء ذكرهم فنجازيهم عليه (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) من وساوسهم ونخساتهم والهمز النخس والهمزات جمع المرة ومنه مهماز الرائض والمعنى ان الشياطين يحثون الناس على المعاصي كما تهمز الراضة الدواب حثا لها على المشي (وأعوذ بك رب أن يحضرون) أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل الى ربه المكرر لندائه وبالتعوذ من أن يحضروه أصلا أو عند تلاوة القرآن أو عند النزع

(حتى اذا جاء أحدهم الموت) حتى يتعلق بيصفون أى لايزالون يشركون الى وقت مجىء الموت أو لايزالون على سوء الذكر الى ه[illegible]
بينهم [illegible]كو على وجه الاعتراض والتأكيد للاغضاء عنهم مستعينا بالله على الشيطان أن يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم
(قال رب ارجعون) أى ردونى الى الدنيا خاطب الله بلفظ الجمع للتعظيم كخطاب الملوك (لعلى أعمل صالحا فيما تركت) فى الموضع الذى تركت
وهو الدنيا لانه ترك الدنيا وصار الى العقبى قال قتادة ما تمنى أن يرجع الى أهل ولا الى عشيرة ولكن ليتدارك ما فرط لعلى ساكنة الياء كوفى
وسهل ويعقوب (كلا) ردع عن طلب الرجعة وانكار واستبعاد (انها كلمة) المراد بالكلمة ٣١١ الطائفة من الكلام المنتظم بعضها
مع بعض وهو قوله رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت (هو قائلها) لامحالة لايخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة والندم عليه (ومن ورائهم) أى أمامهم والضمير للجماعة (برزخ) حائل بينهم وبين الرجوع الى الدنيا (الى يوم يبعثون) لم يرد أنهم يرجعون يوم البعث وانما هو اقناط كلى لما علم أن لا رجوع بعد البعث الا الى الآخرة (فاذا نفخ فى الصور) قيل انها النفخة الثانية (فلا أنساب بينهم يومئذ) وبالادغام أبو عمرو لاجتماع المثلين وان كانا من كلمتين يعنى يقع التقاطع بينهم حيث يتفرقون مثابين ومعاقبين ولا يكون التواصل بينهم بالانساب اذ يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وانما يكون بالاعمال (ولا يتساءلون) سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا لان كلا مشغول عن سؤال صاحبه بحاله ولا تناقض بين هذا وبين قوله وأقبل
بعضهم على بعض يتساءلون فللقيامة مواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون وفى موطن يفيقون فيتساءلون (فمن ثقلت موازينه)
جمع موزون وهى الموزونات من الاعمال الصالحة التى لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (فأولئك هم المفلحون
ومن خفت موازينه) بالسيئات والمراد الكفار (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) غبنوها (فى جهنم خالدون) بدل من خسروا أنفسهم ولا
محل للبدل والمبدل منه لان الصلة لامحل لها أو خبر بعد خبر لأولئك أو خبر مبتدا محذوف (تلفح) أى تحرق (وجوههم النار وهم فيها كالحون)
عابسون فيقال لهم

مطعم أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة قال عمر ولا أدرى أى صلاة هى قال الله أكبر كبيرا ثلاثا
والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه
الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة * أخرجه أبو داود وقد جاء تفسير هذه الالفاظ فى متن الحديث ونزيده
ايضاحا قوله نفثه الشعر أى لان الشعر يخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق قوله
ونفخه الكبر وذلك ان المتكبر ينتفخ ويتعاظم ويجمع نفسه فيحتاج الى أن ينفخ وقوله وهمزه الموتة الموتة
الجنون لان المجنون ينخسه الشيطان ثم أخبر الله عز وجل ان هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون
الرجعة الى الدنيا عند معاينة الموت فقال تعالى (حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون) قيل المراد
به الله وهو على عادة العرب فانهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم وقيل هذا خطاب مع
الملائكة الذين يقبضون روحه فعلى هذا يكون معناه انه استغاث بالله أولا ثم رجع الى مسألة الملائكة
الرجوع الى الدنيا وقيل ذكر الرب للقسم فكأنه قال عند المعاينة بحق الله ارجعون (لعلى أعمل صالحا
فيما تركت) أى ضيعت وقيل تركت أى منعت وقيل خلفت من التركة أو المعنى أقول لا اله الا الله وأعمل
بطاعته فيدخل فيه الاعمال البدنية والمالية قال قتادة ما تمنى ان يرجع الى أهله وعشيرته ولا ليجمع
الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى ان يرجع فيعمل بطاعة الله فرحم الله امرأ عمل فيما تمناه الكافر اذا
رأى العذاب (كلا) كلمة ردع وزجر أى لا يرجع اليها (انها) يعنى مسألة الرجعة (كلمة هو قائلها) أى لا ينالها
(ومن ورائهم برزخ) أى من أمامهم ومن بين أيديهم حاجز (الى يوم يبعثون) معناه ان بينهم وبين الرجعة
حجابا ومانعا عن الرجوع وهو الموت وليس المعنى انهم يرجعون يوم البعث وانما هو اقناط كلى لما علم انه
لا رجعة يوم البعث الا الى الآخرة قوله تعالى (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم) قال ابن عباس انها النفخة
الاولى نفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض فلا أنساب بينهم (يومئذ ولا يتساءلون) ثم نفخ
فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود انها النفخة الثانية قال
يؤخذ بيد العبد والأمة يوم القيامة فينصب على رؤس الاولين والآخرين ثم ينادى مناد هذا فلان بن فلان
فمن كان له قبله حق فليأت الى حقه فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه
فيأخذ منه ثم قرأ ابن مسعود فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وفى رواية عن ابن عباس انها النفخة
الثانية فلا أنساب بينهم أى لا يتفاخرون بالانساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون فى الدنيا ولا يتساءلون سؤال
تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا من أنت ومن أى قبيلة أنت ولم يرد أن الانساب تنقطع * فان قلت قد قال
ههنا ولا يتساءلون وقال فى موضع آخر وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قلت قال ابن عباس ان للقيامة
أحوالا ومواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الامر عن التساؤل فلا يتساءلون وفى موطن
يفيقون افاقة فيتساءلون قوله عز وجل (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه
فأولئك الذين خسروا) أى غبنوا (أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح) أى تسفع وقيل تحرق (وجوههم
النار وهم فيها كالحون) أى عابسون وقد بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم كالرأس المشوى على النار

(ألم تكن آياتى) أى القرآن (تتلى عليكم) فى الدنيا (فكنتم بها تكذبون) وتزعمون انها ليست من الله تعالى (قالوا ربنا غلبت علينا) ملكتنا (شقوتنا) شقاوتنا حمزة وعلى وكلاهما مصدر أى شقينا بأعمالنا السيئة التى عملناها وقول أهل التأويل غلب علينا ما كتب علينا من الشقاوة لايصح لانه انما يكتب ما يفعل العبد وما يعلم انه يختاره ولا يكتب غير الذى علم انه يختاره فلا يكون مغلوبا ومضطرا فى الفعل وهذا لانهم انما يقولون ذلك القول اعتذارا لما كان منهم من التفريط فى أمره فلا يحمل أن يطلبوا لانفسهم عذرا فيما كان منهم (وكنا قوما ضالين) عن الحق والصواب (ربنا أخرجنا منها) أى من النار (فان عدنا) الى الكفر والتكذيب (فانا ظالمون) لانفسنا (قال اخسؤا فيها) اسكتوا اسكوت ذلة وهوان (ولا تكلمون) فى رفع العذاب عنكم فانه لا يرفع ولا يخفف قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك الا الشهيق والزفير أن يحضرونى ارجعونى ولا تكلمونى ٣١٢ بالياء فى الوصل والوقف يعقوب وغيره بلا ياء (انه) ان الامر والشان (كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا) مفعول ثان وبالضم مدنى وحمزة وعلى وكلاهما مصدر سخر كالسخر الا أن فى ياء النسبة مبالغة قيل هم الصحابة رضى الله عنهم وقيل أهل الصفة خاصة ومعناه اتخذتموهم هزؤا وتشاغلتم بهم ساخرين (حتى أنسوكم) بتشاغلكم بهم على تلك الصفة (ذكرى) فتركتموه أى كان التشاغل بهم سببا لنسيانكم ذكرى (وكنتم منهم تضحكون) استهزاء بهم (انى جزيتهم اليوم بما صبروا) بصبرهم (أنهم) أى لانهم (هم الفائزون) ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا أى جزيتهم اليوم فوزهم لان جزى يتعدى الى اثنين وجزاهم بما صبروا جنة انهم حمزة وعلى على الاستئناف أى انهم هم الفائزون لا أنتم (قال) أى الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة قل مكى وحمزة وعلى أمر لمالك ان يسألهم اى (كم لبثتم فى الارض) فى الدنيا (عدد سنين) أى كم عدد سنين لبثتم فكم نصب بلبثتم وعدد تمييز (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) استقصر وامدة لبثهم فى الدنيا بالاضافة الى خلودهم ولما هم فيه من عذابها لان الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر مامر عليه من أيام الدعة (فاسئل العادين) أى الحساب أو الملائكة الذين يعدون أعمار العباد وأعمالهم فسل بلا همز مكى وعلى (قال ان لبثتم الا قليلا) أى ما لبثتم الا زمنا قليلا أو لبثا قليلا (لو أنكم كنتم تعلمون) صدقهم الله تعالى فى تقالهم لسنى لبثهم فى الدنيا ووبخهم على غفلتهم التى كانوا عليها قل ان حمزة وعلى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) حال أى عابثين أو مفعول له أى للعبث (وأنكم الينا لا ترجعون) وبفتح التاء وكسر الجيم حمزة وعلى ويعقوب وهو معطوف على انما خلقناكم أو على عبثا أى للعبث ولنترككم غير مرجوعين بل خلقناكم للتكليف ثم للرجوع من دار التكليف الى دار الجزاء فنثيب المحسن ونعاقب المسىء

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم وهم فيها كالحون قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته * أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح غريب قوله تعالى (ألم تكن آياتى تتلى عليكم) يعنى قوارع القرآن وزواجره تخوفون بها (فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) أى التى كتبت علينا فلم نهتد (وكنا قوما ضالين) أى عن الهدى (ربنا أخرجنا منها) أى من النار (فان عدنا) أى لما تكره (فانا ظالمون قال اخسؤا فيها) أى ابعدوا فيها كما يقال للكلب اذا طرد اخسأ (ولا تكلمون) أى فى رفع العذاب فانى لا أرفعه عنكم فعند ذلك أيس المساكين من الفرج قال الحسن هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعد ذلك ما هو الا الزفير والشهيق وعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون وروى عن عبد الله بن عمرو ان أهل جهنم يدعون مالكا خازن جهنم أربعين عاما يا مالك ليقض علينا ربك فلا يجيبهم ثم يقول انكم ماكثون ثم ينادون ربهم ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم اخسؤا فيها ولا تكلمون فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة ان كان الا الزفير والشهيق ذكره البغوى بغير سند وأخرجه الترمذى بمعناه عن أبى الدرداء قوله فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة أى سكتوا ولم يتكلموا بكلمة وقيل اذا قال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم (انه كان فريق من عبادى) يعنى المؤمنين (يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا) أى تسخرون منهم وتستهزؤن بهم (حتى أنسوكم ذكرى) أى انساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم ذكرى (وكنتم منهم تضحكون) نزل فى كفار قريش كانوا يستهزؤن بالفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بلال وعمار وصهيب وخباب ثم قال الله (انى جزيتهم اليوم بما صبروا) أى على أذاكم واستهزائكم فى الدنيا (انهم هم الفائزون) أى جزيتهم بصبرهم الفوز بالجنة (قال) يعنى أن الله قال للكفار يوم البعث (كم لبثتم فى الارض) أى فى الدنيا وفى القبور (عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) معناه أنهم نسوا مدة لبثهم فى الدنيا لعظم ما هم بصدده من العذاب (فاسئل العادين) يعنى الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم ويحصونها عليهم (قال ان لبثتم) أى ما لبثتم فى الدنيا (الا قليلا) سماه قليلا لان المرء وان طال لبثه فى الدنيا فانه يكون قليلا فى جنب ما يلبث فى الآخرة (لو أنكم كنتم تعلمون) أى قدر لبثكم فى الدنيا قوله عز وجل (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) أى لعبا وباطلا لا لحكمة وقيل لاجل العبث معناه لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب وانما خلقتم للعبادة واقامة أوامر الله عز وجل (وأنكم الينا لا ترجعون)

أن يخلق عبثا (الملك الحق) الذى يحق له الملك لان كل شئ منه واليه أو الثابت الذى لا يزول ولا يزول ملكه (لا اله الا هو والصالحين (الكريم) وصف العرش بالكرم لان الرحمة تنزل منه أو لنسبته الى أكرم الأكرمين وقرئ شاذا برفع الكريم صفة للرب تعالى (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان) أى لا حجة (له به) اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك من أحسن الى زيد لا أحق بالاحسان منه فالله مثيبه أو صفة لازمة جئ بها للتوكيد كقوله يطير بجناحيه لا أن يكون فى الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان (فانما حسابه) أى جزاؤه وهذا جزاء الشرط (عند ربه) أى انه هو يجازيه لا محالة (انه لا يفلح الكافرون) جعل فاتحة السورة قد أفلح المؤمنون وخاتمتها انه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ثم علمنا سؤال المغفرة والرحمة بقوله (وقل رب اغفر وارحم) ثم قال (وأنت خير الراحمين) لان رحمته اذا أدركت أحدا أغنته عن رحمة غيره ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته

﴿سورة النور مدنية وهى ستون وأربع آيات﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (سورة) خبر مبتدا محذوف أى هذه سورة (أنزلناها) صفة لها وقرأ طلحة سورة على زيدا ضربته أو على اتل سورة والسورة الجامعة لجمل آيات بفاتحة لها وخاتمة واشتقاقها من سور المدينة ٣١٣ (وفرضناها) أى فرضنا أحكامها التى فيها وأصل الفرض القطع أى جعلناها مقطوعا بها وبالتشديد مكى وأبو عمرو للمبالغة فى الايجاب وتوكيده أو لان فيها فرائض شتى أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم (وأنزلنا فيها آيات بينات) أى دلائل واضحات (لعلكم تذكرون) لكى تتعظوا وبتخفيف الذال حمزة وعلى وخلف وحفص ثم فصل أحكامها فقال (الزانية والزانى) رفعهما على الابتداء والخبر محذوف أى فيما فرض عليكم الزانية والزانى أى جلدهما أو الخبر فاجلدوا أو دخلت الفاء لكون الالف واللام بمعنى الذى وتضمينه معنى الشرط وتقديره التى زنت والذى زنى فاجلدوهما كما تقول من زنى فاجلدوه وكقوله والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم وقرأ عيسى بن عمر بالنصب على اضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من سورة أنزلناها لاجل الأمر (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) الجلد ضرب الجلد وفيه اشارة الى أنه لا يبالغ ليصل الألم الى اللحم والخطاب للأئمة لان اقامة الحد من الدين وهى على الكل الا أنهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الامام منابهم وهذا حكم حر ليس بمحصن اذ حكم المحصن الرجم * وشرائط احصان الرجم الحرية والعقل والبلوغ والاسلام والتزوج بنكاح صحيح والدخول وهذا دليل على أن التغريب غير مشروع لان الفاء انما تدخل على الجزاء وهو اسم للكافى والتغريب المروى منسوخ بالآية كما نسخ الحبس والأذى فى قوله فأمسكوهن فى البيوت وقوله فآذوهما بهذه الآية (ولا تأخذكم بهما رأفة) أى رحمة والفتح لغة وهى قراءة مكى وقيل الرأفة فى دفع المكروه والرحمة فى ايصال المحبوب والمعنى ان الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا فى دين الله ولا يأخذهم اللين فى استيفاء حدوده فيعطلوا الحدود أو يخففوا الضرب

أى فى دار الآخرة للجزاء روى البغوى بسنده عن الحسن ان رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه فى أذنه أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون حتى ختم السورة فبرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بماذا رقيت فى أذنه فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على الجبل لزال ثم نزه الله تعالى نفسه عما يصفه به المشركون فقال عز وجل (فتعالى الله الملك الحق) أى هو التام الملك الجامع لأصناف المملوكات (لا اله الا هو رب العرش الكريم) أى الحسن وقيل الرفيع المرتفع وانما خص العرش بالذكر لانه أعظم المخلوقات (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به) أى لا حجة ولا بينة له به اذ لا يمكن اقامة برهان ولا دليل على الهية غير الله ولا حجة فى دعوى الشرك (فانما حسابه) أى جزاؤه (عند ربه) أى هو يجازيه بعمله (انه لا يفلح الكافرون) أى لا يسعد من جحد وكذب (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين)

﴿تفسير سورة النور وهى مدنية وهى اثنتان وقيل أربع وستون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قوله عز وجل (سورة أنزلناها وفرضناها) أى أوجبنا ما فيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها وقيل معناه قدرنا ما فيها من الحدود وقيل أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم الى قيام الساعة (وأنزلنا فيها آيات بينات) أى واضحات (لعلكم تذكرون) أى تتعظون قوله تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) الزنا هو من الكبائر وموجب للحد وهو ايلاج فرج فى فرج مشتهى طبعا محرم شرعا والشروط المعتبرة فى وجوب الحد العقل والبلوغ ويشترط الاحصان فى الرجم ويجب على العبد والامة نصف الحد ولا رجم عليهما لانه لا يتنصف وقوله فاجلدوا أى فاضربوا يقال جلده اذا ضرب جلده ولا يضرب بحيث يبلغ اللحم كل واحد منهما أى الزانية والزانى مائة جلدة وقد وردت السنة بجلد مائة وتغريب عام وبه قال الشافعى وقال أبو حنيفة التغريب الى رأى الامام وقال مالك يجلد الرجل مائة جلدة ويغرب وتجلد المرأة ولا تغرب وان كان الزانى محصنا فعليه الرجم (ولا تأخذكم بهما رأفة) أى رحمة ورقة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعى والشعبى وقيل معنى الرأفة أن تخففوا الضرب بل أوجعوهما ضربا وهو قول سعيد بن المسيب والحسن قال الزهرى يجتهد

(فى دين الله) أى فى طاعة الله أو حكمه (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) من باب التهييج والتهاب الغضب لله ولدينه ومعناه ان كنتم مؤمنين فلا تتركوا ما هو واجب فى دين الله) مليكتنا مضمر أى فاجلدوا ولا تعطلوا الحد (وليشهد عذابهما) وليحضر موضع حدهما وتسميته عذابا دليل على أنه عقوبة (طائفة) فرقة يمكن أن تكون حلقة ليعتبروا وينزجروا وأقلها ثلاثة أو أربعة وهى صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول شئ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أربعة الى أربعين رجلا (من المؤمنين) من المصدقين بالله (الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك) أى الخبيث الذى من شأنه الزنا لا يرغب فى

نكاح الصوالح من النساء وانما يرغب فى خبيثة من شكله أو فى مشركة والخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وانما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين فالآية تزهيد فى نكاح البغايا اذ الزنا عديل الشرك فى القبح والايمان قرين العفاف والتحصن وهو نظير قوله الخبيثات للخبيثين وقيل كان نكاح الزانية محرما فى أول الاسلام ثم نسخ بقوله وأنكحوا الأيامى منكم وقيل المراد بالنكاح الوطء لان غير الزانى يستقذر الزانية ولا يشتهيها وهو صحيح لكنه يقتضى اذا قولك الزانى لا يزنى الا بزانية والزانية لا يزنى بها الا زان وسئل صلى الله عليه وسلم عمن زنى بامرأة ثم تزوجها فقال أوله سفاح وآخره نكاح ومعنى الجملة الأولى صفة الزانى بكونه غير راغب فى العفائف ولكن فى الفواجر ومعنى الثانية صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للاعفاء ولكن للزناة وهما معنيان مختلفان وقدمت الزانية على الزانى أولا ثم قدم عليها ثانيا لان تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا والمرأة هى المادة التى منها انشأت تلك الجناية لانها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن فلما كانت أصلا فى ذلك بدئ بذكرها وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لانه الخاطب ومنه بدئ الطلب وقرئ لا ينكح بالجزم على النهى وفى المرفوع أيضا معنى النهى ولكن أبلغ وآكد ويجوز أن يكون خبرا محضا على معنى أن عادتهم ما جارية على ذلك وعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت هذه العادة و يتصونون عنها (وحرم ذلك على المؤمنين) أى الزنا أو نكاح البغايا لقصد التكسب بالزنا أو لما فيه من التشبه بالفساق وحضور مواقع التهمة والتسبب لسوء المقالة فيه والغيبة ومجالسة الخطائين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجة الزوانى والقحاب غيره

فى حد الزنا والفرية أى القذف و يخفف فى حد الشرب وقيل يجتهد فى حد الزنا و يخفف دون ذلك فى حد الفرية و يخفف دون ذلك فى حد الشرب (فى دين الله) أى فى حكم الله روى ان عبد الله بن عمر جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله فقال يا بنى ان الله لم يأمرنى بقتلها وقد ضربت فأوجعت (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) معناه أن المؤمن لا تأخذه الرأفة اذا جاء أمر الله وقيل هو من باب التهييج والتهاب الغضب لله تعالى ولدينه ومعناه ان كنتم تؤمنون فلا تتركوا اقامة الحدود (وليشهد) أى وليحضر (عذابهما) أى حدهما اذا أقيم عليهما (طائفة) أى نفر (من المؤمنين) قيل أقله رجل واحد فما عدا وقيل رجلان وقيل ثلاثة وقيل أربعة بعدد شهود الزنا قوله عز وجل (الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) اختلف العلماء فى معنى الآية وحكمها فقال قوم قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر وفى المدينة نساء بغايا هن أخصب أهل المدينة فرغب ناس من فقراء المسلمين فى نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فنزلت هذه الآية فحرم على المؤمنين أن يتزوجوا تلك البغايا لانهن كن مشركات وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والزهرى والشعبى ورواية عن ابن عباس وقال عكرمة نزلت فى نساء كن بمكة والمدينة لهن رايات يعرفن بها منهن أم مهزول جارية السائب بن أبى السائب المخزومى وكان فى الجاهلية ينكح الزانية يتخذها مأكلة فاراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة فاستأذن رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نكاح أم مهزول واشترطت له أن تنفق عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد الغنوى وكان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة وكانت بمكة بغى يقال لها عناق وكانت صديقة له فى الجاهلية فلما أتى مكة دعته عناق الى نفسها فقال مرثد ان الله حرم الزنا قالت فانكحنى فقال حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أنكح عناقا فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد شيأ فنزلت الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك فدعانى فقرأها على وقال لا تنكحها أخرجه الترمذى والنسائى وأبو داود بالفاظ متقاربة المعنى فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصا فى حق أولئك دون سائر الناس وقال قوم المراد من النكاح هو الجماع ومعنى الآية الزانى لا يزنى الا بزانية أو مشركة والزانية لا تزنى الا بزان أو مشرك وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ورواية عن ابن عباس قال يزيد بن هرون ان جامعها وهو مستحل فهو مشرك وان جامعها وهو محرم فهو زان وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول اذا تزوج الزانى الزانية فهما زانيان وقال سعيد بن المسيب وجماعة ان حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراما بهذه الآية ثم نسخت بقوله تعالى وأنكحوا الأيامى منكم فدخلت الزانية فى هذا العموم واحتج من جوز نكاح الزانية بما روى عن جابر أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان امرأتى لا تمنع يد لامس فقال طلقها قال انى أحبها وهى جميلة قال استمتع بها وفى رواية

(والصالحين من رجال المحصنات) و بكسر الصاد على أى يقذفون بالزنا الحرائر والعفائف المسلمات المكلفات والقذف يكون بالزنا و بغيره والمراد هنا قذفهن بالزنا بان يقول يا زانية لذكر المحصنات عقيب الزواني ولاشتراط أربعة شهداء بقوله (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) أى ثم لم يأتوا بأربعة شهود يشهدون على الزنا لان القذف بغير الزنا بان يقول يا فاسق يا آكل الربا يكفي فيه شاهدان وعليه التعزير * وشروط احصان القذف الحرية والعقل والبلوغ والاسلام والعفة عن الزنا والمحصن كالمحصنة في وجوب حد القذف (فاجلدوهم ثمانين جلدة) ان كان القاذف حرا ونصب ثمانين نصب المصادر كما نصب مائة جلدة وجلدة نصب على التمييز (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) نكر شهادة في موضع النفي فتعم كل شهادة ورد الشهادة من الحد عندنا و يتعلق باستيفاء الحد أو بعضه على ما عرف وعند الشافعي رحمه الله تعالى يتعلق رد شهادته بنفس القذف فعندنا جزاء الشرط الذى هو الرمي الجلد ورد الشهادة على التأبيد وهو مدة حياتهم (وأولئك هم الفاسقون) كلام مستأنف غير داخل في حيز جزاء الشرط كأنه حكاية حال الرامين عند الله تعالى بعد انقضاء الجملة الشرطية وقوله (الا الذين تابوا من بعد ذلك) أى القذف (وأصلحوا) أحوالهم استثناء من الفاسقين ويدل عليه (فان الله غفور رحيم) أى يغفر ذنوبهم و يرحمهم وحق الاستثناء أن يكون منصوبا عندنا لانه عن موجب وعند من جعل الاستثناء متعلقا بالجملة الثانية ان يكون مجرورا بدلا من هم في لهم ولما ذكر حكم قذف الاجنبيات بين حكم قذف الزوجات فقال (والذين يرمون أزواجهم) أى يقذفون زوجاتهم بالزنا (ولم يكن لهم شهداء) أى لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به (الا أنفسهم) يرتفع على البدل من شهداء (فشهادة أحدهم أربع) بالرفع كوفي غير أبي بكر على انه خبر والمبتدأ فشهادة أحدهم وغيرهم بالنصب لانه في حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذى هو فشهادة أحدهم وعلى هذا خبره محذوف تقديره فواجب شهادة أحدهم أربع (شهادات بالله انه لمن الصادقين) فيما رماها به من الزنا

غيره فامسكها اذا و روى هذا الحديث أبو داود والنسائي عن ابن عباس قال النسائي رفعه أحد الرواة الى ابن عباس ولم يرفعه بعضهم قال وهذا الحديث ليس بثابت و روى أن عمر بن الخطاب ضرب رجلا وامرأة في زنا وحرص على أن يجمع بينهما فأبى الغلام وقيل في معنى الآية ان الفاجر الخبيث لا يرغب في نكاح الصالحة من النساء وانما يرغب في نكاح فاجرة خبيثة مثله أو مشركة والفاسقة الخبيثة لا ترغب في نكاح الصلحاء من الرجال وانما ترغب في نكاح فاسق خبيث مثلها أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين أى صرف الرغبة بالكلية الى نكاح الزواني وترك الرغبة في الصالحات العفائف محرم على المؤمنين ولا يلزم من حرمة هذا حرمة التزوج بالزانية قوله تعالى (والذين يرمون) أى يقذفون بالزنا (المحصنات) يعني المسلمات الحرائر العفائف (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) أى يشهدون على الزنا (فاجلدوهم ثمانين جلدة) بيان حكم الآية ان من قذف محصنا أو محصنة بالزنا فقال له يا زاني أو يا زانية أو زنيت فيجب عليه جلد ثمانين ان كان القاذف حرا وان كان عبدا يجلد أربعين وان كان المقذوف غير محصن فعلى القاذف التعزير وشرائط الاحصان خمسة الاسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا حتى لو زنى في عمره مرة واحدة ثم تاب وحسنت توبته بعد ذلك ثم قذفه قاذف فلا حد عليه فان أقر المقذوف على نفسه بالزنا أو أقام القاذف أربعة يشهدون عليه بالزنا سقط الحد عن القاذف لان الحد انما وجب عليه لاجل الفرية وقد ثبت صدقه وأما الكنايات مثل أن يقول يا فاسق أو يا فاجر أو يا خبيث أو يا مؤاجر أو قال امرأتي لا ترد يد لامس فهذا ونحوه لا يكون قذفا الا أن يريد ذلك وأما التعريض مثل أن يقول أما أنا فما زنيت أو ليست امرأتي زانية فليس بقذف عند الشافعي وأبي حنيفة وقال مالك يجب فيه الحد وقال أحمد هو قذف في حال الغضب دون حال الرضا وقوله تعالى (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون) فيه دليل على ان القذف من الكبائر لان اسم الفاسق لا يقع الا على صاحب كبيرة (الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) اختلف العلماء في قبول شهادة القاذف بعد التوبة وفي حكم هذا الاستثناء فذهب قوم الى أن القاذف ترد شهادته بنفس القذف واذا تاب وندم على ما قال وحسنت حالته بعد التوبة قبلت شهادته سواء تاب بعد اقامة الحد عليه أو قبله لقوله تعالى الا الذين تابوا وقالوا هذا الاستثناء يرجع الى رد الشهادة والى الفسق فاذا تاب تقبل شهادته و يزول عنه اسم الفسق يروى ذلك عن عمر وابن عباس وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبي وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهري وبه قال مالك والشافعي وذهب قوم الى أن شهادة المحدود في القذف لا تقبل أبدا وان تاب وقالوا الاستثناء يرجع الى قوله وأولئك هم الفاسقون وهو قول النخعي وشريح وأصحاب الرأى قالوا بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحد قال الشافعي هو قبل أن يحد شر منه حين يحد لان الحدود كفارات فكيف تردونها في أحسن حاليه وتقبلونها في شر حاليه وذهب الشافعي الى أن حد القذف يسقط بالتوبة وقال الاستثناء يرجع الى الكل وعامة العلماء على انه لا يسقط الحد بالتوبة الا أن يعفو عنه المقذوف فيسقط كالقصاص يسقط بالعفو ولا يسقط بالتوبة * فان قلت اذا قبلت شهادته بعد التوبة فما معنى قوله أبدا * قلت معنى أبدا ما دام مصرا على القذف لان أبد كل انسان مدته على ما يليق به كما يقال شهادة الكافر لا تقبل أبدا يراد بذلك ما دام على كفره فاذا أسلم قبلت شهادته قوله عز وجل (والذين يرمون) أى يقذفون (أزواجهم ولم يكن لهم شهداء) أى يشهدون على صحة ما قالوا (الا أنفسهم) أى غير أنفسهم (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين) سبب نزول هذه الآية ما روى عن سهل بن سعد الساعدى

أن عويمرا العجلاني جاء الى عاصم بن عدي فقال لعاصم أرأيت لو ان رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل سل لي عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسئلة وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رجع عاصم الى أهله جاءه عويمر فقال يا عاصم ماذا قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عاصم لعويمر لم تأتني بخير قد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسئلة التي سألت عنها فقال عويمر والله لا أنتهي حتى أسأله عنها فجاء عويمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسط الناس فقال يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك قرآنا فاذهب فائت بها قال سهل فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر كذبت عليها يا رسول الله ان أمسكتها فطلقها ثلاثا قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مالك قال ابن شهاب فكانت تلك سنة المتلاعنين * أخرجاه في الصحيحين زاد في رواية ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا فان جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين خدلج الساقين فلا أحسب عويمرا الا قد صدق عليها وان جاءت به أحيمر كأنه وحرة فلا أحسب عويمرا الا قد كذب عليها فجاءت به على النعت الذي نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصديق عويمر فكان بعد ينسب الى أمه قوله أسحم أي أسود والأدعج الشديد سواد العين مع سعتها وقوله خدلج الساقين أي ممتلئ الساقين غليظهما وقوله كأنه وحرة بفتح الحاء دويبة كالعظاءة تلصق بالارض وأراد بها في الحديث المبالغة في قصره (خ) عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبي صلى الله عليه وسلم البينة أو حد في ظهرك فقال يا رسول الله اذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول البينة والا حد في ظهرك فقال هلال بن أمية والذي بعثك بالحق اني لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه والذين يرمون أزواجهم فقرأ حتى بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليهما فجاآ فقام هلال بن أمية فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا انها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا انها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم أنظروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الاليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن وفي رواية غير البخاري عن ابن عباس قال لما نزلت والذين يرمون المحصنات الآية قال سعد بن عبادة لو أتيت لكاع وقد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ حاجته ويذهب وان قلت ما رأيت ان في ظهري لثمانين جلدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار الا تسمعون ما يقول سيدكم قالوا لا تلمه فانه رجل غيور ما تزوج امرأة قط الا بكرا ولا طلق امرأة له واجترأ رجل منا أن يتزوجها فقال سعد يا رسول الله بأبي أنت وأمي والله اني لأعرف أنها من الله وانها حق ولكن عجبت من ذلك لما أخبر الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم فان الله يأبى الا ذلك فقال صدق الله ورسوله قال فلم يلبثوا الا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية من حديقة له فرأى رجلا مع امرأته يزني بها فأمسك حتى أصبح فلما أصبح غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس مع أصحابه فقال يا رسول الله اني جئت الى أهلي عشاء فوجدت مع امرأتي رجلا رأيت بعيني وسمعت بأذني فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أتاه به وثقل عليه حتى عرف ذلك في وجهه فقال هلال والله يا رسول الله اني لأرى الكراهة في وجهك مما أتيتك به والله يعلم اني لصادق وما قلت الا حقا واني لأرجو أن يجعل الله لي فرجا فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضربه قال واجتمعت الانصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد يجلد هلال وتبطل شهادته فبينما هم كذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يريد ان يأمر

بضربه اذ نزل عليه الوحي فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا ان الوحي قد نزل حتى فرغ فأنزل الله والذين يرمون أزواجهم الى آخر الآيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبشر يا هلال فان الله تعالى قد جعل لك فرجا فقال قد كنت أرجو ذلك من الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ارسلوا اليها فجاءت فلما اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل فكذبت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب فقال يا رسول الله قد صدقت وما قلت الا حقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعنوا بينهما فقيل لهلال اشهد فشهد أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين فقال له عند الخامسة يا هلال اتق الله فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وان عذاب الله أشد من عذاب الناس وان هذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب فقال هلال والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد (والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين) ثم قال للمرأة اشهدي فشهدت أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فقال لها عند الخامسة ووقفها اتقي الله ان الخامسة موجبة وان عذاب الله أشد من عذاب الناس فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومي فشهدت الخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقضى أن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وان جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه فجاءت به غلاما كأنه جمل أورق على الشبه المكروه وكان أميرا بمصر لا يدرى من أبوه الاورق هو الأبيض وروى ابن عباس ان عويمرا العجلاني زوجته خولة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نودي الصلاة جامعة فصلى العصر ثم قال لعويمر قم فقام فقال أشهد بالله ان خولة لزانية وانى لمن الصادقين ثم قال في الثانية أشهد بالله انى رأيت شريكا على بطنها وانى لمن الصادقين ثم قال في الثالثة أشهد بالله انها لحبلى من غيرى وانى لمن الصادقين ثم قال في الرابعة أشهد بالله انى ما قربتها منذ أربعة أشهر وانى لمن الصادقين ثم قال في الخامسة لعنة الله على عويمر يعنى نفسه ان كان من الكاذبين فيما قال ثم أمره بالقعود فقعد ثم قال لخولة قومي فقامت فقالت أشهد بالله ما أنا بزانية وان عويمرا لمن الكاذبين ثم قالت في الثانية أشهد بالله انه ما رأى شريكا على بطني وانه لمن الكاذبين ثم قالت في الثالثة أشهد بالله انى حبلى منه وانه لمن الكاذبين ثم قالت في الرابعة أشهد بالله انه ما رآني قط على فاحشة وانه لمن الكاذبين ثم قالت في الخامسة غضب الله على خولة تعنى نفسها ان كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقال لولا هذه الأيمان لكان لى في أمرهما رأى ثم قال تحينوا الولادة فان جاءت به أصيهب أثيبج يضرب الى السواد فهو لشريك بن سحماء وان جاءت به أورق جعدا جماليا خدلج الساقين فهو لغير الذى رميت به قال ابن عباس فجاءت بأشبه خلق بشريك ﴿بيان حكم الآية﴾ ان الرجل اذا قذف امرأته فموجبه موجب قذف الاجنبية في وجوب الحد عليه ان كانت محصنة أو التعزير ان كانت غير محصنة غير ان المخرج منهما مختلف فاذا قذف أجنبيا أو أجنبية يقام عليه الحد الا أن يأتى بأربعة يشهدون بالزنا أو يقر المقذوف بالزنا فيسقط عنه الحد وفى الزوجة اذا وجد أحد هذين أو لاعن سقط عنه الحد فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة لان الرجل اذا رأى مع امرأته رجلا ربما لا يمكنه اقامة البينة ولا يمكنه الصبر على العار فجعل الله اللعان حجة له على صدقه فقال تعالى فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين واذا أقام الزوج بينة على زناها أو اعترفت هي بالزنا سقط عنه الحد واللعان الا أن يكون هناك ولد يريد نفيه فله أن يلاعن لنفيه واذا أراد الامام ان يلاعن بينهما بدأ بالرجل فيقيمه ويلقنه كلمات اللعان فيقول قل أشهد بالله انى لمن الصادقين فيما رميت به زوجتى فلانة من الزنا وان كان قد رماها برجل بعينه سماه في اللعان ويقول كما يلقنه الامام وان كان ولد أو حمل يريد نفيه يقول وان هذا الولد أو هذا الحمل لمن الزنا ما هو منى ويقول في الخامسة على لعنة الله ان كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة واذا أتى بكلمة من كلمات اللعان من غير تلقين الامام لا تحسب فاذا فرغ الرجل من اللعان وقعت الفرقة بينه وبين الزوجة وحرمت عليه على التأبيد وانتفى عنه النسب وسقط عنه

(والخامسة) لا خلاف في رفع الخامسة هنا في المشهور والتقدير والشهادة الخامسة (أن لعنة الله عليه) فهي مبتدأ وخبر (ان كان من الكاذبين) فيما رماها به من الزنا

(ويدرأ عنها العذاب) ويدفع عنها الحبس وفاعل يدرأ (أن تشهد أربع شهادات بالله انه) ان الزوج (لمن الكاذبين) فيما رماني به من الزنا (والخامسة أن غضب الله عليها ان كان) أي الزوج (من الصادقين) فيما رماني به من الزنا ونصب حفص الخامسة عطفا على أربع شهادات وغيره رفعها بالابتداء وان غضب الله خبره وخفف نافع أن لعنة الله وان غضب الله بكسر الضاد وهما في حكم المثقلة وان غضب الله سهل و يعقوب وحفص وجعل الغضب في جانبها لان النساء يستعملن اللعن كثيرا كما ورد به الحديث فربما يجترئن على الاقدام لكثرة جري اللعن على ألسنتهن وسقوط وقوعه عن قلوبهن فذكر الغضب في جانبهن ليكون رادعا لهن والاصل ان اللعان عندنا شهادات مؤكدات بالايمان مقرونة باللعن قائمة مقام حد القذف في حقه ومقام حد الزنا في حقها لان الله تعالى سماه شهادة فاذا قذف الزوج زوجته بالزنا وهما من أهل الشهادة صح اللعان بينهما واذا التعنا كما بين في النظم لا تقع الفرقة حتى يفرق القاضي بينهما وعند زفر رحمه الله تعالى تقع بتلاعنهما والفرقة تطليقة بائنة وعند أبي يوسف وزفر والشافعي تحريم مؤبد ونزلت آية اللعان في هلال ابن أمية أو عويمر حيث قال وجدت على بطن امرأتي خولة شريك بن سحماء فكذبته فلاعن النبي صلى الله عليه وسلم بينهما (ولولا فضل الله) تفضله (عليكم ورحمته) نعمته (وان الله تواب حكيم) جواب لولا محذوف أي لفضحكم أو لعاجلكم بالعقوبة (ان الذين جاؤا بالافك) هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وأصله الافك وهو القلب لانه قول مأفوك عن وجهه والمراد ما أفك به على عائشة رضي الله عنها قالت عائشة فقدت عقدا في غزوة بني المصطلق فتخلفت ولم يعرف خلو الهودج لخفتي فلما ارتحلوا أناخ لي صفوان بن المعطل بعيره وساقه حتى أتاهم بعد ما نزلوا فهلك فيّ من هلك لحديثها فاعتللت شهرا وكان عليه الصلاة والسلام يسأل كيف أنت ولا أرى منه لطفا كنت أراه حتى عثرت خالة أبي أم مسطح فقالت تعس مسطح فأنكرت عليها فأخبرتني بالافك فلما سمعت ازددت مرضا وبت عند أبوي لا يرقأ لي دمع وما أكتحل بنوم وهما يظنان ان الدمع فالق كبدي حتى قال عليه الصلاة والسلام ابشري يا حميراء فقد أنزل الله براءتك فقلت بحمد الله لا بحمدك (عصبة) جماعة من العشرة الى الاربعين واعصوصبوا اجتمعوا وهم عبد الله بن أبيّ رأس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم (منكم) من جماعة المسلمين وهم ظنوا ان الافك وقع من الكفار دون من كان من المؤمنين

الحد ووجب على المرأة حد الزنا فهذه خمسة أحكام تتعلق بلعان الزوج قوله عز وجل (ويدرأ) أي يدفع (عنها العذاب) أي الحد (أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين) حكم الآية ان الزوج اذا لاعن وجب على المرأة حد الزنا فان أرادت اسقاطه عن نفسها فانها تلاعن فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فيما رماني به وتقول في الخامسة عليّ غضب الله ان كان زوجي من الصادقين فيما رماني به ولا يتعلق بلعانها الا هذا الحكم الواحد وهو اسقاط الحد عنها ولو أقام الزوج بينة لم يسقط الحد عنها باللعان وعند أصحاب الرأي لا حد على من قذف زوجته بل موجبه اللعان فان لم يلاعن حبس حتى يلاعن فاذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة من اللعان حبست حتى تلاعن وعند الآخرين اللعان حجة صدقه والقاذف اذا قعد عن اقامة البينة على صدقه لا يحبس بل يحد كقاذف الاجنبي اذا قعد عن اقامة البينة وعند أبي حنيفة موجب اللعان وقوع الفرقة ونفي النسب وهما لا يحصلان الا بلعان الزوجين جميعا وقضاء القاضي وفرقة اللعان فرقة فسخ عند الاكثرين وبه قال الشافعي وتلك الفرقة متأبدة حتى لو أكذب الزوج نفسه يقبل ذلك فيما عليه لا فيما له فيلزمه الحد ويلحقه الولد لكن لا يرتفع تأبيد التحريم وعند أبي حنيفة فرقة اللعان فرقة طلاق فاذا أكذب نفسه جاز له أن ينكحها واذا أتى ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم وعند أبي حنيفة اذا أتى بأكثر كلمات اللعان قام مقام الكل وكل من صح يمينه صح لعانه حرا كان أو عبدا مسلما كان أو ذميا وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والحسن وبه قال ربيعة ومالك والثوري والشافعي وأكثر أهل العلم وقال الزهري والاوزاعي وأصحاب الرأي لا يجري اللعان الا بين مسلمين حرين غير محدودين فان كان أحد الزوجين رقيقا أو ذميا أو محدودا في قذف فلا لعان بينهما وظاهر القرآن حجة لمن قال يجري اللعان بينهما لان الله تعالى قال والذين يرمون أزواجهم ولم يفصل بين الحر والعبد والمحدود وغيره ولا يصح اللعان الا عند الحاكم أو نائبه ويغلظ اللعان بأربعة أشياء بتعدد الالفاظ وبالمكان وبالزمان وان يكون بحضر جماعة من الناس أما تعدد الالفاظ فيجب ولا يجوز الاخلال بشيء منها وأما المكان فهو ان يلاعن في أشرف الاماكن فان كان بمكة فبين الركن والمقام وان كان بالمدينة فعند منبر النبي صلى الله عليه وسلم وفي سائر البلاد في الجامع عند المنبر وأما الزمان فهو أن يكون بعد العصر وأما الجمع فأقله أربعة والتغليظ بالجمع مستحب فلو لاعن الحاكم بينهما وحده جاز وفي التغليظ بالزمان والمكان قولان قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) أي لعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان (وان الله تواب) أي يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة (حكيم) أي فيما فرضه من الحدود قوله عز وجل (ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم) الآيات سبب نزولها ما روي عن ابن شهاب قال حدثني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الافك ما قالوا وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى

حديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض
حديثهم يصدق بعضا قالوا قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع
بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت عائشة فأقرع بيننا في غزوة غزاها
فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أنزل الحجاب فكنت أحمل في هودج وأنزل
فيه فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوه وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل
فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت من شأني أقبلت الى رحلي فلمست
صدري فاذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه قالت وأقبل الرهط
الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون اني فيه وكان
النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم انما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج
حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش
فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت به وظننت انهم سيفقدوني فيرجعون الى
فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء
الجيش فادلج فاصبح عند منزلي فرأى سواد انسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل أن يضرب
الحجاب علي فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة
غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش
بعد ما نزلوا معرسين وفي رواية موغرين في نحر الظهيرة قالت فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره
عبد الله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون في قول
أصحاب الافك ولا أشعر بشيء من ذلك وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف
الذي كنت أرى منه حين أشتكي انما يدخل فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذي يريبني منه
ولا أشعر بالشر حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وهي متبرزنا وكنا لا نخرج الا ليلا الى ليل
وذلك قبل ان نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الاول في التنزه وكنا نتأذى بالكنف ان
نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن
عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب حين فرغنا من شأننا نمشي فعثرت أم
مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت أتسبين رجلا قد شهد بدرا فقالت يا هنتاه
أولم تسمعي ما قال قلت وما قال فأخبرتني بقول أهل الافك فازددت مرضا الى مرضي فلما رجعت الى بيتي
فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال كيف تيكم قلت له أتأذن لي ان آتي أبوي قالت وأنا حينئذ
أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت أبوي فقلت لأمي يا أمتاه ماذا
يتحدث الناس به فقالت يا بنية هوني على نفسك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها
ضرائر الا كثرن عليها قالت فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت
لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي قالت ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب
وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله قالت فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة
أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال أسامة هم أهلك يا رسول الله ولا نعلم والله الا خيرا وأما علي بن أبي
طالب فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله
صلى الله عليه وسلم بريرة فقال أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة قالت له بريرة لا والذي بعثك
بالحق ان رأيت منها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من انها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فيأتي
الداجن فيأكله قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي وفي رواية في أهل

بيتي فوالله ما علمت على أهلي الا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا وما كان يدخل على أهلي الا معي قالت فقام سعد بن معاذ أحد بني عبد الاشهل فقال أنا أعذرك منه يارسول الله ان كان من الأوس ضربنا عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد يعني ابن معاذ فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين فثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم فأصبح عندي أبواي وقد بكيت ليلتين ويوما حتى أظن ان البكاء فالق كبدي قالت فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي اذا استأذنت علي امرأة من الانصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينما نحن كذلك اذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس ولم يجلس عندي من يوم قيل لي ما قيل قبلها وقد مكث شهرا لا يوحى اليه في شأني بشئ قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة فانه بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة وقلت لأبي أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله فقلت لأمي أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال قالت والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن اني والله لقد علمت انكم سمعتم ما تحدث به الناس حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم اني بريئة والله يعلم اني بريئة لا تصدقوني بذلك ولئن اعترفت لكم بامر والله يعلم اني منه بريئة لتصدقني فوالله ما أجد لي ولكم مثلا الا أبا يوسف اذ قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ثم تحولت فاضطجعت على فراشي وأنا والله حينئذ أعلم اني بريئة وان الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن ان ينزل الله في شأني وحيا يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من ان يتكلم الله في بأمر يتلى ولكن كنت أرجو ان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها قالت فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم فاخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه قال فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي يا عائشة احمدي الله وفي رواية قال أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك فقالت لي أمي قومي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لا والله لا أقوم اليه ولا أحمد الا الله هو الذي أنزل براءتي قالت فانزل الله عز وجل ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم العشر الآيات فانزل الله عز وجل هذه الآيات في براءتي قالت فقال أبو بكر وكان ينفق على مسطح بن اثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفق عليه شيأ أبدا بعد الذي قال لعائشة فانزل الله ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة الى قوله غفور رحيم فقال أبو بكر بلى والله اني لأحب أن يغفر الله لي فرجع الى مسطح الذي كان يجري عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال يا زينب ما علمت أو ما رأيت فقالت يارسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت عليها الا خيرا قالت عائشة وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الافك قال ابن شهاب فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط زاد في رواية قالت عائشة والله ان الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط قالت ثم قتل بعد في سبيل الله شهيدا هذا حديث متفق على صحته * أخرجاه في الصحيحين زاد البخاري في رواية عن عروة عن عائشة

(والصالحين) أي الخيرين أو المؤمنين والمعنى زوّجوا من تأيّم منكم من الاحرار والحرائر ومن كان فيه صلاح (من عبادكم وامائكم) أي من غلمانكم وجواريكم والامر للندب اذ النكاح مندوب اليه (ان يكونوا فقراء) من المال (يغنهم الله من فضله) بالكفاية والقناعة أو باجتماع الرزقين وفي الحديث التمسوا الرزق بالنكاح وعن عمر رضي الله عنه روى مثله (والله واسع) غنى ذو سعة لا يرزؤه اغناء الخلائق (عليم) يبسط الرزق لمن يشاء وقيل في الآية دليل على ان تزويج النساء والأيامى الى الأولياء كما ان تزويج العبيد والاماء الى الموالي قلنا الرجل لا يلي على الرجل الايم الا باذنه فكذا الولي على المرأة الا باذنها الا ان الايم ينتظمهما (وليستعفف الذين) واجتهدوا في العفة كأن المستعفف طالب من نفسه العفاف (لا يجدون نكاحا) استطاعة تزوّج من المهر والنفقة (حتى يغنيهم الله من فضله) حتى يقدرهم على المهر والنفقة قال عليه الصلاة والسلام يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء فانظر كيف رتب هذه الاوامر فأمر أوّلا بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر ثم بالنكاح المحصن للدين المغني عن الحرام ثم بعزة النفس الأمارة بالسوء عن الطموح الى الشهوة عند العجز عن النكاح الى أن تقدر عليه (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم) أي المماليك الذين يطلبون الكتابة فالذين مرفوع بالابتداء أو منصوب بفعل يفسره (فكاتبوهم) وهو للندب ودخلت الفاء لتضمنه معنى الشرط والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة وهو أن يقول لمملوكه كاتبتك على ألف درهم فان أداها عتق ومعناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني اذا وفيت بالمال وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك أو كتبت عليك الوفاء بالمال أو كتبت على العتق ويجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لاطلاق الامر

(والصالحين من عبادكم) أي من عبيدكم (وامائكم) بيان حكم الآية الامر المذكور في الآية أمر ندب واستحباب لاجماع السلف عليه فيستحب لمن تاقت نفسه الى النكاح ووجد اهبته أن يتزوّج وان لم يجد اهبته يكسر شهوته بالصوم (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء الباءة النكاح ويكنى به عن الجماع أيضا والوجاء بكسر الواو رض الانثيين وهو نوع من الخصاء شبه الصوم في قطعه شهوة النكاح بالوجاء الذي يقطع النسل عن معقل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوّجوا الودود الولود فاني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة أخرجه أبو داود والنسائي (م) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة أما من لا تتوق نفسه الى النكاح وهو قادر عليه فالتخلي للعبادة أفضل له من النكاح عند الشافعي وعند أصحاب الرأي النكاح أفضل قال الشافعي قد ذكر الله عبدا أكرمه فقال وسيدا وحصورا وهو الذي لا يأتي النساء وذكر القواعد من النساء ولم يندبهن الى النكاح وفي الآية دليل على أن تزويج الأيامى الى الاولياء لان الله خاطبهم به كما ان تزويج العبيد والاماء الى السادات وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم روى ذلك عن عمر وعلي وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وشريح وابراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز واليه ذهب الثوري والاوزاعي وعبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد واسحق وجوّز أصحاب الرأي للمرأة تزويج نفسها وقال مالك ان كانت المرأة دنيئة يجوز لها تزويج نفسها وان كانت شريفة فلا والدليل على أن الولي شرط في النكاح ما روى عن أبي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نكاح الا بولي أخرجه أبو داود والترمذي ولهما عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أيما امرأة نكحت بغير اذن وليها فنكاحها باطل ثلاثا فان أصابها فلها المهر بما استحل من فرجها فان تشاجروا فالسلطان ولي من لا ولي له وقوله تعالى (ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) قيل الغنى هنا القناعة وقيل هو اجتماع الرزقين رزق الزوج والزوجة وقال عمر بن الخطاب عجبت لمن يبتغي الغنى بغير نكاح والله تعالى يقول ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وقال بعضهم ان الله وعد الغنى بالنكاح وبالتفرق فقال تعالى ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وقال وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته (والله واسع) أي انه ذو الافضال والجود (عليم) أي بما يصلح خلقه من الرزق قوله تعالى (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا) أي ليطلب العفة عن الزنا والحرام الذين لا يجدون ما ينكحون به من الصداق والنفقة (حتى يغنيهم الله من فضله) أي يوسع عليهم من رزقه (والذين يبتغون الكتاب) أي يطلبون المكاتبة (مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم) سبب نزول هذه الآية أن غلاما لحويطب بن عبد العزى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا فأداها وقتل يوم حنين في الحرب * بيان حكم الآية وكيفية المكاتبة وذلك أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتك على كذا من المال ويسمي مالا معلوما تؤدي ذلك في نجمين أو في نجوم معلومة في كل نجم كذا فاذا أديت ذلك فأنت حر ويقبل العبد ذلك فاذا أدى العبد ذلك المال عتق ويصير العبد أحق بمكاسبه بعد الكتابة واذا عتق بأداء المال فما فضل في يده من المال فهو له ويتبعه أولاده الذين حصلوا في الكتابة في العتق واذا عجز عن أداء المال كان لمولاه أن يفسخ كتابته ويرده الى الرق وما في يده من المال فهو لسيده لما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(ان علمتم فيهم خيرا) قدرة على الكسب أو أمانة وديانة والندبية معلقة بهذا الشرط (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) أمر للمسلمين على وجه الوجوب باعانة المكاتبين واعطائهم سهمهم من الزكاة لقوله تعالى وفى الرقاب وعند الشافعى رحمه الله معناه حطوا من بدل الكتابة ربعا وهذا عندنا على وجه الندب والاول الوجه لان الايتاء هو التمليك فلا يقع على الحط سأل صبيح مولاه حويطبا أن يكاتبه فأبى فنزلت واعلم ان العبيد أربعة قن مقتنى للخدمة ومأذون فى التجارة ومكاتب وآبق فمثال الاول ولى العزلة الذى حصل العزلة بايثار الخلوة وترك العشرة والثانى ولى العشيرة فهو نجى الحضرة يخالط الناس للخبرة وينظر اليهم بالعبرة ويأمرهم بالعبرة فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكم بحكم الله ويأخذ لله ويعطى فى الله ويفهم عن الله ويتكلم مع الله فالدنيا سوق تجارته والعقل رأس بضاعته والعدل فى الغضب والرضا ميزانه والقصد فى الفقر والغنى عنوانه والعلم مفزعه ومنجاه والقرآن كتاب الاذن من مولاه هو كائن فى الناس بظواهره بائن منهم بسرائره فقد هجرهم فيما لله عليهم فى الله باطنا ثم وصلهم فيما لهم عليه لله ظاهرا وما هو منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام يأكل ما يأكلون ويشرب ما يشربون وما يدريهم انه ضيف الله يرى السموات والارض قائمات بأمره وكأنه قيل فيه

فان تفق الانام وأنت منهم
فان المسك بعض دم الغزال

فحال ولى العزلة أصفى وأحلى وحال ولى العشرة أوفى وأعلى ونزل الاول من الثانى فى حضرة الرحمن منزلة النديم من الوزير عند السلطان أما النبى عليه الصلاة والسلام فهو كريم الطرفين ومعدن الشذرين ومجمع الحالين ومنبع الزلالين فباطن أحواله مهتدى ولى العزلة وظاهر أعماله مقتدى ولى العشرة والثالث المجاهد المحاسب العامل المطالب بالضرائب كنجوم المكاتب عليه فى اليوم والليلة خمس وفى المائتين درهما خمسة وفى السنة شهر وفى العمر زورة فكأنه اشترى نفسه من ربه بهذه النجوم المرتبة فيسعى فى فكاك رقبته خوفا من البقاء فى ربقة العبودية وطمعا فى فتح باب الحرية ليسرح فى رياض الجنة فيتمتع بمياه ويفعل ما يشاؤه ويهواه والرابع الآبق فما أكثرهم فمنهم القاضى الجائر والعالم غير العامل والعامل المرائى والواعظ الذى لا يفعل ما يقول ويكون أكثر أقواله الفضول وعلى كل ما لا ينفعه يصول فضلا عن السارق والزانى والغاصب فمنهم أخبر النبى عليه الصلاة والسلام ان الله لينصر هذا الدين بقوم لاخلاق لهم فى الآخرة

المكاتب عبد ما بقى عليه درهم أخرجه أبو داود وذهب بعض أهل العلم الى أن قوله تعالى فكاتبوهم أمر ايجاب يجب على السيد أن يكاتب عبده الذى علم فيه خيرا اذا سأل العبد ذلك على قيمته أو على أكثر من قيمته وان سأل على أقل من قيمته لا يجب وهو قول عطاء وعمرو بن دينار لما روى ان سيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه وكان كثير المال فأبى فانطلق سيرين الى عمر فشكاه فدعاه عمر فقال له كاتبه فأبى فضربه بالدرة وتلا فكاتبوهم (ان علمتم فيهم خيرا) فكاتبه وذهب أكثر أهل العلم الى انه أمر ندب واستحباب ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعى لانه عقد جوز ارفاقا بالعبد ومن تتمة الارفاق أن يكون ذلك المال عليه الى أجل حتى يؤديه على مهل فيحصل المقصود وجوز أبو حنيفة الكتابة الى نجم واحد وحالة واحدة واختلفوا فى معنى قوله ان علمتم فيهم خيرا فقال ابن عمر قوة على الكسب وهو قول مالك والثورى وقيل مالا روى ان عبدا لسلمان الفارسى قال له كاتبنى قال ألك مال قال لا قال تريد أن تطعمنى أوساخ الناس ولم يكاتبه قيل له لو أراد به المال لقال ان علمتم لهم خيرا وقيل صدقا وأمانة وقال الشافعى أظهر معانى الخير فى العبد الاكتساب مع الامانة فأحب أن لا يمنع من المكاتبة اذا كان هكذا وعن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاث حق على الله عونهم المكاتب الذى يريد الاداء والناكح الذى يريد العفاف والمجاهد فى سبيل الله أخرجه الترمذى والنسائى وقيل معنى الخير أن يكون العبد عاقلا بالغا فأما الصبى والمجنون فلا تصح كتابتهما لان الابتغاء منهما لا يصح وجوز أبو حنيفة كتابة الصبى المراهق وقوله تعالى (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) قيل هو خطاب للموالى فيجب على السيد أن يحط عن مكاتبه من مال الكتابة شيأ وهو قول عثمان وعلى والزبير وجماعة وبه قال الشافعى ثم اختلفوا فى قدر ما يحط فقيل يحط الربع وهو قول على ورواه بعضهم مرفوعا وقال ابن عباس يحط الثلث وقال الآخرون ليس له حد بل عليه أن يحط عنه ما شاء وبه قال الشافعى قال نافع كاتب عبد الله بن عمر غلاما له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع من آخر كتابته خمسة آلاف درهم أخرجه مالك فى الموطأ وقال سعيد بن جبير كان ابن عمر اذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيأ من أول نجومه مخافة أن يعجز فيرجع اليه صدقته ويضع عنه من آخر كتابته ما أحب وقال بعضهم هو أمر استحباب والوجوب أظهر وقيل أراد بقوله وآتوهم من مال الله أى سهمهم الذى جعله الله لهم من الصدقات المفروضات وهو قوله وفى الرقاب أراد به المكاتب وهو قول الحسن وزيد بن أسلم وقيل هو حث لجميع الناس على مؤنتهم واختلف العلماء فيما اذا مات المكاتب قبل أداء النجوم فذهب كثير منهم الى انه يموت رقيقا وترتفع الكتابة سواء ترك مالا أو لم يترك وهو قول عمر وابن عمر وزيد بن ثابت وبه قال عمر بن عبد العزيز والزهرى وقتادة واليه ذهب الشافعى وأحمد وقال قوم ان ترك وفاء ما بقى عليه من مال الكتابة كان حرا وان فضل له مال كان لأولاده الأحرار وهو قول عطاء وطاوس والنخعى والحسن وبه قال مالك والثورى وأصحاب الرأى ولو كاتب عبده كتابة فاسدة يعتق بأداء المال لان عتقه معلق بالأداء وقد وجد وتتبعه أولاده وأكسابه كما فى

(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) كان لابن أبى ستّ جوارٍ معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن الضرائب فشكت ثنتان منهن الى رسول الله عليه الصلاة والسلام فنزلت ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة والبغاء الزنا للنساء خاصة وهو مصدر لبغت (ان أردن تحصنا) تعففا عن الزنا وانما قيده بهذا الشرط لان الاكراه لا يكون الامع ارادة التحصن فآمر المطيعة للبغاء لا يسمى مكرها ولا أمره اكراها ولانها نزلت على سبب فوقع النهى على تلك الصفة وفيه توبيخ للموالى أى اذا رغبن فى التحصن فانتم أحق بذلك (لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا) أى لتبتغوا باكراههن على الزنا اجورهن وأولادهن (ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) أى لهن وفى مصحف ابن مسعود كذلك وكان الحسن يقول لهن والله لهن والله ولعل الاكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة وهو الذى يخاف منه التلف فكانت آثمة أولهم اذا تابوا (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات) بفتح الياء حجازى وبصرى وأبو بكر وحماد والمراد الآيات التى بينت فى هذه السورة وأوضحت فى معانى الاحكام والحدود وجاز أن يكون الاصل مبينا فيها فاتسع فى الظرف أى أجرى مجرى المفعول به كقولهم ويوم شهدناه وبكسرها غيرهم أى بينت هى الاحكام والحدود وجعل الفعل لها مجازا أو من بين بمعنى تبين ومنه المثل

*قد بين الصبح لذى عينين

(ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) ومثلا من أمثال من قبلكم أى قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم يعنى قصة عائشة رضى الله عنها (وموعظة) ما وعظ به من الآيات والمثل من نحو قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله لولا اذ سمعتموه ولولا اذ سمعتموه يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا (للمتقين) أى هم المنتفعون بها وان كانت موعظة للكل نظير قوله (الله نور السموات والارض) مع قوله مثل نوره ويهدى الله لنوره وقولك زيد كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى ذو نور السموات ونور السموات والارض الحق شبهه بالنور فى ظهوره وبيانه كقوله الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور أى من الباطل الى الحق وأضاف النور اليهما للدلالة على سعة اشراقه وفشو اضاءته حتى تضىء له السموات والارض وجاز ان المراد أهل السموات والارض وانهم يستضيئون به (مثل نوره) أى صفة نوره العجيبة الشأن فى الاضاءة

الكتابة الصحيحة لان الكتابة الصحيحة لا يملك المولى فسخها ما لم يعجز المكاتب عن أداء النجوم وقوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم) أى اماءكم (على البغاء) أى الزنا (ان أردن تحصنا) الآية (م) عن جابر قال كان عبد الله ابن أبى ابن سلول يقول لجارية له اذهبى فابغينا شيأ قال فأنزل الله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا وفى رواية أخرى ان جارية لعبد الله بن أبى يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة كان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء الى قوله غفور رحيم وقال المفسرون نزلت فى عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق كانت له جاريتان يقال لهما مسيكة ومعاذة وكان يكرههما على الزنا الضريبة يأخذها منهما وكذلك كانوا يفعلون فى الجاهلية يؤجرون اماءهم فلما جاء الاسلام قالت معاذة لمسيكة ان هذا الامر الذى نحن فيه لا يخلو من وجهين فان يك خيرا فقد استكثرنا منه وان يك شرا فقد آن لنا أن ندعه فانزل الله هذه الآية وروى ان احدى الجاريتين جاءت ببرد وجاءت الاخرى بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا فقالتا والله لا نفعل قد جاء الاسلام وحرم الزنا فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكتا اليه فأنزل الله هذه الآية واختلف العلماء فى معنى قوله ان أردن تحصنا على أقوال أحدها ان الكلام ورد على سبب وهو الذى ذكر فى سبب نزول الآية فخرج النهى على صفة السبب وان لم يكن شرطا فيه الثانى انما شرط ارادة التحصن لان الاكراه لا يتصور الا عند ارادة التحصن فأما اذا لم ترد المرأة التحصن فانها تبغى بالطبع طوعا الثالث أن ان بمعنى اذا أى اذا أردن وليس معناه الشرط لانه لا يجوز اكراههن على الزنا ان لم يردن تحصنا كقوله وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين أى اذا كنتم مؤمنين القول الرابع أن فى هذه الآية تقديما وتأخيرا تقديره وأنكحوا الأيامى منكم ان أردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء (لتبتغوا) أى لتطلبوا (عرض الحيوة الدنيا) أى من أموال الدنيا يريد كسبهن وبيع أولادهن (ومن يكرههن) يعنى على الزنا (فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) يعنى للمكرهات والوزر على المكره وكان الحسن اذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن والله قوله تعالى (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات) أى من الحلال والحرام (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) أى شبها من حالكم بحالهم أيها المكذبون وهذا تخويف لهم ان يلحقهم ما لحق من كان قبلهم من المكذبين (وموعظة للمتقين) أى المؤمنين الذين يتقون الشرك والكبائر قوله عز وجل (الله نور السموات والارض) قال ابن عباس معناه الله هادى السموات والارض فهم بنوره الى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون وقيل معناه الله منور السموات والارض نور السماء بالملائكة ونور الارض بالانبياء وقيل معناه مزين السموات والارض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الارض بالانبياء والعلماء والمؤمنين ويقال زين الارض بالنبات والاشجار وقيل معناه ان الانوار كلها منه وقد يذكر هذا اللفظ على طريق المدح كما قال الشاعر

اذا سار عبد الله عن مرو ليلة * فقد سار عنها نورها وجمالها

(مثل نوره) أى مثل نور الله عز وجل فى قلب المؤمن وهو النور الذى يهتدى به وقال ابن عباس مثل نوره

(كمشكاة) كصفة مشكاة وهى الكوة فى الجدار غير النافذة (فيها مصباح) أى سراج ضخم ثاقب (المصباح فى زجاجة) فى قنديل من زجاج شامى بكسر الزاى (الزجاجة كأنها كوكب درى) مضىء بضم الدال وتشديد الياء منسوب الى الدر لفرط ضيائه وصفائه و بالكسر والهمزة عمرو وعلى كأنه يدرأ الظلام بضوئه و بالضم والهمزة أبو بكر وحمزة شبه فى زهرته باحد الكواكب الدرارى كالمشترى والزهرة ونحوهما (توقد) بالتخفيف حمزة وعلى وأبو بكر الزجاجة و يوقد بالتخفيف شامى ونافع وحفص و يوقد بالتشديد مكى و بصرى أى هذا المصباح (من شجرة) أى ابتداء ثقوبه من زيت شجرة الزيتون يعنى رويت ذبالته بزيتها (مباركة) كثيرة المنافع أولانها نبتت فى الارض التى بورك فيها للعالمين وقيل بارك فيها سبعون نبيا منهم ابراهيم عليه السلام (زيتونة) بدل من شجرة نعتها (لاشرقية ولاغربية) أى منبتها الشام يعنى ليست من المشرق ولا من المغرب بل فى الوسط منهما وهو الشام وأجود الزيتون زيتون الشام وقيل ليست مما تطلع عليه الشمس فى وقت شروقها أو غروبها فقط بل تصيبها بالغداة والعشى جميعا فهى شرقية وغربية (يكاد زيتها) دهنها (يضىء ولو لم تمسسه نار) وصف الزيت بالصفاء والوميض وانه لتلألؤه يكاد يضىء من غير نار (نور على نور) أى هذا النور الذى شبه به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق بقية مما يقوى النور وهذا لان المصباح اذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة كان أجمع لنوره بخلاف المكان الواسع فان الضوء ينتشر فيه والقنديل أعون شئ على زيادة الانارة وكذلك الزيت وصفاؤه وضرب المثل يكون بدنى محسوس معهود لا بعلى غير معاين ولا مشهود فابو تمام لما قال فى المأمون

اقدام عمرو فى سماحة حاتم * فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

قيل له ان الخليفة فوق من مثلته بهم فقال مرتجلا

لاتنكروا ضربى له من دونه * مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

الذى أعطى المؤمن وقيل الكناية عائدة الى المؤمن أى مثل نور قلب المؤمن وقيل أراد بالنور القرآن وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هو الطاعة سمى طاعة الله نورا وأضاف هذه الانوار الى نفسه تشريفا وتفضيلا (كمشكاة) هى الكوة التى لامنفذ لها قيل هى بلغة الحبشة (فيها مصباح) أى سراج وأصله من الضوء (المصباح فى زجاجة) يعنى القنديل وانما ذكر الزجاجة لان النور وضوء النار فيها أبين من كل شئ وضوؤه يزيد فى الزجاج ثم وصف الزجاجة فقال تعالى (الزجاجة كأنها كوكب درى) من درأ الكوكب اذا اندفع منقضا فيتضاعف نوره فى تلك الحال وفى ذلك الوقت وقيل هو من درأ النجم اذا طلع وارتفع وقيل درى أى شديد الانارة نسب الى الدر فى صفائه وحسنه وان كان الكوكب أضوأ من الدر لكنه يفضل الكوكب بصفائه كما يفضل الدر على سائر اللؤلؤ وقيل الكوكب الدرى أحد الكواكب الخمسة السيارة التى هى زحل والمريخ والمشترى والزهرة وعطارد قيل شبهه بالكواكب ولم يشبهه بالشمس والقمر لانهما يلحقهما الكسوف بخلاف الكواكب (توقد) أى اتقد المصباح (من شجرة مباركة زيتونة) أى من زيت شجرة مباركة كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة لان الزيت يسرج به ويدهن به وهو ادام وهو أصفى الادهان وأضوأها وقيل انها أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقيل أراد به زيتون الشام لانها هى الارض المباركة وهى شجرة لايسقط ورقها عن أسيد بن ثابت أو أبى أسيد الانصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة * أخرجه الترمذى وقوله (لاشرقية ولاغربية) أى ليست شرقية وحدها فلا تصيبها الشمس اذا غربت ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة اذا طلعت بل مصاحبة الشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية غربية تأخذ حظها من الامرين فيكون زيتها أضوأ وهذا معنى قول ابن عباس وقيل معناه انها ليست فى مقنأة لاتصيبها الشمس ولا فى مضحاة لاتصيبها الظل فهى لاتضرها شمس ولاظل وقيل معناه انها معتدلة ليست فى شرق يضرها الحر ولا فى غرب يضرها البرد وقيل معناه هى شامية لان الشام وسط الارض لاشرقى ولاغربى وقيل ليست هذه الشجرة من أشجار الدنيا لانها لو كانت فى الدنيا لكانت شرقية أو غربية وانما هو مثل ضربه الله لنوره (يكاد زيتها يضىء) أى من صفائه (ولو لم تمسسه نار) أى قبل ان تمسه النار (نور على نور) أى نور المصباح على نور الزجاجة

﴿فصل فى بيان التمثيل المذكور فى الآية﴾ اختلف أهل العلم فى معنى هذا التمثيل فقيل المراد به الهدى ومعناه ان هداية الله تعالى قد بلغت فى الظهور والجلاء الى أقصى الغايات وصار ذلك بمنزلة المشكاة التى فيها زجاجة صافية وفى تلك الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية فى الصفاء والرقة والبياض فاذا كان كذلك كان كاملا فى صفائه وصلح أن يجعل مثلا لهداية الله تعالى وقيل وقع هذا التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب الاحبار اخبرنى عن قوله تعالى مثل نوره كمشكاة قال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هى شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم به انه نبى كما يكاد ذلك الزيت يضىء ولو لم تمسسه نار وروى عن ابن عمر فى هذه الآية قال المشكاة جوف محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذى جعله الله فيه لاشرقية ولاغربية لايهودى ولا نصرانى توقد من شجرة مباركة ابراهيم نور على نور نور قلب ابراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن كعب القرظى المشكاة ابراهيم والزجاجة

(يهدي الله لنوره) أي هذا النور الثابت (من يشاء) من عباده أي يوفق لاصابة الحق من يشاء من عباده بالهام من الله أو بنظره في الدليل (ويضرب الله الامثال للناس) تقريبا الى أفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا (والله بكل شيء عليم) فيبين كل شيء بما يمكن أن يعلم به وقال ابن عباس رضي الله عنه مثل نوره أي نور الله الذي هدى به المؤمن وقرأ ابن مسعود رحمه الله مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة وقرأ أبي مثل نور المؤمن (في بيوت) يتعلق بمشكاة أي كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت أو بتوقد أي توقد في بيوت أو بيسبح أي يسبح له رجال في بيوت وفيها تكرير فيه توكيد نحو زيد في الدار جالس فيها أو بمحذوف أي سبحوا في بيوت (أذن الله) أي أمر (أن ترفع) تبنى كقوله بناها رفع سمكها فسواها واذ يرفع ابراهيم القواعد أو تعظم من الرفعة وعن الحسن ما أمر الله أن ترفع بالبناء ولكن بالتعظيم (ويذكر فيها اسمه) يتلى فيها كتابه أو هو عام في كل ذكر (يسبح له فيها بالغدو والآصال) أي يصلي له فيها بالغداة صلاة الفجر وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين وانما وحد الغدو لان صلاته واحدة وفي الآصال صلوات والآصال جمع أصل جمع أصيل وهو العشي (رجال) فاعل يسبح يسبح شامي وأبو بكر ويسند الى أحد الظروف الثلاثة أعني له فيها بالغدو ورجال مرفوع بما دل عليه يسبح أي يسبح له (لا تلهيهم) أي لا تشغلهم (تجارة) في السفر (ولا بيع) في الحضر وقيل التجارة الشراء اطلاقا لاسم الجنس على النوع أو خص البيع بعد ما عم لانه أوغل في الالهاء من الشراء لان الربح في البيعة الرابحة متيقن وفي الشراء مظنون (عن ذكر

اسمعيل والمصباح محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين سمى الله محمدا مصباحا كما سماه سراجا منيرا والشجرة المباركة ابراهيم عليه السلام لان أكثر الانبياء من صلبه لا شرقية ولا غربية يعني ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما لان اليهود تصلي الى الغرب والنصارى تصلي الى الشرق يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن يوحى اليه نور على نور نبي من نسل نبي نور محمد على نور ابراهيم وقيل وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن قال أبي بن كعب هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة قلبه والمصباح ما جعله الله فيه من الايمان والقرآن توقد من شجرة مباركة هي شجرة الاخلاص لله وحده فمثله مثل شجرة التف بها الشجر فهي خضراء ناعمة نضرة لا تصيبها الشمس اذا طلعت ولا اذا غربت فكذلك المؤمن قد احترس أن يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال ان أعطي شكر وان ابتلي صبر وان حكم عدل وان قال صدق يكاد زيتها يضيء أي يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يتبين له لموافقته اياه نور على نور قال أبي فهو يتقلب في خمسة أنوار قوله نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة وقال ابن عباس هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار فاذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوئه كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور وقال الكلبي نور على نور يعني ايمان المؤمن وعمله وقيل نور الايمان ونور القرآن وقيل هذا مثل القرآن فالمصباح هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح فكذلك يهتدى بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة المعرفة في قلبه يكاد زيتها يضيء أي نور المعرفة يشرق في قلب المؤمن ولو لم تمسسه النار وقيل تكاد حجة القرآن تتضح وان لم يقرأ نور على نور يعني القرآن نور من الله لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والاعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نورا على نور وقوله تعالى (يهدي الله لنوره من يشاء) وقال ابن عباس لدين الاسلام وهو نور البصيرة (ويضرب الله الامثال للناس) أي يبين الله الاشياء للناس تقريبا الى الأفهام وتسهيلا لسبيل الادراك (والله بكل شيء عليم)

قوله عز وجل (في بيوت) أي ذلك المصباح يوقد في بيوت والمراد بالبيوت جميع المساجد قال ابن عباس المساجد بيوت الله في الارض تضيء لاهل السماء كما تضيء النجوم لاهل الارض وقيل المراد بالبيوت أربعة مساجد لم يبنها الا نبي الكعبة بناها ابراهيم واسمعيل فجعلاها قبلة وبيت المقدس بناه داود وسليمان ومسجد المدينة بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء أسس على التقوى وبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا (أذن الله أن ترفع) أي تبنى وقيل تعظم فلا يذكر فيها الخنى من القول وتطهر عن الانجاس والاقذار (ويذكر فيها اسمه) قال ابن عباس يتلى فيها كتابه (يسبح له فيها) أي يصلي له فيها (بالغدو والآصال) بالغداة والعشي قال أهل التفسير أراد به الصلاة المفروضة فالتي تؤدى بالغداة صلاة الفجر والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لان اسم الاصيل يقع على هذا الوقت كله وقيل أراد به الصبح والعصر عن أبي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من صلى البردين دخل الجنة أراد بالبردين صلاة الصبح وصلاة العصر وقال ابن عباس التسبيح بالغدو صلاة الضحى والآصال صلاة العصر عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج من بيته متطهرا الى صلاة مكتوبة كان أجره كأجر الحاج المحرم ومن خرج الى المسجد الى تسبيح الضحى لا يعنيه الا ذلك كان أجره كأجر المعتمر وصلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين * أخرجه أبو داود (رجال) قيل خص الرجال بالذكر في هذه المساجد لان النساء ليس عليهن حضور المساجد لجمعة ولا جماعة (لا تلهيهم) أي لا تشغلهم (تجارة) وقيل خص التجارة بالذكر لانها أعظم ما يشتغل الانسان به عن الصلوات والطاعات وأراد بالتجارة الشراء وان كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعا لانه ذكر البيع بعده وقيل التجارة لاهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يده (ولا بيع) أي ولا يشغلهم بيع (عن ذكر

الله) باللسان والقلب (واقام الصلاة) أى وعن اقامة الصلاة التاء فى اقامة عوض من العين الساقطة للاعلال والاصل اقوام فلما قلبت الواو
ألفا اجتمع ألفان فحذفت احداهما لالتقاء الساكنين فادخلت التاء عوضا عن المحذوف فلما أضيفت أقيمت الاضافة مقام التاء فاسقطت
(وايتاء الزكاة) أى وعن ايتاء الزكاة والمعنى لا تجارة لهم حتى تلهيهم كأولياء العزلة أو يبيعون و يشترون و يذكرون الله مع ذلك واذا حضرت
الصلاة قاموا اليها غير متثاقلين كأولياء العشرة (يخافون يوما) أى يوم القيامة و يخافون حال من الضمير فى تلهيهم أو صفة أخرى لرجال (تتقلب
فيه القلوب) ببلوغها الى الحناجر (والابصار) بالشخوص والزرقة أو تتقلب القلوب الى الايمان بعد الكفران والابصار الى العيان بعد انكاره
الطغيان كقوله فكشفنا عنك ٣٣٤ غطاءك فبصرك اليوم حديد (ليجزيهم الله احسن ما عملوا و يزيدهم من فضله) أى يسبحون
و يخافون ليجزيهم الله
أحسن جزاء أعمالهم أى
ليجزيهم ثوابهم مضاعفا
و يزيدهم على الثواب
الموعود على العمل تفضلا
(والله يرزق من يشاء بغير
حساب) أى يثيب من
يشاء ثوابا لا يدخل فى
حساب الخلق هذه صفات
المهتدين بنور الله فاما
الذين ضلوا عنه فالمذكورون
فى قوله (والذين كفروا
أعمالهم كسراب) هو
ما يرى فى الفلاة من ضوء
الشمس وقت الظهر يسرب
على وجه الارض كأنه ماء
يجرى (بقيعة) بقاع أو
جمع قاع وهو المنبسط
المستوى من الارض
بجيرة فى جار (يحسبه
الظمآن) يظنه العطشان
(ماء حتى اذا جاءه) أى جاء
الى ما توهم انه ماء (لم يجده
شيأ) كما ظنه (ووجد الله)
أى جزاء الله كقوله يجد الله
غفورا رحيما أى يجد
مغفرته و رحمته (عنده)
عند الكافر (فوفاه
حسابه) أى أعطاه جزاء
عمله وافيا كاملا ووحد بعد تقدم الجمع حملا على كل واحد من الكفار (والله سريع الحساب) لانه لا يحتاج معناه
الى عد وعقد ولا يشغله حساب عن حساب أو قريب حسابه لان ما هو آت قريب شبه ما يعمله من لا يعتقد الايمان ولا يتبع الحق من الاعمال
الصالحة التى يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم يخيب فى العاقبة أمله و يلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه
عطش يوم القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما رجاه و يجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه الى جهنم فيسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال
الله فيهم عاملة ناصبة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا قيل نزلت فى عتبة بن ربيعة بن امية كان يترهب ملتمسا الدين فى الجاهلية فلما جاء
الاسلام كفر (أو كظلمات

الله) أى حضور المساجد لاقامة الصلوات (واقام الصلاة) يعنى اقامة الصلاة فى وقتها لان من أخر الصلاة عن
وقتها لا يكون من مقيمى الصلاة روى سالم عن ابن عمر أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة فقام الناس وأغلقوا
حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت هذه الآية رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام
الصلاة (وايتاء الزكاة) يعنى المفروضة قال ابن عباس اذا حضر وقت أداء الزكاة لا يحبسونها (يخافون يوما
تتقلب فيه القلوب والابصار) يعنى ان هؤلاء الرجال وان بالغوا فى ذكر الله والطاعات فانهم مع ذلك وجلون
خائفون لعلمهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته قيل ان القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الابصار
وقيل تتقلب القلوب عما كانت عليه فى الدنيا من الشك الى اليقين وترفع عن الابصار الأغطية وقيل تتقلب
القلوب بين الخوف والرجاء فتخشى الهلاك وتطمع فى النجاة وتتقلب الابصار من هول ذلك اليوم من أى ناحية
يؤخذ بهم أمن ذات اليمين أم من ذات الشمال ومن أين يؤتون كتبهم أمن قبل اليمين أم من قبل الشمال وقيل
يتقلب القلب فى الجوف فيرتفع الى الحنجرة فلا ينزل ولا يخرج ويتقلب البصر فيشخص من هول الامر وشدته
(ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) يعنى انهم اشتغلوا بذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن
ما عملوا والمراد بالاحسن الحسنات كلها وهى الطاعات فرضها ونفلها وذكر الاحسن تنبيها على انه لا يجازيهم
على مساوى أعمالهم بل يغفرها لهم وقيل انه سبحانه وتعالى يجزيهم جزاء أحسن من أعمالهم على الواحد من
عشرة الى سبعمائة ضعف (و يزيدهم من فضله) يعنى انه سبحانه وتعالى يجزيهم بأحسن أعمالهم ولا يقتصر على
ذلك بل يزيدهم من فضله (والله يرزق من يشاء بغير حساب) فيه تنبيه على كمال قدرته وكمال جوده وسعة
احسانه وفضله قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) لما ضرب مثلا لحال المؤمن وانه فى الدنيا
والآخرة فى نور وانه فائز بالنعيم المقيم أتبعه بضرب مثل لاعمال الكفار وشبهه بالسراب وهو شبه ماء يرى نصف
النهار عند شدة الحر فى البرارى يظنه من رآه ماء فاذا قرب منه لم ير شيأ والقيعة القاع وهو المنبسط من الارض
وفيه يكون السراب (يحسبه) أى يتوهمه (الظمآن) أى العطشان (ماء حتى اذا جاءه) أى جاء ما قدر انه ماء
وقيل جاء الى موضع السراب (لم يجده شيأ) أى لم يجده على ما قدر وظنه ووجه التشبيه ان الذى يأتى به الكافر
من أعمال البر يعتقد ان له ثوابا عند الله وليس كذلك فاذا وافى عرصات القيامة لم يجد الثواب الذى كان يظنه
بل وجد العقاب العظيم والعذاب الاليم فعظمت حسرته وتناهى غمه فشبه حاله بحال الظمآن الذى
اشتدت حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب فى البر تعلق قلبه به فاذا جاءه لم يجده شيأ فكذلك حال الكافر
يحسب أن عمله نافعه فاذا احتاج الى عمله لم يجده أغنى عنه شيأ ولا نفعه (ووجد الله عنده) أى وجد الله
بالمرصاد وقيل قدم على الله (فوفاه حسابه) أى جزاء عمله (والله سريع الحساب) معناه انه عالم بجميع
المعلومات فلا تشغله محاسبة واحد عن واحد ثم ضرب للكفار مثلا آخر فقال تعالى (أو كظلمات) أعلم الله
سبحانه وتعالى أن أعمال الكفار ان كانت حسنة فهى كسراب بقيعة وان كانت قبيحة فهى كظلمات وقيل ان

فى بحر) أوهنا كا* وفى أو كصيب (لجى) عميق كثير الماء منسوب الى اللج وهو معظم ماء البحر (يغشاه) يغشى البحر أو من فيه أى يعلوه و يغطيه (موج) هو ما ارتفع من الماء (من فوقه موج) أى من فوق الموج موج آخر (من فوقه سحاب) من فوق الموج الاعلى سحاب (ظلمات) أى هذه ظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة البحر (بعضها فوق بعض) ظلمة الموج على ظلمة البحر وظلمة الموج على الموج وظلمة السحاب على الموج (اذا أخرج يده) أى الواقع فيه (لم يكد يراها) مبالغة فى لم يرها أى لم يقرب ان يراها فضلا عن ان يراها شبه أعمالهم أولا فى فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيأ ولم يكفه خيبة وكدا ان لم يجد شيأ كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله الى النار وشبهها ثانيا فى ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفى خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والامواج والسحاب (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) من لم يهده الله لم يهتد عن الزجاج فى الحديث خلق الله الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل (ألم تر) ألم تعلم يا محمد علما يقوم مقام العيان فى الايقان (أن الله يسبح له من فى السموات والارض والطير) عطف على من (صافات) حال من الطير أى يصففن أجنحتهن فى الهواء (كل قد علم صلاته وتسبيحه) الضمير فى علم لكل أو لله وكذا فى صلاته وتسبيحه والصلاة الدعاء ولم يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لا يكاد العقلاء يهتدون اليها (والله عليم بما يفعلون) لا يعزب عن علمه شئ (ولله ملك السموات والارض) لانه خالقهما ومن ملك شيأ فيتمليكه اياه (والى الله المصير) مرجع الكل (ألم تر أن الله يزجى) يسوق الى حيث يريد (سحابا) جمع سحابة دليله (ثم يؤلف بينه) وتذكيره للفظ أى يضم بعضه الى بعض (ثم يجعله ركاما) متراكما بعضه فوق بعض (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) من فتوقه ومخارجه جمع خلل كجبال فى جبل (وينزل) وينزل مكى ومدنى و بصرى (من السماء) لابتداء الغاية لان ابتداء الانزال من السماء (من جبال) من للتبعيض لان ما ينزله الله بعض تلك الجبال التى (فيها) فى السماء (من برد) للبيان أو الاوليان للابتداء والآخرة للتبعيض ومعناه انه ينزل البرد من السماء من جبال فيها وعلى الاول مفعول ينزل من جبال أى بعض جبال فيها ومعنى من جبال فيها من برد أن يخلق الله فى السماء جبال برد كما خلق فى الارض جبال حجر أو يريد الكثرة بذكر الجبال كما يقال فلان يملك جبالا من ذهب (فيصيب به) بالبرد (من يشاء) أى يصيب الانسان وزرعه (ويصرفه عمن يشاء) فلا يصيبه أو يعذب من يشاء و يصرفه عمن يشاء فلا يعذبه (يكاد سنا برقه) ضوءه (يذهب بالابصار) يخطفها اذهب يزيد على زيادة الا

معناه ان مثل أعمالهم فى فسادها و جهالتهم فيها كظلمات (فى بحر لجى) أى عميق كثير الماء ولجة البحر معظمه (يغشاه) أى يعلوه (موج من فوقه موج) أى متراكم (من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض) معناه ان البحر اللجى يكون قعره مظلمات جدا بسبب غمورة الماء فاذا ترادفت الامواج ازدادت الظلمة فاذا كان فوق الامواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى (اذا أخرج يده لم يكد يراها) أى لم يقرب أن يراها لشدة الظلمة وقيل معناه لم يرها الا بعد الجهد وقيل لما كانت اليد من أقرب شئ يراه الانسان قال لم يكد يراها و وجه التشبيه ان الله ذكر ثلاث أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل وقيل شبه بالبحر اللجى قلبه وبالموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة و بالسحاب الختم والطبع على قلبه قال أبى بن كعب الكافر يتقلب فى خمس من الظلم كلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره الى الظلمات يوم القيامة فى النار (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) قال ابن عباس من لم يجعل الله له دينا وايمانا فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا هادى له قيل نزلت هذه الآية فى عتبة بن ربيعة بن أمية كان يلتمس الدين فى الجاهلية ولبس المسوح فلما جاء الاسلام كفر وعاند والاصح أن الآية عامة فى حق جميع الكفار **قوله** عز وجل (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والارض والطير صافات) أى باسطات أجنحتهن فى الهواء قيل خص الطير بالذكر من جملة الحيوان لانها تكون بين السماء والارض فتكون خارجة عن حكم من فى السموات والارض (كل قد علم صلاته وتسبيحه) قيل الصلاة لبنى آدم والتسبيح لسائر الخلق وقيل ان ضرب أجنحة الطير صلاته وتسبيحه وقيل معناه ان كل مصل ومسبح علم الله صلاته وتسبيحه وقيل معناه كل مصل ومسبح منهم قد علم صلاة نفسه و تسبيحه (والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والارض) أى ان جميع الموجودات ملكه وفى تصرفه وعنه نشأت ومنه بدأت فهو واجد الوجود وقيل معناه ان خزائن المطر والرزق بيده ولا يملكها أحد سواه (والى الله المصير) أى والى الله مرجع العباد بعد الموت **قوله** تعالى (ألم تر أن الله يزجى) أى يسوق (سحابا) بامره الى حيث يشاء من أرضه و بلاده (ثم يؤلف بينه) أى يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها الى بعض (ثم يجعله ركاما) أى متراكما بعضه فوق بعض (فترى الودق) أى المطر (يخرج من خلاله) أى من وسطه وهو مخارج القطر (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) قيل معناه و ينزل من جبال من السماء وتلك الجبال من برد قال ابن عباس أخبر الله ان فى السماء جبالا من برد وقيل معناه و ينزل من السماء مقدار جبال فى الكثرة من برد * فان قلت ما الفرق بين من الاولى والثانية والثالثة * قلت من الاولى لابتداء الغاية لان ابتداء الانزال من السماء والثانية للتبعيض لان ما ينزله الله بعض تلك الجبال التى فى السماء والثالثة للتجنيس لان تلك الجبال من جنس البرد (فيصيب به) أى البرد (من يشاء) فيهلكه وأمواله (و يصرفه عمن يشاء) أى فلا يضره (يكاد سنا برقه) أى ضوء برق السحاب (يذهب بالأبصار) أى من شدة ضوئه و بريقه

(يقلب الله الليل والنهار) بصرفهما في الاختلاف طولا وقصرا والتعاقب (ان في ذلك) في ازجاء السحاب وانزال الودق والبرد وتقليب الليل والنهار (لعبرة لأولي الابصار) لذوي العقول وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته حيث ذكر تسبيح من في السموات والارض وما يطير بينهما ودعاءهم له وتسخير السحاب الى آخر ما ذكر فهي براهين لائحة على وجوده ودلائل واضحة على صفاته لمن نظر وتدبر ثم بين دليلا آخر فقال تعالى (والله خلق كل) خالق كل حمزة وعلى (دابة) كل حيوان يدب على وجه الارض (من ماء) أي من نوع من الماء مختص بتلك الدابة أومن ماء مخصوص وهو النطفة ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ومنها بهائم ومنها أناسي وهو كقوله يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل وهذا دليل على ان لها خالقا ومدبرا والا لم تختلف لاتفاق الاصل وانما عرف الماء في قوله وجعلنا من الماء كل شيء حي لان المقصود ثم ان أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء وانه هو الاصل وان تخللت بينه وبينها وسائط قالوا ان أول ما خلق الله الماء فخلق منه النار والريح والطين فخلق من النار الجن ومن الريح الملائكة ومن الطين آدم ودواب الارض ولما كانت الدابة تشمل المميز وغير المميز غلب المميز فاعطي ما وراءه حكمه كأن الدواب كلهم مميزون فمن ثم قيل (فمنهم من يمشي على بطنه) كالحية والحوت وسمي الزحف على البطن مشيا استعارة كما يقال في الامر المستمر قد مشى هذا الامر أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين (ومنهم من يمشي على رجلين) كالانسان والطير (ومنهم من يمشي على أربع) كالبهائم وقدم ما هو أعرف في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أوغيرها ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع (يخلق الله ما يشاء) كيف يشاء (ان الله على كل شيء قدير) لا يتعذر عليه شيء (لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء) واذا بلطفه ومشيئته (الى صراط مستقيم) الى دين الاسلام الذي يوصل الى جنته والآيات لالزام حجته لما ذكر انزال الآيات ذكر بعدها افتراق الناس الى ثلاث فرق فرقة صدقت ظاهرا وكذبت باطنا وهم المنافقون وفرقة صدقت ظاهرا وباطنا وهم المخلصون وفرقة كذبت ظاهرا وباطنا وهم الكافرون على هذا الترتيب وبدأ بالمنافقين فقال (ويقولون آمنا بالله وبالرسول) بالسنتهم (وأطعنا) الله والرسول (ثم يتولى) يعرض عن الانقياد لحكم الله ورسوله (فريق منهم من بعد ذلك) أي من بعد قولهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا (وما أولئك بالمؤمنين) أي المخلصين وهو اشارة الى القائلين آمنا وأطعنا لا الى الفريق المتولي وحده وفيه اعلام من الله بان جميعهم منتف عنهم الايمان لاعتقادهم ما يعتقد هؤلاء والاعراض وان كان من بعضهم فالرضا بالاعراض من كلهم

(يقلب الله الليل والنهار) أي يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما يأتي بالليل ويذهب بالنهار ويأتي بالنهار ويذهب بالليل (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الامر أقلب الليل والنهار * معنى هذا الحديث ان العرب كانوا يقولون عند النوازل والشدائد أصابنا الدهر ويذمونه في أشعارهم فقيل لهم لا تسبوا الدهر فان فاعل ذلك هو الله عز وجل والدهر مصرف تقع فيه التأثيرات كما تقع بكم وقوله تعالى (ان في ذلك) أي الذي ذكر من هذه الاشياء (لعبرة لأولي الأبصار) أي دلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله وتوحيده. قوله عز وجل (والله خلق كل دابة من ماء) أي من نطفة وأراد به كل حيوان يشاهد في الدنيا ولا يدخل فيه الملائكة والجن لانا لا نشاهدهم وقيل ان أصل جميع الخلق من الماء وذلك ان الله خلق ماء فجعل بعضه ريحا ونورا فخلق منه الملائكة وجعل بعضه نارا فخلق منه الجن وجعل بعضه طينا فخلق منه آدم (فمنهم من يمشي على بطنه) أي كالحيات والحيتان والديدان ونحو ذلك (ومنهم من يمشي على رجلين) يعني مثل بني آدم والطير (ومنهم من يمشي على أربع) يعني كالبهائم والسباع * فان قلت كيف قال خلق كل دابة من ماء مع أن كثيرا من الحيوانات يتولد من غير نطفة * قلت ذلك المخلوق من غير نطفة لا بد أن يتكون من شيء وذلك الشيء أصله من الماء فكان من الماء * فان قلت فمنهم من يمشي ضمير العقلاء فلم استعمل في غير العقلاء * قلت ذكر الله تعالى ما لا يعقل مع من يعقل فغلب اللفظ اللائق بمن يعقل لان جعل الشريف أصلا والخسيس تبعا أولى * فان قلت لم قدم ما يمشي على بطنه على غيره من المخلوقات * قلت قدم الاعجب والاعرف في القدرة وهو الماشي بغير آلة المشي وهي الارجل والقوائم ثم ذكر ما يمشي على رجلين ثم ما يمشي على أربع فان قلت لم اقتصر على ذكر الاربع وفي الحيوانات ما يمشي على أكثر من أربع كالعناكب والعقارب والرتيلا وماله أربع وأربعون رجلا ونحو ذلك * قلت هذا القسم كالنادر فكان ملحقا بالأغلب وقيل ان هذه الحيوانات اعتمادها على أربع في المشي والباقي تبع لها (يخلق الله ما يشاء) أي مما يعقل ولا يعقل (ان الله على كل شيء قدير) أي هو القادر على الكل العالم بالكل المطلع على الكل يخلق ما يشاء كما يشاء لا يمنعه مانع ولا دافع (لقد أنزلنا آيات مبينات) يعني القرآن هو المبين للهدى والاحكام والحلال والحرام (والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم) يعني الى دين الاسلام الذي هو دين الله وطريقه الى رضاه وجنته قوله تعالى (ويقولون) يعني المنافقين (آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) أي يقولونه بالسنتهم من غير اعتقاد (ثم يتولى فريق منهم) أي يعرض عن طاعة الله ورسوله (من بعد ذلك) أي من بعد قولهم آمنا ويدعو الى غير حكم الله قال الله تعالى (وما أولئك بالمؤمنين) نزلت هذه الآية في بشر المنافق كان بينه وبين يهودي خصومة في أرض فقال اليهودي نتحاكم الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق بل نتحاكم الى كعب بن الأشرف فان محمدا يحيف فانزل الله هذه الآية

